من وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم

المجلد الثانى

الأجزاء من ١١ — ٢٠

شرح وتعليق

طه عبد الله العفيفى

دار التراث العربى

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ — ١٩٨٥ م

جميع حقوق الطبع والنقل والتصوير
محفوظة للناشر

مطابع دار التراث العربي
٩٢٦١٤٥ - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

الى الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه الذى قال متحدثا عن نفســـه :

« أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر •• وما من نبى يومئذ : آدم فمن سواه الا تحت لوائى ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ، وأنا أول شافع وأول مشفع »[1] .

أقدم « المجلد الثانى » من وصاياه صلوات الله وسلامه عليـــه ••

وكلى أمل فى أن ينفع الله تعالى به •• وأن يجعله سبحانه وتعالى حجة لنا لا علينا •• آمين .

المـــؤلف

* * *

---

(١) أخرجه أحمـــد وابن ماجه والترمذى وقـــال : حسن صحيح . عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أخى المسلم .. أختى المسلمة :

والآن .. وبعد أن قرأتما « المجلد الأول » من « وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم » ، من الجزء الأول الى الجزء العاشر ، الذى هو كما علمتما من الوصية الأولى الى الوصية الرابعة والثلاثين . والذى أرجو أن تكونا قد انتفعتما ونفعتما بكل ما فيه من آثار وأخبار وأشعار موضوعيـــة ..

اليكما كذلك « المجلد الثانى » من الوصايا ، الذى هو كما ستريا ان شاء الله تعالى من الجزء الحادى عشر الى الجزء العشرين ، ومن الوصية الخامسة والثلاثين الى الوصية التاسعة والخمسين ..

ولسوف تريان ان شاء الله تعالى ، أننى قد استطعت بتوفيق من الله تعالى — فى هذا المجلد الثانى — أن أضع النقط فوق الحروف ، وذلك بتركيزى على بعض المواضيع الهامة التى كلنا كمسلمين ومسلمات فى أشد الحاجة الى معرفتها والوقوف على أبعادها .. حتى نكون من المنفذين لمـــا فيـــها من أوامر ، والمجتنبين لمـــا فيـــها من منهيات .. وذلك من خلال شرحى — السهل الميسر — لتلك الوصايا المحمدية التى أسأل الله تعالى أن ينفعنا بها كذلك حتى نكون ان شاء الله تعالى من هؤلاء الموفقين المذكرين لغيرهم بها .. فنكون بذلك من الذين قال الله تعالى فيهم :

« ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين »[1] .

---

(١) فصلت : ٣٣

وحتى نكون بذلك كذلك ــ ان شاء الله ــ من المخلصين الموفقين الذين سيهدى الله تعالى على أيديهم .. كما يشير الى هذا الحديث الشريف الذى يقول فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه لمعاذ بن جبل رضى الله عنه : « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم »[1] .

وفى الحديث يقول صلوات الله وسلامه عليه مرغبا فى تعليم الناس الخير :

« ان الله سبحانه وملائكته وأهل سماواته وأرضه حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت فى البحر : ليصلون على معلم الناس الخير »[2] .

فليكن هذا هو هدفنا جميعا حتى نفوز بهذا الخير الذى ما مثله خير .. وحتى نكون بذلك كذلك من الأحياء المشار اليهم فى قول على كرم الله وجهه :

ما الفخر الا لأهل العلم انهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرىء ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حيا به أبدا ... فالناس موتى وأهل العلم أحياء

ولهذا .. فقد قال أيضا كرم الله وجهه : « من أمضى يومه ، فى غير حق قضاه ، أو فرض أداه ، أو مجد بناه ، أو حمد حصله ، أو علم اقتبسه : فقد عق يومه ، وظلم نفسه » .

* * *

هذا .. واذا كنت أقدم اليكما الآن « المجلد الثانى » الذى أرجو أن تجدا فيه ضالتكما من الحكمة .. التى هى « ضالة المؤمن »[3] .

---

(١) أخرجه أحمد من حديث معاذ ، وفى الصحيحين من حديث سهل ابن سعد انه قال ذلك لعلى كرم الله وجهه .

(٢) أخرجه الترمذى من حديث أبى أمامة وقال : غريب . وفى نسخة حسن صحيح .

(٣) كما ورد فى نص حديث شريف .

فاننى سأقدم اليكما قريبا ان شاء الله تعالى « المجلد الثالث » ، من الجزء الحادى والعشرين الى الجزء الثلاثين ، ومن الوصية الستين الى الوصية المـــائة .. والذى سيكون ان شاء الله تعالى خاتمة لهـــذا الخير العظيم .. الذى أسأل الله تعالى أن يعيننى على تحقيقه حتى ينفع الله تعالى به الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. والذى أرجو كذلك أن يكون ثقلا فى ميزانى وميزان والدى « السيد عبد الله العفيفى » رحمه الله تعالى الذى أعدنى لهذا الخير العظيم منذ نعومة أظفارى ..

فادعوا الله تعالى لى حتى أتمم هـــذا الخير .. وحتى أكون عند حسن ظنكما بى ..

والله أسأل أن يتقبل منى ومنكما هـــذا الدعاء ..

انه تعالى على كل شىء قدير وبالاجابة جدير ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

المـــؤلف

* * *

الجزء الحادى عشر

الوصية الخامسة والثلاثون

عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال :

« سافروا تصحوا ، واغزوا تستغنوا » ..

(أخرجه أحمد وفى سنده ابن لهيعة ، لكن صححه المناوى ، وحسنه السيوطى) .

* * *

فكن أخا الاسلام :

منفذا لهذه الوصية العظيمة التى كما قرأت فى نصها ، لو نفذناها لكنا أصحاء فى أجسامنا وقلوبنا وعقولنا ، ولكانت النتيجة الحتمية كذلك هى الاستغناء عن غيرنا من الأعداء أو الأصدقاء .

وهذا هو ما نريد فى شرحنا لتلك الوصية المحمدية ، أن نقف عليه ، وباقتناع منطقى يدفعنا بعد ذلك أو مع ذلك الى السفر ، والغزو .

ولكى نبدأ الشرح — بتوفيق الله تعالى — فاننى أرى أولا أن نقف ، على :

تعريف السفر :

فالسفر لغة : قطع المسافة مطلقا ، وشرعا : قطع مسافة تتغير بها الأحكام ، من : قصر الصلاة ، واباحة الفطر فى رمضان ، وامتداد مدة المسح على الخفين ، وسقوط الجمعة والعيدين والأضحية ، وحرمة الخروج على المرأة الحرة بلا محرم أو زوج .

والذى يعنينا الآن فى هذا الباب ، هو السفر اللغوى [1] ، الذى مضمونه الانتقال من بلد الى بلد ، أو من وطن الى وطن ، فاليك أولا وتمهيدا لذلك :

---

(١) أما السفر الشرعى فسندور حوله بعد ذلك .

أقسام السفر :

والسفر ثلاثة أقسام :

سفر طاعة : كالحج والجهاد .

وسفر مباح : كالتجارة .

وسفر معصية : كقطع الطريق .

وفى احياء علوم الدين قسم ــ الامام الغزالى رحمه الله تعالى ــ السفر الى أربعة أقسام :

القسم الأول : السفر فى طلب العلم ، وهو اما واجب ، واما نفل ، وذلك بحسب كون العلم واجبا أو نفلا ...

القسم الثانى : السفر للحج أو الجهاد ، وهو سفر العبادة ..

القسم الثالث : السفر للهرب من سبب مشوش للدين ..

القسم الرابع : السفر هربا مما يقدح فى البدن ، كالطاعون ، أو فى المال كغلاء السعر أو ما يجرى مجراه ولا حرج فى ذلك ..

ثم يقول بعد ذلك بايجاز كبير :

فهذه أقسام الأسفار ، وقد خرج منه :

أن السفر ينقسم الى مذموم ، والى محمود ، والى مباح ، والمذموم ينقسم الى حرام ، كاباق ــ أى هرب ــ العبد ، وسفر العاق لوالديه أو لأحدهما . والى مكروه : كالخروج من بلد الطاعون . والمحمود ينقسم الى واجب : كالحج وطلب العلم الذى هو فريضة على كل مسلم[1] ، والى مندوب اليه : كزيارة العلماء وزيارة مشاهدهم .

وفى القرطبى ــ وحول تفسير الآية رقم ١٠٠ من سورة النساء فى المسألة الخامسة ــ يقول :

قسم العلماء رضى الله عنهم الذهاب فى الأرض قسمين : هربا ، وطلبا :

فالأول وهو الهرب ينقسم الى ستة أقسام :

الأول : الهجرة وهى الخروج من دار الحرب الى دار الاسلام ، وكانت فرضا فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذه الهجرة باقية مفروضة الى يوم القيامة ، والتى انقطعت بالفتح وهى القصد الى النبى صلى الله عليه وسلم حيث كان ، فان بقى فى دار الحرب عصى ، ويختلف فى حاله .

---

(١) قال العلماء : ومسلمة .

الثـــانى : الخروج من أرض البدعة ، قال ابن القاسم : سمعت مالكا يقول : لا يحل لأحد أن يقيم بأرض يسب فيها السلف :

قال ابن العربى : وهذا صحيح ، فان المنكر اذا لم تقدر أن تغيره فزل عنه ، قال الله تعالى : **« واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنـــا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، واما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين »**[١] .

الثالث : الخروج من أرض غلب عليها الحرام ، فان طلب الحلال فرض على كل مسلم .

الرابع : الفرار من الأذية فى البدن ، وذلك فضل من الله أرخص فيه ، فاذا خشى على نفسه فقد أذن الله له فى الخروج عنه والفرار بنفسه ايخلصها من ذلك المحذور . وأول من فعله ابراهيم عليه السلام ، فانه لمـــا خاف من قومه ، قال : **« انى مهاجر الى ربى »**[٢] وقـــال : **« انى ذاهب الى ربى سيهدين »**[٣] وقال الله تعالى مخبرا عن موسى عليـــه الســـلام : **« فخرج منها خائفا يترقب »**[٤] .

الخامس : خوف المرض فى البلاد الوخمة[٥] والخروج منها الى الأرض النزهة[٦] ، وقد أذن النبى صلى الله عليه وسلم للرعاة حين استوخموا المدينة أن يخرجوا الى المسرح[٧] فيكونوا فيه حتى يصحوا .

وقد استثنى من ذلك الخروج من الطاعون ، فمنع الله سبحانه وتعالى منه بالحديث الصحيح عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، الذى يقول فيـــه :

« ان هذا الوجع أو السقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم ، ثم بقى بعد فى الأرض فيذهب المرة ويأتى الأخرى فمن سمع به فى أرض فلا يقدمن عليه ، ومن وقع بأرض وهو بها فلا يخرجنه الفرار منه » الحديث متفق عليه واللفظ لمسلم .

السادس : الفرار خوف الأذية فى المـــال ، فان حرمة مال المسلم كحرمة دمه ، والأهل مثله وأوكد .

---

(١) الانعام : ٦٨ (٢) العنكبوت : ٢٦
(٣) الصافات : ٩٩ (٤) القصص : ٢١
(٥) اى التى فيها الوباء . (٦) اى التى لا وباء فيها .
(٧) اى الى الفضاء المتشبع بالهواء النقى .

وأما قسم الطلب ، فينقسم الى قسمين :

طلب دين ، وطلب دنيا ، فأما طلب الدين فيتعدد أنواعه الى تسعة أقسام :

الأول : سفر العبرة ، قال الله تعالى :

« أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم »[١] وهو كثير ، ويقال : ان ذا القرنين انما طاف الأرض ليرى عجائبها ، وقيل : لينفذ الحق فيها .

الثانى : سفر الحج . والأول — وهو سفر العبرة — وان كان ندبا ، فهذا فرض .

الثالث : سفر الجهاد وله أحكامه[٢] .

الرابع : سفر المعاش ، فقد يتعذر على الرجل معاشه مع الاقامة فيخرج فى طلبه لا يزيد عليه ، من صيد أو احتطاب ، أو احتشاش ، فهو فرض عليه .

الخامس : سفر التجارة والكسب الزائد على القوت وذلك جائز بفضل الله سبحانه وتعالى ، قال الله تعالى : **« ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم »**[٣] يعنى التجارة ، وهى نعمة من الله بها فى سفر الحج ، فكيف اذا انفردت .

السادس : فى طلب العلم ، وهو مشهور ، — ولسوف نقف بعد ذلك على فضله — .

السابع : قصد البقاع ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : مسجدى هـذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى » .

الثامن : قصد الثغور للرباط بها وتكثير سوادها للذب عنها .

التاسع : زيارة الاخوان فى الله تعالى .

* * *

---

(١) الروم : ٩ ، فاطر : ٤٤

(٢) ويستطيع الأخ القارىء أن يقف على تلك الأحكام فى كتب التفسير والحديث .

(٣) البقرة : ١٩٨

والآن وبعد أن وقفنا على تعريف السفر وأهم أقسامه ، وقبل أن أواصل شرح المقصود من تلك الوصية العظيمة ، أرى أن أذكر الأخ القارىء ببعض الآيات القرآنية ، والأحاديث الشريفة ، والآثار الموضوعية المرغبة في أهم أنواع تلك الأسفار المحمودة التى ان كان من أهلها : صح جسده ، وكثر ماله ، ونمى عقله ، وكان محبوبا عند الله ، وعند الناس ، ولا سيما اذا كان متوجا كل هذا بالايمان القويم ، والخلق الكريم ، فاليك :

فضل طلب العلم النافع

قال الله تعالى : **« شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط »**(١) .

فقد بدأ الله سبحانه وتعالى بنفسه ، وثنى بالملائكة ، وثلث بأهل العلم . وناهيك بهذا شرفا وفضلا ، وجلاء ونبلا .

وقال الله تعالى : **« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »**(٢) .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : « للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة ، ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام » .

وقال تعالى : **« قال الذى عنده علم من الكتاب**(٣) **أنا آتيك به »** تنبيها على أنه اقتدر بقوة العلم .

وفى فضل العلم ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الأنبياء » رواه أبو داوود والترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى الدرداء .

« من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ويلهمه رشده » متفق عليه من حديث معاوية دون قوله : ويلهمه رشده . وهذه الزيادة عند الطبرانى فى الكبير .

« يستغفر للعالم ما فى السماوات والأرض » . بعض حديث أبى الدرداء المتقدم الذى رواه أبو داوود والترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه .

---

(١) آل عمران : ١٨ (٢) المجادلة : ١١

(٣) وهو آصف بن برخيا ، وقد كان وزيرا لسليمان عليه السلام — والآية من سورة النمل : ٤٠

وأى منصب يزيد على منصب من تشغل ملائكة السماوات والأرض بالاستغفار له ، فهو مشغول بنفسه وهم مشغولون بالاستغفار له .

« فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى » رواه الترمذى من حديث أبى أمامة وقال : حسن صحيح .

وفى الآثار :

يقول على كرم الله وجهه ورضى الله عنه لكميل : « يا كميل .. العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالانفاق » .

وقال على أيضا :

« العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد ، واذا مات العالم ثلم فى الاسلام ثلمة لا يسدها الا خلف منه » .

وقال أيضا رضى الله عنه ، نظما :

ما الفخر الا لأهل العلم انهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرىء ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حيا به أبدا ... الناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال أبو الأسود الدؤلى : ليس شىء أعز من العلم ، الملوك حكام على الناس ، والعلماء حكام على الملوك :

ان الأكابر يحكمون على الورى ... وعلى الأكابر يحكم العلماء

وقال أيضا أبو الأسود ، نظما :

العلم زين وتشريف لصاحبه ... فاطلب هديت فنون العلم والأدبا
كم سيد بطل آباؤه نجب ... كانوا الرؤوس فأمسى بعدهم ذنبا
ومقرف خامل الآباء ذى أدب ... نال المعالى بالآداب ، والرتبا
العلم كنز وذخر لا فناء له ... نعم القرين اذا ما صاحب صحبا
قد يجمع المال شخص ثم يحرمه ... عما قليل فيلقى الذل والحوبا
وجامع المال مغبوط به أبدا ... ولا يحاذر منه الفوت والسلبا
يا جامع العلم نعم الذخر تجمعه ... لا تعدلن به درا ولا ذهبا

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : خير سليمان بن داوود عليهما السلام بين العلم والمال والملك ، فاختار العلم ، فأعطى المال والملك معه[1] .

---

(١) اى مع العلم .

وسئل ابن المبارك رضى الله عنه : من الناس ؟ فقال : العلماء ، قيل : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد ، قيل : فمن السفلة ؟ قال : الذين يأكلون الدنيا بالدين .

وقال بعضهم : ان العلم قبس من نور الله ، وقد خلق الله النور كشافا مبصرا ولادا للحرارة والقوة ، وجعل العلم مثله وضاحا للخير ، فضاحا للشر ، يولد فى النفوس حرارة وفى الرؤوس شهامة .

وقال الامام الشافعي رضى الله عنه : ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم ، فهو نور يهتدى به الحائر .

وقال الشاعر فى هذا المعنى :

بالعلم تحيا نفوس قط ما عرفت ... من قبل ما الفرق بين الصدق والمين
العلم للنفس نور يستدل به ... على الحقائق مثل النور للعين

وقال أيضا :

ولولا العلم ما سعدت نفوس ... ولا عرف الحلال من الحرام
فبالعلم النجاة من المخازى ... وبالجهل المذلة والرغام[1]
هو الهادى الدليل الى المعالى ... ومصباح يضىء به الظلام

ولهذا ، ومن أجل كل هذا ، فقد رغب سبحانه وتعالى فى طلب العلم ، فقال :

« فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين »[2] .

كما رغب النبى صلى الله عليه وسلم أيضا فى طلبه ، فقال : « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

و « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا الى الجنة » رواه مسلم عن أبى هريرة .

و « من سلك طريقا يبتغى فيه علما سهل الله له طريقا الى الجنة ، وان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما صنع ، وان العالم ليستغفر له من فى السماوات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وان العلماء ورثة الأنبياء ، وان الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، انما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » رواه أبو داوود والترمذى .

---

(١) الرغام بالفتح : التراب ، وأرغم الله أنفه ، أى الصقه بالتراب .
(٢) التوبة : ١٢٢

وقد رحل جابر بن عبد الله من المدينة الى مصر مع عشرة من الصحابة ، فساروا شهرا فى حديث بلغهم عن عبد الله بن أنيس الأنصارى يحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعوه .

وكان سعيد بن المسيب يسافر الأيام فى طلب الحديث الواحد .

وكان الشعبى رحمه الله يقول : لو سافر رجل من الشام الى أقصى اليمن فى كلمة تدله على هدى ، أو ترده عن ردى ، ما كان سفره ضائعا .

فاذكر كل هذا أخا الاسلام :

واطلب العلم ولا تكسل فما ... أبعد الخيرات عن أهل الكسل
لا تقل قد ذهبت أربابه ... كل من سار على الدرب وصل
فى ازدياد العلم ارغام العدا ... وجمال العلم اصلاح العمل

وحسبك أنك ستكون بهذا من هؤلاء الموفقين الذين نفروا : **« ... ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون »**[1] .

* * *

فضل الحج والجهاد

والحج والجهاد فى سبيل الله تعالى : من أفضل الأعمال التى ان تقرب بها العبد الى الله تعالى ، كان من كبار الموفقين :

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سئل النبى صلى الله عليه وسلم : « أى العمل أفضل ؟ قال : ايمان بالله ورسوله . قيل : ثم ماذا ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله . قيل : ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور » متفق عليه .

والحج المبرور : هو الذى لا يرتكب صاحبه فيه معصية .

قال فى احياء علوم الدين :

« ويدخل فى جملته ، زيارة قبور الأنبياء عليهم السلام ، وزيارة

---

(١) التوبة : ١٢٢

قبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء ، والأولياء ، وكل من يتبرك بمشاهدته فى حياته يتبرك بزيارته بعد وفاته[١] .

ويجوز شد الرحال لهذا الغرض ، ولا يمنع من هذا ، قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى » .

ثم يقول فى الاحياء مواصلا كلامه :

لأن ذلك فى المساجد ، فانها متماثلة بعد هذه المساجد ، والا فلا فرق بين زيارة قبور الأنبياء ، والأولياء ، والعلماء فى أصل الفضل ، وان كان يتفاوت فى الدرجات تفاوتا عظيما ، بحسب اختلاف درجاتهم عند الله .

ثم أيضا بعد ذلك يقول : وبالجملة زيارة الأحياء أولى من زيارة الأموات ، والفائدة من زيارة الأحياء طلب بركة الدعاء ، وبركة النظر اليهم ، فان النظر الى وجوه العلماء والصلحاء عبادة ، وفيه أيضا حركة للرغبة فى الاقتداء بهم ، والتخلق بأخلاقهم وآدابهم ، هذا سوى ما ينتظر من الفوائد العلمية المستفادة من أنفاسهم وأفعالهم ، كيف لا ومجرد زيارة الاخوان فى الله فيه فضل عظيم ، وثواب كبير :

فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أن رجلا زار أخا له فى قرية أخرى فأرصد الله تعالى على مدرجته[٢] ملكا ، فلما أتى عليه ، قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخا لى فى هذه القرية . قال : هل لك عليه من نعمة تربها[٣] عليه ؟ قال : لا ، غير أنى أحببته فى الله تعالى ، قال : فانى رسول الله اليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه » رواه مسلم .

وفى التوراة : « سر أربعة أميال زر أخا فى الله » .

ثم يقول فى الاحياء :

وأما البقاع فلا معنى لزيارتها سوى المساجد الثلاثة ، وسوى

---

(١) هذا على شريطة أن تكون الزيارة زيارة شرعية : لا يطوف فيها حول القبر ، ولا يسأل صاحب القبر من دون الله ، لأن فعل هذا قد يؤدى الى الشرك بالله — والعياذ بالله — مع ملاحظة أنه لا طواف فى الشرع الا حول الكعبة فقط ، ولا تقبيل الا للحجر الأسود .

(٢) المدرجة : اى الطريق .

(٣) اى تقوم بها وتسعى لصلاحها .

الثغور للرباط بها ، فالحديث ظاهر فى أنه لا تشد الرحال لطلب بركة البقاع الا الى المساجد الثلاثة ..

وقد خرج ابن عمر من المدينة قاصدا بيت المقدس حتى صلى فيه الصلوات الخمس ، ثم كر راجعا من الغد الى المدينة ..

ومن أهم بركات الحج وأسراره ، ما أشار اليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى تلك الأحاديث الشريفة ، التى منها قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « تابعوا بين الحج والعمرة ، فانهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد ، والذهب ، والفضة ، وليس للحجة المبرورة ثواب الا الجنة » أخرجه الترمذى فى سننه بسنده عن عبد الله بن مسعود .

« من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » أخرجه البخارى فى صحيحه بسنده عن أبى هريرة .

« ان الحاج حين يخرج من بيته لم يخط خطوة الا كتب الله له بها حسنة ، وحط عنه بها خطيئة ، فاذا وقفوا بعرفات ، باهى الله بهم ملائكته ، يقول : انظروا الى عبادى ، أتونى شعثا غبرا ، أشهدكم أنى غفرت ذنوبهم وان كانت عدد قطر السماء ، ورمل عالج[1] .

واذا رمى الجمار لم يدر أحد ما له حتى يتوفاه الله تعالى يوم القيامة ، واذا حلق شعره فله بكل شعرة سقطت من رأسه نور يوم القيامة ، فاذا قضى آخر طوافه بالبيت خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » رواه ابن حبان فى صحيحه عن ابن عمر .

فاحرص أخا الاسلام على السفر الى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج التى فرضها الله عليك مرة واحدة فى العمر .

وحسبك بهذا أنك ستفوز بتلك البركات التى وقفت عليها فى الأحاديث الشريفة السابقة ، بل وحسبك أن تعلم أنك هناك ستلتقى باخوانك المسلمين من كل بقاع الأرض ، والذين تستطيع معهم — فى هذا المؤتمر الاسلامى الكبير — بحث جميع المشاكل ، والمصالح الخاصة بهم وببلادهم .

ولو وفق رؤساء المسلمين للاجتماع كل عام هناك ، لبحث كل ما يتعلق بأوطانهم من مؤامرات ، وخلافات : لاستطاعوا — ببركة هذا

---

(١) جمعه : « عوالج الرمال » وهو ما تراكم من الرمل ودخل بعضه فى بعض .

البيت العتيق الذى « جعله الله مثابة للناس وأمنا »[١] ـــ أن يتفقوا على حلول لتلك المشاكل ، وأن يتحدوا جميعا فى مواجهة تلك المؤامرات التى تحاك ضدهم وضد دينهم وأوطانهم ومواطنيهم ..

وأما عن الجهاد فى سبيل الله : فهو ذروة سنام الاسلام ، كما جاء فى حديث من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد أمر الله تعالى المؤمنين بأن يخرجوا فى سبيل الله لمواجهة أعدائهم ، فقال : **« انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله »**[٢] .

وقال تعالى : **« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما »**[٣] .

وفى السنة ، ورد :

عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، وروحة يروحها العبد فى سبيل الله تعالى أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها » متفق عليه .

وعن سلمان رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وان مات فيه أجرى عليه عمله الذى كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان » رواه مسلم .

وعن عثمان رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « رباط يوم فى سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل » رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

فاذكر كل هذا ، وكن على أتم استعداد للخروج فى سبيل الله لرفع راية الاسلام فى أى مكان على وجه الأرض : حتى اذا ما دعا داعى الجهاد ، كنت من المؤمنين الذين اشترى الله تعالى منهم

---

(١) الآية : ١٢٥ من البقرة بلفظ : **« واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامنا »** .

(٢) التوبة : ٤١ (٣) النساء : ٩٥

« **أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** »[١] وكنت كذلك من الذين سيفوزون ان شاء الله تعالى باحدى الحسنيين : النصر أو الاستشهاد .

وحذار أن تكون كهذا الذى عناه الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى قوله : « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق » رواه مسلم عن أبى هريرة .

* * *

فضل سفر التجارة والكسب

وحسب الأخ القارىء اذا أراد أن يقف على فضل السعى على الرزق ، أن يعلم أن الله تعالى قدم الذين يضربون فى الأرض ابتغاء لفضله على الذين يقاتلون فى سبيله ، فقال : « **وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله** »[٢] .

وهذا شرف عظيم للعاملين .

وقد أمر الله تبارك وتعالى بالسعى على الرزق فقال : « **فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، واليه النشور** »[٣] .

وفى الحديث الشريف يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه ويستغنى به عن الناس خير له من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه » ورد فى الصحيحين عن أبى هريرة .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يقول : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ، ويقول : اللهم ارزقنى ، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة . وكان يقول : « ما من موضع يأتينى الموت فيه أحب الى من موطن أتسوق فيه لأهلى أبيع وأشترى » .

ولهذا : فقد قال الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه مشيرا الى أهمية السفر وايجابياته :

ما فى المقام لذى عقل وذى أدب
من راحة فدع الأوطان واغترب
سافر تجد عوضا عمن تفارقه
وانصب[٤] فان لذيذ العيش فى النصب

---

(١) التوبة : ١١١
(٢) المزمل : ٢٠
(٣) الملك : ١٥
(٤) النصب : أى التعب .

انى رأيت وقوف المـــاء يفســده
ان ســال طاب وان لم يجــر لم يطب
الأسد لولا فراق الغاب[١] ما افترست[٢]
والســهم لولا فراق القــوس لم يصب
والشمس لو وقفت فى الفلك[٣] دائمة
لملهــا النــاس من عجم ومن عرب
والتبر[٤] كالترب[٥] ملقى فى أماكنــه
والعــود فى أرضــه نوع من الحطب
فان تغــــرب هــذا عــز مطلبــه
وان تغــــرب ذاك عــــز كالذهب

فاذكر كل هــذا أخا الاسلام ، وكن من الآخذين بأســباب طلب الرزق ، وحسبك ما أشار اليه سبحانه وتعالى ، فى قوله : **« ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة »**[٦] .

* * *

تعليق حول ما وقفنا عليــه :

وما أريد أن أعلق به ، هو أننا اذا كنا قد وقفنا على تعريف السفر ، وفضل السفر فى طلب العلم النافع ، وفضل السفر الى مكة لأداء فريضة الحج ، وفضل السفر الى الثغور للرباط بها ، وفضل سفر التجارة والكسب .

فاننى أريد بعد ذلك أن أقول شيئا ، وهو أن السفر المباح هذا ، بالاضافة الى ما فيه من الفوائد الدنيوية والأخروية .

فيه كذلك من الفوائد الصحية الكثير والكثير ، لأن السفر بطبيعته مبنى على الحركة ، والحركة فى حد ذاتها من أهم الأسباب التى تعود على الانسان بالصحة والعافية .

وذلك لأن الجسم المتحرك ، هو الذى تنشط جميع أعضائه ، ويستطيع صاحبه أن يكون ايجابيا فى جميع مراحل حياته .

---

(١) جمع غابة .
(٢) أى ما اصطادت .
(٣) الفلك : بتسكين اللام : جمع فلك وهو مدار النجوم .
(٤) التبر : أى الذهب فى ترب . معدنه .
(٥) أى التراب .
(٦) أى : وسعة فى الرزق — والآية من سورة النساء : ١٠٠

أما الجسم الخامل ، فان صاحبه سيظل طوال حياته مريضا ، ومتخلفا فى جميع دروب الحياة الدنيوية ، التى هى السبيل الى تحقيق السعادة الأخروية ، ان استطاع الانسان أن يغتنم كل لحظة فيها ، بما يقدمه من أعمال صالحة تنفعه هناك : « **يوم ينظر المرء ما قدمت يداه** »[1] .

ولله در على رضى الله عنه ، فلقد قال : « من أمضى يومه فى غير حق قضاه ، أو فرض أداه ، أو مسجد بناه ، أو حمد حصله ، أو علم اقتبسه : فقد عق يومه وظلم نفسه » .

وقد يكون السبب المباشر ، فى الكسل أو عدم الحركة الايجابية : هو كثرة الطعام والشراب ، الذى هو أيضا الأساس غالبا فى كثير من الأمراض :

فان الـــداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

والى هــذا يشير الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله : « المعدة بيت الداء » ، وقوله : « ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطن ، بحسب ابن آدم أكيلات يقمن صلبه ، فان كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » . رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه .

ويقول لقمان الحكيم عليه السلام ، لولده : « يا بنى اذا امتلأت المعدة ، نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة » .

ولهذا : فقد رأيت — والشىء بالشىء يذكر — أن أذكر ببعض الحقائق الطبية[2] المتعلقة بأهمية الحركة ونتائجها الايجابية ، حتى ننشط ولا نكسل ، وحتى يتحقق المعنى المراد من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « سافروا تصحوا » .

فقد ورد فى الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أخشى ما خشيت على أمتى كبر البطن ومداومة النوم والكسل »[3] .

* * *

---

(١) النبأ : ٤٠

(٢) كما فى كتاب ارشاد الانسان الى صحة الأبدان ، تأليف المتوكل على الله عابدين خير الله .

(٣) رواه الدارقطنى عن جابر رضى الله عنه .

وأول تلك الحقائق الطبية ، عن :

منشـــأ الكســـل

وخلاصة ما قيل فى هـــذا ، هو أن منشأ الكسل يرجع الى عدم تربية الأبناء بتحسين أحوالهم وتهذيب أخلاقهم ، وتعويدهم من الصغر على الأشغال والتجلد على المشاق وتدريبهم على اكتساب فضائل الرجال وهمة الأبطال ، وتنوير عقولهم وارشادهم لمـــا فيـــه صحة أبدانهم وحفظ أمور دينهم ، خصوصا بترك محبة شهوة البطن بحيث أن الطفل لا يجعلها نهاية بغيته ومركز دائرة مرغوبه ، لأنها تدل على الدناءة وقلة العقل والطيش ولا يتمتع صاحبها بالعيش الهنىء وتكون سببا لضعف الهمة وقلة المروءة ..

ولهذا ، فان الانسان اذا كان عفيف البطن سيكون متصفا بالخصال الآتيـــة :

لا يطرأ عليـــه ضرر فى المعدة وفقد الصحة .

يكون بعيـــدا عن الشره وارتكاب الدنـــاءة .

يكون محبوبا عند الناس لقناعته وعفة نفسه .

يكون مالكا لنفسه الأمارة بالسوء ، رادعا لها عن مسيرها فى سبيل الشهوات .

يكون متمتعا بنور العقل وقوة الادراك وصفاء الذهن وحضور البديهـــة .

يكون قويا على الحركة وسرعة العمل لخفة جسمه وسلامة بطنه وغير ذلك من الفوائد الصحية والخصال الحميدة .

هذا : ولا يخفى أن الكسالى قد يكونون اما نحفاء الأجسام ضعاف الأصوات ، أو ضخام الأبدان متراخين تقعدهم كثرة الشحم عن المشى وسرعة الحركة ، وما أحسن قول سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « اياكم والبطنة فانها ثقل فى الحياة ، نتن فى الممات » كيف لا وأكثر من يتصف بها تراهم منغصى العيش محتاجين الدواء والطبيب لأن الأمراض والآفات العادية التى يقوى عليها غيرهم من الناس تتغلب عليـــهم لضعف كليتهم وفساد صحتهم .

ومن الحكمة الجزيلة الفائدة على ردع النفس الخبيثة عن تجاوزها حد الشهوة البطنية ، قول أمير المؤمنين علي رضى الله عنه : « من كانت همته فى بطنه فمقامه ما ينزل منه » .

* * *

وثانى تلك الحقائق الطبية ، عن :

مضـــار الكســـل

وخلاصة الكلام كذلك ، حول هذا الباب ، هو أن الكسل والترفه والتعود على كثرة القعود وترك العمـــل ، مضر بالجســـم ووظائف أعضائه ، ومؤد الى ضعف الأعصاب واسترخاء العضل ، لأنه موجب لضعف الحركة العضوية وانحطاط القوة الحيوية ، فيكون سببا لبلادة الذهن وخمود وظائف البدن ، وتأثره من البرد على أخف أسبابه لضعف دورة الدم المؤدى لضعف حركة الأعضاء وهبوط حرارة الجسم •

وقد تبين أن الأعمال العضوية متوقفة على قوة الدم وجريانه فى أجزاء الجسم ، اذ هو الذى يحمل الأوكسجين من الرئتين الى جميع أجزاء الجسم ويوصل الغذاء الى هـــذه الأجزاء وينقل جميع ما تحلل واستهلك من أنسجتها الى الأعضاء التى وظيفتها الافراز ، والكسل موجب لضعف هذه الأمور الثلاثة المهمة التى يتوقف عليها أعمال الأعضاء المختلفة القائمة بضروريات الحياة وخصائصها المتنوعة وأفعالها المتباينة اذ أنه كما تقدم يضعف الحركة العضوية ، فتضعف الوظائف الحيوية وأهمها الحركة النفسية التى بها يقل مقدار العنصر المقوى الممتص من الهواء الجوى ، ويترتب على ذلك :

أولا : برودة الدم وانحطاط قوة حيويته التى يترتب عليها خمول الحركة العضوية لنقص القوة المنبهة لهـــا من الدم وهبوط الحرارة البدنية ، وحصول سوء التغذية العمومية •

ثانيا : عدم تطهر الدم وفساد كراته الحمراء بغاز حمض الكربونيك وغيره ، لأنه نظرا لضعف قوة الحركة النفسية يزداد مقدار هـــذا الغاز فى الدم فيثبت على كراته الحمراء ، ويضعف قوتها لامتصاص الأوكسجين وبذلك تضعف حيوية الدم •

ثالثا : حبس فضلات الجسم بسبب خمول الأعضاء وقلة الاحتراق لأن وجود مقدار غير كاف من الأوكسجين فى الدم يضعف القوة المنبهة ، وينشأ من ذلك فتور الحركة العضويـــة وقلة الاحتراق فى العضلات البدنية •

رابعا : ينبنى على ضعف الدم وتراكم غاز حمض الكربونيك على كراته الحمراء ، حصول ضعف فى المجموع العصبى والعضلى ، فتضعف ضربات القلب وجريان الدم ، وتثقل المنبهات الحيوية للدماغ والأعصاب

المحركة والحساسة بسبب نقصان خواص الدم كالأوكسجين وعناصر التغذيـــة ، وبذلك تنحط جميع الوظائف الحيوية ويحصل تكدرات فى التغذية العمومية ، واسترخاء فى جميع الأنسجة العضوية ، وخمول فى القوى البدنية العقلية .

* * *

وثالث تلك الحقائق الطبية ، عن :

فوائد الرياضة البدنيـــة

وفوائد الرياضة البدنية للصحة جليلة ونتائجها عظيمة :

ومن المعلوم أن الحياة ــ كما علمنا ــ لا تظهر الا بالحركة ، لأن كل عضو اشتمل عليه الجسم له فعل وكل فعل حيوى مفتقر الى الحركة ، ولذا جعلها الله عامة فى الأكوان وعلق عليها بقاء الحياة وبها أرزاق الحيوانات ، فقال تعالى : **« فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه »**(١) وجعل ارتباط الصحة بها فوائد عامة ومنافع خاصة ، فهى نعمة جليلة ، وحكمة بالغة جميلة .

والحركة فى علم الصحة هى الرياضة البدنية التى كما عرفهـــا الأستاذ ابن سينا عبارة عن حركة ارادية يضطر فيها المرء الى التنفس القوى المتواتر ، ولذا كانت أمرا مهما فى حفظ الصحة ، وبرء المرض ، فان المداومة بالرياضة الصحية أعظم سبب لزيادة قوة المريض وانتظام حركته لأن البدن يكتسب حالة أصلح لسهولة التنقية وجودة التغذية اذ الحركة البدنية معدة لتقوية التنفس وموازنته ولا يخفى أن التنفس هو الميزان الذى به تنتظم أعمال أعضاء الجسم وأجهزته ، ويحفظ تركيب الدم ويجدد قوته .

فمما هو مقرر فى علم الصحة ، وثابت بالتجربة والبراهين القوية ، أن الرياضة البدنية موجبة لانتظام سير الدورة الدموية وتقويتها ، وبذلك تتخلص الأعضـــاء الباطنية ومراكز الأعصـــاب من كثرة الدم والاحتقانات المختلفة التى ربما أبطأت بالأعضاء عن قيامها بأعمالها أو أوقفتها عن تأدية وظائفها .

ومن أعظم الفوائد الناشئة من استعمال الرياضة البدنية تحليل فضلات الجسم النجسة واذابتها واخراجها من منافذها ومجاريها ،

---

(١) الملك : ١٥

اذ بقاؤها فيه وتغلبها على النافع موجب لاضطرابه وحرمانه من صحته ووقوعه فى الضعف والكسل المؤديين الى الخمول وعدم الحركة المفضى الى عدم القدرة عليها فى المستقبل ، فتستولى عليه الأمراض الجسمية والعقلية التى تكدر صفو معيشته ، وتحول بينه وبين التمتع بفوائد الحياة •

فالرياضة البدنية تكسب البدن صحة ونشاطا ، والعقل قوة وذكاء ، والروح خفة وصفاء ، والنفس نزهة وانشراحا : لأنها تعين الأعضاء على أفعالها فلا تخور قواها • وبذلك تنال دوام الصحة ، وكذا تجعل فيه قدرة على تحمل التأثيرات الجوية ، وتكسب النفس سلطانا على الجسم فتجعل فيه ميلا الى العمل وترك الكسل ، وارتياحا الى الأعمال الشاقة •

* * *

ولكون استعمال الرياضة البدنية نافعا لتقوية الجسم ولمعالجة بعض الأمراض ، اضطررت لتوضيح تأثيرها فى الجسم ، فأقول تحت عنوان :

تأثير الرياضة فى النفس

الرياضة البدنية تزيد حركة التنفس زيادة عظيمة حتى انه بالجرى عند التعود عليه تصل الى سرعة عظيمة بدون تكلف ولا حصول تلهف ، وينتج عن هذه الحركات التنفسية جملة فوائد عظيمة ونتائج مقوية خصوصا للصدر :

منها تجديد الهواء بسرعة فى الرئتين ، وبذلك يكون الهواء الداخل فيهما أكثر من الهواء الذى يستنشقه الواقف الساكن •

ومنها زيادة توارد الدم الوريدى الى الرئتين ، وهذا يقتضى زيادة توارده الى البطين الأيمن ، ومن ثم تزداد حركات القلب ، ويسرع جريان الدم فى عروق الجسم ، وبناء على ذلك يحصل نشاط فى ضربات القلب وتصير أقوى وأسرع •

ولمقاومة هذه السرعة القلبية سببان ، أحدهما : القوة العضلية القلبية • والثانى : زيادة السعة الرئوية وهما مكتسبان من ممارسة الرياضة البدنية •

ومن أهم أنواع الرياضة البدنية :

أن يسافر الانسان ، طلبا للعيش ، أو طلبا للعلم ، أو لأداء فريضة الحج ، أو لزيارة أخ فى الله •• ــ كما عرفنا قبل هذا ــ :

انه عندما سيتحرك من موطنه من أجل هذا الهدف الأسمى ، سيكون قد أخذ بالأسباب المؤدية الى قوته المادية ، والعقلية ، والروحية ، والبدنية • لأنه سيكون قد تحرك تحركا ماديا ، وعقليا وروحيا ، وبدنيا •

وسيكون بذلك كذلك ، قد استطاع أن يثبت وجوده فى تلك الحياة الأولى بصورة عملية ، وبصورة ايجابية ، أهم ما يميزها ، أنه قد عرف قيمته فى تلك الحياة كانسان عاقل يمشى على الأرض ، ويدرك تماما أهمية وجوده فى تلك الحياة التى هى دار العمل ، والتى هى مزرعة الآخرة التى هى دار الحساب الذى بعده سيتحدد مصير الانسان ، اذا كان من أهل الجنة أم من أهل النار •

ولهذا ، فاننى أريد كذلك أن أقول شيئا :

وهو أننا اذا كنا ان شاء الله تعالى من هؤلاء العقلاء الذين يعرفون تماما وباقتناع أهمية وجودهم فى تلك الحياة :

فانه لابد لكى يؤكد كل منا هذا : لابد وأن يكون صاحب منهج قويم يسير على هداه ، بمعنى أن يخطط لنفسه نظاما سليما[1] ، يستطيع من خلاله أن يرى اذا كان موفقا فى حياته أم لا •

وذلك لن يكون الا عن طريق السفر المباح الذى سيكتشف من خلاله — اذا كان مخلصا فى نيته — اذا كان من الرجال الذين عمروا الأرض وزرعوها ، أم من الذين خربوها وأفسدوا فيها •

ولذلك ، فقد قيل : وانما سمى السفر سفرا لأنه يسفر عن الأخلاق •

فان النفس فى الوطن مع مواتاة الأسباب لا تظهر خبائث أخلاقها لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوفات المعهودة ، فاذا حملت وعثاء السفر ، وصرفت عن مألوفاتها المعتادة ، وامتحنت بمشاق الغربة ، انكشفت غوائلها ، ووقع الوقوف على عيوبها فيمكن الاشتغال بعلاجها •

وكان بشر يقول : يا معشر القراء سيحوا تطيبوا فان الماء اذا ساح طاب ، واذا طال مقامه فى موضع تغير •

وهذا هو المعنى الذى وقفنا عليه سابقا ، والذى يقول فيه الشافعى رضى الله عنه :

---

(١) على اساس من الكتاب والسنة واجماع الأمة .

انى رأيت وقـوف المـاء يفسـده
ان سال طاب وان لم يجر لم يطب

فليذكر الأخ القارىء كل هذا .

وليفهم من خلال ما وقف عليه ، معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « سافروا تصحوا .. » .

واذا كان لنا بعد ذلك أن نقف على معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « واغزوا تستغنوا » .

فان الغزو هو الجهاد فى سبيل الله تعالى .

والجهاد فى سبيل الله تعالى ـ كما عرفنا قبل ذلك ـ هو ذروة سنام الاسلام ، كما جاء فى نص حديث شريف رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

والجهاد فى سبيل الله تعالى ، هو التجارة التى ستنجينا من العذاب الأليم .. كما يشير قول الله تبارك وتعالى :

« يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها ، نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين »[1] .

والجهاد فى سبيل الله تعالى خير من الدنيا وما عليها :

فعن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، وروحة يروحها العبد فى سبيل الله تعالى أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها » متفق عليه .

والجهاد ، أربع مراتب :

جهاد النفس ، وجهاد الشيطان ، وجهاد الكفار ، وجهاد المنافقين :

---

(١) الصف : ١٠ ـ ١٣

فجهاد النفس أربع :

أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذى لا سعادة لها فى معاشها ومعادها الا به .

وأن يجاهدها على العمل به بعد علمه .

وأن يجاهدها على الدعوة اليه وتعليمه من لا يعلمه ، والا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى ولا ينفعه علمه ، ولا ينجيه من عذاب الله .

وأن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة الى الله وأذى الخلق . فمن يستكمل هذه المراتب الأربع يكون من الربانيين .

وأما جهاد الشيطان فمرتبتان :

جهاده على دفع ما يلقى من الشبهات والشكوك القادحة فى الايمان . وجهاده على دفع ما يلقى من الارادات والشهوات :

فأخبر أن امامة الدين انما تنال بالصبر واليقين ، فالصبر يدفع قال تعالى : « **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ، وكانوا بآياتنا يوقنون** »(١) .

فأخبر أن امامة الدين انما تنال باطبر واليقين ، فالصبر يدفع الشهوات والارادات ، واليقين يدفع الشكوك والشبهات .

وأما جهاد الكفار والمنافقين ، فأربع مراتب : بالقلب ، واللسان ، والمال ، والنفس .

ومن مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق . كما جاء فى نص حديث شريف .

ولايتم الجهاد الا بالهجرة ، ولا الهجرة والجهاد الا بالايمان .

والراجون رحمة الله هم الذين قاموا بهذه الثلاثة ، قال تعالى : « **ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم** »(٢) .

ففرض على كل أحد هجرتان فى كل وقت :

هجرة الى الله عز وجل بالتوحيد والاخلاص والانابة والتوكل والخوف والرجاء والمحبة والتوبة .

---

(١) السجدة : ٢٤ (٢) البقرة : ٢١٨

وهجرة الى رسوله بالمتابعة والانقياد لأمره وتقديم خبره على خبر غيره : « .. فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه »[1] .

وفرض عليه جهاد نفسه فى ذات الله ، وجهاد شيطانه ، وكل هذا فرض عين لا ينوب فيه أحد عن أحد .

* * *

وأما جهاد الكفار والمنافقين ، فقد يكتفى به ببعض الأمة اذا حصل منهم مقصود ، وأكمل الخلق عند الله من كمل مراتب الجهاد كلها ، والخلق متفاوتون فى منازلهم عند ربهم تفاوتهم فى مراتب الجهاد .

والذى يعنينا من كل تلك الأنواع ، هو جهاد الكفار والمنافقين : فبمجاهدة الكفار والمنافقين يتحقق الخير الكثير ، الذى من أهمه الاستغناء بالغنائم ، كما حدث مثلا فى :

غـزوة الخنـدق

التى كانت فى شوال سنة خمس ، والتى كان من أهم أسبابها : أن اليهود لمـا رأوا انتصار المشركين على المؤمنين يوم أحد وعلموا بميعاد أبى سفيان ورجوعه للعام المقبل خرج أشرافهم الى قريش بمكة يحرضونهم على غزو رسول الله صلى الله عليه وسلم ويوالونهم عليه ، فأجابتهم قريش ثم خرجوا الى غطفان وطافوا فى قبائل العرب يدعونهم الى ذلك ، فاستجاب لهم من استجاب ، فخرجت قريش فى أربعة آلاف يقودهم أبو سفيان ، ووافاهم بنو سليم ، وأسد ، وفزارة ، وأشجع ، وجاءت غطفان بقيادة عيينة بن حصن ووافى الخندق من الكفار عشرة آلاف ..

فكانت النتيجة لتلك الغزوة أن أرسل الله على المشركين جندا من الريح والملائكة وكفى نبيه القتال وهزم الأحزاب وحده .

فدخل الرسول صلى الله عليـه وسلم المدينة ووضع السلاح ، فجاءه جبريل عليه السلام وقال له : ان الملائكة لم تضع بعد أسلحتها ، انهض الى غزوة بنى قريظة ، فنادى رسول الله صلى الله عليـه وسلم :

---

(١) من حديث صحيح رواه البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أوله : « انما الأعمال بالنيات ... » .

« من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر الا فى بنى قريظة » ، فخرج المسلمون سراعا فقتلوا منهم من قتلوا ، وأسروا منهم من أسروا وأورثهم الله أرضهم وأموالهم ، وهاتان الغزوتان فى سورة الأحزاب ، حيث يقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا . اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وأذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا »(١) .

الى قوله تعالى :

« ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم(٢) **وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها ، وكان الله على كل شىء قديرا »**(٣) .

* * *

وكما حدث فى :

غـــزوة خيبر

التى خلاصتها ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم لمـــا قدم المدينة من الحديبية ، مكث بها عشرين ليلة ثم خرج غازيا الى خيبر ، وكان الله تعالى قد وعده اياها فى الحديبية ، بقوله : **« وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هـــذه »**(٤) .

عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم الى قصرهم ، فغلب على الزرع والنخل والأرض فصالحوه على أن يجلوا منها ولهم ما حملت ركابهم الا السلاح ، ولمـــا أراد أن يجليهم ، قالوا : يا محمد .. دعنا فى هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها فنحن أعلم بها منكم .

---

(١) الأحزاب : ٩ ــ ١١

(٢) الصياصى : هى الحصون الحربية .

(٣) الأحزاب : ٢٥ ــ ٢٧ (٤) الفتح : ٢٠

ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها ، وكانوا لا يفرغون يقومون عليها ، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع وكل ثمر ما بدا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقرهم ، وكان عبد الله بن رواحة يخرصه عليهم[1] .

وقد قسم الرسول صلى الله عليه وسلم نصف خيبر على أهل الخمس والغانمين ، وأبقى النصف لما ينزل به من أمور المسلمين .

والامام مخير فى الأرض المفتوحة عنوة — أى : قهرا — بين قسمها ووقفها ، وقسم بعضها ووقف البعض .

وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنواع الثلاثة ، فقسم قريظة والنضير ، ولم يقسم مكة — لأنها دار نسك لا تملك ، فهى حرم الرب الذى جعله للناس سواء العاكف فيه والباد — وقسم شطر خيبر وترك شطرها .

وفى الصحيحين وغيرهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسهم للفارس ثلاثة أسهم : سهم له ، وسهمان لفرسه ، وللراجل — أى الماشى — سهما .

وفى هذه الغزوة سبيت صفية بنت حيى بن أخطب فأسلمت واصطفاها النبى صلى الله عليه وسلم لنفسه وأعتقها وجعل عتقها صداقها ..

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر الى وادى القرى ، وكان بها جماعة من اليهود ، ففتحها عنوة ، وعاملهم على الأرض والنخيل وكذلك فدك — وهى أرض بخيبر فوق يثرب — .

قد يكون هذا هو المعنى المراد من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « واغزوا تستغنوا » : أى بتلك الغنائم التى تعود عليكم من الغزو .

* * *

ولكننى أميل الى رأى آخر ، وهو أن المراد من قول الرسول صلى الله عليه وسلم هذا ، قد يكون معناه ، والله أعلم :

غزو جميع ميادين العمل الشريفة ، التى لا شك أن العامل فيها — باخلاص وأمانة — سيربح منها ومن ورائها الخير الكثير .

---

(١) الخرص : حزر ما على النخل من الرطب تمرا ..

واذا كنت أستنتج هذا فلا أريد من خلال هذا الاستنتاج أن أذكر بأهمية تلك الأعمال الشريفة ، التي منها أو من أهمها :

التجـــارة

فالتجارة من الأمور الضرورية للهيئة الاجتماعية ، وعليها تتوقف حياة كل أمة ، وهي السبب في تعليم الشعوب حب الاستقلال بالأفكار والأعمال ، وحب الاعتماد على النفس وما امتازت دولة على أخرى الا وكان للتجارة الفضل الأكبر في سعادتها .

وهي ركن من أركان الحضارة ، وأصل من أصول التقدم وطريق الى الغنى والثراء ، وكل خير وهناء ، بها ترقى الصناعة ، وتتقدم الزراعة ، ويظهر أهل الجد والنشاط والسعي والاجتهاد : يصنع الصانع فيجد من ينتفع بمصنوعاته شرقا وغربا ، ويزرع الزارع فيرى من يستفيد من مزروعاته في بلاده وفي غير بلاده ، فيزداد الصانع نشاطا وقوة ، والزارع جدا وسعيا ، فيعم الخير والهناء جميع الناس .

وليست كل أرض تقوم بحاجات أهلها ، وقلما تتوفر فيها موارد الحياة ، فمن الواجب أن يتبادل الناس فيأخذ كل ما يفتقر اليه من الآخر حتى يعيشوا فرحين مسرورين .

* * *

وقد قرأت الآتي تحت عنوان :

شروط التجـــارة

أهم ما يلزم للتاجر معرفة الشروط الآتية :

أن يكون عنده رأس المـــال الكافي لتجارتـــه لا أن يستدينـــه بالأرباح ، أو بالربا والعياذ بالله ..

وهذا لا شك سيكون سببا في خسارة تلك التجارة وعدم نجاحها .

أن يكون مقتصدا وموفرا بحيث لا يمس رأس المـــال ، بل يجب أن يضيف اليه قسما من الربح لأن آفة التجارة دودة الاسراف ، وسماد أرضها الاقتصاد والتوفير .

أن يكون عالمـــا جيدا بأصول التجارة وخبيرا بأحوال السوق ، فعليه أن يعلم معدل الربح في كل صنف ، ويتحقق السعر الذي يباع به عادة ليعلم السعر الذي يجب أن يشترى به . وأن يكون ماهرا في شراء الأصناف أكثر من بيعها بحيث يشتريها بأرخص مما تباع ليكون ربحه مؤكدا .

الى آخر تلك الشروط التي من أهمها ، أن يكون قانيا ، وقد قرأت أن لفظ « تاجر » يشتمل على أربع حروف وهي : التاء ، والألف ، والجيم ، والراء •

فالتاء : لابد وأن يكون تقيا ، والألف : لابد وأن يكون أمينا • والجيم : لابد وأن يكون جريئا • والراء : لابد وأن يكون رحيما •

ولقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، مثالا للنشاط الاسلامى ، فلم يقعده مكانه من رسول الله عن أن يضرب فى الأرض ، وينمى تجارته ، لأن فى ذلك تنمية لموارد المجتمع الذى يعيش فيه ، وقد بلغ ماله أربعين ألف دينار ، فكان يعتق من ذلك المال المستضعفين ، وكان يعول منها فقراء المسلمين ، ولقد حفزه النشاط الاسلامى ، لأن يخرج فى تجارة الى « بصرى »[1] وهو الحريص على صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم والدائم المرافقة له •

أخرج ابن عساكر عن أم سلمة ، قالت : لقد خرج أبو بكر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تاجرا الى « بصرى » •

حتى بعد أن ولى أمر المسلمين ، وصار خليفتهم • اندفع الى السوق — كعادته — للمتاجرة والعمل ، فصده المسلمون عن ذلك ورأوا أن مثله فى مكانته حرى بأن يفرغ نفسه لشئون أمته •

قال ابن سعد : لما استخلف « أبو بكر » أصبح غاديا الى السوق على رأسه أثواب يتجر بها ، فلقيه عمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة ابن الجراح — فقالا : « كيف تصنع هذا ؟ وقد وليت أمر المسلمين ؟ قال : فمن أين أطعم عيالى ؟ قالا : نفرض لك ، ففرضوا له كل يوم شطر شاة » •

ويوم أن هاجر المسلمون تاركين ثراءهم وديارهم الى المدينة اجابة لداعى الحق ، وتعزيزا لكلمة الله : آخى الرسول صلى الله عليه وسلم ، بين المهاجرين والأنصار •

فلما آخى بين « عبد الرحمن بن عوف » وبين « سعد بن الربيع » قال سعد لعبد الرحمن بن عوف : ان مالى شطران : لى شطر ولك شطر ، وأن لى زوجتين أطلق احداهن لتتزوج منها •

---

(١) بصرى : بضم الباء : موضع بالشام تنسب اليها السيوف . قال الشاعر : * صحائف بصرى اخلصتها قيونها *

فقال له عبد الرحمن : لا حاجة بى الى مالك ، ولا الى أهلك ، بارك الله لك فيهما ، ولكن دلنى على السوق .

وتاجر عبد الرحمن ، فأثرى فى الاسلام ثراء ضخما ، حتى لقد قدم له مرة سبعمائة بعير تحمل البر[1] ، والدقيق ، والطعام ، فلما دخلت المدينة سمع لأهلها رجة ، فتصدق بها ، وبما تحمل فى سبيل الله .

وهكذا أخا الاسلام تستطيع بالتجارة الشريفة أن تؤدى دورا ايجابيا فى بناء المجتمع الاسلامى ، كما تستطيع كذلك الاستغناء بذلك عن الناس « واليد العليا خير من اليد السفلى » .

وقد قرأت فى أثر من الآثار ، النص الآتى : « أحب الناس الى الناس من استغنى عن الناس ، وأبغض الناس اليهم من احتاج اليهم » .

كما قرأت أيضا النص الآتى : « استغن عمن شئت تكن نظيره ، واحتج الى من شئت تكن أسيره ، وأحسن الى من شئت تكن أميره » .

* * *

ومن أهم الأعمال الشريفة ، كذلك :

الصـــناعة

فالصناعة من مقتضيات الحضارة والتمدن ، وكلما ارتقى الناس فى الحضارة والمدنية تزداد حاجتهم الى المصنوعات . لذلك تعتبر الصناعة فى البلاد المتمدينة من أهم أبواب الرزق ، والسواد الأعظم من الناس يعولون فى المعيشة عليها والذى لا يجد بابا يسترزق منه يجنح الى الصناعة لأنها ملجأ لكل طالب .

وقد قرأت النص الآتى ، تحت عنوان :

اشتغال الأنبياء والعلماء بالصناعة

ما من نبى ولا عالم من المتقدمين الا وكان له صنعة يقتات منها قصدا للتشريع ان كانت من نبى ، وطلبا للرزق ان كانت من غيره :

فقد سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن صنائع الأنبياء ، قال :

« كان آدم حراثا ، وادريس خياطا مع كونه ملكا عظيما وحكيما فريدا ــ وهو أول من خاط الثياب ولبس المخيط ، وكان لا يغفل عن ذكر الله تعالى أثناء خياطته ــ ، وكان نوح عليه السلام نجارا ــ وهو أول من صنع الفلك ــ وكذلك كان هود تاجرا ، وكذلك صالح ، وكان ابراهيم زراعا ، وكان اسماعيل قناصا[2] ، وكان اسحاق راعيا ، وكذلك يعقوب

---

(١) اى القمح .

(٢) قناصا : اى صيادا .

وشعيب وموسى ، وكان يوسف مشتغلا بصناعة الساعات ويقال انه صنع ساعة من خشب حينما كان فى السجن ، وكان هارون وزيرا ، وكان الياس نساجا ، وكان داوود زرادا — أى يعمل زرد ودروع الحديد — ، وكان عيسى سياحا ، وكان سيدنا محمد « صلى الله عليه وعليهم أجمعين » تاجرا ومجاهدا فى سبيل الله ، ولذلك قال : « جعل رزقى تحت ظل رمحى » ، وكان عليه الصلاة والسلام يحب البكور — أى السعى فى أول النهار — فى طلب الرزق من حوائج الدنيا ، ويقول : اللهم بارك لأمتى فى بكورها .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يشجع العامل .

ولنستمع الى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهو يحكى لنا ما يشير الى هذا ، فيقول : « جعت يوما فخرجت أطلب العمل فى عوالى المدينة فاذا أنا بامرأة قد جمعت مدرا — أى ترابا متلبدا — تريد بله بالماء ، فبادلتها كل ذنوب — دلو عظيمة من الماء — على تمرة ، فملأت ستة عشر ذنوبا حتى مجلت يدى — أى ظهر فيها الاحمرار — ثم جئت المرأة فبسطت كفى لترى أثر العمل ، فعدت لى ست عشرة تمرة ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته فأكل معى منها » .

وقد قرأت أن حكيما كان يهذب بعض الصبيان فيقول لهم :

يا أكباد آبائكم تعلموا حرفة ولا تعتمدوا على ما لديكم من ثروة أو متاع ، لأن من اعتمد عليها وقصر فى تعليم نفسه هلك . واعلموا أن الذهب واللجين[1] منبع المتاعب ، ومصدر المصائب ، فان لم يسلبها سالب أسرف فيها صاحبها وبذرها . أما الحرفة فكالبئر البكر لا ينضب ماؤها ، أو الأرض الخصبة لا يهلك زرعها ، ولو أن صاحب فن فقد ماله فلا يحزنه ذلك ، لأن فى فنه ماله وغناه .

ولا يغرب عن أذهانكم أن الاكرام والتبجيل لا يكونان الا لذى صنعة ، أما من لا صنعة له ، فتصيبه المذلة والهوان والفقر ، وقد جاء فى الحكم : صنعة فى اليد أمان من الفقر .

* * *

(١) أى الفضة .

وأما عن :

الزراعـــة

فهى الينبوع الأول للثروة ــ وعلى الأخص فى مصر التى هى هبة النيل[1] ــ فالبلاد الزراعية يكون أهلها فى الغالب موسرين ، لأنهم لا يحتاجون الى الواردات الأجنبية الا قليلا .

والزراعة هي الوسيلة العظمى والسبب القوى فى بقاء الانسان والحيوان وعيشتهما فى هــذه الحياة ، اذ منها يكون الغذاء والسكن واللباس والأثاث والمتاع وكل خير وهناء .

ومنهــا الأقوات والأدوية والروائح الذكيــة والعيدان العطرية والفواكه والملابس والوقود والخشب الذى نصنع منه السفن وتسقف به المساكن وتعمل منه الأبواب والنوافذ وغيرها ..

ومن أجمل ما قرأت ، تحت عنوان :

الكنز المدفون

ما خلاصته : أنه كان لرجل ثلاثة أولاد ، ولمــا قربت وفاته جمعهم ، وقال لهم : يا أولادى .. اليوم قد قرب الرحيل ، والبقاء فى هذه الدنيا مستحيل ، فافهموا ما أقوله لكم ، واحفظوه كسواد أعينكم :

انى تارك لكم فى أرضى كنزا ترجعون اليه ، وتعتمدون فى الشدائد عليــه ، فعليــكم باستخراجه منها ، ثم ودعهم وودع الدنيا معهم .

وبعد دفنه واقامة مراسم المــأتم ، لازموا الأرض صباحا ومساء وأخذوا يكثرون فيها من البحث والتنقيب ــ عن هذا الكنز ــ حتى جعلوا عاليها سافلها ، وبعد أن تعبوا الليالى والأيام لم يعثروا على شىء فجلسوا باكين ساخطين ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت .

ثم اتفقوا على أن يزرعوا الأرض ، فشرعوا فى الزرع والسقى بجد ونشاط ، فكانت النتيجة لهذا الجد والنشاط أن جاءت الأرض بحاصلات كثيرة وخيرات عميمة ، فاستقامت أمورهم وانتظمت أحوالهم ، وفتح الله لهم أبواب الكسب وصاروا فى حالة حسنة وثروة مستحسنة وعلموا أن والدهم لم يرد بالكنز المــال المدفون ، ولا نفيس الجوهر المكنون ، بل أراد بالكنز الشغل والعمل بالزراعة التى هى منبع الثروة فى البلاد ، وعليها تتوقف حياة العباد .

---

(١) كما قال « هيرودوت » المؤرخ اليونانى .

والفلاح الذى يبذل عافيته لتحصيل ما يفوق كفايته من الثمرات لتغذية أبناء نوعه وغيرهم من الحيوانات : أولى من غيره بالاكرام وأحق بالاحترام •

وقد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « التمسوا الرزق من خبايا الأرض » رواه ابن عساكر عن عائشة مرفوعا •

« ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه انسان أو غيره من الناس : بغزوه لتلك الأعمال الشريفة وحسبه أنه بهذا الغزو والترمذى عن أنس مرفوعا •

* * *

فليذكر الأخ القارىء كل هذا ، وليعمل على أن يكون مستغنيا عن غيره من الناس : بغزوه لتلك الأعمال الشريفة وحسبه أنه بهذا الغزو سيكون غنيا بالمـال الذى سيصون عرضه ، ويؤدى فرضه ، ويستغنى عن القرض :

فقد سئل أحد الحكماء : لم تجمع المـال وأنت حكيم ؟ فقال : لأصون به العرض ، وأؤدى به الفرض ، وأستغنى به عن القرض ، وفقد المـال يصحبه قلة الاكتراث من الناس ، وتتبعة قلة الرغبة فيه والرهبة منه •

ومن لم يكن موضع رغبة أو رهبة استخف به الناس • وفى هـذا يقول الشاعر :

ان الغنى اذا تكلم بالخطـا ... قالوا صدقت وما نطقت محالا
أما الفقير اذا تكلم صـادقا ... قالـوا كذبت وأبطلوا ما قالا
ان الدراهم فى المواطن كلهـا ... تكسو الرجال مهـابة وجلالا
فهى اللسان لمن أراد فصاحة ... وهى السـلاح لمن أراد قتالا

وقال الشيرازى : لا تستهزىء بالمـال وتنميته ، فان المـال آلة للمكارم ، وعون على الدهر ، وقوة على الدين ، ومألفة للاخوان ، ومعين على حوادث الزمان ، وبهجة الدنيا وزينتها •

* * *

ولعلك الآن أخا الاسلام — وبعد هذا العرض السريع لأبعاد تلك الوصية — : قد اقتنعت بضرورة تنفيذها ، وبضرورة العمل على أن تكون من الحريصين على الاستفادة بالسفر المباح الذى وقفت على أهم أنواعه •

والله أسأل أن يوفقنا جميعاً للعمل بتوجيهات الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، الذى لا : « ... **ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى . علمه شديد القوى** »(١) والذى أمرنا الله تبارك وتعالى باتباعه ، فقال : « .. **واتبعوه لعلكم تهتدون** »(٢) وقال : « ... **وان تطيعوه تهتدوا ..** »(٣) .

* * *

(١) النجم من الآية : ٣ التى اولها : « **وما ينطق ..** » الى الآية : ٥
(٢) الأعراف : ١٥٨ (٣) النور : ٥٤

الوصية السادسة والثلاثون

عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال :

« السفر قطعة من العذاب ، يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه ، فإذا قضى أحدكم نهمته من سفره فليعجل الرجوع الى أهله » ..

(أخرجه مالك وأحمد والشيخان)

* * *

فكن أخا الاسلام :

منفذا لما جاء فى تلك الوصية المحمدية ، من توجيهات ضرورية ، خلاصتها كما قرأت أنك مطالب بالتعجيل بالرجوع من سفرك الى أهلك بعد أن تقضى نهمتك ، أى حاجتك .

وقبل أن نناقش أبعاد تلك التوجيهات : فاننى أرى أولا ــ كمدخل لهذا الموضوع ــ : أن نقف على المعنى المراد من قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« السفر قطعة من العذاب » :

وحسب الانسان اذا أراد أن يقف على ضخامة هذا المعنى ، أن يقرأ ما ورد عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وهو(١) :

لولا أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال : « السفر قطعة من العذاب » ، لقلت : ان العذاب قطعة من السفر .

وذلك ــ كما تعلم ــ : لأن السفر فيه من المشقة ما فيه ، وقد تكون تلك المشقة جسمانية ، أو مالية ، أو عقلية ، أو تفكيرية .

وحسبها ــ أى المشقة ــ أنها ستمنع المسافر : طعامه ، وشرابه ، ونومه :

أى أن المسافر الذى ترك أهله ، وماله ، ووطنه من أجل هدف يملك عليه كل مشاعره ، وحواسه : لن يكون متذوقا بسبب هذا ، لحلاوة أكل ، أو شرب أو نوم ..

---

(١) كما قالت ، رضى الله عنها .

وهذا هو المعنى المراد ـ والله أعلم ـ من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ... يمنع أحدكم طعامه ، وشرابه ، ونومه .. » :

ولهذا : فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى دعاء له ، بعد أن ودع رجلا مسافرا : « اللهم ازو له الأرض[١] ، وهون عليه السفر » • من حديث أخرجه أحمد والنسائى والترمذى وحسنه عن أبى هريرة •

بل ولهذا ، ومن أجل كل هذا : فقد تفضل الله تعالى على المسافر[٢] :

فى الطهارة برخصتين : مسح الخفين ، والتيمم •
وفى صلاة الفرض برخصتين : القصر ، والجمع •
وفى النفل برخصتين : أداؤه على الراحلة ، وأداؤه ماشيا •
وفى الصوم برخصة واحدة : وهى الفطر •

وقبل أن ندور حول تلك الرخص التى يحب الله تعالى أن تؤتى ، كما يحب أن تؤتى عزائمه ، كما جاء فى نص حديث شريف :

عن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ان الله يحب أن تؤتى رخصه ، كما يحب أن تؤتى عزائمه » • أخرجه أحمد والبيهقى وابن خزيمة وابن حبان وصححاه •

* * *

فاننى أرى أن نقف أولا ، على :

فضل السفر وآدابه

أما عن فضله بالاضافة الى فوائده الدنيوية والأخروية العظيمة والكثيرة التى وقفنا على أهمها ، فقد ورد فيه :

عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ما من خارج يخرج من بيته الا ببابه رايتان ، راية بيد ملك ، وراية بيد شيطان ، فان خرج لما يحب الله عز وجل[٣] اتبعه الملك برايته ، فلم يزل تحت راية الملك[٤] حتى يرجع الى بيته • وان خرج لما يسخط

---

(١) اى اجمعها واطوها له وقرب له البعيد .
(٢) كما يقول فى احياء علوم الدين .
(٣) كحج وجهاد وتجارة جائزة وعيادة مريض ، وصلة رحم .
(٤) كناية عن رعاية الله له وحفظه من الشيطان .

الله[١] اتبعه الشيطان برايته ، فلم يزل تحت راية الشيطان[٢] حتى يرجع الى بيته » .

أخرجه أحمد والبيهقى والطبرانى فى الأوسط بسند جيد .

وأما عن آداب السفر ، فقد ذكر النووى فى كتاب الأذكار آدابا تطلب من المسافر قبل سفره ، فقال : اذا استقر عزمه على السفر فليجتهد فى تحصيل أمور ، منها :

أن يوصى بما يحتاج الى الوصية به ، وليشهد على وصيته ، ويستحل كل من بينه وبينه معاملة فى شىء أو مصاحبة ، ويسترضى والديه وشيوخه ومن يندب الى بره واستعطافه ، ويتوب الى الله ويستغفره من جميع الذنوب والمخالفات ، وليطلب من الله تعالى المعونة على سفره وليجتهد فى تعلم ما يحتاج اليه فى سفره :

فان كان غازيا : تعلم ما يحتاج اليه الغازى من أمور القتال ، وغير ذلك من الدعوات وأمور الغنائم ، وتعظيم تحريم الهزيمة فى القتال وما الى ذلك ..

وان كان حاجا أو معتمرا :

تعلم مناسك الحج أو استصحب معه كتابا بذلك ، ولو تعلمها واستصحب كتابا كان أفضل .

وان كان تاجرا : تعلم ما يحتاج اليه من أمور البيوع وما يصح منها وما يبطل ، وما يحل ويحرم ، ويستحب ويكره ، ويباح ، وما يرجح على غيره .

وان كان متعبدا سائحا معتزلا للناس :

تعلم ما يحتاج اليه فى أمور دينه . فهذا أهم ما ينبغى له أن يطلبه .

وان كان ممن يصيد : تعلم ما يحتاج اليه أهل الصيد وما يحل من الحيوان وما يحرم ، وما يحل به الصيد وما يحرم ، وما يشترط ذكاته ، وما يكفى فيه قتل الكلب أو السهم وغير ذلك .

وان كان راعيا : تعلم ما يحتاج اليه مما قدمناه فى حق غيره ممن يعتزل الناس ، وتعلم ما يحتاج اليه من الرفق بالدواب وطلب النصيحة

---

(١) كسرقة وقتل بلا حق وزنا وقطع طريق وتجارة فيما يحرم بيعه .

(٢) كناية عن تسلط الشيطان عليه وارتكابه ما يغضب الله تعالى .

لهـا ولأهلها والاعتناء بحفظها والتيقظ لذلك واستأذن أهلهـا فى ذبح ما يحتاج الى ذبحه فى بعض الأوقات لعارض وغير ذلك .

وان كان رسولا من سلطان الى سلطان أو نحوه : اهتم بتعلم ما يحتاج اليـه من آداب مخاطبات الكبار وجوابات ما يعرض فى المحاورات ، وما يحل له من الضيافات والهدايا وما لا يحل ، وما يجب عليه من مراعاة النصيحة واظهار ما يبطنه ، وعدم الغش والخداع والنفاق ، والحذر من التسبب الى مقدمات الغدر أو غيره مما يحرم وغير ذلك .

وان كان وكيلا أو عاملا فى قراض أو نحوه : تعلم ما يحتاج اليه مما يجوز أن يشتريه وما لا يجوز ، وما يجوز أن يبيع به وما لا يجوز ، وما يجوز التصرف فيه وما لا يجوز ، وما يشترط الاشهاد فيه وما لا يشترط ، وما يجوز له من الأسفار وما لا يجوز .

وعلى جميع المذكورين أن يتعلم من أراد منهم ركوب البحر الحال التى يجوز فيها ركوب البحر والحال التى لا يجوز . أ . هـ .

ويستحب أن يكون السفر يوم الخميس لقول كعب بن مالك :

« كان رسول الله صلى الله عليـه وعلى آله وسلم اذا أراد أن يسافر لم يسافر الا يوم الخميس » .

أخرجه أحمد وأبو داوود فى سنده أحمد بن لهيعة .

وقوله : « قلما كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يخرج اذا أراد سفرا الا يوم الخميس » .

أخرجه أحمد والبخارى وأبو داوود بسند جيد .

ومنه يعلم أن الحصر فى الرواية الأولى بالنظر الى الغالب . وحكمة ذلك : أن الخميس يوم مبارك ترفع فيه أعمال العباد الى الله تعـالى .

ويستحب لمريد السـفر طلب الوصية والدعاء من أهل الخـير والصلاح .

ويستحب توديعه ، لحديث أبى هريرة : أن رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم يريد سفرا ، فقال : يا رسول الله .. أوصنى . قال : « أوصيك بتقوى الله والتكبير على كل شرف »[1] فلما

---

(١) الشرف ، بفتحتين : المكان المرتفع .

ولمن الرجل ، قال النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « اللهم ازو له الأرض[1] وهون عليه السفر » أخرجه أحمد والنسائى والترمذى وحسنه •

ولقول سالم بن عبد الله : كان أبى عبد الله بن عمر اذا أتاه الرجل وهو يريد السفر ، قال له : ادن أودعك كما كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يودعنا ، فيقول : « استودع الله دينك[2] وأمانتك وخواتيم عملك » • أخرجه أحمد وأبو داوود والترمذى وقال حسن صحيح والنسائى وزاد فى رواية : « وأقرأ عليك السلام » • وأخرجه أحمد وأبو داوود والترمذى عن ابن عباس •

ولقول أنس بن مالك : جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فقال : يا رسول الله •• انى أريد سفرا فزودنى • فقال : « زودك الله التقوى • قال : زدنى • قال : وغفر ذنبك • قال : زدنى • قال : ويسر لك الخير حيثما كنت » • أخرجه الترمذى وحسنه ، والنسائى والحاكم •

ويستحب لمريد السفر أن يودع من يخلفه :

لحديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « من أراد أن يسافر فليقل لمن يخلف : أستودعكم الله الذى لا تضيع ودائعه » • أخرجه أحمد وابن السنى ، وكذا الطبرانى بلفظ : « أستودعك الله الذى لا تخيب ودائعه » •

وعنه أيضا : أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « اذا أراد أحدكم سفرا فليسلم على اخوانه فانهم يزيدونه بدعائهم الى دعائه خيرا » • أخرجه الشيخان وأحمد والطبرانى فى الأوسط •

ويستحب لمريد السفر أن يصلى ركعتين قبل خروجه يقرأ فيهما بعد الفاتحة ما شاء ، لحديث المقطم بن المقدام أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « ما خلف أحد عند أهله أفضل من ركعتين يركعهما عندهم حين يريد سفرا » أخرجه الطبرانى وكذا ابن أبى شيبة مرسلا •

ولقول ابن مسعود : جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فقال : يا رسول الله •• انى أريد الخروج الى البحرين فى

---

(١) اى اجمعها له واطوها ، وقرب له البعيد •

(٢) اى اطلب منه حفظ دينك •

تجارة . فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « صل ركعتين » أخرجه الطبرانى فى الكبير بسند رجاله موثقون . قاله الهيثمى .

ويستحب لمريد السفر اتخاذ رفيق يأنس به ويتعاون معه على مشاق السفر :

لحديث ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم « نهى عن الوحدة أن يبيت الرجل وحده أو يسافر وحده » . أخرجه أحمد وحسنه السيوطى .

وعنه ، أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « لو يعلم الناس ما فى الوحدة ما أعلم ، ما سار راكب بليل وحده » . أخرجه أحمد والبخارى والترمذى والنسائى وابن ماجه .

ولحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « عبد الله بن عمرو » أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « الراكب شيطان[1] والراكبان شيطانان والثلاثة ركب »[2] . أخرجه مالك وأحمد وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه بسند حسن ، وصححه ابن خزيمة والحاكم . وأخرجه الحاكم أيضا من حديث أبى هريرة وصححه .

وحكمة النهى عن ذلك — كما يقول الامام محمود خطاب السبكى رحمه الله تعالى — : أن الواحد لو مات فى سفره لم يجد من يقوم بشأنه ، وكذا الاثنان اذا ماتا أو مات أحدهما لم يجد الآخر من يعينه بخلاف الثلاثة ، ففى الغالب أنه لا يخشى عليهم شىء من ذلك : قال الطبرى : وهذا الزجر زجر أدب وارشاد لما يخشى على الواحد من الوحشة والوحدة وليس بحرام فالسائر وحده فى فلاة وكذا البائت فى بيت وحده لا يأمن الاستيحاش لا سيما اذا كان ذا فكرة رديئة وقلب ضعيف ..

ويستحب لمريد السفر أن يستشير فيه من يعلم منه النصيحة والشفقة والصلاح والاستقامة ، لقوله تعالى : **« وشاورهم فى الأمر »**[3]

---

(١) المراد بالراكب المسافر وحده ولو ماشيا ، وسمى شيطانا ، لأنه أشبه الشيطان فى الفعل والمخالفة .

(٢) الركب ، اسم جمع ، وقيل : جمع راكب ، أى الثلاثة فأكثرهم الذين يستحقون أن يسموا ركبا لكونهم محفوظين من الشيطان .

(٣) آل عمران : ١٥٩

ثم : يستخير الله تعالى ، فيصلى ركعتين من غير الفريضة ، ويدعو بدعاء الاستخارة ، وهو :

« •• اللهم أستخيرك[١] بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ، فانك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب • اللهم ان كنت تعلم أن هذا الأمر[٢] خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ، أو قال : عاجل أمرى وآجله[٣] ، فاقدره لى ويسره لى ثم بارك لى فيه • وان كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ، أو قال : عاجل أمرى وآجله فاصرفه عنى واصرفنى عنه واقدر لى الخير حيث كان ، ثم أرضنى به » : قال : ويسمى حاجته ، أى يسمى حاجته عند قوله : « اللهم ان كان هذا الأمر » •

رواه البخارى من حديث جابر •

وللحديث مقدمة يقول فيها الرسول صلى الله عليه وسلم : « اذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل •• » •

ويستحب وصية المقيم المسافر بالدعاء له فى مواطن الخير ، ولو كان المقيم أفضل من المسافر ، لقول عمر رضى الله عنه : استأذنت النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم فى العمرة فأذن لى ، وقال : « لا تنسنا يا أخى من دعائك » وفى رواية : « أشركنا يا أخى فى دعائك » فقال : كلمة ما يسرنى أن لى بها الدنيا • أخرجه أبو داوود والترمذى وقال : حسن صحيح •

ويستحب الدعاء فى السفر ، فانه مستجاب :

لحديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن : دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر ، ودعوة الوالد على ولده » • أخرجه أحمد وأبو داوود وابن ماجه والترمذى وحسنه والبخارى فى الأدب •

ولحديث أنس رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « ثلاث دعوات لا ترد : دعوة الوالد لولده ، ودعوة الصائم ، ودعوة المسافر » • أخرجه الضياء المقدسى فى المختارة والبيهقى •

---

(١) اى أطلب منك الخيرية أو الخير •

(٢) يسمى حاجته هنا • (٣) يجمع بينهما •

ولحديث أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « ثلاث دعوات مستجابات : دعوة الصائم ، ودعوة المظلوم ، ودعوة المسافر » . أخرجه البيهقى .

* * *

واذ كنا قد وقفنا على فضل السفر وأهم آدابه وأصحها ، فاننى أرى كذلك أن نقف ، على :

أذكار السفر

التى يستحب للمسافر أن يدعو بها ، عند نهوضه ، وخروجه من بيته ، وركوبه الدابة ونحوها — كسيارة ، ودراجة ، وسفينة ، وطائرة — وغير ذلك ، ليرضى عنه ربه ويحفظه فى سفره ، وقد ورد فى ذلك أحاديث كثيرة ، منها :

قول أنس رضى الله عنه : لم يرد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم سفرا قط الا قال حين ينهض من جلوسه :

« اللهم لك انتشرت ، واليك توجهت ، وبك اعتصمت ، اللهم أنت ثقتى وأنت رجائى . اللهم اكفنى ما أهمنى وما لا أهتم له ، وما أنت أعلم به . اللهم زودنى التقوى ، واغفر لى ذنبى ، ووجهنى للخير أينما توجهت » . ثم يخرج . أخرجه ابن جرير .

وحديث عثمان رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وعلى وآله وسلم ، قال : « ما من مسلم يخرج من بيته يريد سفرا أو غيره ، فقال حين يخرج : بسم الله ، آمنت بالله ، اعتصمت بالله ، توكلت على الله ، لا حول ولا قوة الا بالله ، الا رزق ذلك المخرج ، وصرف عنه شر ذلك المخرج » .

أخرجه أحمد بسند فيه رجل لم يسم وبقيته ثقات .

وحديث على رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، كان اذا أراد سفرا ، قال : « اللهم بك أصول وبك أحول ، وبك أسير » . أخرجه البزار وابن أحمد فى زوائد المسند بسند رجاله ثقات .

وقول على بن ربيعة : رأيت عليا رضى الله عنه أتى بدابة ليركبها ، فلما وضع رجله فى الركاب ، قال : باسم الله . فلما استوى عليها ، قال : الحمد لله ، « **سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وانا الى**

ربنا لمنقلبون »[1] ثم حمد الله ثلاثا وكبر ثلاثا ، ثم قال : سبحانك لا اله الا أنت قد ظلمت نفسى فاغفر لى انه لا يغفر الذنوب الا أنت ، ثم ضحك ، فقلت : مم ضحكت يا أمير المؤمنين ؟ قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فعل مثل ما فعلت ثم ضحك ، فقلت : مم ضحكت يا رسول الله ؟ قال : « يعجب[2] الرب من عبده اذا قال : رب اغفر لى ، ويقول : علم عبدى أنه لا يغفر الذنوب غيرى » أخرجه أحمد ، وأبو داوود ، والترمذى ، والنسائى بأسانيد صحيحة وابن حبان والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

وحديث على الأزدى أن ابن عمر علمه أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان اذا استوى على بعيره خارجا الى السفر : كبر ثلاثا ، ثم قال : **« سبحان الذى سخر لنا هـذا وما كنا له مقرنين . وانا الى ربنا لمنقلبون »** اللهم : انا نسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى ، اللهم : هون علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده ، اللهم : أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل ، اللهم : انى أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر فى الأهل والمـال » .

واذا رجع قالهن وزاد فيهن : « آيبون تائبون عابدون لربنـا حامدون » أخرجه أحمد ومسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى .

وقول ابن عباس : كان النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم اذا أراد أن يخرج الى سفر ، قال : « اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل ، اللهم انى أعوذ بك من الضبنة[3] فى السـفر والكآبة فى المنقلب . اللهم اطو لنا الأرض وهون علينا السفر .

واذا أراد الرجوع ، قال : « آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون » .

واذا دخل على أهله ، قال : « توبا توبا لربنا أوبا لا يغادر علينا

---

(١) اى وما كنا مطيقين قهره وركوبه لولا تسخير الله اياه ، ومنقلبون : اى صائرون الى ربنا بعد الموت — والآية من سورة الزخرف : ١٣ ، ١٤

(٢) المراد : بيعجب الرب : رضاه .

(٣) الضبنة : بضم الضاد وكسرها وسكون الباء ، ما تحت يدك من مال وعيال ، والمراد التعوذ من كثرة العيال فى السفر ، او من صحبة من لا كفاية فيه من الرفاق .

حوبا »[١] . أخرجه أحمد والطبرانى والبزار بسند رجاله رجال الصحيح .

وقول عبد الله بن سرجس : كان النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم اذا خرج فى سفره ، قال : « اللهم انى أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، والحور بعد الكور[٢] ودعوة المظلوم ، وسوء المنظر فى المال والأهل .

واذا رجع ، قال مثلها ، الا أنه يقول : « وسوء المنظر فى الأهل والمال » . فيبدأ بالأهل .

أخرجه أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

وقول ابن عمر : كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم اذا غزا أو سافر فأدركه الليل ، قال : « يا أرض ربى وربك الله ، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما خلق فيك ، وشر ما دب عليك . أعوذ بالله من شر كل أسد وأسود[٣] وحية وعقرب ، ومن شر ساكن البلد[٤] ، ومن شر والد وما ولد » أخرجه أحمد وأبو داوود وابن النجار بسند جيد . وأخرجه أبو داوود والترمذى والحاكم عن ابن مسعود بسند صحيح .

وقول أسامة والد أبى المليح : كنت رديف[٥] النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم على حمار فعثر الحمار فقلت : تعس[٦] الشيطان . فقال لى النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « لا تقل تعس الشيطان ، فانك اذا قلت تعس الشيطان ، تعاظم الشيطان فى نفسه ، وقال : صرعته بقوتى ، فاذا قلت : بسم الله تصاغرت اليه نفسه حتى يكون أصغر من ذباب » أخرجه أحمد وأبو داوود والطبرانى .

---

(١) الحوب بفتح الحاء وضمها وسكون الواو : أى الذنب .

(٢) الحور بفتح فسكون : أى النقصان ، والكور بفتح فسكون : أى الزيادة . وقيل : الحور الفساد ، والكور الصلاح .

(٣) الأسود : العظيم من الحيات ، خص بالذكر لخبثة ، وقيل الأسود : أى الشخص .

(٤) أى الجن ، والوالد : ابليس ، وما ولد : أى الشياطين .

(٥) أى كان يركب خلفه .

(٦) أى اكب على وجهه ، وهو دعاء بالهلاك .

وحديث خولة بنت حكيم السلمية أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « من نزل منزلا ، ثم قال : أعوذ بكلمات الله التامات كلها من شر ما خلق ، لم يضره شىء حتى يرتحل من منزله ذلك » . أخرجه ابن خزيمة ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وأحمد ، ومالك .

وقول جابر بن عبد الله : « كنا نسافر مع النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فاذا صعدنا : كبرنا ، واذا هبطنا ، سبحنا » . أخرجه أحمد والبخارى والنسائى .

وقول ابن عمر : كنا نسافر مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فاذا رأى قرية يريد أن يدخلها ، قال : « اللهم بارك لنا فيها — ثلاث مرات — . اللهم ارزقنا جناها[1] وحببنا الى أهلها وحبب صالحى أهلها الينا » . أخرجه الطبرانى فى الأوسط بسند جيد .

قال فى الدين الخالص : ويستحب للمسافر أن يقول بعد الصلوات ما يقوله غيره[2] ، وأن يزيد بعد الصبح ما فى حديث أبى بردة أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان اذا صلى الصبح فى سفر رفع صوته حتى يسمع أصحابه : « اللهم أصلح لى دينى الذى جعلته عصمة أمرى . اللهم أصلح لى دنياى التى جعلت فيها معاشى — ثلاث مرات — . اللهم أصلح لى آخرتى التى جعلت اليها مضجعى — ثلاث مرات — . اللهم انى أعوذ برضاك من سخطك . اللهم انى أعوذ بك — ثلاث مرات — لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد » أخرجه ابن السنى .

* * *

والآن وبعد هذا التقديم الهام ، حول فضل السفر ، وآدابه ، وأذكاره .. نعود الى تلك الرخص التى تفضل الله تبارك وتعالى بها على المسافر والتى أولها ، كما رتبها الامام الغزالى فى الاحياء :

المسح على الخفين

وتفصيل ذلك يتلخص فى الآتى ، وهو : أن الخف ، وهو حذاء من جلد يلبسه الرجل والمرأة ، اذا لبس على طهارة بعد الوضوء جاز

---

(١) أى ما يجتنى من الشجر ، وكأنه عبر بالجنى عن فوائد القرية المنتفع بها .

(٢) أى فى ختام الصلاة .

للمسافر أن يمسح على خفيه ثلاثة بلياليهم ، دون أن ينزعهما ما دام قد لبسهما على وضوء •

فعن شريح بن هانىء رضى الله عنه ، قال : سألت عائشة رضى الله عنها عن المسح على الخفين ، فقالت : سل عليا فانه أعلم بهذا منى ، كان يسافر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألته ، فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « للمسافر ثلاثة أيام ولياليهن ، وللمقيم يوم وليلة » رواه أحمد ومسلم •

وللمسح على الخفين شروط ، وهى :

أن يلبس الخف على وضوء •

أن يكون الخف طاهرا ، اذ لا يصح المسح على نجس أو متنجس •

أن يكون ساترا للقدمين ، ولا يضر ان كان به خروق يسيرة •

أن يكون قويا يمكن تتابع المشىء فيه عادة •

وقد ضعف بعض الفقهاء هذين الشرطين الأخيرين ، منهم ابن تيمية ، لعدم ورود الأحاديث بهما ، والله أعلم بالصواب •

والمسح لغة[1] : امرار اليد على الشىء ، واصطلاحا : اصابة اليد المبتلة أو ما يقوم مقامها أعلى الخف فى المدة الشرعية التى وقفنا عليها بالنسبة للمسافر والمقيم • والخف الشرعى ، هو الساتر للكعبين الممكن تتابع المشىء فيه عادة •

قال فى الدين الخالص :

قال الحنفيون : فرضه مسح قدر ثلاثة أصابع من أصغر أصابع اليد على ظاهر أعلى الخف من كل رجل • فلا يصح على أسفله وعقبه وساقه وجوانبه •

لقول على رضى الله عنه : « لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه ، وقد رأيت النبى صلى الله عليه وآله وسلم يمسح على ظاهر خفيه » • أخرجه أبو داوود والبيهقى والدارقطنى بسند صحيح •

---

(١) كما يقول فى الدين الخالص ج ١ •

وقال أيضا فى الدين الخالص ، تحت عنوان :

ما يبطل المسح على الخفين

يبطل بواحد من ثلاثة :

ما يبطل به الوضوء اتفاقا ، لأن المسح على الخف بعض الوضوء •

ويبطل عند القائلين فيه بالتوقيت بمضى المدة للمقيم والمسافر ان لم يخف بغلبة الظن تلف رجله من البرد ونحوه اذا نزعه • فان خاف ذلك لا يلزمه النزع ، ويمسح دائما بلا توقيت حتى يأمن دفعا للحرج • وحينئذ يصير الخف كالجبيرة فيستوعبه أو أكثره بالمسح •

ويبطل أيضا عند الحنفيين والشافعى والجمهور : بنزع الخف أو انتزاعه ولو بخروج أكثر القدم الى ساق الخف فى الأصح •

ولا عبرة بخروج عقبه ودخوله • وهو رواية عن أحمد • لحديث سعيد بن أبى مريم عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى الرجل يمسح على خفيه ثم يبدو له فينزعهما ، قال : يغسل قدميه • أخرجه البيهقى •

وهناك أحكام كثيرة تتعلق بالمسح على الخفين ، منها ما هو فى الاحياء حيث يقول الامام الغزالى رحمه الله :

مهما مسح مقيما ثم سافر ، أو مسافرا ثم أقام غلب حكم الاقامة فليقتصر على يوم وليلة ، وعدد الأيام الثلاثة محسوب من وقت حدثه بعد المسح على الخف ، فلو لبس الخف فى الحضر ومسح فى الحضر ، ثم خرج وأحدث فى السفر وقت الزوال مثلا ومسح ثلاثة أيام ولياليهن من وقت الزوال الى الزوال من اليوم الرابع ، فاذا زالت الشمس من اليوم الرابع لم يكن له أن يصلى الا بعد غسل الرجلين فيغسل رجليه ويعيد لبس الخف ويراعى وقت الحدث ويستأنف الحساب من وقت الحدث ، ولو أحدث بعد لبس الخف فى الحضر ، ثم خرج بعد الحدث فله أن يمسح ثلاثة أيام ، لأن العادة قد تقتضى اللبس قبل الخروج ، ثم لا يمكن الاحتراز من الحدث ، فأما اذا مسح فى الحضر ثم سافر اقتصر على مدة المقيمين •

كما يقول أيضا بعد ذلك فى الاحياء :

ويستحب لكل من يريد لبس الخف فى حضر أو سفر ، أن ينكس الخف وينفض ما فيه حذرا من حية أو عقرب ، أو شوكة •

* * *

وأما الرخصة الثانية من رخص السفر ، فهى :

التيمم بالتراب بدلا عن المـاء عند العذر

والخلاصة التى نريد أن نقف عليها كذلك ، هى :

أن التيمم طهارة ترابية ، تسد مسد الطهارة المـائية ، وضوءا كانت أو غسلا عند فقد المـاء ، أو عدم القدرة على استعماله ..

وهو عبارة عن ضربتين بالكفين ، على الصعيد الطاهر ، ضربة للوجه ، وضربة لليدين الى المرفقين .

ودليل مشروعيته ، قوله تعالى فى سورة النساء :

« وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منـكم من الغائط أو لامستم النسـاء فلم تجدوا ماء فتيمموا صـعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ، ان الله كان عفوا غفورا »(١) .

وسبب مشروعيته ، ما فى حديث عائشه رضى الله عنها ، قالت : خرجنا مع النبى صلى الله عليـه وسلم فى بعض أسفاره حتى اذا كنا بالبيداء انقطع عقدى ، فأقام النبى صلى الله عليـه وسلم على التماسه ، وأقام الناس معه ، وليسوا على ماء ، وليس معهم ماء ، فأتى الناس الى أبى بكر ، فقالوا : ألا ترى ما صنعت عائشة ؟ ! .. فجاء أبو بكر والنبى صلى الله عليـه وسلم واضع رأسه على فخذى ، قد نام ، فعاتبنى وقال ما شاء الله أن يقول ، وجعل يطعن بيده فى خاصرتى ، فما يمنعنى من التحرك الا مكان النبى صلى الله عليـه وسلم على فخذى ، فقام حتى أصبح على غير ماء ، فأنزل الله آية التيمم ، فقال أسيد بن حضير : ما هى أول بركتكم يا آل أبى بكر ، قالت : فبعثنا البعير الذى كنت عليه .. فوجدنا العقد تحته » . أخرجه مالك ومسلم .

والأعذار المبيحة للتيمم فى السفر يوجزها فى الاحياء ، فيقول :

وانما يتعذر بالمـاء ، بأن يكون بعيدا عن المنزل بعدا لو مشى اليه لم يلحقه غوث القافلة ، ان صاح أو استغاث ، وهو البعد الذى لا يعتاد أهل المنزل فى ترددهم لقضاء الحاجة التردد اليه ، وكذا اذا نزل على المـاء عدو أو سبع فيجوز التيمم ، وان كان المـاء قريبا ، وكذا ان احتاج اليه لعطشه فى يومه أو بعد يومه لفقد المـاء

---

(١) النساء : ٤٣

بين يديه فله التيمم ، وكذا ان احتاج اليه لعطش أحد رفقائه فلا يجوز الوضوء ويلزمه بذله اما بثمن أو بغير ثمن ، ولو كان يحتاج اليه لطبخ مرقة أو لحم أو لبن فتيت يجمعه به لم يجز له التيمم ، بل عليه أن يجتزىء بالفتيت اليابس ويترك تناول المرقة ، ومهما وهب له الماء وجب قبوله ، وان وهب له ثمنه لم يجب قبوله ، لما فيه من المنة ، وان بيع بثمن المثل لزمه الشراء ، وان بيع بغبن لم يلزمه .

فاذا لم يكن معه ماء وأراد أن يتيمم فأول ما يلزمه طلب الماء مهما جوز الوصول اليه بالطلب وذلك بالتردد حوالى المنزل ، وتفتيش الرحل ، وطلب البقايا من الأوانى والمطاهر .

فان نسى الماء فى رحله ، أو نسى بئرا بالقرب منه لزمه اعادة الصلاة لتقصيره فى الطلب .

وان علم أنه سيجد الماء فى آخر الوقت : فالأولى أن يصلى بالتيمم فى أول الوقت فان العمر لا يوثق به ، وأول الوقت رضوان الله .

تيمم ابن عمر رضى الله عنهما ، فقيل له : أتتيمم وجدران المدينة تنظر اليك ؟ فقال : أو أبقى الى أن أدخلها .

ثم يقول فى الاحياء : ومهما وجد الماء بعد الشروع فى الصلاة لم تبطل صلاته ، ولم يلزمه الوضوء .

فلاحظ أخا الاسلام كل هذا ، بالاضافة الى هذين الحكمين اللذين فى هذين الحديثين :

عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى ، قال : خرج رجلان فى سفر فحضرت الصلاة وليس معهما ماء فتيمما صعيدا طيبا ، فصليا ثم وجد الماء فى الوقت ، فأعاد أحدهما الوضوء والصلاة ولم يعد الآخر ، ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرا ذلك له . فقال للذى لم يعد : « أصبت السنة وأجزأتك صلاتك » وقال للذى توضأ وأعاد : « لك الأجر مرتين » . أخرجه النسائى وأبو داوود والدارمى والحاكم والدارقطنى .

وعن عمرو بن العاص رضى الله عنه : أنه لما بعث فى غزوة ذات السلاسل ، قال : احتلمت فى ليلة شديدة البرودة ، فأشفقت ان اغتسلت هلكت ، فتيممت ثم صليت بأصحابى صلاة الصبح ، فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذكروا ذلك له ، فقال : « يا عمرو .. صليت بأصحابك وأنت جنب » ؟ ! فقلت : ذكرت قول الله

عز وجل : « **ولا تقتلوا أنفسكم ، ان الله كان بكم رحيما** »[١] .
فتيممت ثم صليت ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يقل شيئا . رواه أحمد وأبو داوود .

فمن هذين الحديثين تعلم أنه اذا خاف خروج الوقت ، اذا توضأ ، أو اغتسل ، فله أن يتيمم ويصلى ولا يعيد ، وقيل عليه الاعادة .

كذلك لا يعيد الصلاة من تيمم وصلى ، ثم وجد الماء .

واذا كان الماء شديد البرودة ، ولم يقدر على تسخينه ، بحيث لو توضأ لضره ، جاز له أن يتيمم .

وكذلك : اذا احتاج الماء لشربه ، أو شرب حيوان محترم[٢] ، جاز له أن يتيمم ، ويبقى الماء لينتفع به :

فعن على رضى الله عنه ، قال فى الرجل يكون فى السفر ، فتصيبه الجنابة ، ومعه قليل من الماء ، يخاف أن يعطش : « فيتيمم ولا يغتسل » .

* * *

واتماما للفائدة ، اليك كذلك :

مبطلات التيمم : يبطل التيمم بما يبطل به الوضوء .

ويبطل بوجود الماء فى الوقت ، فمن تيمم ووجد الماء قبل أن يصلى وجب عليه أن يتطهر به ولا يصلى بهذا التيمم .

واذا وجده وهو فى الصلاة تمادى فيها لحرمتها ثم تطهر وأعادها .

* * *

وأما عن الرخصة الثالثة ، وهى :

قصر الصلاة الرباعية المفروضة فى السفر

فقد ثبت مشروعيته بالكتاب والسنة واجماع الأمة :

ففى القرآن الكريم يقول تبارك وتعالى :

« **واذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ، ان الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا** »[٣] .

---

(١) النساء : ٢٩

(٢) كشاة ، أو جمل ، أو جواد (مثلا) .

(٣) النساء : ١٠١

فمعنى تلك الآية ، هو :

« **واذا ضربتم فى الأرض** » أى : سافرتم •

« **فليس عليكم جناح** » اى : حرج واثم •

« **أن تقصروا من الصلاة** » الرباعية ، أى تصلوا الظهر ، والعصر ، والعشاء ، ركعتين •• أما صلاة الصبح فلا تقبل القصر ، لأنها قصيرة بطبيعتها ، وكذلك صلاة المغرب لا تقبل القصر لأنها وتر النهار •

وظاهر تلك الآية ، كما يقول فى التفسير الوسيط ، هو : اباحة القصر[1] لمطلق السفر ، طال أم قصر ••

ولكن الفقهاء اختلفوا فى تحديد مسافة القصر ومدته ، كما اشترط بعضهم أن يكون سفرا مباحا••

وظاهر قوله تعالى : « **أن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا** » : اشتراط الخوف فى السفر فى جواز القصر ، ولكن السنة النبوية بينت أنه يجوز القصر فى السفر مع الأمن ، كما يجوز فيه عند الخوف •

وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم جوابا لمن سأله عن القصر حالة الأمن : « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته » •

وقد بين الله سبحانه وتعالى سبب الترخيص — فى القصر فى السفر — عند الخوف بقوله : « **ان الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا** » أى كانوا لكم أعداء ظاهرى العداوة ، مجاهرين بها ، فتنبهوا لعداوتهم واحذروهم ، وكونوا متيقظين لهم فى الصلاة وغيرها •

فالتقييد بالخوف غير معمول به ، كما تبين لك من خلال التلخيص السابق •

وحتى يتضح لك هذا ويتأكد ، اليك هذا الحديث الذى يقول فيه يعلى بن أمية :

« قلت لعمر بن الخطاب : أرأيت[2] اقصار الناس الصلاة ، وانما قال عز وجل : « **أن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا** » فقد ذهب ذلك اليوم ؟ فقال عمر : عجبت مما عجبت منه فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا

---

(١) قصر الصلاة : أى ترك شىء منها .

(٢) أى أخبرنى عن سبب القصر وقد زال الخوف الذى هو سببه كما هو صريح الآية .

صدقته » رواه البخارى ومسلم وأبو داوود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وأحمد ، ومالك .

وأخرج ابن جرير عن أبى منيب الجرشى أنه قيل لابن عمر : قول الله تعالى : **« واذا ضربتم فى الأرض »** الآية ، فنحن آمنون لا نخاف فنقصر الصلاة ؟ فقال : **« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة .. »**(١) .

وعن عائشة ، قالت : قد فرضت الصلاة ركعتين ركعتين بمكة ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة زاد مع كل ركعتين ركعتين الا فى المغرب فانها وتر النهار ، وصلاة الفجر لطول قراءتها ، وكان اذا سافر صلى الصلاة الأولى ، أى التى فرضت بمكة .

رواه أحمد والبيهقى وابن حبان وابن خزيمة ، ورجاله ثقات .

قال ابن القيم : وكان صلى الله عليه وسلم يقصر الصلاة الرباعية ، فيصليها ركعتين من حين يخرج مسافرا الى أن يرجع الى المدينة ولم يثبت عنه أنه أتم الصلاة الرباعية ، ولم يختلف فى ذلك أحد من الأئمة ، وان كانوا قد اختلفوا فى حكم القصر :

فقال بوجوبه : عمرو ، وعلى ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وابن عمر ، وجابر :

وهو مذهب الحنفية الذين يقولون : ان قصر الصلاة واجب على المسافر ، ولا يجوز له الاتمام ، لقوله صلى الله عليه وسلم :

« فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فأقرت صلاة السفر وزيد فى صلاة الحضر » .

فاذا أتم الصلاة أثم لتأخير السلام عن نهاية المفروض ، وهو القعود الأول فى هذه الحالة ، ويعتبر متنفلا بالركعتين الأخيرتين ، لأن الفرض انما هو الركعتان الأوليان ، ولذا تبطل صلاته ان ترك القعود الأول فى هذه الصورة لأنه ترك فرضا من فرائض الصلاة .

وقال المالكية : القصر سنة مؤكدة آكد من صلاة الجماعة ، فاذا لم يجد المسافر مسافرا يقتدى به ، صلى منفردا محافظة على القصر ، ويكره أن يقتدى بالمقيم ، لأنه لو اقتدى به لزمه الاتمام فتفوت سنة القصر المؤكدة .

---

(١) الأحزاب : ٢١

وقال الشافعية : القصر جائز ، وهو أفضل من الاتمام ان بلغ سفره ثلاث مراحل ولم يختلف فى جواز قصره ، فان كان السفر أقل من ثلاث فالاتمام أفضل ، وكذا لو كان ثلاثا فأكثر وكان المسافر ملاحا ، وهو : من له دخل فى تسيير السفينة ، فان الاتمام له أفضل لخلاف الامام أحمد وقوله بعدم جواز القصر له ، وقد يجب القصر فيما اذا أخر المسافر الصلاة الى آخر الوقت ، بحيث لا يسع الوقت الباقى منه الصلاة الا مقصورة ، لأنه لو أتم لزم اخراج بعض الصلاة عن وقتها مع تمكنه من ايقاعها بتمامها فى الوقت .

وقال الحنابلة : القصر جائز ، وهو أفضل من الاتمام ولا يكره الاتمام .

والخلاصة المفيدة التى نريد أن نقف عليها ، — بعد ذلك — وقبل أن نقف على شروط صحة القصر ، هى :

أن قصر الصلاة الرباعية وهى الظهر والعصر والعشاء ، سواء أكان فى حالة الخوف أم فى حالة الأمن ، قد شرع فى السنة الرابعة من الهجرة وقد ثبتت مشروعيته بالكتاب والسنة والاجماع .

وقد وقفنا قبل ذلك على الآية الكريمة ، التى شرع الله تعالى صلاة القصر فيها ، كما قرأنا كذلك بعض الأحاديث الشريفة الواردة فى هذا .

وقد روى ابن أبى شيبة — بالاضافة الى ما وقفنا عليه — أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ان خيار أمتى من شهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، والذين اذا استحسنوا استبشروا ، واذا أساءوا استغفروا ، واذا سافروا قصروا » .

وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم ، صلى اماما بأهل مكة بعد الهجرة صلاة رباعية ، فسلم على رأس ركعتين ثم التفت الى القوم ، فقال : « أتموا صلاتكم فانا قوم سفر » .

وقد أجمعت الأمة على مشروعية القصر فى الصلاة الرباعية .

* * *

والآن اليك أهم شيء فى هذا الموضوع ، وهو :

شروط صحة القصر

كما هو ثابت فى الفقه على المذاهب الأربعة ، بتصرف وليجاز :

أولا : أن يكون السفر مسافة تبلغ ستة عشر فرسخا[1] ذهابا فقط ، والفرسخ ثلاثة أميال — الميل : ١٧٤٨ مترا — والميل ستة آلاف ذراع بذراع اليد ، وهذه المسافة تساوى ثمانين كيلو ونصف كيلو ومائة وأربعين مترا — أى مسيرة يوم وليلة بسير الابل المحملة بالأثقال سيرا معتادا — ولا يضر نقصان المسافة عن المقدار المبين بشيء قليل كميل أو ميلين ، ولا يشترط أن يقطع هذه المسافة المذكورة — يوم وليلة — فلو قطعها فى أقل منها ولو فى لحظة صح القصر .

ويقول الحنفية : المسافة مقدرة بالزمن وهو ثلاثة أيام من أقصر أيام السنة ، ويكفى أن يسافر فى كل يوم منها من الصباح الى الزوال ، والمعتبر السير الوسط ، أى سير الابل ومشى الأقدام ، فلو بكر فى اليوم الأول ومشى الى الزوال ، وبلغ المرحلة ونزل وبات فيها ، ثم بكر فى اليوم الثانى وفعل ذلك ، ثم فعل ذلك فى اليوم الثالث فقد قطع مسافة القصر ، ولا عبرة بتقديرها بالفرسخ على المعتمد ، ولا يصح القصر فى أقل من هذه المسافة .

ويقول المالكية : أن نقصت المسافة عن القدر المبين بثمانية أميال ، وقصر الصلاة صحت صلاته ولا اعادة عليه على المشهور .

ويستثنى من اشتراط المسافة : أهل مكة ، ومنى ، ومزدلفة ، والمحصب ، اذا خرجوا فى موسم الحج للوقوف بعرفة ، فانه يسن لهم القصر فى حال ذهابهم ، وكذا فى حال ايابهم اذا بقى عليهم عمل من أعمال الحج التى تؤدى فى غير وطنهم ، والا أثموا .

وثانيا :أن ينوى السفر ، ويشترط لنية السفر أمران :

أحدهما : أن ينوى قطع تلك المسافة بتمامها من أول سفره ، فلو خرج هائما على وجهه لا يدرى أين يتوجه ، لا يقصر ولو طاف الأرض كلها ، لأنه لم يقصد قطع المسافة ، وكذلك لا يقصر اذا نوى قطع المسافة ولكنه نوى الاقامة أثناءها مدة قاطعة لحكم السفر .

وقد قال الحنفية فى هذا : نية اقامة المدة القاطعة لحكم السفر

---

(١) الفرسخ : ٥٥٤١ مترا .

لا تبطل حكم القصر الا اذا أقام بالفعل ، فلو سافر من القاهرة مثلا ناويا الاقامة بأسيوط مدة خمسة عشر يوما فأكثر ، يجب عليه القصر فى طريقه الى أن يقيم .

ثانيهما : الاستقلال بالرأى ، فلا تعتبر نية التابع بدون نية متبوعه كالزوجة مع زوجها ، والجندى مع أميره ، والخادم مع سيده .

فلو نوت الزوجة مسافة القصر دون زوجها لا يصح لها أن تقصر ، وكذلك الجندى والخادم ونحوهما .

والمالكية : لم ينصوا على هذا الشرط ، ولكن قواعد مذهبهم لا تأباه ، فان شرط النية عندهم أن تكون جازمة ، ونية التابع معلقة على نية المتبوع ضرورة أنه تابع له فى سيره وعدمه ، فما لم ينو المتبوع قطع المسافة بتمامها لا يتأتى للتابع أن يجزم النية بذلك ، فالمعتبر اذن نية المتبوع ، ونية التابع كالعدم كما هو رأى غيرهم من أهل المذاهب الثلاثة .

ولا يشترط فى نية السفر البلوغ ، فلو نوى الصبى مسافة القصر قصر الصلاة .

والحنفية يقولون فى هذا : يشترط فى نية السفر أن تكون من بالغ ، فلا تصح نية الصبى ، فشروط نية السفر عندهم ثلاثة :

١ — نية قطع المسافة بتمامها من أول السفر .

٢ — الاستقلال بالرأى .

٣ — البلوغ .

وثالثها : أن يكون السفر مباحا[1] ، فلو كان السفر حراما كأن سافر لسرقة مال أو لقطع طريق أو نحو ذلك ، فلا يقصر ، واذا قصر لم تنعقد صلاته[2] ، فان كان السفر مكروها[3] ففيه تفصيل المذاهب :

فالمالكية قالوا : يكره القصر فى السفر المكروه .

والحنفية قالوا : يجب القصر فى السفر المكروه أيضا كغيره .

والشافعية قالوا : يجوز القصر فى السفر المكروه .

---

(١) الحنفية لم يشترطوا ذلك ، فيجب القصر عندهم على كل مسافر ولو كان السفر محرما ، ويأثم بفعل المحرم .

(٢) والمالكية قالوا : اذا كان السفر محرما صح القصر مع الاثم .

(٣) أى اذا كان السفر لفعل مكروه للنهى عنه .

والحنابلة قالوا : لا يجوز القصر فى السفر المكروه ، ولو قصر لا تنعقد صلاته كالسفر المحرم .

وأما اذا كان السفر مباحا[١] ، ولكن وقعت فيه معصية[٢] فلا يمنع القصر .

ورابعا : مجاوزة محل الاقامة ، على تفصيل المذاهب ، وقد لخص الامام محمود خطاب السبكى رحمه الله تعالى ، هذا الشرط الرابع ، فى كتابه الدين الخالص ج ٤ فقال :

ويشترط مجاوزته محل اقامته من الجانب الذى خرج منه ، فلا يقصر قبل أن يفارق بيوت القرية أو المصر[٣] من الجانب الذى خرج منه حتى لو كان ثمة محلة منفصلة عن المصر ، وقد كانت متصلة به ، لا يقصر ما لم يجاوزها . ولو جاوز العمران من جهة خروجه وكان بحذائه أبنية من الجانب الآخر يقصر اذ المعتبر جانب خروجه . ويدخل فى محل الاقامة ربضه[٤] .

وكذا يشترط مجاوزة القرية المتصلة بربض المصر ، بخلاف المتصلة بفنائه ، فانه لا يشترط مجاوزتها على الصحيح . أما فناء المصر أو القرية فان كان بينه وبينها أقل من غلوة[٥] ولم يكن بينهما مزرعة ، فلابد من مجاوزته .

وان كان بينهما مزرعة أو قدر غلوة فلا يشترط مجاوزته .

ودليل هذا : قول أنس : « صليت الظهر مع النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالمدينة أربعا وبذى الحليفة ركعتين » أخرجه البخارى ، ومسلم ، وأبو داوود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه .

وقول على بن ربيعة : « خرجنا مع على بن أبى طالب فقصرنا الصلاة ونحن نرى البيوت » . أخرجه الحاكم ، وذكره البخارى معلقا ،

---

(١) كالتجارة ونحوها .

(٢) كأن شرب فيه مسكرا أو زنى أو قذف أو اغتلب لانه لم يقصد السفر لهذا .

(٣) واحد الأمصار ، والمراد : المدينة التى خرج منها .

(٤) وهو ما حوله من المساكن .

(٥) الغلوة ، كشهوة : ثلاثمائة ذراع الى أربعمائة ، أى تسعة وثلاثون ومائة متر الى ستة وثمانية ومائة متر .

قال : وخرج على رضى الله عنه فقصر وهو يرى البيوت ، فلما رجع قيل له : هذه الكوفة • قال : لا •• حتى ندخلها ••

ثم يقول فى الدين الخالص :

وبهـذا قالت الأئمة الأربعة والأوزاعى واسحاق وجماعـة من التابعين •

وروى مطرف وابن المـاجشون عن مالك أنه لا يقصر حتى يجاوز ثلاثة أميال ، لظاهر قول أنس : « كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو فراسخ يصلى ركعتين » أخرجه أحمد ومسلم وأبو داوود •

قالوا : المراد به بيان المسافة التى يبدأ منها القصر •

قال ابن المنذر : ولا أعلم أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم قصر فى سفر من أسفاره الا بعد خروجه من المدينة • أ • هـ •

وخامسا : أن لا يقتدى بمقيم أو مسافر يتم الصلاة ، فان فعل ذلك وجب عليه الاتمام ، ولو دخل معه فى التشهد الأخير •

وقد قال الحنفية : لا يجوز اقتداء المسافر بالمقيم الا فى الوقت ، وعليه الاتمام حينئذ : لأن فرضه يتغير عند ذلك من اثنين لأربع :

أما اذا خرج الوقت فلا يجوز له الاقتداء بالمقيم ، لأن فرضه بعد خروج الوقت لا يتغير الى أربع ، لأنه استقر فى ذمته ركعتين فقط ، فلو اقتدى به بطلت صلاته لأن القعدة الأولى حينئذ فى حق المسافر المقتدى فرض ، وهى فى حق امامه المقيم ليست كذلك ، والواجب أن يكون الامام أقوى حالا من المـأموم فى الوقت وبعده •

أما اقتداء المقيم بالمسافر فيصح مطلقا •

وكذلك قال المـالكية : اذا لم يدرك المسافر مع الامام ركعة كاملة ، فلا يجب عليه الاتمام بل يقصر ، لأن المـأمومية لا تتحقق الا بادراك ركعة كاملة مع الامام •

وسادسا : أن ينوى القصر عند كل صلاة تقصر ••

قال المـالكية : تكفى نية القصر فى أول صلاة يقصرها فى السفر ولا يلزم تجديدها فيما بعدها من الصلوات ، فهى كنية الصوم أول ليلة من رمضان ، فانها تكفى لباقى الشهر •

وقال الحنفية : انه يلزمه نيـة السفر قبل الصـلاة ومتى نوى السفر ، كان فرضه ركعتين •• ولا يلزمه فى النيـة تعيين عدد الركعات •

وتحت عنوان : **مسافة القصر :**

قرأت تلخيصا مفيدا ، فى كتاب الفقه الواضح ، يقول فيه كاتبه :

اختلف الفقهاء فى تقدير مسافة القصر اختلافا كثيرا :

فقدرها الحنفية بثلاثة أيام ، أو ليال ، من أقصر أيام السنة ، سيرا معتادا .

واستدلوا بحديث خزيمة بن ثابت أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « المسح على الخفين للمسافر ثلاثة أيام ، وللمقيم يوم وليلة » . أخرجه أحمد وأبو داوود .

قالوا فى الحديث اشارة الى أن السفر التام الذى تتغير به الأحكام — لكونه مظنة المشقة المقتضية للتخفيف — هو الثلاثة ، والأخذ بها هو الأحوط ، وقد اعتبر الشرع هذا العدد فى أحكام كثيرة .

وقدرها الشافعية ، والمالكية ، والحنابلة بمرحلتين ، سيرا وسطا .. والمرحلتان أربعة برد ، والبريد أربعة فراسخ ، والفرسخ ثلاثة أميال ، فتكون المسافة بالأميال ثمانية وأربعين ميلا :

أى نحو تسعة وثمانين كيلو مترا .

واستدلوا على هذا التقدير بما روى عطاء بن أبى رباح أن ابن عمر ، وابن عباس ، كانا يصليان الرباعية ركعتين ، ويفطران فى أربعة برد[1] ، فما فوق ذلك . أخرجه البيهقى بسند صحيح .

ويقول عطاء بن أبى رباح : قلت لابن عباس : أقصر الصلاة الى عرفة ؟ فقال : لا ، ولكن الى جدة ، وعسفان ، والطائف ، وان قدمت الى أهل ، أو ماشية ، فأتم . أخرجه الشافعى والبيهقى بسند صحيح .

وهذه الأماكن الثلاثة تبعد عن مكة بنحو أربعة برد .

* * *

كما يقول تحت عنوان : **مدة القصر :**

اتفق الفقهاء على أن المسافر يقصر الصلاة ، حتى يقضى حاجته ، ويعود الى بلده ، ما لم ينو الاقامة ، ولو مكث فى سفره عدة شهور ، وذلك كأن ينتظر قضاء حاجته ، ويقول فى نفسه غدا أسافر ، غدا أسافر .

---

(١) برد : بضمتين ، جمع بريد ، فتكون المسافة بالميل ثمانية واربعين ميلا ، وبالكيلو متر نحوا من تسعة وثمانين كيلو مترا .

فان نوى الاقامة أيام ، فان الفقهاء يختلفون فى الأيام التى يقصر فيها الصلاة :

فذهب الحنفيـــة الى أنه لا يقصر الصـــلاة ، ان نوى الاقامة خمسة عشر يوما فأقصر لقول[١] ابن عباس وابن عمر : اذا قدمت بلدة ، وأنت مسافر ، وفى نفسك أن تقيم خمس عشرة ليلة ، فأكمل الصلاة بها ، وان كنت لا تدرى متى تظعن[٢] فأقصرها • أخرجه الطحاوى •

وذهب الشافعية : الى أنه لا يقصر الصلاة ، ان نوى الاقامة ثمانية عشر يوما ، لحديث عمر بن حصين ، قال : غزوت مع النبى صلى الله عليـــه وسلم ، وشهدت معه الفتح ، فأقام بمكة ثمانى عشرة ليلة ، لا يصلى الا ركعتين ، ويقول : « يا أهل البلد صلوا أربعا ، فانا قوم سفر »[٣] أخرجه الشافعى مطولا وأبو داوود •

وذهب المـــالكية ، وبعض الحنابلة : الى أنه لا يقصر ان نوى الاقامة أربعة أيام فأكثر ، لقول سعيد بن المسيب : من أجمع[٤] اقامة أربع ليال ، وهو مسافر ، أتم الصلاة • رواه مالك •

* * *

كما يقول تحت عنوان : **اقتداء المسافر بالمقيـــم :**

ان اقتدى المسافر بالمقيم أتم صلاته ، ان أدرك معـــه ركعة ، ولا يجوز له أن يقصرها ، لأن المـــأموم يتبع امامه وجوبا ، فلا يخرج من الصلاة قبله ، واذا اقتدى مقيم بمسافر ، وقصر المسافر الصلاة ، بأن صلى الظهر ركعتين — مثلا — فعلى المقيم أن يتم صلاته ، ولا يسلم مع امامه ، لحديث عمر بن حصين المتقدم ، وفيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث بمكة ثمانى عشرة ليلة ، فكان يصلى ركعتين ، ويقول : « يا أهل البلد صلوا أربعا ، فانا قوم سفر » •

أى لا تخرجوا من الصلاة معنا ، بل أكملوها أربعا ، فأنتم مقيمون ، ونحن على سفر ، ولنا رخصة فى قصر الصلاة ، ليست لكم ، والله أعلم •

* * *

---

(١) نقله صاحب الدين الخالص عن كتاب فتح القدير لابن الهمام .
(٢) أى تسافر .
(٣) أى لستم مثلنا فأنتم مقيمون ونحن على سفر .
(٤) أى من ذوى الاقامة .

وأما عن : **صلاة التطوع فى السفر :**

أى عن السنة القبلية والبعدية ، وغيرهما : فقد قال ملخصا — هذا فى فقه السنة — :

ذهب الجمهور من العلماء الى عدم كراهة النفل لمن يقصر الصلاة فى السفر لا فرق بين السنن الراتبة وغيرها • فعند البخارى ومسلم ، أن النبى صلى الله عليه وسلم اغتسل فى بيت أم هانىء يوم فتح مكة وصلى ثمانى ركعات •

وعن ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم ، كان يسبح على ظهر راحلته حيث كان وجهه يومىء برأسه •

وقال الحسن : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسافرون فيتطوعون قبل المكتوبة وبعدها •

ويرى ابن عمر وغيره ، أنه لا يشرع التطوع مع الفريضة لا قبلها ولا بعدها الا من جوف الليل ، ورأى قوما يسبحون — أى يصلون — بعد الصلاة ، فقال : لو كنت مسبحا لأتممت صلاتى ، يا ابن أخى صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يزد على ركعتين ، وذكر عمر وعثمان ، وقال : **« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة »**[1] • رواه البخارى •

وجمع ابن قدامة بين ما ذكره الحسن وبين ما ذكره ابن عمر بأن حديث الحسن يدل على أنه لا بأس بفعلها ، وحديث ابن عمر يدل على أنه لا بأس بتركها •

والمختار[2] عند الحنفيين : أن المسافر اذا كان فى حال أمن وقرار يأتى بالرواتب ، وان كان فى حال خوف وفرار لا يأتى بها • وبه يجمع بين الأحاديث •

* * *

وأما عن الرخصة الرابعة ، وهى :

الجمع بين الصلاتين فى السفر

فخلاصة القول فى هذا الموضوع ، هو : أن الفقهاء اتفقوا على أنه لا يجوز الجمع بين الصبح والظهر ، ولا بين العصر والمغرب ••

---

(١) الأحزاب : ٢١

(٢) كما يقول فى الدين الخالص ج ٤

ولكنهم اختلفوا فى الجمع بين الظهـر والعصر ، وبين المغرب والعشاء فأجازه أكثر الفقهاء فى الأحاديث الآتية[١] :

بعرفة والمزدلفة :

أما بعرفة فان الحجاج يجمعون بين الظهر والعصر ، جمع تقديم فيصلون الظهر ركعتين ، ثم يؤذنون للعصر فيصلونه ركعتين ، لأنهم على سفر .

وأما بمزدلفة ، فانهم يجمعون بين المغرب والعشاء جمع تأخير ، فيصلون المغرب ثلاث ركعات ، لأنها صلاة لا تقصر ، ويصلون العشاء ركعتين ، صلاة قصر .

والجمع بعرفة والمزدلفة : سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى السفر الطويل :

فانه من نوى السفر الى مكان ، سفرا تقصر الصلاة فيه : له أن يجمع بين الظهر والعصر ، أو بين المغرب والعشاء ، جمع تقديم ، أو تأخير :

فان خرج من منزله قبل حضور وقت الظهر ، فله أن يؤخر صلاة الظهر الى العصر ، ويجمعهما جمع تأخير .

وان خرج قبل غروب الشمس : جمع المغرب والعشاء جمع تأخير .

وان خرج بعد الغروب : جمع العشاء مع المغرب جمع تقديم .

هكذا كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فعن معاذ رضى الله عنه : « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى غزوة تبوك اذا زاغت[٢] الشمس قبل أن يرتحل ، جمع بين الظهر والعصر ، واذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس ، أخر الظهر ، حتى ينزل للعصر ، وفى المغرب مثل ذلك ، وان غابت الشمس قبل أن يرتحل ، جمع بين المغرب والعشاء ، وان ارتحل قبل أن تغيب الشمس ، أخر المغرب ، حتى ينزل للعشاء ، ثم نزل فجمع بينهما » . رواه أبو داوود والترمذى .

* * *

---

(١) كما لخص هـذا فى الفقه الواضح ج ٢

(٢) اى زالت عن وسط السماء ناحية الغرب ، وهو وقت وجوب الظهر .

وفى حال وجود المطر أو توقعه :

جوز الحنابلة الجمع بين المغرب والعشاء جمع تقديم وتأخير ، اذا كثر الوحل ، وكثر نزول المطر ، وشق على الناس الوصول الى المسجد .

وجوز المالكية الجمع بين المغرب والعشاء جمع تقديم فقط ، بالمسجد — أيضا — لنفس العذر .

روى البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم جمع بين المغرب والعشاء فى ليلة مطيرة .

* * *

وبسبب المرض أو العذر :

ذهب الامام أحمد ، والقاضى حسين ، والخطابى ، والمتولى من الشافعية : الى جواز الجمع تقديما وتأخيرا ، بعذر المرض ، لأن المشقة فيه أشد من المطر ، قال النووى : وهو قوى فى الدليل . وفى المغنى : والمرض المبيح للجمع هو : ما يلحقه به بتأدية كل صلاة فى وقتها مشقة وضعف .

وتوسع الحنابلة ، فأجازوا الجمع تقديما وتأخيرا ، لأصحاب الأعذار ، وللخائف ، فأجازوه للمرضع التى يشق عليها غسل الثوب فى وقت كل صلاة ، وللمستحاضة ، ولمن به سلس بول ، ولعاجز عن الطهارة ، ولمن خاف على نفسه ، أو ماله ، أو عرضه ، ولمن خاف ضررا يلحقه فى معيشته بترك الجمع[1] أ . هـ .

قال ابن تيمية : وأوسع المذاهب فى الجمع مذهب أحمد ، فانه جوز الجمع اذا كان شغل كما روى النسائى ذلك مرفوعا الى النبى صلى الله عليه وسلم الى أن قال : يجوز الجمع أيضا للطباخ والخباز ونحوهما ممن يخشى فساد ماله .

* * *

فائدة هامة :

قال فى المغنى : واذا أتم الصلاتين فى وقت الأولى ثم زال العذر بعد فراغه منهما قبل دخول وقت الثانية أجزأته ولم تلزمه الثانية فى وقتها ، لأن الصلاة وقعت صحيحة مجزئة عما فى ذمته وبرئت ذمته منها ،

---

(١) انظر فقه السنة ج ٢ ص ٢٣٠

فلم تشتغل الذمة بها بعد ذلك ، ولأنه أدى فرضه حال العذر فلم يبطل بزواله بعد ذلك ، كالمتيمم اذا وجد المـاء بعد فراغه من الصلاة .

* * *

وفائدة أخرى :

وهى أنه يسن لمن جمع بين الصلاتين لسـفر أو غيره أن يؤذن للأولى ويقيم لكل منهما ، لحديث جابر بن عبد الله : أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى الصلاتين بعرفة بأذان واحد واقامتين ، وأتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد واقامتين ، ولم يسبح بينهما[1] ثم اضطجع حتى طلع الفجر . أخرجه مسلم والنسائى .

وبهذا : قالت الحنفية والشافعية والحنبلية ، وأبو ثور وعبد الملك ابن المـاجشون المـالكى ، وقواه الطحاوى .

وقالت المـالكية : يؤذن ويقيم لكل واحدة منهما غير أنه يخفض صوته بأذان الثانية مخافة التخليط على الناس ..

وقال الثورى : يصليهما باقامة واحدة ..

قال فى الدين الخالص : والراجح القول الأول[2] ..

* * *

وأما عن الرخصة الخامسة ، وهى :

التنفـل راكبا

قال فى الاحياء : كان رسول الله صلى الله عليـه وسلم : يصلى على راحلته أينما توجهت به دابته ، وأوتر رسول الله صلى الله عليـه وسلم على الراحلة[3] .

وليس على المتنفل الراكب فى الركوع والسجود الا الايماء ، وينبغى أن يجعل سجوده أخفض من ركوعه ، ولا يلزمه الانحناء الى حد يتعرض به لخطر بسبب الدابة ، فان كان فى مرقد فليتـم الركوع والسجود فانه قادر عليه .

وأما استقبال القبلة : فلا يجب لا فى ابتداء الصلاة ولا فى دوامها ، ولكن صوب الطريق بدل عن القبلة ، فليكن فى جميع صلاته اما مستقبلا

---

(١) لم يسبح ، أى لم يتنفل بين المغرب والعشاء .

(٢) انظر الدين الخالص ج ٤ ص ٧٩

(٣) كما جاء فى نص حديث صحيح رواه احمد والشيخان ـــ وفيه بعد ذلك : « غير أنه لا يصلى عليها المكتوبة » : اى المفروضة .

للقبلة أو متوجها فى صوب الطريق لتكون له جهة يثبت فيها ، فلو حرف دابته عن الطريق قصدا بطلت صلاته ، الا اذا حرفها الى القبلة ، ولو حرفها ناسيا وقصر الزمان لم تبطل صلاته ، وان طال ففيه خلاف ، وان جمحت به الدابة فانحرفت لم تبطل صلاته ، لأن ذلك مما يكثر وقوعه ، وليس عليه سجود سهو ، اذ الجماح غير منسوب اليه ، بخلاف ما لو حرف ناسيا ، فانه يسجد للسهو بالايماء .

وقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى على راحلته وهو مقبل من مكة الى المدينة حيثما توجهت به وفيه نزلت : « **فأينما تولوا فثم وجه الله** »[1] . رواه أحمد ومسلم والترمذى وصححه .

* * *

وأما الرخصة السادسة ، وهى :

التنفل ماشيا

ففى الاحياء يقول أيضا : التنفل للماشى جائز فى السفر ، ويومىء بالركوع والسجود ، ولا يقعد للتشهد ، لأن ذلك يبطل فائدة الرخصة ، وحكمه حكم الراكب ، لكن ينبغى أن يتحرم[2] بالصلاة مستقبلا للقبلة ، لأن الانحراف فى لحظة لا عسر عليه فيه ، بخلاف الراكب ، فان فى تحريف الدابة وان كان العنان بيده نوع عسر ، وربما تكثر الصلاة فيطول عليه ذلك ، ولا ينبغى أن يمشى فى نجاسة رطبة عمدا ، فان فعل بطلت صلاته ، بخلاف ما لو وطئت دابة الراكب نجاسة ، وليس عليه أن يشوش المشى على نفسه بالاحتراز من النجاسات التى لا تخلو الطريق عنها غالبا ، وكل هارب من عدو ، أو سيل ، أو سبع ، فله أن يصلى الفريضة راكبا أو ماشيا كما ذكرناه فى التنفل .

* * *

وفى فقه السنة[3] ، أشار الى حكم :

الصلاة فى السفينة والقاطرة والطائرة

فقال : تصح الصلاة فى السفينة والقاطرة والطائرة بدون كراهة حسبما تيسر للمصلى :

---

(١) البقرة : ١١٥

(٢) اى يكبر تكبيرة الاحرام وهو متوجه للقبلة ، ثم يسير بعد ذلك فى اتجاهه وهو يصلى .

(٣) وكذا فى الدين الخالص ج ٢ ص ١١٦

فعن ابن عمر ، قال : سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فى السفينة ؟ قال : « صل فيها قائما الا أن تخاف الغرق » • رواه الدارقطنى والحاكم على شرط الشيخين •

وعن عبد الله بن أبى عتبة ، قال : صحبت جابر بن عبد الله وأبا سعيد الخدرى وأبا هريرة فى سفينة ، فصلوا قياما فى جماعة ، أمهم بعضهم وهم يقدرون على الجد[1] • رواه سعيد بن منصور •

وقد اتفق الأئمة الأربعة على جواز الصلاة فرضا وغيره فى السفينة ونحوها ، فان كانت واقفة أو مستقرة على الأرض ، صحت الصلاة فيها وان أمكنه الخروج منها اتفاقا ، لأنها اذا استقرت كان حكمها حكم الأرض • ولابد من الركوع والسجود والتوجه الى القبلة فى كل الصلاة • ويلزم أيضا القيام فى الفرض للقادر عليه •

وان كانت سائرة فان لم يمكنه الخروج الى الشط وصلى قائما بركوع وسجود ، أو قاعدا لعجزه عن القيام بأن كان يعلم أنه يدور رأسه لو قام : صحت صلاته اتفاقا •

واذا دارت السفينة ونحوها فى أثناء الصلاة ، استدار الى القبلة حيث دارت ان أمكنه ، لأنه قادر على تحصيل هذا الشرط بغير مشقة ، فيلزمه تحصيله اتفاقا • فان عجز عن الاستقبال صلى الى جهة قدرته ولا اعادة عليه عند الأئمة الثلاثة •

* * *

وأما عن الرخصة السابعة ، من رخص السفر ، وهى :

الفطـر فى رمضـان

كما تشير الآية الكريمة التى يقول الله تبارك وتعالى فيها : **« •• فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر •• »**[2] •

وقد كان بعض الصحابة يصوم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعضهم يفطر متابعين فى ذلك فتوى رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال حمزة الأسلمى : يا رسول الله •• أجد منى قوة على الصوم فى السفر فهل على جناح ؟ فقال : « هى رخصة من الله تعالى ، فمن أخذ بها فحسن ، ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه » رواه مسلم •

---

(١) الجد بضم الجيم ، شاطىء النهر ، وكذا الجدة ، وبه سمى ثغر مكة : جدة .

(٢) البقرة : ١٨٤

وعن أبى سعيد ، قال : سافرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مكة — ونحن صيام — قال : فنزلنا منزلا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انكم قد دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم ، فكانت رخصة فمنا من صام ، ومنا من أفطر ، ثم نزلنا منزلا آخر ، فقال : انكم مصبحوا عدوكم ، والفطر أقوى لكم ، فأفطروا ، فكانت عزمة ، فأفطرنا ، ثم رأيتنا نصوم بعد ذلك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السفر » • رواه أحمد ومسلم وأبو داوود •

وقد اختلف الفقهاء فى أيهما أفضل :

فرأى أبو حنيفة والشافعى ومالك : أن الصيام أفضل لمن قوى عليه ، والفطر أفضل لمن لا يقوى على الصيام •

وقال أحمد : الفطر أفضل •

وقال عمر بن عبد العزيز : أفضلهما أيسرهما ، فمن يسهل عليه حينئذ ويشق عليه قضاؤه بعد ذلك فالصوم فى حقه أفضل •

وحقق الشوكانى : فرأى أن من كان يشق عليه الصوم ، ويضره ، وكذلك من كان معرضا عن قبول الرخصة ، فالفطر أفضل ، وكذلك من خاف على نفسه العجب أو الرياء اذا صام فى السفر فالفطر فى حقه أفضـــل •

وما كان من الصيام خاليا عن هذه الأمور فهو أفضل من الافطار •

واذا نوى المسافر الصيام بالليل وشرع فيه جاز له الفطر أثناء النهار : فعن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج الى مكة عام الفتح فصام حتى بلغ كراع الغميم[1] ، وصام الناس معه ، فقيل له : ان الناس قد شق عليهم الصيام ، وان الناس ينظرون فيما فعلت ، فدعا بقدح من ماء بعد العصر فشرب والناس ينظرون اليه ، فأفطر بعضهم ، وصام بعضهم ، فبلغه أن ناسا صاموا ، فقال : « أولئك العصاة »[2] • رواه مسلم والنسائى والترمذى وصححه •

والسفر المبيح للفطر ، هو السفر الذى تقصر الصلاة بسببه ، ومدة الاقامة التى يجوز للمسافر أن يفطر فيها ، هى المدة التى يجوز له أن يقصر الصلاة فيها • وقد تقدم جميع ذلك فى مبحث قصر الصلاة •

---

(١) اسم واد أمام عسفان .

(٢) لأنه عزم عليهم فأبوا وخالفوا الرخصة .

وفى الاحياء ، يقول الامام الغزالى رحمه الله تعالى ، حول تلك الرخصة السابعة :

فللمسافر أن يفطر الا اذا أصبح مقيما ثم سافر فعليه اتمام ذلك اليوم •

وان أصبح مسافرا صائما ثم أقام فعليه الاتمام •

وان أقام مفطرا فليس عليه الامساك بقية النهار •

وان أصبح مسافرا على عزم الصوم لم يلزمه ، بل له أن يفطر اذا أراد ، والصوم أفضل من الفطر ، والقصر أفضل من الاتمام ، للخروج عن شبهة الخلاف ، ولأنه ليس فى عهدة القضاء بخلاف المفطر فانه فى عهدة القضاء ، وربما يتعذر عليه ذلك بعائق فيبقى فى ذمته الا اذا كان الصوم يضر به فالافطار أفضل •

ثم يقول الامام الغزالى بعد ذلك معلقا على جميع تلك الرخص التى وقفنا عليها :

فهذه سبع رخص ، تتعلق ثلاث منها بالسفر الطويل ، وهى : القصر ، والفطر ، والمسح ثلاثة أيام •

وتتعلق اثنتان منها بالسفر طويلا كان أو قصيرا ، وهما : سقوط الجمعة ، وسقوط القضاء عند أداء الصلاة بالتيمم •

وأما صلاة النافلة ، ماشيا وراكبا ففيه خلاف والأصح جوازه فى القصير •

والجمع بين الصلاتين : فيه خلاف ، والأظهر اختصاصه بالطويل •

وأما صلاة الفرض راكبا وماشيا للخوف فلا تتعلق بالسفر ، وكذا أكل الميتة ، وكذا أداء الصلاة فى الحال بالتيمم عند فقد الماء ، بل يشترك فيها الحضر والسفر مهما وجدت أسبابها •

* * *

فليذكر الأخ القارىء كل تلك الأحكام التى وقفنا عليها ، والتى تتعلق بتلك الرخص التى شرعت كما عرفنا رحمة بالمسافر وتفضلا من الله سبحانه وتعالى عليه •

مع ملاحظة :

أن الرخصة ، معناها : تسهيل أمر صعب لضرورة شرعية ، مثل جعل الصلاة الرباعية ركعتين فى السفر •

وأن العزائم ، جمع عزيمة ، وهى : الأمر المطلوب فعله أو تركه ، على جهة الوجوب .

وهناك ملاحظة أخرى ، أو حكم آخر ، أرى ضرورة أن تقف عليه الأخت المسلمة ، وأنت كذلك كزوج ، أو محرم لها ، وهو :

حكم سفر المرأة :

وخلاصة الاجابة على هذا ، هو أنه لا يحل للمرأة السفر ولو للحج الا مع محرم أو زوج :

فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفرا يكون ثلاثة أيام فصاعدا الا ومعها أبوها ، أو أخوها ، أو زوجها ، أو ابنها ، أو ذو محرم منها » رواه البخارى ومسلم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم وليلة الا مع ذى محرم منها — وفى رواية : مسيرة يوم — وفى أخرى — مسيرة ليلة الا ومعها رجل ذو محرم منها » . رواه مالك والبخارى ومسلم ، وغيرهما ، وفى رواية لأبى داوود وابن خزيمة : « أن تسافر بريدا »[1] .

فهذه الأحاديث تشمل كل سفر ومنه الحج ، ولا تعارض[2] آية : **« ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا »**[3] .

لأن الأحاديث تضمنت أن المحرم فى حق المرأة من جملة الاستطاعة على السفر المطلقة فى الآية .

والمحرم : كل من حرم عليه نكاح المرأة على التأبيد لسبب مباح لحرمتها :

فبقيد التأبيد ، خرجت أخت امرأته ، وعمتها ، وخالتها ، وبنتها اذا فارق الأم قبل الدخول .

وبقيد لسبب مباح ، خرجت أم الموطوءة بشبهة وبنتها ، فانه يحرم نكاحهما على التأبيد لكن لا لسبب مباح ، فان وطء الشبهة لا يوصف بالاباحة ولا الحرمة ولا غيرهما من الأحكام الخمسة ، لأنه ليس فعلا مكلفا به .

---

(١) أى أربع فراسخ ، والفرسخ : ثلاثة أميال ، والميل : الف باع .

(٢) كما يقول فى الدين الخالص ج ٤ (٣) آل عمران : ٩٧

وبقيد لحرمتها ، خرجت الملاعنة فانها حرام على التأبيد لا لحرمتها ، بل تغليظا على المتلاعنين •

واستثنت الحنبلية المحرم الكافر ، فانه لا يعد محرما لقريبته المسلمة عندهم ، لأنه لا يؤمن أن يفتنها عن دينها •

* * *

قال فى الدين الخالص ، تحت عنوان :

(فائـــدة)

يستحب لمن له أكثر من زوجة وأراد السفر باحداهن أن يقرع بينهن تطييبا لخاطرهن ، فمن خرج سهمها أخذها معه لحديث عائشة : أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان اذا أراد أن يخرج سفرا ــ يعنى الى سفر ــ أقرع بين أزواجه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه • أخرجه أحمد والبخارى •

وفى رواية : كان اذا أراد سفرا أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه • أخرجه الشيخان وأبو داوود وابن ماجه •

ثم يقول فى الدين الخالص :

وكيفية القرعة أن يؤخذ خاتم هذا ، وخاتم هذا ، ويوضعان فى جراب أو نحوه فيخرج واحد منهما •

وقيل : يكتب اسم كل فى ورقة وتطوى ثم توضع فى جراب ونحوه ، فمن خرجت ورقته فهو صاحب القرعة •

* * *

وبعد ، أخا الاسلام : اذا كان لنا أن نعود الآن ، وبعد أن وقفنا على المعنى المراد من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « السفر قطعة من العذاب ، يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه •• » • وتعرفنا من خلال هذا المعنى على فضل السفر وآدابه وأذكاره ، كما عرفنا رخص السفر ، وما يتعلق بهذا الموضوع من أدلة نقلية وعقلية ، بالاضافة الى الأحكام الموضوعية التى وقفنا عليها والتى تتعلق بكل هذا من أوله الى آخره على ضوء المراجع الصحيحة التى من أهمها : الفقه على المذاهب الأربعة ، والدين الخالص ، وفقه السنة ، والفقه الواضح ، وغير ذلك من كتب الفقه المعتمدة :

اذا كان لنا أن نعود بعد ذلك الى الوصية لكى نستكمل الجزء المتبقى منها ، وهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« .. فاذا قضى أحدكم نهمته من سفره : فليعجل الرجوع الى أهله » :

فالمعنى الاجمالى ، هو : أنه من الواجب على رب الأسرة المسافر ، اذا قضى نهمته — أى حاجته — من سفره : أن يعجل بالرجوع الى أهله ، لأنه مسئول عنهم ولابد أن يعود سريعا اليهم ، حتى يباشر مصالحهم ، ويسهر على راحتهم :

ففى الحديث الشريف : « خيركم خيركم لأهلـه ، وأنا خيركم لأهلى »[1] .

وفى الحديث : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »[2] .

وقد وردت أحاديث كثيرة ترغب الانسان فى الانفاق على أهله ، فاليك بعضها :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك : أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلك » رواه مسلم .

وعن أبى مسعود البدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « اذا أنفق الرجل على أهله نفقة يحتسبها فهى له صدقة » متفق عليـه .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء اثما أن يضيع من يقوت » حديث صحيح رواه أبو داوود وغيره .

ورواه مسلم فى صحيحه بمعناه ، قال : « كفى بالمرء اثما أن يحبس عمن يملك قوته » .

وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فى حديثه الطويل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « انك لن تنفق نفقة تبتغى

---

(١) رواه الترمذى .

(٢) جزء من حديث رواه البخارى ومسلم ، عن ابن عمر .

بها وجه الله الا أجرت بها ، حتى ما تجعل فى فى امرأتك »[١] متفق عليـــه .

* * *

فاذا كان الأخ المسلم المسافر سينفذ ــ بعون الله وتوفيقه ــ وصية الرسول صلى الله عليه وسلم بمجرد قضاء نهمته من سفره :

فاننى أحب كذلك ، أن أزوده ببعض المستحبات ، التى ذكرها الامام محمود خطاب السبكى رحمه الله تعالى ، تحت عنوان :

آداب الرجوع من السفر

يستحب لمن قدم من السفر : أن يبدأ بالمسجد فيصلى فيه ركعتى القدوم ، وأن يجلس من يقصد للسلام عليه فى مكان بارز سهل على زائريه ، وألا يأتى أهله بغتة :

لقول جابر بن عبد الله : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فى سفر فلما قدمنا المدينة ، قال لى : « ادخل المسجد فصل ركعتين » . أخرجه الشيخان .

ولقول كعب بن مالك : « كان النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، لا يقدم من سفر الا نهارا[٢] فى الضحى ، فاذا قدم بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ، ثم جلس فيه فيأتيه الناس فيسلمون عليه » أخرجه أحمد والشيخان .

ولقول أنس بن مالك : « كان النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يطرق أهله ليلا ، كان يدخل عليهم غدوة[٣] أو عشية »[٤] . أخرجه أحمد والشيخان .

ولحديث جابر بن عبد الله أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال له : « اذا دخلت ليلا : فلا تدخل على أهلك حتى تستحد المغيبة[٥] وتمتشط

---

(١) فى الثانية : أى فم امرأتك .

(٢) التقييد بالنهار باعتبار الغالب ، والا ففى الحديث بعده : « كان يدخل عليهم غدوة أو عشية » .

(٣) الغدوة : ما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس .

(٤) العشية : ما بعد الزوال الى الغروب .

(٥) أى من غاب عنها زوجها . والاستحداد : معناه الاستعداد . بالنظافة لتستقبله على أحسن حال .

الشعثة[١] واذا دخلت فعليك الكيس[٢] الكيس » أخرجه البخارى ، وأبو داوود ومسلم والترمذى ، والنسائى ، وأحمد .

ولحديث ابن عمر : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل العقيق[٣] فنهى عن طروق النساء الليلة التى يأتى فيها ، فعصاه فتيان فكلاهما رأى ما يكره » . أخرجه أحمد بسند جيد ، وأخرجه الترمذى عن ابن عباس قال : لما نهاهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يطرقوا النساء ليلا طرق رجلان بعد النهى فوجد كل واحد منهما مع امرأته رجلا . أهـ .

فقد أفادت هذه الأحاديث : أنه يكره لمن طال سفره أن يقدم على امرأته ليلا بغتة .

فأما من كان سفره قريبا تتوقع امرأته اتيانه ليلا ، فلا بأس ، ففى رواية : « اذا أطال الرجل الغيبة » .

وكذا اذا علمت امرأته وأهله وقت قدومه فلا بأس بقدومه متى شاء ، لزوال سبب النهى وهو مفاجأة أهله قبل أن يتأهبوا لقدومه :

ويؤيده ما تقدم فى حديث جابر من قوله صلى الله عليه وسلم : « فلا تدخل على أهلك حتى تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة » .

ويستحب لمن قدم من سفر ودخل بيته أن يقول ، ما فى حديث ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم اذا رجع من سفره فدخل على أهله قال : « توبا توبا[٤] ، لربنا أوبا[٥] لا يغادر حوبا »[٦] . أخرجه ابن السنى ، وكذا البزار وأبو يعلى ، بلفظ : فاذا دخل على أهله ، قال : « أوبا أوبا ، لربنا توبا ، لا يغادر علينا حوبا » وأخرجه أحمد ، والطبرانى فى الكبير بسند رجاله رجال الصحيح .

* * *

ويستحب أن يقال لمن قدم من سفر : الحمد الله الذى سلمك ، الحمد لله الذى جمع الشمل بك ، ونحو ذلك :

---

(١) أى من تلبد شعرها .

(٢) الكيس : بفتح فسكون فى الأصل العقل : أريد به هنا الجماع .

(٣) العقيق : موضع قرب المدينة مما يلى الحرة الى منتهى البقيع .

(٤) توبا : مصدر تاب منصوب على تقدير : تب علينا توبا ، أو نسألك توبا .

(٥) أوبا : من آب اذا رجع .

(٦) الحوب : الاثم .

فقد قالت عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة ، فلما دخل استقبلته فأخذت بيده ، فقلت : الحمد لله الذى نصرك وأعزك وأكرمك • أخرجه ابن السنى •

* * *

وأخيرا أخا الاسلام :

وبعد أن وقفنا على أنواع السفر الدنيوى وآدابه ، وأذكاره ، وأحكامه :

أريد بعد ذلك ، ومع ذلك أن أذكرك ونفسى ببعض المواعظ الهامة التى تتعلق بالسفر الأخروى الطويل ، الذى أشار اليه ، أو تحدث عنه الصحابى الجليل أبو الدرداء رضى الله عنه ، يوم أن وقف أمام الكعبة قائلا لأصحابه : « أليس اذا أراد أحدكم سفرا يستعد له بزاد ؟ قالوا : نعم • قال : فسفر الآخرة أبعد مما تسافرون • فقالوا : دلنا على زاده • فقال : حجوا حجة : لعظائم الأمور ، وصلوا ركعتين فى ظلمة الليل : لوحشة القبور ، وصوموا يوما شديدا حره : لطول يوم النشور » •

* * *

وأول تلك المواعظ التى أريد أن أزودك ونفسى بها لهذا السفر الطويل :

هو تلك الخطبة الجامعة التى يقول فيها أفضل الوعاظ صلوات الله وسلامه عليه : « أيها الناس •• ان لكم معالم[1] فانتهوا الى معالمكم ، وان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم ، ان المؤمن بين مخافتين ، بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله تعالى قاض عليه فيه ، فليأخذ العبد لنفسه من نفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت • والذى نفس محمد بيده ، ما بعد الموت من مستعتب[2] ولا بعد الدنيا دار الا الجنة أو النار » • ذكره أبو بكر الباقلانى فى كتابه اعجاز القرآن •

---

(١) جمع معلم ، كمذهب ، وهو فى الأصل الدليل فى الطريق ، والمراد به هنا حدود الشريعة المطهرة .

(٢) أى ليس بعد الموت استرضاء ، لأنه وقت جزاء لا وقت عمل : « فاليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل » كما جاء فى نص حديث شريف .

وثانى تلك المواعظ ، هو تلك الوصية الجامعة التى يقول فيها لقمان الحكيم لولده : « يا بنى انك منذ نزلت الى الدنيا استدبرتها واستقبلت الآخرة ، فدار أنت اليها تسير ، أقرب من دار أنت عنها ترحل » .

ومن وصاياه أيضا عليه السلام لولده :

« يا بنى انى موصيك بثمانية أمور ، ان أنت عملت بها كنت سعيدا فى الدنيا والآخرة :

احفظ قلبك فى الصلاة ، واحفظ نظرك فى بيوت الناس ، واحفظ لسانك فى مجالس الناس ، واحفظ بطنك من حلقومك .

واذكر اثنين ، وانس اثنين : اذكر الله ، والموت . وانس احسانك الى الناس ، واساءتهم اليك » .

* * *

وثالث تلك المواعظ ، هو كلام جامع لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، يقول فيه : « ان لكل سفر زادا لا محالة ، فتزودوا — لسفركم من الدنيا الى الآخرة — التقوى ، وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا ، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم ، فوالله ما بسط أملا من لا يدرى لعله لا يصبح بعد مسائه ، ولا يمسى بعد صباحه ، ولربما كانت بين ذانك خطفات المنايا .. » .

ومن وصاياه أيضا رضى الله عنه : « ان الله عز وجل لم يخلقكم عبثا ، ولم يدع شيئا من أموركم سدى ، ان لكم معادا ينزل الله فيه للحكم والقضاء بينكم ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله عز وجل ، وحرم الجنة التى عرضها السموات والأرض ، فاشترى قليلا بكثير ، وفانيا بباق ، وخوفا بأمن .. » .

ومن كلامه أيضا رضى الله عنه : « .. ألا ان الدنيا بقاؤها قليل ، وعزيزها ذليل ، وغنيها فقير ، وشابها يهرم ، وحيها يموت ، فلا يغرنكم اقبالها مع معرفتكم بسرعة ادبارها ، فالمغرور من اغتر بها .

أين سكانها الذين بنوا مدائنها ، وشقوا أنهارها وغرسوا أشجارها ، وأقاموا فيها أياما يسيرة ؟ غرتهم بصحتهم فاغتروا بنشاطهم ، فركبوا المعاصى ، انهم كانوا والله فى الدنيا مغبوطين بالأموال ، على كثرة المنع عليه محسودين على جمعه ، ما صنع التراب بأبدانهم ، والرمل بأجسادهم ، والديدان بعظامهم وأوصالهم ، كانوا فى الدنيا على آسرة ممهدة ، وفرش منضودة ، بين خدم يخدمون ، وأهل يكرمون ، وجيران يعضدون ،

... ثم لم يلبثوا والله الا يسيرا ، حتى عادت العظام رميما ، قد فارقوا الحدائق ، وساروا بعد السعة الى المضائق ، وقد تزوجت نساؤهم وترددت فى الطرق أبناؤهم ، وتوزعت الورثة ديارهم وتراثهم ، فمنهم والله الموسع له فى قبره ، الغض الناضر فيه المتنعم بلذته .. » .

* * *

ورابع تلك المواعظ ، هو ما قاله ابراهيم بن أدهم رضى الله عنه ، عندما سئل : لم زهدت فى الدنيا يا ابراهيم ؟ فقال : لثلاث :

الأول : رأيت الطريق طويلا وليس معى زاد .

الثانى : رأيت القبر موحشا وليس معى مؤنس .

الثالث : رأيت الجبار قاضيا ، وليس معى حجة ، ولا من يدافع عنى .

* * *

فمن كل تلك المواعظ ، وغيرها من المواعظ النافعة ، يتضح لنا : أننا جميعا وبدون استثناء فى سفر الى الله تبارك وتعالى مهما طالت اقامتنا فى تلك الحياة الأولى التى أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء :

كما يقول سيدنا على رضى الله عنه ، الذى قرأت : أن رجلا اشترى بيتا ، ثم ذهب اليه رضى الله عنه ، ليكتب له حجة هذا البيت ، فكتب عليه رضوان الله ، يقول : « هذه الدار اشتراها ميت من ميت : الحد الأول : الى الموت ، والحد الثانى : الى القبر ، والحد الثالث : الى الحساب ، والحد الرابع : اما الى الجنة واما الى النار » .

فاذا كنا جميعا — كما اتفقنا — فى سفر الى الله ، واذا كنا بعد انتقالنا الى الدار الآخرة . سنحتاج — هناك — الى الزاد الحقيقى الذى سيكون عونا لنا : **« يوم لا ينفع مال ولا بنون . الا من أتى الله بقلب سليم »**(١) ، **« .. يوم ينظر المرء ما قدمت يداه .. »**(٢) ، **« يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه »**(٣) ، **« يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله »**(٤) ، **« يوم يقوم الناس لرب العالمين »**(٥) .

---

(١) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩
(٢) النبأ : ٤٠
(٣) عبس : ٣٤ — ٣٧
(٤) الانفطار : ١٩
(٥) المطففين : ٦

فلابد اذن ، وأن نعد أنفسنا لهذا اليوم ، قبل فوات الأوان ، وقبل أن نقول كما قال القائل الذى ظل نائما ، وعندما جاءه الموت قال : **« .. رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها ، والله خبير بما تعملون »**[1] .

ولابد كذلك ، وأن ننفذ وصية الرسول صلى الله عليه وسلم التى يقول فيها لأبى ذر رضى الله عنه : « أحكم السفينة فان البحر عميق ، واستكثر الزاد فان السفر طويل ، وخفف ظهرك فان العقبة كؤود[2] ، وأخلص العمل فان الناقد بصير » .

والله أسأل أن يبارك لنا جميعا فى أسفارنا ، وأن يختم لنا جميعا بالايمان ..

آمين .. آمين .. آمين .

* * *

(١) المنافقون : ١٠ ، ١١

(٢) العقبة : المرقي الصعب ، الطريق فى اعلى الجبال ، وكئود : اى شاقة المصعد ، صعبة المرتقى .

الجزء الثانى عشر

الوصية السابعة والثلاثون

عن أبى ذر جندب بن جنـــادة وأبى عبد الرحمن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنهما عن رسول الله صلى الله عليـــه وآله وسلم قال :

« اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » ..

(رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن ، وفى بعض النسخ حسن صحيح) .

* * *

فكن أخا الاسلام :

منفذا لهذا الحديث الجامع ، أو لتلك الوصية العظيمة الجامعة التى أوصى بها الرسول صلى الله عليه وسلم أبا ذر ومعاذا رضى الله عنهما ، والتى يحتمل أن تكون لأبى ذر وسمعها معاذ ، أو لمعاذ وسمعها أبو ذر ، أو لغيرهما وسمعاها ، وأفرد الضمير على تقدير كل ، أو لكل من يتأتى توجيه الأمر اليه ليعم كل مأمور حتى لا يختص بها مخاطب دون آخر ، من تلك الأمة المحمدية الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ولمـــا كانت هـــذه الوصية ـــ كما قرأت فى شروحها الكثيرة ـــ تشتمل على ثلاثة حقوق : حق الله ، وحق المكلف ، وحق العباد :

فاننى أرى أن أقف معك من خلال شرحى لتلك الوصية ، على تلك الحقوق التى أولها وأهمها :

حق الله

وهو قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « اتق الله حيثما كنت » : أى فى الخلوة ، والجلوة ، والشدة ، والرخاء . أو فى أى زمان أو مكان كنت فيه ، **حتى تكون فعلا من الذين يخشون الله .**

وحسبك لكى تنفذ هذا أن تستحضر فى قلبك أن الله تعالى مطلع عليك فى جميع أحوالك ، كما تشير الآية الكريمة التى يقول الله تبارك وتعالى فيهـا : « **ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، ان الله بكل شيء عليم** »(١) .

وهذا يستلزم أن يكون هناك حياء من الله تعالى ، كما جاء فى وصيـة لسيدنا على كرم الله وجهه يقول فيـها لولده الحسن عليـه رضوان الله :

يا بنى .. استح من ثلاث : اسـتح من مطالعة الله اياك وأنت مقيم على ما يكره ، واستح من الحفظة الكرام الكاتبين ، واسـتح من صالحى المؤمنين .

ويقول وهب مشيرا الى هذا : الايمان عريان ، ولباسه التقوى ، وريشه الحياء ، ورأس ماله العفة .

ومن أجمل ما قرأت فى هـذا ـ أيضا ـ أن ثاران بن لقمان ، قال لأبيه ذات يوم : أى الخصال خير ؟ قال : الدين . قال : فان كانت اثنتين ؟ قال : الدين والمـال . قال : فان كانت ثلاثا ؟ قال : الدين والمـال والحياء . قال : فان كانت أربعا ؟ قال : فالثلاثة وحسن الخلق . قال : فان كانت خمسا ؟ قال : فالأربعة والسخاء . قال : فان كانت ستا ؟ قال : يا بنى .. اذا اجتمعت فيه الخمس خصال ، فهو تقى نقى ، ولله ولى ، ومن الشيطان برى .

وحتى تكون ان شاء الله من الأتقياء حقا ، فاننى أرى أن أقف معك كذلك على بعض ما قيل فى وصف التقوى :

فقد سئل على بن أبى طالب كرم الله وجهه عن التقوى ، فقال : هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والقناعة بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

وقال بعضهم : تقوى الله تعالى أن لا يراك حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك .

والتقوى : وصيـة الله للأولين والآخرين ، قال الله تعـالى : « **ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله** »(٢) .

---

(١) المجادلة : ٧ (٢) النساء : ١٣١

وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه ، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه : من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك ، وهو فعل طاعته ، واجتناب معاصيه .

وتارة تضاف التقوى الى اسم الله عز وجل كقوله تعالى : « **واتقوا الله الذى اليه تحشرون** »(١) وقوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، واتقوا الله ، ان الله خبير بما تعملون** »(٢) .

فاذا أضيفت التقوى اليه سبحانه وتعالى فالمعنى اتقوا سخطه وغضبه وهو أعظم ما يتقى .

وعن ذلك ينشأ عقابه الدنيوى والأخروى : قال تعالى : « **ويحذركم الله نفسه** »(٣) وقال تعالى : « **هو أهل التقوى وأهل المغفرة** »(٤) : فهو سبحانه أهل أن يخشى ويهاب ويجل ويعظم فى صدور عباده حتى يعبدوه ويطيعوه لما يستحقه من الاجلال والاكرام وصفات الكبرياء والعظمة وقوة البطش وشدة البأس : وفى الترمذى عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية : « **هو أهل التقوى وأهل المغفرة** » : قال الله تعالى : أنا أهل التقوى ، فمن اتقانى فلم يجعل معى الها آخر فأنا أهل أن أغفر له .

وتارة تضاف التقوى ، الى عقاب الله والى مكان — عقابه — كالنار ، والى زمانه : قال تعالى : « **واتقوا النار التى أعدت للكافرين** »(٥) وقال تعالى : « **فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين** »(٦) ، وقال تعالى : « **واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله** »(٧) ، وقال تعالى : « **واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا** »(٨) .

ويدخل فى التقوى الكاملة : فعل الواجبات وترك المحرمات والشبهات ، وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات وترك المكروهات ، وهى أعلى درجات التقوى ، قال الله تعالى : « **الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم**

---

(١) المائدة : ٩٦ (٢) الحشر : ١٨
(٣) آل عمران : ٢٨ (٤) المدثر : ٥٦
(٥) آل عمران : ١٣١ (٦) البقرة : ٢٤
(٧) البقرة : ٢٨١ (٨) البقرة : ٤٨

ينفقون • والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون »[١] ، وقال تعالى : « •• **ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون** »[٢] •

قال معاذ بن جبل : ينادى يوم القيامة : أين المتقون ؟ فيقومون فى كنف من الرحمن لا يحتجب منهم ولا يستتر ، قالوا له : من المتقون ؟ قال : قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان وأخلصوا لله فى العبادة •

وقال الحسن : المتقون اتقوا ما حرم الله عليهم وأدوا ما افترض عليهم •

وقال عمر بن عبد العزيز : ليس تقوى الله بصيام النهار ولا بقيام الليل ولا التخليط فيما بين ذلك ، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله وأداء ما افترض الله ، فمن رزق بعد ذلك خيرا فهو خير الى خير •

وقال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله •

وقال أبو الدرداء : تمام التقوى أن يتقى الله العبد حتى يتقيه من مثقال ذرة ، وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما ، يكون حجابا بينه وبين الحرام ، فان الله قد بين للعباد الذى يصيرهم اليه ، فقال : « **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره • ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** »[٣] • فلا تحقرن شيئا من الخير أن تفعله ولا شيئا من الشر أن تتقيه •

وقال الحسن : ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيرا من الحلال مخافة الحرام •

وقال موسى بن أعين : المتقون تنزهوا عن أشياء من الحلال مخافة أن يقعوا فى الحرام فسماهم الله متقين •

وقال ابن مسعود ، فى قوله تعالى : « •• **اتقوا الله حق تقاته** »[٤] ، قال : أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر •

---

(١) البقرة : ١ ــ ٤ (٢) البقرة : ١٧٧
(٣) الزلزلة : ٧ ، ٨ (٤) آل عمران : ١٠٢

وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات ، كما قال أبو هريرة وكان قد سئل عن التقوى ، فقال : هل أخذت طريقا ذا شوك ؟ قال : نعم ، قال : فكيف صنعت ؟ قال : اذا رأيت الشوك عزلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه ، قال : ذاك التقوى .

وأخذ هذا المعنى ابن المعتمر ، فقال :

خل الذنوب صغيرها ... وكبيرها فهو التقى
واصنع كماش فوق أر ... ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة ... ان الجبال من الحصى

* * *

فاذا كانت تلك هى التقوى — بمعناها الكبير — فكن منفذا لها على هذا الأساس الذى وقفت عليه ، وحسبك أن تعلم بأن النبى صلى الله عليه وسلم قد أوصى بها فقال فى حديث أبى ذر الطويل الذى خرجه ابن حبان وغيره : « أوصيك بتقوى الله فانها رأس الأمر كله » .

وخرج الامام أحمد من حديث أبى سعيد الخدرى ، قال : « قلت يا رسول الله .. أوصنى ، قال : أوصيك بتقوى الله فانها رأس كل شىء ، وعليك بالجهاد فانه رهبانية الاسلام » وخرجه غيره ولفظه : « عليك بتقوى الله فانها جماع كل خير » .

وفى الترمذى عن يزيد بن سلمة « أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : يا رسول الله .. انى سمعت منك حديثا كثيرا فأخاف أن ينسينى أوله آخره فحدثنى بكلمة تكون جماعا ، قال : اتق الله فيما تعلم » .

وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول فى خطبته : أما بعد .. فانى أوصيكم بتقوى الله وأن تثنوا عليه بما هو أهله ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الالحاف بالمسألة ، فان الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته ، فقال : **« انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا ، وكانوا لنا خاشعين »**(١) .

ولما حضرته الوفاة وعهد الى عمر دعاه فوصاه بوصيته ، وأول ما قال له : اتق الله يا عمر .

---

(١) الأنبياء : ٩٠

وكتب عمر الى ابنه عبد الله : أما بعد .. فانى أوصيك بتقوى الله عز وجل فانه من اتقاه وقاه ، ومن أقرضه جزاه ، ومن شكره زاده ، واجعل التقوى نصب عينيك وجلاء قلبك .

واستعمل على بن أبى طالب رجلا على سرية فقال له : أوصيك بتقوى الله عز وجل الذى لابد لك من لقاه ولا منتهى لك دونه وهو يملك الدنيا والآخرة .

وكتب عمر بن عبد العزيز الى رجل : أوصيك بتقوى الله عز وجل التى لا يقبل غيرها ولا يرحم الا أهلها ولا يثيب الا عليها ، فان الواعظين بها كثير والعاملين بها قليل ، جعلنا الله واياك من المتقين .

ولما ولى — عمر بن عبد العزيز — خطب فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : أوصيكم بتقوى الله عز وجل ، خلف من كل شىء ، وليس من تقوى الله خلف .

وقال رجل ليونس بن عبيد : أوصنى ، فقال : أوصيك بتقوى الله والاحسان ، فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

وقال له رجل يريد الحج : أوصنى ، فقال له : اتق الله . فمن اتقى الله فلا وحشة عليه .

وقيل لرجل من التابعين عند موته : أوصنا ، فقال : أوصيكم بخاتمة سورة النحل : « **ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** »[1]

وكتب رجل من السلف الى أخ له : أوصيك بتقوى الله فانها من أكرم ما أسررت ، وأزين ما أظهرت ، وأفضل ما ادخرت ، أعاننا الله واياك عليها وأوجب لنا ولك ثوابها .

وكتب رجل منهم الى أخ له : أوصيك وأنفسنا بالتقوى ، فانها خير زاد الآخرة والأولى ، واجعلها الى كل خير سبيلك ، ومن كل شر مهربك ، فقد تكفل الله عز وجل لأهلها بالنجاة مما يحذرون ، والرزق من حيث لا يحتسبون .

وقال شعبة : كنت اذا أردت الخروج قلت للحكم : ألك حاجة ، فقال : أوصيك بما أوصى به النبى صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

---

(١) النحل : ١٢٨.

وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول فى دعائه : « اللهم انى أسألك الهدى والتقى والعفة والغنى » .

وقال أبو ذر : « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : **« ومن يتق الله يجعل له مخرجا »**[1] ثم قال : يا أبا ذر .. لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم » .

* * *

هذا : واذا كان المعنى المراد من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اتق الله حيثما كنت » ـ كما عرفت قبل ذلك ـ هو تقوى الله تعالى فى السر والعلانية حيث يراك الناس وحيث لا يرونك :

فقد ورد فى هذا من حديث أبى ذر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال له : « أوصيك بتقوى الله فى سر أمرك وعلانيته » .

كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه : « أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة » .

والى هذا المعنى يشير الله تعالى فى قوله : **« واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا »**[2] .

وكان بعض السلف يقول لأصحابه : زهدنا الله واياكم فى الحرام زهد من قدر عليه فى الخلوة ، فعلم أن الله يراه فتركه من خشيته .

وقال الشافعى : أعز الأشياء ثلاثة : الجود من قلة ، والورع فى خلوة ، وكلمة الحق عند من يرجى أو يخاف .

وكتب ابن السماك الواعظ الى آخ له : أما بعد .. أوصيك بتقوى الله الذى هو نجيك فى سريرتك ، ورقيبك فى علانيتك ، فاجعل الله من بالك على كل حال فى ليلك ونهارك ، وخف الله بقدر قربه منك وقدرته عليك ، واعلم أنك بعينه ليس تخرج من سلطانه الى سلطان غيره ، ولا من ملكه الى ملك غيره ، فليعظم منه حذرك ، وليكثر منه وجلك والسلام .

وقال أبو الجلد : أوحى الله تعالى الى نبى من الأنبياء : قل لقومك : ما بالكم تسترون الذنوب من خلقى وتظهرونها لى ، ان كنتم ترون أنى لا أراكم فأنتم مشركون بى ، وان كنتم ترون أنى أراكم فلم تجعلونى أهون الناظرين اليكم .

---

(١) الطلاق : ٢ (٢) النساء : ١

وكان وهب بن الورد يقول : خف الله على قدر قدرته عليك ، واستح منه على قدر قربه منك .

وقال له رجل : عظنى ، فقال له : اتق الله أن يكون أهون الناظرين اليك .

* * *

فلاحظ كل هذا أخا الاسلام ، واتق الله حيثما كنت ، و :

اذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل : على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليه يغيب

واعلم ، أن التقوى ثلاث مراتب :

الأولى : التوقى من العذاب المخلد صاحبه ، وذلك بالتبرى من الكفر ، وعليه قوله تعالى : « **وألزمهم كلمة التقوى** »[1] فان المراد بها لا اله الا الله محمد رسول الله .

والثانية : التجنب عن كل ما فيه لوم ، حتى الصغائر عند قوم ، وهذا المعنى هو المشار اليه فى قوله تعالى : « **ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم** »[2] .

والثالثة : أن يتنزه العبد عن كل ما يشغل سره عن الحق ، وهو المعنى المراد بقوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته** »[3] .

واعلم : أن التقوى ـ كما يقول الامام الغزالى رحمه الله تعالى ـ : كنز عزيز فان ظفرت به : فكم تجد فيه من جوهر ورزق كريم ، وملك عظيم ، لأن خيرات الدنيا والآخرة جمعت فيها .

وتأمل معى فى ختام هذا الحق قول القائل :

من عرف الله فلم تغنه معرفة الله فذاك الشقى
ما يصنع العبد بعز الغنى والعز كل العز للمتقى

وقول الآخر :

واتق الله فتقوى الله ما جاورت قلب امرىء الا وصل
ليس من يقطع طرقا بطلا انما من يتقى الله البطل

* * *

---

(١) الفتح : ٢٦ (٢) المائدة : ٦٥
(٣) آل عمران : ١٠٢

وأما عن الحق الثانى ، وهو :

حـــق المكلف

الذى أوصى به الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » •

فحسبك أولا لكى تقف على أبعاد هذا الحق ، وتفهم المراد منه ؛ أن تقف على المعنى المراد من قول الله تبارك وتعالى : « **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، ان الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين** »[1] •

قال القرطبى بتصرف واختصار :

قوله تعالى : « **وأقم الصلاة طرفى النهار** » : لم يختلف أحد من أهل التأويل فى أن الصلاة فى هذه الآية يراد بها الصلاة المفروضة ، وخصها بالذكر لأنها ثانية الايمان ، واليها يفزع فى النوائب ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم اذا حزبه[2] أمر فزع الى الصلاة ••

وقوله تعالى : « **طرفى النهار** » : قال مجاهد : الطرف الأول صلاة الصبح ، والطرف الثانى صلاة الظهر والعصر • وقيل : الطرفان الصبح والمغرب ، وقيل : الطرف الثانى العصر وحده • وقيل : الطرفان الظهر والعصر ، والزلف المغرب والعشاء والصبح • وحكى الماوردى : أن الطرف الأول صلاة الصبح باتفاق •

وقوله تعالى : « **وزلفا من الليل** » أى فى زلف الليل ، والزلف الساعات القريبة بعضها من بعض •• وقيل : الزلفة أول ساعة من الليل بعد مغيب الشمس ، فعلى هذا يكون المراد بزلف الليل صلاة العتمة ، وهو قول ابن عباس • وقال الحسن : المغرب والعشاء ، وقيل : المغرب والعشاء والصبح •

وقوله تعالى : « **ان الحسنات يذهبن السيئات** » : ذهب جمهور من الصحابة والتابعين الى أن الحسنات ههنا هى الصلوات الخمس • وقال مجاهد : الحسنات ، قول الرجل : سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر • قال ابن عطية : وهذا على جهة المثال فى الحسنات ، والذى يظهر أن اللفظ عام فى الحسنات ، خاص فى السيئات ، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما اجتنبت الكبائر » •

---

(١) هود : ١١٤.

(٢) حزبه : نزل به مهم ، او اصابه غم •

ثم يقول القرطبى : سببه النزول يعضد قول الجمهور ، نزلت فى رجل من الأنصار ، قيل : هو أبو اليسر بن عمرو • وقيل : اسمه عباد ، خلا بامرأة فقبلها وتلذذ بها فيما دون الفرج •

روى الترمذى عن عبد الله ، قال : جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : انى عالجت امرأة فى أقصى المدينة ، وانى أصبت منها ما دون أن أمسها وأنا هذا فاقض فى ما شئت ، فقال له عمر : لقد سترك الله ! لو سترت على نفسك ، فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا ، فانطلق الرجل فأتبعه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فدعاه فتلا عليه : **« وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، ان الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين »** • فقال رجل من القوم : هذا له خاصة ؟ قال : « لا ، بل للناس كافة » • قال الترمذى : حديث حسن صحيح •

وخرج أيضا عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلة حرام ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله عن كفارتها ، فنزلت : **« وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات »** فقال الرجل : ألى هذه يا رسول الله ؟ فقال : « لك ولمن عمل بها من أمتى » • قال الترمذى : هذا حديث صحيح •

وروى عن أبى اليسر ، قال : أتتنى امرأة تبتاع تمرا ، فقلت : ان فى البيت تمرا أطيب من هذا ، فدخلت معى فى البيت ، فأهويت اليها فقبلتها ، فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له ، فقال : استر على نفسك وتب ولا تخبر أحدا ، فلم أصبر ، فأتيت عمر فذكرت ذلك له ، فقال : استر على نفسك وتب ولا تخبر أحدا ، فلم أصبر ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له ، فقال : « أخلفت غازيا فى سبيل الله فى أهله بمثل هذا » ؟ ! حتى تمنى أنه لم يكن أسلم الا تلك الساعة ، حتى ظن أنه من أهل النار • قال : وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أوحى الله اليه : **« وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين »** • قال أبو اليسر : فأتيته فقرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أصحابه : يا رسول الله •• ألهذا خاصة أم للناس عامة ؟ فقال : « بل للناس عامة » • قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب •

وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم أعرض عنه ، وأقيمت

صلاة العصر ، فلما فرغ منها نزل جبريل عليه السلام بالآية فدعاه فقال له : « أشهدت معنا الصلاة » ؟ قال : نعم ، قال : « اذهب فانها كفارة لما فعلت » .

وقوله تعالى : **« ذلك ذكرى للذاكرين »** : أى القرآن موعظة وتوبة لمن اتعظ وتذكر ، وخص الذاكرين بالذكر لأنهم المنتفعون بالذكرى .

* * *

فالمراد بالحسنات فى تلك الآية ، هو : الصلوات الخمس .

والمراد بالسيئات : الصغائر .

بدليل قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « الصلوات الخمس ، والجمعة الى الجمعة ، كفارة لما بينهن ، ما لم تغش الكبائر » . رواه مسلم .

وقد شبه النبى صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس فى محوها للذنوب — الصغائر — بنهر جار يغتسل منه المسلم فى اليوم والليلة خمس مرات ، فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم ، يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من درنه شىء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شىء !! قال : فكذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بهن الخطايا » رواه البخارى ومسلم .

وقد روى مسلم — فى صحيحه — عن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « ما من امرىء تحضره صلاة مكتوبة ، فيحسن وضوءها ، وخشوعها ، وركوعها : الا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ، ما لم تؤت كبيرة ، وذلك الدهر كله » .

وقبل أن ندور حول المعنى المراد من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « الا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب .. » :

فاننى أرى أولا أن أركز على معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « فيحسن وضوءها ، وخشوعها ، وركوعها » : لأن هذا يعتبر شرطا أساسيا فى تكفير الصلاة للذنوب الصغائر .

فمعنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « فيحسن وضوءها » أى : يتوضأ وضوءا كوضوء الرسول صلى الله عليه وسلم :

فقد ورد ، عن حمران بن أبان أنه قال : دعا عثمان رضى الله عنه بماء وهو على المقاعد فسكب على يمينه فغسلها — وفى رواية :

« فأفرغ على يديه ثلاثا فغسلهما » — ثم أدخل يمينه فى الاناء فغسل كفيه ثلاثا • ثم غسل وجهه ثلاث مرار ومضمض واستنشق واستنثر • وغسل ذراعيه الى المرفقين ثلاث مرار • ثم مسح برأسه • وأمر بيديه على ظهر أذنيه • ثم غسل رجليه الى الكعبين ثلاث مرار ، ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يقول : « من توضأ نحو وضوئى هذا ، ثم صلى ركعتين لا يحدث نفسه فيهما ، غفر له ما تقدم من ذنبه » وفى رواية : « غفر له ما كان بينهما وبين صلاته بالأمس » أخرجه أحمد والشيخان •

وعن عبد خير ، قال : جلس على رضى الله عنه بعدما صلى الفجر فى الرحبة[1] ، ثم قال لغلامه : ائتنى بطهور ، فأتاه الغلام باناء فيه ماء وطست[2] ونحن جلوس ننظر اليه • فأخذ بيمينه الاناء فأكفأه على يده اليسرى ، ثم غسل كفيه ، ثم أخذ بيده اليمنى الاناء فأفرغ على يده اليسرى ، ثم غسل كفيه فعله ثلاث مرار ، كل ذلك لا يدخل يده فى الاناء حتى يغسلها ثلاث مرات ، ثم أدخل يده اليمنى فى الاناء فمضمض واستنشق ونثر بيده اليسرى ، فعل ذلك ثلاث مرات • وفى رواية : فتمضمض ثلاثا واستنشق من كف واحدة ، ثم أدخل يده اليمنى فى الاناء فغسل وجهه ثلاث مرات ، ثم غسل يده اليمنى ثلاث مرات الى المرفق ، ثم غسل يده اليسرى ثلاث مرات الى المرفق ، ثم أدخل يده اليمنى فى الاناء حتى غمرها المـاء ، ثم رفعها بما حملت من المـاء ثم مسحها بيده اليسرى ، ثم مسح رأسه بيديه كلتيهما مرة • وفى رواية : فبدأ بمقـدم رأسه الى مؤخره ، ثم صب بيده اليمنى ثلاث مرات على قدمه اليمنى ، ثم غسلها بيده اليسرى ، ثم صب بيده اليمنى على قدمه اليسرى ، ثم غسلها بيده اليسرى ثلاث مرات ، ثم أدخل يده اليمنى فغرف بكفه فشرب فضل وضوئه[3] • ثم قال : هذا طهور نبى الله صلى الله عليه وآله وسلم • أخرجه أحمد وأبو داوود والنسائى والدارمى بسند جيد •

* * *

(١) الرحبة بفتحات : موضع بالكوفة متسع .

(٢) الطست بفتح الطاء فسكون السين : اناء من نحاس .

(٣) الوضوء بفتح الواو : هو المـاء الذى يتوضأ به ، والمراد : هو انه أخذ غرفة من فضل وضوئه فشربها .

فهذا الوضوء الحسن ــ كما رأيت ــ بالاضافة الى أنه من أهم ما يجب عليك أن تلاحظه :

ورد فى فضله أحاديث كثيرة ، منها :

حديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « اذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه ، خرجت من وجهه كل خطيئة نظر اليها بعينه مع المـاء ــ أو مع آخر قطر المـاء ــ فاذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع المـاء ــ أو مع آخر قطر المـاء ــ فاذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع المـاء ــ أو مع آخر قطر المـاء ــ حتى يخرج نقيا من الذنوب » . أخرجه مالك وأحمد ومسلم والترمذى وقال : حسن صحيح .

وحديث عبد الله الصنابحى أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « اذا توضأ العبد المؤمن فتمضمض خرجت الخطايا من فيه . فاذا استنثر ، خرجت الخطايا من أنفه . فاذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه[1] فاذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظفار يديه ، فاذا مسح رأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه . فاذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظفار رجليه . ثم كان مشيه الى المسجد وصلاته نافلة له » أخرجه مالك وأحمد ومسلم والترمذى ، وقال : حسن صحيح .

وحديث أبى سعيد الخدرى ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « ألا أدلكم على ما يكفر الله به الخطـايا ويزيد به فى الحسنات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : اسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا الى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة » . أخرجه أحمد وابن حبان .

وحديث عثمان بن عفان ، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « من توضأ فأسبغ الوضوء ثم مشى الى صلاة مكتوبة فصلاها ، غفر له ذنبه » أخرجه أحمد ومسلم وابن خزيمة .

ومعنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، بعد قوله : « فيحسن وضوءها ، وخشوعها ، وركوعها » :

---

(١) الأشفار : جمع شفر بضم فسكون ، أصل منبت الشعر فى الجفن .

فالمراد به أن تؤدى الصلاة باحسان ، وأداء يتقن لركوعها ، وسجودها : أى يؤدى الصلاة باطمئنان ويقيم ظهره فى الركوع والسجود ، والا فان صلاته لن تقبل منه :

فعن أبى يعلى شداد بن أوس رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ان الله كتب الاحسان على كل شىء[1] ، فاذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، واذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » رواه مسلم .

وعن أبى قتادة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أسوأ الناس سرقة الذى يسرق من صلاته . قالوا : يا رسول الله .. كيف يسرق من الصلاة ؟ قال : لا يتم ركوعها ولا سجودها ، أو قال : لا يقيم صلبه فى الركوع والسجود » رواه أحمد والحاكم .

وعن أبى عبد الله الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأى رجلا لا يتم ركوعه وينقر فى سجوده وهو يصلى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو مات هذا على حالته هذه مات على غير ملة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل الذى لا يتم ركوعه وينقر فى سجوده ، مثل الجائع يأكل التمرة والتمرتين لا يغنيان عنه شيئا » رواه الطبرانى فى الكبير .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « ان العبد اذا صلى فلم يتم صلاته خشوعها ولا ركوعها ، وأكثر الالتفات لم تقبل منه ، ومن جر ثوبه خيلاء ، لم ينظر الله اليه ، وان كان على الله كريما » رواه الطبرانى .

* * *

وقد قرأت فى هذا المعنى :

أن عصام بن يوسف رحمه الله تعالى ، مر بحاتم الأصم وهو يتكلم فى مجلسه ، فقال : يا حاتم تحسن تصلى ؟ قال : نعم . قال : كيف تصلى ؟ قال حاتم : أقوم بالأمر ، وأمشى بالخشية ، وأدخل بالنية ، وأكبر بالعظمة ، وأقرأ بالترتيل والتفكر ، وأركع بالخشوع ، وأسجد بالتواضع ، وأجلس للتشهد بالتمام ، وأسلم بالنية ، وأختمها

---

(١) ومنه الاحسان فى العبادة وأخصها الصلاة وذلك فى الخشوع فيها والاتيان بها كاملة الأركان تامة الشروط .

بالاخلاص لله عز وجل ، وأرجع على نفسى بالخوف ، أخاف أن لا يقبل منى ، وأحفظه بالجهد الى الموت .

قال : تكلم فأنت تحسن تصلى .

* * *

فتلك الصلاة الخاشعة ، التى أحسن العبد قبلها وضوءها : هى التى تكفر ما كان قبلها من الذنوب الصغائر ، التى هى اللمم ، كما جاء فى تفسير قول الله تبارك وتعالى فى سورة النجم :

« الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ... »[١] :

فاللمم[٢] : هى الصغائر التى لا يسلم من الوقوع فيها الا من عصمه الله وحفظه .

وقد اختلف فى معناها :

فقال أبو هريرة وابن عباس والشعبى : اللمم ، كل ما دون الزنا .

وقال ابن مسعود وأبو سعيد الخدرى وحذيفة ومسروق : ان اللمم ما دون الوطء من القبلة ، والغمزة ، والنظرة ، والمضاجعة ..

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : اللمم ما دون الشرك ..

وقال أبو اسحاق الزجاج : أصل اللمم والالمام ما يعمله الانسان المرة بعد المرة ولا يتعمق فيه ، ولا يقيم عليه ..

* * *

ومن الصغائر كذلك ، كما جاء فى كتاب « الكبائر والصغائر » :

النظرة الأولى بشهوة ، والجلوس مع أجنبية ، واللعن ، وهجو المسلم : أى شتمه ، والاشراف على بيوت الناس[٣] ، وهجران المسلم أكثر من ثلاثة أيام بلا عذر ، والضحك عمدا ، والجلوس قليلا مع فاسق[٤] ، والصوم فى يوم منهى عنه[٥] وكشف العورة بغير مرأى

---

(١) النجم : ٣٢

(٢) كما جاء فى القرطبى حول تفسير هذه الآية .

(٣) اذا وقع نظره على بيت جاره دون تعمد فلم يصرفه ، أما النظر فى داخل البيوت عمدا فهو من الكبائر .

(٤) أما اعتياد الجلوس مع الفاسق وصداقته ، فقد اعتبره بعضهم من الكبائر .

(٥) كصوم عيد الفطر ، وأربعة أيام عيد الأضحى ، والجمعة منفردا .

من الناس ، ووصال الصوم ، واستقبال القبلة واستدبارها ببول أو غائط ، وسفر المرأة وحدها ، والبيع عند أذان الجمعة ، ولعب الشطرنج اذا خلا من المقامرة ، واشتراط الأجرة على الحديث والعلم ، والبول قائما وفى المغتسل والطرق ، والأذان جنبا ، والعبث فى الصلاة ..

فكل تلك الصغائر ، مع غيرها : يكفرها — كما عرفنا — الصلوات الخمس ، وكذلك الجمعة الى الجمعة ، ورمضان الى رمضان ، واسباغ الوضوء على المكاره — أى فى البرد أو عند المرض — وتعليم القرآن ، والصدقات ، والاستغفار ، والطواف بالبيت ، وما يصيب المسلم من الآلام والأمراض مهما قل شأنها ، وغير ذلك مما هو وارد فى كتب السنة الصحيحة :

على شريطة اجتناب الكبائر كما تشير الآية التى يقول الله تعالى فيها : **« ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما »**(١) .

وكما يشير الحديث الشريف الذى يقول فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « الصلوات الخمس ، والجمعة الى الجمعة ، ورمضان الى رمضان ، مكفرات ما بينهن اذا اجتنبت الكبائر » رواه مسلم عن أبى هريرة .

وكما يشير نص الحديث الذى وقفنا عليه قبل ذلك ، وهو : « ما من امرىء تحضره صلاة مكتوبة ، فيحسن وضوءها ، وخشوعها ، وركوعها : الا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ، ما لم تؤت كبيرة ، وذلك الدهر كله » رواه مسلم .

* * *

والكبائر ، هى : الشرك — وهو من أكبر الكبائر — والزنا ، واللواط ، وشرب الخمر ، والسرقة ، والقتل عمدا بغير حق — كالقصاص ، والردة ، ورجم الزانى المحصن ، والقذف — وهو رمى المحصنة بالفاحشة — ، وكتمان الشهادة — اذا تعين الأداء على الشاهد ، بأن لم يوجد غيره — ، وشهادة الزور ، واليمين الغموس — وهو حلف الحالف متعمدا الكذب — ، والفرار من الزحف — أى من مواجهة أعداء الله فى ميدان القتال — ، وأكل الربا — وهو كل قرض جر نفعا ، ويدخل

---

(١) النساء : ٣١

فيه الايداع فى المصارف بفائدة ــ ، وأكل مال اليتيم ، والرشوة ، وعقوق الوالدين ، وقطيعة الرحم ، والكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم ، والافطار فى رمضان عمدا ، وتطفيف الكيل والوزن ، وتقديم الصلاة المكتوبة وتأخيرها عمدا ، وترك الزكاة ــ أى منعها تهاونا ، أما استحلال منعها فكفر ، والسحر ، واليأس من رحمة الله ، والأمن من مكر الله ، وأكل الميتة والخنزير ، والبغى فى الأرض بالفساد ، وعدول الحاكم عن الحق ، والاصرار على الصغيرة ، والاعانة على المعاصى ، وقتل الانسان نفسه ، وتصديق الكاهن والمنجم ، والطعن فى الأنساب ، ورمى المسلم بالكفر ، والغش فى البيع ، والكذب ــ وهو الاخبار بغير الواقع ــ ، وتبرج المرأة ، وتغيير خلق الله ، وتشبه المرأة بالرجل والرجل بالمرأة ، وصناعة التماثيل ، ولبس الحرير والذهب للرجال ..

وقد جمع أبو طالب المكى رحمه الله تعالى ، الكبائر على النحو التالى :

أربعة فى القلب : وهى الشرك بالله تعالى ، والاصرار على معصية الله تعالى ، والقنوط من رحمة الله تعالى ، والأمن من مكر الله تعالى .

وأربعة فى اللسان : وهى شهادة الزور ، وقذف المحصنات الغافلات ، واليمين الغموس[1] ، والسحر .

وثلاثة فى البطن : وهى شرب الخمر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا وهو يعلم .

واثنان فى اليدين : وهما القتل ، والسرقة .

واثنان فى الفرج : وهما الزنا ، واللواط .

وواحدة فى الرجل : وهى الفرار من الزحف .

وواحدة فى جميع البدن : وهى عقوق الوالدين .

* * *

وقد ورد فى الكبائر ، أحاديث شريفة ، منها ما ورد عن أبى بكرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر[2] ؟ (ثلاثا) قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : الاشراك

---

(١) وهو حلف الحالف متعمدا الكذب .

(٢) أى أعظمها جرما وأشدها اثما من غيرها ، والاستفهام للتشويق والاهتمام .

بالله ، وعقوق الوالدين ـ وكان متكئا فجلس[١] ، فقال ـ : ألا وقول الزور ، وشهادة الزور ، فما زال يكررها ، حتى قلنا : ليته سكت »[٢] رواه البخارى ومسلم والترمذى .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « الكبائر : الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس »[٣] رواه البخارى .

وفى كتاب النبى صلى الله عليه وسلم الذى كتبه الى أهل اليمن ، وبعث به مع عمرو بن حزم : « ... وان أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة : الاشراك بالله ، وقتل النفس المؤمنة بغير حق ، والفرار فى سبيل الله يوم الزحف ، وعقوق الوالدين ، ورمى المحصنة[٤] ، وتعلم السحر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم .. » رواه ابن حبان فى صحيحه .

والذى نريد أن نعرفه الآن ، هو : أن الكبيرة ، أو الكبائر ، لا يكفرها الا التوبة ، أو فضل الله تعالى على من شاء من عباده ، بدليل قول الله تعالى : **« ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشـــاء »**[٥] .

قال محمد بن جرير الطبرى : قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففى مشيئة الله تعالى ، ان شاء عفا عن ذنبه ، وان شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شركا بالله تعالى .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يقول : قال الله تعالى : « يا ابن آدم انك ما دعوتنى ورجوتنى ، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان[٦] السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ، يا ابن آدم انك

---

(١) أى اعتدل فى جلسته اهتماما بما سيقوله وتأكيدا له .

(٢) أى تمنيا أن يسكت اشفاقا عليه لمـــا رأوا من أثر انزعاجه من ذلك .

(٣) أى اليمين الكاذبة الفاجرة ، وسميت غموسا لأنها تغمس صاحبها فى الاثم ، ثم فى النار .

(٤) المحصنة بفتح الصاد : أى العفيفة الحرة بكرا كانت أو ثيبا .

(٥) النساء : ٤٨

(٦) عنان : بفتح العين المهملة : قيل هو السحاب .

لو أتيتنى بقراب[١] الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة » رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

مع ملاحظة أن التوبة ، كما يقول الامام النووى فى رياض الصالحين ، لها شروط ، وهى : أنها اذا كانت تتعلق بحق الله تعالى ، فلها شروط ثلاثة :

الشرط الأول : أن يقلع عن المعصية .

الشرط الثانى : أن يندم على فعلها .

الشرط الثالث : أن يعزم أن لا يعود اليها أبدا .

ثم يقول بعد ذلك : فان فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته .

وان كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة ، هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ، فان كان مالا أو نحوه رده اليه ، وان كان حد قذف ونحوه مكنه منه ، أو طلب عفوه ، وان كان غيبة استحله منها ، ويجب أن يتوب من جميع الذنوب ، فان تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب ، وبقى عليه الباقى .

فاذكر كل هذا ، أخا الاسلام ، وتب الى الله تبارك وتعالى توبة نصوحا[٢] .

ففى القرآن الكريم يقول تبارك وتعالى :

« ... وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون »[٣] .

« يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا »[٤] .

وفى السنة الشريفة ، ورد عن أبى موسى عبد الله بن قيس الأشعرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ان الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » رواه مسلم .

وعن أبى سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدرى رضى الله عنه أن نبى الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا ، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب ، فأتاه ، فقال : انه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟

---

(١) أى بما يقارب ملء الأرض خطايا .

(٢) قال قتادة : النصوح : الصادقة الناصحة ، وقيل : الخالصة .

(٣) النور : ٣١ (٤) التحريم : ٨

فقال : لا . فقتله فكمل به مائة . ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم ، فقال : انه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة ، انطلق الى أرض كذا وكذا فان بها أناسا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع الى أرضك فانها أرض سوء ، فانطلق حتى اذا كان نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائبا مقبلا بقلبه الى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب : انه لم يعمل خيرا قط ، فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم — أى حكما — فقال : قيسوا ما بين الأرضين فالى أيتهما كان أدنى فهو له .

فقاسوا فوجدوه أدنى الى الأرض التى أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة » متفق عليه .

وفى رواية فى الصحيح : « فكان الى القرية الصالحة بشبر فجعل من أهلها » .

وفى رواية فى الصحيح : « فأوحى الله تعالى الى هذه أن تباعدى ، والى هذه أن تقربى ، وقال : قيسوا ما بينهما ، فوجدوه الى هذه أقرب بشبر ، فغفر له » .

وفى رواية : « فنأى بصدره نحوها » .

فاذكر كل هذا ، واعلم : أن أصل التوبة فى اللغة الرجوع ، يقال : تاب وأناب بمعنى رجع ، فالتوبة الرجوع من الأوصاف المذمومة الى الأوصاف المحمودة .

ويقال : من رجع عن المخالفات خوفا من عذاب الله تعالى فهو تائب ، ومن رجع حياء من نظر الله تعالى فهو منيب ، ومن رجع تعظيما لجلال الله فهو أواب .

ويقال : أول التوبة يقظة من الله تعالى تقع فى القلب فيتذكر العبد تفريطه واساءته وكثرة جناياته مع دوام نعم الله تعالى عليه ، فيعلم أن الذنوب سموم قاتلة يخاف منها حصول المكروه وفوات المحبوب فى الدنيا والآخرة ، فاذا حصل له هذا العلم أثمر حالا وهو الندم على تضييع حق الله تعالى ، ثم يثمر الندم عملا وهو المبادرة الى الخيرات ، وقضاء الواجبات ، ورد الظلامات ، والعزم على اصلاح ما هو آت ».

فهذه الأمور الثلاثة اذا انتظمت فهى التوبة ..

وقد ورد فى الآثار : أن الذنب اذا أتبع بثمانية أشياء ، كان العفو عنه مرجوا :

أربعة فى القلب ، وهى : التوبة والعزم على أن لا يعود ، وحب الاقلاع عنه ، وخوف العقاب ، ورجاء المغفرة عليه .

وأربعة فى الجوارح ، وهو : أن يصلى أربع ركعات فى المسجد ، ثم يستغفر الله تعالى سبعين مرة ، ويقول : سبحان ربى العظيم وبحمده مائة مرة ، ويتصدق بصدقة ، ثم يصوم يوما :

قال الله تعالى : **« ان الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين »**[١] .

* * *

فلتكن تلك هى توبتك ، وليكن هذا هو مفهومك للتوبة النصوح . وحسبك فى النهاية أن تكون من الذين تحدث الله سبحانه وتعالى عنهم واستثناهم فى قوله : **« الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما »**[٢] .

وقد وصف الله المتقين فى كتابه بمثل ما وصى به النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الوصية فى قوله عز وجل : **« وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين . والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين »**[٣] .

فوصف الله المتقين — فى هذه الآية — بمعاملة الخلق بالاحسان اليهم بالانفاق وكظم الغيظ والعفو عنهم ، فجمع بين وصفهم ببذل الندى واحتمال الأذى ، وهذا هو غاية حسن الخلق الذى وصى به النبى صلى الله عليه وسلم .. ثم وصفهم بأنهم : **« اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم .. »**[٤] ثم تحدث عنهم

---

(١) هود : ١١٤
(٢) الفرقان : ٧٠
(٣) آل عمران : ١٣٣ — ١٣٦ .
(٤) آل عمران : ١٣٥

بأنهم لم يصروا عليها .. فدل على أن المتقين قد يقع منهم أحيانا كبائر وهى الفواحش ، وصغائر وهى ظلم النفس ، لكنهم لا يصرون عليها ، بل يذكرون الله عقب وقوعها ويستغفرونه ويتوبون اليه منها ، والتوبة : هى ترك الاصرار . ومعنى قوله تعالى : **« ذكروا الله »** أى : ذكروا عظمته وشدة بطشه وانتقامه وما يوعد به على المعصية من العقاب ، فيوجب ذلك لهم الرجوع فى الحال والاستغفار وترك الاصرار . وفى القرآن الكريم يقول تعالى : **« ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون »**[1] .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « اذا أذنب عبد ذنبا فقال : رب انى عملت ذنبا فاغفر لى . قال الله : علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب قد غفرت لعبدى ، ثم اذا أذنب ذنبا آخر .. الى أن قال فى الرابعة : فليعمل ما شاء » يعنى ما دام على هذه الحال كلما أذنب ذنبا استغفر منه .

وفى الترمذى من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ما أصر من استغفر ولو عاد فى اليوم سبعين مرة » .

وخرج الحاكم من حديث عقبة بن عامر : « أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله .. أحدنا يذنب ، قال : يكتب عليه ، قال : ثم يستغفرمنه ، قال : يغفر له ويثاب عليه ، قال : فيعود فيذنب ، قال : يكتب عليه ، قال : ثم يستغفر منه ويتوب ، قال : يغفر له ويثاب عليه ولا يمل الله حتى تملوا » .

وقيل للحسن : ألا يستحى أحدنا من ربه يستغفر من ذنوبه ثم يعود ، ثم يستغفر ثم يعود ، فقال : ود الشيطان لو ظفر منكم بهذه ، فلا تملوا من الاستغفار .

* * *

ومما يكفر الخطايا : ذكر الله عز وجل .

فقد خرج الامام أحمد من حديث عن أبى ذر : « قلت يا رسول الله علمنى عملا يقربنى من الجنة ويباعدنى عن النار ، قال : اذا عملت سيئة فاعمل حسنة ، فانها عشر أمثالها ، قال : قلت : يا رسول الله أمن الحسنات لا اله الا الله ؟ قال : هى أحسن الحسنات » .

---

(١) الأعراف : ٢٠١

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « من قال سبحان الله وبحمده فى كل يوم مائة مرة حطت خطاياه وان كانت مثل زبد البحر » •

وفيهما عنه أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من قال لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير فى يوم مائة مرة : كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به الا أحد عمل أفضل من ذلك » •

وفى المسند وكتاب ابن ماجه عن أم هانىء عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « لا اله الا الله لا تترك ذنبا ولا يسبقها عمل » •

وخرج الترمذى عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه مر بشجرة يابسة الورق ، فضربها بعصاه فتناثر الورق ، فقال : « ان الحمد لله ، وسبحان الله ، ولا اله الا الله ، والله أكبر ، لتساقط من ذنوب العبد كما يتساقط ورق هذه الشجرة » •

وخرجه الامام أحمد باسناد صحيح عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ان سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله أكبر : تنفض الخطايا كما تنفض الشجرة ورقها » •

وقد سئل الحسن عن رجل لا يتحاشى عن معصية الا أن لسانه لا يفتر عن ذكر الله ، قال : ان ذلك لعون حسن •

وسئل الامام أحمد عن رجل اكتسب مالا من شبهة ، أصلاته وتسبيحه يحط عنه شيئا من ذلك ؟ فقال : ان صلى وسبح يريد به ذلك فأرجو ، قال الله تعالى : « .. **خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم** »(١) •

وقال مالك بن دينار : البكاء على الخطيئة يحط الخطايا كما يحط الريح الورق اليابس •

وقال عطاء : من جلس مجلسا من مجالس الذكر كفر به عشرة مجالس من مجالس الباطل •

وقال شويش العدوى وكان من قدماء التابعين : ان صاحب اليمين

---

(١) التوبة : ١٠٢

أمير ، أو قال : أمين على صاحب الشمال ، فاذا عمل ابن آدم سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها ، قال له صاحب اليمين : لا تعجل لعلـــه يعمل حسنة ، فان عمل حسنة ألقى واحدة بواحدة وكتبت له تسع حسنات ، فيقول الشيطان : يا ويله من يدرك تضعيف ابن آدم .

وخرج الطبرانى باسناد فيه نظر عن أبى مالك الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اذا نام ابن آدم قال الملك للشيطان : أعطنى صحيفتك ، فيعطيه اياها فما وجد فى صحيفته من حسنة محى بها عشر سيئات من صحيفة الشيطان وكتبهن حســنات ، فاذا أراد أن ينام أحدكم فليكبر ثلاثا وثلاثين تكبيرة ، ويحمد أربعا وثلاثين تحميدة ، ويسبح ثلاثا وثلاثين تسبيحة ، فتلك مائة » وهذا غريب منكر .

وروى وكيع : حدثنا الأعمش عن أبى اسحاق عن أبى الأحوص ، قال : قال عبد الله ــ يعنى ابن مسعود ــ : وددت أنى صولحت على أن أعمل كل يوم تسع خطيئات وحسنة ، وهذا اشارة منه الى أن الحسنة يمحى بها التسع الخطيئات ويفضل له ضعف واحد من ثواب الحسنة فيكتفى به . والله أعلم .

* * *

فلاحظ كل هذا أخا الاسلام ، وكن دائما وأبدا على صلة بالله تعـــالى بفعل الخيرات وترك المنكرات ، حتى تكون تلقائيـــا من أهل الحسنات لا من أهل السيئات .

وحسبك أن تذكر دائما وأبدا قول الله تبارك وتعالى الذى وقفت عليه قبل ذلك وهو : « **ان الحسنات يذهبن السيئات** »(١) .

وقول الله تبـــارك وتعالى : « **الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما** »(٢) .

وهناك قول أحب كذلك أن أختم به ذلك الحق ، يقول فيه أبو هريرة رضى الله عنه : « يدنى الله العبد يوم القيامة فيضع عليه كنفه ، فيستره من الخلائق كلها ، ويدفع اليه كتابه فى ذلك الستر ، فيقول : اقرأ يا ابن آدم كتابك ، فيقرأ فيمر بالحسنة فيبيض لها وجهه ويسر بها قلبه ، فيقول الله : أتعرف يا عبدى ؟ فيقول : نعم ، فيقول : انى قبلتها منك ، فيسجد ، فيقول : ارفع رأسك وعد فى كتابك ، فيمر بالسيئة فيسود

---

(١) هود : ١١٤ (٢) الفرقان : ٧٠

لها وجهه ويوجل لها قلبه وترتعد منها فرائصه ويأخذه من الحياء من ربه ما لا يعلمه غيره ، فيقول الله : أتعرف يا عبدى ؟ فيقول : نعم يا رب ، فيقول : انى قد غفرتها لك ، فيسجد ، فلا يرى منه الخلائق الا السجود حتى ينادى بعضهم بعضا : طوبى لهذا العبد الذى لم يعص الله قط ولا يدرون ما قد لقى فيما بينه وبين ربه عز وجل مما قد وقفه عليه » .

ولهذا قال بلال بن سعد : ان الله يغفر الذنوب ولكن لا يمحوها من الصحيفة حتى يوقفه عليها يوم القيامة وان تاب .

فيا أيها المغرور قم وانتبه قد فاتك المطلوب والركب سار
ان كنت أذنبت فقم واعتذر الى كريم يقبل الاعتذار
وانهض الى مولى عظيم الرجا يغفر بالليل ذنوب النهار

* * *

وأما عن :

حق العباد

وهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « وخالق الناس بخلق حسن » : فهو الحق الذى يجب على كل عبد مؤمن أن يكون مؤديا له ، ومهتما به :

وذلك لأن الأخلاق الحسنة هى أهم صفات المؤمنين ، الذين تحدث الله سبحانه وتعالى عنهم ، فى قوله :

« انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم »[1] .

والمؤمن ، كما تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم : « كله منفعة ، ان شاورته نفعك ، وان شاركته نفعك ، وان ماشيته نفعك ، فأمره كله منفعة » .

والمؤمن ، كما وصفه أحد المؤمنين :

« بشره فى وجهه ، وحزنه فى قلبه ، أوسع صدرا ، وأخفى نفسا ، زاجرا عن كل شر ، آمرا بكل خير ، لا حقود ، ولا حسود ، ولا مرتاب ، ولا سباب ، ولا عياب ، يكره الرفعة ويبغض السمعة ، طويل الهم

---

(١) الأنفال : ٢ ــ ٤

فى الآخرة[١] ، كثير الغم فى الدنيا[٢] حليف الصمت ، عزيز الوقت ، لا متفاخر ، ولا متهتك ، ولا متكبر ، ضحكه تبسم ، واستفهامه تعلم ، ومراجعته تفهم ، لا يبخل ، ولا يعجل ، ولا يضجر ، ولا يجهل ، قليل المنازعة ، جميل المراجعة ، عدل ان غضب ، رفيق ان طلب ، خليص الود ، وثيق العهد ، وفى الوعد ، شفوق ، وصول ، حليم ، حمول ، قليل الفضول ، راض عن مولاه ، مخالف لهواه ، لا يغلظ على من يؤذيه ، ولا يخوض فيما لا يعنيه ، ان سب وأوذى لم يسب ، وان طلب ومنع لم يغضب ، ولا يشمت بمصيبة ، ولا يذكر أحدا بغيبة ، هشاش بشاش ، لا فحاش ولا غشاش ، كظام بسام ، دقيق النظر ، عظيم الحذر ، فهذا هو المؤمن حقا » .

نعم هذا هو المؤمن حقا ، لأنه بتلك الصفات العظيمة ، قد استطاع أن يؤكد ايمانه بتلك الصورة العملية التى أشار اليها الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله : « قد أفلح من أخلص قلبه للايمان ، وجعل قلبه سليما ، ولسانه صادقا ، ونفسه مطمئنة ، وخليقته مستقيمة » رواه ابن حبان عن أبى ذر .

والمؤمن خليقته مستقيمة ، لأنه تخلق بأخلاق المثل الأعلى ، والأسوة الحسنة بالقدوة الصالحة ، صلوات الله وسلامه عليه ، الذى أعطاه الله سبحانه وتعالى : « صفوة آدم ، ومولد شيث ، وشجاعة نوح ، وحلم ابراهيم ، ولسان اسماعيل ، ورضا اسحاق ، وفصاحة صالح ، وحكمة لقمان ، وبشرى يعقوب ، وجمال يوسف ، وصبر أيوب ، وقوة موسى ، وتسبيح يونس ، وجهاد يوشع ، ونعمة داوود ، وهيبة سليمان ، ووقار الياس ، وزهد عيسى ، وعلم الخضر » .

فكان أهلا لأن يتوجه الله سبحانه وتعالى بأعظم تاج ، وهو : **« وانك لعلى خلق عظيم »**[٣] .

وكان أهلا لأن يجعله الله تعالى قدوة صالحة ، و **« أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا »**[٤] .

وكما يقول الشيخ محمد الغزالى أكرمه الله فى كتابه « خلق المسلم » :

---

(١) أى دائما وأبدا مهتما بالآخرة وما فيها من حساب وعقاب .
(٢) اى كلما رأى فسادا وانحلالا تراه باكيا حزينا .
(٣) القلم : ٤ (٤) الأحزاب : ٢١

ولن تصلح تربية الا اذا اعتمدت على الأسوة الحسنة ، فالرجل السيء لا يترك في نفوس من حوله أثرا طيبا .

وانما يتوقع الأثر الطيب ممن تمتد العيون الى شخصه ، فيروعها أدبه .. وتمشي بالمحبة الخالصة في آثاره .

بل لابد — ليحصل التابع على قدر كبير من الفضل — أن يكون في متبوعه قدر أكبر ، وقسط أجل .

ثم يقول بعد ذلك :

وقد كان رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم بين أصحابه مثلا أعلى للخلق الذي يدعو اليه ، فهو يغرس بين أصحابه هـذا الخلق السامي ، بسيرته العاطرة ، قبل أن يغرسه بما يقول من حكم وعظات :

فعن عبد الله بن عمرو ، قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يكن فاحشا ولا متفحشا ، وكان يقول : « خياركم أحاسنكم أخلاقا » رواه البخاري .

وعن أنس ، قال : « خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، والله ما قال لي : أف قط ، ولا قال لشيء لم فعلت كذا ؟ وهلا فعلت كذا » رواه مسلم .

وعنه : « ان كانت الأمة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتنطلق به حيث شاءت ، وكان اذا استقبله الرجل فصافحه ، لا ينزع يده من يده ، حتى يكون الرجل ينزع يده . ولا يصرف وجهه عن وجهه ، حتى يكون الرجل هو الذي يصرفه ، ولم ير مقدما ركبتيه بين يدي جليس له »[1] رواه الترمذي .

وعن عائشة ، قالت : « ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين الا اختار أيسرهما ما لم يكن اثما ، فان كان اثما كان أبعد الناس عنه . وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه في شيء قط . الا أن تنتهك حرمة الله فينتقم . وما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط بيده ، ولا امرأة ولا خادما ، الا أن يجاهد في سبيل الله تعالى » رواه مسلم .

وعن أنس : كنت أمشي مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وعليه برد غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة حتى

---

(١) يعني أنه يتحفظ مع جلسائه فلا يتكبر .

نظرت الى صفحة عاتق رسول الله وقد أثرت بها حاشية البرد من شدة جذبته ، ثم قال : يا محمد مر لى من مال الله الذى عندك ! فالتفت اليه رسول الله ، وضحك ، وأمر له بعطاء . رواه البخارى .

وعن عائشة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله رفيق ، يحب الرفق ، ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف ، وما لا يعطى على سواه » رواه مسلم .

وسئلت عائشة : ما كان رسول الله يفعل فى بيته ؟ قالت : « كان يكون فى مهنة أهله — أى خدمتهم — فاذا حضرت الصلاة يتوضأ ويخرج الى الصلاة » رواه مسلم .

وعن عبد الله بن الحارث : ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم .. رواه الترمذى .

وعن أنس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا ، وكان لى أخ فطيم ، يسمى أبا عمير ، لديه عصفور مريض اسمه النغير ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلاطف الطفل الصغير ، ويقول له : يا أبا عمير ، ما فعل النغير ؟ .. رواه البخارى .

والمعروف فى شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان سمحا لا يبخل بشىء أبدا ، شجاعا لا ينكص عن حق أبدا ، عدلا لا يجور فى حكم أبدا ، صدوقا أمينا فى أطوار حياته كلها .

وقد أمر الله المسلمين أن يقتدوا به فى طيب شمائله وعريق خلاله ، فقال : **« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا »**[1] .

قال القاضى عياض : كان النبى صلى الله عليه وسلم ، أحسن الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس ، لقد فزع أهل المدينة ، فانطلق ناس قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله راجعا ، قد سبقهم اليه واستبرأ الخبر ، على فرس لأبى طلحة عرى والسيف فى عنقه ، وهو يقول : لن تراعوا .

وقال على رضوان الله عليه : انا كنا — اذا حمى البأس واحمرت الحدق — نتقى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب الى عدو منه .

---

(١) الأحزاب : ٢١

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، قال : ما سئل النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال لا .

وقد قالت خديجة : « انك تحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق » .

وحمل اليه سبعون ألف درهم ، فوضعت على حصير ، ثم قام اليها يقسمها ، فما رد سائلا ، حتى فرغ منها .

وجاءه رجل فسأله ، فقال له : ما عندى شىء ، ولكن ابتع على ، فاذا جاءنا شىء قضيناه ، فقال له عمر : ما كلفك الله ما لا تقدر عليه ! فكره النبى صلى الله عليه وسلم ذلك ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذى العرش اقلالا ، فتبسم صلى الله عليه وسلم ، وعرف البشر فى وجهه ، وقال : بهذا أمرت .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤلف أصحابه ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم .

وكان صلى الله عليه وسلم : يحذر الناس ويحترس منهم ، من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره ولا خلقه .

وكان يتفقد أصحابه ويعطى كل جلسائه نصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه .

من جالسه ، أو قاربه لحاجة صابره ، حتى يكون هو المنصرف عنه .

ومن سأله حاجة لم يرده الا بها ، أو بميسور من القول .

قد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أبا ، وصاروا عنده فى الحق سواء .

وكان دائم البشر ، سهل الطبع ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب ، ولا فحاش ، ولا عتاب ، ولا مداح ، يتغافل عما لا يشتهى ، ولا يقنط منه .

وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويجاريهم ، ويداعب صبيانهم ويجلسهم فى حجره .

ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويعود المرضى فى أقصى المدينة ، ويقبل عذر المعتذر .

ويكرم من يدخل عليه ، وربما بسط له ثوبه ، ويؤثره بالوسادة التى تحته ، ويعزم عليه فى الجلوس عليها ان أبى .

وكان يصل ذوى رحمه ، من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم .

وكان كثير السكوت لا يتكلم فى غير حاجة ، يعرض عمن تكلم بغير جميل .

وكان ضحك أصحابه عنده التبسم ، توقيرا له واقتداء به .

وكان مجلسه مجلس حلم وخير وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تخدش فيه الحرم .

وكان اذا تكلم أطرق جلساؤه ، كأنما على رؤوسهم الطير ..

فاذا كانت تلك هى أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخلاق أصحابه الفضلاء الذين تأدبوا بآدابه ، وساروا على دربه :

فكلنا كذلك كمؤمنين وكمسلمين بالمعنى الصحيح : لابد وأن نتخلق بتلك الأخلاق الحسنة التى هى أخلاق القرآن ، كما أشارت السيدة عائشة رضى الله عنها ، يوم أن سئلت عن خلق الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقالت : كان خلقه القرآن ، ثم قرأت قول الله تعالى : **« وانك لعلى خلق عظيم »**[1] .

أى أنه صلى الله عليه وسلم ، كان متخلقا بأخلاق القرآن ، بمعنى أنه كان منفذا لأوامر القرآن ، ومتجنبا لنواهيه ، وكذلك كان أصحابه عليهم جميعا رضوان الله ، الذين كثيرا ما كان النبى صلوات الله وسلامه عليه يرغبهم فى مكارم الأخلاق ، فيقول لهم مثلا : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » رواه مالك .

ويقول : « تبسمك فى وجه أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وارشادك الرجل فى أرض الضلال لك صدقة ، واماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وافراغك من دلوك فى دلو أخيك لك صدقة ، وبصرك للرجل الردىء البصر لك صدقة » رواه البخارى .

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » رواه البخارى .

« الخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد ، والخلق السوء ، يفسد العمل كما يفسد الخل العسل » رواه البيهقى .

---

(١) القلم : ٤

« ان الفحش والتفحش ليسا من الاسلام فى شىء ، وان أحسن الناس اسلاما ، أحسنهم خلقا » رواه أحمد .

« ألا أخبركم بأحبكم الى ، وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة ؟ ــ فأعادها مرتين أو ثلاثا ــ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : أحسنكم خلقا » رواه أحمد .

« ما من شىء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، ان الله يكره الفاحش البذىء ، وان صاحب حسن الخلــق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة » رواه أحمد .

« ان العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة ، وأشرف المنازل ، وانه لضعيف العبادة ، وانه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة فى جهنم » رواه الطبرانى .

« ان المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصــائم القائــم » وفى رواية : « ان المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجات قائــم الليل وصائم النهار » رواه أبو داوود .

« ان المسلم المسدد[1] ليدرك درجة الصوام القوام بآيات الله ، بحسن خلقه وكرم طبيعته » رواه أحمد .

وعن أسامة بن شريك ، قال : كنا جلوسا عند النبى صلى الله عليه وسلم كأنما على رؤوسنا الطير ، ما يتكلم منا متكلم ، اذ جاءه أناس ، فقالوا : من أحب عباد الله الى الله تعالى ؟ قال : « أحسنهم خلقا » رواه الطبرانى .

كما كان صلى الله عليه وسلم وهو المربى الفاضل ، يرهبهم من سوء الخلق ، فيقول كذلك : « ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وان صام وصلى وحج واعتمر ، وقال انى مسلم : اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا اؤتمن خان » رواه مسلم .

وقال فى رواية أخرى : « آية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا عاهد غدر ، ــ وان صلى وصام وزعم أنه مسلم ــ » .

« أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : اذا اؤتمن خان ، واذا حدث كذب ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر » رواه البخارى ومسلم .

---

(١) التسديد : أى الاقتصاد فى العبادة .

وعن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله تعالى : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حرا ثم أكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه العمل ولم يوفه أجره » رواه البخارى .

وعن أبى شريح الكلبى رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن » قيل : يا رسول الله .. لقد خاب وخسر ، من هذا ؟ قال : « من لا يؤمن جاره بوائقه » قالوا : وما بوائقه ؟ قال : « شره » رواه البخارى .

وذلك لأن الأخلاق الحسنة هي الأساس فى ديننا ، ولهذا فقد قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه كما قرأنا قبل ذلك : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وحسبك أن تعلم ، مثلا : أن الصلاة قد فرضها الله تعالى لتنهى عن الفحشاء والمنكر ، قال تعالى : **« وأقم الصلاة ، ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر »**(١) .

وأن الزكاة قد شرعت لهدف أسمى يشير الله تعالى اليه فى قوله : **« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها »**(٢) .

وأن الصوم كذلك له هدف أسمى أشار اليه سبحانه وتعالى ، فى قوله : **« كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »**(٣) .

وأنه لكى تؤدى فريضة الحج ، لابد وأن نلتزم هناك بالأخلاقيات الكريمة المشار اليها فى قول الله تعالى : **« الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فان خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب »**(٤) .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الاسلام وكن حسن الخلق مع الناس ، حتى لا يضيع ثوابك يوم القيامة ، فقد ورد فى حديث صحيح رواه مسلم ، أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل أصحابه ذات يوم السؤال الآتى : « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له

---

(١) العنكبوت : ٤٥ (٢) التوبة : ١٠٣
(٣) البقرة : ١٨٣ (٤) البقرة : ١٩٧

ولا متاع ، فقال : المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا : فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فان فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار » رواه مسلم .

* * *

فلاحظ كل هذا أخا الاسلام ونفذه ، واعلم : أن الجمع بين حقوق الله وحقوق عباده عزيز جدا لا يقوى عليه الا الكمل من الأنبياء والصديقين .

قال الحارث المحاسبى : ثلاثة أشياء عزيزة أو معدومة : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن الخلق مع الديانة ، وحسن الاخاء مع الأمانة .

وقال بعض السلف : جلس داوود عليه الصلاة والسلام خاليا ، فقال الله عز وجل : مالى أراك خاليا ؟ قال : هجرت الناس فيك يا رب العالمين ، قال : يا داوود .. ألا أدلك على ما تستبقى به وجوه الناس وتبلغ فيه رضاى ؟ خالق الناس بأخلاقهم واحتجز الايمان بينى وبينك .

وفى الحديث القدسى يقول الله تعالى لداوود عليه السلام : « يا داوود .. أحب عبادى الى تقى القلب ، نقى الكفين ، لا يأتى لأحد بسوء ، ولا يمشى بين الناس بالنميمة ، تزول الجبال ولا يزول ، أحبنى وأحب من يحبنى وحببنى الى عبادى ، قال داوود : يا رب وكيف يحببك الى عبادك ؟ قال : يذكرهم بنعمى وآلائى ، يا داوود .. ما من عبد يعين مظلوما أو يمشى معه فى مظلمته الا ثبتت قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام » .

وروى ابن أبى الدنيا باسناده عن سعيد المقبرى ، قال : بلغنا أن رجلا جاء الى عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، فقال : يا معلم الخير كيف أكون تقيا لله عز وجل كما ينبغى ؟ قال : بيسير من الأمر ، تحب الله بقلبك كله ، وتعمل بكدحك وقوتك ما استطعت ، وترحم ابن جنسك كما ترحم نفسك ، قال : من بنى جنسى يا معلم الخير ؟ قال : ولد آدم كلهم ، وما لا تحب أن يؤتى اليك فلا تأته لأحد وأنت تقى لله عز وجل كما ينبغى له .

وقد روى عن السلف ، تفسير حسن الخلق :

فعن الحسن ، قال : حسن الخلق ، الكرم ، والبذلة ، والاحتمال .

وعن الشعبى ، قال : حسن الخلق : البذلة ، والعطية ، والبشر الحسن .

وعن ابن المبارك ، قال : هو بسط الوجه ، وبذل المعروف ، وكف الأذى .

وسئل بسلام بن أبى مطيع عن حسن الخلق ، فأنشد شعرا ، فقال :

تراه اذا ما جئتـــه متهـــللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله
ولو لم يكن فى كفه غير روحه لجاد بهـــا فليتق الله سائلـــه
هو البحر من أى النواحى أتيته فلجته المعروف والجود ساحله

وقال الامام أحمد : حسن الخلق أن لا تغضب ولا تحقد .

وعنه أنه قال : حسن الخلق أن تحتمل ما يكون من الناس .

وقال اسحاق بن راهويـــه : هو بســـط الوجه وأن لا تغضب ونحو ذلك .

وفى مسند الامام أحمد من حديث معاذ بن أنس الجهنى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « أفضل الفضائل أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتصفح عمن شتمك » .

وخرج الحاكم من حديث عقبة بن عامر الجهنى ، قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة ؟ تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك » .

وخرج الطبرانى من حديث « على » أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أدلكم على أكرم أخلاق أهل الدنيا والآخرة ؟ أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك » .

وروى بسند حسن : عن الحسن[1] ، عن الحسن ، عن الحسن ، عن الحسن ، عن جد الحسن : أن أحسن الحسن ، الخلق الحسن .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الاسلام ، وأضف الى ما وقفت عليه ـــ كذلك ـــ تلك الأقوال المـــأثورة التى أرجو أن تكون سببا فى حسن خلقك .

قال الجنيد رحمه الله تعالى : أربع ترفع العبد الى أعالى الدرجات وان قل عمله وعلمه : الحلم ، والتواضع ، والسخاء ، وحسن الخلق .

---

(١) الحسن الأول : ابن سهل ، والثانى : ابن دينار ، والثالث : البصرى ، والرابع : ابن على رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : لأن يصحبنى فاجر حسن الخلق ، أحب الى من أن يصحبنى عابد سيء الخلق .

وقال أبو حازم رحمه الله تعالى : من سوء الخلق فى الرجل أن يدخل على أهله وهم سرور يضحكون فيتفرقوا خوفا منه ، وكذلك من سوء خلقه هروب القطة منه ، وصعود الكلبة الحائط خوفا منه .

وقيل لذى النون المصرى رحمه الله تعالى : من أكثر الناس هما ؟ قال : أسوأهم خلقا .

وحكى أنه كان لشقيق البلخى رحمه الله تعالى امرأة سيئة الخلق ، فقيل له : ألا تفارقها وهى تؤذيك بسوء خلقها ؟ فقال : ان كانت سيئة الخلق وأنا حسن الخلق ، ولو فارقتها صرت مثلها ومع هذا أخاف أن لا يمسكها أحد غيرى لسوء خلقها .

وحكى أن رجلا جاء الى سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه يشكو اليه سوء خلق زوجته فوقف ببابه ينتظره فسمع امرأته تستطيل عليه بلسانها وهو ساكت لا يرد عليها ، فانصرف الرجل قائلا : اذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته ، فكيف حالى ؟ فخرج عمر رضى الله تعالى عنه فرآه موليا فناداه : ما حاجتك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين .. جئت أشكو اليك خلق زوجتى واستطالتها على ، فسمعت زوجتك كذلك ، فرجعت وقلت : اذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته فكيف حالى ؟ فقال عمر رضى الله تعالى عنه :

انى احتملها لحقوق لها على : انها طباخة لطعامى ، خبازة لخبزى ، غسالة لثيابى ، مرضعة لولدى ، وليس ذلك بواجب عليها ، ويسكن قلبى بها عن الحرام ، فأنا أحتملها لذلك .

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين .. وكذلك زوجتى .

فقال سيدنا عمر : فاحتملها يا أخى فانها مدة يسيرة .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الاسلام :

وخذ العفو عن جاهل قد بغى عليك تفز بالمقام الأمين
وبالعرف فأمر وكن محسنا وواصل وأعرض عن الجاهلين

* * *

الوصية الثامنة والثلاثون

عن أبى ثعلبة الخشنى جرثوم بن ناشر رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال :

« إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوهـا وحد حدودا فلا تعتدوهـا وحرم أشياء فلا تنتهكوهـا وسكت عن أشياء رحمة لـكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها » ..

(حديث حسن رواه الدارقطنى وغيره)

* * *

فكن أخا الاسلام :

منفذا لتلك الوصية العظيمة ، أو لهذا الحديث العظيم الذى قال عنه بعضهم :

ليس فى الأحاديث حديث واحد أجمع بانفراده لأصـول الدين وفروعه منه .

كما قال عنه ابن السمعانى : من عمل بهذا الحديث ، فقد حاز الثواب وأمن من العقاب ، لأن من أدى الفرائض ، واجتنب المحارم ، ووقف عند الحدود ، وترك البحث عما غاب عنه ، فقد استوفى أقسام الفضل ، وأوفى حقوق الدين ، لأن الشرائع لا تخرج عن هذه الأنواع المذكورة فى هذا الحديث .

ولهذا ، فقد حكى عن أبى وائلة المزنى ، أنه قال :

جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الدين فى أربع كلمات ، ثم ذكر حديث أبى ثعلبة ـــ الذى ندور حوله :

وذلك لأن حديث أبى ثعلبة قسم فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه أحكام الله أربعة أقسام : فرائض ، ومحارم ، وحدود ، ومسكوت عنه ، وذلك يجمع أحكام الدين كلها .

وحسبنا ـــ بعد هذا التقديم ـــ لكى يتأكد لنا كل هذا ، ونقف على أهمية هـذا الحديث ، وضرورة تنفيذه ، على أساس من الفقه :

أن نقف على معرفة أحكام الله الأربعة ، التى أولها :

الفـــرائض

وهى جمع الفرض ، والفرض فى عرف الفقهاء : ما يجب على المكلف تحصيله بدليل شرعى صريح من الكتاب والسنة .

والفرض ــ كذلك ــ كما يعرفونه : ما يثاب المؤمن على فعله ، ويعاقب على تركه .

وينقسم الفرض الى :

فرض عين : وهو ما يجب على المكلف[1] تحصيله .

وفرض كفاية : وهو ما اذا قام به البعض ، سقط عن الباقين ، مثل صلاة الجنازة ، فانها تجب على المكلفين ، الذين يحضرونها ، لكن اذا أداها بعضهم سقط التكليف عن الآخرين .

وينقسم الفرض ــ كذلك ــ الى :

فرض مستقل بذاته : كصلاة الظهر ، وصوم رمضان .

وفرض داخل فى غيره : كتكبيرة الاحرام ، والركوع والسجود فى الصلاة .

وقد يعرف الفرض الداخل فى غيره : بأنه الذى يبطل بتركه العمل : فمن ترك النية ، أو تكبيرة الاحرام ، أو الركوع ، أو السجود ــ مثلا ــ بطلت صلاته باجماع الأمة .

هــذا[2] : والفرض ، واللازم ، والمحتم ، والركن ، والواجب ، بمعنى واحد ، عند أكثر الفقهاء ، الا فى باب الحج ، فان الفرض ما يبطل الحج بتركه ، والواجب ما لا يبطل الحج بتركه ، ولكن يجبر بفدية .

ويرى الحنفيون ، ومن نحا نحوهم ، أن هناك فرقا بين الفرض والواجب ، فالفرض عندهم : ما ثبت بدليل قطعى ، والواجب : ما ثبت بدليل ظنى ، وهو وسط بين الفرض والسنة .

واذا كان لنا الآن ــ بعد هذا التقديم حول تعريف الفرض ــ : أن نقف على أهم الفرائض المتعلقة بالعبادات ، فاليك بيانها اجمالا :

حكم الاستنجاء

الاستنجاء : واجب على المشهور ، لأنه ازالة لنجاسة حلت بعضو من أعضاء البدن :

ويشرع الاستنجاء قبل الوضوء عند جمهور الفقهاء .

---

(١) المراد بالمكلف : أى المسلم البالغ العاقل .

(٢) كما يقول الشيخ محمد بكر اسماعيل صاحب (الفقه الواضح) .

واذا لم يجد المسلم ماء يستنجى به فليستجمر بالأحجار ، والأحجار التى يستجمر بها يستحب أن تكون وترا ، ثلاثة ، أو خمسة ، أو سبعة .

* * *

وحكم الوضوء

والوضوء : ثبتت فرضيته بالكتاب والسنة واجماع الأمة ، وهو شرط فى صحة الصلاة ، والطواف بالكعبة ، ومن شك فى مشروعيته فقد كفر .

قال تعالى فى سورة المائدة : **« يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فأغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين »**[1] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يقبل الله صلاة أحدكم اذا أحدث حتى يتوضأ » رواه البخارى ومسلم .

وقد أجمع المسلمون على أنه لا تصح صلاة عبد ولا يصح طوافه بالكعبة بغير وضوء .

وللوضوء فرائض أو أركان اختلف الفقهاء فى عدتها ، وهى :

النية : وهى فرض عند المالكية والشافعية وشرط صحة عند الحنابلة ، وسنة مؤكدة عند الحنفية .

وغسل الوجه : وهو فرض بالاجماع ، وحده من منابت شعر الرأس المعتاد الى أسفل الذقن طولا ، ومن شحمة الأذن ، الى شحمة الأذن عرضا .

وغسل اليدين الى المرفقين : وهو فرض باتفاق العلماء ، والمرفق هو المفصل البارز فى منتصف الذراع .

ومسح الرأس : وهو فرض بالاجماع ، غير أنهم اختلفوا فى القدر الواجب مسحه :

فقالت المالكية : يجب مسح جميعه ، ووافقهم أحمد بن حنبل .

وقالت الشافعية : مسح البعض فرض ، ومسح الباقى سنة ، ويتحقق البعض عندهم بشعرات .

وقالت الحنفية : مسح ربع الرأس فرض ، ومسح باقيه سنة .

---

(١) المائدة : ٦

والأولى : الأخذ بقول المالكية وأحمد ، فيمسح المتوضىء جميع رأسه احتياطا ، والاحتياط فى الدين واجب .

وغسل الرجلين : وهو فرض بالاجماع ، ويجب ادخال الكعبين[١] فى الغسل مثل ادخال المرفقين فى غسل اليدين .

والترتيب : وهو فرض عند الشافعية وأحمد ، وسنة مؤكدة عند غيرهما .. ومعناه : غسل الوجه ، ثم اليدين ، ثم مسح الرأس ، ثم غسل الرجلين ، كما جاء فى نص الآية .

والموالاة : وهى فرض عند المالكية وبعض الحنابلة ، وسنة عند غيرهم .. ومعناها : تتابع غسل الأعضاء ، غسوا بعد عضو من غير مهلة ولا انتظار .

والتدليك : وهو فرض عند المالكية وبعض الفقهاء ، وسنة عند غير المالكية لعدم التصريح به فى الأحاديث الكثيرة الواردة فى الوضوء والغسل ، والله أعلم .. والمراد به : امرار اليد على العضو مع الماء أو بعده .

والوضوء : سنن ومستحبات نجملها — كذلك — فيما يلى :

التسمية : وصفتها أن يقول العبد عند بدء الوضوء : بسم الله والحمد لله . وغسل الكفين ثلاثا فى أول الوضوء ، والسواك ، والمضمضة ثلاثا ، والاستنشاق وهو ادخال الماء فى الأنف ، والاستنثار وهو اخراج الماء من الأنف ، وتخليل اللحية وهو ايصال الماء الى منابت الشعر ، وتثليث غسل الفرائض ، وتخليل الأصابع عند غسل اليدين والرجلين ، والتيامن ، ورد مسح الرأس بحيث يرجع بيده الى حيث بدأ ، ومسح الأذنين ظاهرهما وباطنهما مرة واحدة بماء الرأس ، والاقتصاد فى الماء ، والدعاء أثناء الوضوء بالدعاء الوارد ، وهو : « اللهم اغفر لى ذنبى ، ووسع لى فى دارى ، وبارك لى فى رزقى »[٢] ، والدعاء بعد الفراغ من الوضوء بالدعاء الوارد ، مثل : « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا اله الا أنت أستغفرك وأتوب اليك »[٣] ، « أشهد أن

---

(١) الكعبان : هما العظمتان البارزتان عند مفصل الساق والقدم .
(٢) من حديث رواه النسائى وابن السنى باسناد صحيح .
(٣) من حديث أخرجه ابن السنى والطبرانى .

لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله »[١] ، وصلاة ركعتين بعد الوضوء ، والشرب من فضلة ماء الوضوء ..

* * *

وحكم الغسل

والغسل : وهو تعميم الجسد بالماء ، ولغة : الاسالة ، وشرعا : ايصال الماء الى جميع الجسد ، ودليله قول الله تعالى : **« وان كنتم جنبا فاطهروا »**[٢] .

ويفترض الغسل لأمور ستة :

الأول : خروج المنى وبروزه من حشفة الرجل ، والى فرج المرأة الظاهر بلذة ، ولو حكما : كمحتلم رأى بللا ولم يدرك الشهوة ، لكن اذا نزل المنى على سبيل المرض ، دون لذة فحكمه حكم البول ، لا يجب منه الغسل ، ولكن يجب منه الوضوء .

الثانى : التقاء الختانين ، فاذا التقى الختانان : ختان الرجل وختان المرأة .. وجب الغسل سواء نزل المنى أم لم ينزل ، وهذا بالنسبة للرجل والمرأة .

ويرى جمهور الفقهاء أن الرجل لو غيب حشفة ذكره فى دبر أنثى عليه وعليها الغسل .

واتيان المرأة فى دبرها حرام .

الثالث : انقطاع الحيض والنفاس ، لقول الله تعالى : **« ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله »**[٣] .

الرابع : الولادة بلا دم ، احتياطا لأنها لا تخلو من أثر دم .

الخامس : الموت ، فقد أجمع العلماء على أنه يفترض على الأحياء فرض كفاية تغسيل الميت .. الا الشهيد فانه لا يغسل ، بل يكفن ويدفن فى دمائه .

السادس : اسلام الكافر ، فانه يجب عليه أن يغتسل .

وللغسل فرائض ، وهى :

١ ــ النية : وهى فرض عند المالكية والشافعية ، وشرط صحة عند الحنابلة ، وسنة مؤكدة عند الحنفية . والنية محلها القلب ، وتكون

---

(١) من حديث أخرجه أحمد ومسلم .

(٢) المائدة : ٦ (٣) البقرة : ٢٢٢

عند أول عضو يغسل ، ويقصد المغتسل بنيته رفع الحدث الأكبر ، لاباحة ما كان الحدث الأكبر مانعا منه .

٢ ــ تعميم الجسد بالمـــاء : وهو فرض بالاتفاق . والاغتسال معناه ، تعميم الجسد بالمـــاء ، من منابت شعر الرأس ، الى باطن القدمين .

٣ ــ الموالاة : وهو تتابع غسل الأعضاء ، عضوا بعد عضو من غير مهلة يجف فيـــها العضو الذى غسل قبله .. وهى فرض عند المـــالكية ، وسنة عند غيرهم .

٤ ــ التدليك : وهو فرض عند المـــالكية ، وسنة عند غيرهم .

٥ ــ تخليل الشعر : لأن كل شعرة تحتها جنابة ... وهو فرض عند المـــالكية ، سنة عند غيرهم .

٦ ــ المضمضة والاستنشاق : وهما فرضان عند الحنفية وأحمد ، وسنتان عند الجمهور من الشافعية والمـــالكية وغيرهم .

وللغسل ــ كذلك ــ سنن كثيرة نجملها فيما يأتى :

التسمية فى أوله بأن يقول : « بسم الله والحمد لله » ، وغسل الكفين قبل ادخالهما فى المـــاء ثلاثا ، وغسل الفرج أولا قبل الوضوء للغسل ، والوضوء فى أوله ، وتخليل شعر الرأس واللحية عند غير المـــالكية ، ويلحق بتخليل شعر الرأس واللحية تخيل أصابع اليدين والرجلين ، والبدء بالأعالى قبل الأسافل والميامن قبل المياسر ، وتثليث غسل الرأس وكذا سائر الجسد ، والاستتار حال الغسل ــ وهو واجب عند كثير من الفقهاء ــ والاقتصاد فى المـــاء .

* * *

وحكم التيـــمم

والتيمم : طهارة ترابية ، تسد مسد الطهارة المـــائية ، وضوءا كانت أو غسلا عند فقد المـــاء ، أو عدم القدرة على استعماله ..

وهو عبارة عن ضربتين بالكفين ، على الصعيد الطاهر ، ضربة للوجه ، وضربة لليدين الى المرفقين .

ودليل مشروعيته ، قوله تعالى : « **وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ، ان الله كان عفوا غفورا** »[1] .

---

(١) النساء : ٤٣

وللتيمم فرائض ، أو أركان نجملها فيما يلى :

١ ــ النية : وتكون عند الضرب بالكفين على الصعيد ــ أى التراب ــ الطاهر .

٢ ــ الصعيد الطاهر : وقد اتفق الفقهاء على أنه لا يجوز التيمم الا على الصعيد الطاهر ، لأن الصعيد النجس ، أو المتنجس ، لا يطهر غيره ..

٣ ــ الضربة الأولى على الصعيد الطاهر : وأما الضربة الثانية فهى سنة : عند مالك وجمهور من الفقهاء ، وفرض : عند الشافعى وجمهور من الفقهاء وهو الأصح : لحديث جابر ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « التيمم ضربة للوجه ، وضربة للكفين الى المرفقين » أخرجه الدارقطنى .

٤ ، ٥ ــ مسح الوجه واليدين الى المرفقين : وهما فرضان بالاتفاق ، لقوله تعالى : **« فامسحوا بوجوهكم وأيديكم »** : ويجب عند مسح اليدين نزع الخاتم ، والأساور ، أو تحريكهما ان كانا واسعين .

٦ ــ الموالاة : وهى فرض عند المالكية ، فى التيمم مطلقا ، سواء أكان التيمم لحدث أصغر ، أو لحدث أكبر ، كما فى الوضوء والغسل : وهى فرض عند الحنابلة فى التيمم لحدث أصغر ، لأن الموالاة عندهم فى الغسل غير واجبة على المشهور .

٧ ــ الترتيب : وهو فرض عند الشافعية ، قياسا على الوضوء .

ومن سنن التيمم : التسمية ، والسواك ، والنفخ فى اليدين ، قبل وضعهما على الوجه ، ان علق بهما تراب كثير ، والموالاة : خلافا للمالكية والحنابلة ، والترتيب : خلافا للشافعية .

* * *

والصـــلاة

الصلاة : عمـاد الدين ، وركنه الركين ، من أقامها فقـد أقام الدين ، ومن ضيعها فقد هدم الدين .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رأس الأمر الاسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » من حديث رواه الترمذى .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان » رواه البخارى ومسلم .

والصلاة تنقسم الى ثلاثة أقسام :

١ ــ صلاة مفروضة فرض عين : وهى الصلوات الخمس •

٢ ــ وصلاة مفروضة فرض كفاية ، وهى : صلاة الجنازة •

٣ ــ وصلاة نافلة ، وهى : ما سوى ذلك ، فتشمل المسنونة ، والمستحبة •

والفرائض : كل ما أوجبه الله على عباده ، والصلاة من أعظمها •

والنوافل : ما زاد على الفرائض ، والصلاة فى بابها ، من أعظمها أيضـــا :

قال النبراوى فى شرح الأربعين النووية : « ••• وأما الأفضل على الاطلاق بعد الشهادتين ، فهو الصلاة عندنا ، فنفلها أفضل النوافل ، وفرضها أفضل الفروض ، لمـــا صح من قوله صلى الله عليه وسلم : « الصلاة خير موضوع »(١) أى خير شىء وضعه الشارع •

وقد فرض الله على كل مكلف(٢) ، من هذه الأمة ، خمس صلوات فى اليوم والليلة ، وفرضيتها ثابتة بالكتاب والسنة والاجماع :

قال تعالى : **« وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل »**(٣)

وروى البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث طلحة بن عبد الله رضى الله عنه ، قال : جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم ، من نجد ، ثائر الرأس ، يسأل عن الاسلام ، فقال رسول الله صـــلى الله عليه وسلم : « خمس صلوات فى اليوم والليلة • قال : هل على غيرهن ؟ قال : لا ، الا أن تطوع•• » الحديث •

وقد فرضت الصلاة ، على هذه الأمة ، فى ليلة الاسراء والمعراج ، قبل الهجرة بنحو سنة ونصف •

وهى أول فريضة فرضت فى الاسلام •

وللصلاة شروط لا تصح الا بها :

الشرط الأول : الاســـلام ، فلا تصح الصلاة من كافر ، وكذلك سائر العبادات لا تصح منه ، ولا تقبل ، وليس له عليها فى الآخرة من ثواب •

الشرط الثانى : الطهارة من الحدث الأصغر ، ومن الحدث الأكبر •

---

(١) أخرجه ابن حبان والحاكم ، وتمامه : « فمن شاء استكثر ومن شاء استقل » .

(٢) من المسلمين والمسلمات .

(٣) هود : ١١٤

الشرط الثالث : الطهارة من الخبث ، فقد اتفق جمهور العلماء على أن طهارة الثوب ، والمكان ، والبدن : واجبة .

الشرط الرابع : دخول الوقت ، فلا تجب الصلاة الا اذا دخل وقتها ، ولا تصح اذا وقعت قبل دخول وقتها .

الشرط الخامس : استقبال القبلة مع الأمن والقدرة وذلك ثابت بالكتاب والسنة واجماع المسلمين .

قال الله تعالى : **« فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره »**[1] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسيء صلاته : « واذا قمت الى الصلاة فأسبغ الوضوء[2] ، ثم استقبل القبلة .. » الحديث رواه البخاري ومسلم .

الشرط السادس : ستر العورة : وقد اتفق العلماء على أن ستر العورة في الصلاة شرط في صحتها ، مع القدرة والذكر ، ولابد أن يكون الساتر كثيفا ، لا يظهر لون البشرة .

ولكل من الرجل والمرأة عورتان : عورة مغلظة ، وعورة مخففة .

أما عورة الرجل المغلظة : فهي قبله ، ودبره ، وأنثياه — خصيتاه — وما حولهما .

فان صلى مكشوف القبل ، أو الدبر ، كلا أو بعضا ، بطلت صلاته .

وأما عورته المخففة : فما سوى ذلك من سائر بدنه ، فان صلى مكشوف السرة ، أو الفخذين ، أو الظهر ، أو البطن : فصلاته صحيحة ، على الأصح مع الكراهة .

أما عورة المرأة المغلظة : فهي ما بين سرتها وركبتها .

وأما عورتها المخففة : فجميع بدنها ، الا وجهها وكفيها .

فعلى المرأة اذا أرادت الصلاة ، أن تستر جميع بدنها ، من رأسها حتى ظاهر قدميها ، الا وجهها وكفيها ، حتى ولو كانت تصلي وحدها في حجرة مظلمة .

فعن أم سلمة أنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم : أتصلي المرأة

---

(١) البقرة : ١٥٠ .

(٢) اسباغ الوضوء : اي اتمامه على المكاره ، اى على الرغم من وجود ما يكره معه استعمال الماء كالبرد وغيره .

فى درع وخمار ، وعليها ازار ؟ فقال : « نعم .. اذا كان الدرع سابغا يغطى ظهور قدميها » رواه أبو داوود والحاكم .

والدرع : هو القميص . والخمار : هو ما يسمى بالطرحة .

وروى الطبرانى فى الأوسط عن أبى قتادة أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « لا يقبل الله من امرأة صلاة حتى توارى زينتها ، ولا من جارية بلغت المحيض حتى تختمر » والجارية : أى الفتاة .

الشرط السابع : ترك الكلام ، وهو شرط فى صحتها ، لما رواه زيد بن أرقم ، قال : « كنا نتكلم فى الصلاة ، يكلم الرجل منا صاحبه وهو الى جنبه فى الصلاة حتى نزلت : **« وقوموا لله قانتين »**[1] فأمرنا بالسكوت ، ونهينا عن الكلام » رواه البخارى ومسلم .

فمن تكلم فى الصلاة بكلام خارج عنها ، بطلت صلاته ، سواء أكان الكلام عمدا ، أم سهوا ، على خلاف فى ذلك[2] .

الشرط الثامن : ترك الأفعال الكثيرة المؤدية الى بطلان الصلاة[3] . وقد وضع المالكية والحنابلة قاعدة وهى : أنه اذا رآه الرائى ، ظن أنه فى غير صلاة .

وللصلاة أركان ، أو فرائض ، لو سقط ركن منها بطلت الصلاة : وهى ستة عشر ركنا ، بعضها متفق على فرضيته ، وبعضها مختلف فيه ، واليك بيان ما اتفق عليه منها ، وما اختلف فيه :

١ ــ النية : وهى فرض عند جمهور الفقهاء ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « انما الأعمال بالنيات » .

٢ ــ تكبيرة الاحرام : وهى فرض بالاجماع ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « مفتاح الصلاة الطهور ، وتحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم » أخرجه أحمد والترمذى .

ولفظها : « الله أكبر » وسميت تكبيرة الاحرام ، لأن بها يدخل العبد فى حرم الصلاة ، فلا يأتى بأقوال ينافى أقوالها ، ولا بأفعال تخالف أفعالها .

---

(١) قانتين : أى خاشعين ، والآية من سورة البقرة : ٢٣٨ .

(٢) يرى الشافعية أن من تكلم فى الصلاة ناسيا ، لا تبطل صلاته قياسا على الأكل والشرب نسيانا فى الصوم .

(٣) وقد قدرها الشافعية بثلاث حركات فى الركعة الواحدة باليد ، أو ثلاث خطوات ، أو وثبة قوية .

٣ ــ القيام لتكبيرة الاحرام مع القدرة ، أما العاجز فله أن يكبر قاعدا ، أو مضطجعا ، حسب قدرته .

والقيام فرض ، فى صلاة الفرض بالاجماع ، لقوله تعالى : « **وقوموا لله قانتين** » أى مطيعين . والمراد القيام فى الصلاة باجماع المفسرين .

أما صلاة النوافل ، فالقيام فيها مستحب ، فمن صلى قائما ، فله الثواب كله ، ومن صلى قاعدا فله نصف الثواب .

٤ ــ قراءة الفاتحة : وهى فرض فى صلاة الفرض والنفل ، على الامام والمأموم والمنفرد ، مع القدرة على قراءتها ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » أخرجه البخارى ومسلم عن عبادة بن الصامت .

وهذا مذهب الشافعية ، وجمهور آخر من الفقهاء .

ويرى المالكية ، والحنفية ، وفريق من الحنابلة أنها فرض على المنفرد والامام ، ومستحب فى حق المأموم واستدلوا بقول جابر رضى الله عنه : « من صلى ركعة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب لم يصل[1] الا أن يكون وراء الامام » أخرجه الترمذى .

وقال النووى فى شرح مسلم : واذا لحن فى الفاتحة لحنا يخل المعنى ، كضم تاء أنعمت[2] ، أو كسرها ، أو كسر كاف اياك ، بطلت صلاته ، وان لم يخل المعنى : كفتح الباء من المغضوب عليهم ونحوه ، كره ولم تبطل صلاته أ . هـ .

لهذا يجب على المصلى أن يصح قراء الفاتحة ، حتى لا تبطل صلاته .

٥ ــ القيام لقراءة الفاتحة مع القدرة : وهو فرض بالاجماع فى صلاة الفرض ، مثل القيام لتكبيرة الاحرام لقوله تعالى : « **وقوموا لله قانتين** » .

أما النفل فالقيام فيه مستحب ، فان صلى قائما ، أو جالسا بعذر ، فله الأجر كله ، وان صلى جالسا بغير عذر ، فله نصف الأجر .. والله أعلم .

٦ ــ الركوع : وهو فرض بالاجماع فى كل صلاة ، الا صلاة الجنازة فانه ليس فيها ركوع ولا سجود .. قال الله تعالى :

---

(١) أى لم تصح صلاته .

(٢) فى سورة الفاتحة .

« يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون »[١] .

ويتحقق الركوع عند جمهور الفقهاء بالانحناء ، بحيث تصل اليدان الى الركبتين .

وأكمله عند الجميع يكون بتسوية الرأس والعجز ، والاعتماد بيديه على ركبتيه ، وتفريج أصابعه ، وبسط ظهره ، لقول أبى حميد الساعدى رضى الله عنه : « كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا ركع اعتدل ، ولم يصوب[٢] رأسه ولم يقنعه[٣] ووضع يديه على ركبتيه » أخرجه النسائى .

٧ ــ الرفع من الركوع : وهو فرض عند الجمهور ، لقوله صلى الله عليه وسلم للمسىء صلاته : « ثم اركع حتى تطمئن راكعا ، ثم ارفع حتى تطمئن قائما » .

ويتحقق باعتدال القامة ، على نفس الهيئة ، التى كان عليها قبل الركوع ، وأثناء القراءة .

٨ ــ السجود : وهو فرض بالاجماع ، لقوله تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا »** .

وتكريره فى كل ركعة فرض بالسنة والاجماع .

ويتحقق السجود بوضع سبعة أعضاء على الأرض ، وهى : الوجه ، والكفان ، والركبتان ، والقدمان :

فعن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « اذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب ــ أى أعضاء ــ وجهه ، وكفاه ، وركبتاه ، وقدماه » أخرجه مسلم .

فاذا لم يسجد العبد على عضو من هذه الأعضاء السبعة ، بطلت صلاته . واختلفوا فى السجود على الأنف .. فقال أكثر الفقهاء : السجود عليه واجب ، لأنه ملحق بالجبهة ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة لمن لا يصيب أنفه الأرض » أخرجه الدارقطنى .

وقال المالكية : لو سجد المصلى على وجهه دون أنفه ، صحت صلاته ، ولكن الأفضل أن يعيدها ، مادام الوقت باقيا ، مراعاة للخلاف .

٩ ــ الجلوس بين السجدتين : وهو فرض عند الأئمة ، وينبغى

---

(١) الحج : ٧٧ (٢) يميل رأسه الى أسفل .

(٣) يرفعه حتى يكون أعلى من ظهره .

أن يستقر المصلى بمقدار ما يقول : اللهم اغفر لى ، وارحمنى ، واعف عنى ، واهدنى ، وارزقنى •• ثم يسجد السجدة الثانية •

١٠ ، ١١ ــ الجلوس الأخير والتشهد فيه :

وهما فرضان عند الشافعية وأحمد لما رواه الطبرانى والبزار ، عن ابن مسعود ، قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم يعلمنا التشهد ، كما يعلمنا السورة من القرآن ، ويقول : « تعلموا ، فانه لا صلاة الا بتشهد » فدل هذا الحديث على أن التشهد فرض •

واذا كان التشهد فرضا ، فالجلوس له فرض •

ويرى المالكية : أن التشهد الثانى سنة ، كالتشهد الأول ، والجلوس له أيضا سنة ، الا الجلسة الأخيرة ، بقدر السلام ، أى بقدر ما يقول المصلى : السلام عليكم ، عن يمينه فقط بحيث لو سلم وهو واقف لا تصح صلاته ••

١٢ ــ الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم عقب التشهد الأخير •

وهى فرض عند الشافعية فى التشهد الأخير ، دون الأول : لحديث فضالة بن عبيد رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « اذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه والثناء عليه ، ثم يصلى على النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، ثم يدعو بما شاء » أخرجه أحمد وأبو داوود •

ويرى المالكية والحنفية وجمهور الحنابلة أنها سنة : لحديث أبى هريرة رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « اذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر ، فليتعوذ بالله من أربع : من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر المسيح الدجال »[1] أخرجه أحمد ومسلم •

فقالوا : قد أمر بالاستعاذة عقب التشهد ، ولم يذكر الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، ولو كانت ركنا لذكرها ، ولأن الوجوب انما يكون بدليل شرعى ، ولم يرد ، وحديث فضالة لا يدل على وجوبها

---

(١) وسمى بالمسيح لأنه يمسح الأرض ويقطعها فى أربعين يوما ، ولأنه ممسوح العين اليمنى : كما فى الدين الخالص ج ١ •

لأنه صلى الله عليه وسلم أمر فيه بالدعاء فى آخر الصلاة : وهو غير واجب اتفاقا[١] .

١٣ ــ السـلام : وهو فرض ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « مفتاح الصلاة الطهور ، وتحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم » . ولقوله صلى الله عليه وسلم : « صلوا كما رأيتمونى أصلى »[٢] .

ولم يعرف أن النبى صلى الله عليه وسلم قد ترك السلام فى صلاة من الصلوات ، والتسليمة الأولى هى الفرض ، وينبغى أن تكون جهة اليمين .. والتسليمة الثانية سنة عند الجمهور .

ولا بد أن يكون السلام معرفا بالألف واللام عند مالك وأحمد ، ولفظه : « السلام عليكم » فلا يجزىء « سلام عليكم » خلافا للشافعية.

والأكمل فى السلام ، أن يقول المصلى : « السلام عليكم ورحمة الله » يمينا وشمالا[٣] .

١٤ ، ١٥ ــ الطمأنينة والاعتدال فى جميع الأركان : لقوله صلى الله عليه وسلم للمسىء فى صلاته : « .. ثم اركع حتى تطمئن راكعا ، ثم ارفع حتى تطمئن قائما ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ، ثم قم ، فاذا أتممت صلاتك على هذا فقد أتممتها ، وما انتقصت من هذا من شىء ، فانما انتقصته من صلاتك » أخرجه أحمد .

والاعتدال معناه استواء الأعضاء ، فى الركوع والسجود والجلوس والقيـام .

والطمأنينة معناها : استقرار الأعضاء ، وسكونها زمنا يسـع تسبيحة على الأقل عند المـالكية وبعض الشافعية ، أو ثلاث تسبيحات على الأقل عند كثير من الفقهاء . وهو الأصح .

١٦ ــ ترتيب الأركان : وهو ركن بالاجماع ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » .

وقد كانت صلاته صلى الله عليه وسلم ، على هذا الترتيب المنقول عنه ، ولم يثبت عن أحد من الصحابة أن النبى صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) كما يقول فى الدين الخالص ، والفقه الواضح .

(٢) رواه البخارى .

(٣) لحديث أخرجه أحمد ومسلم والنسائى وابن ماجه والدارقطنى وابن حبان والبزار .

قد خالف هذا الترتيب ، فسجد ــ مثلا ــ قبل أن يركع : فمن خالف هذا الترتيب بطلت صلاته ان تعمد ذلك • والله أعلم •

وللصلاة كذلك سنن ومستحبات ، وهى : رفع اليدين حذو المنكبين ، أو حذو الأذنين ، عند تكبيرة الاحرام أو قبلها ، ووضع اليمين على الشمال فوق السرة ، وتحت الصدر •• وقد صح من طرق كثيرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان اذا صلى ، وضع يده اليمنى على اليسرى •

واذا كان بعض المالكية يرى أن ارسال اليدين أولى من قبضهما : فقد جاء فى الموطأ ما يخالف رأيهم هذا ، وهو أن الامام مالك رحمه الله ، لم يزل يقبض يديه فى الصلاة ، حتى لقي الله عز وجل •

والقبض هو وضع اليمين على الشمال فوق السرة •

والقبض عند جمهور الفقهاء والمحدثين ، أولى من الارسال ، للأحاديث الكثيرة التى صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتى منها :

ما رواه البخارى ، عن سهل بن سعد قال : كان الناس يؤمرون أن يضع الرجل يده اليمنى على ذراعه اليسرى فى الصلاة •

وما رواه أحمد ، عن هلب الطائى ، قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يضع اليمنى على اليسرى على صدره فوق المفصل •

ومن السنن : دعاء الاستفتاح قبل قراءة الفاتحة ، وهو سنة عند أكثر أهل العلم •• ومن الأحاديث الواردة فى هذا ، ما رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كبر فى الصلاة سكت هنيهة ــ لحظة قصيرة ــ فقلت : يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة، ما تقول ؟ قال : « أقول : اللهم باعد بينى وبين خطاياى ، كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقنى من خطاياى ، كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس • اللهم اغسلنى من خطاياى بالثلج والماء والبرد » : والبرد ــ بفتح الراء ــ أى الندى •

ومن السنن : الاستعاذة ، ويستحب افتتاح القراءة بها ، **لقوله تعالى : « فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم »**[1]

---

(١) النحل : ٩٨

قال ابن المنذر : جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه كان يقول قبل البدء فى القراءة : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » •

والاستعاذة انما تستحب فى الركعة الأولى فقط ، باعتبار أن القراءة فى الصلاة قراءة واحدة ، ويستحب أن تكون سرا ، عند أكثر أهل العلم •

ومن السنن : التأمين ، فيسن للفرد ، والامام والمأموم أن يقول ، بعد قراءة الفاتحة : « آمين » •• ويرفع بها صوته ، ومعنى لفظ آمين : « اللهم استجب » •

ويستحب للمأموم ، أن يوافق تأمينه تأمين الامام ، وقد ورد أنه من وافق تأمينه تأمين الامام غفر له :

فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « اذا قال الامام « **غير المغضوب عليهم ولا الضالين** » فقولوا آمين ، فان من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » رواه البخارى •

ومن السنن : القراءة بعد الفاتحة ، سورة ولو قصيرة ، من القرآن ، أو آية تعدل أقصر سورة منه ، مثل سورة الكوثر وذلك فى ركعتى الصبح ، والركعتين الأوليين فى الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وفى ركعتى الجمعة ، وفى ركعات النوافل :

فعن أبى قتادة رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم ، كان يقرأ فى الظهر فى الأوليين بأم الكتاب[1] وسورتين ، وفى الركعتين الأخيرتين بأم الكتاب ، ويسمعنا الآية أحيانا ، ويطول فى الركعة الأولى ما لا يطول فى الثانية ، وهكذا فى العصر ، وهكذا فى الصبح » رواه البخارى ومسلم •

ومن السنن : السر فيما يسر فيه ، والجهر فيما يجهر فيه : فينبغى على المصلى أن يقرأ سرا فى صلاة الظهر والعصر ، والركعة الأخيرة من المغرب ، والركعتين الأخيرتين من العشاء ، وفى صلاة النفل من النهار •

وأن يقرأ جهرا فى ركعتى الصبح ، والركعتين الأوليين من المغرب ، والركعتين الأوليين من العشاء ، وركعتى الجمعة ، وركعتى العيد ، الأصغر والأكبر ، وفى النفل ليلا •

وأقل السر أن يسمع الانسان نفسه ، وعند مالك يكتفى بحركة

---

(١) أى سورة الفاتحة .

اللسان ، وأقل الجهر أن يسمع الانسان نفسه ومن يليه ، وأكثره لا حد له ، الا أنه ينبغى على المصلى ألا يرفع صوته جدا ، ولا يخفضه جدا ، بل يكون وسطا بين بين ، عملا بقوله تعالى : « .. **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا** »(١) .

ولو أسر المصلى فيما يجهر فيه ، وجهر فيما يسر فيه : فلا شىء عليه ، بل متى ذكر ذلك ، فليعمل ما هو مطلوب منه من الاسرار والجهر .

ويرى المالكية : أنه من أسر فيما يجهر فيه ، أو العكس يسجد للسهو .

ومن السنن : تكبيرات الانتقال ، فهى سنة بلا خلاف ، وذلك بأن يكبر المصلى عند الشروع فى الركوع ، وعند الشروع فى السجود ، وعند الرفع منه ، وعند القيام .

أما عند الرفع من الركوع ، فانه يقول : « سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد » وان كان مأموما وسمع الامام ، يقول : « سمع الله لمن حمده » فليقل خلفه : « ربنا ولك الحمد » .

روى أحمد والنسائى ، عن ابن مسعود ، قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يكبر فى كل خفض ، ورفع ، وقيام ، وقعود .

ومن السنن : تفريج الأصابع فى الركوع ، ووضع اليدين على الركبتين ، وجعل الرأس مساويا للظهر ؛ وذلك لما روى عن عقبة ابن عامر أنه ركع فجافى يديه على ركبتيه ، وفرج بين أصابعه من وراء ركبتيه ، وقال : « هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى » رواه أحمد وأبو داوود .

ومعنى « جافى يديه » أبعد ذراعيه قليلا عن ركبتيه ، ومعنى « تفريج الأصابع » أى تفريقها حول الركبتين .

ومن السنن : الذكر فى الركوع ، فهو سنة عند الجمهور ، وذلك بأن يقول المصلى فى ركوعه : « سبحان ربى العظيم » :

فعن عقبة بن عامر رضى الله عنه ، قال : لما نزلت : « **فسبح باسم ربك العظيم** »(٢) قال لنا النبى صلى الله عليه وسلم : « اجعلوها فى ركوعكم » رواه أحمد وأبو داوود .

---

(١) اى وسطا . والآية من سورة الاسراء : ١١٠

(٢) الحاقة : ٥٢

وعن حذيفة ، قال : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان يقول فى ركوعه : « سبحان ربى العظيم » رواه مسلم .

وأقل التسبيح عند جمهور الفقهاء ، ثلاث تسبيحات .. وهذا هو الأصح :

لحديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « اذا ركع أحدكم فليقل ثلاث مرات : سبحان ربى العظيم ، واذا سجد فليقل : سبحان ربى الأعلى ثلاثا ، وذلك أدناه » أخرجه أبو داوود والترمذى .

ومن السنن : الذكر عند الرفع من الركوع ، فقد ورد فى حديث رواه أحمد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « اذا قال الامام : سمع الله لمن حمده ، فقولوا : ربنا ولك الحمد ، فان من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » .

ويستحب الزيادة على قول : « ربنا ولك الحمد » ، مثل : « حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، ملء السموات والأرض » كما جاء فى نص حديث رواه أحمد والبخارى ، وحديث رواه أحمد ومسلم .

ومن السنن : رفع اليدين عند الركوع وعند الرفع منه ، فقد وردت أحاديث تفيد أن النبى صلى الله عليه وسلم فعله فى صلاته ، منهـا :

ما رواه البخارى عن ابن عمر رضى الله عنه ، قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذا قام الى الصلاة رفع يديه ، حتى يكونا حذو منكبيه ، ثم يكبر ، فاذا أراد أن يركع رفعهما مثل ذلك ، واذا رفع رأسه من الركوع رفعهما كذلك ، وقال : سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمـد » .

ومن السنن : التسبيح والدعاء فى السجود ، وهو سنة لمـا رواه عقبة بن عامر رضى الله عنه ، قال : لمـا نزلت : « **سبح اسم ربك الأعلى** »[1] قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : « اجعـلوها فى سجودكم » رواه أحمد .

وأما الدعاء فى السجود فمطلوب .. لقوله صلى الله عليه وسلم : « أقرب ما يكون أحدكم من ربه وهو ساجد فأكثروا فيه من الدعاء » .

ومن السنن : ضم الأصابع فى السـجود وهو مستحب ، لمـا

---

(١) الأعلى : ١

رواه الحاكم وابن حبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا ركع فرج بين أصابعه ، واذا سجد ضم أصابعه .

ومن السنن : الجلوس الأول وقراءة التشهد فيه ، وهما سنتان عند جمهور الفقهاء .

ومن السنن : الجلوس الثانى وقراءة التشهد فيه .. وهما سنتان . خلافا للشافعية وأحمد[1] .

ومن السنن : الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم بعد التشهد الأخير ، وهى سنة عند جمهور الفقهاء ، ويرى بعض الشافعية أنها فرض .

وأفضل الصيغ الواردة فى الصلاة عليه ، ما رواه مسلم عن أبى مسعود البدرى ، قال : قال بشر بن سعد : يا رسول الله .. أمرنا الله أن نصلى عليك ، فكيف نصلى عليك ؟ فسكت ، ثم قال : « قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل ابراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل ابراهيم فى العالمين ، انك حميد مجيد ، والسلام كما علمتم » أى وبعدها تقولون : السلام عليكم كما علمتموه منى .

ومن السنن : الدعاء بعد التشهد الأخير ، وقبل السلام ، فيسن للمسلم أن يدعو بعد تشهده لنفسه وغيره ، بخيرى الدنيا والآخرة : فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم ، علمهم التشهد ، ثم قال فى آخره : « ثم ليختر من المسألة — أى من الدعاء — ما شاء » رواه مسلم .

ومن السنن : القنوت ، وهو سنة عند الشافعية فى صلاة الصبح دائما ، وفى الوتر فى النصف الأخير من رمضان ، وفى جميع الصلوات عند نزول البلاء .

وان تركه المصلى سهوا ، سجد له قبل السلام سجدتين ، ويستحب الجهر فيه ، ويستحب رفع اليدين عند الدعاء ، وقيل لا يستحب ذلك ، ويستحب مسح الوجه باليدين ، وقيل يكره ذلك ، ويجزىء فيه أى دعاء يضرع به العبد الى الله ، وذكر له دعاء

---

(١) يرى الشافعية واحمد : انهما فرضان ، ويرى المالكية : ان التشهد الثانى سنة ، كالتشهد الأول ، والجلوس له ايضا سنة ، الا الجلسة الأخيرة بقدر السلام .. بحيث لو سلم وهو واقف لا تصح صلاته .

مخصوص : ومحله ــ عند الشافعية بعد الرفع من الركوع الأخير •

ويرى المــالكية : أن القنوت مستحب ، ان نسيه المصلى لا يسجد له سجدتى السهو ، ويرون أنه قبل الركوع الأخير ، فى صلاة الصبح ، ويستحب أن يكون سرا للامام والمــأموم معا ، ويجزىء فيه أى دعاء ، ولهم فيه دعاء مأثور ، وهو : « اللهم انا نستعينك ، ونستهديك ، ونستغفرك ، ونتوب اليك ، ونؤمن بك ، ونتوكل عليك ، ونثنى عليك الخير كله ، نشكرك ولا نكفرك ، ونخضع[١] لك ونخلع ونتــرك من يكفرك ، اللهم اياك نعبد ، ولك نصلى ونسجد ، واليك نسعى ونحفد[٢] ، نرجو رحمتك ، ونخشى عذابك ، ان عذابك الجد بالكافرين ملحق ، وصلى الله على النبى محمــد » •

وروى أحمد وأصحاب السنن ، عن الحسن بن على ، قــال : علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن فى الوتر : « اللهم اهــدنى فيمن هديت ، وعافنى فيمن عافيت ، وتولنى فيمن توليت ، وبارك لى فيما أعطيت ، وقنى شر ما قضيت ، فانك تقضى ولا يقضى عليــك ، وانه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت ، وصلى الله على النبى محمد » قال الترمذى : هذا حديث حسن•

ويرى الحنفية : أن القنوت سنة فى الوتر دائما ، ومحله بعد الرفع من الركوع •

ومن السنن : زيادة سجدة للتلاوة فى صبح يوم الجمعة ، وهى سنة عند الشافعية مطلقا ودائما ، فى صبح يوم الجمعة ، دون غيره من الصلوات •

وقال الحنفية وبعض الحنابلة : هى سنة بشرط ألا يداوم عليها حتى لا يعتقد العوام أنها من جملة أركان الصلاة •

وقال بعض المــالكية : تكره ان تعمدها المصلى ، بأن قــرأ آية السجدة متعمدا ليوقع السجدة •

واحتج القائلون بأنها سنة بما رواه مسلم فى صحيحه وغيره عن ابن عباس : « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ يوم الجمعة ، فى صلاة الصبح ألم تنزيل[٣] ، وهل أتى على الانسان » •

---

(١) أى نترك الأديان الباطلة ونرفض الشرك .

(٢) نسارع فى طاعتك .

(٣) أى سورة السجدة ، وسورة الانسان .

وبما رواه الطبرانى عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة : « ألم تنزيل السجدة » و« هل أتى على الانسان » يديم ذلك .

* * *

وصـــلاة الجمعـــة

وهى فرض عين على من توفرت فيه شروط الوجوب ، أى على المسلم ، العاقل ، البالغ ، الذكر ، الحر ، المقيم ، القادر على الاتيان الى المكان الذى تقام فيه الجمعة ، غير المعذور .

ودليل فرضيتها ، قوله تعـــالى : **« يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون »**[1] .

وما رواه الطبرانى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ان الله تعـــالى قد كتب عليكم الجمعة ، فى مقامى هذا ، فى ساعتى هذه ، فى شهرى هذا ، فى عامى هذا ، الى يوم القيامة ، من تركها من غير عذر ، مع امام عادل ، أو جائر ، فلا جمع الله شمله ، ولا بورك له فى أمره ، ألا ولا صلاة له ، ولا حج له ، ألا ولا بر له ، ألا ولا صدقة له » .

وروى مسلم فى صحيحه ، وأحمد فى مسنده ، عن ابن مسعود رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال عن قوم يتخلفون عن صلاة الجمعة : « لقد هممت أن آمر رجلا يصلى بالنـــاس ، ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم »[2] .

وعن ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ــ وهو على أعواد منبره ــ : « لينتهين أقوام عن ودعهم[3] الجمعة ، أو ليختمن الله عـــلى قلوبهم ، وليكتبن من الغافلين » أخرجه أحمد والنسائى .

ويرى أكثر الفقهاء : أن خطبة الجمعة واجبة ، وهى شرط فى صحة الجمعة ، واستدلوا ــ على رأيهم هذا ــ بقول الله تعـــالى : **« .. فاسعوا الى ذكر الله »** : فالسعى الى الخطبة واجب ، ولا يكون

---

(١) الجمعة : ٩

(٢) ومن رحمة الله تعالى بنا أن النبى صلى الله عليه وسلم هم ولم يفعل .

(٣) أى تركهم .

السعى واجبا الا لشيء واجب فالخطبة واجبة ، وهذا بناء على أن المراد بذكر الله فى الآية الخطبة ، لاشتمالها على حمد الله ، والثناء عليه ، والتذكير بآياتـــه .

وقد نقل الشيخ منصور بن ادريس وغيره عن عمـــر وعائشـــة رضى الله عنهما ، أنهما قالا « قصرت الصـــلاة من أجل الخطبتين ، فهما بدل الركعتين ، فالاخلال باحداهما ، اخلال باحدى الركعتين » .

* * *

والصلاة على الجنـــازة

وهى فرض كفاية على من حضرها من المكلفين :

فلو حضرت جنازة وصلى عليها بعض من حضرها سقط الوجوب على من لم يصل عليها .

ودليل مشروعيتها : أن النبى صلى الله عليه وسلم قد صـــلاها وأمر بها ، ولم يثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم امتنـــع عنها فى حياته الا اذا كان الميت عليه دين ، فانه كان يأمر غيره بأن يصلى عليه اذا لم يكن للميت ما يوفى عنه دينه ، وذلك لتنفير المسلمين عن الدين ، وعن المماطلة فى سداده ..

* * *

والزكاة

وهى فى عرف الشرع : القدر الواجب اخراجه لمستحقيه فى المـــال الذى بلغ نصابا معينا بشروط مخصوصة .

وهى الركن الثالث من أركان الاسلام بعد الشهادتين والصلاة وقد قرنت بالصلاة فى القرآن الكريم فى اثنتين وثمانين آية .

وقد ثبتت فرضيتها بالكتاب والسنة واجماع الأمة : فمن أنكر وجوبها فقد كفر ، ووجب على الحاكم أن يأمره بالتوبة والرجوع عن انكاره ، ويمهله ثلاثة أيام يراجع فيها نفسه فان تاب كان بها ، والا قتله كفـــرا[1] .

* * *

---

(١) هناك أحكام كثيرة تتعلق بالزكاة وأنواعها تستطيع أن ترجع اليها فى الكتب المطولة .

وصـــوم رمضـــان

هو الركن الرابع من أركان الاسلام ، وفرضيته ثابتة بالكتاب والسنة واجماع الأمة :

قال الله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا كتب[١] عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** » .

وفى الســـنة : روى أحمد والبيهقى والنسائى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال ـــ لمـــا حضر رمضان ـــ : « قد جاءكم شهر مبارك افترض الله عليكم صـــيامه ، تتفتح فيه أبواب الجنة ، وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتغل[٢] فيـــه الشياطين ، فيه ليلة خير من ألف شهر ، من حرم خيرها فقد حرم »[٣] .

* * *

والحـــج[٤]

وهو أحـــد أركان الاسلام الخمسة ، وفرض من الفرائض التى علمت من الدين بالضرورة :

وقد ثبتت فرضيته بالكتاب والسنة واجماع الأمة :

قال تعالى : « **... ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه ســـبيلا** »[٥] .

وقال تعالى : « **وأتموا الحج والعمرة لله** »[٦] .

وقد أجمع العلماء على أن الحج لا يتـــكرر ، وأنه لا يجب فى العمر الا مرة واحدة ـــ الا أن ينذره فيجب الوفاء بالنذر ـــ وما زاد فهو تطـــوع :

فعن أبى هريرة ، قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يا أيها الناس ، ان الله كتب[٧] عليكم الحج فحجوا » فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثا ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « لو قلت نعم ، لوجبت ، ولمـــا استطعتم » ثم قال : « ذرونى ما تركتكم ، فانما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم ، واختلافهم

---

(١) أى فرض .. والآية من سورة البقرة : ١٨٣

(٢) أى تقيـــد .

(٣) أى حرم الخير كله .

(٤) وهو قصد مكة ، من أجل اداء مناسك الحج ، ومن انكر وجوبه كفر وارتد عن الاسلام .

(٥) آل عمران : ٩٧

(٦) البقرة : ١٩٦

(٧) أى فرض عليكم .

على أنبيائهم ، فاذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، واذا نهيتكم عن شيء فدعوه » رواه البخارى ومسلم •

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يا أيها الناس كتب عليكم الحج » فقام الأقرع ابن حابس ، فقال : أفى كل عام يا رسول الله ؟ فقال : « لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوا بها ، ولم تستطيعوا ، الحج مرة ، فمن زاد فهو تطوع » رواه أحمد ، وأبو داوود ، والنسائى ، والحاكم وصححه •

وأما عن العمرة : وهى الزيارة للكعبة والطواف حولها ، والسعى بين الصفا والمروة ، والحلق ، أو التقصير :

فهى سنة : عند الأحناف ، ومالك لحديث جابر رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، سئل عن العمرة أواجبة هى ؟ قال : « لا •• وأن تعتمروا هو أفضل » رواه أحمد ، والترمذى ، وقال حديث حسن صحيح •

وهى فرض : عند الشافعية ، وأحمد لقول الله تبارك وتعالى : **« وأتموا الحج والعمرة لله »**[1] فقد عطفت على الحج ، وهو فرض ، فهى فرض كذلك ، والأول أرجح •

وقد ذهب جمهور العلماء ، الى أن وقت العمرة جميع أيام السنة ، فيجوز أداؤها فى أى يوم من أيامها ، بعكس الحج ، لأن : **« الحج أشهر معلومات »**[2] و« الحج عرفة »[3] •

* * *

والجهاد فى سبيل الله

فرض كفاية : اذا قام به البعض ، واندفع به العدو ، وحصل به الغناء ، سقط عن الباقين •

قال فى فقه السنة : ولا يكون الجهاد فرض عين الا فى الصور الآتية :

١ — أن يحضر المكلف صف القتال ، فان الجهاد يتعين فى هذه الحال ، يقول الله سبحانه : **« يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا ••• »**[4] •

---

(١) البقرة : ١٩٦ (٢) البقرة : ١٩٧

(٣) كما جاء فى نص حديث صحيح •

(٤) الأنفال : ٤٥

ويقول الله تبارك وتعالى : « **يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار** »[١] .

٢ ــ اذا حضر العدو المكان أو البلد الذى يقيم به المسلمون ، فانه يجب على أهل البلد جميعا أن يخرجوا لقتاله ، ولا يحل لأحد أن يتخلى عن القيام بواجبه نحو مقاتلته اذا كان لا يمكن دفعه الا بتكتلهم عامة ، ومناجزتهم اياه :

يقول الله سبحانه وتعالى : « **يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار** »[٢] .

٣ ــ اذا استنفر الحاكم أحدا من المكلفين ، فانه لا يسعه أن يتخلى عن الاستجابة اليه :

لما رواه ابن عباس رضى الله عنهما ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، واذا استنفرتم فانفروا » رواه البخارى .

أى : اذا طلب منكم الخروج الى الحرب فاخرجوا .

ويقول الله سبحانه : « **يا أيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل** »[٣] .

ويجب الجهاد : على المسلم ، الذكر ، العاقل ، البالغ ، الصحيح ، الذى يجد من المال ما يكفيه ويكفى أهله حتى يفرغ من الجهاد .

* * *

والفرائض[٤]

وهى جمع فريضة ، والفريضة ــ هنا ــ مأخوذة من الفرض بمعنى التقدير ، يقول الله سبحانه : « **فنصف ما فرضتم** »[٥] أى قدرتم .

والفرض فى الشرع هو النصيب المقدر للوارث ويسمى العلم بها علم الميراث وعلم الفرائض ، الذى أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بأن نتعلمه :

فعن ابن مسعود رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله

---

(١) الأنفال : ١٥
(٢) التوبة : ١٢٣
(٣) التوبة : ٣٨
(٤) أى المواريث .
(٥) البقرة : ٢٣٧

عليه وسلم : « تعلموا القرآن وعلموه الناس ، وتعلموا الفرائض وعلموها فانى امرىء مقبوض والعلم مرفوع ويوشك أن يختلف اثنان فى الفريضة والمسألة فلا يجدان أحدا يخبرهما » ذكره أحمد .

وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « تعلموا الفرائض وعلموها فانها نصف العلم وهو ينسى ، وهو أول شىء ينزع من أمتى » رواه ابن ماجة والدارقطنى .

وقد كان العرب فى الجاهلية قبل الاسلام يورثون الرجال دون النساء ، والكبار دون الصغار ، وكان هناك توارث بالحلف ، فأبطل الله ذلك كله وأنزل :

« يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وان كانت واحدة فلها النصف ، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد ، فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فان كان له اخوة فلأمه السدس ، من بعد وصية يوصى بها أو دين ، آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا ، فريضة من الله ، ان الله كان عليما حكيما »[1] .

وسبب نزول هذه الآية ما جاء عن جابر ، قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنتيها من سعد ، فقالت : يا رسول الله .. هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك فى أحد شهيدا ، وان عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ، ولا ينكحان الا بمال . فقال : يقضى الله فى ذلك . فنزلت آية المواريث . فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عمهما ، فقال : أعط ابنتى سعد الثلثين ، وأمهما الثمن ، وما بقى فهو لك » رواه البخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى .

والمستحقون للتركة يرتبون على النحو التالى فى المذهب الحنفى[2] :

١ ــ أصحاب الفروض .
٢ ــ العصبة النسبية .
٣ ــ العصبة السببية .
٤ ــ الرد على ذوى الفروض .
٥ ــ ذوو الأرحام .

---

(١) النساء : ١١ (٢) كما يقول فى فقه السنة .

٦ — مولى الموالاة .
٧ — المقر له بالنسب على الغير .
٨ — الموصى له بأكثر من الثلث .
٩ — بيت المـــال .

ثم يقول فى فقه السنة : أما ترتيب المستحق للتركة فى قانون المواريث المعمول به فى مصر ، فعلى النحو التالى :

١ — أصحاب الفروض .
٢ — العصبة النسبية .
٣ — الرد على ذوى الفروض .
٤ — ذوو الأرحام .
٥ — الرد على أحد الزوجين .
٦ — العصبة السببية .
٧ — المقر له بالنسب على الغير .
٨ — الموصى له بجميع المـــال .
٩ — بيت المـــال .

وتستطيع أن تقف على تفصيل كل هذا فى كتب الفقه المطولة ، كالدين الخالص ، وفقه السنة .

* * *

وهناك فرائض أخرى ، منها :

رد الســـلام

لأن الله تعالى أمر به فقال : « **واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ...** » (١) .

* * *

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

وقد أمر الله تعالى به كذلك ورغب فيه فقال : « **ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون** »(٢) .

* * *

---

(١) النساء : ٨٦

(٢) آل عمران : ١٠٤ .

والبر بالوالدين

لأن الله تعالى أمر به ، فقال : « **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا** »[١] .

وقال تعالى : « **وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ...** »[٢] .

الى غير ذلك من الفرائض أو الواجبات التى أمرك الله تعالى بأدائها فى قرآنه الكريم ، وعلى لسان نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، الذى يأمرنا جميعا هنا فى تلك الوصية أو فى هذا الحديث بألا نضيعها ، فيقول : « ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها » أى : لا تتركوها ، ولا تتهاونوا فى أدائها ، بل قوموا بها كما فرضت عليكم ، ولا تؤخروها عن أوقاتها :

ففى القرآن الكريم يقول تبارك وتعالى : « **فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون** »[٣] وهم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها .

وقد صح أن النبى صلى الله عليه وسلم فى ليلة الاسراء والمعراج : مر على قوم ترضخ رؤوسهم وتكسر بالصخر ، وكلما رضخت عادت كما كانت ، فقال : ما هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة .

وروى الطبرانى فى الأوسط : عن أنس بن مالك رضى الله عنه . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى الصلوات لوقتها وأسبغ لها وضوءها ، وأتم لها قيامها وخشوعها وركوعها وسجودها خرجت وهى بيضاء مسفرة[٤] ، تقول : حفظك الله كما حفظتنى ، ومن صلاها لغير وقتها ولم يسبغ لها وضوءها ولم يتم لها خشوعها ولا ركوعها ولا سجودها ، خرجت وهى سوداء مظلمة ، تقول : ضيعك الله كما ضيعتنى ، حتى اذا كنت حيث شاءت لفت كما يلف الثوب الخلق[٥] ثم ضرب بها وجهه » .

وهكذا ، قس على ذلك بقية الفرائض التى لا تؤدى على أساس سليم ، — وبدون اتقان أو خشوع — أو التى لا تؤدى نهائيا :

---

(١) النساء : ٣٦
(٢) الاسراء : ٢٣
(٣) الماعون : ٤ ، ٥
(٤) من أسفر الصبح : أى أضاء .
(٥) أى البالى .

قال الحافظ المنذرى[١] : قد ذهب جماعة من الصحابة ومن بعدهم الى تكفير من ترك الصلاة متعمدا حتى يخرج جميع وقتها ، منهم عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس ومعاذ ابن جبل وجابر بن عبد الله وأبو الدرداء ــ رضى الله عنهم ــ ومن غير الصحابة : أحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه وعبد الله بن المبارك والنخعى والحكم بن عتيبة وأيوب السختيانى وأبو داوود الطيالسى وأبو بكر بن أبى شيبة وزهير بن حرب وغيرهم رحمهم الله تعالى أ . هـ .

وذهب غيرهم[٢] الى فسق تارك الصلاة عمدا من غير جحود لفرضيتها :

ففريق أوجب تعزيره وحبسه الى أن يصلى حتى لا يكون قدوة سيئة .

وأئمة المذاهب على وجوب قتله :

فمنهم ، من أوجب قتله كفرا كأحمد واسحاق وابن المبارك .

ومنهم ، من أوجبه حدا ، وهو مذهب مالك والشافعى وأبى حنيفة وأصحابه أ . هـ .

ولعل فى ذلك عبرة لمن يتهاونون فى الصلاة ويسهون عن ذلك الركن الخطير .

وكذلك بالنسبة للزكاة ، فقد قال الله تعالى مشيرا الى عقاب الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله : « **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** »[٣] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا[٤] أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه ــ يعنى شدقيه ــ ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك » ثم تلا ــ أى الرسول صلى الله عليه وسلم ــ هذه الآية : « **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم**

---

(١) كما فى الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى .

(٢) من كتاب « بداية المجتهد » . (٣) التوبة : ٣٤ ، ٣٥

(٤) الشجاع : الحية الذكر ، وقيل مطلقا ، والزبيبتان نكتتان سوداوان فوق عين الحية .

الله من فضله هو خيرا لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة »[١] الحديث رواه البخارى ومسلم .

وعن صيام رمضان ، يقول تبارك وتعالى فى الحديث القدسى مرغبا فيه[٢] : كل عمل ابن آدم له الا الصوم ، فانه لى وأنا أجزى به » من حديث رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل .

ويقول النبى صلى الله عليه وسلم محذرا ومرهبا : « من أفطر يوما فى رمضان فى غير رخصة رخصها الله له[٣] لم يقض عنه صيام الدهر كله وان صامه » رواه أبو داوود ، وابن ماجه ، والترمذى .

وعن الحج ، يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « من لم تحبسه حاجة ظاهرة ، أو مرض حابس ، أو سلطان جائر ، ولم يحج : فليمت ان شاء يهوديا ، وان شاء نصرانيا » رواه البيهقى عن أبى امامة .

وعن الحج ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله ، ورد كذلك عن حذيفة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « الاسلام ثمانية أسهم : الاسلام سهم[٤] ، والصلاة سهم ، والزكاة سهم ، وحج البيت سهم ، والأمر بالمعروف سهم ، والنهى عن المنكر سهم ، والجهاد فى سبيل الله سهم : وقد خاب من لا سهم له » رواه البزار .

وعن عقوق الوالدين ، يقول النبى صلى الله عليه وسلم ، محذرا : « ثلاث لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف » رواه الطبرانى فى الكبير ، عن ثوبان رضى الله عنه .

* * *

فلاحظ كل هذا أخا الاسلام ولا تضيع فرائض الله ، التى أهمها كما عرفت الصلاة :

فقد ورد : عن عبد الله بن قرط رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة ، فان صلحت صلح سائر عمله ، وان فسدت فسد سائر عمله » رواه الطبرانى فى الأوسط .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى

---

(١) آل عمران : ١٨٠ .
(٢) وفى جميع أنواع الصيام .
(٣) كمرض أو سفر .
(٤) أى نصيب .

الله عليه وسلم « بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة » رواه أحمد ومسلم .

وحتى تكون حريصا على أداء فريضة الصلاة ــ بالذات ــ فى وقتها : فاننى أوصيك بالاكثار من النوافل التى ستكون كذلك جبرا لأى تقصير حدث وأنت فى الصلاة :

فقد روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن ربه عز وجل ، قال : « من عادى لى وليا ، فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب الى عبدى بشىء أحب الى مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته ، كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ان أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة الصلاة : يقول ربنا لملائكته ــ وهو أعلم ــ : انظروا فى صلاة عبدى ، أتمها ، أم نقصها ؟ فان كانت تامة كتبت له تامة ، وان كان انتقص منها شيئا ، قال : انظروا هل لعبدى من تطوع ؟ فان كان له تطوع ، قال : أتموا لعبدى فريضته من تطوعه ، ثم تؤخذ الأعمال على ذلك » رواه أبو داوود .

ومعنى : ثم تؤخذ الأعمال على ذلك ، أى : وكذلك ما نقصه من صوم رمضان مثلا : يجبر بصيام يوم عاشوراء ، أو صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وهكذا بالنسبة لبقية الفرائض ونوافلها .

مع ملاحظة : أن التطوع ــ شرعا ــ هو ما يقوم به المسلم من عمل صالح ، يتقرب به الى الله تبارك وتعالى ، زيادة على ما افترض عليه .

وأن الصلاة هى أعظم ما يتقرب به العبد الى ربه عز وجل .

* * *

وأما عن :

الحـــدود

التى نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن تعديها ، فى قوله : « وحد حدودا فلا تعتدوها » :

فالمراد بها شرعا : العقوبة المقدرة من الشارع ، زجرا ومنعا عن المعصية .

والمعنى : أن الله تعالى جعل لكم حواجز وزواجر مقدرة تحجزكم وتمنعكم عما لا يرضاه :

روى النواس بن سمعان رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ضرب الله مثلا صراطا مستقيما ، وعلى جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ولا تعوجوا ، وداع يدعو من جوف الصراط ، فاذا أراد أن يفتح شيئا من تلك الأبواب ، قال : ويحك لا تفتحه ، فانك ان تفتحه تلجه ، والصراط : الاسلام • والسوران : حدود الله • والأبواب المفتحة : محارم الله • وذلك الداعى على الصراط : كتاب الله • والداعى من فوق : واعظ الله فى قلب كل مسلم » أخرجه الامام أحمد ، وهذا لفظه ، والنسائى فى تفسيره ، والترمذى وحسنه •

فقد ضرب النبى صلى الله عليه وسلم مثل الاسلام فى هذا الحديث بصراط مستقيم ، وهو الطريق السهل الواسع الموصل سالكه الى مطلوبه ، وهو مع هذا مستقيم لا عوج فيه ، فيقتضى ذلك قربه وسهولته ، وعلى جنبتى الصراط يمنة ويسرة سوران وهما حدود الله ، وكما أن السور يمنع من كان داخله من تعديه ومجاوزته ، فكذلك الاسلام يمنع من دخل فيه من الخروج عن حدوده ومجاوزتها ، وليس وراء ما حد الله من المأذون فيه الا ما نهى عنه :

ولهذا : مدح سبحانه وتعالى الحافظين لحدوده ، وذم من لا يعرف حد الحلال من الحرام فقال تعالى : « ••• **والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين** »(١) •

وقال تعالى : « **الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، والله عليم حكيم** »(٢) •

والمراد أن من لم يجاوز ما أذن له فيه الى ما نهى عنه فقد حفظ حدود الله ، ومن تعدى ذلك فقد تعدى حدود الله •

وقد تطلق الحدود ويراد بها نفس المحارم وحينئذ ، فيقال : لا تقربوا حدود الله كما قال تعالى : « **تلك حدود الله فلا تقربوها** »(٣) •

والمراد النهى عن ارتكاب ما نهى عنه فى الآية من محظورات

---

(١) التوبة : ١١٢ (٢) التوبة : ٩٧

(٣) البقرة : ١٨٧

الصيام والاعتكاف فى المساجد ، ومن هذا المعنى ، وهو تسمية المحارم حدودا ، قول النبى صلى الله عليه وسلم : « مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا — أى اقترعوا — على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وان أخذوا على أيديهم[1] نجوا ونجوا جميعا » رواه البخارى والترمذى .

فقد أراد بالقائم على حدود الله : المنكر للمحرمات والناهى عنها .

وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « انى آخذ بحجزكم : اتقوا النار ، اتقوا الحدود ، قالها ثلاثا » أخرجه الطبرانى والبزار .

فقد أراد بالحدود محارم الله ومعاصيه .

ومنه قول الرجل الذى قال للنبى صلى الله عليه وسلم : « فانى أصبت حدا فأقمه على » .

وقد تسمى العقوبات المقدرة الرادعة عن المحارم المغلظة حدودا ، كما يقال : حد الزنا ، وحد السرقة ، وحد شرب الخمر . ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم ، لأسامة : « أتشفع فى حد من حدود الله » ؟ يعنى فى القطع فى السرقة ، وهذا هو المعروف من أسماء الحدود فى اصطلاح الفقهاء :

واعلم أن الحدود متنوعة : منها حد الزنا ، وهو الرجم ان كان الفاعل محصنا[2] ، والجلد مائة ، والتغريب الى مسافة القصر عاما ان كان غير محصن .

ومنها : حد السرقة ، وهو قطع اليد اليمنى فى أول مرة ، والرجل اليسرى فى المرة الثانية ، واليد اليسرى فى المرة الثالثة ، والرجل اليمنى فى المرة الرابعة[3] . وقطع اليد يكون من الكوع ، والرجل من الكعب .

---

(١) من أخذت على يديه ، أى منعته عما يريد فعله كأنك امسكت يده .

(٢) أى متزوجا .

(٣) كما فى القرطبى فى تفسير الآية ٣٨ من سورة المائدة ، ثم يقول : « ثم ان سرق خامسة : يعزر ويحبس » .

ومنها : حد القذف بالزنا ، وهو ثمانون جلدة .

مونها : حد القذف بالزنا ، وهو ثمانون جلدة .

ومعنى : « **فلا تعتدوها** »[١] : أى لا تتركوها ، ولا تتجاوزوا القدر الذى قدره الشارع فيها ، فلا تزيدوا عليه ، ولا تنقصوا عنه .

وما ما روى من أن عمر رضى الله تعالى عنه جلد شارب الخمر ثمانين جلدة[٢] ، فهو اجتهاد منه لزيادة التنكيل[٣] حيث أكثر الناس من شرب الخمر فى زمنه .

* * *

وأما عن :

المحـــــارم

التى عناها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى قوله : « وحـــرم أشياء فلا تنتهكوها » :

فالمراد بها المحرمات التى حرمها الله تعالى علينا ، والتى منها ، ما فى قول الله تبارك وتعالى :

« **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احســانا ، ولا تقتلوا أولادكم من املاق ، نحن نرزقكم واياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده** »[٤] .

وقول الله تبارك وتعالى : « **انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ..** »[٥] .

وقول الله تعالى : « **... وأحل الله البيع وحرم الربا ...** »[٦] .

وقول الله تعالى : « **قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منهـــا وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينـــزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** »[٧] .

---

(١) البقرة : ٢٢٩

(٢) وفى القرطبى ، يقول : وقد أتى عمر بسكران فى رمضان فضربه مائة ، ثمانين حد الخمر وعشرين لهتك حرمة الشهر .

(٣) أى ليكون عبرة لغيره .

(٤) الأنعام : ١٥١ ، ١٥٢

(٥) البقرة : ١٧٣

(٦) البقرة : ٢٧٥

(٧) الأعراف : ٣٣

وقول الله تعالى : « ... **يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث** ... »[١] .

الى غير ذلك من المنهيات التى نهى الله تعالى عنها فى كتابه ، وعلى لسان نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم فى كثير من الأحاديث الشريفة التى منها :

ما أخرجه الشيخان عن ابن مسعود رضى الله عنه ، قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : « أن تجعل لله ندا[٢] وهو خلقك » قلت : ان ذلك لعظيم ، قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تزانى حليلة جارك » .

وما رواه مالك والبخارى ومسلم ، عن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » .

وما رواه البخارى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بى[٣] ثم غدر ، ورجل باع حرا ثم أكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه العمل ولم يوفه أجره » .

وما رواه أحمد ، عن المقداد بن الأسود رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأصحابه : « ما تقولون فى الزنا » ؟ قالوا : حرام حرمه الله ورسوله فهو حرام الى يوم القيامة . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره » قال : « فما تقولون فى السرقة » ؟ قالوا : حرام حرمها الله ورسوله فهى حرام ، قال : « لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره » .

وما رواه البخارى ومسلم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ولا تجسسوا[٤] ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله اخوانا كما أمركم ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره ، التقوى ههنا ــ

---

(١) الأعراف : ١٥٧ (٢) أى شريكا فى عبادتك لله .

(٣) أى أعطى عهدا بى ، والغدر ترك الوفاء .

(٤) التحسس بالحاء والتجسس : البحث عن العورات .

ويشير الى صدره - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله » واللفظ لمسلم .

وما رواه البخارى وغيره ، عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله حرم عليكم عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنع وهات ، وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، واضاعة المال » .

وما رواه البخارى ومسلم ، عن أبى بكر رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » ؟ ثلاثا . قلنا : بلى ، قال : « الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين » وكان متكئا فجلس فقال : « ألا وقول الزور وشهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت .

وما رواه البخارى ومسلم ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « من الكبائر شتم الرجل والديه » قالوا : يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : « نعم .. يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » .

* * *

والذى نريد أن نقف عليه الآن ، هو :

ما هو الحلال وما هو الحرام والمتشابه

ولكى نقف على التعريف بكل على حدة ، فاننى أرى أن نقف أولا على هذا الحديث الشريف الذى رواه البخارى ومسلم :

عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان الحلال بين ، وان الحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات ، لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ[1] لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وان لكل ملك حمى ، ألا وان حمى الله محارمه ، ألا وان فى الجسد مضغة ، اذا صلحت ، صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

---

(١) أى طلب البراءة من الخطأ والعار .

فهذا الحديث[١] : تتبنى عليه أحكام الاسلام كلها ، فقد قسم الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث الأحكام الى حلال بين ، بينته الشريعة فى نصوصها ، والى حرام بين بينته الشريعة كذلك ، والى أمور أخرى اشتبه على كثير من الناس حكم الله فيها ، وهى من المتشابهات التى ينبغى على المسلم الورع اتقاؤها ، صيانة لدينه وعرضه . وجعل النبى صلى الله عليه وسلم مدار صحة الأديان والأبدان على صلاح القلب ، وسلامته من الآفات .

قال النووى فى شرح مسلم : أجمع العلماء على عظم وقع هذا الحديث ، وكثرة فوائده ، وأنه أحد الأحاديث التى عليها مدار الاسلام أ . هـ .

والحلال ، عند جمهور الفقهاء : هو المباح الذى لم يرد دليل من الشرع يحرمه .

والحرام : هو المحظور الذى ورد دليل من الشرع يحرمه .

ثم يقول فى الجزء الأول من « الفقه الواضح » ، وتحت هذين التعريفين أربع حقائق :

الحقيقة الأولى :

أن الأصل فى الأشياء الاباحة[٢] . فكل شىء لم ينص الشارع على تحريمه ، فهو حلال ، لا نسأل عنه .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدودا فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان ، فلا تبحثوا عنها » .

قال النبراوى فى شرح هذا الحديث : « هذا الحديث من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم ، الموجزة البليغة . بل قيل : ليس فى الأحاديث حديث أجمع لأصول الدين وفروعه منه ، لأنه قسم أحكام الله تعالى الى أربعة أقسام : فرائض ، ومحارم ، وحدود ، ومسكوت عنه ، وذلك يجمع أحكام الدين كلها » .

---

(١) كما يقول صاحب كتاب « الفقه الواضح » فضيلة الشيخ محمد بكر اسماعيل ــ اكرمه الله .

(٢) هذا مذهب اكثر العلماء ، ويرى بعضهم العكس .

الحقيقة الثانية :

أن الحلال ما أحله الله ورسوله ، لا ما أحله الانسان بعقله وهواه .

وأن الحرام ما حرمه الله ورسوله ، لا ما حرمه الانسان بعقله وهـــواه .

وعلى هذا : فلا يجوز لأحد كائنا من كان ، أن يقول فى دين الله ما لم يقله الله ورسوله ، وأن يفتى فى دينه بغير علم ، ولا هدى ، ولا كتاب منير ، فان القول على الله ــ بغير علم ــ افتراء عظيم ، وجرم كبير .

ولقد شدد الله النكير على كل من تسول له نفسه الأمارة بالسوء أن يتجرأ على الفتيـــا بغير علم ، طمعا فى دنيا يصيبها ، أو جاه يحصل عليه ، أو منصب يعتليه ، أو ليقال : انه عالم ، أو خوفا من أن يقال : انه جاهل .

فقال جل وعلا فى سورة الأعراف : « **قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** »[١] .

وقال تعالى فى سورة يونس : « **قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم ، أم على الله تفترون . وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ، ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون** »[٢] .

وقال تعالى فى سورة النحل : « **ولا تقولوا لمـــا تصف ألسنتكم الكذب هـــذا حـــلال وهذا حـــرام لتفتروا على الله الكذب ، ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع قليل ولهم عذاب أليم** »[٣] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كذب على متعمدا ، فليتبوأ مقعده من النار » رواه مسلم وغيره .

فاربأ بنفسك أيها المسلم أن تقول فى دين الله بغير علم ، مهما كان مشربك ، ومهما كان شأنك ومنصبك ، حتى ولو كنت من كبار العلماء : حتى لا تقع تحت هذا الوعيد ، ويحق عليـــك غضب الله ورسوله ، أعاذنا الله وإياك منه .

---

(١) الأعراف : ٣٣ (٢) يونس : ٥٩ ، ٦٠

(٣) النحل : ١١٦ ، ١١٧

ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرجون من الافتاء فى دين الله أشد التحرج ، الى الحد الذى كان أحدهم اذا سأله سائل عن مسألة فى دين الله ، اهتز واضطرب ، وأحاله الى غيره ، فقال : اذهب الى فلان فانه أعلم منى .

وهكذا كان يصنع التابعون :

فقد روى أن كل فقيه من الفقهاء المشهورين ، كان يقول بعد تقرير حكم الله فى المسألة : هذا ما وصل اليه علمى ، فان وجدتم فى كتاب الله ، أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يخالف قولى ، فخذوا به ، واضربوا بقولى عرض الحائط .

وقيل : ان الامام مالكا سئل عن مائة مسألة ، فأجاب عن أربعة منها ، وقال فى الباقيات : الله أعلم ، فعوتب فى ذلك ، فقال : من قال الله أعلم ، فقد أفتى .

وهو بهذا يريد أن ينجو بنفسه من غضب الله وعذابه .

الحقيقة الثالثة :

أن الله تبارك وتعالى ما أحل لعباده الا الطيبات ، وما حرم عليهم الا الخبائث .

قال تعالى فى سورة البقرة : « **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون** »(١) .

وقال تعالى فى سورة المائدة : « **يسألونك ماذا أحل لهم ، قل أحل لكم الطيبات ...** »(٢) .

وقال تعالى فى سورة الأعراف : « **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث** »(٣) .

الحقيقة الرابعة :

أنه لا يجوز للعبد أن يحرم على نفسه شيئا أباحه الله له من غير ضرورة ، فان ذلك يعد اعتداء على دينه ، وتعديا لحدوده .

قال جل وعلا فى سورة المائدة : « **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون** »(٤) .

---

(١) البقرة : ١٧٢ (٢) المائدة : ٤

(٣) الأعراف : ١٥٧ (٤) المائدة : ٨٧ ، ٨٨

وأما المتشـــابه :

فهو : ما اختلف الناس فى حله لسبب من الأسباب المنصوص عليها فى كتب الفقـــه المطولة ، كتعارض الأدلة ، وذلك كأن يكون فى المسألة دليل يفيد الحل ، ودليل يفيد الحرمة ، والدليلان متساويان فى الصحة • أى : ليس دليل أرجح من دليل ، فتظل المسألة وسطا بين الحل والتحريم •

فحينئذ يكون ترك هذا المتشابه مطلوبا شرعا ، وقاية للدين ، وحماية للعرض ، كما قال الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم فى الحديث : « فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه » •

* * *

وأما المسكوت عنه :

وهو الذى عناه الرسول صلى الله عليه وسلم ، بقوله : « وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان ، فلا تبحثوا عنها » •

فالمراد به : ما لم يذكر حكمه بتحليل ولا ايجاب ولا تحريم ، فيكون معفوا عنه لا حرج على فاعله ••

وفى الحديث يقول النبى صلى الله عليه وسلم ، عندما سئل عن الحج فى كل عام : « ذرونى ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فاذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه ، واذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » •

ومثله قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه : « ان أعظم المسلمين فى المسلمين جرما من سأل عن شىء لم يحرم فحرم من أجل مسألته » •

وقد دل القرآن على مثل هذا أيضا فى مواضع كقوله تعالى : **« قل لا أجد فى ما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا »**(١) •

فهذا يدل على أن ما لم يوجد تحريمه فليس بمحرم ، وكذلك قوله تعـــالى : **« وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم الا ما اضطررتم اليه »**(٢) •

فعنفهم على ترك الأكل مما ذكر اسم الله عليه معللا بأنه قد بين

---

(١) الأنعام : ١٤٥ (٢) الأنعام : ١١٩

لهم الحرام وليس هذا منه ، فدل على أن الأشياء على الاباحة والا لما لحق اللوم بمن امتنع من الأكل مما لم ينص له على حكمه بمجرد كونه لم ينص على تحريمه .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان » : يعنى أنه — سبحانه — انما سكت عن ذكرها رحمة بعباده ورفقا حيث لم يحرمها عليهم حتى يعاقبهم على فعلها ، ولم يوجبها عليهم حتى يعاقبهم على تركها بل جعلها عفوا ، فان فعلوها فلا حرج عليهم ، وان تركوها فكذلك . وفى حديث أبى الدرداء ، ثم تلا : **« وما كان ربك نسيا »**[1] .

وقوله : « فلا تبحثوا عنها » : يحتمل اختصاص هذا النهى بزمن النبى صلى الله عليه وسلم لأن كثرة البحث والسؤال عما لم يذكر قد يكون سببا لنزول التشديد فيه بايجاب أو تحريم .

وقد يدخل فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « هلك المتنطعون ، قالها ثلاثا » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود مرفوعا . والمتنطع هو المتعمق البحاث عما لا يعنيه .

ومما يدخل فى النهى عن التعمق والبحث عنه : أمور الغيب الخبرية التى أمرنا بالايمان بها ولم يبين كيفيتها ، وبعضها قد لا يكون له شاهد فى هذا العالم المحسوس ، فالبحث عن كيفية ذلك هو مما لا يعنى وهو مما ينهى عنه ، وقد يوجب الحيرة والشك ويرتقى الى التكذيب .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « لا يزال الناس يسألون حتى يقال : هذا خلق الله ، فمن خلق الله ، فمن وجد من ذلك شيئا فليقل : آمنت بالله » .

وخرجه البخارى أيضا ، ولفظه : « يأتى الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول : من خلق ربك ، فاذا بلغه فليستعذ بالله ولينته » .

قال اسحاق بن راهويه : لا يجوز التفكر فى الخالق ، ويجوز للعباد أن يتفكروا فى المخلوقين بما سمعوا فيهم ولا يزيدون على ذلك لأنهم ان فعلوا تاهوا . ثم يقول : وقال الله عز وجل : **« وان من شىء الا يسبح بحمده ... »**[2] فلا يجوز أن يقال : كيف تسبيح

---

(١) مريم : ٦٤ (٢) الاسراء : ٤٤

القصاع[١] والأخونة والخبز المخبوز والثياب المنسوجة ؟ وكذا هـذا قد صح العلم فيهم أنهم يسبحون ، فذلك الى الله أن يجعل تسبيحهم كيف شاء وكما شاء ، وليس للناس أن يخوضوا في ذلك الا بما علموا ولا يتكلموا فى هذا وشبهه الا بما أخبر الله ولا يزيدوا على ذلك .

* * *

ولهـذا فقد رأيت فى ختام هـذا الشرح الايجابى لتلك الوصية العظيمة أن أزودك بتلك القصيدة الروحية ، التى سترى من خلالها كيف تكون التساؤلات المفيدة التى يقول فيها كاتبها الموحد[٢] :

كل العجائب صنعة العقل الذى ... هو صنعة الله الذى سـواكا
والعقل ليس بمدرك شـيئا اذا ... ما الله لـم يكتب لـه الادراكا
لله فى الآفـاق آيـات لعـ ... ـل أقـلها هـو ما اليه هـداكا
ولعـل ما فى النفس من آيـاته ... عجب عجـاب لو ترى عينـاكا
والكون مشـحون بأسرار اذا ... حاولت تسـفيرا لهـا أعيـاكا
قل للطبيب تخطفتـه يد الردى ... يا شافى الأمراض من أرداكا ؟
قل للمريض نجـا وعوفى بعدما ... عجزت فنون الطب من عافاكا ؟
قل للصحيح يموت لا من عـلة ... من بالمنايا ، يا صحيح دهاكا ؟
قل للبصير وكان يحذر حفـرة ... فهو بها من ذا الذى أهواكا ؟
بل سائل الأعمى خطا بين الزحا ... م بلا اصطدام من يقود خطاكا ؟
قل للجنـين يعيش معزولا بلا ... راع ومرعى : ما الذى يرعاكا ؟
قل للوليـد بكى وأجهش بالبكا ... ء ، لدى الولادة : ما الذى أبكاكا ؟
واذا ترى الثعبان ينفث سـمه ... فاسأله : من ذا بالسموم حشاكا ؟
واسـأله : كيف تعيـش أو ... تحيـا ، وهـذا السم يملأ فاكا ؟
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت ... شهدا ، وقل للشهد : من حلاكا ؟
بل سائل اللبن المصفى كان بـ ... ين دم وفرث ، ما الذى صفاكا ؟
واذا رأيت الحى يخرج من حنـا ... يا ، ميت فاسأله : من أحيـاكا ؟
قل للهواء تحسه الأيدى ويخـ ... ـفى عن عيون الناس : من أخفاكا ؟
قل للنبـات يجـف بعد تعهـد ... ورعاية : من بالجفـاف رماكا ؟
واذا رأيت النبت فى الصحراء يرـ ... ـبو وحده فاسأله : من أرباكا ؟

* * *

---

(١) جمع قصعة .

(٢) وهو الشيخ ابراهيم بديوى ، من الوعى الاسـلامى ـ العـدد ٥٤ ـ سنة ١٩٦٩ م .

واذا رأيت البـــدر يسرى ناشرا أنواره فاســـأله : من أسراكا ؟
واسأل شعاع الشمس يدنو وهى أبـــ
ـــــعد كل شيء ما الـــذى أدنـــاكا ؟
قل للمرير من الثمار من الذى بالمر من دون الثمـــار غـــذاكا ؟
واذا رأيت النخل مشقوق النوى فاسأله : من يا نخل شق نواكا ؟
واذا رأيت النـــار شب لهيبهـــا فاسأل لهيب النار : من أوراكا ؟
واذا ترى الجبل الأشم مناطحا قمم السحاب فسله : من أرساكا ؟
واذا ترى صخرا تفجـــر بالميـــا ه ، فسله : من بالماء شق صفاكا ؟
واذا رأيت النهر بالعـــذب الزلا ل جرى فسله : من الذى أجراكا ؟
واذا رأيت البحر بالمـــلح الأجا ج طغى، فسله : من الذى أطغاكا ؟
واذا رأيت الليل يغشى داجيـــا فاسأله : من ياليل حاك دجاكا ؟
واذا رأيت الصبح يسفر ضاحيا فاسأله من يا صبح صاغ ضحاكا ؟

* * *

الجزء الثالث عشر

الوصية التاسعة والثلاثون

عن محمود بن لبيد قال : خرج النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال :

« يا أيها النـــاس .. اياكم وشرك السرائر[1] . قالوا : يارسول الله .. وما شرك السرائر ؟ قال : يقـــوم الرجل فيصلى فيزين صلاته جاهدا[2] لمـــا يرى من نظر الناس اليه ، فذلك شرك السرائر » .

(رواه ابن خزيمة فى صحيحه)

* * *

فكن أخا الاســـلام :

منفذا لهذا التحذير المحمدى الذى يعتبر ــ لو أمعنت النظر فيه ــ أهم تحذير يجب عليك أن تحذره ، لأنه يتعلق بشرك السرائر الذى ــ للأسف الشديد ــ وقع فيه كثير منا بقصد أو بغير قصد ، وذلك بسبب الغرائز النفسية الأمارة بالسوء ، أو بسبب التزيين الشيطانى الذى أساسه أو سببه حب الشهوات ، والميل الى النزوات ، وحب الظهور ..

وحتى يتضح لنا هذا ، فاننى أحب أولا أن أقف معك على :

أنواع الشرك

وهو ثلاثة أنواع[3] : شرك أكبر ، وشرك أصغر ، وشرك خفى . والدليل على الشرك الأكبر ، قوله تعالى :

« ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا »[4] .

---

(١) السرائر : جمع سريرة وهى السر الذى يكتم .

(٢) أى مجتهدا فى ذلك ومهتما به .

(٣) كما جاء فى كتب التوحيد .

(٤) النساء : ١١٦

وقوله تعالى :

« وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ، انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنـــة ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصـــار »[١] ..

والشرك الأكبر أربعة أنواع :

النوع الأول : شرك الدعوة ، والدليل قوله تعالى :

« فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون »[٢] ..

النوع الثانى : شرك النية ، والدليل قوله تعالى :

« من كان يريد الحيـــاة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيهـــا وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النـــار ، وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون »[٣] ..

النوع الثالث : شرك الطاعة ، والدليل قوله تعالى :

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمـروا الا ليعبـدوا الها واحـدا ، لا الـه الا هو ، سـبحانه عما يشركون »[٤] ..

وتفسيرها الذى لا اشكال فيه : طاعة العلماء والعباد فى المعصية ، لا دعاؤهم اياهم ، كما فسرها النبى صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم لمـا سأله ، فقال : لسنا نعبدهم ، فذكر له أن عبادتهم طاعتهم فى المعصية[٥] .

النوع الرابع : شرك المحبة ، والدليل قوله تعالى :

« ومن النـــاس من يتخـــذ من دون الله أنـــدادا يحبونهم كحب الله ... »[٦] ..

وأما النوع الثانى من أنواع الشرك الثلاثة ، فهو الشرك الأصغر ، أو هو الرياء ، ودليله قوله تعالى :

« فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحـــدا »[٧] .

---

(١) المائدة : ٧٢ (٢) العنكبوت : ٦٥

(٣) هو : ١٥ ، ١٦ (٤) التوبة : ٣١

(٥) كما ورد فى حديث رواه الترمذى .

(٦) البقرة : ١٦٥ (٧) الكهف : ١١٠

والنوع الثالث : هو الشرك الخفى ، والدليل عليه قوله صلى الله عليه وسلم :

« الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء » .

وكفارته قوله صلى الله عليه وسلم :

« اللهم انى أعوذ بك أن أشرك بك شيئا وأنا أعلم ، وأستغفرك من الذنب الذى لا أعلم »[1] .

* * *

والذى يعنينا — بعد ذلك — من تلك الأنواع الثلاثة — الأكبر ، والأصغر ، والخفى — هو النوع الثانى ، الذى وضحه النبى صلى الله عليه وسلم ، فى قوله : « يقوم الرجل فيصلى فيزين صلاته جاهدا لما يرى من نظر الناس اليه » . وقد يكون هو النوع الثالث ، لأنه الخفى الذى وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه شرك السرائر .

وحسب الأخ المسلم اذا أراد أن يكون مجتنبا لهذا الشرك الخفى ، أن يعلم أنه محبط للأعمال ، والى هذا قد يشير الله سبحانه وتعالى فى قوله : **« وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا »**[2] .

أى كالغبار المفرق ، أو مثله فى عدم النفع به .

قال ابن كثير : وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعى ، اما الاخلاص فيها ، واما المتابعة لشرع الله ، فكل عمل لا يكون خالصا وعلى الشريعة المرضية ، فهو باطل .

وقد أشار الله سبحانه وتعالى أيضا الى هذا محذرا من الرياء ونتائجه وعواقبه الوخيمة ، فقال :

« يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى[3] **كالذى**

---

(١) رواه الحاكم وأبو نعيم عن عائشة .

(٢) هو شعاع الشمس اذا دخل فى الكوة .. لو ذهبت تقبض عليه لم تستطع . والآية فى سورة الفرقان : ٢٣

(٣) المن أن يعتدى على من أحسن اليه باحسانه ويرى أنه أوجب عليه حقا ، والأذى أن يتطاول عليه بسبب ما أسدى اليه ، ورئاء الناس ابتغاء سمعتهم ، وصفوان : حجر أملس ، والوابل : المطر الشديد ، والصلد : الصلب الأملس ، وقوله : **« لا يقدرون على شىء مما كسبوا »** أى لا يجدون له ثوابا فى الآخرة كما لا يوجد على الصفوان شىء من التراب لاذهاب المطر اياه .

ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصـــابه وابل فتركه صلدا ، لا يقدرون على شيء مما كسبوا ، والله لا يهدى القوم الكافرين »[١] .

« ان المنافقين يخادعون الله[٢] **وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليـــلا . مذبذبين**[٣] **بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجـــد لـــه ســـبيلا »**[٤] .

« والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا »[٥] .

« فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ســـاهون . الذين هم يراءون . ويمنعون المـــاعون »[٦] .

* * *

وقد ورد فى السنة كثير من الأحاديث الشريفة المحذرة من الرياء فى الأعمال ، والمرغبة فى نفس الوقت فى الاخلاص الذى هو ضد الرياء ، فاليك بعضها :

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قال رجل : يا رسول الله .. انى أقف الموقف أريد وجه الله وأريد أن يرى موطنى[٧] ، فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل : **« .. فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »**[٨] .

رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين .

وعن جندب بن عبد الله ، قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم :

---

(١) البقرة : ٢٦٤

(٢) المراد : عاملوه معاملة المخادع .

(٣) الذبذبة : تردد الشيء المعلق فى الهواء .

(٤) النساء : ١٤٢ ، ١٤٣ (٥) النساء : ٣٨

(٦) المـــاعون : اى المعاونة وقيل غير ذلك — والآيـــة من سورة المـــاعون : ٤ — ٧

(٧) الموطن : المشهد من مشاهد الحرب .

(٨) الكهف : ١١٠

« من سمع سمع الله به ومن يراء يراء الله به »[١] رواه البخارى ومسلم .

وعن أبى سعيد بن أبى فضالة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك فى عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عنده فان الله أغنى الشركاء عن الشرك » رواه الترمذى فى التفسير من جامعه وابن ماجه .

وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « قال الله عز وجل : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء وهو للذى أشرك »[٢] رواه ابن ماجه ورواته ثقات .

وعن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك[٣] حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال فلان جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمت وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها الا أنفقت فيها لك[٤] . قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار » رواه مسلم والنسائى والترمذى وحسنه وابن ماجه .

* * *

وقد ضرب العلماء العاملون على ذلك مثلا ، فقالوا : مثل الذى يعمل للرياء والسمعة كمثل رجل خرج الى السوق وملأ كيسه[٤] بقطع

---

(١) سمع وراءى به : أى فضحه .

(٢) أى ان عمله للذى أشركه مع الله ، لأن الله برىء منه .

(٣) أى فى سبيلك .

(٤) أى الذى يضع فيه نقوده .

من الحصى أو ما شابه ذلك . فأخذ الناس يقولون : ما أملأ كيس هـذا الرجل[١] .. ولكنه اذا أراد أن يشترى شـيئا لا يعطى به شيء .. وكذلك الذى يعمل للرياء والسمعة ، لا منفعة له سـوى مقالة الناس ولا ثواب له فى الآخرة .

وقد قرأت كذلك أن رجلا من العباد[٢] علم أن قوما يعبدون شجرة .. فأخذ فأسا وذهب ليقطعها ، فقابله ابليس فى الطريق اليها ، فسأله : الى أين أنت ذاهب ؟ قال : انى ذاهب الى الشجرة التى علمت أنهـا تعبد من دون الله لأقطعها ، فقال له ابليس : لن تقطعها .. فقال العابد : لابد من قطعها .. ثم قاتل العابد ابليس فصرعه .. فلما رأى ابليس أن العابد قد صرعه بقوة ايمانه واخلاصه ، احتال عليه فقـال له : انك رجل فقير ومحتاج الى المـال ، فارجع الى محرابك ودع أمـر الشجرة لأهد غيرك ، ولو شاء الله تعالى قطعها لأرسل رسولا لقطعها ، ثم قال له : ولك منى مقابل هذا دينارين كل ليلة .. فاقتنع العـابد بهذا ثم عاد .. ففى الليلة الأولى وجد الدينارين ، وفى الليلة الثانية وجد الدينارين ، وفى الليلة الثالثة لم يجد شيئا .. فخرج غاضبا ليقطع الشجرة .. فقابله ابليس ، فقال له : الى أين ؟ قال : انى ذاهب لأقطع الشجرة .. فقال له : لن تقطعها .. فيرد عليه العابد قائلا : لابد من قطعها .. ثم قاتله فصرعه ابليس .. فتعجب العابد ، ثم قال لابليس : لمـاذا غلبتك أولا ثم غلبتنى ثانيا ؟ فيقول له ابليس : لأن غضبك أولا كان لله ، وغضبك ثانيا كان للدينارين .

* * *

ومن هذا يتبين لنا أهمية الاخلاص ، الذى ورد فى وصفه أنه : سر بين العبد وربه ، وأنه : ما لا يكتبه الملكان ، ولا يفسده الشيطان ، ولا يطلع عليه الانسـان .

ولهذا ، فقد قال الله تعالى :

« الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصـموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما »[٣] .

---

(١) أى ما أكثر نقوده .
(٢) وكان من بنى اسرائيل .
(٣) النساء : ١٤٦

« انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين »[١] .
« وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء[٢] ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة »[٣] .

وحتى تكون مخلصا فى نيتك ، وبعيدا عن الرياء والسمعة ، اليك كذلك هذه الأحاديث الشريفة التى أرجو أن تكون دائما نصب عينيك حتى تنتفع بها ..

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله ، فهجرته الى الله ورسوله . ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه » رواه البخارى ومسلم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله لا ينظر الى أجسامكم ولا الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم » رواه مسلم .

« لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة[٤] لخرج عمله كائنا ما كان » رواه البخارى ومسلم .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية[٥] ويقاتل رياءا أى ذلك يكون فى سبيل الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » أخرجه البخارى ومسلم .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « اذا أنزل الله بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على نياتهم » رواه البخارى ومسلم .

---

(١) الزمر : ٢
(٢) جمع حنيف وهو المائل الى الاسلام الثابت عليه والحنيف عند العرب من كان على دين ابراهيم عليه السلام .
(٣) القيمة : الملة المستقيمة ، والدين هنا العبادة بجميع أنواعها — والآية من سورة البينة : ٥
(٤) الكوة بالفتح والضم لغة فيها : اى نقب البيت .
(٥) من حمى من الشىء كرضى حمية أنف .

وعن سعد بن أبى وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « انك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله الا أجرت عليهـا حتى ما تجعل فى فم امرأتك » رواه البخارى .

* * *

هذا .. واذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أشار فى الوصية الى الرياء الذى قد يحدث غالبا فى الصلاة ، واذا كان قد حذر منه بصفة خاصة ، فان السبب فى هذا هو أن الصلاة ــ كما علمت قبل ذلك ــ هى عماد الدين ، وهى أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة :

فعن عبد الله بن قرط رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة ، فان صلحت صلح سائر عمله ، وان فسدت فسد سائر عمله » رواه الطبرانى فى الأوسط باسناد لا بأس به .

فلاحظ كل هذا أخا الاسلام واحذر أن تكون مرائيا بصلاتك أو صلاتك : حتى لا تفسد صلاتك فتفسد جميع أعمالك يوم القيامة .. وتكون مع الهالكين .

وحسبك اذا أردت أن تكون مخلصا فى صلاتك : أن تصلى كهذا الرجل الصالح ــ وهو حاتم الأصم رضى الله عنه ــ فلقد سأله عصام ابن يوسف رحمه الله يوم أن مر به وهو يتكلم فى مجلسه فقال له : يا حاتم تحسن تصلى ؟ قال : نعم . قال : كيف تصلى ؟ فقال حاتم : أقوم بالأمر ، وأمشى بالخشـية ، وأدخل بالنيـة ، وأكبر بالعظمة ، وأقرأ بالترتيل والتفكر ، وأركع بالخشوع ، وأسجد بالتواضع ، وأجلس للتشهد بالتمام ، وأسلم بالنية ، وأختمها بالاخلاص لله عز وجل ، وأرجع على نفسى بالخوف ، أخاف أن لا يقبل منى ، وأحفظه بالجهد الى الموت .

قال : تكلم فأنت تحسن تصلى . انتهى كلام ابن رجب باختصار .

* * *

واحذر أن تترك العمل الصالح مخافة الرياء ، فقد قال العلمـاء : ترك العمل مخافة الرياء رياء[1] .

---

(١) أعنى مخافة أن يقال عنك انك فعلت كذا وكذا من الأعمـال الصالحة .

أي : ما دمت صادقا فى نيتك .. فلا خوف عليك وعلى عملك من كلام الناس ..

وليكن شعارك دائما وأبدا هو :

« .. ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له .. »[1] .

جعلنى الله تعالى واياك من المخلصين وتقبل منا جميعا خالص الأعمال .. آمين .

* * *

(١) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣

الوصية الأربعون

عن أبى على ، رجل من بنى كاهل ، قال : خطبنا أبو موسى الأشعرى ، قال :

يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فانه أخفى من دبيب النمل . فقام اليه عبد الله بن حزن وقيس بن المضارب ، فقالا : والله لتخرجن مما قلت ، أو لتأتين عمر مأذونا لنا أو غير مأذون . فقال : بل أخرج مما قلت :

خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال : « يا أيها الناس .. اتقوا هذا الشرك فانه أخفى من دبيب النمل . فقال له من شاء الله أن يقول : وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ؟ قال : قولوا : اللهم انا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه » .

(رواه أحمد والطبرانى ، ورواته الى أبى على محتج بهم فى الصحيح . أبو على وثقه ابن حبان ، ولم أر أحدا جرحه ورواه أبو يعلى بنحوه من حديث حذيفة الا أنه قال فيه : يقول كل يوم ثلاث مرات) .

* * *

فكن أخا الاسلام :

منتفعا ــ كذلك ــ بهذه الوصية العظيمة التى تشير ــ أيضا ــ الى خطورة الشرك الذى وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه أخفى من دبيب النمل .

والتى يوصينا فيها الرسول صلى الله عليه وسلم بأن نستعيذ به ونستغفره ــ كل يوم ثلاث مرات ــ من الشرك ما نعلمه منه وما لا نعلم .

واذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحذر من الشرك ثم يوصينا بعد ذلك بهذا الدعاء الذى نستطيع به ــ ان شاء الله ــ أن نتقى هذا الشرك الذى ــ كما عرفنا ــ هو أخفى من دبيب النمل :

فان هذا معناه أن النبى صلى الله عليه وسلم يحذرنا .. بل ويوصينا بأمر خطير لابد وأن يكون دائما وأبدا هو شاغلنا الشاغل .. لأنه يتعلق بصلب العقيدة الصحيحة التى هى الأساس فى جميع العبادات .. والتى بدونها لا تساوى تلك العبادة شيئا .

وحتى يتضح لنا هذا ، فقد رأيت أن أقف معك على المراد من قول الله تعالى :

« .. فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »(١) .

وقد ذكر القرطبى حول تفسير هذه الآية كلاما عظيما جاء فيه ما مضمونه :

« فمن كان يرجوا لقاء ربه » أى : يرجو رؤيته وثوابه ويخشى عقابه **« فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »** ، قال ابن عباس : نزلت فى جندب بن زهير العامرى ، قال : يا رسول الله .. انى أعمل العمل لله تعالى ، وأريد وجه الله تعالى ، الا أنه اذا اطلع عليه سرنى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ان الله طيب ولا يقبل الا الطيب ولا يقبل ما شورك فيه » فنزلت الآية .

وقال طاوس ، قال رجل : يا رسول الله .. انى أحب الجهاد فى سبيل الله تعالى وأحب أن يرى مكانى .. فنزلت هذه الآية . وقال مجاهد : جاء رجل للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله .. انى أتصدق وأصل الرحم ولا أصنع ذلك الا لله تعالى ، فيذكر ذلك منى وأحمد عليه فيسرنى ذلك وأعجب به ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئا ، فأنزل الله تعالى : **« فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »** .

ثم يقول القرطبى : والكل مراد ، والآية تعم ذلك كله وغيره من الأعمال ..

كما يقول : وقال الماوردى وقال جميع أهل التأويل : معنى قوله تعالى : **« ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »** أنه لا يرائى بعمله أحدا .

وروى الترمذى الحكيم رحمه الله تعالى فى « نوادر الأصول » قال : حدثنا أبى رحمه الله تعالى قال : حدثنا مكى بن ابراهيم قال :

---

(١) الكهف : ١١٠ .

حدثنا عبد الواحد بن زيد عن عبادة بن نسى قال : أتيت شداد بن أوس فى مصلاه وهو يبكى ، فقلت : ما الذى أبكاك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ، اذ رأيت بوجهه أمرا ساءنى فقلت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله .. ما الذى ارى بوجهك ؟ قال : « أمرا أتخوفه على أمتى من بعدى » قلت : ما هو يا رسول الله ؟ قال : « الشرك والشهوة الخفية » قلت : يا رسول الله .. وتشرك أمتك من بعدك ؟ قال : « يا شداد .. أما انهم لا يعبدون شمسا ولا قمرا ولا حجرا ولا وثنا ولكنهم يراءون بأعمالهم » قلت : والرياء أشرك هو ؟ قال : « نعم » قلت : فما الشهوة الخفية ؟ قال : « يصبح أحدهم صائما فتعرض له شهوات الدنيا فيفطر » . قال عبد الواحد : فلقيت الحسن ، فقلت : يا أبا سعيد .. أخبرنى عن الرياء أشرك هو ؟ قال : نعم ، أما تقرأ : **« فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »** .

وروى اسماعيل بن اسحاق قال : حدثنا محمد بن أبى بكر قال : حدثنا المعتمر بن سليمان عن ليث عن شهر بن حوشب ، قال : كان عبادة بن الصامت وشداد بن أوس جالسين ، فقالا : انا نتخوف على هذه الأمة من الشرك والشهوة الخفية ، فأما الشهوة الخفية فمن قبل النساء . وقالا : سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من صلى صلاة يرائى بها فقد أشرك ، ومن صام صياما يرائى به فقد أشرك » ثم تلا : **« فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »** .

وقال سهل بن عبد الله : وسئل الحسن عن الاخلاص والرياء فقال : من الاخلاص أن تحب أن تكتم حسناتك ولا تحب أن تكتم سيئاتك ، فان أظهر الله عليك حسناتك تقول : هذا من فضلك واحسانك ، وليس هذا من فعلى ولا من صنيعى ، وتذكر قوله تعالى :

« فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » .

« والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون »[1]

---

(١) المؤمنون : ٦٠.

أى : يؤتون الاخلاص ، وهم يخافون ألا يقبل منهم ، وأما الرياء : فطلب حظ النفس من عملها فى الدنيا ، قيل له : كيف يكون هذا ؟ قال : من طلب بعمل بينه وبين الله تعالى سوى وجه الله تعالى والدار الآخرة فهو رياء • وقال علماؤنا رضى الله تعالى عنهم : وقد يفضى الرياء بصاحبه الى استهزاء الناس به ، كما يحكى أن طاهر بن الحسين قال لأبى عبد الله المروزى : منذ كم صرت الى العراق يا أبا عبد الله ؟ قال : دخلت العراق منذ عشرين سنة وأنا منذ ثلاثين سنة صائم ، فقال : يا أبا عبد الله ، سألناك عن مسألة فأجبتنا عن مسألتين •

وحكى الأصمعى أن أعرابيا صلى فأطال والى جانبه قوم ، فقالوا : ما أحسن صلاتك ؟! فقال : وأنا مع ذلك صائم •

آين هذا من قول الأشعث بن قيس وقد صلى فخفف ، فقيل له : انك خففت ، فقال : انه لم يخالطها رياء ، فخلص من تنقصهم بنفى الرياء عن نفسه ، والتصنع من صلاته ••

وروى الترمذى الحكيم حدثنا أبى رحمه الله تعالى ، قال : أنبأنا الحمانى ، قال : أنبأنا جرير عن ليث عن شيخ بن معقل بن يسار قال : قال أبو بكر وشهد به على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك ، قال : « هو فيكم أخفى من دبيب النمل ، وسأدلك على شىء اذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره ، تقول : اللهم انى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم ، تقولها ثلاث مرات » •

وقال عمر بن قيس الكندى : سمعت معاوية تلا هذه الآية على المنبر : « **فمن كان يرجوا لقاء ربه ••** » فقال : انها لآخر آية نزلت من السماء •

وقال عمر : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أوحى الى أنه من قرأ : « **فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا** » رفع له نور ما بين عدن الى مكة حشوه الملائكة يصلون عليه ويستغفرون له » •

وقال معاذ بن جبل : قال لى النبى صلى الله عليه وسلم : « من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نورا من قرنه الى قدمه ، ومن قرأها كلها كانت له نورا من الأرض الى السماء » ا • هـ • القرطبى بتصرف •

* * *

فمن كل هذا أخا الاسلام يتبين لنا بوضوح خطورة الشرك الذى هو الرياء المحبط للأعمال :

واذا كنت أقول هذا .. فلأننى أريد أن أذكر كذلك ، ببيان :

ما يحبط العمل من الرياء الخفى والجلى وما لا يحبـــط

كما يقول الامام الغزالى رحمه الله تعالى فى كتابه « احياء علوم الدين » حيث يقول تحت هذا العنوان ، فنقول فيه :

اذا عقد العبد العبادة على الاخلاص ، ثم ورد عليه وارد الرياء ، فلا يخلو اما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل ، أو قبل الفراغ . فان ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير اظهار ، فهذا لا يفسد العمل . اذ العمل قد تم على نعت الاخلاص ، ســالما عن الرياء ، فما يطرأ بعده فنرجو أن لا ينعطف عليه أثره ، لا ســيما اذا لم يتكلف هو اظهاره والتحدث به ، ولم يتمن اظهاره وذكره ، ولكن اتفق ظهوره باظهار الله ، ولم يكن منه الا ما دخل من السرور والارتياح على قلبه . نعم .. لو تم العمل على الاخلاص من غير عقد رياء ، ولكن ظهرت له بعده رغبة فى الاظهار ، فتحدث به وأظهره ، فهذا مخوف .

وفى الآثار والأخبار ما يدل على أنه محبط : فقد روى عن ابن مسعود أنه سمع رجلا يقول : قرأت البارحة البقرة ، فقال : ذلك حظه منها .

وروى عن رسول الله صلى الله عليــه وسلم ، أنه قال لرجل قال له : صمت الدهر يا رسول الله ، فقال له : « ما صمت ولا أفطرت » . فقال بعضهم : انما قال ذلك لأنه أظهره ، وقيل : هو اشارة الى كراهة صوم الدهر . وكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن ابن مسعود ، استدلالا على أن قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد الرياء وقصده له ، لمــا آن ظهر منه التحدث به ، اذ يبعد أن يكون ما يطرأ بعد العمل مبطلا لثواب العمل . بل الأقيس أن يقال انه مثاب على عمله الذى مضى ، ومعاقب على مراآته بطاعة الله بعد الفراغ منها ، بخلاف ما لو تغير عقده الى الرياء قبل الفراغ من الصلاة ، فان ذلك قد يبطل الصلاة ، ويحبط العمل . وأما اذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلا ، وكان قد عقد على الاخلاص ، ولكن ورد فى أثنائها وارد الرياء ، فلا يخلو اما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر فى العمل ، واما أن يكون رياءا باعثا على العمل ، فان كان

باعثا على العمل وختم العبادة به ، حبط أجره ، ومثاله أن يكون فى تطوع ، فتجددت له نظارة ، أو حضر ملك من الملوك ، وهو يشتهى أن ينظر اليه ، أو يذكر شيئا نسيه من ماله ، وهو يريد أن يطلبه ، ولولا الناس لقطع الصلاة ، فاستتمها خوفا من مذمة الناس ، فقد حبط أجره • وعليه الاعادة ان كان فى فريضة • وقد قال صلى الله عليه وسلم : « العمل كالوعاء اذا طاب آخره طاب أوله » أى النظر الى خاتمته • وروى أنه من راءى بعمله ساعة ، حبط عمله الذى كان قبله • وهذا منزل على الصلاة فى هذه الصورة لا على الصدقة ، ولا على القراءة • فان كل جزء من ذلك مفرد ، فما يطرأ يفسد الباقى دون الماضى ، والصوم والحج من قبيل الصلاة • وأما اذا كان وارد الرياء • بحيث لا يمنعه من قصد الاتمام لأجل الثواب ، كما لو حضر جماعة فى أثناء الصلاة ، ففرح بحضورهم وعقد الرياء ، وقصد تحسين الصلاة لأجل نظرهم ، وكان لولا حضورهم لكان يتمها أيضا : فهذا رياء قد أثر فى العمل ، وانتهى باعثا على الحركات • فان غلب حتى انمحق معه الاحساس بقصد العبادة والثواب ، وصار قصد العبادة مغمورا ، فهذا أيضا ينبغى أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه • لأنا نكتفى بالنية السابقة عند الاحرام ، بشرط أن لا يطرأ عليها ما يغلبها ويغمرها •

ويحتمل أن يقال لا يفسد العبادة نظرا الى حالة العقد ، والى بقاء قصد أصل الثواب وان ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه •

ولقد ذهب الحارث المحاسبى رحمه الله تعالى الى الاحباط فى أمر هو أهون من هذا ، وقال : اذا لم يرد الا مجرد السرور باطلاع الناس ، — يعنى سرورا — هو كحب المنزلة والجاه ، قال : وقد اختلف الناس فى هذا ، فصارت فرقة الى أنه محبط لأنه نقض العزم الأول ، وركن الى حمد المخلوقين ، ولم يختم عمله بالاخلاص ، وانما يتم العمل بخاتمته ، ثم قال : ولا أقطع عليه بالحبط وان لم يتزيد فى العمل ، ولا آمن عليه • وقد كنت أقف فيه لاختلاف الناس ، والأغلب على قلبى أنه يحبط اذا ختم عمله بالرياء • ثم قال : فان قيل قد قال الحسن رحمه الله تعالى انهما حالتان ، فاذا كانت الأولى لله لم تضره الثانية ، وقد روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله •• أسر العمل لا أحب أن يطلع عليه ، فيطلع عليه ، فيسرنى • قال :

« لك أجران .. أجر السر وأجر العلانية »[1] ثم تكلم على الخبر والأثر فقال : أما الحسن فانه أراد بقوله لايضره ، أى : لا يدع العمل ، ولا يضره الخطرة وهو يريد الله . ولم يقل اذا عقد الرياء بعد عقد الاخلاص لم يضره . وأما الحديث فتكلم عليه بكلام طويل ، يرجع حاصله الى ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه يحتمل أنه أراد ظهور عمله بعد الفراغ ، وليس فى الحديث أنه قبل الفراغ .

الثانى : أنه أراد أن يسر به للاقتداء به أو لسرور آخر محمود مما ذكرناه قبل ، لا سرور بسبب حب المحمدة والمنزلة ، بدليل أنه جعل له به أجرا ، ولا ذاهب من الأمة الى أن السرور بالمحمدة أجرا ، وغايته أن يعفى عنه ، فكيف يكون للمخلص أجر وللمرائى أجران !

الثالث : أنه قال أكثر من يروى الحديث يرويه غير متصل الى أبى هريرة ، بل أكثرهم يوقفه على أبى صالح . ومنهم من يرفعه . فالحكم بالعمومات الواردة فى الرياء أولى .. الخ .

* * *

فاذكر أخا الاسلام كل هذا حتى لا تحبط أعمالك بسبب هذا الرياء الذى كما عرفت هو أخفى من دبيب النمل ، ولتقصد دائما وأبدا وجه الله تعالى حتى يقبل الله تعالى منك أعمالك .

واذا أردت أن تتقى الشرك هذا ، أو الرياء هذا .. فحسبك أن تستعين بالله تعالى على هذا بهذا الدعاء الذى أوصانا جميعا به فى نهاية الوصية ، وهو :

« اللهم انا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه » .

أسأل الله تعالى أن يتقبل منا جميعا هذا الدعاء .. آمين .

* * *

---

(١) رواه البيهقى فى شعب الايمان .

الوصية الواحدة والأربعون

عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« تعلموا العلم ، وتعلموا للعلم السكينة[1] والوقار[2] ، وتواضعوا[3] لمن تعلمون منه »[4] ..

(رواه الطبرانى فى الأوسط)

* * *

فكن أخا الاسلام :

منفذا لهذه الوصية العظيمة التى ان نفذتها كنت من الاحياء لا من الأموات ..

فالناس موتى وأهل العلم أحياء ..

وحسبك اذا أردت أن تتأكد من هذا ، أو اذا أردت أن تقف على أبعاد هذا المعنى الكبير أو المغزى الخطير ، أن تقف عن المعنى المراد من قول الله تبارك وتعالى : **« .. انما يخشى الله من عباده العلماء .. »[5] .**

فالمعنى[6] : أن خشية الله شرطها العلم والمعرفة به ـ سبحانه ـ فمن اشتدت معرفته لربه كان أخشاهم له ، ولذا ورد فى الحديث : « أنا أخشاكم لله وأتقاكم له » ، ثم يقول : وقرىء شذوذا : برفع الجلالة ونصب العلماء ، والمعنى : انما يعظم الله من العباد العلماء ، وانما كان كذلك لكونهم أعرف الناس بربهم وأتقاهم له ، فالواجب على

---

(١) السكينة أصلها من السكون ، والمراد بها الهدوء والتواضع والثبات .

(٢) الوقار : أى الرزانة والحلم والهيبة .

(٣) وتواضعوا : أى أظهروا الخضوع والطاعة والانقياد .

(٤) أى تتعلمون منه ، فحذفت احدى التاءين للتخفيف .

(٥) فاطر : ٢٨ . بفتح هاء لفظ الجلالة ، وضم همزة العلماء .

(٦) كما فى حاشية الصاوى على الجلالين ، وتفسير البيضاوى .

الناس تعظيمهم واحترامهم اقتداء بالله تعالى ، فان الله أخبر انه يعظمهم ويجلهم ..

ونستطيع من خلال هذا التفسير الواضح ● أن نعرف من هم العلماء الحقيقيون الأحياء بأخلاقهم وآثارهم الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. انهم العارفون بالله ، الذين ما وصلوا الى ما وصلوا اليه من العلم والمعرفة الا بالتقـوى التى هى : « الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والاستعداد ليوم الرحيل ، والرضا بالقليل »[١] .

والى هذا يشير الله تعـالى فى قوله : « **واتقوا الله ، ويعلمـكم الله ...** » .

يقول القرطبى : قوله تعالى : « **واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شىء عليم** »[٢] وعد من الله تعالى بأن من اتقاه علمه ، أى يجعل فى قلبه نورا يفهم به ما يلقى اليه ، وقد يجعل الله فى قلبه ابتداء فرقانا ، أى فيصلا يفصل به بين الحق والباطل ، ومنه قوله تعالى : « **يا أيهـا الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا** »[٣] . ثم يقول ـ والله أعلم :

وحسبى هنا ـ والشىء بالشىء يذكر ـ أن أذكر بعالم فاضل ملأ بقاع الأرض علما ـ وهو الامام الشافعى رضى الله عنه ـ فلقد ورد فى سيرته العطرة ، أنه كان من شدة ذكائه اذا أراد أن يقرأ فى كتاب وضع كمه الأيسر فوق الصفحة اليسرى حتى لا يحفظها قبل اليمنى .

وورد أنه ذات يوم ـ وقد كان غلاما صغيرا فى سن السابعة أو أكثر من ذلك بقليل ـ جلس فى مجلس الامام مالك رضى الله عنه ـ بالمدينة المنورة ـ وكان الامام مالك يقرأ فى درسه أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فى مسجده ، وكانت عادته اذا ذكر الحديث أن يقول : عن فلان عن فلان عن صاحب هذا المقام ، ثم يشير الى قبـر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فرأى وهو يشير الى القبر ، الشافعى يعبث بثمرة من الحصير بعد أن بيلها بريقه فوق يده .. فحزن الامام مالك .. ثم انتظر حتى أنهى درسه الذى قرأ فيه أربعين حديثا ثم ناداه ، فأقبل وجلس بين يديه ، فعاتبه قائلا له : لمـاذا كنت تعبث أثناء تلاوة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .. فقال : يا سيدى ما كنت أعبث وانما كنت أسجل بريقى ما تقول حتى لا أنسى .. لأننى فقير

---

(١) من كلام سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

(٢) البقرة : ٢٨٢ (٣) الأنفال : ٢٩ .

ولا أملك الدرهم الذى أشترى به القرطاس والقلم .. فتعجب الامام ثم قال له : اذا كنت صادقا فاقرأ ولو حديثا واحدا من الأحاديث الأربعين التى قرأتها فى درس الليلة .. فجلس الشافعى كما كان يجلس أستاذه الامام ، وقال : عن فلان عن فلان عن صاحب هذا المقام وأشار اليه كما أشار الامام ثم قرأ الأربعين حديثا !! ..

وفى يوم من الأيام رأى أن ذكاءه قد ضعف ولم يعد فى الدرجة التى كان عليها من قبل ، فقال مخاطبا نفسه : لابد وأن يكون هناك سبب لهذا .. فماذا فعل لكى يعرف هذا السبب ؟ .. ذهب الى أستاذه الامام وكيع وشكى له سوء حفظه ، والى هذا يشير رضى الله عنه فى قوله :

شكوت الى وكيع سوء حفظى ... فأرشدنى الى ترك المعاصى
وأخبرنى بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاصى

وقد يتساءل الأخ المسلم ، وما هى المعصية التى ارتكبها الشافعى ، والتى كانت سببا فى ضعف ذكائه ؟ فأقول : قيل فى هذا أنه فى تلك الليلة التى حدث فيها هذا ، كان قد أكل كثيرا فنام قبل أن يقرأ الورد الذى اعتاد أن يقرأه قبل أن ينام .

وتلك ملاحظة هامة لابد وأن تلاحظها ــ أخا الاسلام ــ لأنه كما قال لقمان الحكيم لولده : « اذا امتلأت المعدة نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة » وكما ورد فى الأثر : « من أكل كثيرا نام كثيرا وحرم من خير كثير » .

مع ملاحظة كذلك ، ما قاله الشافعى رضى الله عنه فى ذكر الشروط التى لابد أن تكون مستوفيا لها اذا أردت أن تكون من أهل العلم النافع ، وهى :

أخى لن تنال العلم الا بستة ... سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد ودرهم ... وصحبة أستاذ ، وطول زمان

* * *

فاذكر كل هذا أخا الاسلام ، واجعله أساسا فى طلبك للعلم النافع .

مع ضرورة تنفيذ ما أوصاك به الرسول صلى الله عليه وسلم فى تلك الوصية التى ندور حولها ، وهو أن تكون من أهل السكينة والوقار والتواضع لمن تتعلم منه .

وهذا كله لن يتحقق الا اذا علمت أولا وأخيرا أن العلم بحر لا شاطىء له ، أو كما قال الامام على كرم الله وجهه : « العلم نهر ، والحكمة بحر ، فالعلماء حول النهر يطوفون ، والحكماء وسط البحر يغوصون ، والعارفون فى سفن النجاة يسيرون » .

وهذا معناه أنك لابد وأن تفهم أنك ستظل طالبا للعلم الى آخر لحظة فى حياتك ، أو من المهد الى اللحد .

وحسبك أن تقرأ قول الله تبارك وتعالى لأعلم خلقه محمد صلوات الله وسلامه عليه : « .. **وقل رب زدنى علما** »[١] .

وقوله تعالى لجميع خلقه : « .. **وما أوتيتم من العلم الا قليلا** »[٢] .

وحسبك كذلك حتى يتضح لك هذا ، وحتى تكون متواضعا فى طلب العلم ، ولو كنت حاصلا على أعلى الشهادات العلمية .

حسبك أن تستفيد من هذا الدرس القرآنى الذى سجله الله تبارك وتعالى فى سورة الكهف[٣] ، والذى كان بين سيدنا موسى ، والعبد الصالح « الخضر » عليهما الصلاة والسلام ، لأنه يعتبر من أهم الدروس التى يجب علينا كمؤمنين أن نتعظ بها كما يشير قول الله تعالى : « **وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين** »[٤] .

والخلاصة التى يحسن بنا أن نقف عليها ، هى : أن الله تعالى كان قد أمر موسى عليه الصلاة والسلام أن يقف خطيبا بين بنى اسرائيل لكى يذكرهم بأيام الله — وكان هذا بعد أن ظهر موسى وقومه على أرض مصر ، وبعد أن استقرت بهم الدار — فخطب قومه فذكرهم ما آتاهم الله من الخير والنعمة اذ نجاهم من آل فرعون ، وأهلك عدوهم ، واستخلفهم فى الأرض ، ثم قال : وكلم الله نبيكم تكليما ، واصطفاه لنفسه ، وألقى عليه محبة منه ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، فجعلكم أفضل أهل الأرض[٥] ، ورزقكم العز بعد الذل ، والغنى بعد الفقر ، والتوراة بعد أن كنتم جهالا . فقال له رجل من بنى اسرائيل : عرفنا

---

(١) طه : ١١٤ (٢) الاسراء : ٨٥
(٣) من الآية : ٦٠ — ٨٢ (٤) هود : ١٢٠
(٥) أى فى زمانهم .

الذى تقول ، فهل على وجه الأرض أحد أعلم منك يا نبى الله ؟ قال : لا[١] .. فعتب الله عليه حين لم يرد العلم اليه .. فبعث الله جبريل ليقول له : أن يا موسى وما يدريك أين أضع علمى ؟ بلى .. ان لى عبدا بمجمع البحرين[٢] أعلم منك[٣] .. الحديث[٤] .

فلما سمع موسى هذا تشوفت نفسه الفاضلة ، وهمته العالية ، لتحصيل علم ما لم يعلم ، وللقاء فيه مع من قيل فيه : انه أعلم منك . فعزم فسأل سؤال الذليل بكيف السبيل ، فأمر بالارتحال على كل حال ، وقيل له : احمل معك حوتا فى مكتل[٥] فحيث يحيا وتفقده فثم السبيل ، فانطلق مع فتاه[٦] لما واتاه ، مجتهدا طلبا قائلا : **« لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا »**[٧] . أى : سأظل أبحث عن هذا العبد الصالح حتى لو استمر البحث عنه لمدة ثمانين عاما أو أكثر من ذلك الى أن أصل اليه ان شاء الله .

وكان سيدنا موسى عليه السلام قد قال لفتاه[٨] : لا أكلفك الا أن تخبرنى بحيث يفارقك الحوت ، فقال الفتى : ما كلفت كثيرا ، ثم تناوبا أو تعاونا معا بعد ذلك فى حمل الحوت الى أن وصلا فعلا الى مجمع البحرين ، وهناك وفى ظل صخرة نام سيدنا موسى ليستريح قليلا من عناء السفر .. فحدث أثناء ذلك أن تضرب[٩] الحوت وموسى نائم ، فقال فتاه : لا أوقظه ، حتى اذا استيقظ نسى أن يخبره . وتضرب الحوت حتى دخل البحر ، فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كأن أثره فى حجر . وفى رواية : وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار مثل الطاق ،

---

(١) لأنه يعرف جيدا حقيقة نفسه ، فهو نبى الله وكليمه ورسوله ، وهذا هو السبب فى قوله : لا .

(٢) أى ملتقاهما . وقيل هو بحر فارس والروم .. وقيل موسى والخضر وقيل غير ذلك .

(٣) ارجع الى القرطبى فى تفسير سورة الكهف .

(٤) قاله ابن عباس بتصرف .

(٥) هو الزنبيل والمراد به ما يحمل فيه الحوت وهو من الخوص .. مثلا .

(٦) وهو يوشع بن نون بن افراثيم بن يوسف عليه السلام ، ويقال : هو ابن أخت موسى عليه السلام ، وقد كان ملازما له ليتعلم منه .

(٧) الكهف : ٦٠ (٨) كما فى البخارى .

(٩) تضرب : أى اضطرب وتحرك اذا حيى فى المكتل .

فلما استيقظ ــ موسى ــ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى اذا كان من الغد قال موسى لفتاه : « **آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا** »[١] ، فقال له فتاه : « **أرأيت اذ أوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره** »[٢] .

وقيل : ان النسيان كان منهما لقوله تعالى : « **نسيا** »[٣] . فنسب النسيان اليهما ، ولكن الفتى كان مؤدبا ، ولهذا نسب النسيان الى نفسه ولم ينسبه الى أستاذه موسى عليه السلام ، كما يشير أيضا قول الله تعالى على لسان ابراهيم الخليل عليه السلام : « **واذا مرضت فهو يشفين** »[٤] فقد نسب المرض الى نفسه والشفاء الى الله ، مع أن كليهما من الله تعالى .. ولكنه الأدب الذى لابد أن نلاحظه مع معلمينا .. فقديما قالوا : « من علمنى حرفا صرت له عبدا » .

ثم قال الفتى لسيدنا موسى : « **واتخذ سبيله فى البحر عجبا** »[٥] أى عجبا للناس ، لأن موضع العجب أن يكون حوت قد مات فأكل شقه الأيسر ثم حيى بعد ذلك .

ومن غريب ما روى فى البخارى ، عن ابن عباس من قصص هذه الآية : أن الحوت انما حيى لأنه مسه ماء عين هناك تدعى عين الحياة ما مست قط شيئا الا حيى . وفى التفسير أن العلامة كانت أن يحيا الحوت ، فقيل : لما نزل موسى بعد ما أجهده السفر على صخرة الى جنب عين الحياة أصاب الحوت شىء من ذلك الماء فحيى . وذكر صاحب كتاب « العروس » أن موسى عليه السلام توضأ من عين الحياة فقطرت من لحيته على الحوت قطرة فحيى ، والله أعلم .

ثم كان بعد أن قال الفتى لسيدنا موسى : « **واتخذ سبيله فى البحر عجبا** » أن قال له سيدنا موسى بدون غضب أو تعنيف كما يحدث من بعض المعلمين : « **ذلك ما كنا نبغ ، فارتدا على آثارهما قصصا** »[٦] . أى رجعا يقصان آثارهما لئلا يخطئا طريقهما . وفى البخارى : فوجدا

---

(١) النصب أى التعب ، وقيل أن موسى لم يجد النصب الا بعد أن جاوز المكان الذى أمر الله به ــ والآية من سورة الكهف : ٦٢

(٢) الكهف : ٦٣

(٣) كما تشير الآية : ٦١ من سورة الكهف .

(٤) الشعراء : ٨٠ (٥) الكهف : ٦٣

(٦) الكهف : ٦٤

خضرا على طنفسة خضراء على كبد البحر مسجى بثوبه ، قد جعل طرفه تحت رجليه ، وطرفه تحت رأسه ، فسلم عليه موسى ، فكشف عن وجهه وقال : هل بأرضك من سلام ؟ ! .. من أنت ؟ قال : أنا موسى . قال : موسى بنى اسرائيل ؟ قال : نعم . قال : فما شأنك ؟ قال : جئت لتعلمنى مما علمت رشدا .. الحديث . وقال الثعلبى فى كتاب « العرائس » : ان موسى وفتاه وجدا الخضر وهو نائم على طنفسة خضراء على وجه الماء وهو منتشح بثوب أخضر فسلم عليه موسى ، فكشف عن وجهه فقال : وأنى بأرضنا السلام ؟ ! ثم رفع رأسه واستوى جالسا وقال : وعليك السلام يا نبى بنى اسرائيل ، فقال له موسى : وما أدراك بى ؟ ومن أخبرك أنى نبى بنى اسرائيل ؟ قال : الذى أدراك بى ودلك على ، ثم قال : يا موسى لقد كان لك فى بنى اسرائيل شغل ، قال موسى : ان ربى أرسلنى اليك لأتبعك وأتعلم من عملك ، ثم جلسا يتحدثان ، فجاءت خطافة وحملت بمنقارها من الماء ، وذكر الحديث الذى جاء فيه : أن الخضر عليه السلام قال لموسى عليه السلام : ما علمى وعلمك من علم الله الا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر .

والى هذا يشير الله سبحانه وتعالى فى قوله : « **فوجدا عبدا من عبادنا** »[1] وهو الخضر عليه السلام فى قول الجمهور ، وبمقتضى الأحاديث الثابتة .. « **آتيناه رحمة من عندنا** »[1] وهى النبوة ، وقيل : النعمة . « **وعلمناه من لدنا علما** »[1] أى علم الغيب . قال ابن عطية : كان علم الخضر علم معرفة بواطن قد أوحيت اليه ، لا تعطى ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها ، وكان علم موسى علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم .

ثم يشير القرآن الى ما حدث بعد هذا فيقول : « **قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا** »[2] أى : هل يتفق لك ويخف عليك ؟ وهذا سؤال الملاطف ، والمخاطب المستنزل المبالغ فى حسن الأدب . قال القرطبى : فى هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وان تفاوتت المراتب ، ولا يظن أن فى تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل منه ، فقد يشذ عن الفاضل ما يعلمه المفضول ، والفضل لمن فضله الله ، فالخضر ان كان وليا فموسى أفضل منه ، لأنه نبى والنبى أفضل من الولى ، وان كان نبيا فموسى فضله بالرسالة ، والله أعلم .

---

(١) الكهف : ٦٥ (٢) الكهف : ٦٦

فكان جواب الخضر عليه السلام : « **انك لن تستطيع معى صبرا** »[١] أى انك يا موسى لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمى ، لأن الظواهر التى هى علمك لا تحيطه ، وكيف تصبر على ما تراه خطأ ولم تخبر بوجه الحكمة فيه ، ولا طريق الصواب ، وهو المعنى المراد من قوله تعالى : « **وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا** »[٢] والأنبياء لا يقرون على منكر ، ولا يجوز لهم التقرير ، أى لا يسعك السكوت جريا على عادتك وحكمك . فيكون جواب سيدنا موسى على هذا : « .. **ستجدنى ان شاء الله صابرا** »[٣] أى سأصبر بمشيئة الله « **ولا أعصى لك أمرا** »[٣] أى قد ألزمت نفسى طاعتك . فيوافق الخضر على مصاحبة موسى له ، غير أنه يشترط عليه شرطا ، وهو قوله تعالى : « **قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا** »[٤] أى حتى أكون أنا الذى أفسره لك ، وهذا من الخضر تأديب وارشاد لما يقتضى دوام الصحبة ، فلو صبر ودأب لرأى العجب ، لكنه أكثر من الاعتراض ، فتعين الفراق والاعراض .

ويحكى القرآن بعد ذلك بقية ما حدث فى تلك الرحلة المباركة ، فيقول :

« **فانطلقا حتى اذا ركبا فى السفينة خرقها ، قال أخرقتها لتغرق أهلها**[٥] **لقد جئت شيئا امرا**[٦] . **قال ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا . قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا . فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس**[٧] **لقد جئت شيئا نكرا**[٨] . **قال ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا . قال ان سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى**[٩] ، **قد بلغت من لدنى عذرا**[١٠] .

---

(١) الكهف : ٦٧ (٢) الكهف : ٦٨
(٣) الكهف : ٦٩ (٤) الكهف : ٧٠
(٥) ولم يقل لتغرقنى لأن الذى غلب عليه فى الحال فرط الشفقة عليهم ، ومراعاة حقهم .
(٦) امرا ، معناه عجبا ، وقيل : منكرا .
(٧) أى اقتلت نفسا زكية لم تعمل الحنث ، أو الخبث . .
(٨) أى بين الفساد لأن مكروهه قد وقع .
(٩) أى تتابعنى .
(١٠) أى بلغت مبلغا تعذر به فى ترك مصاحبتى .

فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قريـــة[١] استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض[٢] فأقامه ، قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا . قال هذا فراق بينى وبينك[٣] ، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا . أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها[٤] وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا . وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا . فأردنا أن يبدلهما ربهمـــا[٥] خيرا منه زكاة[٦] وأقرب رحما[٧] . وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينـــة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمرى ، ذلك تأويل[٨] ما لم تسطع عليه صبرا »[٩] .

ثم بعد ذلك وبعد انتهاء تلك الرحلة الخالدة ، وقبل أن يفارق الخضر موسى عليهما السلام يطلب سيدنا موسى من سيدنا الخضر أن يوصيه ، فيقول له سيدنا الخضر :

« كن بساما ولا تكن ضحاكا . ودع اللجاجة ، ولا تمش فى غير حاجة ، ولا تعب على الخطائين خطـــاياهم ، وابك على خطيئتـــك يا ابن عمران » .

* * *

فلتكن أخا الإسلام مستفيدا بهذا الدرس القرآنى دائما وأبدا حتى تنفذ وصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، فتكون من أهل العلم المتوجين بالسكينة والوقار والتواضع ، وتكون بذلك من العلماء العاملين الذين انتفعوا وشفعوا ، وحسبك فى النهاية ترغيبا لك فى طلب العلم ونشره أن تذكر دائما وأبدا هذين الحديثين الشريفين :

---

(١) قيل هى أبلة ، وقيل انطاكية ، وقيل هى قرية من قرى الروم يقال لها ناصرة .

(٢) أى كان مائلا فأقامه الخضر بيده .

(٣) ورد فى الحديث الشريف : « يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما » .

(٤) أى أجعلها ذات عيب .

(٥) أى أن يرزقهما الله ولدا .

(٦) أى دينا وصلاحا .

(٧) أى رحمة .

(٨) أى تفسير .

(٩) الكهف : ٧١ — ٨٢

عن معاوية رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » رواه البخارى ومسلم .

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية[1] ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » رواه مسلم .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا جميعا من الراسخين فى العلم ، الذين تفقهوا فى دينهم وكان العلم حجة لهم لا عليهم .. آمين .

* * *

(١) أى لا تنقطع .

الوصية الثانية والأربعون

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اياكم والتعريس[1] على جواد[2] الطريق والصلاة عليها ، فانها مأوى الحيات ، والسباع ، وقضاء الحاجة عليها ، فانها الملاعن »[3] ..

(رواه ابن ماجه ورواته ثقات)

* * *

فكن أخا الاسلام :

منفذا لهذا التحذير المحمدى الوارد فى تلك الوصية ، والذى مضمونه كما هو واضح فى نصها : أنه ليس من الخير للانسان أن ينام أو يستريح آخر الليل[4] على جواد الطريق وهو ما اتسع منها ، وانما من الخير له أن ينام فى مكان يستره ويحميه من الحيات والسباع التى كثيرا ما تأوى الى تلك الأماكن المتسعة من الطرق ليلا لتأكل ما فيها وتلتقط ما يسقط من المارة .

والرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا التحذير أو بهذا التوجيه يؤكد لنا نحن المؤمنين — ان شاء الله — حرصه علينا وحبه لنا ، كما يشير قول الله تعالى :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم »[5] .

ومن حرصه علينا صلوات الله وسلامه عليه : هذا الذى يحذرنا

---

(١) أى النزول للراحة آخر الليل .
(٢) أى ما اتسع منها .
(٣) أى الجالبة للعن لمن فعل ذلك .
(٤) وهو التعريس المشار اليه فى الحديث .
(٥) التوبة : ١٢٨

منه حتى لا نتعرض للتهلكة ، أو حتى لا نكون سببا فى اشغال الطريق ، واعاقة السير عليه ، أو تمكين الغير من سهولة الاهتداء اليه .

ولهذا ، فقد ورد النهى صراحة عن التعريس[١] فى طريق الدواب .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا سافرتم فى الخصب[٢] ، فأعطوا الابل حظها من الأرض[٣] ، واذا سافرتم فى الجدب[٤] ، فأسرعوا عليها السير[٥] ، وبادروا بها نقيها[٦] ، واذا عرستم[٧] فاجتنبوا الطريق فانها طريق الدواب ، ومأوى الهوام[٨] بالليل » رواه مسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى .

ومع هذا التحذير ، فقد ورد الترغيب كذلك فى اماطة الأذى عن الطريق :

فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الايمان بضع[٩] وستون — أو سبعون — شعبة[١٠] : أدناها[١١] اماطة الأذى عن الطريق[١٢] وأرفعها[١٣] قول : لا اله الا الله »[١٤] .

رواه البخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

* * *

---

(١) يقال : عرس القوم بالتشديد ، أى نزلوا للاستراحة ثم يرتحلون .

(٢) أى فى زمن جودة المرعى وكثرته .

(٣) أى بأن تمكنوها من رعى النبات .

(٤) أى زمان يبس الأرض وقلة المرعى .

(٥) أى قبل أن ينهكها الجوع .

(٦) أى أسرعوا حتى تصلوا مقصدكم قبل أن يذهب مخها من ضنك السير والتعب .

(٧) أى نزلتم آخر الليل للاستراحة .

(٨) أى لأن الحشرات وذوات السموم والسباع وغيرها تمشى على الطريق بالليل لتأكل ما فيها وتلتقط ما يسقط من المارة .

(٩) البضع بكسر فسكون : من الثلاثة الى التسعة .

(١٠) الشعبة بضم فسكون : الطائفة من الشىء والقطعة منه .

(١١) أى أقلها شأنا .

(١٢) أى ازاحته وازالته .

(١٣) أى أفضلها وأعظمها شأنا .

(١٤) لأنها كلمة التوحيد التى خلق الله الأشياء جميعا من أجلها وبعث الرسل وأنزل الكتب للدعوة اليها .

وعن أبى ذر رضى الله عنه ، قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « عرضت على أعمال أمتى حسنها وسيئها[١] ، فوجدت فى محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق ، ووجدت فى مساوىء أعمالها النخامة[٢] تكون فى المسجد لا تدفن »[٣] رواه مسلم وابن ماجه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « بينما رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك فأخره[٤] ، فشكر الله له[٥] فغفر الله له »[٦] رواه البخارى ومسلم .

وفى رواية لمسلم ، قال : « لقد رأيت رجلا يتقلب فى الجنة[٧] فى شجرة قطعها من ظهر الطريق[٨] كانت تؤذى المسلمين » .

وفى أخرى له : « مر رجل بغصن شجرة على ظهر الطريق ، فقال : والله لأنحين[٩] عن المسلمين لا يؤذيهم[١٠] ، فأدخل الجنة »[١١] .

ورواه أبو داوود ، ولفظه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نزع[١٢] رجل لم يعمل خيرا قط[١٣] غصن شوك عن الطريق : اما قال : كان فى شجرة فقطعه ، وما كان موضوعا ، فأماطه عن الطريق ، فشكر الله ذلك له ، فأدخله الجنة » .

ولهذا كان من الخير أن لا يشغل الطريق بأى شىء يعوق السير فيه ، وكان من الخير أن ينحى كل ما يؤذى المارة[١٤] من طريقهم .

بل ليس من الخير أن يصلى الانسان فى عرض الطريق ، وانما من الخير أن يصلى فى مكان جانبى وأن يتخذ له سترة .

---

(١) أى شريفها وقبيحها .
(٢) أى البصقة التى تخرج من أقصى الحلق .
(٣) أى لا تدفن فى الأرض وتستر حتى لا تؤذى المصلين .
(٤) أى أبعده عن الطريق .
(٥) أى رضى عمله هذا وقبله منه .
(٦) أى حط عنه ذنوبه وخطاياه .
(٧) أى يتمتع فى نعيمها .
(٨) يعنى من وسطه .
(٩) أى لأبعدنه .
(١٠) أى حتى لا يسبب لهم أذى .
(١١) يعنى كان هذا العمل القليل الذى شكره الله له سببا فى دخوله الجنة .
(١٢) النزع هو الأخذ بشدة .
(١٣) جملة « لم يعمل » صفة لرجل .
(١٤) كالحجر والشوكة والعظم والنجاسة ونحو ذلك .

فقد ورد فى الحديث الشريف : « اذا صلى أحدكم فليصل الى سترة وليدن منها » .

والسترة[١] : هى ما يجعله المصلى بين يديه لمنع المرور ، وانما تسن للامام والمنفرد ان خشيا مرور أحد بين يديهما . وأما المأموم فسترة الامام سترة له ، ويشترط فيها أن تكون طول ذراع فأكثر ، أما غلظها فلا حد لأقله ، ويستحب أن يميل عنها : يمينا أو يسارا بحيث لا يقابلها ، وأن يكون مستويا مستقيما ، وأن يقرب منها قدر ثلاثة أذرع من ابتداء قدميه ، فان وجد ما يصلح أن يكون سترة ولكن تعسر غرزه بالأرض لصلابتها ، وضعه بين يديه عرضا ، وهو أولى من وضعه طولا ، فان لم يجد شيئا أصلا خط خطا بالأرض كالهلال ، وهو أولى من غيره من الخطوط ، ويصح الاستتار بظهر الآدمى[٢] غير الكافر والمرأة الأجنبية ، ويصح بالسترة المغصوبة[٣] وان حرم الغصب ، وكذا السترة النجسة[٤] ، ويصح اتخاذ السترة من جدار أو عصا أو أثاث أو نحو ذلك بلا ترتيب بينها ، فله أن يستتر باحداها مع وجود غيرها .

ويحرم المرور بين يدى المصلى ، ولو لم يتخذ سترة بلا عذر ، كما يحرم على المصلى أن يتعرض بصلاته لمرور الناس بين يديه ..

فعن أبى الجهم عبد الله بن الحارث بن الصمة الأنصارى رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو يعلم المار بين يدى المصلى ماذا عليه[٥] لكان أن يقف أربعين[٦] خير له من أن يمر

---

(١) كما فى الفقه على المذاهب الأربعة .. فارجع اليه اذا أردت أن تقف على آراء المذاهب فى هذا الموضوع فى باب (مبحث سنن الصلاة الخارجة عنها) .

(٢) عند الشافعية : لا يصح الاستتار بالآدمى مطلقا ، وعند الحنابلة يصح الاستتار بالآدمى مطلقا بظهره أو غيره .

(٣) عند الحنابلة لا يصح الاستتار بالمغصوبة والصلاة اليها مكروهة .

(٤) عند المالكية : لا يصح الاستتار بالنجس كقصبة المرحاض .

(٥) أى من الاثم فى هذا المرور .

(٦) قوله « أن يقف » فى تأويل مصدر خبر كان مقدما ، والتقدير لكان وقوفه .

بين يديه[١] . قال أبو النضر : لا أدرى قال أربعين يوما ، أو شهرا ، أو سنة » رواه البخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه ورواه البزار ، ولفظه :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « لو يعلم المار بين يدى المصلى[٢] ماذا عليه لكان لأن يقوم أربعين خريفا[٣] خير له من أن يمر بين يديه » ورجاله رجال الصحيح ، قال الترمذى : وقد روى عن أنس أنه قال : « لأن يقف أحدكم مائة عام خير له من أن يمر بين يدى أخيه وهو يصلى » .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اذا كان أحدكم يصلى فلا يدع[٤] أحد يمر بين يديه ، فان أبى فليقاتله ، فان معه القرين »[٥] رواه ابن ماجه باسناد صحيح ، وابن خزيمة فى صحيحه .

وأذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد أشار فى الوصية الى جواد الطريق — أى ما اتسع منها — على أنها مأوى الحيات والسباع ، فاننى أحب واتماما للفائدة أن أذكر ببعض الأحاديث الشريفة الواردة فى هذا الموضوع .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قتل وزغة[٦] فى أول ضربة[٧] ، فله كذا وكذا حسنة ، ومن قتلها فى الضربة الثانية فله كذا وكذا دون الحسنة الأولى[٨] ، ومن قتلها فى الضربة الثالثة فله كذا وكذا حسنة لدون الثانية » رواه مسلم وأبو داوود والترمذى وابن ماجه .

وفى رواية لمسلم : « من قتل وزغا فى أول ضربة كتبت له مائة حسنة ، وفى الثانية دون ذلك ، وفى الثالثة دون ذلك » .

---

(١) قال النووى : معناه لو يعلم ما عليه من الاثم لاختار الوقوف أربعين على ارتكاب ذلك الاثم ، ويعنى الحديث النهى الأكيد والوعيد الشديد .

(٢) اى أمامه فى موضع سجوده .

(٣) اى سنة .

(٤) اى فلا يترك ولا يسمح .

(٥) اى الشيطان الذى يحرضه على المرور ويشجعه عليه .

(٦) الوزغة : حشرة مؤذية يقال لها : سام أبرص .

(٧) يعنى : من أول ضربة .

(٨) يعنى أقل منها ، وفى رواية « لدون الأولى » .

وفى أخرى لمسلم وأبى داوود أنه قال : « فى أول ضربة سبعين حسنة »[١] .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يخطب على المنبر ، يقول : « اقتلوا الحيات ، واقتلوا ذا الطفيتين والأبتر ، فانهما يطمسان البصر ، ويسقطان الحبل . قال عبد الله : فبينا أنا أطارد حية أقتلها نادانى أبو لبابة : لا تقتلها ، قلت : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الحيات ، قال : انه نهى بعد ذلك عن ذوات البيوت ، وهن العوامر »[٢] رواه البخارى ومسلم ، ورواه مالك وأبو داوود والترمذى بألفاظ متقاربة .

وفى رواية لمسلم ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بقتل الكلاب ، يقول : « اقتلوا الحيات والكلاب ، واقتلوا ذا الطفتين والأبتر ، فانهما يلتمسان البصر ، ويستسقطان الحبالى » .

قال سالم : قال عبد الله بن عمر : فلبثت لا أترك حية أراها الا قتلتها ، فبينما أنا أطارد حية[٣] يوما من ذوات البيوت مر بى زيد ابن الخطاب وأبو لبابة ، وأنا أطاردها ، فقالا : مهلا يا عبد الله ؟ فقلت : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتلهن ، قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ذوات البيوت .

وفى رواية لأبى داوود ، قال : ان ابن عمر وجد بعدما حدثه أبو لبابة حية فى داره فأمر بها ، فأخرجت الى البقيع[٤] . قال نافع : فرأيتها بعد فى بيته[٥] .

وفى رواية لمالك ومسلم وأبى داوود : « ان لهذه البيوت عوامر ، فاذا رأيتم منها شيئا ، فحرجوا عليها ثلاثا[٦] ، فان ذهب ، والا فاقتلوه فانه كافر .. » .

---

(١) قال الحافظ : واسناد هذه الرواية الأخيرة منقطع لأن سهيلا قال : حدثتنى أختى عن أبى هريرة ، وفى بعض نسخ مسلم : أخى ، وعند أبى داوود : أخى أو أختى على الشك ..

(٢) أى سكانا من الجن .

(٣) يعنى أجرى وراءها لأقتلها .

(٤) وهو مقبرة المدينة .

(٥) يعنى أنها عادت الى الدار ثانية .

(٦) أى شددوا عليها فى الخروج .

[توضـــيح]:

الطفيتان بضم الطاء المهملة واسكان الفاء : هما الخطان الأسودان فى ظهر الحية •

والأبتر : هو الأفعى ، وقيل جنس أبتر كأنه مقطوع الذنب وسمه شديد جدا وقيل : هو صنف من الحيات أزرق مقطوع الذنب اذا نظرت اليه الحامل ألقت حملها •

وقوله « يلتمسان البصر » : معناه يطمسانه بمجرد نظرهما اليه بخاصية جعلها الله فيهما •

* * *

قال الحافظ : فذهب طائفة من أهل العلم الى قتل الحيات أجمع ، فى الصحارى والبيوت بالمدينة ، وغير المدينة ، ولم يستثنوا فى ذلك نوعا ولا جنسا ولا موضعا ، واحتجوا فى ذلك بأحاديث جاءت : لحديث ابن مسعود الذى جاء فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اقتلوا الحيات كلهن ، فمن خاف ثأرهن[١] فليس منى »[٢] رواه أبو داوود والنسائى والطبرانى بأسانيد رواتها ثقات ••

ولحديث أبى هريرة الذى جاء فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما سالمناهن منذ حاربناهن[٣] ، — يعنى الحيات — ومن ترك قتل شىء منهن خيفة[٤] فليس منا » رواه أبو داوود وابن حبان فى صحيحه •

ولحديث ابن عباس رضى الله عنهما الذى جاء فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من ترك الحيات مخافة طلبهن فليس منا ، ما سالمناهن منذ حاربناهن »[٥] رواه أبو داوود ، ولم يجزم موسى ابن مسلم راويه بأن عكرمة رفعه الى ابن عباس •

ثم يقول الحافظ : وقالت طائفة : تقتل الحيات أجمع الا سواكن البيوت بالمدينة وغيرها فانهن لا يقتلن لما جاء فى حديث أبى لبابة وزيد بن الخطاب من النهى عن قتلهن بعد الأمر بقتل جميع الحيات •

---

(١) أى انتقامهن .

(٢) أى ليس متبعا لهديى وطريقتى .

(٣) يعنى أن الحرب بيننا وبينهم متصلة بلا هدنة .

(٤) أى خوفا من أذاها .

(٥) وهو موافق لحديث أبى هريرة .

وقالت طائفة : تنذر سواكن البيوت فى المدينة وغيرها ، فان يدين[١] بعد الانذار قتلن ، وما وجد منهن فى غير البيوت يقتل من غير انذار[٢] ، وقال مالك : يقتل ما وجد منها فى المساجد واستدل هؤلاء بقوله صلى الله عليه وسلم : « ان لهذه البيوت عوامر ، فاذا رأيتم منها شيئا فحرجوا عليها ثلاثا ، فان ذهب ، والا فاقتلوه » ، واختار بعضهم أن يقول لها ما ورد فى حديث أبى ليلى الذى جاء فيه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وكان قد سئل عن جنان البيوت ، هل يجوز قتلها أم لا ؟ :

« اذا رأيتم منهن شيئا فى مساكنكم فقولوا : أنشدكم العهد[٣] الذى أخذ عليكم نوح ، أنشدكم العهد الذى أخذ عليكم سليمان أن لا تؤذونا[٤] ، فان عدن[٥] فاقتلوهن » رواه أبو داوود والترمذى والنسائى كلهم من رواية ابن أبى ليلى عن ثابت عن عبد الرحمن ابن أبى ليلى عن أبيه ، وقال : حديث حسن غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه .

وعن نافع قال : « كان ابن عمر يقتل الحيات كلهن[٦] حتى حدثنا أبو لبابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل جنان البيوت فأمسك »[٧] رواه مسلم .

وقال مالك : يكفيه أن يقول : أحرج عليك بالله واليوم الآخر أن لا تبدو لنا[٨] ولا تؤذينا ، وقال لها : أنت فى حرج ان عدت الينا ، فلا تلومينا أن نضيق عليك بالطرد والتتبع . وقالت طائفة : لا تنذر الا حيات المدينة فقط لما جاء فى حديث أبى سعيد الذى جاء فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « .. ان بالمدينة جنا قد أسلموا ، فاذا رأيتم منهم شيئا ، فآذنوه ثلاثة أيام[٩] ، فان بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه ، فانما هو شيطان » .

---

(١) أى ظهرن .
(٢) وهذا هو الصحيح المطابق للأحاديث .
(٣) أى نسألكم ونطلب منكم أن تفوا بالعهد الذى أخذ عليكم .
(٤) يعنى أن لا تتعرضوا لنا بأذى ومكروه .
(٥) أى رجعن الى البيت ولم ينصرفن أو عدن الى ايذائكم .
(٦) أخذا بعموم الأمر بقتلهن ولم يكن قد علم بالاستثناء .
(٧) أى كف عن قتلهن .
(٨) أى لا تظهر لنا .
(٩) يعنى اطلبوا منه الخروج والانصراف .

وأما حيات غير المدينة فى جميع الأرض والبيوت فتقتل من غير انذار لأنا لا نتحقق وجود مسلمين من الجن ثم[١] ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : « خمس من الفواسق تقتل فى الحل والحرم ، وذكر منهن الحية » .

وقالت طائفة : يقتل الأبتر وذو الطفيتين من غير انذار سواء كن بالمدينة وغيرها ، لحديث أبى لبابة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم : نهى عن قتل الجنان التى تكون فى البيوت الا الأبتر وذو الطفيتين . ولكل من هذه الأقوال وجه قوى ، ودليل ظاهر ، والله أعلم[٢] .

وأما عن قضاء الحاجة على الطريق ، فانه كما علمت فى نص الوصية من الملاعن ، أى من الأمور التى تجلب اللعن لفاعلها ، والتى منها كما عرفت « التعريس على جواد الطريق ، والصلاة عليها » الى أن يقول فى نص الوصية « وقضاء الحاجة ، فانها الملاعن » .

وقد ورد النهى عن قضاء الحاجة فى طريق الناس وظلهم ، لما فيه من أذيتهم :

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « اتقوا اللاعنين[٣] ، قالوا : وما اللاعنان يا رسول الله ؟ قال : الذى يتخلى[٤] فى طريق الناس أو ظلهم » أخرجه أحمد ومسلم وأبو داوود .

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الملاعن الثلاث : البراز[٥] فى الموارد ، وقارعة الطريق[٦] ، والظل » رواه أبو داوود وابن ماجه ، وأخرجه أيضا الحاكم وصححه ، وكذلك صححه ابن السكن ، قال الحافظ ابن حجر :

---

(١) أى هناك ، ولكن يكفى احتمال أن بعضهم أسلم فتنذرهم أولا بالخروج فان أبوا قوتلوا .

(٢) ارجع الى الترغيب والترهيب للمنذرى صفحة ٨٧٤ ج ٣

(٣) أى الأمران اللذان يحملان الناس على اللعن وذلك أن من فعلهما لعن وشتم عادة .

(٤) أى يقضى حاجته ، وسمى قضاء الحاجة بالتخلى لأنه يكون عادة فى الخلاء وهو الأرض الفضاء .

(٥) هو فى الأصل اسم للفضاء الواسع وكنى به عن قضاء الحاجة .

(٦) أى وسطه وقيل أعلاه والمراد نفس الطريق .

وفيه نظر لأن أبا سعيد لم يسمع من معاذ ولا يعرف بغير هذا الاسناد قاله ابن القطان •

وعن حذيفة بن أسيد رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « من آذى المسلمين فى طريقهم وجبت عليه لعنتهم »[١] رواه الطبرانى فى الكبير باسناد حسن •

* * *

ومن كل هذه الأحاديث يتأكد لنا مرة أخرى حرص الرسول صلى الله عليه وسلم علينا وعلى سلامتنا وعدم تعرضنا لمجرد اللعن من غيرنا ، وذلك بهذا النهى الصريح : عن التخلى فى طريق الناس وظلهم • .

* * *

فليذكر الأخ المسلم كل هذا ، وليكن متجنبا لأسباب اللعنة من الناس ، وذلك بتنفيذه لوصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلا ينام ولا يستريح على جواد الطريق ، ولا يصلى عليها ، ولا يتخلى فى طريق الناس وظلهم •

وحسبه ان فعل ذلك أنه سيكون قد راعى حقوق الناس ومشاعرهم •

وسيكون أيضا فى نفس الوقت قد أدى للطريق حقه أو حقوقه :

فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « اياكم والجلوس فى الطرقات ، قالوا : يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فاذا أبيتم الا المجلس فأعطوا الطريق حقه ، قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى[٢] ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » متفق عليه •

أسأل الله تعالى أن يجنبنا جميعا أسباب الطرد من رحمته •• آمـــين •

* * *

---

(١) يعنى استحق منهم أن يدعوا عليه باللعنة والطرد من رحمة الله .

(٢) الذى منه ما حذر منه الرسول صلى الله عليه وسلم فى وصيته والذى أرجو أن تكون قد عرفناه وعقدنا العزم على كفه عن الناس .

الوصية الثالثة والأربعون

عن ثوبان رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« استقيموا ولن تحصوا[1] ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة[2] ولن يحافظ على الوضوء الا مؤمن »[3] .

(رواه ابن ماجه باسناد صحيح والحاكم وقال : صحيح على شرطهما) .

* * *

فكن أخا الاسلام :

منفذا لهذه الوصية العظيمة التى بدأها الرسول صلوات الله وسلامه عليه بأهم ما يجب علينا أن نلاحظه ونحققه ، وهو الثبات على الأمر ، والمداومة على فعل ما أمرنا به من فرائض العبادات ونوافلها ، فى قصد واعتدال بلا مبالغة ولا تفريط ، لأننا لن نستطيع احصاء ذلك ولا بلوغ نهايته .

وتفصيل هذا الاجمال هو أننا كمؤمنين ، لابد وأن نثبت الحق الذى آمنا به ، بمعنى أن نكون على ثقة كاملة بأن الله تعالى واحد لا شريك له ، وأنه سبحانه وتعالى متصف بالصفات الجليلة القديمة الثابتة بالأدلة التفصيلية ، وهى ثلاث عشرة[4] :

١ ــ **الوجود** : أى أنه تعالى موجود بلا ابتداء قبل وجود جميع الحوادث من عرش وكرسى وسموات وسائر العالم « والدليل » على

---

(١) أى اثبتوا وداوموا على فعل ما أمرتم به من فرائض العبادات ونوافلها لكن فى قصد واعتدال بلا مبالغة ولا تفريط فانكم لن تستطيعوا احصاء ذلك ولا بلوغ نهايته .

(٢) أى أنها أحب الأعمال الى الله عز وجل وأكثرها ثوابا لكم ، فعليكم بالمحافظة عليها .

(٣) أى ان اسباغ الوضوء والمحافظة عليه كلما انتقض علامة من علامات الايمان .

(٤) كما جاء فى الدين الخالص ج ١ بتصرف واختصار .

ذلك خلقه تعالى السموات وما فيها من الكواكب والملائكة ، والأرض وما فيهـا من الجبال والرمال والأشجار والأحجار والبحار والأنهار والحيوانات والجمادات ، لأن الصـنعة لابد لها من صانع موجود ، وقد قال الله تعالى : « **وخلق كل شيء فقدره تقديرا** »[١] ، ومن البدهي أن موجد الشيء لا يكون معدوما ، لأن المعدوم لا يعطى الوجود .

٢ ــ **القـدم** : أى أنه تعالى لا ابتداء لوجوده ، وأنه لم يسبقه عدم ، لقوله تعالى : « **الله خالق كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل** »[٢] ، **اذ معناه** : أن كلّ شيء غير الله مخلوق لله ، فلا يجوز أن يكون غيره خالقا له ، لأنه لو كان مخلوقا لكان محتاجا لغيره ، كيف وهو ذو الغنى المطلق ، وفقر كل شيء اليه محقق ؟ وعن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : انى عند النبى صلى الله عليه وآله وسلم اذ جاءه قوم من بنى تميم ، فقال : « اقبلوا البشرى يا بنى تميم »[٣] ، قالوا : بشرتنا فأعطنا ، فدخل ناس من أهل اليمن ، فقال : « اقبلوا البشرى يا أهل اليمن اذ لم يقبلها بنو تميم » قالوا : قبلنا . جئناك لنتفقه فى الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان ؟ قال : « كان[٤] الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على المـاء[٥] ، ثم خلق السموات والأرض وكتب فى الذكر كلّ شيء »[٦] أخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات ، والبخارى فى التوحيد ، وهذا لفظه .

٣ ــ **البقـاء** : أى أنه لا انتهاء لوجوده تعالى ، وأنه لا يلحقه عدم ، لقوله تعالى : « **كل شيء هالك الا وجهـه** »[٧] ، ولأن من ثبت قدمه استحال عدمه ، فهو الأزلى القديم بلا بدايـة ، والأبدى الباقى بلا نهاية .

٤ ــ **مخالفته تعـالى للحوادث** : ومعناها عدم مماثلته سبحانه

---

(١) الفرقان : ٢ (٢) الزمر : ٦٢

(٣) المراد بهذه البشارة أن من أسلم نجا من الخلود فى النار ثم يجازى على وفق عمله . (٤) كان هنا بمعنى الوجود الأزلى .

(٥) أى لم يكن تحت العرش الا المـاء الذى خلق قبله ، ففى حديث أبى رزين العقيلى مرفوعا : « ان المـاء خلق قبل العرش » أخرجه أحمد والترمذى وصححه .

(٦) أى قدر كل الكائنات وأثبتها فى اللوح المحفوظ .

(٧) القصص : ٨٨

لشيء منها ، لا فى الذات ولا فى الصفات ولا فى الأفعال ، لقوله تعالى : « **ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير** »[١] ، ولأنه لو ماثل شيئا منها لكان حادثا مثلها والحدوث مستحيل فى حق الخالق عز وجل .

٥ ــ **قيامه تعالى بنفسه** : أى أنه تعالى موجود بلا موجد ، وغنى عن كل ما سواه ، وأنه متصف بصفات الكمال منزه عن صفات النقص ، لقوله تعالى : « **يا أيها النــاس أنتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد** »[٢] .

وقوله تعالى : « **والله الغنى وأنتم الفقراء** »[٣] ، ولأنه لو احتاج الى شيء لكان حادثا وحدوثه محال لمــا تقدم ، فاحتياجه محال .

٦ ــ **الوحدانية فى الذات والصفات والأفعال** : أى أن ذاته ــ سبحانه وتعالى ــ ليست مركبة ، وليس لغيره ذات تشبه ذاته ، وأنه ليس له صفتان من جنس واحد كقدرتين وعلمين ، وليس لغيره صفة كصفته ، وأن الأفعال كلها خيرها وشرها اختياريها واضطراريها مخلوقة لله وحده بلا شريك ولا معين ، قال تعالى : « **والهكم اله واحد ، لا اله الا هو الرحمن الرحيم** »[٤] .

وقــال : « **والله خلقكم وما تعملون** »[٥] .

٧ ــ **الحيــاة** : وهى صفة قديمة قائمة بالذات العلية تصحح لموصوفها الاتصاف بالعلم والارادة والقدرة والسمع والبصر ، وما الى ذلك من الصفات اللائقة به تعــالى « وحياته » ليست بروح ، ودليلها قوله تعــالى : « **الله لا اله الا هــو الحى القيــوم** »[٦] وقولــه : « **وتوكل على الحى الذى لا يموت** »[٧] .

٨ ــ **العــلم** : وهو صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعــالى تحيط بكل موجود : واجبا كان أو جائزا ، وبكل معدوم : مستحيلا كان أو ممكنا . فهو تعالى يعلم وجود ذاته وصفاته وأنها قديمة لا تقبل العدم ، ويعلم أنه لا شريك له وأن وجود الشريك محال ، ويعلم جواز حدوث الممكن وعدمه ، ويعلم فى الأزل عدد من يدخل الجنة ومن يدخل النار جملة واحدة فلا يزاد فى ذلك العدد ولا ينقص منه ، ويعلم أفعالهم

---

(١) الشورى : ١١
(٢) فاطر : ١٥
(٣) محمد : ٣٨
(٤) البقرة : ١٦٣
(٥) الصافات : ٩٦
(٦) آل عمران : ٢
(٧) الفرقان : ٥٨

وكل ما يكون منهم ، ويعلم أنه عالم بكل الأمور لا تخفى عليه خافية ، قال تعالى : « **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** »(١) وقال : « **ان الله بكل شيء عليم** »(٢) .

ولأنه تعالى لو لم يكن عالما لكان جاهلا ، ولو كان جاهلا لكان حادثا ، وحدوثه محال لما سبق ، فالجهل عليه تعالى محال .

هذا .. وعلم الله تعالى ليس كسبيا ولا يوصف بكونه ضروريا أو نظريا أو بديهيا أو يقينيا أو تصوريا أو تصديقيا لأنه صفة قديمة لا تعدد فيها ولا تكثر .

٩ ــ **الارادة** : وهى صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه كوجود المخلوق فى زمن دون غيره ، وفى مكان دون آخر ، وهكذا ، لقوله تعالى : « **وربك يخلق ما يشاء ويختار** »(٣) .

وقوله تعالى : « **فعال لما يريد** »(٤) .

١٠ ــ **القدرة** : وهى صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى يتأتى بها ايجاد كل ممكن واعدامه ، لقوله تعالى : « **وهو على كل شيء قدير** »(٥) .

وقوله : « **وكان الله على كل شيء مقتدرا** »(٦) .

ولأنه لو لم يكن قادرا لكان عاجزا ، وعجزه محال ، كيف وهو خالق كل شيء ؟ ..

١١ ــ **السمع** : وهو صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى تحيط بكل موجود واجبا أو ممكنا صوتا أو لونا أو ذاتا أو غيرها ، فهو يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الملساء فى الليلة الظلماء بلا أذن ولا صماخ .

١٢ ــ **البصر** : وهو صفة وجودية قديمة قائمة بالذات العلية تحيط بكل موجود ــ واجبا أو جائزا جسما أو لونا أو صوتا أو غيرها بلا حدقة ــ احاطة غير احاطة العلم والسمع ، والدليل على أنه تعالى سميع بصير قوله تعالى : « **ان الله سميع بصير** »(٧) .

---

(١) الملك : ١٤ (٢) الأنفال : ٧٥
(٣) القصص : ٦٨ (٤) البروج : ١٦
(٥) الملك : ١ (٦) الكهف : ٤٥
(٧) الحج : ٧٥ ، ولقمان : ٢٨

ولأنه تعـالى لو لم يكن سميعا بصيرا لكان أصم أعمى وهـو نقص ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

١٣ ـ **الكلام** : وهو صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى تدل على كل موجود واجبا أو جائزا ، وعلى كل معدوم محالا أو جائزا ، وليس كلامه تعالى بحرف ولا صوت ، ولا يوصف بجهر ولا سر ولا تقديم ولا تأخير ولا وقف ولا سكوت ولا وصل ولا فصل ، لأن هذا كله من صفات الحوادث ، وهى محالة عليه تعـالى ودليـله قوله تعـالى : **« وكلم الله موسى تكليما »**(١) .

ولأنه تعالى لو كان غير متكلم لكان أبكم ، والبكم نقص محال فى حقه تعالى ، والقرآن والتوراة والانجليل والزبور وباقى الكتب المنزلة تدل على بعض ما يدل عليه الكلام القديم ، قال تعالى : **« قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا »**(٢) .

وقـال : **« ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله »**(٣) .

قال فى الدين الخالص : وله تعالى صفات غير ذلك كالجلال والجمال والعزة والعظمة والكبرياء والقوة ـ وهى غير القدرة ـ والوجه والنفس والعين واليـد والأصابع والقدم والمحبة والرضـا والفرح والضحك والغضب والكراهة والعجب والمكر ونحو ذلك مما ورد فى الكتاب والسنة ، فيجب الايمان به بلا كيف ، فنقول : له تعالى يد لا كالأيدى ، ونفوض معرفة ذلك وتفصيله الى الله تعالى ولا نؤول أن يده تعالى قدرته أو نعمته وأمثال ذلك ، لأن فيه ابطال الصفة التى دل عليها الكتاب والسنة ، ولكن نقول يده صفة بلا كيف ، وهكذا . وغضبه ومكره واستهزاؤه غير انتقامه وغير ارادة الانتقام . بل من صفاته بلا كيف وهذا مذهب السلف فى المتشابهات ، وبه نقول .. ثم يقول : هذا ما يلزم اعتقاده ومعرفته تفصيلا من الواجب فى حقه تعالى .

وأمـا الواجب معرفته اجمـالا فهو أن يعتقـد المكلف أن الله تعالى متصف بكمالات موجودة تليق به تعالى لا نهاية لها يعلمها الله تعالى تفصيلا ويعلم أنها لا نهاية لها ، لأنه لو انتفى عنه تعالى شىء

---

(١) النساء : ١٦٤ (٢) الكهف : ١٠٩

(٣) لقمان : ٢٧

من الكمال الذى يليق به لكان ناقصا ، والنقص محال فى حقه لاستلزامه الحدوث المحال عليه تعالى .

ويجب الايمان كذلك بأنه يستحيل فى حقه تعالى بالأدلة السابقة ثلاث عشرة صفة مقابلة للصفات الواجبة له تعالى على الترتيب السابق ، وهى : العدم والحدوث ــ وهو الوجود بعد عدم ــ والفناء ، ومماثلته تعالى للحوادث ــ فى الذات ــ بأن يكون جسما مركبا أو حالا فى مكان أو مخصوصا بزمان أو موصوفا بالكبر أو بالصغر أو يكون له شبيه .

وفى الصفات : بأن تكون حياته كحياة الحوادث وعلمه كعلمهم وهكذا .

وفى الأفعال ، بأن لا يكون مؤثرا فى شىء ، وانما له مجرد الكسب . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، فهو لا يماثل موجودا ولا يماثله موجود ، ولا يحده مقدار ولا تحويه الأقطار ، لقوله تعالى : « **ليس كمثله شىء** »[1] .

ومن المستحيل فى حقه تعالى : احتياجه لموجد أو ذات يقوم بها . والتعدد ــ فى الذات ــ بأن يكون مركبا يقبل الانقسام أو يكون هناك ذات كذاته .

وفى الصفات : بأن يكون له صفتان من جنس واحد كقدرتين وعلمين ، أو يكون لغيره صفة كصفته .

وفى الأفعال : بأن يكون لغيره تأثير فى شىء من الأشياء بطبعه أو بقوة مودعة فيه . فليست النار محرقة بطبعها ولا بقوة خلقت فيها . وانما الخالق للاحراق هو الله تعالى عند خلقه النار ، ولو شاء خلق النار دون الاحراق لكان ، كما حصل لخليله سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام . وليس الماء مرويا بطبعه ولا بقوة خلقت فيه وانما الخالق للرى هو الله تعالى عند شرب الماء ، وليس الملبوس ساترا وواقيا للبرد أو الحر بنفسه ولا بقوة خلقت فيه ، بل الخالق لما ذكر هو الله تعالى عند لبس الثياب . فمن يعتقد تأثير شىء من الأسباب فى مسببه بطبعه فهو كافر ، أو بقوة خلقها الله فيه فهو فاسق . ومن اعتقد عدم تأثيرها وأن الله هو المؤثر ولكن يستحيل خلق السبب بدون مسببه أو عكسه فهو مؤمن يخشى عليه انكار معجزات الأنبياء فيكفر ، أو انكار كرامات الأولياء فيفسق .

---

(١) الشورى : ١١

والاعتقاد الصحيح : اعتقاد أن المؤثر فى السبب والمسبب هو الله تعالى مع امكان تخلف أحدهما عن الآخر خرقا للعادة .

ومن المستحيل فى حقه تعالى : الموت وما فى معناه كالنوم والاغماء ، قال الله تعالى : « **الله لا اله الا هو ، الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم** »[١] .

ومنه : الجهل وما فى معناه ، كالظن والشك والوهم والغفلة والذهول والنسيان .

ومنه : وجود شىء من الحوادث بلا ارادته تعالى بأن يكون بطريق الطبع أو العلة ، فلا يقع فى الملك والملكوت قليل أو كثير ، صغير أو كبير ، خير أو شر ، الا بقضائه وقدره .

ومنه : العجز عن ممكن ما ، والصمم وما فى معناه كسمعه الجهر دون السر ، وكاختصاصه بالأصوات دون الذوات وسائر الموجودات .

ومنه : العمى وما فى معناه كالعشا[٢] وهو عدم الابصار ليلا ، والجهر[٣] وهو عدم الابصار نهارا .

ومنه : البكم : وهو الخرس وما فى معناه كالفهاهة والعى والسكوت ، وكون كلامه تعالى بحروف وأصوات .

ثم يقول بعد ذلك فى الدين الخالص :

هذا ما دلت على استحالته فى حق الله تعالى الأدلة التفصيلية ، وهى أدلة الواجب التفصيلى ، ويجب على كل مكلف أن يعتقد بعد ذلك أن الله تعالى منزه عن كل نقص كما أنه متصف بكل كمال .

ثم يقول : ويجوز فى حقه تعالى فعل كل ممكن أو تركه فهو متفضل بالخلق والاختراع والتكليف والانعام والاحسان لا عن وجوب ولا ايجاب ، فلا يجب عليه شىء مما ذكر ، ولا يستحيل عليه تعالى فعل ما يضر عباده ، بل يجوز أن يفعله بهم بطريق العدل ، اذ للمالك أن يتصرف فى ملكه بما يشاء ، فهو الخالق للايمان والطاعة والسعادة والعافية ، وسائر النعم فضلا منه واحسانا كما يشير قوله تعالى : « **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** »[٤] .

---

(١) البقرة : ٢٥٥

(٢) بفتحتين مقصورا .

(٣) بفتحتين .

(٤) البقرة : ١٨٥

وقولـــه : « **وما الله يريد ظلما للعباد** »[١] .

وهو سبحانه الخالق للكفر والمعاصى والشقاوة والأمراض والفقر ونحو ذلك عدلا منه فى مملوكه ، قال تعالى : « **والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم** »[٢] .

وقـــال : « **وربك يخلق ما يشاء ويختار** »[٣] .

وقـــال : « **فعال لمـــا يريد** »[٤] .

وقـــال : « **من يضلل الله فلا هادى له** »[٥] .

وقـــال : « **لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون** »[٦] .

فيجوز فى حقه تعالى عقلا تعذيب المطيع عدلا منه لأنه الخالق للطاعة مع تنزهه عن الانتفاع بها ، وانما ينتفع بها العبد الذى وفقه الله لكسبها ، واثابة العاصى فضلا منه لأنه الخالق للمعصية مع تنزهه عن التضرر بها ، وانما يتضرر بها من خذله الله باكتسابها عدلا منه ، قـــال تعـــالى : « **ووجدوا ما عملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحدا** »[٧] .

وقـــال : « **من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد** »[٨] .

وقـــال : « **ان يشـــأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز** »[٩] .

ثم يقول : ومن الجائز انزال الكتب وارسال الرسل مبينين للناس ما نزل اليهم مبشرين الطائعين بالجنة والنعيـــم المقيـــم ، ومنذرين العاصين بالنار والعذاب الأليم ، ... الى أن يقول :

ومما تقدم تعلم أنه يجب على كل مكلف أن يعتقد أن الله تعالى متصف بصـــفات الجلال والكمال التى تليق بعظمته تعالى الواردة فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، وأنه تعالى منزه عن كل نقص ، وعن مشابهة الحوادث ، تعالى الله عن ذلك .

* * *

---

(١) غافر : ٣١
(٢) البقرة : ١٠٥
(٣) القصص : ٦٨
(٤) هود : ١٠٧
(٥) الأعراف : ١٨٦
(٦) الأنبياء : ٢٣
(٧) الكهف : ٤٩
(٨) فصلت : ٤٦
(٩) فاطر : ١٦ ، ١٧

هذا .. واذا كنت قد بدأت بهذا قبل التركيز على موضوع الاستقامة التى يوصينا بها الرسول صلى الله عليه وسلم — فى الحديث الذى ندور حوله — فلأنه[١] هو الأساس الذى لابد وأن يسبق موضوع الاستقامة ، والذى على أساسه تستطيع أن تقول ربى الله ، أو أن تقول آمنت بالله على أساس من العلم والمعرفة ، كما يشير قول الله تعالى : **« ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة »**[٢] . أى عند الموت تبشرهم بقوله تعالى : **« ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون »**[٣] . وفى التفسير أنهم اذا بشروا بالجنة ، قالوا : وأولادنا ماذا يأكلون وما حالهم بعدنا ؟ فيقال لهم : **« نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة »**[٤] . وكما يشير الحديث الصحيح الذى رواه مسلم ، والذى جاء فى نصه :

عن أبى عمرو — وقيل أبى عمرة — سفيان بن عبد الله رضى الله عنه ، قال : قلت يا رسول الله .. قل لى فى الاسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك ، قال : «قل : آمنت بالله ثم استقم » .

أى : استقم كما أمرت ونهيت ، لأن الاستقامة معناها : ملازمة الطريق بفعل الواجبات وترك المنهيات ، كما يشير قول الله تعالى لنبيه ومصطفاه صلوات الله وسلامه عليه ، ومن تاب معه :

« فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا ، أنه بما تعملون بصير »[٥] .

فقد قال فى « ظلال القرآن » كلاما عظيما ، جاء فى مضمونه ، ما يلى :

هذا الأمر للرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن تاب معه : **« فاستقم كما أمرت »** .. أحس — عليه الصلاة والسلام — برهبته وقوته ، حتى روى عنه أنه قال مشيرا اليه : « شيبتنى هود .. » . فالاستقامة : الاعتدال والمضى على المنهج دون انحراف ، وهو فى حاجة الى اليقظة الدائمة ، والتدبر الدائم ، والتحرى الدائم لحدود الطريق ، وضبط الانفعالات البشرية التى تميل الاتجاه قليلا أو كثيرا .. ومن ثم فهى شغل دائم فى كل حركة من حركات الحياة .

---

(١) أى الايمان بالله تعالى على الأساس الذى وقفنا عليه .

(٢) فصلت : ٣٠ (٣) فصلت : ٣٠

(٤) فصلت : ٣١ (٥) هود : ١١٢

ثم يقول : وانه لما يستحق الانتباه هنا أن النهى الذى أعقب الأمر بالاستقامة ، لم يكن نهيا عن القصور والتقصير ، انما كان نهيا عن الطغيان والمجاوزة .. وذلك أن الأمر بالاستقامة وما يتبعه فى الضمير من يقظة وتحرج قد ينتهى الى الغلو والمبالغة التى تحول هـذا الدين من يسر الى عسر ، والله يريد دينه كما أنزله ، ويريد الاستقامة على ما أمر دون افراط ولا غلو ، فالافراط والغلو يخرجان هذا الدين عن طبيعته كالتفريط والتقصير ، وهى التفاتة ذات قيمة كبيرة ، لامساك النفوس على الصراط ، بلا انحراف الى الغلو أو الاهمال على السواء .

وهذا الكلام الأخير الذى وقفنا عليه ، هو المراد من قول الرسول صلى الله عليه وسلم فى نص الوصية : « ولن تحصوا » أى فلن تستطيعوا احصاء ذلك ولا بلوغ نهايته .

ولهذا ، فقد ورد النهى والترهيب من الغلو — وهو مجاوزة الحد — حتى بالنسبة للوضوء :

فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده — عبد الله بن عمرو — قال : جاء أعرابى الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم يسأله عن الوضوء ، فأراه ثلاثا ثلاثا وقال : « هـذا الوضوء[1] ، من زاد على هـذا فقد أساء وتعدى وظلم » أخرجه أحمد والنسائى ، وابن ماجه وابن خزيمة من طرق صحيحة ، وصححه ابن خزيمة وغيره ، وأخرجه أبو داوود بلفظ : « فمن زاد على هذا أو نقص فقد أساء وظلم » .

ففيه : دلالة على أن الزيادة فى الغسل عن الثـلاث اعتداء وفاعله مسىء بتركه المطلوب ، ومتعد حد السنة ، وظالم بوضع الشىء فى غير موضعه ولا خلاف فى كراهته .

وقس على ذلك جميع العبادات التى فرضها الله تعـالى عليك ، والتى أمر الله تعـالى بأدائها بكل يسر ، كما يشير قوله تعـالى : **« طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى »**[2] .

وقولـه : **« .. يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »**[3] .

وقد ورد فى السنة كذلك ما يرغب فى هـذا ، ويرهب من عكسه وهو الغلو :

---

(١) أى هذا هو الوضوء المشروع .

(٢) طه : ١ ، ٢ (٣) البقرة : ١٨٥

فعن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم « دخل عليها وعندها امرأة ، قال : من هـذه ؟ قالت : هذه فلانة تذكر من صلاتها ، قال : مه[1] عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا . وكان أحب الدين اليه ما داوم صاحبه عليه » متفق عليه .

ومه : كلمة نهى وزجر ، ومعنى لا يمل الله ، أى : لا يقطع ثوابه عنكم وجزاء أعمالكم ويعاملكم معاملة المـلل حتى تملوا فتتركوا ، فينبغى لكم أن تأخذوا ما تطيقون الدوام عليه ليدوم ثوابه لكم وفضله عليكم .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال : « جاء ثلاثة رهط[2] الى بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، وقالوا : أين نحن من النبى صلى الله عليه وسلم وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قـال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبدا ، وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر أبدا ولا أفطر ، وقال الآخر : وأنا أعتـزل النساء فلا أتزوج أبدا . فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله انى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسـلم قال : « هلك المتنطعون » ـ قالها ثلاثا ـ رواه مسلم .

المتنطعون : أى المتعمقون المشددون فى غير موضع التشديد .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ان الدين يسر ولن يشاد الدين الا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة » رواه البخارى ، وفى روايه له : « سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشىء من الدلجة ، القصد القصد تبلغوا » .

قوله : « الدين » هو مرفـوع على ما لم يسم فاعله ، وروى منصوبا ، وروى : لن يشاد الدين ـ بالفتح ـ أحد ، وقوله صلى الله عليه وسلم : الا غلبه ، أى : غلبه الدين وعجز ذلك المشـاد عن مقاومة الدين لكثرة طرقه ، والغدوة سير أول النهار ، والروحة آخر النهار ،

---

(١) « مه » مبنى على السكون اسم لفعل الأمر معناه : اكفف .

(٢) الرهط : ما دون العشرة من الرجال لا يكون فيهم امرأة .

والدلجة آخر الليل ، وهذا استعارة وتمثيل ومعناه استعينوا على طاعة الله عز وجل بالأعمال فى وقت نشاطكم وفراغ قلوبكم بحيث تستلذون العبادة ولا تسأمون وتبلغون مقصودكم ، كما أن المسافر الحاذق[١] يسير فى هذه الأوقات ويستريح هو ودابته فى غيرها فيصل المقصود بغير تعب ، والله أعلم .

فليذكر الأخ المسلم كل هـذا ، وليتق الله فى نفسـه ، وأهله ، وكل عضو من أعضاء جسده ، فقد ورد فى الحديث الصحيح :

« ان لجسدك عليك حقا ، وان لعينك عليك حقا ، وان لزوجك عليك حقا ، وان لزورك عليك حقا .. » .

وذلك كذلك حتى لا يسب نفسه ، فعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « اذا نعس أحدكم وهو يصلى فليرقد حتى يذهب عنه النوم فان أحدكم اذا صلى وهو ناعس لا يدرى لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه » متفق عليه .

* * *

واذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال بعد ذلك فى نص الوصية ـ التى ندور حولها ـ : « واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة » :

فانه بهذا صلوات الله وسلامه عليه : يلفت قلوبنا الى أهمية الصلاة ودرجتها بالنسبة لبقية العبادات المفروضة عينا ، وذلك حتى تكون على علم بهذا ، وحتى نكون كذلك فى نفس الوقت من المحافظين عليها ، وفى أوقاتها ، كما أمرنا الله تعالى فى قوله : **« حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين »**[٢] .

فقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين فى هذه الآية الكريمة بالمحافظة على الصلوات الخمس بوجه عام ، وعلى الصلاة الوسطى بوجه خاص .

وذلك لأن الصلوات الخمس بصفة عامة ، كما جاء فى نص الوصية ، هى أحب الأعمال الى الله تبارك وتعـالى ، بل هى خير موضوع[٣] ، أى : خير شىء وضعه الشارع .

---

(١) الحاذق : أى المـاهر . (٢) البقرة : ٢٣٨

(٣) كما جاء فى نص حديث أخرجه ابن حبان والحاكم ، ونصه : « الصلاة خير موضوع ، فمن شاء استكثر ومن شاء استقل » .

ولهذا فهى فى نظر الاسلام ــ بالاضافة الى أنها الركن الثانى من أركانه ــ هى الحد الفاصل بين المسلم والكافر ، والبار والفاجر ، وهى منه بمنزلة الرأس من الجسد ، فمن أداها كما ينبغى ، فهو مسلم بار ، ومن تركها فهو كافر فاجر .

فقد روى الطبرانى فى الأوسط بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « لا ايمان لمن لا أمانة له ، ولا صلاة لمن لا طهور له ، ولا دين لمن لا صلاة له ، انما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد » .

ومن أجل ذلك وحتى نحافظ على الصلاة ، أو على ديننا[1] ، فاننى أرى ــ والشىء بالشىء يذكر ــ أن أذكر الأخ المسلم والأخت المسلمة بالأحكام الفقهية المتعلقة بترك الصلاة :

فقد قال الفقهاء[2] : من ترك الصلاة ، وهو منكر لفرضيتها ، غير معترف بوجوبها ، فهو كافر ، مرتد عن الاسلام ، لا تجرى عليه الأحكام الشرعية ، وليس له من الحقوق ما للمسلمين .

فلا يرث ولا يورث ، ولا يصح ــ ان كان رجلا ــ أن يتزوج بمسلمة ، وان كانت امرأة ، فلا يصح أن يتزوجها مسلم ، واذا مات لا يغسل ، ولا يكفن ، ولا يصلى عليه ، ولا يدفن فى مقابر المسلمين .

وعلى الحاكم أن يأمره بها ، فان صلى فبها ونعمت ، والا : قتله كفرا .

والأحاديث المصرحة بكفر تارك الصلاة كثيرة ، منها :

ما رواه جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة » رواه مسلم .

وعن بريدة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » رواه أحمد .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه ذكر الصلاة يوما ، فقال : « من حافظ عليها كانت له نورا ، وبرهانا ، ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها : لم يكن له نور ، ولا برهان ،

---

(١) كما أشار حديث ابن عمر .

(٢) كما جاء ملخصا فى كتاب الفقه الواضح .

ولا نجـاة ، وكان يوم القيامة مع قارون ، وفرعون ، وهامـان ، وأبى بن خلف » . رواه أحمـد ، وقال معلقا عليه : من تركها بسبب الرياسة حشر مع فرعون ، ومن تركها بسبب السياسة : حشر مـع هامان[1] ، ومن تركها بسبب جمع المـال : حشر مع قارون ، ومن تركها من أجل الجدال والخصام : حشر مع أبى ابن خلف[2] . أ . هـ .

وقد اختلف الفقهاء فيمن ترك الصلاة كسلا ، وهو معترف بوجوبها :

فقال الحنابلة : هو كافر .

وقال الجمهور : هو فاسق .

واستدل الحنابلة بالأحاديث المتقدمة ، فجعلوها عامة ، فى من تركها مطلقا .

وقد حمل الجمهور هذه الأحاديث على من تركها منكرا لفرضيتها ، واستدلوا على ذلك بعموم قوله تعالى : « **ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشـاء** »[3] .

وتارك الصلاة تكاسلا ليس مشركا ، وبالتالى فهو متعرض لرحمة الله عز وجل .

لكن مع حكم الجمهور عليه بالفسق — دون الكفر — يرون أن الحاكم يجب عليـه أن يحمله على الصلاة بمختلف الوسائل ، حتى يقيمها ، فقال الحنفية : يجب على الحـاكم أن يجلسه ويضربه حتى يصلى ، وقال المـالكية والشافعية وجماعة من الفقهاء : يجب على الحاكم أن يمهله ثلاثة أيام ، فان صلى فبها .. ، والا قتـله حـدا ، لا كفرا .

والفرق بين من قتل كفرا ، ومن قتل حدا ، أن الأول : لا تجرى عليه الأحكام الشرعية ، فلا يغسـل ، ولا يكفن ، ولا يصلى عليه ، ولا يدفن فى مقابر المسلمين .

وأن الثانى : تجرى عليه الأحكام الشرعية : فيغسل ، ويكفن ، ويصـلى عليه ، ويدفن فى مقابر المسلمين ، والله أعلم .

وأما عن الصلاة الوسطى التى أمرنا الله تعالى بالمحافظة عليهـا بصفة خاصة كما جاء فى نص الآية ، وهى : « **حافظوا** .. » :

---

(١) لأن هامان كان وزيرا لفرعون يدبر شئون الملك .

(٢) لأنه كان يجادل الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرا فى شأن البعث والحياة بعد الموت .

(٣) النساء : ٤٨

فقد اختلف الفقهاء فى تعيينها على عشرة أقوال ، أو أكثر ، فقال جماعة : هى صلاة الصبح ، لما فيها من المشقة ، ولأنها صلاة تثقل على كثير من الناس ، وممن قال بهذا : عمر بن الخطاب ، ومعاذ بن جبل ، وابن عباس ، وابن عمر ، وجابر ، ومالك ، والشافعى ، رضى الله عنهم .

وقال جمع غفير من الفقهاء والمحدثين : هى صلاة العصر ، وقد رجح كثير من المحققين هذا الرأى الأخير ، لورود الأحاديث الصحيحة الصريحة بذلك .

فقد روى مسلم وأحمد وأبو داوود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم الأحزاب : « حبسونا عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر ، ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارا » .

وروى ابن جرير من حديث أبى هريرة مرفوعا : « الصلاة الوسطى صلاة العصر » .

ولما كان أشهر الأقوال كما عرفت هو أن الصلاة الوسطى هى الصبح أو العصر ، فقد ورد الترغيب فى هذين الوقتين :

فعن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « من صلى البردين[1] دخل الجنة » رواه البخارى ومسلم .

وعن أبى زهيرة عمارة بن رويبة رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها » يعنى الفجر والعصر ، رواه مسلم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تجتمع ملائكة الليل ، وملائكة النهار فى صلاة الفجر ، وصلاة العصر ، فيجتمعون فى صلاة الفجر ، فتصعد ملائكة الليل ، وتثبت ملائكة النهار ، ويجتمعون فى صلاة العصر ، فتصعد ملائكة النهار ، وتبيت ملائكة الليل ، فيسألهم ربهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون ، فاغفر لهم يوم الدين » رواه ابن خزيمة ، والبخارى ومسلم بنحوه .

فليذكر الأخ المسلم كل هذا ، وليكن من المحافظين على الصلوات والصلاة الوسطى ، وحسبه ترغيبا له فى كل هذا ، هذه الأحاديث الشريفة :

---

(١) يعنى صلاة الصبح والعصر .

عن حنظلة الكاتب رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من حافظ على الصلوات الخمس ركوعهن وسجودهن ومواقيتهن وعلم أنهن حق من عند الله دخل الجنة — أو قال : وجبت له الجنة — أو قال : حرم على النار » رواه أحمد باسناد جيد .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى العمل أحب الى الله تعالى ؟ قال : « الصلاة على وقتها » قلت : ثم أى ؟ قال : « بر الوالدين » قلت : ثم أى ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله » قال : حدثنى بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو استزدته لزادنى ، رواه البخارى ومسلم .

وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى الصلوات لوقتها وأسبغ لها وضوءها وأتم لها قيامها وخشوعها وركوعها وسجودها خرجت وهى بيضاء مسفرة[1] تقول : حفظك الله كما حفظتنى ، ومن صلاها لغير وقتها ولم يسبغ لها وضوءها ولم يتم لها خشوعها ولا ركوعها ولا سجودها خرجت وهى سوداء مظلمة تقول : ضيعك الله كما ضيعتنى ، حتى اذا كانت حيث شاءت لفت كما يلف الثوب الخلق[2] ثم ضرب بها وجهه » رواه الطبرانى فى الأوسط .

وهذا الحديث الأخير يحذرنا من أمر خطير ، أشار اليه الرسول صلى الله عليه وسلم فى كثير من الأحاديث التى منها :

ما ورد عن أبى قتادة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أسوأ الناس سرقة الذى يسرق من صلاته ، قالوا : يا رسول الله كيف يسرق من الصلاة ؟ قال : لا يتم ركوعها ولا سجودها ، أو قال : لا يقيم صلبه فى الركوع والسجود » رواه أحمد والحاكم .

وعن أبى عبد الله الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا لا يتم ركوعه وينقر فى سجوده وهو يصلى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو مات هذا على حالته هذه مات على غير ملة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال رسول الله صلى الله

---

(١) من اسفر الصبح : أى أضاء .

(٢) بفتح اللام : أى البالى .

عليه وسلم : مثل الذى لا يتم ركوعه وينقر فى سجوده مثل الجائع يأكل التمرة والتمرتين لا يغنيان عنه شيئا » رواه الطبرانى فى الكبير .

وعن أبى مسعود البدرى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تجزىء صلاة الرجل حتى يقيم ظهره فى الركوع والسجود » رواه أحمد وأبو داوود واللفظ له .

فعلى الأخ المسلم أن يلاحظ هذا ، حتى يكون خاشعا فى صلاته ومطمئنا فى كوعه وسجوده ، وليكن حريصا كذلك على صلاة الجماعة فى المساجد :

فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة الرجل فى جماعة تضعف على صلاته فى بيته وفى سوقه خمسا وعشرين ضعفا ، وذلك أنه اذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج الى المسجد لا يخرجه الا الصلاة : لم يخط خطوة الا رفعت له بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة ، فاذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مصلاه ما لم يحدث[1] : اللهم صل عليه اللهم ارحمه[2] ، ولا يزال فى صلاة ما انتظر الصلاة » رواه الشيخان .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ[3] بسبع وعشرين درجة » رواه البخارى ومسلم .

* * *

وأما عن آخر عنصر فى تلك الوصية ، وهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « .. ولن يحافظ على الوضوء الا مؤمن » .

فان المراد به كما هو واضح فى مضمونه : أن المؤمن هو الذى يحافظ على وضوئه ، بمعنى أنه يجدد وضوءه كلما انتقض ، مع الاسباغ والاحسان ، وهذا من المندوبات .

ولما كان كل هذا يحتاج الى توضيح ، فاننى أرى واتماما للفائدة أن أذكر الأخ المسلم أولا بالمواضع التى يندب الوضوء فيها وذلك حتى يكون على علم بها ، وحتى يعرف الفرق بين المفروض والمسنون ، فاليه[4] :

---

(١) أى ما لم ينتقض وضوءه . (٢) هذا بيان لصلاة الملائكة .

(٣) الفذ : أى المنفرد .

(٤) كما جاء فى الدين الخالص ج ١ مختصرا وبتصرف .

١ ــ **الوضوء لكل صلاة** : فقد اتفق العلمآء على أنه يندب تجديد الوضوء لكل صلاة لقول أنس : « كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يتوضأ عند كل صلاة ، قيل له : فأنتم كيف تصنعون ؟ قال : كنا نصلى الصلوات بوضوء واحد ما لم نحدث » أخرجه الجماعة[١] الا مسلما ، وقال الترمذى : حسن صحيح •

وعن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « من توضأ على طهر كتب الله له به عشر حسنات »[٢] أخرجه أبو داوود والترمذى وابن ماجه بسند ضعيف[٣] •

وانما يندب تجديده عند الحنفيين اذا صلى بالأول أو تبدل المجلس • وعند المالكية اذا صلى بالأول أو طاف • وعند الشافعية اذا صلى بالأول غير سنة الوضوء • ففى الحديثين دليل على استحباب الوضوء لكل صلاة ، وعليه يحمل حديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم عند كل صلاة بوضوء ومع كل وضوء بسواك » أخرجه أحمد والنسائى بسند صحيح •

٢ ــ **الوضوء لذكر الله تعالى** : فقد أجمع المسلمون على أنه يجوز للمحدث أن يذكر الله تعالى بكل أنواع الذكر ، ما عدا القرآن للمحدث حدثا أكبر ، وفى كل الأماكن والأحوال ما عدا محل القاذورات وحال الجماع ، فانه يكره فيهما ، وأصل ذلك قول عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكر الله على كل أحيانه • أخرجه أحمد ومسلم وأبو داوود وابن ماجه والترمذى وحسنه ، وقال فى العلل : سألت عنه البخارى فقال صحيح •

وقال على رضى الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخرج من الخلاء فيقرئنا القرآن ويأكل معنا اللحم ولم يكن يحجزه عن القرآن شىء ليس الجنابة • أخرجه أحمد وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه وصححه الترمذى وابن السكن •

---

(١) وهم : مالك وأحمد والبخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

(٢) أى كتب الله له به ثواب عشر وضوءات فان من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها . وقد وعد الله بالمضاعفة الى سبعمائة ضعف .

(٣) انظر ص ٦٣ ج ١ تحفة الأحوذى .

واتفقوا على أنه يندب الوضوء لذكر الله تعالى ، لحديث محمد ابن جعفر : أنه سئل عن رجل يسلم عليه وهو غير متوضىء ، فقال : حدثنى سعيد بن أبى عروبة عن قتادة بن دعامة عن الحسن البصرى عن الحضين بن المنذر عن المهاجر بن قنفذ : أنه سلم على النبى صلى الله عليه وآله وسلم وهو يتوضأ فلم يرد عليه حتى توضأ فرد عليه وقال : « انه لم يمنعنى أن أرد عليك الا أنى كرهت أن أذكر الله الا على طهارة » ..

قال قتادة : فكان الحسن من أجل هذا يكره أن يقرأ أو يذكر الله عز وجل حتى يتطهر . أخرجه أحمد وابن ماجه وكذا أبو داوود والنسائى بلفظ : « وهو يبول » بدل « وهو يتوضأ » .

وقال أبو جهيم بن الحارث : أقبل النبى صلى الله عليه وآله وسلم من نحو بئر جمل[1] فلقيه رجل فسلم عليه فلم يرد عليه حتى أقبل على جدار فمسح بوجهه ويديه[2] ثم رد عليه السلام . أخرجه أحمد والشيخان والنسائى وأبو داوود .

٣ ــ **الوضوء لتناول ما مسته النار** : فقد قال الأئمة الأربعة والجمهور : لا ينتقض الوضوء بتناول ما مسته النار . وعليه أجمع العلماء بعد الصدر الأول ، لقول ميمونة : أكل النبى صلى الله عليه وسلم من كتف شاة ثم قام فصلى ولم يتوضأ . أخرجه أحمد والشيخان .

وقال عمرو بن أمية الضمرى : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يأكل يحتز من كتف شاة فأكل منها ، فدعى الى الصلاة فقام وطرح السكين[3] وصلى ولم يتوضأ . أخرجه أحمد والشيخان .

وقال جابر : كان آخر الأمرين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك الوضوء مما غيرت النار . أخرجه أبو داوود والنسائى وصححه ابن خزيمة وابن حبان والنووى .

---

(١) « جمل » بفتحتين ، وفى رواية بئر الجمل وهو موضع قرب المدينة .

(٢) أى تيمم صلوات الله وسلامه عليه .

(٣) فى الحديث جواز قطع اللحم بالسكين ، وذلك عند الحاجة اليه لصلابة اللحم أو كبر القطعة ، قالوا : ويكره من غير حاجة . انظر ص ٤٥ ج ٤ صحيح مسلم بشرح النووى .

هذا .. وقد اتفق الأئمة الأربعة والجمهور على أنه يندب الوضوء مما مست النار ، وعليه تحمل الأحاديث الواردة بالأمر بالوضوء منه جمعا بين الآحاديث ، كحديث ابراهيم بن عبد الله بن قارظ قال : مررت بأبى هريرة وهو يتوضأ فقال : أتدرى مم أتوضأ ؟ .. من أثوار أقط[1] أكلتها ، لأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « توضأوا مما مست النار » أخرجه أحمد ومسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

وحديث أبى موسى الأشعرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « توضأوا مما غيرت النار لونه » أخرجه أحمد والطبرانى فى الأوسط بسند رجاله ثقات .

٤ ــ **الوضوء للنوم** : فانه يستحب عند الأئمة الأربعة والجمهور لمن أراد النوم أن ينام على طهارة كاملة ، لحديث البراء بن عازب أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : « اذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ، ثم قل : اللهم أسلمت نفسى اليك ، ووجهت وجهى اليك ، وفوضت أمرى اليك ، وألجأت ظهرى اليك ، رغبة ورهبة اليك ، لا ملجأ ولا منجى منك الا اليك . اللهم آمنت بكتابك الذى أنزلت ، ونبيك الذى أرسلت . فان مت من ليلتك فأنت على الفطرة ، واجعلهن آخر ما تتكلم به » . قال : فرددتها على النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فلما بلغت : اللهم آمنت بكتابك الذى أنزلت ، قلت : ورسولك ... قال : « لا .. ونبيك الذى أرسلت » .

أخرجه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

والحديث وان كان خطابا للبراء ، فالمراد منه العموم فيشمل جميع المكلفين . فقد قالت عائشة رضى الله تعالى عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد أن ينام وهو جنب غسل فرجه وتوضأ وضوءه للصلاة . أخرجه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

وعن ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم سئل : أينام أحدنا وهو جنب ؟ قال : نعم .. ويتوضأ ان شاء . أخرجه ابن خزيمة وابن حبان .

---

(١) الأثوار بالثاء المثلثة جمع ثور وهو القطعة من الأقط ، بفتح فكسر وقد تسكن القاف : وهو لبن مخيض يطبخ ثم يترك حتى يجمد .

٥ ــ **وضوء الجنب للأكل أو للشرب :** فقد قالت الشافعية وجماعة : يستحب للجنب الوضوء اذا أراد أن يأكل أو يشرب ، لقول عائشة : كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم اذا كان جنبا فأراد أن يأكل أو ينام توضأ • أخرجه أحمد ومسلم •

وعن عمار بن ياسر أن النبى صلى الله عليــه وآله وسلم رخص للجنب اذا أراد أن يأكل أو يشرب أو ينام أن يتوضأ وضوءه للصلاة • أخرجه أحمد وأبو داوود والترمذي وصححه •

ولذا •• يكره للجنب النوم والأكل والشرب والجماع قبل الوضوء الكامل • ولا يستحب هذا الوضوء للحائض والنفساء لأنه لا يؤثر فى حدثهما ولا يصح الوضوء مع استمراره • أما اذا انقطع حيضها فتصير كالجنب يستحب لها الوضوء فى هذه المواضع[1] •

وقال الحنفيون ومالك وأحمد : لا يستحب للجنب الوضوء اذا أراد أن يأكل أو يشب وانما يغسل يديه فقط ، لقول عائشة : كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم اذا أراد أن ينام وهو جنب توضأ وضوءه للصلاة ، واذا أراد أن يأكل أو يشرب غسل يديه ، ثم يأكل أو يشرب • أخرجه أحمد والنسائى وهو حديث صحيح رجاله ثقات •

وقالت : كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم اذا أراد أن يأكل وهو جنب غسل يديه • أخرجه أبو داوود والطحاوى •

وقال سعيد بن المسيب : اذا أراد الجنب أن يأكل غسل يديه ومضمض فاه •

وأجابوا عن حديث عمار بأن فيه الترخيص بالوضوء للجنب اذا أراد الأكل ، وهو لا يفيد الاستحباب ، ويمكن الجمع بين الروايات بأنه صلى الله عليه وآله وسلم كان تارة يتوضأ وضوءه للصلاة وتارة يقتصر على غسل اليدين ، ولا يخفى حسن التأسى بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم •

٦ ــ **الضوء لمعاودة الجماع :** قال الحنفيون والشافعى وأحمد والجمهور : يستحب لمن جامع أهله وأراد المعاودة أن يتوضأ ، لحديث أبى سعيد أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « اذا أتى أحدكم

---

(١) انظر ص ١٥٦ ج ٢ مجموع للنووى .

أهله[1] ثم أراد أن يعود فليتوضأ » أخرجه أحمد ومسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه ، وكذا ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وزادوا : « فانه أنشط للعود » وفى رواية للبيهقى وابن خزيمة : « فليتوضأ وضوءه للصلاة » .

والأمر عند الجمهور محمول على الاستحباب ، لقول عائشة : كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يجامع ثم يعود ولا يتوضأ . أخرجه الطحاوى .

وقولها : كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم اذا كان له حاجة الى أهله أتاهم ثم يعود ولا يمس ماء . أخرجه أحمد .

وقالت الظاهرية وابن حبيب : يجب الوضوء على المعاود ابقاء للأمر على ظاهره . لكن قد علمت أنه محمول على الاستحباب ، وحمله أبو يوسف على الاباحة ، وحمله المالكية على الوضوء اللغوى وهو غسل الفرج ، والأظهر قول الجمهور .

٧ ــ **الوضوء قبل الغسل :** فقد اتفق العلماء على أنه يستحب الوضوء قبل الغسل ولو مسنونا ، غير أن الأفضل عند الحنفيين اكماله ان كان يغتسل فى محل لا يجتمع فيه الماء بأن كان يغتسل على مرتفع أو بالوعة ، وعليه يحمل قول عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا اغتسل من الجنابة بدأ فغسل يديه ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة . أخرجه مالك وأحمد والبخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

وان كان يغتسل فى مكان يجتمع فيه الماء كطشت فالأفضل تأخير غسل القدمين وعليه يحمل قول ميمونة : سترت النبى صلى الله عليه وآله وسلم وهو يغتسل من الجنابة فغسل يديه ثم صب بيمينه على شماله فغسل فرجه وما أصابه ثم مسح بيده على الحائط أو الأرض ثم توضأ وضوءه للصلاة غير رجليه ثم أفاض عليه الماء ثم نحى رجليه فغسلهما . أخرجه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه والبيهقى .

وقال مالك : الأفضل تقديم غسل الرجلين الا اذا كان المكان غير نظيف فالأفضل التأخير ، وقالت الشافعية والحنابلة : الأفضل تتميم

---

(١) أى اذا جامع أحدكم زوجته ثم أراد بعد ذلك أن يجامعها مرة أخرى .

الوضوء على الأصح المختار عندهم عملا بظاهر الروايات المستفيضة عن عائشة فى تقديم وضوء الصلاة فان ظاهره كمال الوضوء . والأمر فى هذا واسع فانه صلى الله عليه وآله وسلم كان يقدم غسل رجليه تارة ويؤخره أخرى .

٨ ــ **الوضوء من حمل الميت** : فقد قال الحنفيون والشافعى وأحمد : يندب الوضوء من حمل الميت . وقال ابن حزم بوجوبه ، لحديث عمرو ابن عمير عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « من غسل ميتا فليغتسل ، ومن حمله فليتوضأ » أخرجه أحمد وأبو داوود والترمذى والنسائى والبيهقى . وقال : عمرو بن عمير انما يعرف بهذا الحديث وليس بالمشهور . وأخرجه عن صالح مولى ابن التوءمة عن أبى هريرة . وقال : صالح مولى ابن التوءمة : ليس بالقوى ، والروايات المرفوعة فى هــذا الباب عن أبى هريرة غير قوية لجهالة بعض رواتها وضعف بعضهم . والصحيح عن أبى هريرة من قوله موقوفا .

ولذا قال المزنى : الوضوء من مس الميت وحمله غير مشروع لأنه لم يصح فيهما شىء .

ورد : بأن الحديث قد روى من عدة طرق يقوى بعضها بعضا ، ولذا حسنه الترمذى وصححه ابن حبان وابن حزم ورواه الدارقطنى بسند رواته موثقون ، فانكار النووى تحسينه معترض ، قال الذهبى : هو أقوى من عدة أحاديث احتج بها الفقهاء .

٩ ــ **الوضوء للغضب** : فقد قال الأئمة الأربعة والجمهور : يستحب الوضوء للغضب ، لحديث عطية العوفى أن النبى صلى الله عليــه وآله وسلم ، قال : « ان الغضب من الشيطان وان الشيطان خلق من النار ، وانما تطفأ النار بالمــاء : فاذا غضب أحدكم فليتوضأ » أخرجه أحمد وأبو داوود .

وقال الحنفيون : ولو كان متوضئا واشتد غضبه ندب له الغسل .

١٠ ــ **الوضوء للخروج من خلاف العلماء** : يندب للحنفى أن يتوضأ اذا لمس امرأة أو مس ذكره أو أكل لحم جزور وغير ذلك مما ينقض الوضوء عند بعض العلماء ويندب للمالكى وغيره أن يتوضأ من القىء وخروج نجس من غير السبيلين ، وقهقهة فى الصلاة وغير ذلك مما ينقض الوضوء عند غيرهم .

* * *

واتماما للفائدة ، وحتى يتضح لك هذا ، اليك كذلك :

نواقض الوضوء عند الأئمة الأربعة

(أ) عند الحنفيين سبعة : كل ما خرج من أحد السبيلين حال الصحة • وكل نجس خرج من البدن ان سال الى مكان يلزم تطهيره • والقيء ملء الفم • والنوم مضطجعا أو متكئا أو مستندا الى ما لو أزيل لسقط • وغلبة العقل بالاغماء أو الجنون أو السكر • وقهقهة بالغ يقظان فى صلاة ذات ركوع وسجود • ومباشرة فاحشة •

(ب) وعند المالكية نواقضه ستة : الخارج المعتاد من أحد السبيلين حال الصحة ومن الريح والهادى[١] على المعتمد • وغيبة العقل بجنون أو اغماء أو سكر أو نوم ثقيل • ولمس مشتهاة ان قصد اللذة أو وجدها[٢] • ومس الذكر[٣] بشرطه • والشك فى الحدث أو سببه • والردة •

(ج) وعند الشافعية نواقضه أربعة : كل ما خرج من أحد السبيلين الا المنى[٤] • وغلبة العقل بجنون أو اغماء أو سكر أو صرع أو نوم لم تتمكن فيه المقعدة • ولمس رجل يشتهى امرأة أجنبية تشتهى بلا حائل • ومس قبل أو دبر آدمى بلا حائل •

(د) وعند الحنابلة نواقضه ثمانية : كل ما خرج من أحد السبيلين • وكل نجس كثير خرج من سائر الجسد • وغلبة العقل — بجنون أو اغماء أو سكر أو صرع أو نوم لم تتمكن فيه المقعدة — ومس فرجه أو فرج آدمى بلا حائل • ولمس ذكر أو أنثى بشرة الآخر — ان كان اللمس بشهوة والا فلا — والردة • وأكل لحم الابل • وتغسيل الميت على ما تقدم بيانه •

* * *

---

(١) وهو ماء أبيض يخرج قرب الولادة .

(٢) واللامس والملموس عند مالك فى ذلك سواء .

(٣) المس الناقض عندهم يكون بباطن الكف أو جنبه أو بباطن الأصابع أو بجنبها أو برؤوسها . لا بظهر ولا بظهر كف ، ولا ذراع .

(٤) لأن خروج المنى يوجب الغسل .

هذا .. مع ملاحظة أن الوضوء ــ بصفة عامة[١] ــ يكفر الذنوب ، ويمحو الخطايا ، ويضاعف الأجر ، ويرفع الدرجات . وهو سلاح المؤمن ، يدفع به عن نفسه هواجس النفس ، ووساوس الشيطان . ويشعر المؤمن وهو متوضىء براحة نفسية ، وانشراح فى صدره ، ونشاط فى بدنه لا يجده وهو على غير وضوء .

كما أن الوضوء يطفىء جزوة الغضب ، ويبسط نوره على وجه المؤمن ، وقد ورد فى فضله أحاديث كثيرة منها :

ما رواه عبد الله الصناجى[٢] رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا توضأ العبد فتمضمض : خرجت الخطايا من فيه ، فاذا استنثر : خرجت الخطايا من أنفه ، فاذا غسل وجهه : خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشفار[٣] عينيه ، فاذا غسل يديه : خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظفار يديه ، فاذا مسح رأسه : خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه ، فاذا غسل رجليه : خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظفار رجليه . ثم كان مشيه الى المسجد وصلاته نافلة له »[٤] أخرجه مالك وأحمد والنسائى والحاكم ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، وليس له علة .

والمراد بالخطايا ــ المشار اليها فى الحديث ــ الذنوب الصغائر ، أما الكبائر فلا تكفرها الا التوبة .

وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « اذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه : خرجت من وجهه كل خطيئة نظر اليها بعينه مع الماء أو مع آخر قطر الماء . فاذا غسل يديه : خرجت من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء . فاذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقيا من الذنوب » أخرجه مالك وأحمد ومسلم والترمذى وقال : حسن صحيح .

---

(١) كما يقول صاحب كتاب « الفقه الواضح » ج ١ ص ٥٢ أكرمه الله .. وهو فضيلة الشيخ محمد بكر اسماعيل .

(٢) بضم الصاد وكسر الباء : نسبة الى صنابح ، بطن من مراد .

(٣) الأشفار : جمع شفر بضم فسكون : أصل منبت الشعر فى الجفن .

(٤) أى زائدة فى الأجر .

وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « ألا أدلكم على ما يكفر الله به الخطايا ويزيد به فى الحسنات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : اسباغ الوضوء على المكاره[١] ، وكثرة الخطا الى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة » أخرجه أحمد وابن حبان .

وفى رواية أخرى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : اسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا الى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط »[٢] رواه الترمذى ومسلم .

ومعنى ذلك أن المواظبة على الطهارة ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة يعدل الجهاد فى سبيل الله .

* * *

فليذكر الأخ المسلم كل هذا ، حتى يكون محافظا على الوضوء ، وحتى يكون بتلك المحافظة على الوضوء من المؤمنين حقا ، والله أسأل أن يوفقنى واياه للوفاء بهذا ، فهو سبحانه ولى التوفيق .. آمين .

* * *

---

(١) أى اتمامه على المكاره ، أى على الرغم من وجود ما يكره استعمال الماء كالبرد وغيره .

(٢) الرباط معناه المرابطة للجهاد فى سبيل الله .

الوصية الرابعة والأربعون

عن أبى أمامة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

« تسوكوا فان السواك مطهرة للفم ، مرضاة للرب ، ما جاءنى جبريل الا أوصانى بالسواك حتى لقد خشيت أن يفرض على وعلى أمتى ، ولولا أنى أخاف أن أشق على أمتى لفرضته عليهم ، وانى لأستاك حتى خشيت أن أحفى مقادم فمى »[1] ..

(رواه ابن ماجه)

* * *

فكن أخا الاسلام :

منتفعا بهذه الوصية العظيمة التى تشير الى فضل استعمال السواك الذى هو من سنن الفطرة :

فقد ورد عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « عشر من الفطرة : قص الشارب ، واعفاء اللحية ، والسواك ، والاستنشاق بالماء ، وقص الأظافر ، وغسل البراجم[2] ، ونتف الابط ، وحلق العانة ، وانتقاص الماء[3] ، والمضمضة » . أخرجه أحمد ومسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه ، وحسنه الترمذى .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، فى قوله تعالى : **« واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات »**[4] قال : « ابتلاه بالطهارة ، خمس فى الرأس ،

---

(١) أن أحفى مقادم فمى : أحفى من الاحفاء وهو الاستئصال ومقادم الفم هى الأسنان المتقدمة ، والمراد : أى خشيت أن أذهبها من كثرة استعمال السواك .

(٢) البراجم بفتح الموحدة وكسر الجيم : هى عقد الأصابع ومفاصلها .

(٣) يعنى الاستنجاء بالماء .

(٤) البقرة : ١٢٤

وخمس فى الجسد ، فى الرأس : قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وغرق الرأس ، وفى الجسد : تقليم الأظفار ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الابط ، وغسل أثر الغائط والبول بالمـاء » أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح[1] .

والسواك كما جاء فى نص الوصية « مطهرة للفم مرضاة للرب » وقد ورد بالاضافة الى هذا كذلك :

عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « السواك مطهرة للفم مرضاة للرب » أخرجه أحمد والنسائى والترمذى وابن حبان والحاكم والبيهقى والدارمى .

وهو بكسر السين يطلق على الفعل وعلى العود الذى يتسوك به .

والمراد به : استعمال عود أو نحوه فى الأسنان ، لتذهب الصفرة وغيرها عنها ، والكلام[2] ينحصر فى ستة مباحث :

(أ) حكمه : وهو مستحب عند الوضوء والصـلاة مطلقا فى المسجد وغيره وعند القيام من النوم ، وعند تغير الفم ، وعند دخول البيت :

لحديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » أخرجه مالك وأحمد والبخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

وعنه أن النبى صلى الله عليـه وسلم ، قال : « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء » أخرجه مالك والشافعى والبيهقى والحاكم وصححه .

وعن عائشة رضى الله عنها ، قالت : كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم لا يرقد من ليل ولا نهار فيستيقظ الا يتسوك قبل أن يتوضأ . أخرجه أحمد وأبو داوود .

وعن المقدام بن شريح عن أبيه قال : قلت لعائشة : بأى كان يبدأ النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم اذا دخل بيته ؟ قالت : بالسواك . أخرجه مسلم والنسائى وأبو داوود وابن ماجه .

والسواك مستحب فى جميع الأوقات لكن فى خمسة أوقات أشد استحبابا :

---

(١) انظر ص ١٩٧ ج ١ المنهل العذب .

(٢) كما يقول فى الدين الخالص ج ١ ص ١٧٠

- عند الصلاة سواء أكان تطهرا بماء ، أو بتراب[١] ، أو غير متطهر كمن لا يجد ماء ولا ترابا .
- عند الوضوء .
- عند قراءة القرآن .
- عند الاستيقاظ من النوم .
- عند تغير الفم . وتغيره يكون بأشياء ، منها : ترك الأكل والشرب . ومنها : أكل ما له رائحة كريهة . ومنها : طول السكوت . ومنها : كثرة الكلام[٢] . وقد قامت الأدلة على استحبابه فى جميع هذه الحالات .

(ب) آلتـــه : ويحصل الاستياك بكل طاهر خشن يزيل الوسخ والأفضل أن يكون بالأراك والزيتون :

لحديث أبى خيرة الصباحى ، قال : كنت فى الوفد فزودنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأراك ، وقال : « استاكوا بهذا » أخرجه البخارى فى التاريخ .

وقال معاذ بن جبل : سمعت النبى صلى الله عليـــه وآله وسلم يقول : « نعم السواك الزيتون من شجرة مباركة يطيب الفم ، ويذهب بالحفر[٣] . وهو سواكى وسواك الأنبياء من قبلى » أخرجه الطبرانى فى الأوسط .

ويحصل فضله بالاصبع عند فقد السواك ، أو فقد أسنانه ، أو ضرر بفمه : لحديث النضر بن أنس عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليـــه وآله وسلم ، قال : « يجزىء من السواك الأصابع » أخرجه البيهقى وقال حديث ضعيف والضياء فى المختارة وقال : اسناد لا بأس به .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : يا رسول الله .. الرجل يذهب فوه[٤] أيســـتاك ؟ قال : « نعم » قلت : كيف يصنع ؟ قال : « يدخل أصبعه فى فيه » أخرجه الطبرانى فى الأوسط .

وعن أنس رضى الله عنه أن رجلا من الأنصار قال : يا رسول الله ..

---

(١) أى عندما يتيمم بالتراب .
(٢) انظر ص ١٤٢ ج ٣ صحيح مسلم بشرح النووى .
(٣) الحفر بفتح فسكون ، أو بفتحتين : داء يفسد الأسنان .
(٤) أى تذهب أسنانه .

انك رغبتنا فى السواك فهل دون ذلك من شيء ؟ قال : « اصبعاك سواك عند وضوئك تمرهما على أسنانك » أخرجه البيهقى •

(ج) كيفيته : يستحب أن يستاك فى اللسان طولا ، وفى الأسنان عرضا : لحديث أبى بردة عن أبيه — أبى موسى — قال : « أتينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نستحمله فرأيته يستاك على لسانه وهو يقول : أه أه[1] — يعنى يتهوع » أخرجه أبو داوود وكذا البخارى بلفظ : فوجدته يستن بسواك بيده يقول : أع أع والسواك فى فيه[2] كأنه يتهوع •

وعن عطاء أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « اذا شربتم فاشربوا مصا ، واذا استكتم فاستاكوا عرضا » أخرجه أبو داوود فى المراسيل •

والسنة امساك السواك باليمين وخنصرها تحت طرفه الأسفل • والثلاثة الباقية فوقه ، والابهام أسفل رأسه : كما رواه ابن مسعود •

(د) الاستياك بسواك الغير : اتفق العلماء على جواز الاستياك بسواك الغير باذنه : لحديث عائشة رضى الله عنها ، قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستن — أى يستاك — وعنده رجلان أحدهما أكبر من الآخر ، فأوحى اليه فى فضل السواك ، أن كبر •• أعط السواك أكبرهما • أخرجه أبو داوود بسند حسن •

وعن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « أرانى[3] أتسوك بسواك فجاءنى رجلان أحدهما أكبر من الآخر ، فناولت السواك الأصغر منهما ، فقيل لى كبر فدفعته للأكبر منهما » أخرجه أحمد والشيخان والبيهقى •

(هـ) تنظيفه : يسن غسل السواك بعد استعماله : لقول عائشة رضى الله عنها : كان نبى الله صلى الله عليه وآله وسلم يستاك فيعطينى السواك لأغسله ، فأبدأ به فأستاك ، ثم أغسله وأدفعه اليه • أخرجه أبو داوود والبيهقى بسند جيد •

---

(١) « أه » بضم أو فتح فسكون •

(٢) أى فى فمه •

(٣) أرانى بفتح الهمزة وفى رواية مسلم : أرانى فى المنام فهو من الرؤيا ••

(و) **السواك للصائم** : يستحب للصائم أن يستاك أول النهار وآخره : لحديث عاصم بن عبيد الله عن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه ، قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم ما لا أحصى يتسوك وهو صائم . أخرجه أحمد وأبو داوود والبيهقى والدارقطنى ، وقال عاصم ابن عبد الله : غيره أثبت منه[1] ، والترمذى وقال : حسن .

والعمل على هذا عند أهل العلم لا يرون بالسواك للصائم بأسا ، الا أن بعضهم كرهوا السواك للصائم بالعود الرطب وكرهوا له السواك آخر النهار ، ولم ير الشافعى بالسواك بأسا أول النهار وآخره ، وكره أحمد واسحاق السواك آخر النهار[2] .

وباستحبابه للصائم مطلقا قال الحنفيون ومالك والثورى ، ومشهور مذهب الشافعية وأحمد : انه يكره السواك للصائم بعد الزوال مستدلين بحديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « لخلوف[3] فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » أخرجه مالك وأحمد والشيخان والنسائى وابن ماجه .

قالوا : وجه الاستدلال أنه اذا استاك يزول هذا الخلوف ، لكنه غير مسلم ، فان المراد من الحديث مدح الصائم من حيث صيامه ، حتى ان رائحة فمه التى من شأنها أن تكون كريهة ، مرضية عند الله عز وجل ، يثاب عليها أكثر ما يثاب من تطيب برائحة المسك المحبوبة شرعا ..

* * *

هذا .. مع ملاحظة أن الاستياك — بالاضافة الى ما علمت — سنة من سنن الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فكن حريصا على استعماله على هذا الأساس الذى وقفت عليه حتى تكون من أحبابه صلوات الله وسلامه عليه .. قولا وعملا .

* * *

واذا كنا قد وقفنا من خلال تلك الأحكام على فضيلة السواك الذى ان واظب المسلم عليه فى جميع أوقاته كان محافظا على صحة أسنانه

---

(١) انظر ص ٢٤٨ الدارقطنى .

(٢) انظر ص ٤٦ ج ٢ تحفة الأحوذى .

(٣) أى تغيرت رائحته ، يقال خلف فم الصائم خلوفا من باب قعد : أى تغيرت ريحه .

التى ان مرضت كانت ــ غالبا ــ سببا فى كثير من الأمراض التى لا يحمد عقباها :

فاننى أرى بعد ذلك واتماما للفائدة : أن أذكر ببحث يتعلق بوظائف الأسنان وكونها من ضروريات صحة الانسان ، حيث يقول كاتبه[1] :

« أعلم أن الأسنان من أجل نعم الله على الانسان لأنها معينة للمعدة على جودة الهضم الذى هو من ضروريات حياته كما أنها حلية فمه وهى من بديع حلاه يكفيها شرفا أنها حاكت اللؤلؤ منظرا وأنها الواسطة الكبرى فى تحسين الألفاظ ، لأن مدار مخارج أغلب الحروف على الأسنان .

ثم هى وان اتحدت فى تحضير ما يرد عليها من الغذاء وجعله قابلا للدخول فى المعدة الا أنه اقتضت ارادة الله جعل تلك الأسنان متنوعة ووضع كل نوع منها فى المكان المخصص له حتى يتأتى له القيام بما هو مفروض عليه ، اذ خص الله سبحانه وتعالى كل نوع منها بحسب شكله وصلابته بوظيفة يقوم بها ، فجعل الثنايا أى القواطع لتقطيع الوارد عليها ، والأنياب لتمزيقه ، والأضراس لهرسه وطحنه ، ولا تتم جودة المضغ الا بمجموع تلك الأعمال لأن جميع الأسنان تكون معينة بعضها لبعض ومشتركة فى أداء هذه الوظيفة الضرورية لصيرورة الغذاء بحالة مناسبة للدخول فى القناة الهضمية وسهولة هضمه ، واجادة المضغ سنة نبوية أمر بها صلى الله عليه وسلم ، اذ ورد فى الحديث الشريف أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصغر اللقمة ويطيل المضغ .

ومن جملة نعم الله على الانسان ما أبدعه فى كيفية وضع الفكين واتقان تركيبهما ، فترك الفك الأعلى ثابتا لا يتحرك أبدا ، والأسفل يتحرك بكل سهولة ذات اليمين وذات الشمال ومن أعلى الى أسفل وبالعكس حتى بهذه الحركة يتأتى للأسنان الاشتراك فى عمل المضغ . واللسان وقتئذ يكون آلة لتقليب الغذاء داخل الفم حيث يطوف فى جوانبه ويرد الطعام من الوسط الى الأسنان بحسب الحاجة .

فانظر أيها الانسان كيف أنعم الله عليك بهذه الآلات وأودع فيها من الحكم التى لا يقدر قدرها الا مدبر الكائنات ، على أنا نرى

---

(١) الأستاذ المتوكل على الله عابدين خير الله فى كتابه « ارشاد الانسان الى صحة الأبدان » رحمه الله .

بعض الجهلاء يستعملون تلك الآلات فى غير ما خلقت لأجله ، فيكسرون بها الأجسام الصلبة ويرفعون بالقواطع أجساما كالكرسى رفعا رأسيا كما رأيتهم رأى العين ونهيتهم عن ذلك وهم يتفاخرون بذلك بين أمثالهم ولا يدرون عاقبة هذا الفعل الوخيم وما ينجم عنه من المضار كخلل أصولها أو كسر شىء من تيجانها خصوصا أصحاب البنية الضعيفة حيث تكون لثتهم ضعيفة صفراء رخوة أو محمرة مظلمة « أسكروبوطية » والداهية العظمى والطامة الكبرى اذا حصل الكسر فى الأضراس التى جعلها الله سبحانه وتعالى للانسان بمثابة رحى يطحن بها ما يتناوله من الأغذية فيسهل عليه بذلك ازدرادها وهضمها ، فسبحانه ما أشفقه على عبده ، وما أضر الانسان على نفسه بجهله .

ولأجل وقايتها وحفظها طلاها خالقها بطلاء لمـــاع زجاجى صلب هو المينا وله رونق وبهجة ، فان فقدته يبقى جزؤها العظمى عرضة للتلف حيث يصير سهل التفتت سريع السقوط ، فيتأسف الانسان عليها غاية الأسف لأنه ليس له غنى عنها اذ لا يتأتى له بدونها مضغ الطعام تماما الذى هو أول عمل هضمى ، فيقع فى سوء الهضم الذى متى أزمن كان سببا لأمراض شديدة يعسر شفاؤها ، وأخطار عظيمة معدية ومعوية تنهك جسمه وتضعف بدنه وربما لا يتخلص منها الا بالموت ، وكثيرا ما تفتقد العلل الى ما سواها من الأحشاء .. فالحذر الحذر من اهمال استعمال الأسنان فى غير وظيفتها اذ اســـتعمالها ضرورى فى صحة الانســـان .

وليعلم أنه من الأمور التى تكون سببا فى ابتلاء الأسنان بالنوازل والالتهابات اللثوية والآلام العصبية هو كثرة التدخين فانه يؤثر على مينا الأسنان ، ويلونها ويؤثر على اللثة فيضعفها كما يضعف أعصابها .

ومما يضر بالأسنان ضررا عظيما : أكل الحلوى ، فانه اذا بقى شىء بالفم وحول الأسنان تخمر بسرعة ونشأ منه حمض يسمى بحمض اللبنيك وهو من أشد الأسباب فى اتلاف الأسنان وتسوسها .

وكذلك أكل الفواكه التى لم يتم نضجها خصوصا الحامضة منها ، لأنها تضر بالطلاء الواقى لها ، اذ أن تأثير الحوامض عليه شبيه بتأثير عصارة الليمون على قشرة رقيقة من الصدف أو الرخام .

وكذلك استعمال المشروبات الروحيـــة ـــ كالخمر وما كان على شاكلتها ـــ وكذا الشديدة الحرارة كالقهوة ومغلى الكراوية وما أشبهه ،

أو الشديدة البرودة كالمشروبات المثلجة وأكل الدندرمة وما يماثلها • أو ادخال البارد على الحار ، والحار على البارد فان استعمال مثل هذه يؤثر على أصول الأسنان وطلائها لأن فى ذلك من تعاقب طبيعتين مختلفتى الأثر فيورث ذلك تشقق مينا الأسنان لاختلاف درجة الحرارة مرة واحدة فتتلف ويتعرى العاج ويصير معرضا لتأثير الهواء مباشرة ، ومن ذلك كله تتلف الأسنان ولا يدرى صاحبها كيف تلفت •

ومن هنا يعلم تأثير الجو البارد على الأسنان ومقدار ضرره بها ضررا عظيما ، ولذا كان الأوفق عدم التنفس من الفم خصوصا فى أوقات البرد بل ولا فى غيره » •

ثم يقول بعد ذلك باختصار وتصرف :

« وأعظم الوسائط المستعملة فى صيانة الأسنان ، فنقول : يجب أن تغسل الأسنان بعد تناول كل طعام بماء ليس شديد البرودة ولا شديد الحرارة ويستعاض الصابون بقليل من الدقيق ومن ملح الطعام المسحوق جيدا لأن الصابون كثيرا ما يغش بمواد مضرة بالأسنان وان كان لابد من استعماله فيلزم التحقق أولا من جودته ، وثانيا لا يترك شىء منه على الأسنان ويتحقق من ذلك بملامسة الأسنان بالاصبع •

واذا كان عند الانسان استعداد الى تجمع المادة اللزجة التى من شأنها أن تتراكم على اللثة والأسنان يضاف على الماء الفاتر المستعمل لتنظيف الأسنان قليل من الملح » •

الى أن يقول : « ومما يوقف سيرها ويمنع تجمعها ويطهر الأسنان من الجراثيم العفنة ويمنع الرائحة الكريهة من الفم استعمال السواك ، وكفى بالتسويك فضلا ومنفعة ورود الأحاديث النبوية والشهادات الصادقة من المجربين المداومين على استعماله ، فلقد قال صلى الله عليه وسلم ان « السواك مطهرة للفم مرضاة للرب » •• الخ •

وينبغى تخلل الأسنان[1] عقب كل طعام لازالة المواد المتخللة بينها قبل أن تتخمر وتؤثر فيها ويكون ذلك بالخلال أو نحوه لا بشىء صلب لئلا يكسر شيئا من ميناها » •

* * *

(١) بعود الخلة أو نحوه .

فليذكر الأخ المسلم كل هذا ، وليكن حريصا كل الحرص ـــ للأسباب التى وقف عليها ـــ على تنفيذ وصية الرسول صلى الله عليه وسلم .

وحسبه ترغيبا له فى تنفيذها ـــ بالاضافة الى ما وقف عليه فى فضل التسوك من الأحاديث ، وما وقف عليه من اشارات فى هـــذا البحث السابق ـــ : أن يقرأ بعد ذلك بعمق ما قاله الرسول صلى الله عليـــه وسلم فى بقية الوضية : « .. ما جاءنى جبريل الا أوصانى بالسواك حتى لقد خشيت أن يفرض على وعلى أمتى ، ولولا أنى أخاف أن أشق على أمتى لفرضته عليهم ، وانى لأستاك حتى خشيت أن أحفى مقادم فمى » .

ففى هـــذا ترغيب عظيم فى استحباب استعمال السواك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يقول : « من أحيا سنتى فقد أحبنى ، ومن أحبنى كان معى فى الجنة » .

الوصية الخامسة والأربعون

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم ، يقول :

« اذا سمعتم المؤذن ، فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا على ، فانه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا الله لى الوسيلة[1] فانها منزلة فى الجنة لا تنبغى الا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة[2] حلت له الشفاعة » .

(رواه مسلم وابو داوود والترمذى والنسائى)

* * *

فكن أخا الاسلام :

منفذا لهذه الوصية العظيمة التى ترغبنا فى خير كبير كلنا لابد كمؤمنين : أن نعمل على تحقيقه والفوز بثوابه .

وحسبنا — كما قرأنا فى نص الوصية — أن الله تعالى سيصلى علينا — أى يرحمنا — وأننا سنكون ان شاء الله تعالى يوم القيامة بذلك ضمن هؤلاء المؤمنين الذين سيشفع لهم الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه .

حكاية الأذان

واذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد بدأ وصيته بقوله : « اذا سمعتم المؤذن ، فقولوا مثل ما يقول .. » فقد ورد فى هذا :

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « اذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن » رواه البخارى ومسلم .

---

(١) الوسيلة : اسم لما يتوصل به الى المطلوب .. ومنه قوله تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة »** (المائدة : ٣٥) ، يعنى اطلبوا كل ما يقربكم الى الله عز وجل من الأعمال الصالحة .

(٢) فمن سأل لى الوسيلة ، أى سأل الله لى الوسيلة ، كما فى رواية أخرى لأحمد .

وعن عمر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « اذا قال المؤذن : الله أكبر الله أكبر ، فقال أحدكم : الله أكبر الله أكبر ، ثم قال : أشـــهد أن لا اله الا الله • قال : أشـــهد أن لا اله الا الله • ثم قال : أشهد أن محمدا رسول الله • قال : أشهد أن محمدا رسول الله • ثم قال : حى على الصلاة • قال : لا حول ولا قوة الا بالله • ثم قال : حى على الفلاح • قال : لا حول ولا قوة الا بالله • ثم قال : الله أكبر الله أكبر • قال : الله أكبر الله أكبر • ثم قال : لا اله الا الله • قال : لا اله الا الله ، من قلبه دخل الجنة » رواه مسلم وأبو داوود •

قال النووى : قال أصحابنا : « وانما استحب للمتابع أن يقول مثل ما يقول المؤذن فى غير الحيعلتين ، فيدل على رضاه به ، وموافقته على ذلك • أما الحيعلة فدعاء الى الصلاة ، وهذا لا يليق بغير المؤذن ، فاستحب للمتابع ذكر آخر ، فكان لا حول ولا قوة الا بالله ، لأنه تفويض محض الى الله تعالى » • ثم يقول :

وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « لا حول ولا قوة الا بالله كنز من كنوز الجنـــة » • قال أصحابنا : ويستحب متابعته لكل سامع ، من طاهر ، ومحدث ، وجنب ، وحائض ، وكبير ، وصغير ، لأنه ذكر ، وكل هؤلاء من أهل الذكر » انتهى كلام النووى •

ويستثنى من هذا من هو على الخـــلاء[1] ، أو على الجماع ، فاذا فرغ تابعه ، واذا سمعه وهو فى قراءة ، أو ذكر ، أو درس ، أو نحو ذلك ، قطعه وتابع المؤذن ، ثم عاد الى ما كان عليه ان شاء •

وان كان فى صلاة فرض ، أو نفل ، قال الشافعى والأصحاب : لا يتابعه ، فاذا فرغ منها قاله •

وفى كتاب المغنى : « من دخل المسجد ، فسمع المؤذن استحب له انتظاره ليفرغ ويقول مثل ما يقول ، جمعا بين الفضيلتين ، وان لم يقل كقوله ، وافتتح الصلاة فلا بأس » نص عليه أحمد •

وقد روى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أن النبى صلى الله تعـــالى عليـــه وعلى آله وسلم ، قال : « من قال حين يسمع النداء : وأنا أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ،

---

(١) اى من يتبول فى المرحاض أو فى الفضاء . .

رضيت بالله ربا ، وبمحمد رسولا ، وبالاسلام دينا : غفر له » رواه أحمد ومسلم والنسائى وابن ماجه وأبو داوود .

وظاهر هذه الرواية يدل على أنه يقول هذا الذكر حال الأذان عقب سماعه الشهادتين . ويحتمل أنه يقوله بعد تمام الأذان ، اذ لو قال ذلك حال الأذان لفاته اجابة المؤذن فى بعض كلمات الأذان .

* * *

ويستحب كذلك :

حكاية الاقامة

قال فى الدين الخالص ج ٢ تحت هذا العنوان : يستحب اجابة المقيم بأن يقول السامع كما يقول المقيم ، الا فى الحيعلتين فيقول بدلهما : لا حول ولا قوة الا بالله . والا قد قامت الصلاة ، فيقول بدلهما : أقامها الله وأدامها :

لحديث شهر بن حوشب عن أبى أمامة ، أو عن بعض أصحاب النبى صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم أن بلالا أخذ فى الاقامة ، فلما أن قال : قد قامت الصلاة ، قال النبى صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم : « أقامها الله وأدامها » وقال فى سائر الاقامة كنحو حديث عمر فى الأذان .

رواه أبو داوود والبيهقى ، وقال : وهذا ان صح شاهد لما استحسنه الشافعى رحمه الله من قولهم : « اللهم أقمها وأدمها واجعلنا من صالح أهلها عملا » أ هـ . وبهذا قال الحنفيون والشافعية والحنابلة .

وقالت المالكية : الاقامة لا تحكى . والراجح : القول الأول ، للحديث المذكور . وهو وان كان ضعيفا ، لأن فى سنده محمد بن ثابت وهو ضعيف . وشهر بن حوشب وهو مختلف فى عدالته ، فضعفه لا يضر ، فان الضعيف يعمل به فى فضائل الأعمال باتفاق العلماء .

مع ملاحظة كذلك أن تقول عند قول المؤذن فى صلاة الصبح : « الصلاة خير من النوم » : صدقت وبررت[1] . ولك أن تقول كما قال المؤذن ، لحديث عمر السابق ، وهذا أفضل .

---

(١) برر كعلم : أى صدقت فى دعوتك الى الطاعة وصرت بارا أى تقيا . وهذا قاله بعض الفقهاء ولم نقف له على دليل . قال الدميرى : وادعى ابن الرفعة أن خبرا ورد فيه ، ولا يعرف ما قاله أ . هـ .

ومع ملاحظة كذلك أنه من الخير :

الدعاء بين الاذان والاقامة

فعن أنس رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « لا يرد الدعاء بين الأذان والاقامة » رواه أبو داوود والنسائى ، وزاد الترمذى فى روايته : قالوا : ماذا نقول يا رسول الله ؟ قال : « سلوا الله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة » .

وعند عبد الله بن عمرو ، أن رجلاً قال : يا رسول الله .. ان المؤذنين يفضلوننا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل كما يقولون ، فاذا انتهيت فسل تعطه » رواه أحمد وأبو داوود .

ويستحب أن يقال بعد أذان المغرب ، ما ورد عن أم سلمة رضى الله عنها ، قالت : علمنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم عند أذان المغرب : « اللهم ان هذا اقبال ليلك ، وادبار نهارك ، وأصوات دعاتك فاغفر لى » أخرجه أبو داوود والبيهقى والترمذى ، وقال : حديث غريب .

* * *

ثم اذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد قال بعد ذلك فى نص الوصية : « .. ثم صلوا على ، فانه من صلى على صلاة ، صلى الله عليه بها عشرا .. » : فانه بهذا صلوات الله وسلامه عليه يذكرنا بفضل وثواب الصلاة والسلام عليه .

وذلك حتى نكثر من الصلاة والسلام عليه تنفيذا لأمر الله تعالى فى قوله :

« ان الله وملائكته يصلون على النبى ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما »[1] .

فالمقصود من هذه الآية — كما يقول ابن كثير — : أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده فى الملأ الأعلى ، بأنه يثنى عليه عند الملائكة المقربين ، وأن الملائكة تصلى عليه ، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه[2] ، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوى والسفلى جميعا .

---

(١) الأحزاب : ٥٦

(٢) الصلاة من الله رحمة ، ومن الملائكة استغفار ومن المؤمنين دعاء .

والى هذا يشير الامام محمود خطاب السبكى رحمه الله تعالى ، مذكرا ومرغبا فى الصلاة والسلام على هذا النبى العظيم الذى كان على خلق عظيم :

طـه الذى عـم الآنـام بفضـله
سـاد النبيين الأولى من قبـله
هو صـفوة البارى وخاتـم رسـله
يـا أيهـا المستمسـكون بحبـله
ان تبتغـوا أجـرا يكـون جزيـلا
صـلوا عليـه بكـرة وأصـيلا

* * *

الله أدنـاه اليـه وقـربا
فعـلا مقاما لـم ينـله أولو النبـا
ولـه يقـول ابشر فأنت المجـتبى
أهـلا وسـهلا بالحبيب ومرحبـا
أنت الـذى تسـتوجب التفضـيلا
صـلوا عليـه بكـرة وأصـيلا

* * *

ملأت نبـوته الوجـود وأظهـرا
بحسـامه الدين الصـحيح فأسـفرا
واسـتبشرت فرحا ببعثتـه الـورى
ومحـا الضـلال كما بذلك خبـرا
نص الكتـاب مفصـلا تفصـيلا
صـلوا عليـه بكـرة وأصـيلا

* * *

والسـحب لا تحكى عطـاياه فمـا
أنـداه بحـرا بالسـخاء وأكـرما
أنعـم بمن أسـنى الكمال لـه انتمى
مـولاه قـد صـلى عليـه وسـلما
من لـم يصـل عليـه كان بخيـلا
صـلوا عليـه بكـرة وأصـيلا

* * *

كما يقول رحمه الله تعالى :

صلوا على من بدت فينا بشائره
الهاشمى الذى طابت عناصره
هو النبى الذى شاعت رسالته
فى الخلق طرا[1] وقد عمت مآثره
هو الرسول الذى تسعى الملوك له
على الرؤوس فتأتيهم مفاخره
هذا الطبيب لهذا الناس كلهم
يشفى العليل وللمكسور جابره
صلى عليه اله العرش ما طلعت
شمس وما ناح فوق الغصن طائره

* * *

وحسبنا ترغيبا لنا فى الاكثار من الصلاة والسلام على الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أن نقرأ كذلك هذه الأحاديث الشريفة :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا » رواه مسلم .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم على صلاة » رواه الترمذى وقال حديث حسن .

وعن أوس بن أوس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان من أفضل أيامكم يوم الجمعة فأكثروا على من الصلاة فيه ، فان صلاتكم معروضة على . قالوا : يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ — قال : يقول بليت — قال : ان الله حرم على الأرض أجساد الأنبياء » رواه أبو داوود باسناد صحيح .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على » رواه الترمذى وقال حديث حسن .

---

(١) اى جمعا .

وعنه رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تجعلوا قبرى عيدا وصلوا على فان صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » رواه أبو داوود باسناد صحيح .

وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ما من أحد يسلم على إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه السلام » رواه أبو داوود باسناد صحيح .

وعن على كرم الله وجهه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « البخيل من ذكرت عنده فلم يصل على » رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

وعن فضالة بن عبيد الله رضى الله عنه ، قال : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو فى صلاته لم يمجد الله تعالى ولم يصل على النبى صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عجل هذا » ثم دعاه ، فقال له أو لغيره : « اذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه سبحانه والثناء عليه ، ثم يصلى على النبى — صلى الله عليه وسلم — ثم يدعو بعد بما شاء » رواه أبو داوود والترمذى وقال حديث صحيح .

هذا .. واذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أوصانا فى الوصية بعد الأذان بأن نصلى عليه ، فانه من الأفضل أن تكون صلاتنا عليه بالوارد عنه صلوات الله وسلامه عليه .

فعن أبى محمد كعب بن عجرة رضى الله عنه ، قال : خرج علينا النبى صلى الله عليه وسلم ، فقلنا : يا رسول الله .. قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلى عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل ابراهيم انك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل ابراهيم انك حميد مجيد » متفق عليه .

وعن ابن مسعود البدرى رضى الله عنه ، قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى مجلس سعد بن عبادة رضى الله عنه فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلى عليك يا رسول الله ، فكيف نصلى عليك ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم ، وبارك على محمد

وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم انك حميد مجيد . والسلام كما قد علمتم » رواه مسلم .

وعن أبى حميد الساعدى رضى الله عنه قال : قالوا : يا رسول الله .. كيف نصلى عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته كما صليت على ابراهيم ، وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على ابراهيم انك حميد مجيد » متفق عليه .

* * *

وقد أشار الشيخ على محفوظ رحمه الله تعالى فى كتابه « الابداع فى مضار الابتداع » الى البدع المتعلقة بالجهر بالصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الأذان فقال :

ومن البدع المختلف فى حسنها وذمها الصلاة والسلام على النبى عقب الأذان جهرا .. وكان ابتداء حدوث ذلك فى أيام السلطان الناصر صلاح الدين بن أيوب وبأمره فى مصر وأعمالها لسبب مذكور فى كتب التاريخ .. ثم يقول : ونقول : لا كلام فى أن الصلاة والسلام على النبى صلى الله عليه وسلم عقب الأذان مطلوبان شرعا لورود الأحاديث الصحيحة بطلبها من كل من سمع الأذان لا فرق بين مؤذن وغيره ، كما فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم ، يقول : « اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا على فان من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا » .. الحديث . لكن لا مع الجهر ، بل بأن يسمع نفسه أو من كان قريبا منه ، انما الخلاف فى الجهر بهما على الكيفية المعروفة والصواب أنها بدعة مذمومة بهذه الكيفية التى جرت بها عادة المؤذنين من رفع الصوت بها كالأذان والتمطيط والتغنى فان ذلك احداث شعار دينى على خلاف ما عهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والسلف الصالح من أئمة المسلمين وليس لأحد بعدهم ذلك ، فان العبادة مقصورة على الوارد عنه صلى الله عليه وسلم باجماع الأئمة ، فلا تثبت باستحسان أحد من غير هؤلاء ولا باحداث سلطان عادل أو جائر .

قال فى المدخل : عطس رجل بجانب سيدنا عبد الله بن سيدنا عمر ، فقال : الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله . فقال سيدنا عبد الله : الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ؟ ما هكذا علمنا رسول الله أن نقول اذا عطسنا ، بل علمنا أن نقول : الحمد لله رب العالمين . انتهى .

فهذا الصحابى الكبير أنكر على من صلى وسلم على النبى صلى الله عليه وسلم عقب العطاس لعدم وروده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم قال العلامة ابن حجر فى فتاويه الكبرى : من صلى على النبى صلى الله عليه وسلم قبل الأذان أو قال : محمد رسول الله بعده معتقدا بسنيته فى ذلك المحل ينهى ويمنع منه لأنه تشريع بغير دليل ، ومن شرع بغير دليل يزجر ويمنع • انتهى • وهذا العلامة ابن حجر حكم على من صلى على النبى صلى الله عليه وسلم قبل الأذان أو قال محمد رسول الله بعده بأنه شرع فى دين الله تعالى وأنه يمنع من ذلك ويزجر ، وما ذاك الا لقبح ما فعل ، وأن الوقوف عند ما ورد به الشرع أولى •

ثم يقول فى الابداع : وبهذا ظهر لك ما يقع من كثير من المؤذنين عقب أذان الفجر من قولهم : ورضى الله تبارك وتعالى عنك يا شيخ العرب ونحو ذلك من الألفاظ — بأعلى صوت — وأنها بدعة مذمومة لم تعرف من طريق مشروع •

فلنكن ان شاء الله تعالى من أهل الاتباع لا من أهل الابتداع ، وحسبنا أن نعمل بشرع الرسول صلى الله عليه وسلم الذى تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها :

شرع النبى سره جليل شرع النبى نوره جميل
شرع النبى فضله جزيل شرع النبى ما له مثيل
شرع النبى أتى به جبريل
شرع النبى صاحب الأنوار شرع النبى صفوة الغفار
شرع النبى سيد الأخيار شرع النبى مهبط الأسرار
شرع النبى بالهدى كفيل
شرع النبى يبرىء السقيما شرع النبى يرأب[1] الكليما[2]
شرع النبى يكرم الكريما شرع النبى يضع اللئيما
شرع النبى للعلا سبيل
دين الرسول منهج شريف دين الرسول منهج حنيف
دين الرسول قدره منيف دين الرسول للتقى أليف
دين الرسول مجده أثيل[3]

---

(١) يرأب : أى يصلح . (٢) الكليم : أى الجريح .
(٣) أثيل : كعظيم وزنا ومعنى .

سن الحبيب سنة جليلة سن الحبيب سنة جميلة
سن الحبيب سنة فضيلة سن الحبيب سنة أصيلة
سن الحبيب ما الهدى ينيل
سن الحبيب ما بدا ضياء سن الحبيب ما بدا شفاء
سن الحبيب ما غدا بهاء سن الحبيب ما غدا علاء
فكل شهم نحو يميل
فيحظ بالخيرات شخص سلكا طريق من قلوبنا قد ملكا
وليدخل النيران من تهتكا ما دام أن لم يرضها منتسكا
شرابه وزاده التنكيل[1]

* * *

وأما عن :

الوسيلة

التى يوصينا الرسول صلى الله عليه وسلم بأن نسألها له من الله تبارك وتعالى ، فالمراد بها هنا — فى نص الوصية — : أعلى منزلة فى الجنة ، وقد ورد فى هذا فى حديث جابر :

أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته ، حلت له شفاعتى يوم القيامة » أخرجه أحمد والبخارى وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

والدعوة ، بفتح الدال : المراد بها الأذان ، سمى بذلك لاشتماله على كلمة التوحيد والدعوة الى الصلاة .

والتامة : أى التى لا يدخلها تغيير ولا تبديل الى يوم القيامة .

والوسيلة : ما يتوصل به الى الشىء ويتقرب به . وهى فى الحديث — كما عرفنا — أعلى منزلة فى الجنة .

والفضيلة : المرتبة الزائدة على سائر مراتب الخلق ، ويحتمل أن تكون مرادفة للوسيلة أو مغايرة لها .

وقوله : « مقاما محمودا » بالتنكير ، وفى رواية : « المقام

---

(١) من قصيدة للامام محمود خطاب السبكى رحمه الله من كتابه « المقامات العلية » .

المحمود » بالتعريف : أى الذى يحمده عليه الأولون والآخرون ، وهو مقام الشفاعة فى فصل القضاء المشار اليه بقوله تعالى : « **عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا** »[١] ، والحكمة فى سؤال ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم مع تحقق وقوعه : اظهار شرفه صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ، وبيان عظم منزلته صلى الله عليه وسلم .

وحسبنا أن نقف على هذا من خلال قول الله تبارك وتعالى لأصحابه عليهم جميعا رضوان الله :

« **لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا** »[٢] :

أى اذا أردتم مخاطبته لا تقولوا له يا محمد — مجردة هكذا — ولكن قولوا له : يا نبى الله ، يا رسول الله .. مع أنهم فى الأمم السابقة كانوا يخاطبون أنبياءهم بأسمائهم ولم ينهوا عن ذلك كما يشير قوله تعالى :

« **يا نوح قد جادلتنا** »[٣] .

« **يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين** »[٤] .

« **قالوا يا هود ما جئتنا ببينة** »[٥] .

« **قال أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم ، لئن لم تنته لأرجمنك** »[٦] .

« **اذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء** »[٧] .

ومن خلال هذين الحديثين الشريفين :

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر . وما من نبى يومئذ : آدم فمن سواه الا تحت لوائى ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ، وأنا أول شافع وأول مشفع » أخرجه أحمد وابن ماجه والترمذى ، وقال : حسن صحيح .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقد سمع ناسا من أصحابه يتذاكرون فى تفاضل الأنبياء ، فقال : « قد سمعت كلامكم وعجبكم . ان ابراهيم خليل الله وهو كذلك ،

---

(١) الاسراء : ٧٩
(٢) النور : ٦٣
(٣) هود : ٣٢
(٤) الأعراف : ٧٧
(٥) هود : ٥٣
(٦) مريم : ٤٦
(٧) المائدة : ١١٢

وموسى نجى الله وهو كذلك ، وعيسى روح الله وكلمته وهو كذلك ، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك . ألا وأنا حبيب الله ولا فخر[١] ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حلق الجنة ، فيفتح الله لى فيدخلنيها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر » أخرجه

أفضل خلق الله على الاطلاق :

فمن هـذا نعلم أن النبى محمدا صلوات الله وسلامه عليـه هو أفضل خلق الله على الاطلاق :

وأفضل الخلق بعد نبينا صلى الله عليه وآله وسلم : سيدنا ابراهيم ، ثم سيدنا موسى ، ثم سيدنا عيسى ، ثم سيدنا نوح ، ثم سيدنا آدم أبو البشر ، ثم باقى الرسل على تفاضل بينهم ، ثم سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ثم رؤساء الملائكة كجبريل واسرافيل ، ثم رؤساء الأمة المحمدية : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على — عليهم جميعا رضوان الله — ثم باقى العشرة — أى المبشرين بالجنـة ، وهم[٢] : طلحة ، والزبير ، وسعد بن أبى وقاص ، وسعيد بن زيد ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وأبو عبيدة بن الجراح . عليهم رضوان الله وقد ورد هـذا فى حديث أحمد والترمذى وابن حبان وغيرهم أنه صلى الله عليه وسلم ، قال : « أبو بكر فى الجنة ، وعمر فى الجنة ، وعثمان فى الجنة ، وعلى فى الجنة ، وطلحة فى الجنة ، والزبير فى الجنة ، وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة ، وسعد بن أبى وقاص فى الجنة ، وسعيد بن زيد فى الجنة ، وأبو عبيدة بن الجراح فى الجنة » — ثم أهل بدر ، ثم أهل أحـد ، ثم أهل بيعة الوضوان ، ثم عامة الملائكة أه . من الدين الخالص . بتصرف واضافات .

الله زاد محمـــــدا تكريـما وحباه فضلا من لدنـه عظيما
واختصه فى المرسلين كريمـا ذا رأفـة بالمؤمنين رحيمـا
صلوا عليـه وسلموا تسليما
جلت معانى الهاشمى المرسـل وتجلت الأنوار منـه لمجتـلى
وسما به قدر الفخار المعتـلى فاحتل فى أفق السماء مقيـما
صلوا عليـه وسلموا تسليما

---

(١) أى : ولا فخر فى هذا لأنه حقيقة .

(٢) بالاضافة الى الخلفاء الراشدين الأربعة السابق ذكرهم .

حاز المحامد والمدائح أحمـد وزكت منابته وطاب المحتد[١]
وتأثلت[٢] عليـاؤه والسؤدد مجـدا صميما حادثا وقـديما
صلوا عليـه وسلموا تسليما
شمس الهداية بدرها الملتاح[٣] قطب الجلالة نورها الوضـاح
غيث السـماحة للذى يرتاح يروى بكوثره الظماء الهيما[٤]
صلوا عليـه وسلموا تسليما
تـاج النبـوة مظهـر السراء عـز الأنـام ومركز العليـاء
نجـل الذبيح سـلالة الكرماء بشرى المسيح دعاء ابراهيما[٥]
صلوا عليـه وسلموا تسليما
أوصاف سيدنا النبى الهـادى ما نالهـا أحـد من الأمجـاد
فالرسل فى هدى وفى ارشـاد قـد سـلموا لنبينا تسـليما
صلوا عليـه وسلموا تسليما
آياته بهرت سـنا وسـناء[٦] وأفادت القمرين منه ضـياء[٧]
فمحـا بنور رشـاده الظلماء وهدى به الله الصراط قويمـا
صلوا عليـه وسلموا تسليما

ولهذا كان من الخير لنا : أن نسأل الله تعالى له ــ صلوات الله وسلامه عليـه ــ الوسيلة التى لا تنبغى الا له صلوات الله وسـلامه عليـه ــ بلا منازع ــ حتى نفوز بشفاعته ، كما يشير قوله صلوات الله وسلامه عليه فى آخر الوصية : « فمن سأل الله لى الوسيلة حلت له الشفاعة »[٨] ، أى : وجبت له شفاعة النبى صلى الله عليـه وعلى آله وسلم ، واستحقها يوم القيامة ، وهى تختلف باختلاف المقامات .

---

(١) المحتد بفتح فسكون فكسر : الأصل والطبع .
(٢) تأثلت : أى تأصلت .
(٣) الملتاح : أى اللامع الواضح .
(٤) الهيم بكسر فسكون : أى العطاش .
(٥) أى أنه صلى الله عليه وسلم : « دعوة ابراهيم وبشرى عيسى » عليهما السلام كما جاء فى نص حديث أخرجه أحمد بسند حسن وله شواهد تقويـه .
(٦) « آياته » : أى معجزاته ، « بهرت » : أى أظهرت حتى غلب ظهورها ، « سنا » بالقصر : أى ضوء القمر ، « وسناء » بالمد : أى رفعته .
(٧) « القمران » : أى الشمس والقمر .
(٨) الشفاعة : طلب الخير للغير .

هذا .. ويطلب كذلك ممن سمع الاقامة أن يقول : « اللهم رب هذه الدعوة التامة والصـــلاة القائمة : صل على محمد وآته سؤله يوم القيـــامة » .

فقد كان أبو هريرة رضى الله عنه يقوله اذا سمع المؤذن يقيم . أخرجه ابن السنى . وهو فى حكم المرفوع لأنه يقال من قبل الرأى .

* * *

هذا .. واذا كنا قد وقفنا على موضوع الوسيلة ، وعرفنا أن معناها بالنسبة للوصية هو أعلى منزلة فى الجنة ، وأن معناها العام ، هو : ما يتوصل به الى الشىء ويتقرب به :

فاننى أحب كذلك واتماما للفائدة : أن أذكرك بموضوع :

التوسل بالصالحين

أشار اليه صاحب كتاب « الابداع فى مضار الابتداع »[1] ضمن حديثه عن آداب زيارة القبور .. حيث يقول رحمه الله :

« ومن البدع : اهمال آداب الزيارة ، فمن ذلك التسليم على صاحب القبر ، بما كان يعلمه النبى صلى الله عليه وسلم للصحابة اذا خرجوا لزيارة القبور ، بأن يقولوا : الســـلام عليكم يا أهل الديار من المسلمين والمؤمنين وانا ان شاء الله بكم لاحقون نسأل الله لنـــا ولكم العافية » ، ثم يدنو من الميت دنوه منه حيا عند زيارته ولا يستلم القبر ولا يقبله ، ثم يقوم فى قبلة الميت ويستقبله بوجهه عند السلام عليـــه ، وعند الدعاء له يستقبل القبلة ، وهو مخير فى أن يقوم فى ناحية رجليه الى رأسه أو اقبالة وجهـــه ، ثم يثنى على الله تعالى بما حضره من الثناء ، ثم يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم يدعو للميت بما أمكنه وبالمـــأثور أحب ، وأن يجتهد فى الدعاء له فانه أحوج الناس اليه لانقطاع عمله » .

ثم يقول : « هذا هو المـــأثور عنه صلى الله عليه وسلم فى زيارته لأهل البقيع ، وكذلك يدعو الله عند هذه القبور فى نازلة نزلت به أو بالمسلمين ويتضرع الى الله تعالى فى زوالها وكشفها عنه وعنهم ، وهذه

---

(١) وهو الشيخ على محفوظ رحمه الله .. وهذا الكتاب طبق ما قرره المجلس الأعلى من مناهج التعليم فى السنة الأولى والثانية لقسم الوعظ والخطابة بالأزهر الشريف من عام ١٣٤٤ هـ .

صفة زيارة القبور عموما ، فان كان المزور ممن ترجى بركته ، فسيأتى الكلام عليه فى مقام التوسل » .

ثم يقول : خاتمة : يتصل بهذا المطلوب ثلاث مسائل ينبغى للمريد أن يكون فيها على بصيرة .

المسألة الأولى : الرحلة لزيارة مشاهد الخير وقبور الصالحين من الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء ، حرمها قوم منهم الجوينى امام الحرمين ، والقاضى حسين من الشافعية ، والقاضى عياض من المالكية ، وشيخ الاسلام ابن تيمية من الحنابلة ، واستدلوا بما فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وأبى سعيد قال صلى الله عليه وسلم : « لا تشد الرحال الا لثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصا » ، وبأن زيارة الأولياء بدعة لم تكن فى زمن السلف ، وبأن الرحلة الى الزيارة تؤدى لارتكاب كثير من المحظورات كاختلاط الرجال بالنساء وحضور أمكنة اللهو التى تقام عادة عند الولى المعتاد الرحلة اليه وسماع الغناء الممنوع سماعه .

وأجازها قوم منهم الامام الغزالى لقوله صلى الله عليه وسلم : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجرا »[1] وأجابوا عن أدلة المانعين بما لا ينهض — ومن علم المنكرات آلتى ترتكب فى موالد الأولياء لا يشك فى المنع . وحيث كان الزائر عاجزا عن تغيير المنكر فالأولى بل الواجب عليه ألا يزور فى زمن تلك المفاسد .

المسألة الثانية : الاستغاثة بالمخلوق ، وكذا الاستعانة به ، ان كان ذلك فيما يقدر عليه نحو الحيلولة بينه وبين عدوه ودفع الصائل عنه من لص أو سبع . وكأن يحمل معه متاعه أو يعلف دابته ، فلا ريب فى جوازهما اذا كان ذلك مع اعتقاد أن لا مغيث ولا معين على الاطلاق الا الله تعالى . واذا حصل شىء من ذلك على يد غيره فالحقيقة له سبحانه — أما ما لا يقدر عليه الا الله تعالى فلا يستغاث فيه الا به كغفران الذنوب ، والهداية ، وانزال المطر والرزق ، كما قال تعالى : **«ومن يغفر الذنوب الا الله»**[2] .

---

(١) اخرجه الشافعى واحمد ، واخرجه الحاكم بلفظ : « نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فان فيها عبرة » وقال : حديث صحيح على شرط مسلم .

(٢) آل عمران : ١٣٥

وقال : « **انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء** »[١] والاستغاثة طلب الغوث وهو ازالة الشدة كالاستنصار وطلب النصرة فلا يكون الا عند الشدائد بخلاف الاستعانة فانها طلب المعونة فى شدة أو غيرها • ومن هذا القبيل قوله تعالى : « •• **فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه** »[٢] •

وقوله : « •• **وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر** »[٣] •

وقوله تعالى : « •• **وتعاونوا على البر والتقوى** »[٤] •

المسألة الثالثة : الاستشفاع وهو طلب الشفاعة من الغير بمعنى سؤال فعل الخير وترك الضر عن غير السائل الشفيع لأجل الغير على سبيل الضراعة ، فلا نزاع فيه لأحد من المسلمين الا الشفاعة من الكبائر عند المعتزلة : فانه ثبت بالسنة المتواترة واجماع الأمة أن نبينا صلى الله عليه وسلم هو الشافع المشفع • وأنه يشفع للخلائق يوم القيامة • وأن الناس يستشفعون به ويطلبون منه أن يشفع لهم الى ربه ، قال صلى الله عليه وسلم : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر • وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى • وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل • وأعطيت الشفاعة ، وكل نبى بعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة » متفق عليه من حديث جابر •

وفى سنن أبى داوود أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم : انا نستشفع بالله عليك ، ونستشفع بك على الله ، فقال : « شأن الله أعظم من ذلك أنه لا يستشفع به على أحد من خلقه » ، فأقره على قوله : نستشفع بك على الله ، وأنكر عليه قوله : نستشفع بالله عليك •

وأما التوسل الى الله سبحانه وتعالى بأحد من خلقه فى مطلب يطلبه العبد من ربه ، فأجازه بعضهم اذا كان بمعنى الشفاعة كما ذكره عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما قال : « كنا اذا أجدبنا نتوسل بنبينا اليك فتسقينا ، وانا نتوسل اليك بعم نبينا » فلا يخفى أن توسلهم به هو استسقاؤهم بحيث يدعو ويدعون معه فهو شفيع لهم •

وأجازه بعضهم وان لم يكن بمعنى الشفاعة ، بل بمعنى التوصل

---

(١) القصص : ٥٦ (٢) القصص : ١٥
(٣) الأنفال : ٧٢ (٤) المائدة : ٢

بجاه الوسيلة نحو القسم على الله بنبيه صلى الله عليه وسلم فيكون فى حياته وبعد موته وفى حضرته ومغيبه ، الا أن الشيخ ابن عبد السلام خصه به صلى الله عليه وسلم ، للحديث الصحيح أن أعمى أتى للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله .. انى أصبت فى بصرى فادع الله لى . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « توضأ وصل ركعتين ثم قل : اللهم انى أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد .. يا محمد انى أستشفع بك فى رد بصرى ، اللهم شفع النبى فى ، وقال : فان كان لك حاجة فمثل ذلك . فرد الله بصره » أخرجه النسائى والترمذى وصححه وابن ماجه وغيرهم .

والمختار عدم اختصاص التوسل بهذا المعنى به صلى الله عليه وسلم ، فان التوسل الى الله بأهل الفضل والعلم هو فى التحقيق توسل بأعمالهم الصالحة ومزاياهم الفاضلة اذ لا يكون الفاضل فاضلا الا بأعماله ، وقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم حكى عن الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة أن كل واحد منهم توسل الى الله تعالى بأعظم عمل عمله فارتفعت الصخرة .

فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت الى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا : انه لا ينجيكم من هذه الصخرة الا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم .

قال رجل منهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق[1] قبلهما أهلا ولا مالا ، فنأى بى طلب الشجر يوما فلم أرح[2] عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلا أو مالا ، فلبثت والقدح على يدى أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون[3] عند قدمى فاستيقظا فشربا غبوقهما . اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج منه .

---

(١) بفتح فسكون فكسر ، اى : ما كنت أقدم عليهما فى شرب نصيبهما من اللبن أقارب ولا رفيقا ـــ والغبوق كصبور : ما يشرب بالعشى .

(٢) بضم الهمزة وكسر الراء : اى أرجع من أراح رباعيا .

(٣) اى يضجون من الجوع .

قال الآخر : اللهم انه كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس الى ، وفى رواية : كنت أحبها كأشد ما يحب الرجل النساء ، فأردتها على نفسها[١] فامتنعت منى حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها[٢] ، ففعلت حتى اذا قدرت عليها ، وفى رواية : فلما قعدت بين رجليها ، قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم الا بحقه ، فانصرفت عنها وهى أحب الناس الى وتركت الذهب الذى أعطيتها ، اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج .

وقال الثالث : اللهم استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب ، فثمرت أجره[٣] حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد حين ، فقال : يا عبد الله أد الى أجرى ، فقلت : كل ما ترى من أجرك من الابل والبقر والغنم والرقيق . فقال : يا عبد الله لا تستهزىء بى ، فقلت لا أستهزىء بك ، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا . اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون »[٤] متفق عليه .

ثم يقول بعد ذلك : فلو كان التوسل بالأعمال غير جائز لما سكت النبى صلى الله عليه وسلم عن انكار ما فعلوه بعد حكايته عنهم .

ومن هذا تعلم أن المقصود فى كل ذلك هو الله عز وجل وغيره شفيع فقط اذا أذن له الله ، وقد يغفل عن هذا العوام ، فتراهم اذا نزل بهم أمر خطير وخطب جسيم فى بر أو بحر تركوا دعاء الله تعالى

---

(١) أى أراد أن يفعل بها الفاحشة .

(٢) أى على أن تمكننى من نفسها .

(٣) أى استثمرته له فى البيع والشراء وما الى ذلك .

(٤) وقد علق الشيخ محمد منير الدمشقى على هذا ، فقال : أقول : استدل المؤلف حفظه الله بهذا الحديث على جواز التوسل بأعمال الغير الصالحة كما ذهب اليه الشوكانى فى كتابه « الدر النضيد فى اخلاص كلمة التوحيد » وليس كذلك ، فان الحديث يدل على جواز التوسل بعمل الرجل نفسه الصالح لا بعمل غيره ، وليس فى الحديث تعرض لعمل الغير ، وقد رددنا على الشوكانى فى تعليقنا على كتاب الدر النضيد ، فراجعه انتهى . ادارة الطباعة المنيرية . . فلاحظ هذا التعليق الموضوعى .

ودعوا غيره فينادون بعض الأوليـــاء كسيدى أحمد البدوى وسيدى ابراهيم الدسوقى والسيدة زينب رضى الله عنهم ، ولا تسمع منهم احدا يخص مولاه بتضرع ودعاء ، وقد لا يخطر له على بال أنه لو دعا الله وحده ينجو من تلك الشدائد .

ولا ريب أن السبب الأعظم الذى نشأ عنه هـــذا الاعتقاد وهـــذه الغفلة هو ما زينه الشيطان للناس من رفع القبور وبناء القباب وصنع المقاصير وعمل التوابيت ووضع الستور عليها وتزيينها بأبلغ زينـــه وتحسينها على أكمل وجـــه ، فان الجاهل اذا وقعت عينه على قبر من القبور قد بنيت عليه قبة ، فدخلها ونظر على القبور الستور الرائعة ، والسرج المتلألئة وقد صعدت حولها مجامير الطيب : فلا ريب أنه يمتلىء قلبه تعظيما لصاحب هـــذا القبر ويضيق ذهنه عن تصور ما لهـــذا الولى من المنزلة ويدخله من الروع والمهابة له ما يغرس فى قلبه من العقائد الوهمية التى هى من أعظم مكايد الشيطان للمسلمين وأشد وسائله الى اضلال العباد ما يزلزله عن الاسلام قليلا قليلا حتى يطلب من صاحب هـــذا القبر ما لا يقدر عليه الا الله تعالى وهذا عين الضلال » .

ثم يقول : « وقد يجعل الشيطان طائفة من بنى آدم — شياطين الانس — يقفون على ذلك القبر يخدعون من يأتى اليه من الزائرين يهولون عليهم الأمر ويصنعون أمورا من أنفسهم وينسبونها الى صاحب الضريح على وجه يخفى على البسطاء .

وقد يختلقون من حكايات الكرامات له ما الله أعلم به ويبثونها فى الناس ويكررونها فى مجالسهم فتشيع وتستفيض ويتلقاها بقلب سليم من يحسن الظن بأصحاب الأضرحة ويقبل عقله ما يروى عنهم من الأكاذيب فيرويها كما سمعها ويتحدث بها فى مجالسه فيقع البسطاء فى بليـــة عظيمة من الاعتقاد ويزعم كثير من قصار النظر أن الأوليـــاء يتصرفون بعد وفاتهم بنحو شفاء المريض وانقاذ الغريق والنصر على الأعداء ورد الضائع وغير ذلك مما يكون فى عالم الكون والفساد على معنى أن الله تعالى فوض اليهم ذلك وتراهم لهذا يرفعون اليهم شكواهم فى عرائض مكتوبة يضعونها فى الأضرحة ، وربما كان صاحب هـــذا الضريح فى حال حياته لا يستطيع الأخذ بناصر المظلوم ، ولكن الناس بعد الممات يجعلون له التصرف فى الملك والملكوت . وقد قال عيسى

عليه السلام : « ٠٠ **وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد** »[١] ٠

هذا ٠٠ مع ملاحظة أننا لا ننكر الكرامة لأنها من قبيل الجائز عقلا ، وقد وقعت لأناس من الصالحين ونطق بوقوعها الكتاب العزيز — فى شأن الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ، ومريم ، وأصحاب الكهف ، والذى عنده علم من الكتاب ٠ وثبت أيضا بالآثار الصحيحة لبعض الصحابة والتابعين والسلف الصالح من بعدهم رحم الله الجميع ٠

وأثبتن للأولياء الكرامة
ومن نفاها فانبذن كلامه

ونحن المؤمنين نحب الصالحين ونسأل الله تعالى دائما وأبدا أن ينفعنا بهم ويحشرنا معهم ، لأنهم : « ٠٠ **أولياء الله** » الذين « ٠٠ **لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ٠ الذين آمنوا وكانوا يتقون** »[٢] ٠

ولكننا فى نفس الوقت نحبهم حبا ايجابيا لا سلبيا ، بمعنى أننا نتخلق بأخلاقهم ونتأدب بآدابهم ونسير على نهجهم حتى نكون أهلا للانتساب اليهم ، وحتى نحشر معهم وفى زمرتهم ان شاء الله تعالى ٠

انا وان كرمت أوائلنا لسنا على الأحساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

* * *

فليذكر الأخ المسلم كل هذا ، ولتكن وسيلته دائما وأبدا الى الله تعالى ، هى عمله الصالح ، كما يشير قول الله تعالى : « **يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون** »[٣] ٠

وذلك لأن العمل الصالح هو السبيل الى فلاحك ونجاحك فى الدنيا والآخرة كما يشير قول الله تعالى :

« **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** »[٤] ٠

* * *

---

(١) المائدة : ١١٧ (٢) يونس : ٦٢ ، ٦٣
(٣) المائدة : ٣٥ (٤) النحل : ٩٧

ولا تنس فى النهاية الوصية الجامعة التى قال فيها الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم لكل فرد مؤمن من أفراد أمته الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فى شخص عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما[1] :

« احفظ الله يحفظ ، احفظ الله تجده تجاهك ، اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك الا بشىء قد كتبه الله لك ، وان اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك الا بشىء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف » رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح ، وفى رواية غير الترمذى : « احفظ الله تجده أمامك ، تعرف الى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا » .

* * *

مع ملاحظة أن معنى :

« احفظ الله » أى احفظ أوامره التى أوجبها ، ونواهيه التى حرمها فتقف عند أوامره بالامتثال ، وعند نواهيه بالاجتناب فلا يراك حيث نهاك : « يحفظك » فى دنياك ودينك ونفسك وأهلك .

و « تجاهك » بضم التاء وفتح الهاء : أى أمامك ، أى تجده معك بالحفظ والاحاطة والتأييد والاعانة . وخص الأمام من بين الجهات الست اشعارا بشرف المقصد ، وبأن الانسان مسافر الى الآخرة غير مقيم فى الدنيا ، والمسافر انما يطلب أمامه لا غير .

« فاسأل الله » يعطك ما سألت فهو أحق أن يقصد ، فان خزائن الجود بيده وأزمتها اليه . وكذلك لا تنسى المعنى المراد من قوله صلى الله عليه وسلم :

« فاستعن بالله » : أى اطلب المعونة فى تحصيل المؤونة الدنيوية والأخروية من الله اذ لا معين سواه والأسباب العادية هو الذى سببها فلا تعتمد بقلبك الا على الذى خلقها وسخرها .

---

(١) وقد كان خلف النبى صلى الله عليه وسلم اى على بغلته كما جاء فى نص الحديث .

وتذكر دائما وأبدا قول القائل :

اذا لم يكن عـــون من الله للفـــتى
فاول ما يجنى عليـــه اجتهـــــاده

وقول الآخـــر :

واذا العنـــاية لاحظتـــــك عيـــونها
نـــم فالمخـــاوف كلهـــن أمـــــان

* * *

وليكن دعاءك دائما وأبدا ولا سيما عقب كل صلاة[1] ، هو :

« اللهم أعنى على ذكرك ، وشكرك ، وحسن عبادتك »[2] آمين .

* * *

(١) أى فى ختام الصلاة .
(٢) رواه أبو داوود والنسائى باسناد صحيح .

الجزء الرابع عشر

الوصية السادسة والأربعون

عن أبى قرصافة[1] أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم ، يقول :

« ابنوا المساجد ، وأخرجوا القمامة منها ، فمن بنى لله مسجدا ، بنى الله له بيتا فى الجنة ، فقال رجل : يا رسول الله .. وهذه المساجد التى تبنى فى الطريق ؟ قال : نعم .. واخراج القمامة منها مهور الحور العين »[2].

(رواه الطبرانى فى الكبير)

* * *

فكن أخا الاسلام :

من المنفذين لما أوصاك به الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذه الوصية العظيمة .

وحسبك ترغيبا لك أولا فى :

فضل بناء المساجد
فى الأمكنة المحتاجة اليها

أن تقرأ معى بفهم هذه الأحاديث الواردة :

عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه قال عند قول الناس فيه[3] حين بنى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم : انكم أكثرتم

---

(١) اسم أبى قرصافة بكسر القاف : جندرة بن خيشنة .

(٢) الحور العين : الحور جمع حوراء ، وهى الشديدة بياض العين والشديدة سوادها ، والعين جمع عيناء ، وهى الواسعة العينين .

(٣) أى حين أنكروا عليه ما أحدثه فى المسجد من توسيعه وتجصيصه وسقفه بخشب الساج .

على[١] وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من بنى مسجدا يبتغى به وجه الله[٢] بنى الله له بيتا فى الجنة ، وفى رواية : بنى الله له مثله فى الجنة » رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

وعن أبى ذر رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من بنى لله مسجدا قدر مفحص قطاة[٣] بنى الله له بيتا فى الجنة » رواه البزار واللفظ له ، والطبرانى فى الصغير ، وابن حبان فى صحيحه .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من بنى لله مسجدا يذكر فيه[٤] بنى الله له بيتا فى الجنة » رواه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه .

وعن محمود بن لبيد ، عن عثمان بن عفان ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « من بنى مسجدا لله ، بنى الله له مثله[٥] فى الجنة » حديث متفق على صحته .

❁ ❁ ❁

هذا .. واذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قد أمر أو رغب فى بناء المساجد ، فقد نهى فى نفس الوقت عن زخرفتها :

فعن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أمرت بتشييد المساجد » وقال ابن عباس : لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى[٦] .

---

(١) أى اكثرتم من لومى وتثريبى بسبب ذلك .

(٢) يعنى يطلب به ثواب الله ورضاه .

(٣) مفحص القطاة : هو الموضع الذى تفحص عنه التراب لتبيض فيه . والمراد انه صغير جدا .

(٤) أى باقامة الصلوات الخمس فيه ، وتلاوة القرآن ومدارسته ، وعقد مجالس العلم والحديث .

(٥) وهذا من باب التقريب ، والا فما فى الجنة لا مثيل له ، فقد أعد الله تعالى لعباده الصالحين فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

(٦) هو فى سنن ابى داوود ص ٤٤٨ فى الصلاة : باب فى بناء المسجد ، وسنده صحيح ، واخرج البخارى فى صحيحه ١ / ٤٤٩ قول ابن عباس تعليقا .

والمراد من التشييد[١] : رفع البناء وتطويله ، ومنه قوله سبحانه وتعالى : « **فى بروج مشيدة** »[٢] وهى التى طول بناءها ، يقال : شاد الرجل بناءه يشيده ، وشيده يشيده . وقيل : البروج المشيدة : الحصون المجصصة ، والشيد : الجص .

وأمر عمر ببناء مسجد ، وقال : أكن الناس من المطر ، واياك أن تحمر وتصفر ، فتفتن الناس[٣] .

وروى أن عثمان رأى أترجة من جص معلقة فى المسجد فأمر بها فقطعت .

وقول ابن عباس : لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى ، معناه أن اليهود والنصارى انما زخرفوا المساجد عندما حرفوا وبدلوا أمر دينهم ، وأنتم تصيرون الى مثل حالهم ، وسيصير أمركم الى المراءاة بالمساجد ، والمباهاة بتشييدها وتزيينها .

قال أبو الدرداء : اذا حليتم مصاحفكم ، وزوقتم مساجدكم ، فالدمار عليكم .

وعن أنس ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس فى المساجد »[٤] .

وعنه أيضا ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان من أشراط الساعة أن يتباهى الناس فى المساجد »[٥] .

ويقول صالح بن رستم : قال أبو قلابة :

غدونا مع أنس بن مالك الى الزاوية ، فحضرت صلاة الصبح ، فمررنا بمسجد ، فقال أنس : لو صلينا فى هذا المسجد ، فقال بعض القوم : حتى نأتى المسجد الآخر ، فقال أنس : أى مسجد ؟ قالوا :

---

(١) كما جاء فى شرح السنة للبغوى ج ٢

(٢) النساء : ٧٨

(٣) علقه البخارى ١ / ٤٤٨ ، قال الحافظ وهو طرف من قصة تجديد المسجد النبوى .

(٤) أبو داوود فى الصلاة (٤٤٩) : باب بناء المسجد ، واسناده صحيح ، وصححه ابن حبان (٣٠٨) واخرجه ابن ماجه (٧٣٩) فى المساجد : باب تشييد المساجد .

(٥) ورواه النسائى ٢ / ٣٢ فى المساجد : باب المباهاة فى المسجد ، والدارمى ١ / ٣٢٦ فى الصلاة : باب تزويق المساجد ، واسناده صحيح .

مسجد أحدث الآن ، فقال أنس : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « سيأتى على أمتى زمان يتباهون فى المساجد ، ولا يعمرونها الا قليلا »(١) .

* * *

وهذا الجزء الأخير فى هذا الحديث الشريف ، وهو : « ولا يعمرونها الا قليلا » هو ما أريد أن أركز عليه ، وذلك حتى لا يكون هناك تركيز على زخرفة المساجد بتلك الصورة التى حولت أغلب المساجد إلى شبه « متاحف » يؤمها أكثر الناس — فضلا عن غيرهم من الأجانب — من أجل السياحة لا من أجل العبادة ، بل وبتلك الصورة التى قد تفسد صلاة أكثر المتعبدين فيها عندما يشغلون بما فيها من نقوش أثناء الصلاة .

ولهذا قال النووى فى المجموع : يكره زخرفة المسجد ونقشه وتزيينه ، للأحاديث المشهورة ، ولئلا تشغل قلب المصلى .

وقال الأوزاعى : ينبغى أن يحرم لما فيه من اضاعة المال لا سيما ان كان من مال المسجد .

وقال ابن الحاج فى المدخل : وينبغى للامام أن يغير ما أحدثوه من الزخرفة فى المحراب وغيره ، فان ذلك من البدع ومن أشراط الساعة .

وقال ابن القاسم : وسمعت مالكا يذكر مسجد المدينة وما عمل من التزويق فى قبلته ، فقال : كره الناس ذلك حين فعل ، لأنه يشغلهم بالنظر اليه . وسئل مالك عن المساجد هل يكره أن يكتب فى قبلتها بالصبغ مثل آية الكرسى و« قل هو الله أحد » والمعوذتين ؟ فقال : أكره أن يكتب فى قبلة المسجد شىء من القرآن والتزويق ، وقال : ان ذلك يشغل المصلى اهـ .

مع ملاحظة : أن أول من زخرف المساجد هو الوليد بن عبد الملك ، وسكت عليه أهل العلم خوف الفتنة .

* * *

---

(١) رجاله ثقات ، الا أن صالح بن رستم كثير الخطأ ، وقد علقه البخارى بنحوه ١ / ٢٤٩ من قول أنس ، وقال الحافظ : وهذا التعليق رويناه موصولا فى « مسند أبى يعلى » ، و « صحيح ابن خزيمة » من طريق أبى قلابة أن أنسا قال : سمعته يقول : « يأتى على أمتى زمان يتباهون بالمساجد ، ثم لا يعمرونها الا قليلا » .

فعلى الاخوة المؤمنين الذين ينوون بناء المساجد أو المشاركة فيها أن يلاحظوا كل هذا ، حتى يتقبل الله منهم بناءها أو المشاركة فى هذا البناء ، وحتى لا يكونوا سببا فى انشغال العباد أثناء الصلاة بسبب تلك الزخارف المبتدعة التى لا تمت الى الهدف من بناء المساجد بصلة ، والتى تعتبر اسرافا وتبذيرا ، وحسبهم أن يذكروا دائما وأبدا قول الله تعالى : « **ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين** »(١) .

وقوله : « .. **انه لا يحب المسرفين** »(٢) .

* * *

وليكن تركيزنا جميعا نحن المؤمنين على تعمير المساجد ، بمعنى أن نحافظ على أداء الفرائض الخمس فيها ، كلما نادى المنادى قائلا : « حي على الصلاة .. حي على الفلاح » .

* * *

وقد ورد الترغيب فى :

فضل اتيان المساجد

فعن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « من غدا الى المسجد وراح ، أعد الله له نزله(٣) من الجنة كلما غدا وراح » حديث متفق على صحته(٤) .

وعن أبى موسى ، قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أعظم الناس أجرا فى الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى ، والذى ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الامام أعظم أجرا من الذى يصلى ثم ينام » حديث متفق على صحته(٥) .

وعن أبى سعيد الخدرى ، أو عن أبى هريرة أنه قال : قال

---

(١) الاسراء : ٢٧ (٢) الأعراف : ٣١

(٣) النزل بضم النون والزاى : المكان الذى يهيأ للنزول فيه ، وبسكون الزال : ما يهيأ للقادم من الضيافة ونحوها .

(٤) البخارى ٢ / ١٢٤ فى صلاة الجماعة : باب فضل من غدا الى المسجد ومن راح ، ومسلم (٦٦٩) فى المساجد : باب المشى الى الصلاة تمحى به الخطايا .

(٥) البخارى ٢ / ١١٦ فى صلاة الجماعة : باب فضل صلاة الفجر فى جماعة ، ومسلم (٦٦٢) فى المساجد : باب فضل كثرة الخطا الى المساجد .

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سبعة يظلهم الله فى ظله[١] يوم لا ظل الا ظله : امام عادل ، وشاب نشأ بعبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد اذا خرج منه حتى يعود اليه ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال ، فقال : انى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » حديث متفق على صحته[٢] .

وعن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة الرجل فى الجماعة تضعف على صلاته فى بيته وفى سوقه خمسة وعشرين ضعفا ، وذلك أنه اذا توضأ ، فأحسن الوضوء ، ثم خرج الى المسجد لا يخرجه الا الصلاة ، لم يخط خطوة الا رفعت له بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة ، فاذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مصلاه : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال أحدكم فى صلاة ما انتظر الصلاة » حديث متفق على صحته[٣] .

وعن بريدة الأسلمى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « بشر المشائين فى الظلم الى المساجد بالنور التام يوم القيامة » حديث صحيح[٤] .

* * *

فاذا كان الترغيب المحمدى هذا سيكون سببا ان شاء الله فى حرصك على صلاة الجماعة فى المسجد ، فاننى أحب بالاضافة الى ما وقفت عليه أن أزودك كذلك ببعض المندوبات المتعلقة بهذا ، والتى منها :

---

(١) معناه : ادخاله اياهم فى رحمته ورعايته ، وقيل : المراد منه ظل العرش .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه (٦٦٥) فى المساجد : باب فضل كثرة الخطا الى المساجد .

(٣) البخارى ٢ / ١١٢ ، ١١٤ فى الجماعة : باب فضل صلاة الجماعة ، وفى البيوع : باب ما ذكر فى الأسواق ، وفى المساجد : باب الصلاة فى مسجد السوق ، ومسلم (٦٤٩) فى المساجد : باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة .

(٤) رواه أبو داوود (٥٦١) فى الصلاة : باب ما جاء فى المشى الى الصلاة فى الظلام ، والترمذى (٢٢٣) فى الصلاة : باب ما جاء فى فضل العشاء والفجر فى الجماعة .

١ ــ ما يقال عند الخروج الى المسجد :

فقد روى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من خرج من بيته الى الصلاة ، فقال : اللهم انى أسألك بحق السائلين عليك[١] ، وبحق ممشاى[٢] هــذا ، فانى لم أخرج أشرا ولا بطرا[٣] ، ولا رياء ولا سمعة[٤] ، وخرجت اتقاء سخطك[٥] ، وابتغاء مرضاتك[٦] ، فأسألك أن تعيــذنى من النار ، وأن تغفر لى ذنوبى ، انه لا يغفر الذنوب الا أنت : أقبــل الله عليه بوجهه ، واستغفر له سبعون ألف ملك » رواه ابن ماجه .

٢ ــ ما يسن لمن أراد دخول المسجد :

يسن لمن أراد دخول المسجد أن يتفقد نعليــه ويمسح ما فيهما من أذى :

فعن أبى سعيد : أن النبى صلى الله عليــه وسلم ، قال : « اذا جاء أحدكم الى المسجد فلينظر فان رأى فى نعليــه قذرا أو أذى فليمسحه وليصل فيهما » أخرجه أبو داوود وغيره بسند صحيح وحسنه النووى .

٣ ــ ما يقال عند دخول المسجد والخروج منه :

ويسن لمن أراد دخول المسجد أن يدخل برجله اليمنى أولا ، وأن يدعو بما فى حديث من هذه الأحاديث الآتية :

عن أبى حميد وأبى أسيد[٧] أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « اذا دخل أحدكم المسجد فليقل : اللهم افتح لنا أبواب رحمتك . واذا خرج فليقل : اللهم انى أسألك من فضلك » أخرجه أحمد ومسلم والنسائى وابن ماجــه .

وكذا أبو داوود بلفظ : « اذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثم ليقل : اللهم افتح لى أبواب

---

(١) اى أن يجيبهم بمقتضى وعده فى قوله : « **ادعونى استجب لكم** » (غافر : ٦٠) فهو حق أوجبه على نفسه .

(٢) اى مكان التمشى أو موضع المرور .

(٣) الأشر والبطر بمعنى واحد وهو الطغيان وكفر النعمة .

(٤) السمعة : اى الشهرة وحسن الأحدوثة .

(٥) يعنى خوف الوقوع فيما يوجب سخطك ونقمتك .

(٦) اى طلبا لرضاك وحسن مثوبتك .

(٧) حميد وأسيد مصغران .

رحمتك • واذا خرج فليسلم على النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم وليقل : اللهم انى أسألك من فضلك » وأخرجه أحمد والنسائى وابن حبان والبيهقى بلفظ :

« اذا دخل أحدكم المسجد فليصل على النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وليقل : اللهم افتح لى أبواب رحمتك • واذا خرج فليسلم على النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وليقل : اللهم انى أسألك من فضلك » •

وعن أنس أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان اذا دخل المسجد ، قال : « باسم الله ، اللهم صل على محمد • واذا خرج ، قال : باسم الله ، اللهم صل على محمد » أخرجه ابن السنى •

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان اذا دخل المسجد ، قال : « أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم • قال : فاذا قال ذلك ، قال الشيطان : حفظ منى سائر اليوم » أخرجه أبو داوود بسند جيد •

وعن ابن عباس فى قوله تعالى : « **فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم** »[1] ، قال : هو المسجد اذا دخلته فقل : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » •

أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين •

مع ملاحظة : أن الخروج من المسجد يكون بالرجل اليسرى ، على أن تلبس النعال الأيمن قبل الأيسر •

٤ ــ تحية المسجد :

فانه يطلب ممن دخل المسجد غير المسجد الحرام ألا يجلس حتى يصلى ركعتين تحية المسجد :

فعن أبى قتادة أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « اذا جاء أحدكم المسجد فليصل سجدتين[2] من قبل أن يجلس » أخرجه السبعة[3] والبيهقى •

وكذا الأثرم فى سننه بلفظ :

« أعطوا المساجد حقها • قالوا : وما حقها ؟ قال : تصلوا ركعتين

---

(١) النور : ٦١ (٢) سجدتين : يعنى ركعتين •

(٣) وهم : أحمد والبخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه •

قبل أن تجلسوا » وأخرجه ابن ماجه عن أبى هريرة بلفظ : « اذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلى ركعتين » •

وأخرجه البيهقى فى السنن وابن عدى فى الكامل والبيهقى فى شعب الايمان عن أبى هريرة بلفظ :

« اذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يركع ركعتين • واذا دخل أحدكم بيته فلا يجلس حتى يركع ركعتين ، فان الله جاعل له من ركعتيه فى بيته أجرا » •

قال فى الدين الخالص ج ٣ ص ٢٨٤ :

وهذه الأحاديث تدل على مشروعية تحية المسجد فى كل وقت حتى وقت خطبة الجمعة • وبه قال الشافعية وابن عيينة وابن المنذر وداوود واسحاق بن راهويه والحسن البصرى ، لعمـــوم هـــذه الأحاديث ، ولحديث جابر بن عبد الله ، قال : جاء سليك الغطفانى يوم الجمعـــة ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يخطب فجلس فقال له : « يا سليك •• قم فاركع ركعتين وتجوز فيهما ، ثم قال : اذا جاء أحدكم يوم الجمعة والامام يخطب فليركع ركعتين وليتجوز فيهما » أخرجه الشيخان ، وكذا الطبرانى فى الكبير بلفظ :

« صل ركعتين وتجوز فيهما • واذا جاء أحدكم والامام يخطب يوم الجمعة فليصل ركعتين وليخففهما » •

وأما أحاديث النهى عن الصلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس وبعد العصر حتى تغرب الشمس ، فمحمولة على ما لا سبب له من الصلوات لحديث أم سلمة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ينهى عنهما — أى عن الركعتين بعد العصر — ثم رأيته يصليهما • الحديث أخرجه الشيخان وأبو داوود مطولا •• فى بحث « قضاء الرواتب » •

وقالت الحنابلة : تسن وقت الخطبة وتحرم فى أوقات النهى ولا تنعقـــد •

وقال الحنفيون وابن سيرين وعطاء بن أبى رباح والليث وشريح والأوزاعى : تكره تحية المسجد فى أوقات النهى وحال خطبة الجمعة •

وقالت المـــالكية : تكره بعد صلاة الصبح والعصر وتحرم حال الخطبة ووقت طلوع الشمس وغروبها ، لحديث ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « اذا دخل أحدكم المسجد والامام

على المنبر فلا صلاة ولا كلام حتى يفرغ الامام » أخرجه الطبرانى وفى سنده أيوب بن نهيك منكر الحديث ، وقالوا : أحاديث الأمر بالصلاة لدخول المسجد عامة مخصوصة بأحاديث النهى عن الصلاة فى أوقات النهى ، ودعوى أن أحاديث النهى محمولة على ما لا سبب له ، ولا دليل عليهـا ..

وصلاته ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ ركعتى الظهر بعد العصر مختصة به ، لقول أم سلمة قلت له : أفنقضيهما اذا فاتتا ؟ قال : لا » . أخرجه أحمد والبيهقى مطولا .. ولو سلم عدم الاختصاص لمـا كان فى ذلك الا جواز قضاء سنة الظهر لا جواز قضاء جميع ذوات الأسباب ، وأما أمره صلى الله عليه وعلى آله وسلم سليكا بصلاة الركعتين ، فأجابوا عنه بوجوه كلها ضعيفة . ويعارضها ما تقدم فى الحديث الصحيح عن جابر بن عبد الله من قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « اذا جاء أحدكم يوم الجمعة والامام يخطب فليركع ركعتين وليتجوز فيهما » أخرجه الدارقطنى ، وهو يرد ما قيل من أن قصة سليك واقعة عين لا عموم لها . وأقوى دليل لمن قال بعدم جواز الصلاة حال الخطبة حديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « اذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والامام يخطب فقد لغوت » أخرجه الجماعة[1] ، ووجه الدلالة أنه اذا منع من هـذه الكمة مع كونها أمرا بمعروف ونهيا عن منكر فى زمن يسير وهو واجب ، فلأن يمنع من الركعتين مع كونهما مسنونتين وفى زمن طويل من باب أولى ، ورد : بأن هذا قياس فى مقابلة النص فلا يعول عليه .

فالراجح القول بمشروعية تحية المسجد حال الخطبة ، ويؤيده أن النبى صلى الله عليه وسلم قطع الخطبة وهى فرض وأمر سليكا بالصلاة ، وهذا يدل دلالة قاطعة على تأكد صلاة ركعتى التحية اذ معلوم أن الفرض وهو الخطبة لا يقطع الا لفرض مثله أو لمتأكد فعله .

هذا .. ولا تفوت التحية بالجلوس ولو طال عند الحنفية والمـالكية ، لمـا تقدم أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم أمر سليكا بالصلاة بعد جلوسه ، ولحديث أبى ذر أنه دخل المسجد فقال له النبى صلى

---

(١) وهم : مالك وأحمد والبخارى ومسـلم وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

الله عليـــه وعلى آله وسلم : « أركعت ركعتين ؟ قال : لا . قال : قم فاركعهما » أخرجه ابن حبان فى « باب تحية المسجد لا تفوت بالجلوس » .

ثم يقول فى « الدين الخالص » بعد أن ذكر آراء بقية الأئمة حول هذا الموضوع ، ما خلاصته :

قال فى « الهدى » : كان من هدى النبى صلى الله عليه وسلم أن الداخل الى المسجد يبتدىء بركعتين تحية للمسجد ثم يسلم على القوم ، فتكون تحية المسجد قبل تحية أهله ، فان تلك حق الله تعالى ، والسلام على الخلق حق لهم ، وحق الله تعالى فى مثل هـــذا أحق بالتقديم ، بخلاف الحقوق المـــالية فان فيها نزاعا معروفا عند الفقهاء ، وكانت عادة القوم معه صلى الله عليه وعلى آله وسلم هكذا يدخل أحدهم المسجد فيصلى ركعتين ثم يسلم على النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

فعلى الأخ المسلم أن يلاحظ هـــذا ، وأن يلاحظ كذلك : أن ما تقدم من طلب صلاة تحية المسجد انما هو فى غير المسجد الحرام أما هو[1] فتحيته الطواف ، الا لمن أراد الجلوس قبل الطواف ، فانه يشرع له أن يصلى التحية .

وأنه يسن للقادم من سفر أن يبدأ بالمسجد فيصلى فيه ركعتين ، لقول كعب بن مالك : كان النبى صلى الله عليه وعلى آله وســـلم اذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين . أخرجه الشيخان ، ولقول جابر : « كنت مع النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم فى غزاة واشترى منى جملا بأوقية ثم قدم قبلى ، وقدمت بالغداة فوجدته على باب المسجد ، قال : الآن قدمت ؟ قلت : نعم . قال : فادخل فصل ركعتين » أخرجه الشيخان وأبو داوود والنسائى .

وينبغى لمن يدخل المسجد لصلاة أو غيرها أن ينوى الاعتكاف .

٥ ــ الجلوس فى المسجد للطاعة :

فقد ورد أن السعى الى المساجد والجلوس فيها للطاعة من أسباب السعادة فى الدنيا والآخرة ، وذلك فى عدة أحاديث منها :

حديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وســـلم ، قال : « ان للمساجد أوتادا[2] الملائكة جلساؤهم ، ان غابوا يفتقدونهم ،

---

(١) أى المسجد الحرام .

(٢) الأوتاد : جمع وتد بكسر التاء وتفتح ، والمراد بهم من يكثرون الجلوس فى المساجد للطاعة .

وان مرضوا عادوهم ، وان كانوا فى حاجة أعانوهم • قال صلى الله عليــه وعلى آله وسلم : « جليس المسجد على ثلاث خصال : أخ مستفاد ، أو كلمة محكمة ، أو رحمة منتظرة » •

أخرجه أحمد والمنذرى • وفى سنده ابن لهيمة ، متكلم فيه ، وأخرجه الحاكم دون قوله : جليس المسجد •• الــخ من حديث عبد الله ابن سلام ، وقال صحيح على شرط الشيخين •

قال فى الدين الخالص تعليقا على هذا الحديث :

فقد دل الحديث على فضل من لازم المسجد ، وأنه لا يعدم صحبة أخ صالح يستفيد منه نصيحة أو مساعدة أو بيان آية قرآنية أو مسألة علميــة ، أو رجاء رحمة من رب البرية ، فقد ثبت أن الجالس فى المسجد تدعو له الملائكة بالمغفرة والرحمة ، ودل على أن الملائكة تجالسه ، فان غاب بحثوا عنه ، وان مرض عادوه • وفى ذلك فليتنافس المتنافسون •

وحديث أبى هريرة ــ أيضا ــ أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ؟ اسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا الى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط » أخرجه مالك وأحمد والنسائى والترمذى •

واذا كان الانتظار ــ فى المسجد ــ من أجل انتظار الصلاة مع الجماعة ، فانه من الخير كذلك أن يستغل وقت الانتظار هذا فى حلقــة من حلقات العــلم النافع التى رغب النبى صلى الله عليــه وسلم فى مدارسة العلم فيها ، فقال :

« •• ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا الى الجنــة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلــون كتــاب الله ويتدارسونه[1] بينهم الا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده •• » الحديث رواه مسلم •

* * *

هذا •• واذا كنت ستقيم فى المسجد من أجل انتظار الصلاة ، أو من أجل طلب العــلم ــ كما عرفنا ــ فانه ينبغى عليك أن تقف كذلك على :

---

(١) أصل الدراسة التعهد للشىء ، وذلك شــامل لجميع ما يناط بالقرآن من التعليم والتعلم .

ما تصـــان عنه المســـاجد

وذلك حتى تكون ان شاء الله تعالى من المؤمنين الذين يعملون على صيانتها من كل ما ينافى احترامها ، وما بنيت من أجله ، فاليك بعض ما أشار اليه ــ صاحب الدين الخالص ج ٣ ــ تحت هــذا العنوان الذى وقفت عليــه :

١ــ يطلب صيانتها من الأقذار كالبول والحجامة والفصد والبزاق وغيرها ، لحديث أنس أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « ان هــذه المساجد لا تصلح لشىء من هــذا البول ولا القذر ، انما هى لذكر الله وقراءة القرآن » أخرجه مسلم .

قال النووى فى المجموع : « ويحرم البول والفصد والحجامة فى المسجد فى غير اناء ، ويكره الفصد والحجامة فيه فى اناء . وفى تحريم البول فى اناء فى المسجد وجهان ، أصحهما يحرم ، ويحرم ادخال النجاسة الى المسجد ، فأما من على بدنه نجاسة أو به جرح ، فان خاف تلويث المسجد حرم عليه دخوله ، وان أمن لم يحرم » اهـ .

٢ ــ ويلزم صيانة المسجد عن الروائح الكريهة ، فيحرم على من تناول ذا رائحة كريهة كثوم وبصل دخول المسجد قبل ازالتها ، لحديث جابر أن النبى صلى الله عليــه وعلى آله وسلم ، قال : « من أكل الثوم والبصل والكراث ، فلا يقربن مسجدنا ، فان الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » أخرجه الشيخان ، وكذا أحمد بلفظ : « من أكل ثوما أو بصلا فليعتزلنا ، أو قال : فليعتزل مسجدنا وليقعد فى بيته » وأخرجه النسائى والترمذى .

والمراد : تناول ما ذكر وهو نىء لأنه ذو الرائحة الخبيثة المؤذية ، بخلاف ما اذا كان مطبوخا فلا يشمله النهى ، لذهاب تلك الرائحة منه ، ولقول على رضى الله عنه : نهى عن أكل الثوم الا مطبوخا ، ولحديث معاوية بن قرة عن أبيه أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم نهى عن هاتين الشجرتين ــ يعنى الثوم والبصل ــ وقال : « من أكلهما فلا يقربن مسجدنا » . وقال : « ان كنتم لابد آكليهما فأنضجوهما طبخا » أخرجهما أبو داوود .

٣ ــ ويكره لمن به بخر وصنان قوى دخول المسجد وحضــور الجماعات ، لمــا يترتب على ذلك من ايذاء الناس والملائكة ، بل ينبغى

أن يحرم ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « فان الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » أخرجه الشيخان من حديث جابر .

٤ — ويكره اخراج الريح فى المسجد اختيارا ، صونا له عن الرائحة الكريهة ، ولما يترتب عليه من ايذاء من بالمسجد ، ولحديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ان الملائكة تصلى على أحدكم ما دام فى مصلاه الذى صلى فيه ما لم يحدث ، تقول : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه » أخرجه الشيخان ، وأبو داوود والنسائى ، وكذا ابن ماجه من حديث أبى صالح عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « ان أحدكم اذا دخل المسجد كان فى صلاة ما كانت الصلاة تحبسه ، والملائكة يصلون على أحدكم ما دام فى مجلسه الذى صلى فيه ، يقولون : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه ، اللهم تب عليه ، ما لم يحدث فيه ما لم يؤذ فيه » ، ولحديث أبى رافع عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « لا يزال العبد فى صلاة ما دام فى مصلاه ينتظر الصلاة ، تقول الملائكة : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه . حتى ينصرف أو يحدث ، فقيل : وما يحدث ؟ قال : يفسو أو يضرط »[1] أخرجه مسلم وأبو داوود .

٥ — ويكره تحريما رفع الصوت فى المسجد بنشد الضالة[2] ، لحديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « من سمع رجلا ينشد ضالة فى المسجد ، فليقل لا أداها الله اليك ، فان المساجد لم تبن لهذا » أخرجه أحمد ومسلم وأبو داوود وابن ماجه ، ولحديث بريدة الأسلمى أن رجلا نشد فى المسجد ، فقال : من دعا للجمل الأحمر بعد الفجر ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا وجدته لا وجدته ، انما بنيت هذه المساجد لما بنيت له » أخرجه أحمد ومسلم وابن ماجه .

وفى الحديثين : دلالة على جواز الدعاء على ناشد الضالة فى المسجد بعدم ردها اليه معاملة له بنقيض قصده حيث فعل ما لا يجوز فعله فى المسجد من رفع الصوت بما لم يعد له المسجد من العبادة والذكر

---

(١) مضارع ضرط من باب تعب وضرب والاسم ضرط ككتف .

(٢) الضالة ، بتشديد اللام ، الضائعة من كل ما يقتنى . يقال ضل الشىء اذا ضاع ، وضل عن الطريق اذا حاد . وانشادها ، تعريفها ، ونشدها طلبها .

والصلاة وتعليم العلم ونحو ذلك ، فعن عاصم بن عمر بن قتادة أن عمر سمع ناسا من التجار يذكرون تجارتهم والدنيا فى المسجد ، فقال : انما بنيت هـذه المساجد لذكر الله ، فاذا ذكرتم تجاراتكم ودنياكم فاخرجوا الى البقيع .

أخرجه ابن أبى شيبة بسند جيد . قال ابن رسلان : « ويلحق بذلك من رفع صوته فى المسـجد بما يقتضى مصلحة ترجع للرافـع صوته » اهـ .

ولذا قال الحنفيون : يحرم السؤال فى المسجد مطلقا ، لأنه كنشد الضالة ، ويكره الاعطاء فيه مطلقا ، لأنه يحمل على السؤال ، وقيل : يكره اعطاؤه ان تخطى الرقاب ، وقال أبو مطيع البلخى : لا يحل أن يعطى سؤال المساجد .

وقال الجمهور : يجوز السؤال فى المسجد واعطاء الصدقة فيه الا اذا ألح السائح وتخطى الرقاب فيحرم السؤال والاعطاء ، واختار صاحب المحيط أنه ان سأل لأمر لابد منه ولا ضرر فلا بأس والا كره .

أما الاعطاء بلا سؤال فهو جائز اتفاقا ، فقد روى البيهقى أنه صلى الله عليه وسلم أمر سليكا الغطفانى بالصلاة يوم الجمعة حال الخطبة ليراه الناس فيتصدقوا عليه ، وأنه أمرهم بالصدقة وهو على المنبر .

٦ — ولا يجوز رفع الصوت فى المسجد ولو بالقرآن والذكر لقول أبى سعيد الخدرى : اعتكف رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فى المسجد فسمعهم يجهرون بالقراءة فكشف الستر وقال : « ألا ان كلكم مناج ربه ، فلا يؤذين بعضكم بعضا ، ولا يرفع بعضـكم على بعض فى القراءة » أخرجه أحمد وأبو داوود والنسائى والبيهقى والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين .

وعلى هذا اتفقت كلمة الفقهاء :

قال فى الدر المختار : يحرم فى المسجد رفـع الصوت بذكر الا للمتفقهة اهـ .

٧ — ويجب أن يصان المسجد عن دخول الصبيان والمجانين اذا خيف تلويثه ، لحديث واثلة بن الأسقع أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وشراركم » .. الحديث أخرجه ابن ماجه والمنذرى بسند ضعيف .

ولذا قال الحنفيون : يحرم ادخال الصبيان والمجانين المسجد اذا غلب تنجيسهم اياه والا فيكره .

وقال النووى فى المجموع : ويكره ادخال البهائم والمجانين والصبيان الذين لا يميزون المسجد ، لأنه يخشى تلويثهم اياه . ولا يحرم ذلك لأنه ثبت فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم صلى حاملا أمامة بنت زينب ، وطاف على بعيره . ولا ينفى هـذا الكراهة ، لأنه صلى الله عليـه وعلى آله وسلم فعله لبيان الجواز . اه .

٨ ــ ويكره الاحتراف فى المسجد بعمل دنيوى كخياطة وحياكة وغزل ونحوها .

قال القاضى عياض : والراجح منع الصنائع التى يختص بنفعها آحاد الناس ويكتسب بها . فلا يتخذ المسجد متجرا . وأما المثاقفة كاصلاح آلات الجهاد ونحوها مما لا امتهان للمسجد فى عمله فلا بأس اه .

وقال النووى فى المجموع : يكره أن يجعل المسجد مقعدا لحرفة كالخياطة ونحوها ، لحديث أنس أن النبى صلى الله عليـه وسلم ، قال : « ان هذه المساجد لا تصلح لشىء من هذا البول ولا القذر ، انما هى لذكر الله وقراءة القرآن » أخرجه مسلم . فأما من ينسخ فيه شيئا من العلم أو اتفق قعوده فيه فخاط ثوبا ولم يجعله مقعدا للخياطة فلا بأس به اه .

٩ : ١٢ ــ وينبغى صيانة المسـجد عن البيع والشراء وانشاد الشعر والتحلق يوم الجمعة ، لحديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « اذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد ، فقولوا : لا أربح الله تجارتك ، واذا رأيتم من ينشد فيه ضالة ، فقولوا : لا رد الله عليك ضالتك » أخرجه النسائى فى عمل اليوم والليلة ، والترمذى وحسنه ، وابن حبان والحاكم وصححه .

ولحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ــ عبد الله بن عمرو ــ ، قال : نهى رسول الله صلى الله عليـه وسلم عن الشراء والبيع فى المسجد ، وأن تنشد فيه الأشعار ، وأن تنشد فيه الضالة . ونهى عن التحلق[1] قبل الصلاة يوم الجمعة .

---

(١) التحلق : جلوس الناس مستديرين على هيئة الحلقة ، ونهى عنه قبل صلاة الجمعة ، لمـا يترتب عليه من قطع الصفوف . .

أخرجه أحمد وأبو داوود والترمذى والنسائى • غير أن النسائى لم يذكر نشد الضالة ، وصححه الترمذى •

وقد أخذ الحنابلة بظاهر هـذا الحديث وغيره : فأفتوا بحرمة البيع والشراء فى المسجد ولا فرق عندهم بين المعتكف وغيره ولو قل البيع واحتيج اليه • قال أحمد : انما هذه بيوت الله لا يبـاع فيها ولا يشرى ، وفى « كشاف القناع » : ورأى عمران القصير رجلا يبيع فى المسجد فقال : يا هـذا ان هذا سوق الآخرة ، فان أردت البيع فاخرج الى سوق الدنيا اه •

هـذا واذا كان غير الحنابلة قد قالوا بكراهية البيع والشراء فى المسجد لأسباب ذكروها ، وهى اذا عم المسجد وغلب عليه عنـد الأحناف ، ولغير المعتكف مطلقا عند الشافعية ، واذا كانا بغير رفع صوت ، والا فهو حرام عند المـالكية لجعل المسجد سوقا :

فانه من الأحوط عدم الوقوع فى هذه المخالفة لأن المساجد كما تبين لنا من خلال كل هذا ليست من أسواق الدنيا •

١٣ ـ وأما انشاد الشعر فى المسجد فالمنهى عنه ما كان على سبيل التفاخر والهجاء ومدح من لا يستحق المـدح ، وذم من لا يستحق الذم •

أما ما فيه أمر بمعروف ونهى عن منكر وبيان لأحكام الدين وترغيب فى العمل بها ، ومدح من يستحق المدح وذم من يستحق الذم وحث على الزهد والمكارم ، فانشاده فى المسجد جائز حسن • وقد ورد ما يؤيد هـذا فى السنة ، فعن سعيد بن المسيب رضى الله عنه أنه قال : مر عمر بن الخطاب فى المسجد وحسان فيه ينشد فلحظ[1] اليه فقال : كنت أنشده فيه وفيه من هو خير منك • ثم التفت الى أبى هريرة فقال : أنشدك الله[2] أسمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول : « أجب عنى ، اللهم أيده بروح القدس[3] ؟ قال : نعم » أخرجه أحمد والشيخان •

ولقول عائشة : « كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ينصب لحسان منبرا فى المسجد فيقوم عليه يهجو الكفار » أخرجـه الترمذى وصححه ، والحاكم وقال صحيح الاسناد •

---

(١) أى نظر اليه نظرة انكار . (٢) أى أسألك بالله .

(٣) المراد بروح القدس بضمتين : جبريل عليه السلام .

ومحل جواز انشاد الشعر فى المسجد ــ كما يقــول فى « الدين الخالص »[١] ــ : ما لم يشوش على مصل أو قارىء أو ذاكر والا منع مطلقــا •

١٤ ــ ويكره تحريما اقامة الحدود فى المسجد صونا له وحفظا لحرمته •

وقد ورد فى هذا عن حكيم بن حزام أن النبى صلى الله عليــه وعلى آله وسلم ، قال : « لا تقام الحدود فى المســاجد ولا يستقاد فيها »[٢] أخرجه أحمد وأبو داوود والدارقطنى والحاكم وابن السكن والبيهقى بسند لا بأس به • قاله الحافظ فى التلخيص ، وقال فى بلوغ المرام : اسناده ضعيف •

وعن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وســلم ، قال : « لا تقام الحدود فى المساجد ، ولا يقتل الوالد بالولد » أخرجه أحمد والحاكم والترمذى •

وبهذا قالت الحنفية والشافعية : حملا للنهى على الكراهة • وحمله المــالكية والحنابلة على الحرمة ، فقالوا : يحرم اقامة الحدود والتعزير الشديد فى المساجد •

١٥ ــ ويكره تحريما القاء القمل ودفنه حيا فى المسجد :

لحديث الحضرمى ابن لاحق عن رجل من الأنصار أن رسول الله صلى الله عليــه وعلى آله وسلم ، قال : « اذا وجد أحدكم القملة فى ثوبه فليصرها[٣] ولا يلقها فى المسجد » أخرجه أحمد بســند رجاله ثقات ، وأخرجه البيهقى بلفظ : « اذا وجد أحدكم القملة وهو يصــلى فلا يقتلها ، ولكن يصرها حتى يصلى » •

أما دفنه فى المسجد بعد قتله فلا بأس به :

لقول أبى مسلم : دخلت على أبى أمامة وهو يتفلى فى المسجد ويدفن القمل فى الحصى •• الحديث أخرجه أحمد والطبرانى بسند جيــد •

---

(١) ج ٣ ص ٣٢٣ الطبعة الأولى .

(٢) الاستقادة ، طلب القود وهو القصاص .

(٣) يصرها بفتح فضم فشد الراء : أى فليقبض عليها فى ثوبه حتى يخرجها من المسجد .

ولقول مالك بن يخامر : رأيت معاذ بن جبل يقتل القمل والبراغيث فى المسجد . أخرجه الطبرانى فى الكبير بسند رجاله ثقات .

ولحديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : « اذا وجد أحدكم القملة فى المسجد فليدفنها أو ليمطها عنه » أخرجه الطبرانى فى الأوسط .

١٦ — ويكره أن يحفر فى المسجد بئر لأنه لا يؤمن من دخول النساء والصبيان وتقذير المسجد ، الا ان كان البئر قديما كزمزم فانه يترك .

١٧ — ويكره غرس الشجر فى المسجد لأنه تشبيه له بالبيعة والكنيسة وفيه شغل لمكان الصلاة الا أن تكون فيه منفعة للمسجد بأن كانت أرضة نزة[1] لا تستقر فيها الأعمدة فيغرس الشجر ليتحول اليه النز .

والخلاصة كما يقول فى كشاف القناع : يحرم غرس شجر فى مسجد ، لأن منفعته مستحقة للصلاة ، فتعطيلها عدوان ، فان فعل قلعت الشجرة فان لم تقلع فثمرها للمساكين اه .

١٨ — ويكره تطيين المسجد وبناؤه وتجصيصه بطين ولبن[2] وجص نجس وتنويره بزيت نجس . والظاهر التحريم فى الكل قاله فى كشاف القناع .

١٩ — ويكره اللغط فى المسجد وحديث الدنيا ، قال ابن الحاج فى المدخل : انما يجلس فى المسجد للصلاة والتلاوة والذكر والتفكر أو تدريس العلم ، بشرط عدم رفع الصوت وعدم التشويش على المصلين والذاكرين .

وفى حديث ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « يأتى على الناس زمان يحلقون فى مساجدهم وليس همهم الا الدنيا ، وليس لله فيهم حاجة فلا تجالسوهم » أخرجه ابن حبان ، وكذا الحاكم من حديث أنس وقال صحيح الاسناد .

والخلاصة كما يقول النووى فى المجموع : يجوز التحدث بالحديث

---

(١) أى رطبة ينز منها الماء .

(٢) أى طوب اللبن الذى لم يحرق بالنار .

المباح فى المسجد وبأمور الدنيا وغيرها من المباحات ، وان حصل فيه ضحك ونحوه ما دام مباحا :

لحديث جابر بن سمرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يقوم من مصلاه الذى صلى فيه الصبح حتى تطلع الشمس ، فاذا طلعت قام • قال : وكانوا يتحدثون فيأخذون فى أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم • أخرجه مسلم اه •

٢٠ — ويكره لمن بالمسجد اسناد ظهره الى القبلة ، بل السنة أن يستقبلها فى جلوسه ، لحديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : ان لكل شىء سيدا ، وان سيد المجالس قبالة القبلة » أخرجه الطبرانى بسند حسن •

وحديث ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « أكرم المجالس ما استقبل به القبلة » أخرجه الطبرانى فى الأوسط ، وأخرجه هو وابن عدى عن ابن عباس •

وعنه أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « أشرف المجالس ما استقبل به القبلة » أخرجه الطبرانى •

٢١ — ولا يجوز أخذ شىء من أجزاء المسجد كحجر وحصاة وتراب وغيرها كالزيت والشمع الذى يسرج فيه ، لحديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « ان الحصاة لتناشد[1] الذى يخرجها من المسجد » أخرجه أبو داوود •

ولقول سعيد بن جبير : « الحصاة تسب وتلعن من يخرجها من المسجد » •

وقول سليمان بن يسار : « الحصاة اذا خرجت من المسجد تصيح حتى ترد الى موضعها » أخرجهما ابن أبى شيبة •

قال فى « الدين الخالص » معقبا على هذا :

« وفيما ذكر التنفير من اخراج الحصى من المسجد ، ومحله فى المساجد غير المفروشة • أما المفروشة فيطلب تنقيتها من الحصى ونحوه • لما يترتب على بقائه فيها من تعفيش المسجد وضرر المصلى بالسجود عليها » •

---

(١) أى تسأل وتقسم على من يخرجها من المسجد ان لا يخرجها منه لأنها لا تحب مفارقته ، لأنه محل العبادة والرحمة •

وقال فى « كشف القناع » : ويكره فى المسجد الخوض والفضول من الكلام وحديث الدنيا والارتفاق بالمسجد ، واخراج حصاه وترابه للتبرك به وغيره ، ولا يستعمل الناس حصوه وقناديله وسائر ما وقف لمصالحه فى مصالحهم كالأعراس والأعزية وغير ذلك ، لأنها لم توقف لذلك » اهـ ملخصا .

وقال : « وينبغى لمن أخذ شيئا من المسجد مما يصان عنه ألا يلقيه فيه ، لأنه يطلب خلو المسجد منه بخلاف حصباء ونحوها من أجزاء وتراب المسجد وطينه ، لأن استبقاء ذلك فيه مطلوب » اهـ .

٢٢ — ويمنع الناس فى المساجد من استطراق[1] حلق الفقهاء والقراءة صيانة لحرمتها :

وفى الحديث : « لا حمى الا فى ثلاثة : البئر والفرس وحلقة القوم » أخرجه القاضى عياض مرسلا بسند جيد .

فأما حمى البئر فهو منتهى حريمها . وأما طول الفرس فهو ما دار عليه برسنه[2] اذا كان مربوطا . وأما حلقة القوم فهو استدارتهم فى الجلوس للتشاور .

٢٣ — ويكره لمن بالمسجد ينتظر الصلاة تشبيك أصابعه :

لقول أبى سعيد الخدرى : دخلت المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فاذا رجل وسط المسجد محتبيا مشبكا أصابعه بعضها فى بعض ، فأشار اليه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فلم يفطن الرجل لاشارته فالتفت صلى الله عليه وعلى آله وسلم الى أبى سعيد فقال : « اذا كان أحدكم فى المسجد فلا يشبكن فان التشبيك من الشيطان ، وان أحدكم لا يزال فى صلاة ما كان فى المسجد حتى يخرج منه » أخرجه أحمد بسند حسن .

قال فى « الدين الخالص » : وحكمة النهى عن التشبيك أنه من الشيطان ، وأنه يجلب النوم وهو من مظان الحدث ، وأن صورته تشبه صورة الاختلاف المنهى عنه بقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم للمصلين : « ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم » .

٢٤ — ويكره تحريما اتخاذ المسجد طريقا لغير عذر ، كأن لا يجد طريقا غيره أو يكون اماما به الى المسجد :

---

(١) اى المرور من وسط الحلقة التى يدرسون فيها .

(٢) الرسن بفتحتين : الحبل .

لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « لا يبقين فى المسجد باب الا سد الا باب أبى بكر » أخرجه الشيخان[1] .

وقالت المالكية : يكره كثرة المرور فيه ان كان بناؤه سابقا على الطريق والا فلا كراهة .

وقال الحنفيون : يفسق من اعتاد المرور فيه لغير عذر بلا نية اعتكاف ، بخلاف ما لو مر فيه مرة أو مرتين أو نوى الاعتكاف فلا يفسق .

وقالت الحنابلة : يكره اتخاذه طريقا للطاهر والجنب . وكذا الحائض ان أمن تلويثه الا لحاجة . ومنها كونه طريقا قريبا .

وقالت الشافعية : يجوز المرور فيه للطاهر مطلقا وللجنب لحاجة والا كره كما يكره للحائض ولو لحاجة ان أمنت تلويث المسجد والا حرم .

* * *

فعلى الأخ المسلم أن يلاحظ كل هذا وأن يعمل على تنفيذه حتى يكون من المؤمنين الذين يصونون المساجد ، والذين يعرفون حرمتها .

مع ملاحظة كذلك أنه يلزم تطهير المساجد من أدران المحدثات والعوائد .

ولهذا ، فاننى أريد أن أذكرك بالاضافة الى ما وقفت عليه بما ذكره الامام محمود خطاب السبكى فى الدين الخالص ج ٣ ، تحت عنوان :

بدع المساجد

وهى كثيرة كاتخاذ المحاريب فيها ، وزخرفتها ، وتعدد الجماعة فيها ، .. ثم قال : ومنها :

١ ــ **كثرتها فى البلد لغير حاجة** .. لأنه كما يقول : يجب بناء المساجد فى الأمصار والقرى وغيرها بحسب الحاجة ، وهى أحب البقاع الى الله تعالى ، وأبغضها الى الله الأسواق .

ومن المحدث : كثرة المساجد فى الجهة الواحدة لغير حاجة ، لما فيه من تفريق الجمع ، وتشتيت شمل المصلين ، وتعديد الكلمة وفوات حكمة مشروعية الجماعة . وهى اتحاد الكلمة وائتلاف القلوب والتعاون والتعاضد . قال فى « كشاف القناع » : ويحرم أن يبنى مسجد الى جنب مسجد الا لحاجة كضيق الأول وخوف فتنة باجتماعهم فى مسجد واحد . اهـ .

---

(١) هو بعض حديث لفظه عند البخارى عن ابى سعيد الخدرى .

وقال فى « المنتهى » : ويحرم بنـــاء مسجد يراد به الضرر لمسجد بقربه .. اهـ .

٢ ــ **غلق المساجد** : لأن المساجد بنيت للطاعة فى كل وقت ، والجلوس فيها مستحب للعبادة كاعتكاف وقراءة قرآن أو علم وسماع موعظة وانتظار صلاة .

وعليه : فالسنة فتح المساجد فى كل الأوقات الا لضرورة كما كان الحال فى عهد النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم والخلفاء الراشدين والسلف الصالح ، وأما غلقها نهارا فى غير أول الوقت فبدعة ممنوعة قد تؤدى الى تضييع الصلاة ، فانه لا يتيسر لكل واحد الذهاب الى المسجد فى أول الوقت . وفى غلقها صد عن سبيل الله وسعى فى خراب المساجد مما بنيت له ، قال تعالى : « **ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها** »[1] .

ومن التخريب : منع المصلين والمتعبدين من دخولها . وقد نشأ من ذلك بدعة أخرى مذمومة ، وهى ما اعتاده خدمة المساجد من طرد المصلين أو طلاب العلم بعد صلاة العشاء . ومن كان فى صلاة ألجأوه الى تخفيفها ، وفى هذا تهويش على المتعبدين وصد عن طاعة الله ، قال فى « البحر الرائق » : « وكره غلق باب المسجد لأنه يشبه المنع من الصلاة . وقيل : لا بأس به اذا خيف على متاع المسجد » اهـ .

أما غلقها لضرورة كخوف امتهانها وخشية ضياع شىء منها ، فجائز ان لم تدع حاجة الى فتحها كتعليم العلم أو وجود معتكف فيها يتأذى بغلقها ، والا حرم الا ان تيقن امتهانها أو ضياع شىء من أثاثها ، فيجوز غلقها حينئذ . فان درء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

قال النووى فى « المجموع » : « لا بأس باغلاق المسجد فى غير وقت الصلاة لصيانته أو لحفظ آلاته ، هكذا قالوا . وهذا اذا خيف امتهانها وضياع ما فيها ولم يدع الى فتحها حاجة . وهذا اذا لم يخف من فتحها مفسدة ، ولا انتهـــاك حرمتها وكان فى فتحها رفق بالناس فالسنة فتحها » اهـ .

وقال فى « كشاف القناع » : « ويباح غلق أبوابه فى غير أوقات

---

(١) البقرة : ١١٤

الصلاة ، لئلا يدخله من يكره دخوله اليه كمجنون وسكران وطفل لا يميز » اهـ .

٣ ــ **الرقص والغناء** : وفى ذلك يقول السيوطى فى كتاب الأمر بالاتباع والنهى عن الابتداع : ومن ذلك ــ يعنى المحدثات ــ : الرقص والغناء فى المساجد وضرب الدف أو الرباب وغيرهما من آلات الطرب ، فمن فعل ذلك فى المسجد فهو مبتدع ضال مستحق للطرد والضرب ، لأنه استخف بما أمر الله بتعظيمه ، قال تعالى : « **فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه** »[1] أى يتلى فيها كتابه ، وبيوت الله هى المساجد .. اهـ .

٤ ــ **ومن ذلك وضع كرسى مرتفع فى المسجد** يتلى عليه شىء من القرآن بصوت مرتفع يوم الجمعة وقبل اقامة الصلاة فى غيرها ، فيحصل من التشويش على المصلين ما لا يمكن معه أداء الصلاة على وجهها .

قال ابن الحاج فى المدخل : ومن هذا الباب الكرسى الكبير يوضع فى الجامع لكى يقرأ القارىء عليه ولا ضرورة تدعو لذلك لوجهين :

الأول : أنه يشغل من المسجد موضعا كبيرا وهو وقف على المصلين .

الثانى : أنهم يقرأون عند اجتماع الناس لانتظار الصلاة ، فمنهم المصلى ، ومنهم التالى ، ومنهم الذاكر ، ومنهم المفكر . فاذا قرأ القارىء اذ ذاك قطع عليهم ما هم فيه ، وقد نهى النبى عليه الصلاة والسلام عن رفع الصوت بالقراءة فى المسجد بقوله : « لا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن »[2] وهو نص فى عين المسألة . اهـ . بتصرف .

٥ ــ **الاحتفال فيها بالمولد وغيره** :

وذلك كما يقول فى الدين الخالص : لأنه قد جرت العادة بالاحتفال بالمولد وغيره فى المساجد ، وهو أمر محدث قبيح لم يقع من السلف ولم يستحسنوه ، وفيه عدة مفاسد :

منها : اضاعة الأموال بكثرة الوقود فى المساجد وايقاد المصابيح فى الأضرحة ، وهو من الاسراف والعبذير المنهى عنه .

---

(١) النور : ٣٦

(٢) هو بعض حديث اخرجه احمد والبزار والطبرانى بسند صحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما .

وفى الحديث : « ان الله كره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، واضاعة المـال » أخرجه الشيخان عن المغيرة بن شعبة .

وقد أشار النووى الى هذا كذلك فقال فى المجموع : من البدع المنكرة ما يفعل فى كثير من البلدان من ايقاد القناديل الكثيرة العظيمة السرف فى ليال معروفة من السنة كليلة نصف شعبان ، فيحصل بسبب ذلك مفاسد كثيرة .

منها : مضاهاة المجوس فى الاعتناء بالنار والاكثار منها .

ومنها : اضاعة المـال فى غير وجهه .

ومنها : ما يترتب على ذلك فى كثير من المساجد من اجتماع الصبيان وأهل البطالة ولعبهم ورفع أصواتهم وامتهانهم المساجد وانتهاك حرمتها وحصول أوساخ فيها وغير ذلك من المفاسد التى يجب صيانة المسجد من أفرادها . اهـ .

ومنها : اسـتعمال الأغانى وآلات الطرب على الوجه المحـرم بالاجماع .

ومنها : قراءة القرآن على غير الوجه المشروع فيرجعون فيـه كترجيع الغنـاء ، ولا يراعون فيه ما يجب له من الاستماع والانصات والاحترام ، وهو مخـالف لمـا وصف الله به المؤمنـين فى قولـه : **« انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا .. »**[1] .

وقولـه : **« واذا سمعوا ما أنزل الى الرسـول ترى أعينـهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق .. »**[2] .

ومنها : اقامة حلقات الذكر المحرف فى المساجد مع ارتفاع أصوات المنشدين والتصفيق الحاد من رئيس الراقصين ، وقد يضربون على البازة ونحوها أثناء الذكر وفى المسجد ، وكل هذا ممنوع باجماع العلماء ، ولم يكن فى عهد السلف الصالح .

ومنها : اتخاذ قبور الأنبياء والأولياء عيدا وهو ممنوع شرعا ، لحديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، ولا تجعلوا قبرى عيدا ، وصلوا على أينما كنتم ، فان صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » أخرجه أبو داوود بسند حسن .

---

(١) الأنفال : ٢ (٢) المـائدة : ٨٣

٦ ــ **ومن البدع المذمومة** : زيادة النـــور فى المســـاجد والمـــآذن ليلة أول جمعة من رجب ، وليلة السابع والعشرين منه ، وليلة نصف شعبان ، وليالى رمضان ، وليلتى العيد وغيرها من ليالى المواسم المحدثة ، فانها اسراف وتبذير لم يكن فى زمن السلف الصالح[1] .

* * *

فعلى الأخ المسلم أن يلاحظ كل هذا حتى لا يقع فيه ، وحتى يكون كذلك من المؤمنين المعمرين لبيوت الله المحافظين على حرمتها على أساس من هـــذا الفقه الذى وقفنا عليه والذى أرجو أن يكون دائما وأبدا فى ذاكرتنا ونصب أعيننا .

* * *

واذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قد رغبنا ــ كما جاء فى نص الوصية التى ندور حولها ــ فى اخراج القمامة من المساجد ، فقال : « واخراج القمامة منها مهور الحور العين » :

فاننى أرى الآن أن أقف معك أولا على أهم ما يتعلق بالحور العين ، وهو : ما ذكره القرطبى فى كتابه « التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة » حيث يقول ما مضمونه :

ان الآدميات فى الجنة على سن واحد وأما الحور العين فأصناف مصنفة صغار وكبار على ما اشتهت أنفس أهل الجنة .

ثم يروى بعد ذلك حديثا رواه الترمذى عن على رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان فى الجنة لمجتمعا للحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها ، قال يقلن : نحن الخالدات فلا نبيد ، ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له » . وفى الباب : عن أبى هريرة وأبى سعيد وأنس قال أبو عيسى : حديث على حديث غريب .

وقالت عائشة رضى الله عنها : ان الحور العين اذا قلن هـــذه المقالة أجابهن المؤمنات من نساء أهل الدنيا : نحن المصليات وما صليتن ، ونحن الصائمات وما صمتن ، ونحن المتوضئات وما توضأتن ، ونحن المتصدقات وما تصدقتن . قالت عائشة : فغلبتهن . والله أعلم .

---

(١) وهناك بدع أخرى تستطيع أن تقف عليها وبتوسع فى الدين الخالص ج ٣ ، والابداع فى مضار الابتداع للشيخ على محفوظ رحمه الله .

وذكر ابن وهب عن محمد بن كعب القرظى أنه قال : والله الذى لا اله الا هو لو أن امرأة من الحور العين أطلعت سوارها من العرش لأطفأ سوارها نور الشمس والقمر فكيف المسورة وأن ما خلق الله شيئا تلبسه الا عليه مثل ما عليها من ثياب وحلى .

وقال أبو هريرة : ان فى الجنة حوراء يقال لها العيناء ، اذا مشت مشى حولها سبعون ألف وصيف « عن يمينها وعن يسارها كذلك » وهى تقول : أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ؟

وقال ابن عباس : ان فى الجنة حورا ، يقال لها لعبة لو بزقت فى البحر لعذب ماء البحر كله ، مكتوب على نحرها : من أحب أن يكون له مثلى فليعمل بطاعة ربى عز وجل .

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه وصف حوراء ليلة الاسراء فقال : ولقد رأيت جبينها كالهلال فى طول البدر منها ألف وثلاثون ذراعا ، فى رأسها مائة ضفيرة ما بين الضفيرة والضفيرة سبعون ألف ذؤابة ، والذؤابة أضوأ من البدر مكلل بالدر وصفوف الجواهر ، على جبينها سطران مكتوبان بالدر والجواهر ، فى السطر الأول : بسم الله الرحمن الرحيم . وفى السطر الثانى : من أراد مثلى فليعمل بطاعة ربى . فقال جبريل : يا محمد هـذه وأمثالها لأمتك ، فأبشر يا محمد وبشر أمتك وأمرهم بالاجتهاد .

* * *

وهذا الذى قاله جبريل عليه السلام لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو وأمثاله من الأعمال الصالحة : مهور الحور العين والى هذا يشير الله سبحانه وتعالى فى قوله : **« وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هـذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ، ولهم فيها أزواج مطهرة ، وهم فيها خالدون »**[1] .

فـ « مطهرة » : نعت للأزواج ، ومطهرة فى اللغة : أجمع من طاهرة وأبلغ ، ومعنى هذه الطهارة من الحيض والبصاق وسائر أقذار الآدميات . ذكر عبد الرزاق ، قال : أخبرنى الثورى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد : مطهرة ، قال : لا يبلن ولا يتغوطن ولا يلدن ولا يحضن ولا يمنين ولا يبصقن .

---

(١) البقرة : ٢٥

وقد ذكر القرطبى فى كتابه « التذكرة » بعض الأخبار التى منها : ما روى عن ثابت أنه قال : كان أبى من القوامين لله فى سواد الليل ، قال : رأيت ذات ليلة فى منامى امرأة لا تشبه النساء ، فقلت لها : من أنت ؟ فقالت : حوراء أمة الله ، فقلت لها : زوجينى نفسك ، فقالت : اخطبنى من عند ربى وأمهرنى ، فقلت : وما مهرك ؟ فقالت : طول التهجد .

وأنشدوا فى هذا :

يا خاطب الحوراء فى خدرها ... وطالبا ذاك على قدرها
انهض بجد لا تكن وانيا ... وجاهد النفس على صبرها
وجانب الناس وارفضهم ... وحالف الوحدة فى ذكرها
وقم اذا الليل بدا وجهه ... وصم نهارا فهو من مهرها
فلو رأت عيناك اقبالها ... وقد بدت رمانتا صدرها
وهى تماشى بين أترابها ... وعقدها يشرق فى نحرها
لهان فى نفسك هذا الذى ... تراه فى دنياك من زهرها

* * *

فلتذكر أخا الاسلام كل هذا ، ولتكن من المؤمنين عمارى المساجد الذين يحرصون على اخراج القمامة منها حتى يفوزوا بالحور العين ، اللاتى يقلن كما ورد فى حديث شريف[1] : « نحن الخالدات فلا نبيد ، ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، ونحن المقيمات فلا نظعن ، طوبى لمن كان لنا وكنا له » .

* * *

وليذكر كذلك هذا الحديث القدسى الذى جاء فيه :

« ان بيوتى فى الأرض المساجد وزوارى فيها عمارها ، فطوبى لمن تطهر فى بيته وزارنى فى بيتى ، وحق على المزور أن يكرم زائره » .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من عباده المؤمنين المعمرين لبيوته المكرمين برحمته ومغفرته .. آمين .

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم فى صفة أهل الجنة بسند ضعيف .

الوصية السابعة والأربعون

عن معدان بن أبى طلحة رضى الله عنه قال : لقيت ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : أخبرنى بعمل أعمله يدخلنى الجنة[1] ، أو قال قلت : بأحب الأعمال الى الله ، فسكت ، ثم سألته فسكت ، ثم سألته الثالثة ، فقال : سألت ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« عليك بكثرة السجود ، فانك لا تسجد لله سجدة الا رفعك الله بها درجة ، وحط بها عنك خطيئة » ..

(رواه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه)

* * *

فكن أخا الاسلام :

كهذا الصحابى الموفق الذى سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العمل الذى به أو بسببه يكون أهلا لدخول الجنة التى فيها لعباد الله الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

* * *

واذا كان الصحابى الجليل قد سأل عن هذا الخير ، أو عن أحب الأعمال الى الله تبارك وتعالى ، ثم أجابه الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك بقوله : « عليك بكثرة السجود .. » :

فان المراد بالاكثار من السجود هو الصلاة التى هى خير الأعمال وأحبها الى الله :

فعن أبى أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ما أذن الله لعبد فى شىء أفضل من ركعتين يصليهما ، وان البر ليذر[2] فوق رأس العبد ما دام فى صلاته » الحديث رواه أحمد والترمذى وصححه السيوطى .

---

(١) أى يدخلنى الله به أو بسببه الجنة .

(٢) أى ينثر .

وقال مالك فى الموطأ : بلغنى أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولن يحافظ على الوضوء الا مؤمن » .

* * *

واذا كان كثرة السجود فى الصلاة ــ فرضها ونفلها ــ من الأعمال الموصلة الى الجنة : فقد ورد هذا ــ بضمان الرسول صلى الله عليه وسلم ــ :

عن ربيعة بن مالك الأسلمى ، قال : قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « سل » فقلت : أسألك مرافقتك فى الجنة ، فقال : « أو غير ذلك » ؟ قلت : هو ذاك ، قال : فأعنى على نفسك بكثرة السجود » رواه مسلم .

وكلمة : « فأعنى على نفسك بكثرة السجود » : معناها أنه لابد وأن يجد ويجتهد فى تحقيقه ، وذلك بالاكثار من التقرب الى الله تعالى بالصلوات فرضها ونفلها .. ولابد وأن يستعين بالله تعالى على هذا ، لأنه كما يقول الشاعر :

اذا لم يكن عون من الله للفتى
فأول ما يجنى عليه اجتهاده

روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن ربه عز وجل ، قال : « من عادى لى وليا ، فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب الى عبدى بشىء أحب الى مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته ، كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » .

والفرائض : هى كل ما أوجبه الله على عباده ، والصلاة من أعظمها .

والنوافل : ما زاد على الفرائض ، والصلاة فى بابها من أعظمها أيضا .

قال النبراوى فى شرح الأربعين النووية :

.. وأما الأفضل على الاطلاق بعد الشهادتين ، فهو الصلاة عندنا ، فنفلها أفضل النوافل ، وفرضها أفضل الفروض ، لما صح من قوله

صلى الله عليه وسلم : « الصلاة خير موضوع[١] ، فمن شاء استكثر ومن شاء استقل » أخرجه ابن حبان والحاكم .

والصلاة — فى نظر الاسلام — هى الحد الفاصل بين المسلم والكافر ، والبار والفاجر ، وانها من الاسلام بمنزلة الرأس من الجسد ، فمن أداها كما ينبغى ، فهو مسلم بار ، ومن تركها فهو كافر فاجر .

روى الطبرانى فى الأوسط بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « لا ايمان لمن لا أمانة له ، ولا صلاة لمن لا طهور له ، ولا دين لمن لا صلاة له ، انما موضع الصلاة من الدين ، كموضع الرأس من الجسد » .

والصلاة نور يتلألأ فى قلب المؤمن ، ويسطع على وجهه ، وينعكس على جوارحه .. نور يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، نور يمشى به المؤمن فى الناس ، فيرى به ما لا يراه الناظرون ، نور يسعى بين يديه ، وعن يمينه يوم القيامة :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الطهور[٢] شطر[٣] الايمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمدلله تملآن — أو تملأ — ما بين السموات والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها » رواه مسلم .

وروى ابن حبان باسناد حسن ، عن أبى الدرداء رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « من مشى فى ظلمة الليل الى المساجد آتاه الله نورا يوم القيامة » .

وروى الطبرانى عن أبى الدرداء — أيضا — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « من مشى فى ظلمة الليل الى المسجد ، لقى الله عز وجل بنور يوم القيامة » .

* * *

---

(١) أى خير شىء وضعه الشارع .

(٢) الطهور — بضم الطاء — معناه : التطهر ، واما الطهور — بفتح الطاء — فهو : ما يتطهر به من ماء أو تراب .

(٣) الشطر هو : النصف .

وأنت كمسلم[١] بالغ عاقل : مطالب شرعا ــ فقط ــ بأداء ما فرض الله عليك من الصلوات :

كالصلوات الخمس والجمعة :

لحديث طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه ، قال : جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم من قبل نجد ثائر الرأس يسأل عن الاسلام ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم : « خمس صلوات فى اليوم والليلة ، قال : هل على غيرهن ؟ قال : لا .. الا أن تطوع »[٢] الحديث أخرجه مالك والشيخان .

ولهذا .. فاننى أحب أن أذكرك اتماما للفائدة ، بأقسام الصلاة :

وهى ثلاثة عند الأحناف : فرض ، وواجب ، ونفل .. وهو يشمل المسنون والمندوب .

وعند غيرهم : فرض ونفل .

فالفرض قسمان :

(أ) عينى وهو ما يلزم بتحصيله كل من كلف به ، كالصلوات الخمس والجمعة .

(ب) وفرض كفائى وهو ما يلزم تحصيله فى ذاته ، فان أداه البعض سقط الطلب عن الجميع ، كصلاة الجنازة والا أثم الكل .

والواجب قسمان :

(أ) واجب لعينه وهو ما لا يتعلق وجوبه بعارض كالوتر وصلاة العيدين وسجدة التلاوة .

(ب) واجب لغيره وهو ما يتعلق وجوبه بعارض كسجدتى السهو وركعتى الطواف وقضاء نفل أفسده والمنذور .

والنفل قسمان : مؤكد كركعتى الفجر ، وغير مؤكد كأربع قبل العصر .

فعلى الأخ المسلم أن يلاحظ هــذا ، حتى يعرف الفرق بين الفرض والواجب والسنة وحتى يكون كذلك متفقها فى دينه .

* * *

---

(١) أو مسلمة بالغة عاقلة .

(٢) تطوع ، بتشديد الطاء والواو ، أصله تتطوع بتاءين أدغمت ثانيتهما فى الطاء ، ويجوز تخفيف الطاء بحذف احدى التاءين .

وعليه كذلك أن يلاحظ أنه مطالب كذلك ـ خدمة لنفسه ـ بالاضافة الى أدائه للصلوات الخمس أداء متقنا : بالاكثار من التطوع ، وذلك حتى يجبر ما عسى أن يكون قد وقع فى الفرائض من نقص :

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ان أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة ، يقول ربنا للملائكته وهو أعلم : انظروا فى صلاة عبدى أتمها أم نقصها ؟ فان كانت تامة كتبت له تامة ، وان كان انتقص منها شيئا قال : انظروا هل لعبدى من تطوع ؟ فان كان له تطوع ، قال : أتموا لعبدى فريضته من تطوعه ، ثم تؤخذ الأعمال على ذلك » رواه أبو داوود .

* * *

والتطوع ينقسم الى تطوع مطلق ، والى تطوع مقيد .

أما التطوع المطلق ، فانه يقتصر فيه على نية الصلاة ، قال النووى : فاذا شرع فى تطوع ولم ينو عددا فله أن يسلم من ركعة وله أن يزيد فيجعلها ركعتين أو ثلاثة أو مائة أو ألفا أو غير ذلك . ولو صلى عددا لا يعلمه ثم سلم صح بلا خلاف .. اتفق عليه أصحابنا ونص عليه الشافعى فى الامـلاء .

وروى البيهقى باسناده أن أبا ذر رضى الله عنه صلى عددا كثيرا فلما سلم قال له الأحنف بن قيس رحمه الله : هل تدرى انصرفت على شفع أم على وتر ؟ قال : ان لا أكن أدرى فان الله يدرى ، انى سمعت خليلى أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من عبد يسجد لله سجدة الا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة » رواه الدارمى فى مسنده بسند صحيح الا رجلا اختلفوا فى عدالته .

وأما التطوع المقيد فانه ينقسم الى ما شرع تبعا للفرائض ويسمى السنن الراتبة ، ويشمل سنة الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء وقد ورد فى هـذا عدة أحاديث ، منها ما ورد[1] :

عن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : حفظت من النبى صلى الله عليه وسلم عشر ركعات : « ركعتين قبل الظهر ، وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب فى بيته ، وركعتين بعد العشاء فى بيته ، وركعتين قبل صلاة الصبح » رواه البخارى .

---

(١) كما جاء فى فقه السنة ج ٢

وعن المغيرة بن سليمان ، قال : سمعت ابن عمر يقول : « كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يدع ركعتين قبل الظهر ، وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب ، وركعتين بعد العشاء ، وركعتين قبل الصبح » رواه أحمد بسند جيد .

وعن أم حبيبة بنت أبى سفيان أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « من صلى فى يوم وليلة اثنتى عشرة ركعة بنى له بيت فى الجنة : أربعا قبل الظهر ، وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب ، وركعتين بعد العشاء ، وركعتين قبل صلاة الفجر » رواه الترمذى وقال حسن صحيح ، ورواه مسلم مختصرا .

وهذا بالنسبة للسنن المؤكدة[1] ، أما بالنسبة لغير المؤكدة[2] ، فقد ورد كذلك فيها :

عن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله امرءا صلى قبل العصر أربعا » رواه أحمد وأبو داوود والترمذى وحسنه وابن حبان وصححه ، وكذا صححه ابن خزيمة .

وروى البخارى عن عبد الله بن مغفل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « صلوا قبل المغرب ، صلوا قبل المغرب » ثم قال فى الثالثة : « لمن شاء » كراهية أن يتخذها الناس سنة .

وفى رواية لابن حبان : أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى قبل المغرب ركعتين . وفى مسلم عن ابن عباس ، قال : كنا نصلى ركعتين قبل غروب الشمس وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرانا فلم يأمرنا ولم ينهنا . قال الحافظ فى الفتح : ومجموع الأدلة يرشد الى استحباب تخفيفها كما فى ركعتى الفجر[3] .

---

(١) السنة المؤكدة : هى ما ثبتت مواظبة النبى صلى الله عليه وسلم عليها ، واشتد الحاحه فى طلبها ، ورغب فيها ، مع عدم وجود ما يدل على وجوبها .

(٢) وغير المؤكدة : هى التى تركها النبى فى بعض الأحيان ولم يرغب فيها كثيرا ، ويسميها بعض الفقهاء : مندوبا ، أو مستحبا .

(٣) فقد ورد عن عائشة أنها قالت : كان قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الركعتين قبل صلاة الفجر قدر ما يقرأ فاتحة الكتاب . رواه أحمد والنسائى والبيهقى ومالك والطحاوى .

وروى الجماعة من حديث عبد الله بن مغفل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « بين كل أذانين صلاة » ثم قال فى الثالثة « لمن شاء » .

ولابن حبان من حديث ابن الزبير أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من صلاة مفروضة الا وبين يديها ركعتان » .

وهذا يشير الى أنه من السنة أن تصلى ركعتين قبل العشاء .

مع ملاحظة كذلك أنه من السنة الفصل بين الفريضة والنافلة بمقدار ختم الصلاة :

فعن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى العصر ، فقام رجل يصلى فرآه عمر فقال له : اجلس فانما هلك أهل الكتاب أنه لم يكن لصلاتهم فصل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحسن ابن الخطاب » رواه أحمد بسند صحيح .

* * *

وأما الوتر فانه كذلك سنة مؤكدة حث عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ورغب فيه :

فعن على رضى الله عنه أنه قال : ان الوتر ليس بحتم[1] كصلاتكم المكتوبة ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوتر ، ثم قال : « يا أهل القرآن أوتروا ، فان الله وتر[2] يحب الوتر » رواه أحمد وأصحاب السنن وحسنه الترمذى ورواه الحاكم أيضا وصححه .

وقد أجمع العلماء على أن وقت الوتر لا يدخل الا بعد صلاة العشاء وأنه يمتد الى الفجر .

ويستحب تعجيله لمن ظن أنه لا يستيقظ آخر الليل ، وتأخيره لمن ظن أنه يستيقظ آخره .

وأما عن عدد ركعات الوتر ، فقد روى الترمذى فيه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه أخبر بأن الوتر : بثلاث عشرة ركعة ، واحدى عشرة ركعة ، وتسع ، وسبع ، وخمس ، وثلاث ، وواحدة .

قال اسحاق بن ابراهيم : معنى ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم كان يوتر بثلاث عشرة ركعة أنه كان يصلى من الليل ثلاث عشرة ركعة مع الوتر ، يعنى من جملتها فنسبت صلاة الليل الى الوتر .

---

(١) حتم : أى لازم .

(٢) أى أنه تعالى واحد يحب صلاة الوتر ويثيب عليها . قال نافع : وكان ابن عمر لا يصنع شيئا الا وترا .

ويجوز أداء الوتر ركعتين ركعتين[1] ثم صلاة ركعة بتشهد وسلام ، كما يجوز صلاة الكل بتشهدين وسلام ، فيصل الركعات بعضها ببعض من غير أن يتشهد الا فى الركعة التى هى قبل الأخيرة فيتشهد فيها ثم يقوم الى الركعة الأخيرة فيصليها ويتشهد فيها ويسلم ، ويجوز أداء الكل بتشهد واحد وسلام فى الركعة الأخيرة ، كل ذلك جائز وارد عن النبى صلى الله عليه وسلم[2] .

ويجوز القراءة فى الوتر بعد الفاتحة بأى شىء من القرآن ، قال على : ليس من القرآن شىء مهجور فأوتر بما شئت ، ولكن المستحب اذا أوتر بثلاث أن يقرأ فى الأولى : بعد الفاتحة : « **سبح اسم ربك الأعلى** » وفى الثانية : « **قل يا أيها الكافرون** » وفى الثالثة : « **قل هو الله أحد** » ، والمعوذتين » :

لما رواه أحمد وأبو داوود والترمذى وحسنه عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فى الركعة الأولى بـ « **سبح اسم ربك الأعلى** » وفى الثانية بـ « **قل يا أيها الكافرون** » وفى الثالثة بـ « **قل هو الله أحد** » ، والمعوذتين » .

وكذلك بالنسبة لسنة الفجر ، فانه من السنة بعد الفاتحة أن تقرأ فى الركعة الأولى : « **قل يا أيها الكافرون** » وفى الثانية : « **قل هو الله أحد** » ، وبالنسبة لسنة المغرب البعدية ، فعن ابن مسعود أنه قال : ما أحصى ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فى الركعتين بعد المغرب وفى الركعتين قبل الفجر بـ « **قل يا أيها الكافرون** » و« **قل هو الله أحد** » رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه .

وأما عن القنوت فى الوتر ، فانه يشرع فى جميع السنة ، لما رواه أحمد وأهل السنن وغيرهم من حديث الحسن بن على رضى الله عنه قال : علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن فى الوتر : « اللهم اهدنى فيمن هديت ، وعافنى فيمن عافيت ، وتولنى فيمن توليت ، وبارك لى فيما أعطيت ، وقنى شر ما قضيت ، فانك تقضى ولا يقضى عليك ، وانه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت ، وصلى الله على النبى محمد » قال الترمذى : هذا حديث حسن . قال :

---

(١) أى يسلم على رأس كل ركعتين .

(٢) راجع الجزء الثانى من فقه السنة للوقوف على تفصيل هذا .

ولا يعرف عن النبى صلى الله عليه وسلم فى القنوت شىء أحسن من هـذا[١] .

* * *

وهناك سنن أخرى من الخير كذلك أن تؤديها وتحرص على الفوز بثوابها ، وهى :

١ ــ قيـام الليـل :

وهو من أعظم القربات وأحبها الى الله تبارك وتعالى ، وقد أمر الله به نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فقال : « **ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا** »[٢] .

وهذا الأمر ــ كما يقول فى فقه السنة ــ وان كان خاصا برسول الله صلى الله عليه وسلم الا أن عامة المسـلمين يدخلون فيه بحكم أنهم مطالبون بالاقتداء به صلى الله عليه وسلم .

وقد رغب الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين فى قيام الليل ، فقال مبينا أن المحافظين عليه هم المحسنون المستحقون لخيره ورحمته :

« **ان المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم ، انهـم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون**[٣] . **وبالأسحار هم يستغفرون** »[٤] .

وقال مادحا اياهم ومثنيا عليهم وناظما لهم فى جملة عباده الصالحين الذين يستحقون رحمته :

« **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما** »[٥] ..

الى آخر الآيات القرآنية التى شهد الله سبحانه وتعالى لهم فيها بالايمان بآياتـه ، ونفى التسوية بينهم وبين غيرهم ممن لم يتصف بوصفهم .

أما ما جاء فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ترغيبا فيه ، فهاك بعضه :

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله .. أخبرنى

---

(١) وهناك كلام آخر من الأفضل أن ترجع اليه لتقرأه بالتفصيل فى الجزء الثانى من فقه السنة .

(٢) الاسراء : ٧٩

(٣) يهجعون : اى ينامون .

(٤) الذاريات : ١٥ ــ ١٨

(٥) الفرقان : ٦٣ ، ٦٤

بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى عن النار ، قال : « لقد سألت عن عظيم وأنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه : تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير[١] : الصوم جنة[٢] ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل ، ثم تلا : « **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** »[٣] ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه . قلت : بلى يا رسول الله ، قال : رأس الأمر الاسلام ، وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد ، ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، فأخذ بلسانه وقال : كف عليك هذا . قلت : يا نبى الله .. وانا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك[٤] وهل يكب الناس فى النار على وجوههم — أو قال على مناخرهم — الا حصائد ألسنتهم » رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

وقد قرأت حول قوله صلى الله عليه وسلم : « وصلاة الرجل » : انما خصه بالذكر لأن السائل كان رجلا ، أو لأن الخبر غالبا فى الرجال اذ أكثر أهل النار النساء ، فالمرأة مثل الرجل فى ذلك . وقوله : « فى جوف الليل » لأن الصلاة فيه مطلقا أفضل منها فى النهار ، لأن الخشوع والتضرع فيه أسهل وأكمل ، ومن ثم كانت بابا عظيما من أبواب الخير لأنه يتوصل بها الى صفاء السر ودوام الشهود والذكر ، ثم هى فيه بعد النوم أفضل منها فيه قبله وتحصل فضيلة قيامه بصلاة ركعتين لخبر « من قام من الليل قدر حلب شاة كتب من قوام الليل » . واختلفوا فى أفضل أجزائه ، والذى دلت عليه الأحاديث الصحيحة ما ذهب اليه امامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه من أنه ان جزأه نصفين ، فالنصف الثانى أفضل ، وان جزأه أثلاثا فالثلث الأخير أفضل ، أو أسداسا فالسدس الرابع والخامس أفضل ، وهذا هو الأكمل على الاطلاق لأنه الذى واظب عليه النبى صلى الله عليه وسلم ، وقيل فيه : أفضل الصلاة صلاة داوود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه . وقوله :

---

(١) وفى رواية : الا أدلك على أبواب الجنة .

(٢) أى وقاية .

(٣) السجدة : ١٦ ، ١٧

(٤) أى فقدتك أمك . .

« ثم تلا » ــ أى رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ احتجاجا على فضل صلاة الليل : **« تتجافى جنوبهم »** أى تتنحى وترتفع **« عن المضاجع »** أى مواضع الاضطجاع للنوم .. قيل : وهذا كناية عن الصلاة بين المغرب والعشاء ، وقيل : عن انتظار العشاء لأنهم كانوا يؤخرونها الى نحو ثلث الليل . وقيل : عن صلاة العشاء والصبح فى جماعة ، والجمهور على أنه كناية عن صلاة النوافل بالليل وهو الذى دل عليه سياق الحديث والآية حيث قال : **« فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين .. »** الخ . فهو دال على أنهم أخفوا عملهم فجوزوا بما أخفى لهم من قرة الأعين ، وانما يتم اخفاؤه بالصلاة فى جوف الليل لأن المصلى حينئذ ترك نومه ولذاته وآثر ما يرجوه من ربه عليهما فحق له أن يجازى بذلك الجزاء العظيم ، وفى الصحيحين يقول الله تبارك وتعالى : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .. » الحديث ، وقد جاء أن الله تعالى يباهى بقوام الليل فى الظلام الملائكة ، يقول : « انظروا الى عبادى قد قاموا فى ظلمة الليل حين لا يراهم أحد غيرى أشهدكم أنى قد أبحتهم دار كرامتى » ولا شك ولا خفاء أن الليل محل الخلوة والاختصاص ، ومجالسة الأحبة ، ومطية المحبين كما قيل :

وما الليل الا للمحب مطية
وميدان سبق فاستبق تبلغ المنى

وفى رواية لمسلم : « ان فى الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله تعالى خيرا من أمور الدنيا والآخرة الا أعطاه اياه وذلك فى كل ليلة » وقيل : أوحى الله الى داوود عليه السلام : « كذب من ادعى محبتى اذا جن ليله نام عنى » وقيل : اذا جن الليل بظلامه يقول الله تعالى : « يا جبريل حرك أشجار المعاملة ، فاذا حركها قامت القلوب على باب المحبوب » وقيل :

ببابك عبد من عبيدك مذنب
كثير الخطايا جاء يسألك العفوا
فأنزل عليه العفو يا من بفضله
على قوم موسى أنزل المن والسلوى

وذكروا أن رابعة العدوية رضى الله عنها ، كانت اذا صلت العشاء قامت الى سطح لها ، وشدت عليها درعها وخمارها ، ثم تقول : الهى

غابت النجوم ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يدك ، ثم تقبل على صلاتها حتى اذا طلع الفجر قالت : هذا الليـــل قد أدبر ، وهذا النهـــار قد أسفر ، فليت شـــعرى ، أقبلت منى ليلتى فأهنى ، أم رددتها فأعزى .. وعزتك لو طردتنى عن بابك ما برحت عنه لمـــا وقع فى قلبى من محبتك .. ثم تنشـــد وتقول :

يـــا سرورى ومنيتى وعمـــــادى
وأنيـــسى وغـــايتى ومـــــرادى
أنت روح الفـــؤاد أنت رجـــائى
أنت لى مؤنس وشـــــوقك زادى
أنت لـــولاك يا حيـــــاتى وأنسى
ما تشـــتت فى فسـيح البـــــلاد
لك كـــم منـــة وكـــم لك فضـــل
من عطـــــاء ونعمـــــة وأيـــادى
حبـــــك الآن بغيـــتى ونعيـــمى
وجـــلاء لعـــين قلـــبى الصـــادى
ان تكن راضـــــيا عـــلى فـــانى
يا منى القلب قـــد بدا اســـعادى

* * *

فكن أخا الاسلام من الحريصين على قيام الليل ، وحسبك ترغيبا لك فيه ـــ بالاضافة الى ما وقفت عليه :

ما قاله سلمان الفارسى رضى الله عنه ، وهو قول رســـول الله صـــلى الله عليه وســـلم : « عليكم بقيـــام الليل فانه دأب الصالحين قبلكم ، ومقربة الى ربكم ، ومكفرة للسيئات ، ومنهاة عن الاثم ، ومطردة للداء عن الجسد » .

وقال سهل بن سعد : « جاء جبريل الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا محمد عش ما شئت فانك ميت ، واعمل ما شئت فانك مجزى به ، وأحبب من شئت فانك مفارقه ، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل وعزه استغناؤه عن الناس » .

وورد كذلك عن عبد الله بن سلام أن رسول الله صلى الله عليـــه وسلم ، قال : « أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا

الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيـــام : تدخلوا الجنة بسلام » رواه الحاكم وابن ماجه والترمذى وقال : حديث حسن صحيح •

* * *

مع ملاحظة كذلك أنه يسن لمن أراد قيام الليل :

— أن ينوى عند نومه قيام الليل :

فعن أبى الدرداء أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « من أتى فراشه وهو ينوى أن يقوم فيصلى من الليل فغلبته عينه حتى يصبح كتب له ما نوى ، وكان نومه صدقة عليه من ربه » رواه النسائى وابن ماجه بسند صحيح •

— وأن يمسح النوم عن وجهه عند الاستيقاظ ويتسوك وينظر فى السماء ثم يدعو بما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول : « لا اله الا أنت ســبحانك ، أستغفرك لذنبى وأسألك رحمتــك ، اللهم زدنى علما ولا تزغ قلبى بعد اذ هديتنى وهب لى من لدنك رحمة انك أنت الوهاب • الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور » •

ثم يقرأ الآيات العشر من أواخر سورة آل عمران : **« ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألــباب »**[1] الى آخر السورة ، ثم يقول :

« اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، واليك أنبت ، وبك خاصمت ، واليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت الله لا اله الا أنت » •

— وأن يفتتح صلاة الليل بركعتين خفيفتين ، ثم يصلى بعدهما ما شــاء :

فعن عائشة قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام من الليل يصلى افتتح صلاته بركعتين خفيفتين » رواه مسلم •

وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليــه وسلم ، قال : « اذا قام أحدكم من الليل فليفتتح صلاته بركعتين خفيفتين » رواه مســلم •

---

(١) آل عمران : ١٩٠

— وأن يوقظ أهله :

فعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « رحم الله امرءا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته ، فان أبت نضح فى وجهها الماء ، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها ، فان أبى نضحت فى وجهه الماء » .

وعنه أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « اذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصليا أو صلى ركعتين جميعا كتب فى الذاكرين والذاكرات » رواهما أبو داوود وغيره باسناد صحيح .

— وأن يترك الصلاة ويرقد اذا غلبه النعاس حتى يذهب عنه النوم :

فعن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : اذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه فلم يدر ما يقول فليضطجع » رواه مسلم .

وقال أنس : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد وحبل ممدود بين ساريتين ، فقال : « ما هذا » ؟ قالوا : لزينب تصلى ، اذا كسلت أو فترت أمسكت به . فقال : « حلوه .. ليصل أحدكم نشاطه فاذا كسل أو فتر فليرقد » متفق عليه .

— وأن لا يشق على نفسه بل يقوم من الليل بقدر ما تتسع له طاقته ، ويواظب عليه ولا يتركه الا لضرورة :

فعن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فوالله لا يمل الله حتى تملوا »[1] رواه البخارى ومسلم .

ورويا — كذلك — عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أى العمل أحب الى الله تعالى ؟ قال : « أدومه وان قل » .

— وأيضا ، لاحظ :

ان صلاة الليل تجوز فى أول الليل ووسطه وآخره ما دامت الصلاة بعد صلاة العشاء :

فعن أنس رضى الله عنه فى وصف صلاة الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما كنا نشاء أن نراه من الليل مصليا الا رأيناه ، وما كنا نشاء أن نراه نائما الا رأيناه ، وكان يصوم من الشهر حتى

---

(١) أى أن الله تعالى لا يقطع الثواب حتى تقطعوا العبادات .

نقول لا يفطر منه شيئا ، ويفطر حتى نقول لا يصوم منه شيئا » رواه أحمد والبخارى والنسائى .

قال الحافظ : لم يكن لتهجده صلى الله عليه وسلم وقت معين بل بحسب ما يتيسر له القيام .

ولكن الأفضل تأخيرها الى الثلث الأخير :

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ينزل ربنا عز وجل كل ليلة الى سماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعونى فأستجيب له ، من يسألنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له » رواه الجماعة .

وقال أبو مسلم لأبى ذر : أى قيام الليل أفضل ؟ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتنى فقال : « جوف الليل الغابر[1] وقليل فاعله » رواه أحمد باسناد جيد .

وليس لصلاة الليل عدد مخصوص ولا حد معين ، فهى تتحقق ولو بركعة الوتر بعد صلاة العشاء :

فعن سمرة بن جندب رضى الله عنه ، قال : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نصلى من الليل ما قل أو كثر ونجعل آخر ذلك وترا » رواه الطبرانى والبزار .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أنه قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلاة الليل ورغب فيها حتى قال : « عليكم بصلاة الليل ولو ركعة » رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط .

والأفضل المواظبة على احدى عشرة ركعة أو ثلاث عشرة ركعة ، وهو مخير بين أن يصليها وبين أن يقطعها :

قالت عائشة رضى الله عنها : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيد فى رمضان ولا غيره عن احدى عشرة ركعة ، يصلى أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلى أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلى أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلى ثلاثا ، فقلت : يا رسول الله .. أتنام قبل أن توتر ؟ فقال : « يا عائشة .. ان عينى تنامان ولا ينام قلبى » رواه البخارى ومسلم .

ورويا أيضا عن القاسم بن محمد ، قال : سمعت عائشة رضى الله

---

(١) الغابر : الباقى أو نصف الليل .

عنها ، تقول : كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل عشر ركعات ويوتر بسجدة .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الاسلام وكن منفذا له حتى لا تحرم من هذا الخير العظيم الذى به ستحيا حياة طيبة فى الدنيا والآخرة ان شاء الله ، والذى به كذلك ستكون من عباد الرحمن : « **الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . والذين يبيتون لربهم سجدا وقيـاما** »[1] ، و :

اغتنم ركعتين فى ظلمة الليل ... اذا كنت فارغا تستريحا
واذا ما هممت بالخوض الباطل ... فاجعل مكانه تسبيحا
واغتنام السكوت أفضل من خوض ... وان كنت بالحديث فصيحا

* * *

وأما الصلاة الثانية التى أنصحك كذلك بالتقرب الى الله تعالى بها ، فهى :

صلاة الضحى

فقد ورد فى فضلها :

عن أبى ذر رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « يصبح على كل سلامى[2] من أحدكم صدقة ، فكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن المنكر صدقة ، ويجزى[3] من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى » رواه أحمد ومسلم وأبو داوود .

وعن بريدة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « فى الانسان ستون وثلاثمائة مفصل عليه أن يتصدق عن كل مفصل منها صدقة ، قالوا : فمن الذى يطيق ذلك يا رسول الله ؟ قال : « النخامة فى المسجد يدفنها أو الشىء ينحيه عن الطريق ، فان لم يقدر فركعتا الضحى تجزىء عنه » .

قال الشوكانى معلقا على هذين الحديثين الشريفين : « والحديثان يدلان على عظم فضل الضحى وكبر موقعها وتأكد مشروعيتها وأن ركعتيها تجزيان عن ثلاثمائة وستين صدقة ، وما كان كذلك فهو حقيق

---

(١) الفرقان : ٦٣ ، ٦٤ (٢) أى عظام البدن ومفاصله .
(٣) يجزى — بفتح أوله — أى يكفى ، أو بضمه ويكون من الاجزاء .

بالمواظبة والمداومة • ويدلان أيضا : على مشروعية الاستكثار من التسبيح والتحميد والتهليل ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ودفن النخامة ، وتنحية ما يؤذى المـــار عن الطريق وسائر أنواع الطاعات ليسقط بذلك ما على الانسان من الصدقات اللازمة فى كل يوم » •

وهى عبادة مستحبة ، فمن شاء ثوابها فليؤديها والا فلا تثريب عليه فى تركها :

فعن أبى سعيد رضى الله عنه ، قال : « كان صلى الله عليه وسلم يصلى الضحى حتى نقول لا يدعها ، ويدعها حتى نقول لا يصليها » رواه الترمذى وحسنه •

ويبتدىء وقتها بارتفاع الشمس قدر رمح وينتهى حين الزوال ولكن المستحب أن تؤخر الى أن ترتفع الشمس ويشتد الحر :

فعن زيد بن أرقم رضى الله عنه ، قال : خرج النبى صلى الله عليه وســـلم على أهل قبـــاء[1] وهم يصلون الضحى ، فقال : « صـــلاة الأوابين[2] اذا رمضت الفصال[3] من الضحى » رواه أحمـــد ومسلم والترمذى •

وأقل ركعاتها اثنتان كما تقدم فى حديث أبى ذر وأكثر ما ثبت من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانى ركعات ، وأكثر ما ثبت من قوله اثنتا عشرة ركعة • وقد ذهب قوم ـــ منهم أبو جعفر الطبرى وبه جزم الحليمى والرويانى من الشافعية ـــ الى أنه لا حد لأكثرها • قال العراقى فى شرح الترمذى : لم أر عن أحد من الصحابة والتابعين أنه حصرها فى اثنتى عشرة ركعة ، وكذا قال السيوطى •

* * *

وكذلك أنصحك ، بـــ :

صـــلاة التســـبيح

فهى كما قال عبد الله بن المبارك رضى الله عنه ، صلاة مرغب فيها ، ويستحب أن يعتادها ـــ العبد المؤمن ـــ فى كل حين ولا يتغافل عنها •

---

(١) مكان بينه وبين المدينة نحو ميلين .

(٢) أى الراجعين الى الله .

(٣) رمضت : أى احترقت . والفصال جمع فصيل وهو ولد الناقة ، أى اذا وجدت الفصال حر الشمس ، ولا يكون ذلك الا عند ارتفاعها .

وحسب هذا العبد الموفق ــ ان شاء الله ــ اذا أراد أن يحافظ على صلاة التسبيح أن يقرأ الحديث الآتى :

عن عكرمة عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس ابن عبد المطلب : « يا عباس ، يا عماه ، ألا أعطيك ، ألا أمنحك ، ألا أحبوك[١] ، ألا أفعل بك عشر خصال[٢] ، اذا أنت فعلت ذلك غفر الله لك ذنبك أوله وآخره ، وقديمه وحديثه ، وخطأه وعمده ، وصغيره وكبيره ، وسره وعلانيته ، عشر خصال : أن تصلى أربع ركعات تقرأ فى كل ركعة بفاتحة الكتاب وسورة[٣] ، فاذا فرغت من القراءة فى أول ركعة فقل وأنت قائم : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله أكبر خمس عشرة ، ثم تركع فتقول وأنت راكع عشرا[٤] ، ثم ترفع رأسك من الركوع ، فتقولها عشرا ، ثم تهوى ساجدا فتقول وأنت ساجد عشرا ، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشرا ، ثم تسجد فتقولها عشرا ، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشرا[٥] . فذلك خمس وسبعون فى كل ركعة ، تفعل ذلك فى أربع ركعات . وان استطعت أن تصليها فى كل يوم مرة فافعل ، فان لم تستطع ففى كل جمعة مرة ، فان لم تفعل ففى كل سنة مرة ، فان لم تفعل ففى عمرك مرة » رواه أبو داوود وابن ماجه وابن خزيمة فى صحيحه والطبرانى . قال الحافظ : وقد روى هذا الحديث من طرق كثيرة ، وعن جماعة من الصحابة ، وأمثلها حديث عكرمة هذا ، وقد صححه جماعة منهم الحافظ أبو بكر الآجرى ، وشيخنا أبو محمد عبد الرحيم المصرى ، وشيخنا الحافظ أبو الحسن المقدسى رحمهم الله .

* * *

وأهم من كل هذا أخا الاسلام : أن تكون صلاتك ــ سواء أكانت فرضا أم نفلا ــ صلاة متقنة بتلك الصورة الخاشعة التى أشار الله

---

(١) أى أخصك .

(٢) أى أعلمك ما يكفر عشرة أنواع من ذنوبك .

(٣) أى سورة دون تقييد .

(٤) أى بعد ذكر الركوع ، وهو سبحان ربى العظيم ــ ثلاثا ــ وكذلك السجود .

(٥) أى فى جلسة الاستراحة قبل القيام .

سبحانه وتعالى اليها فى قوله : **« قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون »**[1] :

والا فان الله سبحانه وتعالى سيرفض صلاتك هذه ، وستكون كذلك كالمسىء فى صلاته :

فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : « دخل رجل المسجد فصلى ، ثم جاء الى النبى صلى الله عيله وسلم يسلم ، فرد عليه السلام ، وقال : ارجع فصل ، فانك لم تصل ، فرجع ففعل ذلك ثلاث مرات . قال : فقال : والذى بعثك بالحق ما أحسن غير هذا فعلمنى ؟

قال : اذا قمت الى الصلاة ، فكبر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع حتى تطمئن راكعا ، ثم ارفع حتى تعتدل قائما ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ، ثم افعل ذلك فى صلاتك كلها » رواه البخارى ومسلم .

وعن أبى عبد الله الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا لا يتم ركوعه وينقر فى سجوده وهو يصلى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو مات هذا على حالته هذه مات على غير ملة محمد صلى الله عليه وسلم » ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل الذى لا يتم ركوعه وينقر فى سجوده ، مثل الجائع يأكل التمرة والتمرتين لا يغنيان عنه شيئا » رواه الطبرانى فى الكبير .

وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان العبد اذا صلى فلم يتم صلاته خشوعها ولا ركوعها ، وأكثر الالتفات لم تقبل منه ، ومن جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله اليه وان كان على الله كريما » رواه الطبرانى .

وعن أبى مسعود البدرى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تجزىء صلاة الرجل حتى يقيم ظهره فى الركوع والسجود » رواه أحمد وأبو داوود واللفظ له .

وعن أبى قتادة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أسوأ الناس سرقة الذى يسرق من صلاته ، قالوا :

---

(١) المؤمنون : ١ ، ٢

يا رسول الله .. كيف يسرق من الصلاة ؟ قال : لا يتم ركوعها ولا سجودها ، أو قال : لا يقيم صلبه فى الركوع والسجود » رواه أحمد والحاكم .

* * *

فلاحظ كل هذا أخا الاسلام حتى تكون خاشعا فى صلاتك ، وحتى يقبلها الله تعالى منك كما عرفت .

* * *

وحسبك اذا أردت أن تكون موفقا فى صلاتك : أن تصلى كرسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يقول فى الحديث الصحيح : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » .

فعن عبد الله بن غنم رضى الله عنه : أن أبا مالك الأشعرى جمع قومه ، فقال : يا معشر الأشعريين ، اجتمعوا واجمعوا نساءكم ، وأبناءكم ، أعلمكم صلاة النبى صلى الله عليه وسلم التى كان يصلى لنا بالمدينة ، فاجتمعوا ، وجمعوا نساءهم وأبناءهم ، فتوضأ ، وأراهم كيف يتوضأ فأحصى[1] الوضوء الى أمكانه حتى أفاء الفيء[2] ، وانكسر الظل ، قام فأذن ، فصف الرجال فى أدنى الصف ، وصف الولدان خلفهم ، وصف النساء خلف الولدان ، ثم أقام الصلاة ، فتقدم فرفع يديه فكبر ، فقرأ بفاتحة الكتاب ، وسورة يسرها ، ثم كبر فركع ، فقال : سبحان الله وبحمده ــ ثلاث مرات ــ . ثم قال : سمع الله لمن حمده ، واستوى قائما ، ثم كبر وخر ساجدا ، ثم كبر فرفع رأسه ، ثم كبر فسجد ، ثم كبر فانتهض قائما ، فكان تكبيره فى أول ركعة ست تكبيرات ، وكبر حين قام الى الركعة الثانية ، فلما قضى صلاته ، أقبل الى قومه بوجهه ، فقال : احفظوا تكبيرى ، وتعلموا ركوعى وسجودى ، فانها صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى كان يصلى لنا ، كذا الساعة من النهار ، ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل الى الناس بوجهه ، فقال : يا أيها الناس ، اسمعوا واعقلوا ، واعلموا أن لله عز وجل عبادا ليسوا بأنبياء ، ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم ، وقربهم من الله ، فجاء رجل من الأعراب ، من قاصية الناس ، وألوى بيده الى نبى الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا نبى الله ..

---

(١) أى أتمه وأتقنه .

(٢) أى انتشر الظل .

ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم ، وقربهم من الله ؟ ! انعتهم لنا — أى صفهم لنا — فسر وجه النبى صلى الله عليه وسلم لسؤال الأعرابى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم ناس من أفياء الناس[١] ، ونوازع القبائل ، لم تصل بينهم أرحام متقاربة • تحابوا فى الله ، وتصافوا ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور ، فيجلسهم عليها ، فيجعل وجوههم نورا ، وثيابهم نورا ، يفزع الناس يوم القيامة ، ولا يفزعون وهم أولياء الله ، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » رواه أحمد وأبو يعلى باسناد حسن •

فاذكر كل هذا أخا الاسلام ، وكن منفذا له على أساس من الفقه ، لأن الصلاة مركبة من فرائض وسنن لابد وأن تعرف الفرق بينهما •• لأن معرفة ذلك سيجعلك على علم بما يفسد الصلاة ، وما يجعلها صحيحة •• ولا سيما بالنسبة للأحكام المتعلقة بسجود السهو وما الى ذلك من أحكام لابد وأن تقف عليها حتى تكون من الذين أراد الله بهم خيرا ، ففى الحديث الشريف : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » •

والصلاة كما ورد كذلك فى الحديث الشريف : « عماد الدين » أو « عمود الدين » •

* * *

هذا •• واذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال — بعد ذلك — فى نص الوصية بعد أن أوصانا بكثرة السجود :

« •• فانك لا تسجد لله سجدة الا رفعك الله بها درجة ، وحط بها عنك خطيئة » :

ففى القرآن الكريم ، يقول تبارك وتعالى مشيرا الى هذا :

« وأقم الصلاة طرفى النهار[٢] وزلفا من الليل[٣] ، ان الحسنات[٤] يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين »[٥] •

---

(١) أى عامتهم .

(٢) طرفا النهار : أوله وآخره ، فيشمل صلاة الصبح والظهر والعصر على التحقيق .

(٣) وزلفا من الليل : أى وفى أوائله ، فيشمل المغرب والعشاء .

(٤) أى الصلوات الخمس .

(٥) هود : ١١٤

وفى الحديث الشريف ورد كذلك :

عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلة ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم ، يسأل عن كفارتها ، فأنزل الله تعالى : « **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، ان الحسنات يذهبن السيئات** » فقال : يا رسول الله .. ألى هذه ؟ قال : « بل لأمتى » . أخرجه الترمذى وأحمد .

وعن على قال : كنت اذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا ، نفعنى الله بما شاء أن ينفعنى منه ، وحدثنى أبو بكر ، وصدق أبو بكر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم يذنب ذنبا ، ثم يتوضأ فيصلى ركعتين ، ثم يستغفر الله لذلك الذنب الا غفر له » . وقرأ هاتين الآيتين : « **ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما** »[1] .

« **والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم** »[2] أخرجه أحمد والترمذى .

وعن عثمان عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « من أتم الوضوء ، كما أمره الله فالصلوات المكتوبات كفارات لما بينهن » . أخرجه الامام أحمد فى المسند .

وعن أبان بن عثمان ، قال : قال عثمان : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « أرأيت لو أن بفناء أحدكم نهرا يجرى ، يغتسل منه كل يوم خمس مرات ما كان يبقى من درنه ؟[3] قالوا : لا شىء . قال : الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن » أخرجه أحمد وابن ماجه والشيخان .

* * *

وقد روى مسلم فى صحيحه عن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من امرىء تحضره صلاة مكتوبة ، فيحسن وضوءها ، وخشوعها ، وركوعها ، الا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ، ما لم تؤت كبيرة ، وذلك الدهر كله » .

---

(١) النساء : ١١٠ (٢) آل عمران : ١٣٥

(٣) أى قذره ووسخه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « الصلوات الخمس ، والجمعة الى الجمعة ، ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن اذا اجتنبت الكبائر » رواه مسلم وغيره .

ففى هذين الحديثين الأخيرين يشير النبى صلى الله عليه وسلم الى ملاحظة هامة ، وهى أنه لابد لكى تكون الصلاة — بالذات — مكفرة لسيئاتك الصغائر : لابد وأن تكون أساسا مجتنبا للكبائر[1] ، وهى ما ورد ذكرها فى الأحاديث الآتية :

عن أبى بكر رضى الله عنه ، قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر — ثلاثا — : الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، ألا وشهادة الزور وقول الزور . وكان متكئا فجلس فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت » رواه البخارى ومسلم .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبائر ، فقال : « الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس . وقال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر : قول الزور ، أو قال : شهاد الزور » رواه البخارى ومسلم .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه أن أعرابيا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله .. ما الكبائر ؟ قال : « الاشراك بالله ، قال : ثم ماذا ؟ قال : اليمين الغموس ، قلت : وما اليمين الغموس ؟ قال : الذى يقتطع مال امرىء مسلم ، يعنى بيمين هو فيها كاذب » رواه البخارى والترمذى .

* * *

وقد جمع أبو طالب المكى رحمه الله تعالى الكبائر على النحو التالى :

أربعة فى القلب ، وهى : الشرك بالله تعالى ، والاصرار على معصية الله تعالى ، والقنوط من رحمة الله تعالى ، والأمن من مكر الله تعالى .

وأربعة فى اللسان ، وهى : شهادة الزور ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، واليمين الغموس ، والسحر .

وثلاثة فى البطن ، وهى : شرب الخمر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا وهو يعلم .

---

(١) وهى جمع كبيرة .. وهى ما ورد فيها تحذير شديد وغلظت عقوبتها .

واثنان فى اليدين ، وهما : القتل ، والسرقة .
واثنان فى الفرج ، وهما : الزنا ، واللواط .
وواحدة فى الرجل ، وهى : الفرار من الزحف .
وواحدة فى جميع البدن ، وهى : عقوق الوالدين .

* * *

فهذه الكبائر ـ كما قرأت قبل ذلك فى الحديثين ـ وكما يقول الله تعالى فى الآية الكريمة : **« ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما »**[1] :

لابد وأن تجتنبها اذا أردت أن يغفر الله تعالى لك الصغائر التى منهـا : النظرة الثانية ، واللهو واللعب .. وما الى ذلك من الأمـور التى قد تحدث كثيرا من الانسان فى غدوه ورواحه ـ الا من عصمه الله ـ .

مع ملاحظة أن الصغائر يكفرها الوضوء ، والصلوات ، والاستغفار ، وقراءة القرآن ، وذكر الله تعالى بصفة عامة ، والصدقات .. الخ كما ورد فى الأحاديث الشريفة .

أما الكبائر فلا يكفرها الا التوبة الصادقة .

وقد أجمع العلماء على أن التوبة واجبة من كل ذنب . فان كانت معصية بين العبد وربه ، ولا تتعلق بحق آدمى ، فلها شروط ثلاثة :

أن يقلع عن المعصية ، وأن يندم على فعلها ، وأن يعقد العزم على ألا يعود اليها أبدا .

أما ان كانت المعصية تتعلق بحـق آدمى ، فلها شروط أربعة . الثلاثة المـاضية : والرابع : أن يبرأ من حق صاحبها .

فان كان مالا أو نحوه رده اليه ، وان كان غيبة أو نميمة استحله منها ـ أى طلب منه المسامحة ـ .

وان كان حد قذف ، أو نحوه مكنه من القصاص ، أو طلب عفوه .

وقد قال العلماء كذلك : التوبة واجبة على الفور من جميع الذنوب ، فان تاب من بعضها صحت توبته مما تاب منه ، وبقى عليه ما لم يتب منه .

* * *

---

(١) النساء : ٣١

فليذكر الأخ المسلم كل هـذا ، وليكن دائـم التوبة والاستغفار كرسول الله صلى الله عليـه وسلم الذى يقول فى الحديث الصحيح : « توبوا الى الله واستغفروه فانى أتوب فى اليوم مائة مرة » .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال : كنا نعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس الواحد مائة مرة : « رب اغفر لى وتب على انك أنت التواب الرحيم » حديث صحيح .

* * *

واذا كانت الصلاة كما عرفت هى الأساس فى هـذا الخير وفى هـذا الفلاح والنجاح الذى وقفت عليه :

فاننى أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنى واياك لكثرة السجود حتى نفوز برضا الرب المعبود سبحانه وتعالى الذى يقول كما ورد فى الحديث القدسى[1] :

« .. وما تقرب الى عبدى بشىء أحب الى مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه .. » فاذكر كل هـذا أخا الاسلام :

« .. واسجد واقترب »[2] .

* * *

(١) الذى رواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل . وقد ذكرناه قبل ذلك فى أول شرح الوصية .

(٢) العلق : ١٩ .

الجزء الخامس عشر

الوصية الثامنة والأربعون

عن رجل من بنى عبد القيس يقال له عياض : أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم ، يقول :

« عليكم بذكر ربكم ، وصلوا صلاتكم فى أول وقتكم : فان الله يضاعف لكم » ..

(رواه الطبرانى فى الكبير)

* * *

فكن أخا الاسلام :

منتفعا بهذه الوصية العظيمة ، ومنفذا لها ، حتى يضاعف الله لك الأجر ، وحتى تفوز بذلك كذلك فوزا عظيما فى دنياك وأخراك .

واذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد بدأ وصيته بالترغيب فى ذكر الله تعالى ، فان هذا معناه أن ذكر الله تعالى هو من أعظم القربات الى الله تبارك وتعالى ، بل هو : طب القلوب ودواؤها ، وعافية الأبدان وشفاؤها ، ونور الأبصار وضياؤها .. به تطمئن القلوب ، وتنفرج الكروب ، وتغفر الخطايا والذنوب .

ولهذا ، فقد أوصانا النبى صلى الله عليه وسلم بالمواظبة عليه ، والاكثار منه ، فقال فى نص الوصية : « عليكم بذكر ربكم »[1] .

بل لهذا ، أمر الله تعالى به ، وحث عليه ، ورغب فيه ومدح أهله .. فقال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا . وسبحوه بكرة وأصيلا »[2] .

---

(١) الذكر : هو ما يجرى على اللسان والقلب ، من تسبيح الله تعالى وتنزيهه وحمده والثناء عليه ووصفه بصفات الكمال ونعوت الجلال والجمال .

(٢) الأحزاب : ٤١ ، ٤٢

« ألا بذكر الله تطمئن القلوب »[١] .

« فاذكرونى أذكركم »[٢] .

كما قال تعالى فى الحديث القدسى الذى رواه البخارى ومسلم : « أنا عند ظن عبدى بى[٣] ، وأنا معه حين يذكرنى ، فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وان تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ، وان تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا ، وان أتانى يمشى أتيته هرولة »[٤] .

وقد ورد الترغيب فى الذكر وفضله على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم فى كثير من الأحاديث الشريفة :

فعن معاذ بن جبل رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ما عمل آدمى عملا قط أنجى له من عذاب الله ، من ذكر الله عز وجل » رواه أحمد .

وعن عبد الله بن بسر رضى الله عنه : أن رجلا قال : يا رسول الله .. ان شرائع الاسلام قد كثرت فأخبرنى بشىء أتشبث به[٥] ؟ قال : « لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله »[٦] رواه الترمذى واللفظ له ، وقال : حديث حسن غريب ، وابن ماجه ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم ، وقال : صحيح الاسناد .

وعن أبى موسى رضى الله عنه ، قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « مثل الذى يذكر ربه ، والذى لا يذكر الله ، مثل الحى والميت » رواه البخارى ومسلم ، الا أنه قال : « مثل البيت الذى يذكر الله فيه .. » .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من انفاق الذهب والورق[٧] ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : بلى

---

(١) الرعد : ٢٨ (٢) البقرة : ١٥٢

(٣) أى ان ظن أن الله يقبل دعاءه وهو يدعوه قبله ، ومن استغفره وظن أن الله يغفر له .. وهكذا .

(٤) أى أنه كلما زاد اقبال العبد على ربه كان الله له بكل خير أسرع .

(٥) أى أتمسك به .

(٦) أى لا يزال يلهج به ويردده حتى يجرى مع ريقه .

(٧) أى الدراهم المضروبة من الفضة — بكسر الراء — .

يا رسول الله .. قال : ذكر الله » رواه الترمذى وأحمد والحـاكم ، وقال : صحيح الاسناد .

وقد استشكل بعض العلماء[1] تفضيل الذكر على الجهـاد مع ورود الأدلة الصحيحة أنه أفضل الأعمال ، وقد جمع بعض أهل العلم بين ما ورد من الأحاديث المشتملة على تفضيل بعض الأعمال على بعض آخر ، وما ورد منها مما يدل على تفضيل البعض المفضل عليه : بأن ذلك باعتبار الأشخاص والأحوال ، فمن كان مطيقا للجهاد قوى الأثر فيه فأفضل أعماله الجهاد ، ومن كان كثير المـال فأفضل أعماله الصدقة ، ومن كان غير متصف باحدى الصفتين المذكورتين ، فأفضل أعماله الذكر والصلاة ونحو ذلك ، ولكنه يدفع هـذا تصريحه صلى الله عليـه وسلم بأفضلية الذكر على الجهاد نفسه فى هـذا الحديث . وفى الأحاديث الأخرى :

كحديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عند الترمذى : « أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم سئل : أى العباد أفضل درجة عنـد الله يوم القيامة ؟ قال : الذاكرون الله كثيرا . قال : قلت : يا رسول الله ومن الغازى فى سبيل الله ؟ قال : لو ضرب بسيفه فى الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دما لكان الذاكرون الله كثيرا أفضل منه درجة » قال الترمذى بعد اخراجه : حديث غريب .

وكحديث عبد الله بن عمرو مرفوعا ، وفيه : « ولا شىء أنجى من عذاب الله من ذكر الله . قالوا : ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : ولو أن يضرب بسيفه حتى ينقطع » أخرجه ابن أبى الدنيا والبيهقى من رواية سعيد بن سنان .

ومما يدل كذلك على أن الذكر أفضل من الصدقة ، ما أخرجه أحمد والترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى حديث حسن من حديث ثوبان . قال : « لمـا نزلت : « **والذين يكنزون الذهب والفضة** .. » الآيـة قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره ، فقال بعض أصـحابه : أنزلت فى الذهب والفضة لو علمنا أى المـال خير

---

(١) كما جاء فى كتاب « تحفة الذاكرين » لمحمد بن على بن محمد الشوكانى اليمانى الصنعانى . طبعة الحلبى ص ١٤

فنتخذه ، فقال : أفضله لسان ذاكر ، وقلب شاكر ، وزوجة[1] مؤمنة تعينه على ايمانه » .

ومما يدل على ذلك فى الجهاد والصدقة وغير ذلك ما أخرجه أحمد والطبرانى من حديث معاذ رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن رجلا سأله : أى المجاهدين أعظم أجرا ؟ قال : أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكرا ، قال : فأى الصالحين أعظم أجرا ؟ قال : أكثركم لله تبارك وتعالى ذكرا ، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة ، كل ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكرا ، قال أبو بكر لعمر رضى الله عنهما : يا أبا حفص .. ذهب الذاكرون بكل خير ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجل » .

وعند أحمد : أنه صلى الله عليه وسلم ، قال : « ان ما تذكرون من جلال الله عز وجل من التهليل والتكبير والتحميد يتعاطفن حول العرش ، لهن دوى كدوى النحل يذكرن بصاحبهن ، أفلا يحب أحدكم أن يكون له ما يذكر به » ؟

فكل هـذه الأحاديث ـ مع غيرها ـ تذكر بفضل الذكر والذاكرين كما تبشر كذلك بمستقبلهم عند الله تبارك وتعالى الذى يقول :

« والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفـرة وأجـرا عظيـما »[2] .

وقال تعالى فى وصف أولى الألباب الذين ينتفعون بالنظر فى آياته :

« الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم »[3] :

قال : مجاهد : لا يكون من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات حتى يذكر الله قائما وقاعدا ومضطجعا .

حد الذكر الكثير

وحول حد الذكر الكثير : سئل ابن الصلاح عن القدر الذى يصير به من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، فقال : اذا واظب على الأذكار المأثورة المثبتة صباحا ومساء فى الأوقات والأحوال المختلفة ليلا ونهارا : كان من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات .

---

(١) فى نسخة : وامراة ، وفى رواية : « تعين أحدكم على أمر الآخرة » ـ والآية من سورة التوبة : ٢٤

(٢) الأحزاب : ٣٥ (٣) آل عمران : ١٩١

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى هـذه الآيات ، قال : ان الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة الا جعل لها حدا معلوما ، وعذر أهلها فى حال العذر ، غير الذكر ، فان الله لم يجعل له حدا ينتهى اليه • ولم يعذر أحدا فى تركه الا مغلوبا على تركه ، فقال : « اذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم » بالليل والنهار ، فى البر والبحر ، وفى السفر والحضر والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال •

وقال سعيد بن جبير : كل عامل لله بطاعة الله فهو ذاكر لله •

وقال عطاء : مجالس الذكر هى مجالس الحلال والحرام ، كيف تشترى وتبيع ، وتصلى وتصوم ، وتنكح وتطلق وتحج •• الـخ •

وقال القرطبى : مجلس ذكر يعنى مجلس علم وتذكير ، وهى المجالس التى يذكر فيها كلام الله وسنة رسوله ، وأخبـار السـلف الصالحين ، وكلام الأئمة الزهاد المتقدمين المبرأة عن التصنع والبدع والمنزهة عن المقاصد الردية والطمع •

ولهذا •• فقد ورد عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : « اذا مررتم برياض الجنة فارتعوا • قالوا : يا رسول الله •• وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر » أخرجه الترمذى •

وأخرج الطبرانى فى الكبير ، من حديث ابن عباس رضى الله عنهما عنه صـلى الله عليه وسـلم : « اذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : مجالس العلم »[1] •

وأخرج الترمذى وقال : غريب من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : اذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : المساجد • قيل : وما الرتع ؟ قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله أكبر » •

وأخرج ابن أبى الدنيا وأبو يعلى ، والطبرانى والبزار ، والحاكم فى المستدرك ، وقال صحيح الاسـناد ، والبيهقى من حديث جـابر ابن عبد الله رضى الله عنهما ، قال : « خرج علينا رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ، فقال : أيها الناس •• ان لله سرايا من الملائكة ، تحل وتقف على مجالس الذكر فى الأرض فارتعوا فى رياض الجنة • قالوا :

---

(١) وفى اسناده رجل مجهول •

وأين رياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر ، فاغدوا وروحوا فى ذكر الله ، وذكروا أنفسكم ، من كان يريد أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده ، فان الله ينزل العبد عنده حيث أنزله تعالى فى نفسه » قال المنذرى : والحديث حسن .

قال فى تحفة الذاكرين — بعد ذكر هذه الأحاديث — : ولا مخالفة بين هذه الأحاديث ، فرياض الجنة تطلق على حلق الذكر ، ومجالس العلم ، والمساجد ، ولا مانع من ذلك . انتهى .

وأما قوله فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه : « قيل : وما الرتع ؟ قال : سبحان الله .. الخ » ففيه ما يدل على أن هذا الذكر له مزية تشرف على سائر الأذكار . ولا ينافى ما يدل عليه قوله : حلق الذكر من العموم ، ولا ينافى أيضا ما فى الحديث الآخر حيث قال : مجالس العلم .

والحاصل أن الجماعة المشتغلين بذكر الله عز وجل أى ذكر كان ، والمشتغلين بالعلم النافع وهو علم الكتاب والسنة ، وما يتوصل به اليهما : هم يرتعون فى رياض الجنة .

* * *

فلتذكر أخا الاسلام كل هذا ، ولتكن حريصا دائما وأبدا على طلب العلم النافع ، ومعرفة الحلال والحرام :

فلولا العلم ما سعدت نفوس
ولا عرف الحلال من الحرام

وحسبك ترغيبا لك فى هذا : هذه الأحاديث الشريفة المرغبة فى طلب العلم النافع وتعليمه لطالبيه :

فعن معاوية رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » رواه البخارى ومسلم وابن ماجه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا الى الجنة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت

الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم الا حفتهم[١] الملائكة ، ونزلت عليهم السكينة[٢] ، وغشيتهم الرحمة[٣] ، وذكرهم الله فيمن عنده[٤] ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » رواه مسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه ، وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال : صحيح على شرطهما .

وعن عمر رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم[٥] يهدى صاحبه الى هدى ، أو يرده عن ردى[٦] ، وما استقام دينه حتى يستقيم عمله » رواه الطبرانى فى الكبير واللفظ له ، والصغير الا أنه قال فيه : « حتى يستقيم عقله » واسنادهما متقارب .

وعن أبى ذر رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا ذر لأن تغدو[٧] فتعلم[٨] آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة ، ولأن تغدو فتعلم من العلم عمل به أو لم يعمل به[٩] خير من أن تصلى ألف ركعة » رواه ابن ماجه باسناد حسن .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها[١٠] الا ذكر الله ، وما والاه[١١] ، وعالما ومتعلما » رواه الترمذى ، وابن ماجه ، والبيهقى ، وقال الترمذى : حديث حسن .

وعن أبى أمامة قال : ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان :

---

(١) أى احاطت بهم وتعددت حولهم .
(٢) اى الأمن والطمانينة . (٣) أى غطتهم وغمرتهم .
(٤) يعنى فى الملا الاعلى .
(٥) بمعنى الزيادة ، أى علم زائد على القدر الواجب الذى لا يسع أحدا جهله .
(٦) اى يبعده عن أسباب الهلكة وموجبات الغواية .
(٧) أى تذهب فى وقت الغدو وهو أول النهار .
(٨) اى تتعلم فحذفت احدى التاءين للتخفيف .
(٩) ولابد وان يعمل به لانه كما يقولون : علم بلا عمل كشجرة بلا ثمر .
(١٠) يعنى مما يلهى ويبعد عن ذكر الله من متاعها وزينتها .
(١١) من الموالاة وهى : الموافقة والطاعة .

أحدهما عابد ، والآخر عالم ، فقال عليه أفضل الصلاة والسلام : « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم » ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله وملائكته ، وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها ، وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير » رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه البزار من حديث عائشة مختصرا ، قال : « معلم الخير يستغفر له كل شىء حتى الحيتان فى البحر » .

* * *

فليكن هذا الترغيب المحمدى أخا الاسلام سببا فى حبك للعلم ونشره ، وليكن كذلك ذكرا تتقرب به الى الله تعالى حتى تلقاه .

وحسبى حتى تكون من المجدين والمجتهدين فى طلب العلم أن أسوق اليك كذلك هذه الأقوال :

يقال : من ذهب الى عالم وجلس عنده ولم يقدر على حفظ شىء مما قاله الا أعطاه الله سبع كرامات ، أولها : فضل المتعلمين ، وثانيها : ما دام عنده جالسا كان محبوسا عن الذنوب والخطايا ، وثالثها : اذا خرج من منزله نزلت عليه الرحمة ، ورابعها : اذا جلس عنده نزلت الرحمة على العالم فتصيبه ببركته ، وخامسها : تكتب له الحسنات ما دام مستمعا ، وسادسها : تحفهم الملائكة بأجنحتها وهو فيهم ، وسابعها : كل قدم يرفعها ويضعها تكون كفارة للذنوب ، ورفعا للدرجات ، وزيادة فى الحسنات :

هذا لمن لم يحفظ شيئا ، وأما الذى يحفظه فله أضعاف ذلك مضاعفة .

وقال عمر رضى الله عنه : ان الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة ، فاذا سمع العلم خاف الله واسترجع من ذنوبه ، فينصرف الى منزله ، وليس عليه ذنب ، فلا تفارقوا مجالس العلماء ، فان الله لم يخلق على وجه الأرض أكرم من مجالسهم .

وقال بعض العلماء : ولو لم يكن لحضور مجلس العلم منفعة سوى النظر الى وجه العالم لكان الواجب على العاقل أن يرغب فيه ، فكيف وقد أقام النبى صلى الله عليه وسلم العلماء مقام نفسه ، فقال : « من زار عالما فكأنما زارنى ، ومن صافح عالما فكأنما صافحنى ، ومن جالس عالما فكأنما جالسنى ، ومن جالسنى فى الدنيا أجلسه الله تعالى معى يوم القيامة فى الجنة » .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الاسلام ، واذكر كذلك قول القائل :

تعلم فان العلم زين لأهله
وفضل وعنوان لكل المحامد
وكن مستفيدا كل يوم زيادة
من العلم واسبح فى بحور الفوائد
تفقه فان الفقه أفضل قائد
الى البر والتقوى وأعدل قاصد
هو العلم الهادى الى سنن الهدى
هو الحصن ينجى من جميع الشدائد
فان فقيها واحدا متورعا
أشد على الشيطان من ألف عابد

وقول القائل :

تصبر على مر الجفا من معلم ... فان رسوب العلم فى نفراته
ومن لم يذق ذل التعلم ساعة ... تجرع ذل الجهل طول حياته
ومن فاته التعليم وقت شبابه ... فكبر عليه أربعا لو فاته
حياة الفتى والله بالعلم والتقى ... اذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

* * *

وليكن مثلك فى طلب العلم والشغف به ، هو الامام الشافعى رضى الله عنه ، الذى قال عنه الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه :

ما صليت صلاة منذ أربعين سنة الا وأنا أدعو للشافعى ، فقال له ابنه : أى رجل كان الشافعى حتى تدعو له كل هذا الدعاء ؟ فقال الامام أحمد : يا بنى ، كان الشافعى كالشمس للدنيا ، والعافية للناس ، فانظر يا بنى هل من هذين خلف ؟ ..

واذا كان الامام أحمد يقول هذا ، فلأنه كان صديقا حميما للشافعى ، كما كان كذلك يعرفه عن قرب :

وحتى يتضح لك هذا ، اليك كذلك هذا المضمون الذى سترى منه كيف كان الشافعى مشغولا بطلب العلم ليلا ونهارا :

فقد نزل الشافعى ضيفا على « أحمد بن حنبل » وكانت ابنة لأحمد ، تسمع أخبار الشافعى ، وتتشوق الى رؤية صلاحه ، وعبادته ، فرقبت عبادته بالليل وذكره فى الأسحار — أثناء استضافته فى بيتهم — لكن الشافعى أصبح مستلقيا على ظهره حتى الفجر ، وابن حنبل مشغول

بذكره وعبادته ، فلما أصبحت قالت لأبيها : رأيتك تعظم الامام الشافعى !! وما رأيت له فى هـذه الليلة : لا صلاة ، ولا ذكرا ، ولا وردا .

فبينما هما فى الحديث ، قام الامام الشافعى ، فقال له الامام أحمد : كيف كانت ليلتك ؟ قال : ما رأيت ليـلة أطيب منها !! ولا ابرك ولا أربح . فقال أحمد : وكيف ذلك ؟ قال : لأنى رتبت فى هـذه الليلة مائة مسألة ، وأنا مستلق على ظهرى ، كلها فى منافع المسـلمين ، ثم ودعه ومضى .

فقال أحمد بن حنبل لابنته : هذا الذى عمله الليلة وهو نائم ، أفضل مما عملته وأنا قائم! ..

ولعل ما قاله الامام أحمد بن حنبل ، هو ما أريد الوصول اليه حتى ندرك أهمية العلم ، وحتى نشعر بأعظم لذة ونحن نطلبه ، كهذا الذى يقول :

سهرى لتنقيح العـلوم ألذ لى ... من وصل غانيـة وطيب عناق
وتمايلى طربا لحـل عويصـة ... أشهى وأحلى من مدامة ساقى
وصرير أقلامى على أوراقهـا ... أحلى من الدوكاة والعشـاق
أأبيت سهران الدجـا وتبيتـه ... نوما وتبغى بعد ذاك لحـاقى

* * *

واعلم أن قراءة القرآن ، والاستماع اليه بانصات ، والتدبر فى معانيه ، ودراسة مقاصده ، والوقوف على ما فيه من أوامر ونواهى .. الـخ : يعتبر من أعظم الأذكار ، بل هو أعظم الأذكار .

وذلك لأن القرآن العظيم[1] ، هو كلام الله .. الذى أنزله سبحانه وحيا ـ على قلب عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ـ بواسطة الروح الأمين « جبريـل » لينذر به من كان حيـا ويحق القول على الكافرين ، وليخرج به الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد ، فلن يتقرب متقرب الى الله بأحب اليه من تلاوة القرآن وتدبره ومدارسته ثم تعليم ذلك لغيره .

واذا كنا قد عرفنا هـذا اجمالا .. فقد ورد ذلك تفصيلا على لسان الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه :

فعن عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم :

---

(١) كما يقول فضيلة الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله فى شرحه للترغيب والترهيب (هامش كتاب قراءة القرآن) .

قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » رواه البخارى ومسلم ، وأبو داوود والترمذى ، والنسائى وابن ماجه وغيرهم .

ففى هذا الحديث : الحث على تعلم القرآن وتعليمه ، وقد سئل الثورى عن الجهاد واقراء القرآن فرجح الثانى واحتج بهذا الحديث .. قاله فى الفتح .

قال الشرقاوى : لا ريب أن الجامع بين تعلم القرآن وتعليمه مكمل لنفسه ولغيره ، جامع بين النفع القاصر ، والنفع المتعدى .

وفى التعليق على هذا الحديث فى « الترغيب والترهيب » يقول الشارح :

لا يقال ان من لازم هذا أفضلية المقرى على الفقيه ، لأن المخاطبين بذلك كانوا فقهاء الناس ، اذ كانوا يدرون معانى القرآن بالسليقة أكثر من دراية من بعدهم بالاكتساب . وخيركم فى الحديث أفعل تفضيل بمعنى أخيركم أى أكثركم نفعا وأرفعكم منزلة ، وتعلم القرآن يدخل فيه حفظه وتجويده واقامة حروفه واعرابها ، ويدخل فيه كذلك مدارسته وتفهم معانيه وتدبر آياته ومعرفة المقاصد الأساسية التى نزل من أجلها ، ومعرفة أحكامه وحلاله وحرامه .. الخ .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ما اجتمع قوم[1] فى بيت من بيوت الله[2] ، يتلون كتاب الله[3] ويتدارسونه[4] فيما بينهم الا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » رواه مسلم أبو داوود وغيرهما .

قال النووى : وفى هذا دليل لفضل الاجتماع على تلاوة القرآن فى المسجد[5] وهو مذهبنا ومذهب الجمهور ، وقال مالك : يكره ، وتأوله بعض أصحابه .

---

(١) القوم الجماعة من الناس وجمعه أقوام وأقاوم وأقاويم . وقوم الرجل أقرباؤه الذين يجتمعون معه فى جد واحد ، ولا يطلق القوم الا على الجماعة من الرجال .

(٢) وهى المساجد .

(٣) التلاوة : أى القراءة باللسان .

(٤) أى يتدبرون معانيه ويتفهمون أغراضه ومراميه .

(٥) على أن تكون القراءة للتعليم والتعلم .. واذا قرأ وحده تعبدا فان هذا يكون سرا دون التشويش على أحد من المتعبدين .

ويلحق بالمسجد فى تحصيل هـذه الفضيلة الاجتماع فى مدرسة ورباط ونحوهما ان شاء الله تعالى ويدل عليه الحديث المطلق الذى يتناول جميع المواضع : « لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل الا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » رواه مسلم والترمذى وابن ماجه .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة : ريحها طيب ، وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو[1] ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة[2] ريحها طيب ، وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر » .

وفى رواية : مثل « الفاجر » بدل « المنافق » . رواه البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه .

قال فى عمدة القارى : « اعلم أن هذا التشبيه والتمثيل فى الحقيقة وصف اشتمل على معنى معقول صرف لا يبرزه عن مكنونه الا تصويره بالمحسوس المشاهد ، ثم ان كلام الله المجيد له تأثير فى باطن العبد وظاهره ، وان العباد متفاوتون فى ذلك ، فمنهم من له النصيب الأوفر من ذلك التأثير وهو المؤمن القارىء ، ومنهم من لا نصيب له ألبتة وهو المنافق الحقيقى ، ومنهم من تأثر ظاهره دون باطنه وهو المرائى أو بالعكس وهو المؤمن الذى لم يقرأ .

وابراز هـذه المعـانى وتصويرها فى المحسوسات ما هو مذكور فى الحديث ، ووجه التشبيه فى المذكورات مركب منتـزع من أمرين محسوسين : طعم وريح ، وقد ضرب النبى صلى الله عليه وسلم المثل بما تنبته الأرض ويخرجه الشجر للمشابهة التى بينها وبين الأعمال ، فانها من ثمرات النفوس » الـخ .. اهـ .

والحاصل كما يقول الشارح فى الترغيب والترهيب : أن النبى صلى الله عليه وسلم يضرب المثل للمؤمن الذى يقرأ القرآن بالأترجة وهى ثمرة جمعت بين حلاوة الطعم وطيب الرائحة ، فشبه بها المؤمن

---

(١) المؤمن طيب فى نفسه بسبب ما فى قلبه من الايمان .

(٢) وهى كل نبت طيب الريح من انواع الشموم .

القارىء فى طيب مخبره وحسن مظهره وتعدى نفعه الى الغير ، وفى الفتح « خص صفة الايمان بالطعم ، وصفة التلاوة بالريح لأن الايمان ألزم للمؤمن عن القرآن اذ يمكن حصول الايمان بدون القراءة ، وكذلك الطعم ألزم للجوهر من الريح ، فقد يذهب ريح الجوهر ويبقى طعمه . وقيل : ان الجن لا تقرب البيت الذى فيه الأترج فيناسب أن يمثل به القرآن الذى لا تقربه الشياطين وغلاف حبه أبيض فيناسب قلب المؤمن » ا هـ .

وأيضا قال النووى معلقا على الحديث فى شرح مسلم : « فيه فضيلة حافظ القرآن واستحباب ضرب الأمثال لايضاح المقاصد » ا هـ .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران » .

وفى رواية : « والذى يقرؤه ، وهو يشتد عليه[1] له أجران » رواه البخارى ومسلم واللفظ له ، وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

قال النووى : « السفرة جمع سافر ككاتب وكتبة ، والسافر الرسول ، والسفرة الرسل لأنهم يسفرون الى الناس برسالات الله وقيل : السفرة الكتبة ، والبررة المطيعون من البر وهو الطاعة ، والماهر الحاذق الكامل الحفظ الذى لا يتوقف ولا يشق عليه القراءة بجودة حفظه واتقانه . وقال القاضى : يحتمل أن يكون معنى كونه مع الملائكة أنه له فى الآخرة منازل يكون فيه رفيقا للملائكة السفرة لاتصافه بصفتهم من حمل كتاب الله تعالى . قال : ويحتمل أن يراد أنه عامل بعملهم وسالك مسلكهم .

وأما الذى يتتعتع فيه فهو الذى يتردد فى تلاوته لضعف حفظه فله أجران : أجر بالقراءة وأجر بتعتعته فى تلاوته ومشقته .

قال القاضى وغيره من العلماء : وليس معناه أن الذى تتعتع عليه له من الأجر أكثر من الماهر به ، بل الماهر أفضل وأكثر أجرا لأنه مع السفرة وله أجور كثيرة ولم يذكر هذه المنزلة لغيره . وكيف

---

(١) أى تثقل عليه القراءة لعدم حفظه واتقانه أو لأن لسانه غير عربى ..

يلحق به من لم يعتن بكتاب الله تعالى وحفظه واتقانه وكثرة تلاوته وروايته كاعتنائه حتى مهر فيه والله أعلم » اهـ .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « يجىء صاحب القرآن يوم القيامة ، فيقول القرآن : يا رب حله ، فيلبس تاج الكرامة ، ثم يقول : يا رب زده ، فيلبس حلة الكرامة ، ثم يقول : يا رب ارض عنه ، فيرضى عنه ، فيقال له : اقرأ وارق ، ويزداد بكل آية حسنة » .

رواه الترمذى ، وحسنه ، وابن خزيمة ، والحاكم وقال : صحيح الاسناد .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارق[1] ، ورتل[2] كما كنت ترتل فى الدنيا ، فان منزلك عند آخر آية تقرؤها » رواه الترمذى ، وأبو داوود ، وابن ماجه ، وابن حبان فى صحيحه ، وقال الترمذى حسن صحيح .

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه[3] غير أنه لا يوحى اليه[4] . لا ينبغى لصاحب القرآن أن يجد مع من وجد[5] ، ولا يجهل مع من جهل[6] ، وفى جوفه كلام الله »[7] رواه الحاكم ، وقال : صحيح الاسناد .

وعنه رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « الصيام والقرآن يشفعان[8] للعبد ، يقوم الصيام : رب انى منعته الطعام والشراب بالنهار فشفعنى فيه ، ويقول القرآن : رب منعته

---

(١) أمر من الرقى وهو الصعود .
(٢) الترتيل هو القراءة بتؤدة وتمهل .
(٣) أى جعلها مندرجة وداخلة بين جنبيه .
(٤) أى لا ينقصه من النبوة الا الوحى .
(٥) يعنى يغضب مع من غضب ، يقال وجد عليه يجد وجدا وموجدة غضب .
(٦) الجهل : ضد الحلم .
(٧) أى لا ينبغى ان يفعل ذلك فى حال وجود كلام الله فى جوفه .
(٨) أى يطلبان له المغفرة ودخول الجنة .

النوم بالليل فشفعنى فيه ، فيشفعان »[١] رواه أحمد وابن أبى الدنيا فى كتاب الجوع ، والطبرانى فى الكبير والحاكم واللفظ له ، وقال : صحيح على شرط مسلم . وقال شارح الجامع الصغير اسناده حسن .

* * *

ثم أختم بعد ذلك مجموعة هـذه الأحاديث الشريفة التى أرجو أن تكون سببا فى اكثارك من تلاوة القرآن والتدبر فيه : بحديث شريف أرجو كذلك أن يكون سببا فى حبك لتلاوة القرآن والاستماع اليه :

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن أسيد بن حضير[٢] بينما هو فى ليلة يقرأ فى مربده[٣] اذ جالت[٤] فرسه ، فقرأ ثم جالت أخرى ، فقرأ ثم جالت أخرى أيضاً . قال أسـيد : فخشيت أن تطأ يحيى[٥] فقمت اليها ، فاذا مثل الظلة فوق رأسى فيها أمثال السرج[٦] عرجت[٧] فى الجو حتى ما أراها . قال : فغدوت على رسول الله صلى الله عليـه وسلم . فقلت : يا رسول الله .. بينما أنا البارحة فى جوف الليـل أقرأ فى مربدى اذ جالت فرسى[٨] ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ ابن حضير[٩] ، قال : فانصرفت وكان يحيى قريبا منها فخشيت أن تطأه[١٠] ، فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج عرجت فى الجو حتى ما أراها[١١] ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تلك الملائكة تستمع لك[١٢] ، ولو قرأت[١٣] لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم »[١٤] . رواه البخارى ومسلم ، واللفظ له .

---

(١) أى أن الله بفضله ورحمته يستجيب لهما ويقبل شفاعتهما فيه .
(٢) وهو سيد الأوس بعد سعد بن معاذ رضى الله عنهما .
(٣) المربد الملتمر هو البيدر كالبيدر للحنطة . (٤) أى اضطربت . .
(٥) وهو ابن أسيد وكان نائما الى جنب الفرس .
(٦) جمع سراج وهو المصباح .
(٧) يعنى صعدت ، والعروج هو الصعود .
(٨) يعنى تحركت واضطربت لاحساسها بشىء غريب .
(٩) يعنى انه صلى الله عليه وسلم تمنى أن يستمر فى قراءته ويتابعها ليفوز بما حصل له من استماع الملائكة لقراءته .
(١٠) أى تمشى عليه بحافرها .
(١١) يعنى ظلت تصعد حتى غابت عن نظرى .
(١٢) أى تنزلت من السماء لكى تستمع لقراءتك .
(١٣) أى : لو داومت القراءة الى الصباح .
(١٤) قال العينى : فيه جواز رؤية بنى آدم الملائكة .

ورواه الحاكم بنحوه باختصار ، وقال فيه : « فاذا أمثال المصابيح ، قال : مدلاة بين السماء والأرض ، فقال : يا رسول الله .. ما استطعت أن أمضى[1] ، قال : تلك الملائكة نزلت لقراءة القرآن ، أما انك لو مضيت لرأيت العجائب »[2] وقال : صحيح على شرط مسلم .

* * *

فهذا معناه — كما تبين لك من خلال كل هذا الذى وقفت عليه : أن قراءة القرآن هى أقرب القربات ، وأفضل الطاعات ، وخير الأذكار .. وخير ذلك ما كان على ترتيب المصحف من أول الفاتحة والبقرة وآل عمران .. الخ ، كلما ختم القارىء مصحفا بدأ بآخر ، وقد سماه الرسول صلى الله عليه وسلم الحال والمرتحل ، أى : كلما حل ارتحل .

* * *

هذا .. ولا تقبل العبادة والتلاوة الا اذا كانت وفق الأحكام الشرعية التى وردت لنا عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته جيلا عن جيل ، فقد ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اقرأوا القرآن بلحون العرب » .

وورد : « جودوا القرآن » .

وورد : أن من لم يجود القرآن فهو آثم ، والتجويد هو اتقان القراءة طبقا لأحكام اللغة وآدابها ، وليس المقصود هو التمطيط والغناء واخراج الحروف عن مواضعها ، فان هذا اثم وضلال ، ولا تقبل معه عبادة ولا تلاوة .

ويجب تعلم أحكام القراءة لاحكام أداء التلاوة ، وخاصة فى الصلاة ، وخاصة للائمة : فقد قال ابن الجزرى : أجمع من تعلمه من العلماء على أنه لا تصح صلاة قارىء — أى متقن للقراءة — خلف أمى ، وهو من لا يحسن القراءة .

والتجويد حلية التلاوة ، وزينة القراء :

فادرسه أخا الاسلام ، واحفظ متونه التى منها — على سبيل المثال — : « تحفة الأطفال فى تجويد القرآن » ، « متن الجزرية فى التجويد » .

* * *

---

(١) يعنى أن أستمر فى قراءتى ..

(٢) يريد أن يقول له لو واصلت القراءة لرأيت خيرا كثيرا .

ولتكن قراءتك دائما وأبدا بتدبر ، حتى تفهم المراد من كلام الله تعالى فى قرآنه ، والا كنت من هؤلاء الغافلين الذين طبع الله تعالى على قلوبهم ، كما يشير الى هذا قوله تعالى :

« **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** »(١) ، أى بل على قلوب أقفال أقفلها الله عز وجل عليهم فهم لا يعقلون .

وفى حديث مرفوع أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ان عليها أقفالا كأقفال الحديد حتى يكون الله يفتحها » ، وأصل القفل اليبس والصلابة ..

وحسبك أن تفهم المراد من قول الشافعى رضى الله عنه : « لو تدبر الناس سورة العصر لكفتهم » .

* * *

واعلم أن أفضل الأماكن التى يتلى فيها القرآن هى :

أولا : المساجد الثلاثة التى أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بفضل الصلاة فيها على غيرها ، وهى : المسجد الحرام بمكة ، مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، المسجد الأقصى بالقدس .

ثانيا : يلى هذا فى الفضل ، جميع المساجد المنتشرة فى البلاد لقول الله تعالى : « **فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار** »(٢) .

ثالثا : ويلحق بالمساجد ، مكان صلاة الشخص فى أى مكان صلى فيه اذا أراد أن يقرأ بعد الصلاة القرآن .

* * *

مع ملاحظة أنه تحرم القراءة فى أماكن قضاء الحاجة كالمراحيض والخرائب التى يتخذها الناس مباول ، وكذا ما خصص لالقاء القاذورات وخلافها .

وتحرم القراءة فى أماكن اللهو والفجور كبيوت الدعارة وحانات الخمر ...

* * *

---

(١) محمد : ٢٤ (٢) النور : ٣٦ ، ٣٧

وأما الأوقات التى يكون للقراءة فيها مزيد فضل :

فمنها : ما هو على مدار اليوم : وهما الفجر والعصر ، لما ورد فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم الله — وهو أعلم بكم — كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون » ، فهذان الوقتان تشهدهما الملائكة ، كما يشير أيضا الى هذا قول الله تعالى : **« ان قرآن الفجر[1] كان مشهودا »[2]** أى تشهده الملائكة .

ومنها : ما كان على مدار الأسبوع :

وهى : الاثنين والخميس والجمعة :

فقد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخص الاثنين والخميس بالصوم ، وعندما سئل عن ذلك ، قال : « أما يوم الاثنين فيوم ولدت فيه ويوم بعثت فيه ، وأما يوم الخميس فيوم ترفع فيه أعمال العباد ، وأحب أن يرفع عملى وأنا صائم » .

وأما عن يوم الجمعة ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم عنه : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة الا فى يوم الجمعة »[3] .

ومنها : ما هو على مدار الشهر : وهى الليالى البيض من كل هلال — شهر عربى — وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، وكذلك أول الهلال ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يصوم هذه الأيام ..

ومنها : ما هو على مدار السنة وهى كثيرة : شهر رمضان وفيه العشر الأواخر لامكان وقوع ليلة القدر فى أى ليلة منها .. وشهر رمضان هو شهر القرآن كما أخبر بذلك سبحانه وتعالى فى قوله : **« شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن .. »[4]** .

ومنها العشر الأول من ذى الحجة ، لقول الرسول صلى الله عليه

---

(١) أى القرآن الذى يقرأ فى صلاة الفجر تشهده الملائكة .

(٢) الاسراء : ٧٨

(٣) رواه مسلم فى صحيحه .

(٤) البقرة : ١٨٥

وسلم : « ما العمل فى أيام أفضل من العمل فى هذا العشر » قالوا : ولا الجهاد ؟ قال : « ولا الجهاد ، الا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشىء »[1] .

ومنها : أول الشهر المحرم ، ويوم عاشوراء منه ، وشهر ربيع الأول ، وشهر رجب وفيه ليلة السابع والعشرين ، وشهر شعبان .. وذلك لفضل هذه الأيام .

وقراءة القرآن مطلوبة فى كل وقت ، باعتبارها ذكرا لله عز وجل .. وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يذكر الله فى كل أحواله .. الا أن الأوقات المذكورة لها مزيد فضل وكرامة عند الله عز وجل يضاعف فيها الحسنات ، وقد ورد فى الحديث الشريف :

« وان لله عز وجل فى أيام دهركم نفحات فاغتنموها » أو : « ألا فتعرضوا لها » كما قال صلوات الله وسلامه عليه .

* * *

ويستحب كذلك الجلوس فى حلق الذكر التى من أهمها — كما عرفت — مجالس تعليم القرآن ، ومجالس العلم النافع ، ومجالس الذكر بصفة عامة :

فعن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « اذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » قالوا : وما رياض الجنة يا رسول الله ؟ قال : « حلق الذكر ، فان لله تعالى سيارات من الملائكة يطلبون حلق الذكر ، فاذا أتوا عليهم حفوا بهم » .

وروى مسلم عن معاوية أنه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على حلقة من أصحابه فقال : « ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله تعالى ونحمده على ما هدانا للاسلام ومن به علينا . قال : أما انى لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكنه أتانى جبريل فأخبرنى أن الله تعالى يباهى بكم الملائكة » .

* * *

---

(١) رواه البخارى عن ابن عباس .

أفضل الأذكار بعد القرآن

وهناك أذكار صحيحة وردت كذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم من الخير أن تتقرب الى الله تبارك وتعالى بها ، فاليك نصها :

عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ما قال عبد : لا اله الا الله قط مخلصا الا فتحت له أبواب السماء حتى يفضي الى العرش[1] ما اجتنبت الكبائر » رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن غريب •

وعنه أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « جددوا ايمانكم • قيل : يا رسول الله •• وكيف نجدد ايماننا ؟ قال : أكثروا من قول : لا اله الا الله » رواه أحمد باسناد حسن •

وعن جابر رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « أفضل الذكر : لا اله الا الله ، وأفضل الدعاء : الحمد لله » رواه النسائى وابن ماجه والحاكم ، وقال : صحيح الاسناد •

* * *

وهناك كلام هام جدا ذكره — صاحب الدين الخالص[2] — وهو فضيلة الشيخ محمود خطاب السبكى رحمه الله تعالى ، تحت عنوان :

كلمة التوحيد

رأيت كذلك أن أزودك به — اتماما للفائدة — فاليك :

كلمة التوحيد ، هى : « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » ويتعلق بها خمسة أمور :

(أ) ضبطها : ينبغي ترقيق حروفها ما عدا لام الله ، وأن تمد « لا » مدا طبيعيا الى ست حركات ، وتحقق همزة اله ، وتمد لامها مدا طبيعيا ، وتفتح هاؤها فتحا بينا بلا اشباع • وتحقق همزة « الا » بلا اشباع وتشدد لامها ، ويفخم لفظ الجلالة ، وتضم الهاء وصلا ، وتسكن وقفا ، وحينئذ : يجوز مد لفظ الجلالة الى ست حركات •

(ب) فضل لا إله الا الله : قد ورد فى فضلها أحاديث كثيرة منها : حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « عبد الله بن عمرو »

---

(١) اى حتى يصل هذا القول الى العرش ، وهذا كقول الله تعالى : « اليه يصعد الكلم الطيب » (فاطر : ١٠) .

(٢) فى الجزء الأول صفحة ١٢٧

أن النبى صلى الله عليـــه وآله وسلم ، قال : « خير الدعاء دعاء يوم عرفـــة ، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبـــلى : لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير » أخرجه مالك والترمذى واللفظ له ، وقال : حديث غريب .

وحديث جابر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « أفضل الذكر : لا اله الا الله ، وأفضل الدعاء : الحمد لله »(١) أخرجه أحمد والنســـائى والترمذى وقال : حسن غريب وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه .

وحديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « قال موسى عليه الصلاة والســـلام : يا رب علمنى ما أذكرك به ، وأدعوك به . فقال : يا موسى .. قل : لا اله الا الله . قال موسى عليه الصلاة والسلام : يا رب كل عبـــادك يقولون هـــذا . قال : قل : لا اله الا الله . قال : لا اله الا أنت . انما أريد شيئا تخصنى به . قال : يا موسى .. لو أن السموات السبع فى كفة ، ولا اله الا الله فى كفة ، لمـــالت بهن لا اله الا الله » أخرجه النسائى وابن حبان .

وحديث عبد الله بن عمرو أن النبى صلى الله عليـــه وآله وسلم ، قال : « التسبيح نصف الميزان ، والحمـــد لله تملؤه ، ولا اله الا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تخلص اليه »(٢) أخرجه الترمذى .

(ج) حكم النطق بكلمة التوحيد : يجب على من نشـــأ مؤمنا ، أن يذكرها فى العمر مرة ناويا أداء الواجب ، والا فهـــو عاص . ثم ينبغى له الاكثار من ذكرها عارفا معناها مستحضرا ما احتوت عليه لينتفع بذكرها دنيـــا وأخرى ، فتتفجر ينابيـــع الحكمة من قلبه ، ويرى لها من الأسرار والعجائب ان شاء الله تعالى ما لا يدخل تحت الحصر .

وأما الكافر الذى يريد الدخول فى الاسلام ، فذكره لها ليس شرطا فى صحة ايمانه ولا جزءا من مفهومه ، وانما جعل الشرع النطق بالشهادتين شرطا لازما لاجراء الأحكام الدنيوية على المؤمن كالصلاة خلفه ، والصلاة عليه ، ودفنه فى مقابر المسلمين ، وتزوجه مسلمة ، فاذا لم ينطق بهما

---

(١) أطلق على الحمد دعاء على سبيل التجوز ، لأن الحمد يتضمن الدعاء لقوله تعالى : « **لئن شكرتم لأزيدنكم** » (ابراهيم : ٧) أى : فمن حمد الله تعالى كأنه يقول : رب أدم على نعمتك وزدنى منها .

(٢) هذا من المتشابه المصروف عن ظاهره باتفاق السلف والخلف .

لعذر كالخرس ، أو لم يتمكن من النطق بهما ، بأن مات عقب ايمانه بقلبه ، أو اتفق له عدم النطق بهما بعد الايمان بقلبه فهو مؤمن عند الله وناج فى الآخرة ، وأما من امتنع عن النطق بهما عنادا بعد أن عرض عليه ذلك فهو كافر والعياذ بالله تعالى ، ولا عبرة بتصديقه القلبى مع هـذا الامتناع .

(د) **تضمنها العقائد** : كل ما تقدم من العقائد يندرج فى كلمة التوحيد ، وذلك أن معنى لا اله الا الله : « لا معبود بحق الا الله » ، ويلزم — هذا المعنى أن يكون غنيا عن كل ما سواه ، وأن يفتقر اليه كل ما عداه .

ويلزم كونه غنيا عن كل ما سواه :

(أ) وجوب الوجود له والقدم والبقاء والمخالفة للحوادث والقيام بالنفس والسمع والبصر والكلام ، وعدم الغرض فى فعل ما أو حكم كذلك ، وعدم التأثير بالقوة المودعة ، وعدم وجوب فعل عليه تعالى .

(ب) واستحالة العدم والحدوث ، والفناء ، والمماثلة للحوادث ، والاحتياج لموجد أو ذات يقوم بها . والصمم ، والعمى ، والبكم ، والتأثير بالقوة المودعة ، والغرض فى فعل أو حكم ما ، ووجوب فعل عليه تعالى .

فهذه اثنتان وعشرون عقيدة . منها الواجب له تعالى ، ومنها المستحيل فى حقه تعالى .

ويلزم كونه مفتقرا اليه كل ما عداه :

(أ) وجوب الوحدانية له تعالى فى الذات والصفات والأفعال ، والحياة والعلم والارادة والقدرة ، وحدوث العالم ، وعدم التأثير بالعلة والطبع والتولد .

(ب) واستحالة التعدد فى الذات والصفات والأفعال اتصالا وانفصالا على ما تقدم ، والموت والجهل والكراهية والعجز ، وقدم العالم والتأثير بالعلة والطبيعة والتولد .

فهذه أربع عشر عقيدة ما بين واجب له تعالى ومستحيل عليه تعالى .

ومعنى « محمد رسول الله » : ثبوت الرسالة له صلى الله عليه وآله وسلم ، يندرج تحته :

(آ) وجوب الأمانة والتبليغ والصدق ، واتصافه بما لا نقص فيه ، سواء أكان واجبا كالفطانة وعدم دناءة الآباء والأمهات ، أم جائزا كالمرض والجوع .

(ب) وايماننا بجميع الأنبياء والكتب والملائكة واليوم الآخر ، والقضاء والقدر .

(جـ) واستحالة الخيانة والكتمان والكذب ، واتصافه بما فيه نقص كالبلادة والجنون والعمى .

فهذه أربع عشر عقيدة تضم لما تقدم تكون جملتها خمسين عقيدة .

* * *

ثم يقول بعد ذلك رحمه الله تعالى مشيرا الى بعض الملاحظات الهامة المتعلقة بالذكر ، تحت عنوان :

كيفيـة الذكر وفضله

قد علمت أن هـذه الكلمة ــ وهى لا اله الا الله ــ من أفضل الأذكار وأشرفها عند الله تعالى : فينبغى للعاقل أن يعنى بها ، فيكون حالة الذكر على طهارة متطيبا متجملا مستقبلا القبلة ، ويتحرى الانفراد عن الخلق ما استطاع ، ويستحضر المعنى بقدر الامكان . ولا يترك الذكر عند عدم حضور قلبه . بل يذكر متحليا ببقية الآداب راجيا أن تغشاه نفحة الهية تنقله من الغفلة الى الحضور ، ومن الحضور الى المشاهدة . وأن لا يتصرف فى شىء من حروفها بزيادة أو نقصان . بل يقتصر على الوارد شرعا . وليحذر مما عليه غالب الناس اليوم من تحريف الذكر والالحاد فى أسمائه تعالى ، فانه حرام بالاجماع ولا سند لهم فى ذلك الا قولهم : وجدنا أشياخنا هكذا يذكرون ، وهذا لا يصدر الا من الجهلة الذين لا يميزون الغث من السمين . فعلى المؤمن أن لا يخرج فى ذكره وكل أعماله عما جاء به الكتاب العزيز ، ونطقت به السنة المطهرة .

هذا .. واعلم : أن الذكر حقيقة هو ما يجرى على اللسان والقلب ، وأكمله ما كان فيه استحضار معنى الذكر وما اشتمل عليه من تعظيم الله تعالى ونفى النقائص عنه ، والمراد به ما يشتمل التسبيح والتحميد وتلاوة القرآن والاستغفار والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وغير ذلك . قال الفخر الرازى : المراد بذكر اللسان الألفاظ الدالة

على التسبيح والتحميد والتمجيد ، والذكر بالقلب : التفكر فى أدلة الذات والصفات والتكاليف من الأمـر والنهى ، وفى أسرار مخلوقات الله ، والذكر بالجوارح : هو أن تصير مستغرقة بالطاعات ، ولذا سمى الله تعالى الصلاة ذكرا فى قوله : ٠٠ **فاسعوا الى ذكر الله** »[١] ٠

هذا ٠٠ والذكر سبعة أقسام : ذكر العينين البكاء ، وذكر الأذنين الاصغاء ، وذكر اللسان الثناء ، وذكر اليدين العطاء ، وذكر البدن الوفاء ، وذكر القلب الخوف والرجاء ، وذكر الروح التسليم والرضا ٠

* * *

ثم ذكر بعض الأحاديث الشريفة التى أرجو أن تنتفع بها وتجعلها وردا لك ، وهى :

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من قال لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، فى يوم مائة مرة : كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به الا رجل عمل أكثر من ذلك » أخرجه الجماعة[٢] الا النسائى وأبا داوود ٠

وعنه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « من قال سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة : حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر »[٣] أخرجه مالك وأحمد والشيخان والترمذى وابن ماجه ٠

وعن مكحول عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أكثر من قول لا حول ولا قوة الا بالله[٤] ، فانها كنز من كنوز الجنة » قال مكحول : فمن قال لا حول ولا قوة الا بالله ولا منجى من الله الا اليه ، كشف الله عنه سبعين بابا من الضر أدناها الفقر ٠

---

(١) الجمعة : ٩

(٢) وهم : مالك واحمد والبخارى ومسلم وابو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه ٠

(٣) الزبد بفتحتين من البحر وغيره كالرغوة ٠

(٤) عن ابن مسعود مرفوعا : « الا أخبرك بتفسير لا حول ولا قوة الا بالله ؟ لا حول عن معصية الله الا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله الا بعون الله » أخرجه ابن النجار ٠

أخرجه الترمذى ، وقال اسناده ليس بمتصل لأن مكحولا لم يسمع من أبى هريرة ، وأخرجه النسائى مطولا بسند رجاله ثقات ، ورفع : ولا منجى من الله الا اليه .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « الباقيات الصالحات : لا اله الا الله ، وسبحان الله ، والله أكبر ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة الا بالله » أخرجه النسائى وابن حبان والحاكم وصححه .

* * *

وورد كذلك ، فى :

فضل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وغير ذلك

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان الى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » رواه الشيخان والترمذى .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « لأن أقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله أكبر ، أحب الى مما طلعت عليه الشمس » رواه مسلم والترمذى .

وعن أبى ذر رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبرك بأحب الكلام الى الله ؟ قلت : أخبرنى يا رسول الله . قال : ان أحب الكلام الى الله : سبحان الله وبحمده » رواه مسلم والترمذى . ولفظه : « أحب الكلام الى الله عز وجل ما اصطفى الله لملائكته : سبحان ربى وبحمده ، سبحان ربى وبحمده » .

وعن جابر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « من قال : سبحان ربى العظيم وبحمده غرست له نخلة فى الجنة » رواه الترمذى وحسنه .

وعن أبى سعيد أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : استكثروا من الباقيات الصالحات » . قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : « التكبير ، والتهليل ، والتسبيح ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة الا بالله » رواه النسائى والحاكم ، وقال : صحيح الاسناد .

وعن عبد الله رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لقيت ابراهيم ليلة أسرى بى ، فقال : يا محمد أقرىء أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان[1] وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله أكبر » رواه الترمذى والطبرانى ، وزاد : « ولا حول ولا قوة الا بالله » .

وعند مسلم : أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « أحب الكلام الى الله أربع — لا يضرك بأيهن بدأت — : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله أكبر » .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » رواه البخارى ومسلم .

أى : أجزأتاه عن قيام تلك الليلة ، وقيل : كفتاه ما يكون من الآفات تلك الليلة ، وقال ابن خزيمة فى صحيحه « باب ذكر أقل ما يجزىء من القراءة فى قيام الليل » ثم ذكره .

وعن أبى سعيد رضى الله عنه ، قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة ؟ فشق ذلك عليهم ، وقالوا : أينا يطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : الله الواحد[2] الصمد ثلث القرآن » رواه البخارى ومسلم والنسائى .

وورد كذلك ، من :

الذكر المضاعف وجوامعه

عن جويرية رضى الله عنها ، أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج من عندها ، ثم رجع بعد أن أضحى وهى جالسة . فقال : « ما زلت على الحال التى فارقتك عليها ؟ قالت : نعم . قال النبى صلى الله عليه وسلم : لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات ، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته » رواه مسلم وأبو داوود .

---

(١) قيعان : جمع قاع أى أنها مستوية منبسطة واسعة .

(٢) يقصد سورة الاخلاص .

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على امرأة وبين يديها نوى أو حصى ، تسبح الله به ، فقال : « أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا ، أو أفضل : سبحان الله عدد ما خلق فى السماء ، وسبحان الله عدد ما خلق فى الأرض ، وسبحان الله عدد ما خلق بين ذلك ، وسبحان الله عدد ما هو خالق ، والله أكبر مثل ذلك ، والحمد لله مثل ذلك ، ولا اله الا الله مثل ذلك ، ولا حول ولا قوة الا بالله مثل ذلك » رواه أصحاب السنن والحاكم ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم أن عبدا من عباد الله قال : « يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ، ولعظيم سلطانك . فعضلت[1] بالملكين ، فلم يدريا كيف يكتبانها ، فصعدا الى السماء فقالا : يا ربنا ان عبدك قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها ؟ قال الله — وهو أعلم بما قال عبده — ماذا قال عبدى ؟ قالا : يا رب انه قد قال : يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ولعظيم سلطانك . فقال الله لهما : اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها » رواه أحمد وابن ماجه .

* * *

فضل الدعاء

واعلم : أن الدعاء ذكر وزيادة . وقد ورد الأمر به ، قال تعالى : **« .. وقال ربكم ادعونى أستجب لكم »**[2] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « من لم يسأل الله يغضب عليه » أخرجه الترمذى والبخارى فى الأدب والحاكم وصححه .

وعن أنس مرفوعا : « الدعاء مخ العبادة » أخرجه الترمذى وفيه ابن لهيعة فيه مقال . وعنه مرفوعا : « لا يرد الدعاء بين الأذان والاقامة » أخرجه أحمد والثلاثة وابن حبان وصححه وحسنه الترمذى وزاد : قالوا : فما نقول يا رسول الله ؟ قال : « سلوا الله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة » .

وعن شداد بن أوس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وآله

---

(١) فعضلت : اى اشتدت وعظمت .

(٢) غافر : ٦٠ .

وسلم ، قال : « سيد الاستغفار أن يقول : اللهم أنت ربى لا اله الا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت . أعوذ بك من شر ما صنعت . أبوء لك[1] بنعمتك على ، وأبوء لك بذنبى ، فاغفر لى فانه لا يغفر الذنوب الا أنت : من قالها من النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسى ، فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح ، فهو من أهل الجنة » رواه أحمد والبخارى والدارمى وأبو داوود والترمذى والنسائى .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الدعوات حين يمسى وحين يصبح : « اللهم انى أسألك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة . اللهم انى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى . اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى[2] واحفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى ، وأعوذ بك أن أغتال من تحتى » أخرجه النسائى وابن ماجه واللفظ له ، والحاكم وصححه .

وعن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم علمها هـذا الدعاء :

« اللهم انى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ، ما علمت منه وما لم أعلم . اللهم انى أسألك من خير ما سألك عبدك ونبيك . وأعوذ بك من شر ما عاذ به عبدك ونبيك . اللهم انى أسألك الجنة وما قرب اليها من قول أو عمل . وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول أو عمل . وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لى خيرا » أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححاه .

وقال طلق بن حبيب : جاء رجل الى أبى الدرداء فقال : قد احترق بيتك . فقال : ما احترق ، لم يكن الله ليفعل ذلك بكلمات سمعتهن من النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، من قالها أول نهاره لم تصبه مصيبة حتى يمسى ، ومن قالها آخر النهار لم تصبه مصيبة حتى يصبح : « اللهم أنت ربى لا اله الا أنت ، عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم

---

(١) أى أعترف .

(٢) العفو : محو الذنوب . والعافية : السلامة من الأسقام والبلايا . والعورات : العيوب . والروعات : الفزعات ، فالمعنى : ادفع عنى خوفا يقلقنى ويزعجنى وأن أغتال .

ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم • أعلم أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما • اللهم انى أعوذ بك من شر نفسى ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم » أخرجه ابن السنى •

وفى بعض الروايات أنه قال : انهضوا بنا ، فقام وقاموا معه ، فانتهوا الى داره ، وقد احترق ما حولها ، ولم يصبها شيء •

* * *

وهناك أذكار كثيرة تستطيع أخا الاسلام الوقوف عليها[1] والتقرب الى الله تبارك وتعالى بها فى جميع المناسبات والأحوال ••

* * *

وحسبى فى النهاية أن أذكرك بهذا الأثر الذى جاء فيه : أن رجلا مر على رجل أعمى وبه كثير من الأمراض فسمعه يقول : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيرا من خلقه •• فلما سمعه يقول هـذا ، قال له متعجبا : يا أخى ما الذى عافاك الله منه ؟ لقد رأيت جميع المصائب وقد أصابتك ! ؟ فقال له : اليك عنى يا بطال ، فانه عافانى اذ أطلق لسانا يوحده ، وقلبا يعرفه ، وفى كل وقت يذكره •• ثم قال :

حمدت الله ربى اذ هدانى الى الاسلام والدين الحنيف
فيذكره لسانى كل وقت ويعرفه فؤادى باللطيف

فاذكر كل هـذا أخا الاسلام ، حتى تكون من الذاكرين لا من الغافلين ، و :

تمسك بحبل الشرع واضرب بسيفه
رؤوس المعاصى واتخذ منه جوشنا
وبادر الى انكار ما كان خارجا
عن الحق واحذر أن تكون مداهنا
ولا تجعل الذكر النفيس وسيلة
الى عرض الدنيا المعرض للفنا
ولا تجعل المقصود منه تكسبا
فتنحط قدرا من علاك وتفتنا

---

(١) فى أمهات الكتب التى منها : « الترغيب والترهيب » ، « رياض الصالحين » ، « تحفة الذاكرين » ، « الأذكار للنووى » •

ولا تتخـذه للرياسـة سـلما
فتغضب مربوبـا وربـا مهيمنـا

* * *

ولتكن كذلك مكثرا من الصلاة على الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ولا سيما فى يوم الجمعة ، فضلا عن بقية الأيام :

فقد روى أبو داوود والنسائى عن أوس رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ان من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فأكثروا على من الصلاة فيه ، فان صلاتكم معروضة على » فقالوا : يا رسول الله .. وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ — أى بليت — قال : « ان الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » .

وفى سنن أبى داوود عن أبى هريرة رضى الله عنه باسناد صحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ما من أحد يسلم على الا رد الله على روحى حتى أرد عليه السلام » .

* * *

وحسبك ان فعلت ذلك أنك ستكون من أولى الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم :

فقد روى الترمذى عن ابن مسعود رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم على صلاة » قال الترمذى : حديث حسن : أى أحقهم بشفاعته وأقربهم مجلسا منه .. صلوات الله وسلامه عليه .

* * *

بل وستكون كذلك ، قد فزت بالخير العظيم المشار اليه فى الأحاديث الشريفة الآتية :

روى الامام أحمد عن أبى طلحة الأنصارى ، قال : « أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما طيب النفس يرى فى وجهه البشر ، فقالوا : يا رسول الله .. أصبحت اليوم طيب النفس يرى فى وجهك البشر . قال : « أجل .. أتانى آت من ربى عز وجل ، فقال : من صلى عليك من أمتك صلاة كتب الله له بها عشر حسنات ، ومحا عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، ورد عليه مثلها » قال ابن كثير : وهـذا اسناد جيد .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « من سره أن يكال له بالمكيال الأوفى — اذا صلى علينا أهل

البيت — فليقل : اللهم صل على محمد النبى وأزواجه أمهات المؤمنين ، وذريته ، وأهل بيته : كما صليت على آل ابراهيم انك حميد مجيد » رواه أبو داوود والنسائى .

وعن أبى بن كعب رضى الله عنه ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ذهب ثلثا الليل قام ، فقال : يا أيها الناس اذكروا الله ، اذكروا الله جاءت الراجفة[1] تتبعها الرادفة[2] جاء الموت بما فيه ، جاء الموت بما فيه . قلت : يا رسول الله .. انى أكثر الصلاة عليك ، فكم أجعل لك من صلاتى ؟ قال : ما شئت . قلت : الربع ؟ قال : ما شئت ، فان زدت فهوخيرلك . قلت : النصف ؟ قال : ما شئت ، فان زدت فهو خير لك . قلت : فالثلثين ؟ قال : ما شئت ، فان زدت فهو خير لك . قلت : أجعل لك صلاتى كلها[3] . قال : « اذن تكفى همك ويغفر لك ذنبك » رواه الترمذى .

* * *

هذا .. واذا كان الله تبارك وتعالى قد أمرنا بهذا ، فى قوله تعالى : **« ان الله وملائكته يصلون على النبى ، يا أيها النبى آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما »**[4] .

فان المقصود من هذه الآية — كما قال ابن كثير — : أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده فى الملأ الأعلى ، بأنه يثنى عليه عند الملائكة المقربين ، وأن الملائكة تصلى عليه ، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين ، العلوى والسفلى .

وقال البخارى : قال أبو العالية : « صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة الدعاء » .

وقال أبو عيسى الترمذى : وروى عن سفيان الثورى وغير واحد من أهل العلم ، قالوا : « صلاة الرب الرحمة ، وصلاة الملائكة الاستغفار » .

* * *

---

(١) الراجفة : النفخة الأولى .
(٢) الرادفة : النفخة الثانية .
(٣) اى أجعل مجالسى كلها فى الصلاة والسلام عليك .
(٤) الأحزاب : ٥٦

فاذكر كل هذا أخا الاسلام ، واعلم أنه من الواجب عليك أن تصلى وتسلم عليه ، كلما ذكر صلوات الله وسلامه عليه .. استنادا الى هذا الأمر الذى ينصرف الى الوجوب فى هـذه الآية الكريمة .. وقد ذهب الى وجوب هذا طائفة من العلماء ، منهم الطحاوى والحليمى واستدلوا على ذلك بما رواه الترمذى وحسنه :

عن أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « رغم أنف رجل[1] ذكرت عنده فلم يصل على ، ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له ، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة » .

ولحديث أبى ذر : أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، قال : « ان أبخل الناس من ذكرت عنده فلم يصل على » .

* * *

وقد أشار الى هذا محيى السنة الشيخ محمود خطاب السبكى رحمه الله تعالى ، حيث يقول فى كتابه : « المقامات العلية » :

والسحب لا تحكى عطايـاه فمـا
أنداه بحرا بالسـخاء وأكرمـا
أنعم بمن أسنى الكمال له انتمى
مولاه قد صلى عليـه وسـلما
من لم يصل عليه كان بخيلا
صـلوا عليـه بكـرة وأصيـلا

* * *

وقد ذهب آخرون — من العلماء — الى وجوب الصلاة عليه فى المجلس مرة واحدة ، ثم لا تجب فى بقية ذلك المجلس ، بل تستحب :

لحديث أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم الا كان عليـهم ترة[2] يوم القيامة ، فان شاء عذبهم ، وان شاء غفر لهم » رواه الترمذى وقال : حسن .

* * *

---

(١) أى ذل وانقاد .

(٢) الترة : معناها الحسرة أو النقص ، أو التبعة .

واستحب العلماء كذلك كتابة الصلاة والسلام عليه كلما ذكر اسمه صلوات الله وسلامه عليـــه ، الا أنه لم يرد فى ذلك حـــديث يصح الاحتجاج به .

وذكر الخطيب البغدادى ، قال : رأيت بخط الامام أحمد بن حنبل رحمه الله كثيرا ما يكتب اسم النبى صلى الله عليه وسلم من غير ذكر الصلاة عليه كتابة . قال : وبلغنى أنه كان يصلى عليه لفظا .

وحول الجمع بين الصلاة والتسليم :

قال النووى : اذا صلى على النبى صلى الله عليـــه وسلم فليجمع بين الصلاة والتسليم ، ولا يقتصر على أحدهما ، فلا يقل : صلى الله عليه فقط ، ولا : عليه السلام فقط .

وتستحب الصلاة على الأنبياء والملائكة استقلالا .

وأما غير الأنبياء : فانه يجوز الصلاة عليهم تبعا باتفاق العلماء . وقد تقدم قوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم صل على محمد النبى وأزواجه أمهات المؤمنين » .. الخ .

وتكره الصلاة عليهم استقلالا ، فلا يقال : عمر صلى الله عليه وسلم .

* * *

فلاحظ كل هذا أخا الاسلام ، ثم اليك فى ختام هذا العرض المبارك المتعلق بالصلاة والسلام على الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليـــه هذين الحديثين الشريفين اللذين قرأتهما فى فقه الســـنة تحت عنوان :

صيغة الصلاة والسلام عليـــه

روى مسلم عن أبى مسعود الأنصارى أن بشير بن سعد قال : أمرنا الله أن نصلى عليك يا رسول الله ، كيف نصلى عليك ؟ قال : فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل ابراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل ابراهيم فى العالمين انك حميد مجيد . والسلام كما علمتم » .

وروى ابن ماجه ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : اذا صليتم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسنوا الصلاة فانكم

لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه • قالوا له : فعلمنا ، قال : قولوا : اللهم اجعل صلواتك ، ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين ، وامام المتقدمين ، وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك امام الخير ، وقائد الخير ، ورسول الرحمة • اللهم ابعثه مقاما يغبطه به الأولون • اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وآل ابراهيم انك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وآل ابراهيم ، انك حميد مجيد •

* * *

وهناك صيغ أخرى فى كتب السنة الصحيحة تستطيع أن ترجع اليها •• ان شئت الاستزادة من هـذا الخير الذى ما بعده خير ••

ولله در القائل المحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

ان شئت من بعد الضلالة تهتدى
صل على الهادى البشير محمد
يا فوز من صـلى عليـه فانه
يحوى الأمانى بالنعيـم السرمد
يا قومنا صـلوا عليـه فتظفروا
بالبشر والعيش الهنى الأرغـد
صلوا عليـه وارفعوا أصواتـكم
يغفر لكم فى يومكم قبل الغد
ويخصـكم رب الأنـام بفضـله
بأفاضل الجنـات يوم الموعـد
صلى عليـه الله جـل جلالـه
ما لاح فى الآفاق نجم الفرقد

* * *

هـذا بالاضافة الى أنك ستفوز مع المصلين على سيد المرسلين بعشر كرامات :

احداهن : صـلاة المـلك الغفـار •
الثانيـة : شفاعـة النبى المختـار •
الثالثـة : الاقتداء بالملائكة الأبرار •
الرابعـة : مخالفة المنافقين والكفار •
الخامسة : محو الخطايـا والأوزار •

السادسة : قضاء الحوائج والأوطار .
السابعة : تنوير الظواهر والأسرار .
الثامنة : النجاة من النار .
التاسعة : دخول دار القرار .
العاشرة : سلام الملك الغفار .

* * *

وأما عن العنصر الثانى والأخير من الوصية العظيمة التى ندور حولها ، وهو : « .. وصلوا صلاتكم فى أول وقتكم .. » :

فهو المشار اليه فى الآية الكريمة ، التى يقول الله تبارك وتعالى فيها : **« ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا »**[1] : أى فرضا مؤقتا بوقت لا يصح أن تتقدم عليه ، أو تتأخر عنه ، الا لضرورة شرعية ، وهى :

أولا ــ النوم : فمن نام عن الصلاة ــ ولم يكن هناك من يوقظه مثلا ــ حتى خرج وقتها ، لا يكون آثما ، بل عليه أن يصلى متى استيقظ ، ما دامت نيته عند النوم كانت متجهة لادراك الصلاة ، قبل خروج وقتها .

فعن أبى قتادة رضى الله عنه ، قال : « سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليلة ، فقال بعض القوم : لو عرست بنا[2] يا رسول الله ؟ قال : أخاف أن تناموا عن الصلاة .

فقال بلال : أنا أوقظكم . فاضطجعوا ، وأسند بلال ظهره الى راحلته فغلبته عيناه ، فنام ، فاستيقظ النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد طلع حاجب الشمس . فقال : يا بلال .. أين ما قلت ؟ فقال بلال : ما ألقيت على نومة مثلها قط ! قال[3] : ان الله قبض أرواحكم حين شاء ، وردها عليكم حين شاء . يا بلال قم فأذن بالناس بالصلاة . فتوضأ . فلما ارتفعت الشمس ، وابيضت : قام فصلى بالناس جماعة » رواه البخارى ومسلم .

وفى رواية لأبى داوود والترمذى والنسائى : فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « أما انه ليس فى النوم تفريط ، انما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يدخل وقت الصلاة الأخرى » .

---

(١) النساء : ١٠٣ (٢) التعريس : هو البيات ليلا .
(٣) أى الرسول صلى الله عليه وسلم .

وفى رواية لمسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه : « فلم يستيقظ ــ حتى طلعت الشمس ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ليأخذ كل رجل برأس راحلته ، فان هذا منزل حضرنا فيه الشيطان • قال : ففعلنا •

ثانيــا ــ الاغماء : فمن أغمى عليــه ، ولم يفق ، حتى خرج الوقت ، فليصله متى أفاق ، ولا اثم عليه •• وذلك لأن الاغماء كالنوم فى ستر العقل ، وفقد الوعى •

ثالثــا ــ النسيان : لقوله صلى الله عليه وسلم : « من نسى صلاة فليصل اذا ذكرها ، لا كفارة لها الا ذلك » أخرجه البخارى ومسلم •

رابعا ــ جهاد العدو : فان شغل المسلمون بقتال العدو •• ولم يتمكنوا من أداء الصلاة على أى وجه من الوجوه ــ كصلاة الخوف مثلا ــ حتى خرج وقتها ، فليصلوها متى تمكنوا •

فعن جابر رضى الله عنه : « أن عمر رضى الله عنه • جاء يوم الخندق بعد ما غربت الشمس ، فجعل يسب كفار قريش ، وقال : يا رسول الله •• ما كدت أصلى العصر حتى كادت الشمس تغرب • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله ما صليتها » • فقمنا الى بطحان فتوضأ للصلاة وتوضأنا • فصلى العصر ، بعدما غربت الشمس ، ثم صلى بعدها المغرب » • أخرجها البخارى •

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن المشركين شغلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق عن أربع صلوات ، حتى ذهب من الليــل ما شاء الله • فأمر بلالا فأذن ، ثم أقام ، فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ثم أقام فصلى المغرب ، ثم أقام فصلى العشاء •• أخرجه الترمذى والنسائى •

* * *

فعلى الأخ المسلم أن يلاحظ هــذا ، حتى لا يؤخر الصلاة عن وقتها ، اذا لم يكن هناك عذر من هــذه الأعذار •

والا كان من المشار اليهم فى الآية الكريمة التى يقول الله تعالى فيها : **« فويل للمصلين • الذين هم عن صلاتهم ساهون »**[1] : •

فهم كما ذكر القرطبى : عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ،

---

(١) المــاعون : ٤ ، ٥ •

أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال — فى تفسيرها — : « الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها » .

وقد روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى الصلاة لوقتها ، وأسبغ لها وضوءها ، وأتم لها قيامها وخشوعها ، وركوعها وسجودها ، خرجت بيضاء مسفرة ، تقول : حفظك الله كما حفظتنى ، ومن صلاها لغير وقتها ، ولم يسبغ لها وضوءها ، ولم يتم لها خشوعها ، ولا ركوعها ، ولا سجودها ، خرجت وهى سوداء مظلمة ، تقول : ضيعك الله كما ضيعتنى ، حتى اذا كانت حيث شاء الله ، لفت كما يلف الثوب الخلق ثم ضرب بها وجهه » رواه الطبرانى فى الأوسط .

* * *

هذا مع ملاحظة :

أولا : أن لكل صلاة من الصلوات الخمس وقت معلوم ، تؤدى فيه ، كما أشارت الآية الكريمة التى يقول الله تبارك وتعالى فيها : **« فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم ، فاذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة ، ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا »**[1] .

وقد بينت السنة المطهرة هذه الأوقات ، ووضعت لها معالمها فى أحاديث كثيرة :

منها الحديث الذى يعرف بحديث امامة جبريل الذى قال عنه البخارى بأنه أصح شىء فى المواقيت ، وهو :

ما رواه جابر بن عبد الله رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جاءه جبريل ، فقال له : قم فصله ، فصلى الظهر حين زالت الشمس ، ثم جاءه العصر ، فقال : قم فصله ، فصلى العصر حين صار ظل كل شىء مثله ، ثم جاءه المغرب ، فقال : قم فصله ، فصلى المغرب حين وجبت الشمس[2] ثم جاءه العشاء ، فقال له : قم فصله ، فصلى العشاء حين غاب الشفق ، ثم جاءه الفجر حين برق الفجر ، ثم جاءه من الغد للظهر ، فقال له : قم فصله ، فصلى الظهر حين كان ظل كل شىء مثله ، ثم جاءه العصر ، فقال : قم فصله ، فصلى العصر

---

(١) النساء : ١٠٣

(٢) وجبت الشمس : أى غربت .

حين صار ظل كل شيء مثليه ، ثم جاءه المغرب وقتا واحدا لم يزل عنه[١] ، ثم جاءه العشاء حين ذهب نصف الليل ـ أو قال ثلث الليل ـ فصلى العشاء ، ثم جاءه حين أسفر جدا ، فقال : قم فصله ، فصلى الفجر ، ثم قال : « ما بين هذين الوقتين وقت » رواه أحمد والنسائى والترمذى .

وما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت الصلوات ، فقال : « وقت صلاة الفجر : ما لم يطلع قرن الشمس الأول[٢] ، ووقت صلاة الظهر : اذا زالت الشمس عن بطن السماء ما لم يحضر العصر ، ووقت صلاة العصر : ما لم تصفر الشمس ويسقط قرنها الأول ، ووقت صلاة المغرب : اذا غابت الشمس ، ما لم يسقط الشفق ، ووقت صلاة العشاء : الى نصف الليل » .

* * *

وتوضيحا لهذا .. فاننى أحب أن أزودك بهذا التلخيص الذى أوجزه صاحب كتاب : « الفقه الواضح » لما جاء فى هذين الحديثين الشريفين الصحيحين ، بعيدا عن الاطناب الذى لا يتسع له المقام ، فاليك :

وقت الظهر :

يبدأ وقت الظهر باتفاق الفقهاء ، اذا زالت الشمس عن وسط السماء ، أى مالت جهة الغرب كما ثبت فى حديث جبريل وغيره من الأحاديث .. ولكن الخلاف وقع فى بيان نهايته ، فقال الشافعية : ينتهى وقت الظهر بحضور وقت العصر ، لقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتقدم الذى رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص : « ووقت صلاة الظهر اذا زالت الشمس عن بطن السماء ما لم يحضر العصر » .

وقال مالك وجمهور من الفقهاء : وقت الظهر يدخل فى وقت العصر بمقدار ما يصلى المصلى أربع ركعات ، فهما وقتان مشتركان ، واستدلوا بما جاء فى حديث امامة جبريل من أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى

---

(١) أى لم يتحول عنه .

(٢) قرنها الأول : جانبها وهو أول ما يظهر منها .

وراء جبريل العصر فى اليوم الأول حين صـــار ظل كل شيء مثله ، وصلى وراءه الظهر فى اليوم الثانى حين صار ظل كل شيء مثله • أى : فى نفس الوقت الذى صلى فيه العصر فى اليوم الأول : وفى هذا دلالة على أن الوقتين متداخلان •

وقت العصر :

يدخل وقت العصر بصيرورة ظل الشيء مثله بعد الزوال ، لحديث جبريل السابق •

وهو مذهب مالك والشافعى وأحمد وجمهـــور غفير من فقهـــاء الحنفية ، وينتهى وقت العصر بغروب الشمس على الأصح •

لحديث أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « من أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر » أى : أدركه حاضرا • أخرجه أصحاب السنن ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح •

وقت المغرب :

ويدخل وقت المغرب بغروب الشمس باتفاق الفقهـــاء ، لحديث سلمة بن الأكوع : « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى المغرب اذا غربت الشـــمس وتوارت بالحجاب » أخرجـــه أصحاب الســـنن الا النسائى •

واختلفوا فى آخره ، فمشهور مذهب المـــالكية أن وقتها المختار ينتهى بمضى ما يسعها بعد الأذان ، والاقامة ، وتحصيل شروطها ، وهى الطهارة من الحدث والخبث ، وستر العورة ، واستقبال القبلة ، لحديث امامة جبريل المتقدم ، وفيه أن جبريل صلى بالنبى صلى الله عليه وسلم فى اليومين فى وقت واحد ، فدل هذا الحديث على أن المغرب ليس لها الا وقت واحد مختار ، وهو الوقت الذى يتهيأ فيه الانسان للصلاة بعد الأذان والاقامة من تحصيل شروطها المتقدمة •

ومشهور مذهب الشافعية والحنابلة ، وقول آخر لمـــالك ، أن وقتها يمتد الى قبيل مغيب الشفق الأحمر أى قبل دخول وقت العشاء بقليل ، لحديث ابن عمرو أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الشفق : الحمرة ، فاذا غاب الشفق وجبت العشاء » أخرجه الدارقطنى •

وهـــذا الحديث يفيد أن وقت المغرب يمتد حتى حضور وقت

العشاء ، وهو مغيب الشفق الأحمر ، وينتهى وقتها الاختيارى من غروب الشمس الى قبيل وقت العشاء بمقدار ما يسع ركعة بتمامها .

وقت العشاء :

يدخل وقت العشـــاء اذا غاب الشفق الأحمر ، وينتهى وقتهـــا الاختيارى ، اذا جاء ثلث الليـــل ، أو نصفه على خلاف فى ذلك بين الفقهاء ، تبعا لاختلاف الروايات .

ويخرج وقتها بطلوع الفجر الصادق .

وقت الصبح :

يبدأ وقت الصـــبح من طلوع الفجر الصـــادق ، وينتهى بطلوع الشمس .

وهذا باجماع جمهور الفقهاء . واختلفوا فى وقته المختار .

فقال مالك والشافعى وأحمد :

يستحب المبادرة بصلاة الصبح أول الوقت لقول عائشة رضى الله عنها : « ان كان رسول الله صلى الله عليـــه وسلم ليصلى الصبح فينصرف النســـاء متلفعات بمروطهن لا يعرفن من الغلس » ـــ أى الظلمة ـــ أخرجه مسلم .

ويرى الحنفيـــة : أن الاســـفار بالصبح أفضـــل ، لحديث رافع ابن خديج أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « أسفروا بالفجر فانه أعظم للأجر » رواه أحمد والنسائى والترمذى .

والاسفار : هو الوضوح البين الذى يمكن فيه مشاهدة الأشياء بوضوح .

ويرى كثير من المـــالكية : أن التعجل أفضل اذا لم يكن المصلى ينتظر جماعة ، والتأخير الى الاسفار اذا كان الغرض منه تكثير الجماعة جمعا بين الأحاديث التى تبدو متعارضة .

* * *

وثانيـــا : ومن خلال ما وقفنا عليه فى الحديثين ، وفى هـــذا التوضيح التفصيلى لأوقات الصلاة : يتبين لنـــا أن لكل صلاة وقتين :

وقت أداء .. ووقت قضاء .

وأن وقت الأداء له ثلاثة أوقات :

وقت بداية ، ووقت وسط ، ووقت نهاية ، والى هـــذا يشير الرسول صلى الله عليـــه وسلم فى قوله :

« أول الوقت رضوان الله ، ووسط الوقت رحمة الله ، وآخر الوقت عفو الله عز وجل » أخرجه الدارقطنى .

وكما أوجز أيضا صاحب كتاب « الفقه الواضح » :

وقت البداية يسميه الفقهاء الفضيلة ، لأنه من الأفضل للعبد أن يؤدى الصلاة فيه ، حتى ينال رضوان الله عز وجل .

وقد سئل النبى صلى الله عليه وسلم : أى الأعمال أفضل ؟ فقال : « الصلاة لوقتها » : أى فى أول وقتها . أخرجه الحاكم والدارقطنى .

ووقت الوسط يسميه الفقهاء وقت توسعة ، أو وقت اختيارى . وهو ما يلى وقت الفضيلة . أى بعد الوقت الذى يشمل الأذان والاقامة ، وتحصيل شروط الصلاة ، من طهارة ، وستر عورة ، واستقبال قبلة .

وسماه الفقهاء بذلك لأنه وقت موسع ، يجوز للعبد أن يؤخر الصلاة عن وقت الفضيلة اليه ، دون أن يتعرض لسخط الله وغضبه .

وأما نهاية الوقت فيسميه الفقهاء وقت الضرورة . أى لا يجوز تأخير الصلاة اليه الا لضرورة شرعية — كتلك الأعذار التى وقفنا عليها قبل ذلك .

ووقت الضرورة ، هو الوقت الذى لا يسع الا صلاة ركعة بتمامها ، بعد تحصيل شروط الصلاة ، يقدر بربع ساعة على وجه التقريب .

هذا .. فاذا خرج الوقت ، وجاء وقت صلاة أخرى ، فقد أصبحت الصلاة التى فات وقتها قضاء ؟ أى دينا فى ذمة العبد ، يجب عليه الوفاء به ، ويعتبر بهذا التأخير عاصيا لله عصيانا . الله أعلم بتقديره .

فليحذر الأخ المسلم الوقوع فى هذا العصيان .. وليكن ان شاء الله تعالى من المحافظين على الصلوات والصلاة الوسطى فى وقت الأداء لا فى وقت القضاء ، تنفيذا لأمر الله سبحانه وتعالى فى قوله :

« حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين »[1] :

فقد أمرنا الله تعالى فى هذه الآية بالمحافظة على الصلوات بوجه عام ، وعلى الصلاة الوسطى بوجه خاص .

وقد ورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه ذكر الصلاة يوما فقال : « من حافظ عليها كانت له نورا ، وبرهانا ، ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له

---

(١) البقرة : ٢٣٨

نور ، ولا برهان ، ولا نجاة ، وكان يوم القيامة ، مع قارون ، وفرعون ، وهامان ، وأبى بن خلف » .

رواه أحمد ، وقال معلقا عليه : من تركها بسبب الرياسة حشر مع فرعون ، ومن تركها بسبب السياسة حشر مع هامان[1] ، ومن تركها بسبب جمع المـال حشر مع قارون ، ومن تركها من أجل الجدال والخصام حشر مع أبى بن خلف[2] اهـ .

* * *

واذا أردت أن تعرف :

ما هى الصلاة الوسطى ؟

فقد اختلف الفقهاء فى تعيينها على عشرة أقوال ، أو أكثر .. فقال جماعة : هى صلاة الصبح .. لمـا فيه من المشقة ، ولأنها صلاة تثقل على كثير من الناس : وممن قال بهذا : عمر بن الخطاب ، ومعاذ ابن جبل ، وابن عباس ، وابن عمر ، وجابر ، ومالك والشافعى .

* * *

وقال جمع غفير من الفقهاء والمحدثين : هى صلاة العصر .. وقد رجح كثير من المحققين هـذا الرأى الأخير ، لورود الأحاديث الصحيحة الصريحة بذلك :

منها : ما رواه مسلم وأحمد وأبو داوود ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال يوم الأحزاب : « حبسونا عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر ، ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارا » .

وروى ابن جرير من حديث أبى هريرة مرفوعا : « الصلاة الوسطى صلاة العصر » .

* * *

كما ورد كذلك الترغيب فى صلاة الصبح والعصر :

فعن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، قال : « من صلى البردين دخل الجنة » رواه البخارى ومسلم .

يعنى : صلاة الصبح والعصر .

---

(١) لأن هامان كان وزيرا لفرعون يدبر شئون الملك ، قال تعالى : « **وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا ..** » الآية (غافر : ٣٦) .

(٢) لأن أبى بن خلف كان يجادل الرسول صلى الله عليـه وسلم كثيرا فى شأن البعث والحياة بعد الموت .

وعن أبى زهيرة عمارة بن رونية رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » .

يعنى : الفجر والعصر . رواه مسلم .

وعن جندب بن عبد الله رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى الصبح فهو فى ذمة الله ، فلا يطلبنكم الله من ذمته بشىء ، فان من يطلبه من ذمته بشىء يدركه ، ثم يكبه على وجهه فى نار جهنم » رواه مسلم .

« معناه — والله أعلم — أن الذى أدى صلاة الصبح فى أول وقته جماعة فهو فى أمان الله وعهده ، ورعايته ، وحفظه وصيانته ، والله تعالى القوى المعتمد ، ويريد النبى صلى الله عليه وسلم أن لا يقصر أى مسلم فى تأدية هـذا الفرض ، خشية أن يقع تارك صلاته تحت عقاب الله ، ويكون مطالبا بالوفاء والأداء ، والله ان شاء أخذه أخذ عزيز مقتدر ، وأخرجه من كنف رحمته ، وسياج رأفته ، ورماه فى جهنم على وجهه منكسا مدحورا »[1] .

وعن أبى بصرة الغفارى رضى الله عنه ، قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليـه وسلم العصر بالمخمص[2] ، وقال : « ان هـذه الصلاة عرضت على من كان قبلكم فضيعوها ، ومن حافظ عليها كان له أجره مرتين » الحديث .. أخرجه مسلم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تجتمع ملائكة الليل ، وملائكة النهار فى صلاة الفجر ، وصلاة العصر ، فيجتمعون فى صلاة الفجر ، فتصعد ملائكة الليـل ، وتثبت ملائكة النهار ، وتجتمعون فى صلاة العصر ، فتصعد ملائكة النهار ، وتبيت ملائكة الليل ، فيسألهم ربهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون ، فاغفر لهم يوم الدين » رواه ابن خزيمة ، ورواه البخارى ومسلم بنحوه .

وروى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله

---

(١) جاء هـذا الشرح بهامش الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ١ ص ٢٩١ تعليق مصطفى محمد عمارة طبعة الحلبى .

(٢) اسم طريق .

عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم اذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب على كل عقدة : عليك ليل طويل ، فارقد ، فان استيقظ فذكر الله تعالى ، انحلت عقدة ، فان توضأ انحلت عقدة ، فان صلى انحلت عقده كلها : فأصبح نشيطا طيب النفس ، والا : أصبح خبيث النفس كسلان » .

وفى رواية ابن ماجه ، قال : « ... فيصبح طيب النفس ، قد أصاب خيرا ، وان لم يفعل أصبح كسلانا ، خبيث النفس لم يصب خيرا » .

* * *

فاذكر آخا الاسلام كل هـذا ، وحافظ على الصلوات الخمس ، وعلى الصلاة الوسطى .. حتى تفوز بهـذا الخير العظيم الذى وقفت عليـه ، وحتى تكون كذلك من الذين ستشهد لهم الملائكة عند ربهم ، وتطلب لهم الرحمة والمغفرة وليكن حرصك بصفة خاصة على صلاة الصبح والعصر :

فهما صلاتان ــ كما عرفت ــ تشهدهما الملائكة وفيهما من الفضل والخير ما قد علمت .

واذا أردت أخا الاسلام أن يضاعف لك الأجر .. كما رغبك الرسول صلى الله عليـه وسلم ــ وايانـا ــ فى نهاية الوصية التى ندور حولها ، فى قوله : « فان الله يضاعف لكم » .

كن حريصا ومواظبا على :

صلاة الجماعـة

فهى أولا وقبل كل شىء : سنة مؤكدة عند أكثر الفقهاء ، لا يتخلف عنها من الذكور المكلفين ــ لغير عذر قاهر[1] ــ الا منافق ، بين النفاق ، أو ضعيف الايمان .

روى مسلم فى صحيحه عن ابن مسعود ، رضى الله عنه ، قال : « من سره أن يلقى الله غدا مسلما ، فليحافظ على هؤلاء الصلوات ، حيث ينادى بهن ، فان الله شرع لنبيكم صلى الله عليه وسلم سنن الهدى[2] ، وانهن من سنن الهدى ، ولو أنكم صليتم فى بيوتكم ــ كما

---

(١) انظر بعض الأعذار القاهرة فيما سبق ص ٣٤٠ ، ٣٤١

(٢) قال النووى : روى بضم السين وفتحها ، وهما بمعنى متقارب أى طرائق الهدى ج ٥ ص ١٦٦ صحيح مسلم .

يصلى هـذا المتخلف فى بيته ـ لتركتم سنة نبيكم ، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم ، وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور[١] ، ثم يعمد الى مسجد من هـذه المساجد ، الا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة ، ويرفعه درجة ، ويحط عنه بها سيئة ، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها الا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين[٢] حتى يقام فى الصف » .

وفى رواية : لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة الا منافق ، قد علم نفاقه ، أو مريض . ان كان الرجل ليمشى بين رجلين ، حتى يأتى الصلاة . وقال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا سنن الهدى ، وان من سنن الهدى الصلاة فى المسجد الذى يؤذن فيه . رواه مسلم ، وأبو داوود ، والنسائى وابن ماجه .

وعن جابر رضى الله عنه ، قال : « أتى ابن أم مكتوم النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله .. ان منزلى شاسع[٣] ، وأنا مكفوف البصر ، وأنا أسمع الأذان ، قال : فان سمعت الأذان فأجب ، ولو حبوا ، أو زحفا » رواه أحمد والطبرانى .

وفى رواية للطبرانى عن أبى أمامة قال : ـ يعنى ابن أم مكتوم ـ يا رسول الله .. بأمى وأمى ، أما كما ترانى قد دبرت سنى[٤] ، ورق عظمى[٥] ، وذهب بصرى ، ولى قائد ، لا يلايمنى[٦] قياده اياى ، فهل تجد لى رخصة أصلى فى بيتى الصلوات ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل تسمع المؤذن فى البيت الذى أنت فيه ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أجد لك رخصة ، ولو يعلم هـذا المتخلف عن الصلاة فى الجماعة ما لهذا الماشى اليها[٧] ، لأتاها ولو حبوا على يديه ورجليه » .

* * *

---

(١) الطهور بضم الطاء : القيام بالتطهر ، أما الطهور بفتح الطاء : فهو ما يتطهر به من ماء أو تراب .

(٢) أى يمشى بين رجلين يسندانه .

(٣) أى بعيد عن المسجد . (٤) أى كبرت سنى .

(٥) أى ضعف جدا . (٦) أى لا يرأف بى ولا يطاوعنى .

(٧) أى من الخير والبركة .

وهذا .. معناه كما يقول معلقا على هذا ـــ فى الفقه الواضح ـــ : أن صلاة الجماعة مظهر من مظاهر الاســـلام الحميدة ، وشعيرة من شعائره العظيمة :

وقد شرعت من أجل أن يلتقى المسلمون من أهل البلد ، أو المدينة ، فى صعيد واحد ، خمس مرات فى اليوم والليلة ، فتقوى بينهم روابط الألفة والمحبة ، وليطلع المسلم على أحوال أخيه ، ويتحسس حاجته ، فيقضيها له ان استطاع ، ولكى يأتى المسلم الى المسجد ، وهو بيت العلم والعبادة ، فيتعلم أمور دينه ودنياه ، ويمتع أذنه وقلبه بما يسمعه من القرآن والمواعظ ، فيزداد ايمانه ، ويقوى يقينه ، ولا يخفى ما لصلاة الجماعة من فضل عظيم ، فهى تزيد فى الثواب على صلاة المنفرد ، بسبع وعشرين درجة ، وان له بكل خطوة يخطوها ، الى المسجد حسنة ، ورفع درجة ، ومحو خطيئة ، وان الملائكة لتستغفر له ما دام ينتظر الصلاة :

فعن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليـــه وسلم ، قال : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ[١] بسبع وعشرين درجة » رواه مالك والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة الرجل فى جماعة تضعف[٢] على صلاته فى بيته ، وفى سوقه[٣] ، خمســـا وعشرين ضعفا ، وذلك أنه[٤] اذا توضـــأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج الى المسجد لا يخرجه الا الصلاة[٥] لم يخط خطوة الا رفعت له بهـــا درجة[٦] ، وحط عنه بهـــا خطيئة[٧] ، فاذا صلى لم تزل الملائـــكة تصلى عليـــه[٨] ما دام فى مصلاه ما لم يحدث[٩] : اللهم صـــل عليـــه ، اللهم ارحمه[١٠] ، ولا يزال فى صـــلاة ما انتظر

---

(١) أى المنفرد الذى يصلى وحده .
(٢) أى تزيد أضعافا . (٣) اى محل بيعه وشرائه .
(٤) هذا بيـــان منه صلى الله عليه وسلم لسبب تلك المضاعفة .
(٥) يعنى لم يقصـــد بخروجه الا أداء الصـــلاة فى جماعـــة .
(٦) أى أعطى بها حسنة ، فان الحسنات تقتضى علو الدرجات .
(٧) الحط معناه الاسقاط أى أزيلت عنه بها خطيئة وهى الذنب .
(٨) أى تدعو له وتستغفر .
(٩) أى ينتقض وضوءه بفساء أو ضراط .
(١٠) هذا بيان لكيفية صلاة الملائكة عليه .

الصـــلاة » رواه البخارى واللفظ له ، ومســـلم ، وأبو داوود ، والترمذى وابن ماجه .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم : « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويكفر به الذنوب ؟ قالـوا : بلى يا رسول الله . قال : اسـباغ الوضـوء على المكاره[١] ، وكثرة الخطا الى المساجد ، وانتظار الصلاة ، فذلـكم الرباط »[٢] رواه مسلم .

* * *

هذا بالاضافة الى أن اعتياد صلاة الجماعة فى المسجد دليـل على الايمان الصادق :

فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليـه وسـلم ، قال : « اذا رأيتـم الرجل يعتـاد المساجد[٣] فاشهدوا له بالايمان[٤] . قال الله عز وجل : « **انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر** »[٥] . رواه الترمذى واللفظ له ، وقال : حديث غريب ، وابن ماجه ، وابن خزيمة ، وابن حبان فى صحيحيهما والحاكم ، كلهم من طريق دراج أبى السمح عن أبى الهيثم عن أبى سعيد ، وقال الحاكم : صحيح الاسناد .

* * *

فاذكر أخا الاسلام كل هذا ، واحرص على تعمير المساجد بالمواظبة على صلاة الجماعة فيها كلما نادى المؤذن ، قائلا : حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، ولا سيما فى صلاة العشاء والصبح :

---

(١) أى اتمام الوضوء عند البرد والالم والمرض . .

(٢) أى الوقوف على الحدود لحماية بلاد المسلمين . . وقد شبه النبى صلى الله عليه وسلم المنتظر للصلاة بالمرابط لأنه يجاهد نفسـه وجهـاد النفس أكبر من جهاد العدو .

(٣) يعنى يواظب على حضور الجماعات فى المساجد ، ويطيل المكث فيها ، حتى يخيل لمن رآه أنه مقيم بها .

(٤) أى : فان تلك أمارة قوية على صدق ايمانه .

(٥) هـذه جملة حاصرة افادت قصر عمارة المساجد على المؤمنين لأن غير المؤمن لا يتعلق قلبه بالمساجد ولا يحب دخولها ولا يهتـم بتشييدها ولا يعنى بانارتها ولا تنظيفها ولا بعمارتها بذكر الله والصلاة فيها ـــ والآية من سورة التوبة : ١٨

فعن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل[١] ، ومن صلى الصبح فى جماعة فكأنما صلى الليل كله »[٢] رواه مالك ومسلم واللفظ له ، وأبو داوود ولفظه :

« من صلى العشاء فى جماعة كان كقيام نصف ليلة ، ومن صلى العشاء والفجر فى جماعة كان كقيام ليلة »[٣] رواه الترمذى كرواية أبى داوود ، وقال : حديث حسن صحيح ، قال ابن خزيمة فى صحيحه :

باب فضل صلاة العشاء والفجر فى جماعة وبيان : أن صلاة الفجر فى الجماعة أفضل من صلاة العشاء فى الجماعة ، وأن فضلها فى الجماعة ضعفا فضل العشاء فى الجماعة[٤] . ثم ذكره بنحو لفظ مسلم ، ولفظ أبى داوود والترمذى يدافع ما ذهب اليه[٥] والله أعلم .

* * *

واذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم كما قرأنا قد رغب فى فى الجماعة أفضل من صلاة العشاء فى الجماعة ، وأن فضلها فى الجماعة صلاتهما جماعة :

فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر[٦] ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا ، ولقد هممت[٧]

---

(١) يعنى أنه يكتب له بذلك ثواب من قام نصف الليل .

(٢) المراد أنه صلى الصبح فى جماعة وكان قد صلى العشاء فى جماعة أيضا فيكون كمن أحيا الليل كله ، يعنى يكتب له ثواب ذلك .

(٣) وهذه الرواية تعتبر مفسرة لرواية مسلم التى قبلها .

(٤) فقد فهم ابن خزيمة أن قوله : « فكأنما صلى الليل كله » مترتب على صلاة الصبح وحدها فى جماعة وهو خطأ ، فان ذلك مترتب على صلاتهما معا فى جماعة كما بينته رواية أبى داوود والترمذى .

(٥) يعنى يعارضه ويبطله .

(٦) لأنهما يكونان فى وقت الغفلة ولذة النوم .

(٧) اللام واقعة فى جواب القسم ، أى والله لقد هممت ، وجاء فى البخارى وغيره « والذى نفسى بيده لقد هممت ... » والهم قيل : العزم ، وقيل : مرتبة دونه .

أن آمر بالصلاة فتقام[١] ثم آمر رجلا فيصلى بالناس[٢] ، ثم أنطلق معى برجال معهم حزم[٣] من حطب الى قوم لا يشهدون الصلاة[٤] فأحرق عليهم بيوتهم بالنار » رواه البخارى ومسلم .

وفى رواية لمسلم : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد ناسا فى بعض الصلوات ، فقال : لقد هممت أن آمر رجلا يصلى بالناس ، ثم أخالف الى رجال يتخلفون عنها فآمر بهم فيحرقوا عليهم بحزم الحطب بيوتهم ، ولو علم أحدهم أنه يجد عظما سمينا لشهدها » يعنى صلاة العشاء .

وفى بعض روايات الامام أحمد لهذا الحديث : « لولا ما فى البيوت من النساء والذرية : أقمت صلاة العشاء ، وأمرت فتيانى يحرقون ما فى البيوت بالنار »[٥] .

وحول هذا الحديث الذى رواه أبو هريرة بالاضافة الى رواياته الأخرى ، يقول الشوكانى معلقا فى نيل الأوطار :

« والحديث استدل به القائلون بوجوب صلاة الجماعة ، لأنها لو كانت سنة لم يهدد تاركها بالتحريق ، ولو كانت فرض كفاية لكانت قائمة بالرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه » .

والجمهور[٦] على أن الجماعة سنة ، وأجابوا عن حديث الباب بأجوبة منها :

١ — أنها لو كانت شرطا أو فرضا لبين ذلك عند التوعد .

٢ — أن الحديث دل على وجود متخلفين عن الجماعة ، ولو كانت فرضا لما تخلفوا عنها .

٣ — أنه ترك تحريقهم بعد التهديد ، ولو كانت واجبة ما عفا عنهم .. ولهذا قال القاضى عياض ومن تبعه : ليس فى الحديث حجة لأنه هم ولم يفعل . وزاد النووى : ولو كانت فرض عين لما تركهم .

٤ — أن الحديث ورد فى حق المنافقين ، فلا يتم به الاستدلال ،

---

(١) بألفاظ الاقامة المعروفة .

(٢) أى الذين حضروا المسجد للصلاة .

(٣) جمع حزمة وهى مجموعة من العيدان .

(٤) أى لا يحضروتها مع الجماعة فى المسجد .

(٥) قال الشوكانى : فى اسناده أبو معشر ، وهو ضعيف .

(٦) كما يقول الشيخ خليل الهراس رحمه الله فى تعليقه على الحديث فى الترغيب والترهيب ج ١ ص ٣٥٣

لقوله فى صدر الحديث : « أثقل صلاة على المنافقين » لكن المراد نفاق المعصية لا نفاق الكفر .

* * *

واذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد حذر من التخلف عن الجماعة فى صلاة العشاء والفجر بصفة خاصة :

فلأنهما[1] يكونان فى وقت الغفلة ولذة النوم : فصلاة العشاء تأتى بعد عودة الانسان من عمله بالنهار وميله الى الراحة وتناول طعام العشاء ، وصلاة الصبح كذلك تكون عند لذة النوم فى آخر الليل لا سيما لمن يطول سهرهم فى أول الليل ، وكذلك كل منهما تكون فى وقت ظلمة فيشق المشى اليها .

* * *

فليكن كل هذا التذكير كذلك ترهيبا للأخ المسلم حتى لا يتخلف عن صلاة الجماعة بصفة عامة ، اللهم الا اذا كان هناك عذر كتلك الأعذار التى ذكرها الفقهاء[2] ، والتى منها :

العاجز عن الاتيان الى المكان الذى تقام فيه — الصلاة — : بأن كان مريضا ، أو مقعدا ، أو أعمى لا يجد من يقوده ، ولا يهتدى بنفسه الى محل الجامع ..

ويلحق بالعاجز من كان له عذر يمنعه من الحضور اليها — فى المسجد — بأن كان ممرضا ، يحتاج اليه المريض ، ولو تركه يزداد مرضه ، أو يتأخر شفاؤه ، أو كان طبيبا يجرى عملية جراحية — مثلا — أو كان محبوسا لا يستطيع الخروج من حبسه ، ونحو ذلك من الأعذار الضرورية ، والدين يسر ، والطاعة على قدر الطاقة .. قال تعالى : **«وما جعل عليكم فى الدين من حرج »**[3] .

وقال تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »[4] .

---

(١) كما جاء فى هامش الترغيب والترهيب تعليقا على حديث أبى هريرة السابق .

(٢) كما أشار الى هذا فى « الفقه الواضح » تحت عنوان من تجب عليه الجمعة ومن لا تجب .. وقياسا عليه جميع الأوقات .

(٣) الحج : ٧٨ (٤) البقرة : ١٨٥

واحذر أن تفوتك كذلك ـــ اذا لم يكن هناك عذر من الأعذار السابقة ـــ : صلاة الجمعة ، والاستماع الى خطبتها :

فقد روى الطبرانى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ان الله تعالى قد كتب عليكم الجمعة ، فى مقامى هذا ، فى ساعتى هذه ، فى شهرى هذا ، فى عامى هذا ، الى يوم القيامة ، من تركها من غير عذر ، مع امام عادل ، أو جائر ، فلا جمع الله شمله ، ولا بورك له فى أمره ، ألا ولا صلاة له ، ولا حج له ، ألا ولا بر له ، ولا صدقة له » .

وروى مسلم فى صحيحه ، وأحمد فى مسنده ، عن ابن مسعود رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال عن قوم يتخلفون عن صلاة الجمعة : « لقد هممت أن آمر رجلا يصلى بالناس ، ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم » .

* * *

فلنذكر جميعا كل هذا ، ولنذكر كذلك قول القائل :

ألا فى الصلاة الخير والفضل أجمع
لأن بها الأرقاب لله تخضع
وأول فرض فى شريعة ديننا
وآخر ما يبقى اذا الدين يرفع
فمن قام لتكبير لاقته رحمة
وكان كعبد باب مولاه يقرع
وكان لرب العرش حين صلاته
نجيا فيا طوبى له حين يخشع

* * *

جعلنا الله جميعا من المكثرين من الذكر ، والمحافظين والحريصين على أداء الصلاة فى أول وقتها .. حتى يضاعف لنا سبحانه وتعالى الأجر ..

انه سبحانه وتعالى ولى التوفيق ..

* * *

الوصية التاسعة والأربعون

عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال :

« اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم ولا تتخذوها قبورا .. » .

(رواه البخارى ومسلم ، وأبو داوود والترمذى والنسائى) .

* * *

فكن أخا الاسلام :

من الحريصين على تنفيذ ما أوصاك به الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذه الوصية العظيمة ، التى أوصاك فيها :

أولا : بأن تعمل من جانبك على أن يكون بيتك مباركا ، وذلك بالاكثار فيه من ذكر الله ، وأداء نوافل الصلاة فيه .. وقد ورد الترغيب فى هذا :

فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا قضى أحدكم الصلاة[1] فى مسجده فليجعل لبيته نصيبا من صلاته ، فان الله جاعل فى بيته من صلاته خيرا »[2] رواه مسلم وغيره ، ورواه ابن خزيمة فى صحيحه من حديث أبى سعيد .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « مثل البيت الذى يذكر الله فيه ، والبيت الذى لا يذكر الله فيه : مثل الحى والميت » رواه البخارى ومسلم .

ففى هذا الحديث الشريف : شبه النبى صلى الله عليه وسلم البيت الذى لا يذكر الله عز وجل فيه بجسد ميت لا روح فيه : لأن ذكر

---

(١) المراد بها صلاة الفريضة .

(٢) لأنه ستحصل فيه البركة بذكر الله والصلاة وتنزل عليه الرحمة وتدخله الملائكة ، وينفر منه الشيطان ، ويتعود من فيه من الخدم والأولاد على اداء الصلاة .. الخ .

الله عز وجل حياة القلوب والأرواح والبيوت أيضا ، فأيما بيت خلا من ذكر الله عز وجل فهو كالقبر المهجور ، أو كالبيت الخرب الذى خلا من ساكنيه .

قال النووى : فيه الندب الى ذكر الله تعالى فى البيت ، وأنه لا يخلى من الذكر وفيه جواز التمثيل ، وفيه أن طول العمر فى الطاعة فضيلة ، وان كان الميت ينتقل الى خير لأن الحى يستلحق به ويزيد عليه بما يفعله من الطاعات .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيما أفضل : الصلاة فى بيتى ، أو الصلاة فى المسجد ؟[1] قال : ألا ترى الى بيتى ما أقربه من المسجد[2] ؟ فلأن أصلى فى بيتى أحب الى من أن أصلى فى المسجد الا أن تكون صلاة مكتوبة »[3] . رواه أحمد وابن ماجه وابن خزيمة فى صحيحه .

وعن أبى موسى رضى الله عنه ، قال : خرج نفر من أهل العراق الى عمر ، فلما قدموا عليه سألوه عن صلاة الرجل فى بيته[4] ، فقال عمر : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أما صلاة الرجل فى بيته فنور[5] ، فنوروا بيوتكم » رواه ابن خزيمة فى صحيحه .

وعن زيد بن ثابت رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « صلوا أيها الناس فى بيوتكم[6] ، فان أفضل صلاة المرء فى بيته[7] الا الصلاة المكتوبة » رواه النسائى باسناد جيد ، وابن خزيمة فى صحيحه .

وعن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أراه[8]

---

(١) والسؤال انما هو عن النافلة لأن الفريضة فى المسجد افضل باتفاق .

(٢) يعنى ما أشد قربه من المسجد اذ هو لاصق به وأبوابه مفتوحة فى المسجد .

(٣) فان هذه أفضل فى المسجد بالاجماع .

(٤) يعنى هل هى أفضل أم الصلاة فى المسجد .

(٥) أى له ولأهل بيته بما يتلى فيها من القرآن وذكر الله عز وجل .

(٦) وذلك حين رآهم يصلون النافلة فى المسجد .

(٧) لأنها تكون أبعد عن الرياء وأقرب الى الخشوع والاخلاص .

(٨) يعنى أعلمه فهو من الرؤية بمعنى العلم . .

رفعه . قال : « فضل صلاة الرجل فى بيتــه على صلاتــه حيث يراه الناس[١] كفضل الفريضة على التطوع »[٢] رواه البيهقى ، واسناده جيد ان شاء الله تعالى .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : « أكرموا بيوتكم ببعض صلاتكم » رواه ابن خزيمة فى صحيحه .

* * *

فمن هــذه الأحاديث الشريفة ، يتبين لنا أفضلية صلاة التطوع فى البيت ، على المسجد ، وذلك لبعد المصلى فيها عن الرياء ، ومحبطات الأعمال :

فعن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر رضى الله عنه ، خرج الى المسجد فوجد معاذا عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكى ، فقال : ما يبكيك ؟ قال : حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليــه وسلم ، قال : « اليسير من الريــاء شرك[٣] ، ومن عادى أوليــاء الله[٤] فقد بارز الله بالمحاربة[٥] ، ان الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء[٦] الذين ان غابوا لم يفتقــدوا[٧] ، وان حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيــح الهدى[٨] يخرجون من كل غبراء مظلمة »[٩] رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقى فى كتاب الزهــد له وغــيره ، وقال الحاكم : صحيح ولا علة له .

---

(١) أى فى المسجد على مرأى من الناس .

(٢) يعنى أن فضل النافلة التى يؤديها فى البيت حيث لا يراه أحد على النافلة التى تؤدى فى المسجد هو كفضل الفريضة على التطوع .. وهذا أمر لا شك فيه .

(٣) بمعنى أنه شرك فى العمل لا فى الاعتقاد ، ويسمى الشرك الأصغر وهو محبط للعمل ..

(٤) وهم الذين آمنوا وكانوا يتقون .

(٥) فان حربه لأولياء الله عز وجل كأنه حرب لله اذ هم حزب الله وجنده فالمتعرض لهم بسوء مستخف بالله سبحانه .

(٦) جمع خفى ، وهو الذى يجتهد فى اخفاء عمله بعيدا عن الريــاء وحب الظهور .

(٧) أى لا يسأل عنهم أحد لعدم شهرتهم .

(٨) لأن الله نور بصائرهم فانكشفت لهم مواطن الهدى .

(٩) أى ينجون ويتخلصون من كل ضلالة عمياء .

فحسب المصلى ــ لغير المكتوبة ــ فى بيته أن يكون بعيدا عن الرياء فى العمل الذى هو من أكبر محبطات الأعمال ، فقد ورد كذلك :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « ان أول الناس يقضى[١] يوم القيامة عليه : رجل استشهد[٢] ، فأتى به فعرفه نعمته[٣] فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ [٤] قال : قاتلت فيك حتى استشهدت • قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : هو جرىء[٥] ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار[٦] • ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها • قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك[٧] القرآن • قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال عالم[٨] ، وقرأت القرآن ليقال هو قارىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار • ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها • قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل[٩] تحب أن ينفق فيها الا أنفقت فيها لك[١٠] • قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار » رواه مسلم والنسائى ، ورواه الترمذى وحسنه ، وابن حبان فى صحيحه كلاهما بلفظ واحد •

* * *

---

(١) أى يحكم عليه بعد الحساب والسؤال .

(٢) أى قتل فى المعركة مع الكفار .

(٣) أى حدثه الله بما أنعم به عليه فى الدنيا وذكره بها .

(٤) سؤال عن موقفه بازاء هذه النعم ، هل شكرها وأدى حقها أم جحدها وأنكرها .

(٥) أى : لتمدح ويثنى عليك الناس بالشجاعة والاقدام .

(٦) بسبب هذا الرياء ، كما يشير الى هذا قول الله تعالى : **« فسوف يعلمون • اذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون • فى الحميم ثم فى النار يسجرون »** (غافر : ٧٠ ــ ٧٢) .

(٧) أى فى سبيلك وابتغاء وجهك .

(٨) أى : ليمدحك الناس بالعلم والمعرفة .

(٩) أى وجه وطريق .

(١٠) أى من أجلك ورغبة فيما عندك .

وصلاة التطوع فى البيت كذلك تنوره : لأن الصلاة أساسا ، نور يتلألأ فى قلب المؤمن ، ويسطع على وجهه ، وينعكس على جوارحه .. نور يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، نور يمشى به المؤمن فى الناس ، فيرى به ما لا يراه الناظرون ، نور يسعى بين يديه ، وعن يمينه يوم القيامة :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الطهور[1] شطر[2] الايمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن — أو تملأ — ما بين السموات والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها » رواه مسلم .

وروى ابن حبان باسناد حسن ، عن أبى الدرداء رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « من مشى فى ظلمة الليل الى المساجد آتاه الله نورا يوم القيامة » .

فهذا النور المشار اليه فى الحديثين اذا وجد فى بيت المؤمن — بسبب الاكثار من صلاة التطوع فيه — كان سببا فى أن البيت هذا سيكون دائما وأبدا — ما دامت صلاة التطوع مقامة فيه — ممتلأ بالبركات والخيرات التى ستأتى تبعا لهذا النور الذى به سيسعد المؤمن فى دنياه وأخراه .. بل وسيسعد أهله كذلك بذلك تبعا له .

وذلك لأن أولاده ، ولا سيما — الصغار — منهم ، عندما سيرونه وهو يؤدى صلاة التطوع أمامهم سيتعلمون منه هيئة الصلاة ، ويتشربون حبها ، فينشأون على حب الدين الذى عماده الصلاة .

وهو أصلا كمؤمن مطالب : بأن يأمر بالصلاة كل من له عليه حق الولاية ، من قريب ، أو من بعيد .. كما يشير الى هذا قول الله تبارك وتعالى :

« وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ، لا نسألك رزقا ، نحن نرزقك ، والعاقبة للتقوى »[3] .

وقد قال صاحب كتاب « الفقه الواضح » معلقا على هذه الآية كلاما هاما ، وهو أن :

---

(١) الطهور — بضم الطاء — معناه : التطهر ، وأما الطهور بفتح الطاء — فهو ما يتطهر به من ماء أو تراب .

(٢) الشطر هو : النصف .

(٣) طه : ١٣٢

الأولياء كما يجب عليهم حماية من يعولون من الأخطار لوقاية أجسامهم من الأضرار ، وحفظ أموالهم من الضياع : يجب عليهم كذلك حفظ دينهم ، فهو عصمة أمرهم ، وسبيل سعادتهم ، فى الدنيا والآخرة ، وأول شيء يترتب عليه حفظ الدين : هو الصلاة ، فالصلاة — كما علمت — من الدين بمنزلة الرأس من الجسد .

والأمر فى الآية ، للنبى صلى الله عليه وسلم .. والأهل فيها هم : أمته جميعا . كما قال القرطبى فى تفسيره[1] .

غير أن لفظ الأهل يراد به — فى الغالب — الأقارب .. ويطلق كثيرا على الزوجة .

ولا بأس أن يراد بالأهل فى الآية كل مسلم تستطيع أن تأمره بالصلاة .. فالمسلمون جميعا اخوة والاخوة أهل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب . بل هو من أهم الواجبات ، ولا ريب أن ترك الصلاة من أكبر المنكرات .. لهذا وجب على ولى أمر المسلمين — على الخصوص — أن يأمر تارك الصلاة باقامتها فان أقامها ، فبها ونعمت ، والا حمله عليها قسرا[2] ، وذلك بأن يعذب بالضرب والسجن ، ولو أدى تعذيبه وسجنه الى موته .

ويجب أن يقوم بهذا الأمر — أى الأمر باقامة الصلاة — العلماء — أيضا — فهم أولياء الأمر شرعا ، وهم شركاء الوالى فى اصلاح شئون المسلمين ، وهم المسئولون أمام الله ، عن كل انحراف ، وعن كل فريضة من فرائض الاسلام .

ثم يقول بعد ذلك ، حول أمر الزوج زوجته بالصلاة[3] :

والزوجة من الأهل ، بل يطلق لفظ الأهل عليها كثيرا — كما عرفت — لهذا يجب على الزوج أن يأمرها بالصلاة ، من أول ليلة تدخل عليه فيها ، أمرا لا هوادة فيه .

فان امتثلت لأمر الله ، فذلك توفيق من الله ، يحمد عليه .. والا : وجب عليه — أولا — أن يعظها ، ويذكرها بعذاب الله عز وجل ، ويحذرها مقته وغضبه ، فان قبلت النصح ، فذاك .. والا : وجب عليه أن يهجرها

---

(١) ص ٢٦٣ ج ١١ طبعة دار الكتب .
(٢) أى بالقوة .
(٣) كما جاء فى القرطبى .. وغيره .

فى المضجع ، فان خضعت لأمر الله وأقامت الصلاة ، فبها .. والا : وجب عليه ضربها ، حتى تفىء الى أمر الله ، وتقيم الصلاة .

فالزوجة : هى ربة البيت ، وهى مدرسة لأولادها ، وهى الأمينة على مال زوجها وعرضه .. فان أقامت الصلاة صح دينها وصلح حالها ، واقتدى بها أولادها ، فصلوا بصلاتها ، فيكون بيتها مثلا للبيوت المؤمنة .

والمرأة التى تستنكف أن تقيم الصلاة ، أو تتكاسل عن أدائها ، امرأة لا دين لها ، وبالتالى ، لا أمان ، ولا أمانة لها .

وقد أوصانا النبى صلى الله عليه وسلم : أن ننكح ذات الدين ، فقال : « .. فاظفر بذات الدين تربت يداك »[1] .

ومعنى الظفر : نهاية البغية .

أى : وليكن أسمى ما تبتغيه من الزوجة : دينها ، فان لم تفعل تربت يداك أى افتقرت حتى تلتصق يداك بالتراب ، من شدة الحاجة .

* * *

فليذكر الأخ المسلم كل هذا الذى ذكرته به ، وليكن دائما وأبدا آمرا لأهله بالصلاة ، ولا سيما أولاده الصغار ، كما أمره الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا فى قوله : « مروا أولادكم بالصلاة اذا بلغوا سبعا ، واضربوهم عليها اذا بلغوا عشرا ، وفرقوا بينهم فى المضاجع » رواه أحمد وأبو داوود .

* * *

واذا كانت الزوجة الصالحة هى الساعد الأيمن للزوج المؤمن على تربية الأبناء تربية اسلامية صحيحة : فاننى أنصح الأخ المسلم بأن يدعو الله تعالى بهذا الدعاء الذى كان سيدنا داوود عليه السلام يتضرع الى الله تعالى به ، والذى أسأل الله تعالى أن يتقبله منه كذلك[2] ، وهو : « اللهم انى أسألك أربعا ، وأعوذ بك من أربع : أسألك لسانا صادقا ، وقلبا خاشعا ، وبدنا صابرا ، وزوجة تعيننى على أمر دنياى وأمر آخرتى .. »

وأعوذ بك : من ولد يكون على سيدا ، ومن زوجة تشيبنى قبل وقت المشيب ، ومن مال يكون مشبعة لغيرى بعد موتى ويكون حسابه

---

(١) الحديث بتمامه أخرجه البخارى .

(٢) كما تقبله سبحانه وتعالى من عبده داوود عليه السلام .

فى قبرى ، ومن جار سوء ان رأى حسنة كتمها وان رأى سيئة أذاعها وأفشاها » .

* * *

واذا كانت صلاة — التطوع — فى البيت — فضلا عن صلاة المكتوبة اذا لم تستطع أن تذهب الى المسجد لصلاة الجماعة بسبب عذر من الأعذار الشرعية التى وقفت عليها — : اذا كانت ستكون سببا فى أن البيت سيكون منيرا أو مستنيرا بسبب أداء الصلاة فيه ، وسيكون كذلك مباركا ببركات الصلاة ورحمات الله التى ستغمره وستجعله دائما وأبدا روضة من رياض الجنة .

فكذلك الصلاة فى البيت ستكون سببا فى أن الشياطين — من الانس والجن — لن يكون لهم قرار أو استقرار فى هـذا البيت الصالح الذى يذكر فيه الله سبحانه وتعالى .

واذا كنت أقول : يذكر فيه الله .. فلأن الصلاة ذكر ، بل هى : الذكر الأكبر ، كما يشـير الى هـذا ، قـول الله تبارك وتعـالى : **« اتل ما أوحى اليك من الكتاب وأقم الصلاة ، ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون »**[1] .

فقد قيل : — كما جاء فى القرطبى — ذكركم الله فى صلاتكم وفى قراءة القرآن أفضل من كل شىء . وقيل : المعنى ، ان ذكر الله أكبر مع المداومة ، من الصلاة فى النهى عن الفحشاء والمنكر .

وقيل : أى ، ذكر الله لكم بالثواب والثناء عليكم أكبر من ذكركم له فى عبادتكم وصلواتكم . قال معناه ابن مسعود وابن عباس وأبو الدرداء وأبو قرة وسلمان والحسن ، وهو اختيار الطبرى .

وقال ابن عباس : معناه ، ذكر الله لكم بالثناء عليكم ، والرحمة بكم ، أكبر ، أى : أعظم من ذكركم له تعالى بالطاعة :

كما يشير الى هذا ، قول الله تعالى : **« فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون »**[2] .

وهذا ، معناه — كما قلت — أن البيت الذى سيذكر فيه الله تعالى — فى الصلاة — لن يقترب الشيطان منه .

فقد قرأت فى كتاب : « **الوابل الصيب من الكلم الطيب** » **لابن قيم** الجوزية تحت عنوان :

---

(١) العنكبوت : ٤٥ (٢) البقرة : ١٥٢

الفصل السادس : فى أذكار الخروج من المنزل

فى السنن عن أنس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال ــ يعنى اذا خرج من بيته ــ : بسم الله ، توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، يقال له : كفيت ووقيت وهديت ، وتنحى عنه الشيطان ، فيقول لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هدى وكفى ووقى » .

وفى مسند الامام أحمد : « بسم الله ، آمنت بالله ، اعتصمت بالله ، توكلت على الله ، لا حول ولا قوة الا بالله » حديث حسن .

وفى السنن الأربع ، عن أم سلمة قالت : ما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيتى الا رفع طرفه الى السماء ، فقال : « اللهم انى أعوذ بك أن أضل أو أضل ، أو أزل أو أزل ، أو أظلم أو أظلم ، أو أجهل أو يجهل على » قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

* * *

وتحت عنوان :

الفصل الرابع : فى أذكار دخول المنزل

فى صحيح مسلم ، عن جابر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « اذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دخوله وعند طعامه ، قال الشيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء .

واذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله ، قال الشيطان : أدركتم المبيت ، فاذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه ، قال : أدركتم المبيت والعشاء » .

وفى سنن أبى داوود عن أبى مالك الأشعرى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا ولج[1] الرجل بيته فليقل : اللهم انى أسألك خير المولج وخير المخرج ، بسم الله ولجنا ، وبسم الله خرجنا ، وعلى الله ربنا توكلنا . ثم ليسلم على أهله » .

وفى الترمذى ، عن أنس : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا بنى .. اذا دخلت على أهلك فسلم تكن بركة عليك وعلى أهل بيتك » قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

* * *

---

(١) أى دخل .

كما أشار ابن القيم أيضا الى :

الأذكار التى تطرد الشياطين

فقال ، فى « الفصل العشرون » : قد تقدم[١] : أن من قرأ آية الكرسى عند نومه لم يقربه الشيطان ، وأن من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه ، ومن قال فى يوم مائة مرة : لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، كانت له حرزا من الشيطان يومه كله • وقد قال الله تعالى : « **وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين • وأعوذ بك رب أن يحضرون** »[٢] ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه » وقال سبحانه وتعالى : « **واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، انه هو السميع العليم** »[٣] • والأذان يطرد الشيطان ، بل وقد ثبت فى الصحيح أن الشيطان يهرب من الأذان ، قال سهل بن أبى صالح : أرسلنى أبى الى بنى حارثة ومعى غلام — أو صاحب — لنا فنادى مناد من حائط باسمه ، فأشرف الذى معى على الحائط فلم ير شيئا ، فذكرت ذلك لأبى فقال : لو شعرت أنك تلقى هذا لم أرسلك ، ولكن اذا سمعت صوتا فناد بالصلاة ، فانى سمعت أبا هريرة يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ان الشيطان اذا نودى بالصلاة ولى وله حصاصى » •

وفى رواية : « اذا سمع النداء ولى وله ضراط ، حتى لا يسمع التأذين » •• الحديث •

وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبى رجاء عن أبى بكر الصديق ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « استكثروا من لا اله الا الله والاستغفار ، فان الشيطان قال : قد أهلكتهم بالذنوب وأهلكونى بقول لا اله الا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك منهم أهلكتهم بالأهواء حتى يحسبون أنهم مهتدون فلا يستغفرون » •

ومن أعظم ما يندفع به شره : قراءة المعوذتين وأول الصافات ، وآخر الحشر •

* * *

---

(١) كما يقول فى الكلم الطيب فارجع اليه .

(٢) المؤمنون : ٩٧ ، ٩٨ (٣) فصلت : ٣٦

فليذكر الأخ المسلم كل هذا ، وليكن منفذا له حتى يكون فى حصانة هو وأهله من كيد الشيطان الرجيم الذى حذرنا الله سبحانه وتعالى من كيده ، فقال :

« يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، انا جعلنا الشياطين أوليـاء للذين لا يؤمنون »(١) .

وحسبك — كما علمت — أن تكثر من صلاة التطوع فى بيتك كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقد ذكر صاحب « الدين الخالص » رحمه الله فى الجزء الثانى ، تحت عنوان :

مكان التطوع

أنه يستحب تأدية النفل المطلق فى البيت اتفاقا . وكذا الرواتب عند الجمهور ، ولا فرق بين راتبة النهار والليل :

لحديث عبد الله بن شقيق قال : سألت عائشة عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من التطوع ، فقالت : كان يصلى قبل الظهر أربعا فى بيتى ، ثم يخرج فيصلى بالناس ، ثم رجع الى بيتى فيصلى ركعتين ، وكان يصلى بالناس المغرب ثم يرجع الى بيته فيصلى ركعتين ، وكان يصلى بهم العشاء ثم يدخل بيتى فيصلى ركعتين » . الحديث .. أخرجه أحمد ، وأبو داوود والترمذى والنسائى .

وعن بعض السلف : الأفضل فعلها كلها فى المسجد .

وعن مالك والثورى : الأفضل فعل نوافل النهار فى المسجد ، وراتبة الليـل فى البيت .

وعن أحمد تفصيل : قال ابن قدامة فى المغنى : قال الأثرم : سئل أحمد عن ركعتين بعد الظهر أين يصليان ؟ قال : فى المسجد ، أما الركعتان قبل الفجر وبعد المغرب فى بيته . وذكر حديث ابن اسحاق : « صلوا هاتين الركعتين فى بيوتكم » . قيل لأحمد : فان كان منزل الرجل بعيدا ؟ قال : لا أدرى ، وذلك لمـا روى سعد بن اسحاق عن أبيه عن جده « كعب بن عجرة » أن النبى صلى الله عليـه وعلى آله وسلم أتاهم فى مسجد بنى عبد الأشهل فصلى المغرب فرآهم يتطوعون بعدهـا .

---

(١) الأعراف : ٢٧

فقال : « هذه صلاة البيوت »[1] . أخرجه أحمد وأبو داوود والنسائى والطحاوى . وفى سنده اسحاق بن كعب وهو مجهول تفرد به .

وعن رافع بن خديج ، قال : أتانا النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم فى بنى عبد الأشهل فصلى بنا المغرب فى مسجدنا ثم قال : « اركعوا هاتين الركعتين فى بيوتكم » رواه ابن ماجه والأثرم اهـ . بتصرف .

وحديث رافع فى سنده عبد الوهاب بن الضحاك عن اسماعيل ابن عياش ، وروايته ضعيفة عند الشاميين .

وقال ابن أبى ليلى : لا تصح راتبة المغرب البعدية الا فى البيت أخذا بظاهر الأمر فى هذه الأحاديث واستحسنه أحمد ، فعن محمود ابن لبيد ، قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بنى عبد الأشهل فصلى بهم المغرب ، فلما سلم قال : « اركعوا هاتين الركعتين فى بيوتكم » . قال أبو عبد الرحمن : قلت لأبى : ان رجلا قال : من صلى ركعتين بعد المغرب فى المسجد لم تجزه الا أن يصليهما فى بيته ، لأن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « هذه صلاة البيوت » قال : من هذا ؟ قلت : محمد بن عبد الرحمن ، قال : ما أحسن ما قال . أخرجه أحمد .

والظاهر ما ذهب اليه الجمهور حملا للأمر على الاستحباب .

ويؤيده حديث زيد بن ثابت أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « صلاة المرء فى بيته أفضل من صلاته فى مسجدى هذا الا المكتوبة » أخرجه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى .

وحديث عبد الله بن سعد ، قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : أيما أفضل ، الصلاة فى بيتى أم الصلاة فى المسجد ؟ قال : « ألا ترى الى بيتى ما أقربه من المسجد ؟ فلأن أصلى فى بيتى أحب الى من أن أصلى فى المسجد الا أن تكون صلاة

---

(١) أقول : اذا كان سيجلس بعد صلاة المغرب فى المسجد لكى يستمع الى درس دينى الى العشاء كما يحدث غالبا فى اكثر المساجد .. فانه من الجائز أن يصلى السنة فى المسجد .. أو اذا كان كذلك لن يعود الى بيته لسبب من الأسباب .. والله أعلم .

مكتوبة » أخرجه أحمد وابن خزيمة وابن ماجه والترمذى فى الشمائل ، وهـذا لفظه •

وحديث ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « صلوا فى بيوتكم ولا تتخذوها قبورا » أخرجه أحمد والشيخان وأبو داوود والترمذى وقال : حسن صحيح •

وفى رواية : « اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم » وأخرجه أحمد عن زيد بن خالد الجهنى •

وحديث صهيب بن النعمان أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « فضل صلاة الرجل فى بيته على صلاته حيث يراه الناس كفضل المكتوبة على النافلة » أخرجه البيهقى والطبرانى فى الكبير •

والمراد بالمكتوبة الواجبة بأصل الشرع وهى الصلوات الخمس دون المنذورة •

فهذه الأحاديث : تدل على أن صلاة التطوع ومنه راتبة المغرب فى البيوت أفضل من صلاته فى المسجد ، ولو كان فاضلا كالمسجد الحرام ومسجد المدينة • فلو صلى فيه نافلة كانت بألف صلاة ، ولو صلاها فى بيته كانت أفضل من ألف صلاة •

أما المكتوبة : فصلاتها فى المسجد أفضل فى حق الرجال •

أما النساء فالأفضل فى حقهن الصلاة ولو فرضا فى البيوت ، وان أبيح لهن حضور الجماعات •

فعن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « لا تمنعوا نساءكم المساجد ، وبيوتهن خير لهن » أخرجه أحمد وأبو داوود والبيهقى وابن خزيمة وصححه •

* * *

ثم يقول بعد ذلك فى الدين الخالص : هـذا ، والحكمة فى طلب تأدية النافلة فى البيت — ما أشرنا اليه قبل ذلك ، وهو — أنه أخفى وأبعد عن الرياء ومحبطات العمل ، ولتنزل فى البيت الرحمة والملائكة ، وينفر منه الشيطان كما جاء فى الحديث ، وهذا فى غير ما ورد الشرع بصلاته فى غير البيوت :

كركعتى الطواف والاحرام ، وتحية المسجد ، والتراويح ، وصلاة الاستسقاء ، والكسوف والعيدين •

فعلى الأخ المسلم أن يلاحظ كل هذا ، وأن يلاحظ كذلك أنه يجوز :

صلاة التطوع جماعة

سواء أكانت الصلاة فى البيت ، أو فى المسجد :

فعن عتبان بن مالك أنه قال : يا رسول الله .. ان السيول لتحول بينى وبين مسجد قومى ، فأحب أن تأتينى فتصلى فى مكان من بيتى أتخذه مسجدا . فقال : سنفعل ، فلما دخل ، قال : أين تريد ؟ فأشرت له الى ناحية من البيت . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصففنا خلفه ، فصلى بنا ركعتين » رواه البخارى ومسلم .

وقال ابن عباس : « صليت مع النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، فقمت عن يساره ، فأخذ برأسى من ورائى ، فجعلنى عن يمينه » رواه البخارى وغيره .

والأحاديث — كما يقول فى « الفقه الواضح » — الواردة فى جواز التنفل جماعة ، واستحبابه كثيرة .

ومن المعروف شرعا ، أن ثواب الجماعة ، أكثر من ثواب الفرد .

* * *

وكذلك ، يجوز :

صلاة التطوع قائما وقاعدا

قال فى الفقه الواضح : تقدم أن قلنا فى فروض الصلاة : ان القيام ركن ، من أركان الصلاة المفروضة ، دون النافلة ، فانها تجوز من قيام ، ومن قعود ، بعذر ، أو بغير عذر ، عند جمهور الفقهاء .

الا أنه لو صلاها المسلم قاعدا ، من غير عذر ، كان له نصف الأجر :

لحديث عبد الله بن بريدة بن عمران بن حصين أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن صلاة الرجل قاعدا ؟ فقال : « صلاته قائما ، أفضل من صلاته قاعدا ، وصلاته قاعدا على النصف من صلاته قائما ، وصلاته نائما على النصف من صلاته قاعدا » أخرجه البخارى وغيره .

ثم يقول : ولا تجوز صلاة النفل للمسلم وهو نائم ، الا لعذر .

قال الخطابى : « أما قوله : وصلاته نائما على النصف من صلاته قاعدا ، فانى لا أعلم أنى سمعته الا فى هـذا الحديث . ولا أحفظ عن أحد من أهل العلم أنه رخص فى صلاة التطوع نائما — يعنى مع القدرة على القعود — كما رخص فيها قاعدا ، وان صحت هـذه اللفظة عن

النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن من كلام بعض الرواة ، فان التطوع مضطجعا للقادر على القعود ، جائز بهذا الحديث » انتهى . بتصرف[١] .

هذا .. ويجوز صلاة التطوع بعضه من قيام ، وبعضه من قعود ، كأن يقرأ جالسا ، ثم يقوم ، فيقرأ بعض آيات ، ثم يركع ، كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم :

قالت عائشة رضى الله عنها : « ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فى شىء من صلاة الليل جالسا قط ، حتى دخل فى السن[٢] ، فكان يجلس فيها ، فيقرأ حتى اذا بقى أربعون أو ثلاثون آية ، قام فقرأها ، ثم ركع » أخرجه مسلم وغيره .

قال بهذا الأئمة الأربعة ، بمقتضى هـذا الحديث وغيره .

ثم يقول تحت عنوان :

« فائدة » : اختص النبى صلى الله عليه وسلم بجواز صلاة الفرض قاعدا ، بلا عذر ، وبأن تطوعه قاعدا بلا عذر ، كتطوعه قائما فى الأجر .

لقول ابن عمر رضى الله عنهما : حدثت أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « صلاة الرجل قاعدا ، نصف الصلاة ، فأتيته فوجدته يصلى جالسا ، فوضعت يدى على رأسه ، فقال : مالك يا عبد الله ابن عمر ؟ قلت : حدثت يا رسول الله .. أنك قلت : صلاة الرجل قاعدا ، نصف الصلاة ، وأنت تصلى قاعدا !! قال : أجل .. ولكنى لست كأحد منكم » أخرجه مسلم وأبو داوود .

هذا .. مع ملاحظة أن النبى صلى الله عليه وسلم ما كان يصلى قاعدا ، الا لعذر ، كما صرحت بذلك عائشة رضى الله عنها فى الحديث السابق ، وفيه قالت : « ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فى شىء من الليل جالسا قط ، حتى دخل فى السن » .

* * *

---

(١) الدين الخالص ج ٥ ص ٢٧٨ .

(٢) أى : كبرت سنه .

واتماما للفائدة ، فاننى أرى كذلك أن أوقفك ، على :

الأوقات المنهى عن التنفل فيها

وهى — كما لخص كذلك فى الفقه الواضح — : أوقات نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التنفل فيها :

١ — ٢ : الوقت ما بين صلاة الصبح ، وطلوع الشمس • والوقت ما بين صلاة العصر ، وغروب الشمس •

وذلك ، لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : حدثنى أناس ، أحبهم الى عمر رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم ، نهى عن الصلاة بعد العصر ، حتى تغرب الشمس ، وبعد الصبح حتى تطلع الشمس •

وفى رواية للبخارى ومسلم عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الصلاة بعد الصبح حتى تشرق • وبعد العصر حتى تغرب » :

وهذا النهى لمن كان قد صلى الصبح والعصر •

أما من لم يكن قد صلى الصبح ، أو العصر ، فلا بأس أن يصلى نفلا ، مثل : سنة الفجر ، وسنة العصر • قال بذلك جمهور الفقهاء •

٣ — ٤ — ٥ : الوقت من طلوع الشمس حتى ترتفع قدر رمح ، ووقت الاستواء — وهو الوقت الذى تكون فيه الشمس فى وسط السماء — أى قبل الظهر بدقائق ، وعند غروب الشمس •

عن عقبة بن عامر رضى الله عنه ، قال : « ثلاث ساعات ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهانا أن نصلى فيهن ، أو نقبر موتانا : حين تطلع الشمس بازغة حتى ترتفع ، وحين يقوم قائم الظهيرة[1] • وحين تضيف الشمس للغروب »[2] رواه مسلم •

ويجمع هذه الأوقات الخمسة ، حديث عمرو بن عنبسة رضى الله عنه ، قال : « قلت : يا نبى الله •• أخبرنى عن الصلاة • قال : صل صلاة الصبح ، ثم أقصر عن الصلاة ، حتى تطلع الشمس حتى ترتفع ، فانها تطلع ، حين تطلع بين قرنى شيطان ، وحينئذ يسجد لها الكفار ، ثم صل ، فان الصلاة مشهودة محضورة ، حتى يستقل الظل بالرمح ، ثم أقصر عن الصلاة ، فان حينئذ تسجد جهنم ، فاذا أقبل الفيء فصل ، فان الصلاة مشهورة محضورة ، حتى تصلى العصر ، ثم أقصر عن

---

(١) أى عند الاستواء ، وهو توسط الشمس فى السماء .

(٢) أى : عندما تميل الى الغروب .

الصلاة ، حتى تغرب الشمس ، فانها تغرب بين قرنى شيطان ، وحينئذ يسجد لها الكفار » رواه مسلم .

هـذا .. والنهى عن التنفل فى هـذه الأوقات الخمس عام ، يشمل جميع النوافل .

خلافا للشافعية ، فانهم قالوا : ان النهى منصب على النفل ، الذى ليس له سبب .

أما النفل الذى له سبب ، مثل تحية المسجد ، وسنة الوضوء ، وسجدة التلاوة ، فانه لا يكره فى هـذه الأوقات .

ووافقهم الحنابلة فى جواز صلاة تحية المسجد ، والامام على المنبر .. وخالفوهم فيما سوى ذلك .

٦ ـ التنفل عند اقامة الصلاة : وهو منهى عنه ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : « اذا أقيمت الصلاة ، فلا صلاة الا المكتوبة » رواه مسلم عن أبى هريرة .. أى : فلا تصلوا الا الصلاة المفروضة ، التى أقام لها المؤذن .

وقد اختلف الفقهاء فيمن صلى ركعتين ، عند اقامة الصلاة ، هل تنعقد صلاته ، وتكون صحيحة ، أو لا تنعقد ، ولا تصح ؟ ..

قولان :

فمن قال بصحتها ، جعل النهى على الكراهة ، ونفى الكمال .

ومن قال بعدم صحتها ، حمل النهى على التحريم ، وعدم الصحة ، أى : اذا أقيمت الصلاة ، فلا تصح صلاة ، الا الصلاة المفروضة .

واختلفوا أيضا فيمن شرع فى صلاة النافلة ، قبل الاقامة ، ولم يتم صلاته . هل يقطعها ، أو يتمها ؟ ..

قال كثير من الفقهاء : يتمها ما دام قد شرع فيها قبل الاقامة ، ولا يقطعها ، لقوله تعالى : **« ولا تبطلوا أعمالكم »**[1] ما لم يخف فوات ركعة مع الامام .

وقيل : لا يقطعها ، حتى ولو خاف فوات ركعة مع الامام ، لأنه عمل صالح ، نهانا الله عن ابطاله فى قولـه جل وعلا : **« ولا تبطلوا أعمالـكم »** .

وقال جماعة من الفقهاء : يقطع الصلاة ، ما لم يركع ، فان ركع ،

---

(١) محمد : ٣٣

فقد انعقدت الصلاة ، فلا ينبغى أن يقطعها ، بل يتمها ، ويخففها ، حتى يدرك الصلاة مع الامام ، قبل أن يركع للركعة الأولى .

هذا .. وقد استثنى بعض الفقهاء على اختلاف مذاهبهم من النهى ركعتى الفجر ، فقالوا : من سمع الاقامة لصلاة الصبح ، ولم يكن قد ركع ركعتى الفجر المسنونة ، فله أن يركعهما خارج المسجد ، أو داخله ، ما لم يخف فوات ركعة مع الامام .

واستدلوا على ذلك بفعل بعض الصحابة ، مثل عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن مسعود .

فعن زيد بن أسلم رضى الله عنه : « أن ابن عمر رضى الله عنهما ، جاء والامام يصلى الصبح ، ولم يكن صلى الركعتين قبل صلاة الصبح ، فصلاهما فى حجرة حفصة[1] وصلى مع الامام » .

وقال أبو عثمان الأنصارى : « جاء عبد الله بن عباس ، والامام فى صلاة الغداة[2] ، ولم يكن صلى الركعتين ، فصلى الركعتين خلف الامام[3] ، ثم دخل معه » .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه « أنه كان يدخل المسجد ، ثم يدخل مع القوم فى الصلاة » أخرج هذه الآثار الثلاثة الطحاوى .

وقال أبو موسى : « أقيمت الصلاة ، فتقدم عبد الله بن مسعود الى أسطوانة[4] فى المسجد ، فصلى ركعتين ، ثم دخل ، يعنى فى الصلاة » أخرجه الطبرانى فى الكبير ورجاله ثقات .

وذهب جمهور كبير من الفقهاء الى تعميم النهى ، فى كل صلاة ، لعموم قوله صلى الله عليه وسلم : « اذا أقيمت الصلاة ، فلا صلاة الا المكتوبة » .

ولقول أبى موسى رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا صلى ركعتى الغداة ، حين أخذ المؤذن يقيم ، فغمز النبى صلى الله عليه وسلم منكبه ، وقال : « ألا كان هذا قبل هذا » ؟ أخرجه الطبرانى ورجاله ثقات .

---

(١) وهى أخته ، زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورضى الله عنها .

(٢) أى صلاة الصبح .

(٣) يعنى وراءه فى آخر المسجد منفردا ثم اقتدى به فى صلاة الصبح .

(٤) أى فى مكان فى المسجد .

وهذا القول هو الأصح ، لورود الأحاديث المصرحة بنهيه صلى الله عليه وسلم عن صلاة التطوع مطلقا ، عند اقامة الصلاة ، ولا سيما حديث أبى موسى هـذا ، فان فيه نهى الرسول صلى الله عليه وسلم الرجل عن صلاة ركعتى الغداة حين رآه قد صلاهما عند شروع المؤذن فى الاقامة ، وقال له : « ألا كان هذا قبل هذا » ؟

٧ ـ الصلاة والامام يخطب :

فقد اتفق الأئمة على حرمة الصلاة ، والامام يخطب فى حق من كان جالسا قبل صعود الامام على المنبر ، لأن التنفل مستحب ، وسماع الخطبة فرض ، والفرض مقدم على المستحب .

واختلفوا فى من لم يكن قد صلى الصبح ، وذكره أثناء الخطبة .

فقال المالكية : يقوم لصلاة الصبح ، لأن صحة الجمعة تتوقف على صلاته ، بناء على أن الترتيب بين الصلوات واجب ، اذا كانت خمس صلوات فأقل . وبذلك قال الحنفيون أيضا .

واختلفوا فيمن أتى المسجد ، والامام على المنبر ، ولم يكن قد صلى تحية المسجد .

فقال المالكية والحنفية : يجلس لسماع الخطبة ، ولا يصلى تحية المسجد ، لأن التحية سنة ، وسماع الخطبة فرض ، والفرض مقدم على السنة . ولأن النبى صلى الله عليه وسلم قد نهى عن الكلام أثناء الخطبة ، حتى ولو كان أمرا بمعروف ، أو نهيا عن منكر[1] ، فتحية المسجد من باب أولى .

وجوز الشافعية والحنابلة ، لمن أتى المسجد ، ولم يكن قد صلى التحية أن يركع ركعتين خفيفتين ، والامام يخطب ، مستدلين بحديث سليك الغطفانى يوم الجمعة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب ، فجلس ، فقال له : يا سليك .. قم فاركع ركعتين ، وتجوز فيهما . ثم قال : « اذا جاء أحدكم يوم الجمعة ، والامام يخطب ، فليركع ركعتين ، وليتجوز فيهما »[2] .

ثم تساءل بعد ذلك فى « الفقه الواضح » :

هل النهى للكراهة أو للتحريم ؟ .. ثم قال :

---

(١) وقد ورد النهى عن هذا .

(٢) أى يخففهما .

اختلف الفقهاء فى هذا النهى عن الصلاة فى هذه الأوقات المتقدم ذكرها • هل هو للكراهة ، أو للتحريم •

للشافعية قولان : قول بأن النهى للكراهة التنزيهية[١] ، وقول بأنه لكراهة التحريم[٢] •

وقال المالكية : النهى عن الصلاة بعد صلاة الصبح والعصر للكراهة •

وأما النهى عن الصلاة عند طلوع الشمس ، وعند غروبها ، فللتحريم • لما فيه من التشبه بعباد الشمس • وكذلك التنفل عند اقامة الصلاة ، وعندما يكون الامام على المنبر يوم الجمعة •

* * *

هذا •• واذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد قال — كما علمنا — فى نص الوصية التى ندور حولها : « اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم ولا تتخذوها قبورا » :

فانه فى هذا الحديث : بعد أن رغبنا فى صلاة غير المكتوبة فى بيوتنا — باستثناء ما وقفت عليه قبل ذلك — : ينهانا كذلك عن أن نتخذها قبورا • أى : لا تجعلوها كالقبور مهجورة من الصلاة • أو كالجسد الذى لا روح فيه كما أشار النبى صلى الله عليه وسلم الى هذا •• فى حديث شريف ورد :

عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « مثل البيت الذى يذكر الله فيه ، والبيت الذى لا يذكر الله فيه : مثل الحى والميت » رواه البخارى ومسلم •

قال فى الترغيب والترهيب معلقا على هذا الحديث :

فلله هذا المثل الرائع الذى يضربه لنا سيد الناطقين بالضاد[٣] ، والذى أوتى جوامع الكلم صلوات الله وسلامه عليه وآله وصحبه حيث يشبه البيت الذى لا يذكر الله عز وجل فيه بجسد ميت لا روح فيه ، لأن ذكر الله عز وجل حياة للقلوب والأرواح وللبيوت أيضا ، فأيما بيت خلا من ذكر الله فهو كالقبر المهجور أو كالبيت الخرب الذى خلا من

---

(١) كراهة تنزيهية ، أى : الى الحلال أقرب •

(٢) كراهة تحريمية ، أى : هى الى الحرام أقرب •

(٣) لأن اللغة العربية هى اللغة الوحيدة التى فيها حرف الضاد •• على مستوى جميع اللغات المختلفة •

ساكنيه ، قال النووى : « فيه الندب الى ذكر الله تعالى فى البيت وأنه لا يخلى من الذكر فيه ، وفيه جواز التمثيل ، وفيه أن طول العمر فى الطاعة فضيلة وان كان الميت ينتقل الى خير لأن الحى يستلحق به ويزيد عليه بما يفعله من الطاعات » .

* * *

فمن هذا يتبين لنا المراد من نهى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو كما علمنا أن لا نجعل بيوتنا كالقبور مهجورة من الصلاة غير المكتوبة .

وهذا معناه كذلك أن العبد الموفق ، هو الذى يذكر نفسه دائما وأبدا بحياة القبول التى لابد وأن يعتبر بها ، كثابت البنانى رحمه الله تعالى الذى يقول :

دخلت المقابر لأزور القبور وأعتبر بالموتى ، وأتفكر فى البعث والنشور وأعظم نفسى لعلها ترجع عن الغى والغرور ، فوجدت أهل القبور صموتا لا يتكلمون ، وفرادى لا يتزاورون ، فأيست من مقالهم ، واعتبرت بأحوالهم .. فلما أردت الخروج اذ أبصرت من يقول لى : يا ثابت لا يغرنك صموت أهلها .. فكم فيها من نفس معذبة أو منعمة .

وكان يزيد الرقاشى يقول فى كلامه : أيها المقبور فى حفرته ، المتخلى فى القبر بوحدته ، المستأنس فى بطن الأرض بأعماله ، ليت شعرى بأى أعمالك استبشرت ، وبأى أحوالك اغتبطت ، ثم يبكى حتى يبل عمامته ، ويقول : استبشر — والله — بأعماله الصالحة ، واغتبط — والله — باخوانه المعاونين له على طاعة الله ، وكان اذا نظر الى القبر صرخ كما يصرخ الثور .

* * *

وحسب الأخ المسلم أن يقرأ ويفهم هذا الحديث الذى رواه الترمذى :

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مصلاه فرأى ناسا يكثرون ، فقال : « أما أنكم لو أكثرتم من ذكر هاذم اللذات : الموت . فانه لم يأت على القبر يوم الا تكلم فيه . فيقول : أنا بيت الغربة ، وأنا بيت الوحدة ، وأنا بيت التراب ، وأنا بيت الدود . فاذا دفن العبد المؤمن . قال له القبر : مرحبا وأهلا أما ان كنت لأحب من يمشى على ظهرى الى ، فاذ وليتك اليوم وصرت

الى فسترى صنيعى بك فيتسع له مد بصره ، ويفتح له باب الى الجنة • واذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قال له القبر : لا مرحبا ولا أهلا • أما ان كنت لأبغض من يمشى على ظهرى الى • فاذ وليتك اليوم وصرت الى فسترى صنيعى بك » قال : « فيلتئم عليه حتى يلتقى وتختلف أضلاعه » قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصابعه فأدخل بعضها فى جوف بعض • قال : « ويقبض الله له تسعين تنينا أو قال تسعة وتسعين لو أن واحدا منها نفخ فى الأرض ما أنبتت شيئا ما بقيت الدنيا • فتنهشه حتى يفضى به الى الحساب » قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » • قال أبو عيسى : هذا حديث غريب •

وقد روى ابن ماجه ، عن هانىء بن عثمان ، قال : كان عثمان رضى الله عنه اذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنار ولا تبكى ، وتبكى من هذا ؟ قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ان القبر أول منازل الآخرة • فان نجا منه أحد ، فما بعده أيسر منه وان لم ينج منه فما بعده أشد منه » •

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما رأيت منظرا قط الا والقبر أفظع منه » أخرجه الترمذى وزاد رزين قال : وسمعت عثمان ينشد على قبر شعرا :

فان تنج منها تنج من ذى عظيمة
والا فانى لا أخالك ناجيا

* * *

فتذكر كل هذا أخا الاسلام ، و :

تزود من معاشك للمعاد وقم لله واعمل خير زاد
ولا تجمع من الدنيا كثيرا فان المال يجمع للنفاد
أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد ؟

* * *

الجزء السادس عشر

الوصية الخمسون

عن أبى عمارة البراء بن عازب رضى الله عنهما قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يا فلان .. اذا أويت الى فراشك فقل : اللهم أسلمت نفسى اليك ، ووجهت وجهى اليك ، وفوضت أمرى اليك ، وألجأت ظهرى اليك ، رغبة ورهبة اليك ، لا ملجأ ولا منجا منك الا اليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، وبنبيك الذى أرسلت .. فانك ان مت من ليلتك مت على الفطرة ، وان أصبحت أصبت خيرا » ..

(متفق عليه)

وفى رواية الصحيحين :
عن البراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل .. وذكر نحوه ثم قال : واجعلهن آخر ما تقول » ..

* * *

فكن أخا الاسلام :

منتفعا بهذا الدعاء المبارك الذى أوصانا به الرسول صلى الله عليه وسلم جميعا فى شخص هذا الصحابى الذى ورد ذكره فى الدعاء على أنه فلان ، اشارة الى أن الوصية هذه موجهة الى كل فلان من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وأحبابه الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

واذا كنا ان شاء الله تعالى كأحباب لرسول الله صلى الله عليه وسلم سننفذ الدعاء هذا عندما نأوى الى مضاجعنا .. حتى

أن متنا فى أى ليـــلة من الليالى .. متنا على الفطرة وان أصبحنا فى أى صباح أصبنا خيرا :

فاننى أرى وقبـــل أن نقف على المعنى الاجمالى لهذا الدعـــاء الجامع : أن نقف أولا على المعنى المراد من كل فقرة من فقراته .. حتى نردد الدعـــاء ونحن نفهمه .. وندرك أبعاده :

فقد جاء فى أول الحديث أن النبى صلى الله عليـــه وسلم ، قال للصحابى الذى أوصاه :

اذا أويت الى فراشك ، فقل : أى : اذا أردت أن تنام وأنت طاهر كما جاء فى رواية البراء : « اذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ، وقل .. » وفى رواية لأبى داوود : « اذا أويت الى فراشك وأنت طاهر فتوسد يمينك .. » .

وهكذا كان يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم اذا أراد أن ينام : فقد جاء فى زاد المعاد : أن النبى صلى الله عليـــه وسلم « كان اذا أوى الى فراشه للنوم ، قال : باسمك اللهم أحيا وأموت . وينام على شقه الأيمن ويضع يـــده اليمنى تحت خده الأيمن ، ثم يقول : اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك . واذا انتبه من نومه قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور . ثم يتسوك .. وكان ينـــام أول الليـــل ويقوم آخره ، وربما سهر أول الليل فى مصالح المســـلمين ، وكانت تنام عيناه ولا ينام قلبه ، واذا نام لم يوقظوه حتى يكون هو الذى يستيقظ » اهـ .

اللهم أسلمت نفسى اليك : أى : استسلمت لحكمك وانقدت لأمرك ، وأذعنت لمـــا تجريه على من قضائك وقدرك .

ووجهت وجهى اليك :

أى : أخلصت دينى اليك ، ولم أجعل لك شريكا من خلقك .

وفوضت أمرى اليك :

أى : رددته اليـــك ، فلا حول ولا قوة الا بك : فاكفنى همه ، وأصلحه بما شئت .

وألجأت ظهرى اليك :

أى : استندت اليك ، واستعنت بك فى كل ما يعجزنى .. وقيل :

اعتمدت عليك فى جميع أمورى ، وأسندتها اليك ، كما يعتمد الانسان بظهره الى ما يستند اليه[1] .

رغبة ورهبة اليك :

أى : طمعا فى رحمتك وفضلك وخوفا من عذابك .. وقيل : أى الرغبة فى ثوابك ومغفرتك ، والرهبة من عقابك وسخطك .

لا ملجأ ولا منجا منك الا اليك :

أى : لا خلاص ولا مهرب من عذابك الا اليك . « ولا ملجأ » مهموز من ألجأت ، ولا منجا هو غير مهموز من النجاة .

آمنت بكتابك الذى أنزلت :

أى : بالقرآن .. وقيل : جميع الكتب المنزلة .

وبنبيك الذى أرسلت :

أى : أرسلته الى الناس كافة بشيرا ونذيرا . فصلوات الله وسلامه عليه .

فانك ان مت من ليلتك ، مت على الفطرة :

أى : على الاسلام الصحيح الخالص من الشرك .

وان أصبحت أصبت خيرا :

أى : أصبت خيرا بترديدك لهذا الدعاء الجامع الذى مضمونه كما هو واضح لك : التفويض الكامل لله رب العالمين .

* * *

فاذا كان هذا هو المعنى الاجمالى لفقرات هذا الدعاء المبارك : فاننى أحب أن أذكرك وقبل التعليق كذلك عليه : بأن هناك أدعية أخرى وردت كذلك فى « الترغيب والترهيب » تحت عنوان :

ما يقال من الذكر عند النوم

فعن فروة بن نوفل عن أبيه رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال لنوفل : « اقرأ : **«قل يا أيها الكافرون»**[2] ثم نم على خاتمتها ، فانها براءة من الشرك » رواه أبو داوود ، واللفظ له ، والترمذى ، والنسائى متصلا مرسلا ، وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الاسناد :

---

(١) ولله المثل الأعلى .

(٢) أى اقرأ سورة : « **قل يا أيها الكافرون** » .. ثم نم بعد ذلك مباشرة .. حتى تنام على التوحيد الخالص لله رب العالمين .

وفى رواية عن حجاج بن أرطاة : حدثنـــا شريك عن أبى اسحاق عن فروة بن نوفل عن الحارث بن جبلة ، قال : قلت : يا رسول الله .. علمنى شيئا أقوله عند منامى ، فقال له .. الـــخ الحديث .

* * *

والرسول صلى الله عليه وسلم يوصيه فى هـــذا الحديث :

بأن يقرأ عند نومه السورة التى أولها : « **قل يا أيها الكافرون ..** » .

وبأن لا يتكلم بعد قراءتها بأى كلام دنيوى ، أو من كلام الناس : فانها براءة : أى خلاص ونجاة ، من الشرك .. ولهذا كان النبى صلى الله عليـــه وسلم يقرأ بها فى الركعة الأولى من سنة الفجر ، وسنة المغرب وركعتى الطواف ، ويقرأ فى الركعة الثانية بسورة الاخلاص : وذلك لأنهما تضمنتا نفى الالهية عن كل ما سوى الله عز وجل واثباتها لله وحده .

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليـــه وسلم ، قال : « خصلتان ــ أو خلتان[1] ــ لا يحافظ عليهما عبد مســـلم الا دخل الجنة ، هما يسير ، ومن يعمل بهما قليل :

يسبح فى دبر كل صلاة عشرا ، ويحمد عشرا ، ويكبر عشرا ، فذلك خمسون ومائة باللسان ، وألف وخمسمائة فى الميزان .

ويكبر أربعا وثلاثين اذا أخذ مضـــجعه ويحمد ثلاثا وثلاثين ، ويسبح ثلاثا وثلاثين : فذلك مائة باللسان ، وألف فى الميزان[2] .

فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليـــه وسلم يعقدها . قالوا : يا رسول الله .. كيف هما يسير ، ومن يعمل بهما قليل ؟ قال : يأتى أحدكم ــ يعنى الشيطان ــ فى منامه فينومه قبل أن يقوله ، ويأتيه فى صلاته فيذكره حاجة قبل أن يقولها » .

رواه أبو داوود واللفظ له والترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح ، والنسائى وابن حبان فى صحيحه ، وزاد بعد قوله :

« وألف وخمسمائة فى الميزان ، قال رسول الله صلى الله عليـــه وسلم : أيكم يعمل فى اليوم والليلة ألفين وخمسمائة سيئة » .

* * *

---

(١) « أو » شك من الراوى ، والخصلة والخلة بفتح الخاء فيهما يعنى الخلق أو الصفة .

(٢) لأن الحسنة بعشر أمثالها .

ففى هـذا الحديث يوصينا النبى صلى الله عليـه وسلم كعباد مسلمين اذا أردنا أن ندخل الجنة : بأن نحافظ على خصلتين ، العمل بهما سهل وهين ، وهما :

أن يسبح عقب كل صلاة عشرا ، ويحمد عشرا ، ويكبر عشرا .. ثم يقول بعد ذلك : فذلك خمسون ومائة باللسان ، وألف وخمسمائة فى الميزان :

وذلك لأنهن ثلاثون فى كل صـلاة ، والصلوات خمس ، فيكون المجموع حينئذ مائة وخمسين .. ولأن الحسنة بعشر أمثالها ، فاذا ضرب مائة وخمسون فى عشر كان المجموع ألفا وخمسمائة .

وبأن يكبر أربعا وثلاثين اذا أخذ مضجعه — أى اذا أراد أن ينام — ويحمد ثلاثا وثلاثين ، ويسبح ثلاثا وثلاثين .. ثم يقول بعد ذلك : فذلك مائة باللسان ، وألف فى الميزان :

وفى نسخة : « فتلك » اشارة لمجموع التكبير ، والتحميد ، والتسبيح ، والحسنة كما عرفنا قبل ذلك بعشر أمثالها ..

ثم اذا كان النبى صلى الله عليـه وسلم ، قد أجاب على السؤال الذى وجه اليه ، وهو : كيف هما يسـير ، ومن يعمل بهما قليل ؟ . فقال : يأتى أحدكم — أى الشيطان — فى منامه فينومه قبل أن يقوله : أى يهدهده كما يهدهد الصبى ويحبب اليه النوم . ويأتيه فى صلاته فيذكره حاجة قبل أن يقولها : أى : حتى تحمله الحاجة على أن ينصرف بعد السلام مباشرة قبل أن يقول تلك الكلمات .

واذا كان الرسول صـلى الله عليـه وسلم ، قد قال فى روايـة ابن حبان : « وأيكم يعمل فى اليوم والليلة ألفين وخمسمائة سيئة » : فان المراد هو أن الذنوب مهما كثرت لن تبلغ عدد الحسـنات التى كسبها المصلى بقوله هـذه الكلمات .

* * *

فلتذكر أخا الاسـلام كل هذا حتى تحافظ على هـذا الخير وتفوز بكل هـذا الثواب .

وعن العرباض بن سارية رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسـلم : كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد ، ويقول : « ان فيهن آية خير من ألف آية » . رواه أبو داوود والترمذى واللفظ له ، وقال : حديث حسن غريب ، والنسائى ، وقال : قال معاوية يعنى ابن صالح :

« ان بعض أهل العلم كانوا يجعلون المسبحات ستا : سورة الحديد ، والحشر ، والحواريين[1] ، وسورة الجمعة ، والتغابن ، و « **سبح اسم ربك الأعلى** » .

* * *

ففى هذا الحديث ـ كما علمنا ـ : اخبار بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد .. وهى : السور المبتدأة : بسبح لله ، أو يسبح لله .. وقد علمت أن بعض أهل العلم كانوا يجعلونها ستا .. وقد ذكر فى هامش الترغيب والترغيب ، أنها : الحديد ، والحشر ، والصف ، والجمعة ، والتغابن ..

ثم اذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قد قال فى نهاية الحديث عن المسبحات : « ان فيهن آية خير من ألف آية » :

فهذه الآية هى قوله تعالى فى سورة الحديد : « **هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم** »[2] : فان هذه الأسماء الحسنى الأربعة دلت على احاطته تعالى التامة بجميع خلقه زمانا ومكانا وعلما .

فلنفز كذلك بخيرات المسبحات .

* * *

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من قال حين يأوى إلى فراشه : لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله أكبر : غفرت له ذنوبه ، أو خطاياه ، وان كانت مثل زبد البحر » رواه النسائى وابن حبان فى صحيحه واللفظ له ، وعند النسائى :

« سبحان الله وبحمده ، وقال فى آخره : ولو كانت أكثر من زبد البحر » .

* * *

ففى هذا الحديث ـ كما قرأنا ـ : يرغبنا النبى صلى الله عليه وسلم فى أن نقول قبل أن نأوى الى مضاجعنا : لا اله الا الله وحده لا شريك له :

---

(١) يعنى السورة التى ذكر فيها الحواريون وهى : سورة الصف .
(٢) الحديد : ٣

فوحده لا شريك له ، بعد كلمة التوحيد تأكيد لما دل عليه الاستثناء من انفراده سبحانه وتعالى بالوحدانية •

له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير :

أى أن له وحده الملك التام الذى لا يغالب عليه ، وله الحمد التام الذى لا يلحقه ذم ولا نقص •• وهو قادر على كل شيء •

لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم :

فهى : كما ورد فى حديث أبى موسى الأشعرى : كنز من كنوز الجنة ، ففى الحديث قال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة » ؟ قال : بلى • قال : « قل : لا حول ولا قوة الا بالله » •

سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله أكبر :

فهو كذلك « أفضل الكلام » ، ففى الحديث : « أفضل الكلام بعد القرآن أربع لا يضرك بأيهن بدأت : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله أكبر » وقد ورد : أنهن الباقيات الصالحات •

ثم اذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول بعد ذلك فى ترغيبه : « غفرت له ذنوبه — أو خطاياه — وان كانت مثل زبد البحر » •

أو كما جاء فى رواية النسائى :

« غفرت له ، ولو كانت أكثر من زبد البحر » :

فهذا معناه أنه من الخير أخا الاسلام أن تنفذ هذا الخير حتى يغفر الله لك ذنوبك ولو كانت مثل زبد البحر أو أكثر منه •• والله ذو الفضل العظيم

وعن شداد بن أوس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم يأخذ مضجعه[1] ، فيقرأ سورة من كتاب الله : الا وكل الله به ملكا ، فلا يقربه شيء يؤذيه ، حتى يهب من نومه متى هب »[2] رواه الترمذى ، ورواه أحمد ، الا أنه قال : « بعث الله له ملكا يحفظه من كل شيء يؤذيه حتى يهب متى هب » ورواه أحمد رواة الصحيح •

* * *

---

(١) يعنى يأوى الى فراشه وينام فيه •

(٢) هب : أى انتبه من نومه •

ففى هـذا الحديث يرغبك كمسلم عندما تأوى الى فراشك لتنام فيه : بأن تقرأ أى سـورة من كتاب الله تعالى .. مخبرا اياك بأنك ان فعلت ذلك : وكل الله بك ملكا يحفظك ـ وأنت نائم ـ من كل أنواع المؤذيات : أى : من شـياطين الانس والجن والوحوش والحشرات والهوام ، ونحو ذلك .. حتى تهب من نومك .

* * *

فحسبك هـذا أخا الاسلام ترغيبا لك فى هذا الخير الذى به كما عرفت فى نهاية الحديث سيظل الحفظ مستمرا لك حتى تستيقظ .

وعن جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، قال : « اذا أوى الرجل الى فراشه ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : اختم بخير ، ويقول الشيطان : اختم بشر ، فان ذكر الله ثم نام بات الملك يكلؤه ، واذا استيقظ ، قال الملك : افتح بخير ، وقال الشيطان : افتح بشر ، فان قال : الحمد لله الذى رد على نفسى ولم يمتها فى منامها ، الحمد لله الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا .. الى آخر الآية[1] ، الحمد لله الذى يمسك السـماء أن تقع على الأرض الا باذنه[2] :

فان وقع عن سريره فمات دخل الجنة » رواه أبو يعلى باسـناد صحيح ، والحاكم ، وزاد فى آخره :

« الحمد لله الذى يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير » . وقال صحيح على شرط مسلم .

* * *

ففى هذا الحـديث ، يخبر النبى صـلى الله عليه وسلم : بأنه اذا أوى الرجل الى فراشه ابتدره ـ أى أسرع اليه ـ ملك وشيطان .. فيقول الملك لهذا الرجل : اختم بخير ـ أى اجعل خاتمة عملك قبـل النوم خيرا بذكر الله ، وتلاوة القرآن ، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليـه وسلم .. ونحو ذلك ـ . ويقول له الشيطان : اختم بشر ـ أى أن الشيطان يزين له السوء والفجور لتكون خاتمة عمله شرا .. ثم يقـول الرسول صلى الله عليـه وسلم : فان ذكر الله ثم

---

(١) نص الآية فى سورة فاطر : ٤١ « **ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتـا ان أمسكهما من أحد من بعده ، انه كان حليما غفورا** ».

(٢) نص الآية فى سورة الحج : ٦٥ « **ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء ..** » الآية .

نام ، بات الملك يكلؤه — أى يحرسه ويحفظه — • واذا استيقظ ، قال الملك : افتح بخير — أى ابدأ عمل يومك — وقال الشيطان : افتح بشر •• ثم يقول الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك كذلك :

الحمد لله الذى رد على نفسى — أى : أعادها الى بعد ما قبضها — ولم يمتها فى منامها — أى : لم يمسكها عنده سبحانه بل أرسلها — •

الحمد لله الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا — أى : من أن تزولا •• فهو سبحانه بقدرته : يحفظهما من الزوال وهو العدم والسقوط •

الحمد لله الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض الا باذنه — فهو سبحانه يحمد نفسه على كمال قدرته فى حفظ السماء وامساكها حتى لا تسقط على الأرض ، ولكنه لو أذن بذلك وشاءه لوقع •

الحمد لله الذى يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير » •

* * *

ثم اذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم ، يقول بعد ذلك مرغبا فى هذا الخير : فان وقع عن سريره فمات دخل الجنة •

أى : لو قدر عليه أن يخر عن سريره فى نومه هذا ، وكان قد قال هذه الكلمات ، فانه يغفر له ويدخل الجنة •

فاننى أرجو أن يكون هذا ترغيبا لك فى تنفيذ هذا الخير •

* * *

فاذكر كل هذا أخا الاسلام ونفذه قبل أن تأوى الى فراشك ، حتى تفوز بتلك النتائج العظيمة التى من أهمها كما علمت حفظ الله تعالى ورعايته لك •• ومغفرته ورضوانه •

وحسبك كذلك اذا كنت ستنام على طهارة •• أن تقرأ معى هذه الأحاديث التى أرجو كذلك أن تكون سببا فى ترغيبك :

فعن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من بات طاهرا بات فى شعاره[1] ملك ، فلا يستيقظ الا قال الملك : اللهم اغفر لعبدك فلان فانه بات طاهرا » رواه ابن حبان فى صحيحه •

---

(١) الشعار بكسر الشين المعجمة : هو ما يلى بدن الانسان من ثوب وغيره •

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « طهروا هذه الأجساد طهركم الله[١] ، فانه ليس من عبد يبيت طاهرا الا بات معه فى شعاره ملك ، لا ينقلب ساعة من الليل[٢] الا قال : اللهم اغفر لعبدك فانه بات طاهرا » رواه الطبرانى فى الأوسط باسناد جيد .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أوى[٣] الى فراشه طاهرا يذكر الله[٤] حتى يدركه النعاس[٥] لم ينقلب ساعة من ليل يسأل الله خيرا من خير الدنيا والآخرة الا أعطاه الله اياه » رواه الترمذى عن شهر بن حوشب عن أبى أمامة ، وقال : حديث حسن .

* * *

ولا تنس أخا الاسلام — فى النهاية — وبعد أن تستيقظ من نومك أن تقرأ الدعاء الوارد فى هذا الحديث الشريف حتى تفوز بالخير المشار اليه فيه :

فعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « من تعار[٦] من الليل ، فقال : لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، الحمد لله ، وسبحان الله ولا اله الا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، ثم قال : اللهم اغفر لى ، أو دعا استجيب له ، فان توضأ ثم صلى قبلت صلاته » رواه البخارى وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

* * *

أسأل الله تعالى أن يفوقنا للفوز بهذا الخير الذى نحن فى أشد الحاجة اليه فى دنيانا وأخرانا .. كما أسأله سبحانه وتعالى أن يختم لنا به .. آمين .

* * *

---

(١) جملة دعائية .

(٢) أى لا يقوم من نومه فى أى لحظة من الليل الا قال له الملك ..

(٣) أى ذهب لينام .

(٤) قوله « طاهرا يذكر الله » : كلاهما حالى من فاعل أوى .

(٥) أى يغلبه النوم .

(٦) تعار : بتشديد الراء : أى استيقظ .

الوصية الواحدة والخمسون

عن على رضى الله عنه ، قال لابن أعبد : ألا أحدثك عنى وعن فاطمة رضى الله عنها بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت من أحب أهله اليه ، وكانت عندى ؟ قلت : بلى ، قال : انها جرت بالرحا حتى أثرت فى يدها ، واستقت بالقربة حتى أثرت فى نحرها ، وكنست البيت حتى اغبرت ثيابها ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم خدم ، فقلت : لو أتيت أباك فسألته خادما ، فأتته فوجدت عنده حدثاء ، فرجعت فأتاها من الغد ، فقال : ما كان حاجتك ؟ فسكتت ، فقلت : أنا أحدثك يا رسول الله .. جرت بالرحا حتى أثرت فى يدها ، وحملت بالقربة حتى أثرت فى نحرها ، فلما ان جاء الخدم أمرتها أن تأتيك فتستخدمك خادما يقيها حر ما هى فيه . قال :

« اتقى الله يا فاطمة ، وأدى فريضة ربك ، واعملى عمل أهلك ، واذا أخذت مضجعك : فسبحى ثلاثا وثلاثين ، واحمدى ثلاثا وثلاثين ، وكبرى أربعا وثلاثين ، فتلك مائة فهو خير لك من خادم » . قالت : رضيت عن الله ورسوله » .

زاد فى رواية : « ولم يخدمها » ..

(رواه البخارى ومسلم وابو داوود واللفظ له والترمذى مختصرا ، وقال : وفى الحديث قصة ولم يذكرها) .

* * *

فكن أخا الاسلام :

دارسا لنص هذه الوصية ، أو هذا الحديث .. حتى تتعظ به كما اتعظ الآباء والأجداد من الأصحاب الفضلاء وغيرهم من التابعين والسلف الصالح الذين : تحدث الله سبحانه وتعالى عنهم فى قوله : **« رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة**

يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله .. »[1] .

فكانوا لهذا رجالا بمعنى الكلمة وكانوا كذلك من الفطناء الذين تحدث عنهم القائل فى قوله :

ان لله عبـــادا فطنـــــا طلقـــوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيهـــا فلمـــا علمـــوا أنهـــا ليست لحى وطنـــــا
جعلـــوها لجـــة واتخـــذوا صالح الأعمال فيهـــا سفنا

* * *

واذا كنت أقول هـــذا فى بداية شرحى لهذا الحديث : فان هدفى من هـــذا ، هو أن يعـــلم الأخ المسلم أن كل هـــذه الدنيا بما فيهـــا من عرض زائل لا يساوى عند الله جناح بعوضة بل ان تســـبيحة واحدة لله تعالى خير من الدنيا وما فيها .. وقد قرأت توضيحا لهـــذا :

أن سليمان عليـــه السلام ، كان ذات يوم يركب بساطه الذى كان يحمله الريح .. وكان حوله فى الجو عدد كبير من جنده .. من الجن والانس والطيور على اختلاف ألوانها وأشكالها .. فمر بموكبه هـــذا ، على فلاح يزرع فى حقله .. فلما نظر الفلاح الى أعلى ورأى الموكب هـــذا ، قال : سبحان من أعطاكم ملكا يا آل داوود .. فنقل الريح الكلمة هـــذه الى أذنى سليمان عليه الســـلام .. فأمر الريح بأن يتوقف وينزل بالبساط الى حقل هـــذا الفلاح ..

فلما فعل الريح هـــذا ، ورأى الفلاح الموكب فى حقله .. ارتعدت فرائصه .. فقال له سيدنا سليمان مهدئا من روعه : لا تخف يا رجل .. وقل مرة أخرى ما قلته وأنا أمر فوق حقـــلك .. فردد الفلاح الكلمة مرة أخرى .

فقال له سيدنا سليمان :

أما علمت يا هـــذا .. أن تســـبيحة واحدة منك : خير من ملك آل داوود .

* * *

(١) النور : ٣٧ ، ٣٨

ولهـذا .. نرى أن فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، عندما جرت بالرحا حتى أثرت فى يدها ، واستقت بالقربة حتى أثرت فى نحرها ، وكنست البيت حتى اغبرت ثيابها .. فذهبت الى أبيها رسول الله صلى الله عليـه وسلم ـ بتوجيه من زوجها وابن عمها على كرم الله وجهـه ـ لتطلب منه خادما من العبيد والاماء حتى يعينها فى كل شئون البيت ..

فما كان من رسول الله صلى الله عليـه وسلم : الا أن أوصاها بأعظم الوصايا ، التى هى خير من خادم .. كما قال لهـا .. بل هى خير من الدنيا وما فيها .. لأنها أساس كل خير وفلاح ونجاح .. وهى كذلك من أهم أسباب السعادة فى الدنيا والآخرة ..

فقد أوصاها :

أولا : بالتقوى .. وهى ـ كما علمنا قبل ذلك ـ وكما جاء فى نص حديث شريف : « رأس الأمر كله » ، وهى كذلك كما قال على كرم الله وجهه : الغنى بلا مال ، والهيبة بلا سلطان ، والعز بلا عشيرة .. فقد ورد أنه قال : « من أراد غنى بلا مال ، وهيبة بلا سلطان ، وعزا بلا عشيرة : فليتق الله ، فان الله يأبى أن يذل الا من عصاه » .

ولهذا عندما قيل لأحد الصالحين عند موته : أوصنا ، قال : عليكم بآخر آية من سورة النحل ، وهى : **« ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »**[1] : فمعنى اتقوا ، أى : تحرزوا وتركوا ما نهى الله عنه ، وأحسنوا : أى : أطاعوا وفعلوا ما أمر الله تعالى به .

وفى الصحيح فى سؤال جبريل عليه السـلام للنبى صلى الله عليه وسلم ، قال : يا رسول الله .. ما الاحسـان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » ، والله سبحانه وتعـالى مع جميع خلقه بعلمه وقدرته ، ومعناه : أنه عالم بالكل ، قادر على الكل .

فحسبنا اذن أن نكون من الأتقياء بمعنى أن نكون من الذين يتقون الله تبارك وتعالى ، على أساس هذا الوصف الدقيق الذى وصف به على كرم الله وجهه التقوى ، فقال : هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والاستعداد ليوم الرحيل ، والرضا بالقليل .

وحسبنا ان كنا كذلك ان شاء الله ، أن نكون من هؤلاء الذين جعل الله تعالى لهم من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ، كما يشير الى

---

(١) النحل : ١٢٨

هـــذا قول الله تعالى : « ٠٠ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا ٠ ويرزقه من حيث لا يحتسب** »[١] ٠

وأن نكون كذلك من الذين خاطبهم الله تعالى فى قوله :

« **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ٠٠** »[٢] ٠

هذا بالاضافة الى ما يشير اليه قول الله تعالى :

« ٠٠ **فان الله يحب المتقين** »[٣] ٠

وقولـــه : « **الذين آمنوا وكانوا يتقون ٠ لهم البشرى فى الحيـــاة الدنيا وفى الآخرة** »[٤] ٠

فاذا كانت هذه التقوى ، واذا كانت هذه هى نتائجها :

فانه من الخير لنا فى دنيانا وأخرانا أن نكون من أهل التقوى ٠

واذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قد أوصى ابنتـــه الزهـــراء رضى الله عنها بهذا ٠٠ فان هـــذا ولا شك كان سببا فى سعادتها وسعادة كل أفراد أسرتها ٠٠ بل وجميع أحفادها ان شاء الله تعالى الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ٠٠ ما داموا سيتقون الله تعالى مثلها ٠٠ وما داموا كذلك سينفذون :

الثانية : مثلها ، وهى : أداء فريضة الصلاة ٠٠ بل وأداء جميـــع فرائض الله التى فرضها علينا ، وجعلها أساسا للاسلام ، كما يشير الى هذا الحديث الشريف :

« بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصـــوم رمضان » رواه البخارى ومسلم ٠

كما روى البخارى فى صحيحه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن ربه عز وجل ، قال :

« من عادى لى وليـــا ، فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب الى عبدى بشىء أحب الى مما افترضت عليـــه ، ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته ، كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » ٠

---

(١) الطلاق : ٢ ، ٣
(٢) الحديد : ٢٨
(٣) آل عمران : ٧٦
(٤) يونس : ٦٣ ، ٦٤

والصلاة ــ كما عرفنا ــ هى أفضل الفروض ، لما صح من قوله صلى الله عليه وسلم : « الصلاة خير موضوع ، فمن شاء استكثر ومن شاء استقل » أخرجه ابن حبان والحاكم .

وحسب المؤدى لفريضة الصلاة ــ فضلا عن التقرب الى الله تعالى بنوافلها ــ أن يفوز بهذا الخير المشار اليه فى قول الله تعالى :

« قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون »[1] .

وقوله : **« .. وأقم الصلاة ، ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر »**[2] .

قال القرطبى : لا سيما وان أشعر نفسه أن هذا ربما يكون آخر عمله ، وهذا أبلغ فى المقصود ، وأتم فى المراد ، فان الموت ليس له سن محدود ، ولا زمن مخصوص ، ولا مرض معلوم ، وهذا مما لا خلاف فيه . وروى عن بعض السلف أنه كان اذا قام الى الصلاة ارتعد ، واصفر لونه ، فكلم فى ذلك ، فقال : انى واقف بين يدى الله تعالى ، وحق لى هذا مع ملوك الدنيا ، فكيف مع ملك الملوك ؟ .. فهذه صلاة تنهى ــ ولابد ــ عن الفحشاء والمنكر ، ومن كانت صلاته دائرة حول الاجزاء[3] لا خشوع فيها ، ولا تذكر ، ولا فضائل ، كصلاتنا ــ وليتها تجزى ــ فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان ، فان كان على طريقه معاص تبعده من الله تعالى ، تركته الصلاة يتمادى على بعده ، وعلى هذا يخرج الحديث المروى عن ابن عباس ، وابن مسعود ، والحسن ، والأعمش ، قولهم : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم تزده من الله الا بعدا ، ولم يزد بها الا مقتا .. »[4] انتهى . تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٣٤٨ طبعة دار الكتب المصرية .

وأنه سيفوز كذلك بدخول الجنة :

فعن أبى قتادة بن ربعى ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « قال الله ــ عز وجل ــ : افترضت على أمتك خمس صلوات ، وعهدت عندى عهدا : أنه من حافظ عليهن لوقتهن أدخلته الجنة ، ومن لم يحافظ عليهن ، فلا عهد له عندى » أخرجه ابن ماجه جـ ١ ص ٢٢١ .

---

(١) المؤمنون : ١ ، ٢ (٢) العنكبوت : ٤٥

(٣) أى يقصد منها اسقاط الفرض وكفى ، دون النظر الى مرضاة الله تعالى ، والتقرب اليه بها . (٤) أى بغضا وسخطا .

وعن أبى قتادة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : « قال الله تعالى : انى افترضت على أمتك خمس صلوات ، وعهدت عندى عهدا : أنه من جاء يحافظ عليهن ، لوقتهن ، أدخلته الجنة ، ومن لم يحافظ عليهن فلا عهد له عندى » من سنن أبى داوود ج ١ صفحة ١٢٣ .

* * *

ثم اذا كان النبى صلى الله عليــه وسلم ــ بعد ذلك ــ يوصى ابنته الزهراء رضى الله عنها : بأن تعمل عمل أهلها ــ من ادارة الرحا ، وسقاية المــاء ، وكنس البيت ، كما كانت تفعل ــ فانه بهذا يؤكد حبه لهــا ، لأنها بهذا الفعل ستكون ربة بيت بالمعنى الصحيح ، وستكون بذلك قدوة لجميع المسلمات من ربات البيوت الى أن يرث الله الأرض ومن عليهــا :

لأن ربة البيت المثالية هى التى تقوم بشئون بيتها ، معتمدة فى هذا على قوتها وخبرتها التى انتقلت بها من بيت أبويها : حتى لا تكون مكلفة لزوجها فوق طاقته ، وحتى لا تدخل بيتها من الخدم أو الخادمات من يعرض البيت لهزة أخلاقية أو اجتماعية ، أو أسرية .. ربما كانت سببا فى هدم هذا البيت من أساسه ــ ولا شك أن الزوج وزوجته قد سمعا أو قد قرآ مثل هــذا فى الصحف اليومية عن الخدم والخادمات ــ .

ثم ان الزوجة المثالية لابد وأن تكون فاعلة كل ما يرضى زوجها ويسعده : حتى يشهد لها بهذا ويحبها .. كما أشار الى هــذا عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، فى هذا المضمون الذى جاء فى نصه :

أن أعرابيا كان يعاتب زوجته ، فعلا صوتها صوته ، فساءه ذلك منها ، وأنكره عليها ، ثم قال : والله لأشكونك الى أمير المؤمنين .

وما أن كان بباب أمير المؤمنين ينتظر خروجه ، حتى سمع امرأته تســتطيل عليه ، وتقول : اتق الله يا عمر فيما ولاك ، وهو ســاكت لا يتكلم .

فقال الرجل فى نفسه وهو يهم بالانصراف : اذا كان هــذا هو حال أمير المؤمنين ، فكيف حالى ؟ وفيما هو كذلك ، خــرج عمر .. ولمــا رآه ، قال له : ما حاجتك يا أخا العرب ؟ فقال الأعرابى : يا أمير المؤمنين .. جئت اليك أشكو خلق زوجتى ، واستطالتها على ، فرأيت عندك ما زهدنى ، اذ كان ما عندك أكثر مما عندى ، فهممت بالرجوع ،

وأنا أقول : اذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته ، فكيف حالى ؟ فتبسم عمر رضى الله عنه وقال : « يا أخا الاسلام .. انى احتملتها لحقوق لها على : انها طباخة لطعامى ، خبازة لخبزى ، مرضعة لأولادى ، غاسلة لثيابى ، وبقدر صبرى عليها يكون ثوابى » :

فمن هذا الكلام العمرى : نفهم أن الزوجة الصالحة بطبيعتها لابد وأن تكون عونا لزوجها لا حربا عليه .

ومن أجمل ما قرأت فى هـذا : ما أوصت به « أمامة بنت الحارث » ابنتها وهى تؤهلها لبيت الزوجية ، فقالت لها :

أى بنية .. ان الوصية لو تركت لعقل وأدب ، أو مكرمة فى حسب لتركت ذلك منك ، ولزويته عنك ، ولكن الوصية تذكرة للعاقل ، ومنبهة للغافل .

أى بنية ، انه لو استغنت المرأة بغنى أبويها وشدة حاجتهما اليها ، لكنت أغنى الناس عن الزوج ، ولكن للرجال خلق النساء ، كما لهن خلق الرجال .

أى بنيـــة .. انك قد فارقت الحواء الذى منه درجت ، الى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك ملكا ــ بكسر اللام ــ فكونى له أمة يكن لك عبدا ، واحفظى عنى خلالا عشرا ، تكن لك ذركا وذكرا :

فأما الأولى والثانية : فالمعاشرة له بالقناعة ، وحسن الســمع والطاعة ، فان القناعة راحة القلب ، وحسن السمع والطاعة رأفة الرب .

وأما الثالثة والرابعة : فلا تقع عيناه منك على قبيح ، ولا يشـــم أنفه منك الا طيب الريح . واعلمى ، أى بنية ، أن المـــاء أطيب الطيب المفقود ، وأن الكحل أحسن الحسن الموجود .

وأما الخامسة والسادسة : فالتعهد لوقت طعامه ، والهدوء عند منامه ، فان حرارة الجوع ملهبة ، وتنغيص النومة مغضبة .

وأما السابعة والثامنة : فالاحتفاظ بماله ، والرعاية على حشمه ــ ذى قرباه ــ وعياله ، فان الاحتفاظ بالمـــال من حسن التقدير ، والرعاية على الحشم والعيال من حسن التدبير .

وأما التاسعة والعاشرة : فلا تفشى له سرا ، ولا تعصى له أمرا ، فانك ان أفشيت سره لم تأمنى غدره ، وان عصيت أمره أوغرت صدره .

واتقى الفرح لديه ان كان ترحا[1] ، والاكتئاب عنده اذا كان فرحا ، فان الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير .

واعلمى أنك لن تصلى الى ذلك منه حتى تؤثرى هواه على هواك ، ورضاه على رضاك ، فيما أحببت وكرهت » :

وزوجة المرء عون يستعين بها
على الحياة ونور فى دياجيها
مسلاة فكرته ان بات فى كدر
مدت له لتواسيه أياديها
فى الحزن فرحته تحنو فتجعله
ينسى بذلك آلاما يعانيها
كم زوجة ذات عقل غير مسرفة
تدبر الدار تدبيرا ينجيها
تعامل الزوج فى أحوال عسرته
وفى اليسار بما فى النفس يشفيها
والزوج يدأب فى تحصيل عيشته
دأبا ويجهد منه النفس يشقيها
ان عاد للبيت يلقى ثغر زوجته
يفتر عما يسر النفس يحييها
هذى القرينة هذى من تحن لها
نفس الأبى ولكن أين نلفيها
وزوجها ملك والدار مملكة
والصفو والسعد يجرى فى نواحيها

* * *

هذا .. واذا كنا نطالب الزوجة الصالحة بأن تكون عونا لزوجها ، ومؤدية لشئون بيتها : فاننا نطالب الزوج الصالح بأن يكون كذلك عونا لها .. وحسبه ان فعل ذلك ان شاء الله تعالى أن يعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم — وهو أفضل خلق الله على الاطلاق — كان يتعاون مع أهل بيته فى بعض شئون البيت :

فقد سئلت عائشة رضى الله عنها : ما كان رسول الله — صلى الله

---

(١) أى كان حزينا .

عليـــه وسلم ــ يفعل فى بيته ؟ قالت : « كان يكون فى مهنة أهله ــ أى فى خدمتهم ــ فاذا حضرت الصلاة يتوضأ ويخرج الى الصلاة » رواه مســـلم .

* * *

وحسبه ان فعل ذلك كذلك أن يكون كهذا الحاكم المؤمن « سعيد ابن عامر » : الذى كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ــ فى عهده ــ قد ولاه على أهل حمص ..

ثم حدث بعد ذلك أن أرسل أمير المؤمنين عمر ، الى أهل حمص ، ليكتبوا له أسماء الفقراء لديهم ليعطيهم .. فكتبوا فى أول القائمة اسم حاكمهم « سعيد بن عامر » .. فتعجب عمر ، ثم ســـألهم عن سبب هـــذا ؟ فقالوا له : انه فقير ، لأنه ينفق ما لديه على المساكين ، ويقول لهم : ماذا أصنع وقد أصبحتم فى حســـابى ؟ لقد أضاعنى عمر . فقال عمر للوفد : والله ما أضعته ، ولكنه أجهدنا معه . وكيف هو معكم ؟ فقالوا : نعيب عليه أربع خلال :

لا يخرج الينا الا ضـــحى ، ولا نراه بالليل ، ويحتجب يوما فى الشهر ، ويصيبه اغماء بين حين وحين .

فعجب عمر وأعطاهم مالا حملوه اليه ليستعين به على حوائجه .. فوزعه على فقراء الجيش .. ثم أرسل له عمر وسأله عن الأربع خلال ، فأجاب :

يا أمير المؤمنين .. أما خروجى ضحى : فليس لى خادم ، وزوجتى مريضة ، فأنا أعمل لها عملها بعد الفجر حتى يضحى النهار .

وأما احتجابى بالليل : فانى جعلت النهار للناس والليل لله .

وأما اليـــوم الذى أحتجب فيه فى الشهر : فليس لى الا ثوب واحـــد أغسله فى هـــذا اليوم حتى يجف فألبسه .

وأما الاغماء ، فكلما تذكرت الشهيد خبيب بن عدى حين قتـــل وأنا يومئذ كافر وقد شهدت مقتله[1] .. ندمت أن لم أكن أســـلمت يومئذ حتى أدفع عنه السوء .

فكان عمر كلما تذكر « سعيدا » بكى وبكى وبكى .. فرحمه الله رحمة واسعة وأكثر الله من أمثاله حتى يعود للاسلام مجده التالد .

* * *

---

(١) وكان هذا قبل أن يدخل فى الاسلام .

فاذا كان الأخ الرجل سيعين زوجته .. فان هذا لن يكون عيبا فيه ، وانما هو التواضع فى أسمى معانيه :

وان شئت ، فقل هى المعاشرة الحسنة التى لابد وأن نتعلمها من المثل الأعلى صلوات الله وسلامه عليه الذى يقول :

« خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى » رواه ابن حبان فى صحيحه .

وقد ذكر الامام ابن القيم فى كتابه « زاد المعاد » ، تحت عنوان :

هديه صلى الله عليه وسلم فى معاشرة أهله

صح عنه من حديث أنس : « حبب الى من دنياكم : النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » :

واذا كان هذا قد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم كما قرأنا ، فان معناه : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب زوجاته أمهات المؤمنين ليكون قدوة لأصحابه فى حسن المعاشرة لزوجاتهم ، وذلك لأن بعضهم كان يحتقر المرأة ، وكان ينظر اليها على أنها سلعة ، أو على أنها جارية تباع وتشترى ، كأثر من آثار الجاهلية الذى يشير الله سبحانه وتعالى اليه فى قوله : « **واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم** .. »[1] الآية . فأراد النبى صلى الله عليه وسلم بقوله هذا ، أن يكون قدوة صالحة فى احترام الزوجة الصالحة ، فهو القائل صلوات الله وسلامه عليه : « الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة » .

ثم ان الاسلام لم يفرق بين الذكر وبين الأنثى فى نتائج الأعمال الصالحة .. قال تعالى : « **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** »[2] فليلاحظ الأخ المسلم هذا — اهـ .

وكان — صلى الله عليه وسلم — يطوف على نسائه فى الليلة الواحدة ، وكان يقسم بينهن فى المبيت والايواء والنفقة ، وأما المحبة : فكان يقول : « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما لا أملك » :

وطلق وراجع وآلى ايلاء مؤقتا بشهر ، ولم يظاهر أبدا .

وكان مع أزواجه حسن المعاشرة وحسن الخلق وكان يسرب الى عائشة بنات الأنصار يلعبن معها ، واذا هويت شيئا لا محذور فيه

---

(١) النحل : ٥٨ (٢) النحل : ٩٧

تابعها عليـــه ، واذا شربت من الاناء أخذه فوضع فمه فى موضع فمها وشرب ، وكان يتكىء فى حجرها ويقرأ القرآن ورأسه فى حجرها ، وربما كانت حائضا ، وكان يأمرها وهى حائض فتتزر ثم يباشرها ، وكان يقبلها وهو صائم ، ويريها الحبشة وهم يلعبون فى مسجده وهى متكئة على منكبيه تنظر ، وسابقها فى السفر على الأقدام مرتين ، وتدافعا فى خروجهما من المنزل .

وكان اذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه — أى أخذها معه فى سفره — وكان يقول : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى » .

وكان ربما مد يده الى بعض نسائه فى حضرة باقيهن ، وكان اذا صلى العصر دار على نسائه فدنا منهن واستقرأ أحوالهن ، فاذا جاء الليل انقلب الى بيت صاحبة النوبة فخصها بالليل . قالت عائشة : كان لا يفضل بعضنا على بعض فى مكثه عندهن فى القسم ، وكان يقسم لثمان منهن دون التاسعة ، وهى « سودة » لمـــا كبرت وهبت نوبتها لعائشة ، وكان صلى الله عليه وسلم يقسم لعائشة يومها ويوم « سودة » .

وكان يأتى أهله آخر الليل وأوله ، واذا جامع أول الليل ، فربما اغتسل ونام وربما توضأ ونام . وكان يطوف على نسائه بغسل واحد ، وربما اغتسل عند كل واحدة .

وكان اذا سافر وقدم لم يطرق أهله ليلا وينهى عن ذلك .. اه .

* * *

فعلى الزوجين الصالحين أن يلاحظا هذا وينفذاه : حتى يدوم الحب والتعاون والتراحم والتعاطف .. بل والسكن بينهما .. كما يشير الى هذا قول الله تبارك وتعالى :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة .. »[1] .

* * *

وأن يلاحظا كذلك أنه لا مانع شرعا من وجود الخادم أو الخادمة فى المنزل ما دام هناك اليسر — الموافق لهذا — على أساس من الاحتياطات والتحفظات اللازمة شرعا ، والتى منها ، بل من أهمها : ما أشارت اليه الآية الكريمة :

---

(١) الروم : ٢١

« قل للمؤمنين يغضـــوا من أبصـــارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، ان الله خبير بما يصـــنعون • وقل للمؤمنات يغضضن من أبصـــارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهـــر منهـــا ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهـــن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبنـــاء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن أو نســـائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجـــال أو الطفل الذين لم يظهـــروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعـــلم ما يخفين من زينتهن »[1] •

ففى الآية ٣١ ــ كما قرأت ــ ، وفى قوله تعـــالى : **« ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن •• »** الـــخ : توجيه يتضمن نهى النساء المؤمنـــات عن كشف الزينـــة الخفيـــة ــ كزينة الأذن والشعر والعنق والصدر والساق ــ أمام الرجال الأجانب الذين رخص لها أمامهم فى ابداء الوجه والكفين **« ما ظهر منهـــا »** •

وقد استثنى من هـــذا النهى اثنا عشر صنفا من الناس ، وهم على الترتيب :

١ ــ بعولتهن : أى أزواجهن ، فللرجل أن يرى من زوجته ما يشاء ، وكذلك المرأة • وفى الحديث : « احفظ عورتك الا من زوجتك » •

٢ ــ آباؤهن : ويدخل فيهم الأجداد من قبل الأب والأم •

٣ ــ آباء أزواجهن : فقد أصبح لهم حكم الآباء بالنسبة اليهن •

٤ ــ أبناؤهن : ومثلهم أبناء ذريتهم من الذكور والاناث •

٥ ــ آبنـــاء أزواجهن : لضرورة الاختلاط الحاصل ، ولأنها بمنزلة أمهم فى البيت[2] •

٦ ــ اخوانهن : سواء أكانوا أشقاء أو من الأب أو من الأم •

٧ ــ بنو اخوانهن : لمـــا بين الرجل وعمته من حرمة أبدية •

٨ ــ بنو أخواتهن : لمـــا بين الرجل وخالته من حرمة أبدية •

٩ ــ نساؤهن : أى النساء المتصلات بهن نسبا أو دينا • أما

---

(١) النور : ٣٠ ، ٣١

(٢) قال القرطبى : سوى بين المحارم فى ابداء الزينة ، ولكن تختلف مراتبهم بحسب ما فى نفوس البشر ، وتختلف مراتب ما يبدى لهم ، فيبدى للأب ما لا يجوز ابداؤه لوالد الزوج •

المرأة غير المسلمة فلا يجوز لها أن ترى من زينة المسلمة الا ما يراه الرجل ــ على الصحيح ــ .

١٠ ــ ما ملكت أيمانهن : أى عبيدهن وجواريهن لأن الاسلام جعلهم كأعضاء فى الأسرة . وخصه بعض الأئمة بالاماء دون الذكور .

١١ ــ التابعون غير أولى الاربة من الرجال : وهم الأجراء والأتباع الذين لا شهوة لهم فى النساء لسبب بدنى أو عقلى . المهم أن يتوافر هذان الوصفان : التبعية للبيت الذى يدخلون على نسائه ، وفقدان الشهوة الجنسية .

١٢ ــ الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء : وهم الصغار الذين لم يثر فى أنفسهم الشعور الجنسى ، فاذا لوحظ عليهم ظهور هذا الشعور لم يبح للمرأة أن تبدى أمامهم زينتها الخفية ــ وان كانوا دون البلوغ ــ . ولم تذكر الآية الأعمام والأخوال : لأنهم بمنزلة الآباء عرفا . وفى الحديث : « عم الرجل صنو أبيه » رواه مسلم .

* * *

وبعد ذلك يقول صاحب كتاب « الحلال والحرام فى الاسلام »[1] ، معلقا تحت عنوان :

عورة النساء

ومما تقدم نعلم أن كل ما لا يجوز للمرأة ابداؤه من جسدها : فهو عورة يجب سترها ، ويحرم كشفها .

فعورتها بالنسبة للرجال الأجانب عنها ، وكذلك النساء غير المسلمات : جميع بدنها ما عدا الوجه والكفين ، على ما اخترناه ، اذ أبيح كشفهما ــ كما قال الرازى ــ للحاجة فى المعاملة والأخذ والعطاء ، فأمرن بستر ما لا تؤدى الضرورة الى كشفه ، ورخص لهن فى كشف ما اعتيد كشفه ، وأدت الضرورة الى اظهاره ، اذ كانت شرائع الاسلام حنيفية سمحة . قال الرازى : ولما كان ظهور الوجه والكفين كالضرورى ، لا جرم اتفقوا على أنهما ليسا بعورة . أما القدم : فليس ظهورها بضرورى ، فلا جرم اختلفوا ، هل هى عورة أم لا ؟ (تفسير الفخر الرازى ج ٢٣ ص ٢٠٥ ــ ٢٠٦) .

وعورتها بالنسبة للأصناف الاثنى عشر المذكورين فى آية النور تتحدد فيما عدا مواضع الزينة الباطنة من مثل الأذن والعنق والشعر

---

(١) وهو الدكتور يوسف القرضاوى ــ أكرمه الله .

والصدر والذراعين والساقين ، فان ابداء هذه الزينة لهؤلاء الأصناف قد أباحته الآية .

وما عدا ذلك من مثل الظهر والبطن والسوأتين والفخذين ، فلا يجوز ابداؤه لامرأة أو لرجل الا للزوج .

وهذا الذى يفهم من الآية أقرب مما ذهب اليه بعض الأئمة ، أن عورة المرأة بالنظر الى المحارم ما بين السرة والركبة فقط . وكذلك عورتها بالنسبة الى المرأة ، بل الذى تدل عليه الآية أدنى الى ما قاله بعض العلماء : ان عورتها للمحرم ما لا يبدو منها عند المهنة . فما كان يبدو منها عند عملها فى البيت عادة فللمحارم أن ينظروا اليه .

ولهذا أمر الله نساء المؤمنين أن يستترن عند خروجهن بجلباب سابغ كانس ، يتميزن به عمن سواهن من الكافرات والفاجرات ، وفى هذا أمر الله نبيه أن يؤذن فى الأمة بهذا البلاغ الالهى العام :

« يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين »[1] .

والجلابيب : جمع جلباب ، وهو ثوب واسع كالملاءة تستتر به المرأة .

وكان بعض نساء الجاهلية اذا خرجن من بيوتهن كشفن عن بعض محاسنهن ، من مثل النحر والعنق والشعر ، فيتبعهن الفساق والعابثون : فنزلت الآية الكريمة تأمر المرأة المؤمنة بارخاء بعض جلبابها عليها ، حتى لا ينكشف شىء من تلك المفاتن من جسدها ، وبهذا يعرف من مظهرها أنها عفيفة مؤمنة ، فلا يتعرض لها ماجن أو منافق بايذاء ..

* * *

فعلى الزوجين الصالحين أن يلاحظا هذا ، حتى ينفذا أمر الله تعالى على أساس من المعرفة والشرع القويم .

مع ملاحظة : أنه اذا لم يكن الخادم أو الخادمة من العبيد والجوارى ، أو من التابعين غير أولى الاربة من الرجال ، أو من الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء .. الخ : فانه لا يجوز أن ينظر الخادم الى الزينة الخفية . فضلا عن الخلوة بها ، أو النظر الى

---

(١) الأحزاب : ٥٩

ما هو أكبر من هـذا .. وكذلك لا يجوز للزوج أن يخـلو بخادمة تشتهى[١] .. لأن هـذا منهى عنه شرعا :

فعن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن رسول الله صـلى الله عليـه وسلم ، قال : « اياكم والدخول على النساء ، فقال رجل من الأنصار : أفرأيت الحم ؟ قال : الحم الموت » رواه البخارى ومسلم .

والحم : قريب الزوج كأبيه وأخيه وعمه ، فاذا كان قريب الزوج موتا وهلاكا للمرأة فكيف بالأجنبى عنها .

وعن ابن عباس رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، قال : « لا يخلون أحدكم بامرأة الا مع ذى محـرم » رواه البخارى ومسلم .

وعن معقل بن يسار رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : « لأن يطعن فى رأس أحدكم بمخيط[٢] من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحـل له » . رواه الطبرانى والبيهقى ورجاله رجال الصحيح .

* * *

وأيضا أحب أن أذكر الزوجين الصالحين ببعض الأحاديث الصحيحة المتعلقة بالخـادم ذكرا كان أم أنثى حتى يلاحظـاها فى تعـاملهما مع هذا الخادم الذى أرجو أن يعامل معاملة حسنة ترضى الله ورسوله :

فقد قرأت فى : « الأدب المفرد ــ للبخارى » ، ما نصه :

حدثنا محمد بن سلام ، قال : أخبرنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن ابراهيم التيمى ، عن أبيه ، عن أبى مسعود ، قال : كنت أضرب غلاما لى فسمعت من خلفى صوتا[٣] : « اعلم أبا مسـعود ..لله[٤] أقدر منك عليه » فالتفت فاذا هو رسول الله صـلى الله عليه وسلم . قلت : يا رسول الله .. فهو حر لوجه الله ، فقال : « أما انه لو لم تفعـل لمستك النار » أو « للفحتك النار » .

---

(١) وقد يحدث هذا كثيرا أثنـاء غياب الزوجة عن بيتهـا ووجود الزوج وحده فيه مع وجود الخادمة .. التى قد تكون هى الأخرى عرضة لهذا الابتلاء ..

(٢) المخيط بكسر الميم وفتح الياء : ما يخاط به كالابرة والمسلة .

(٣) لم يعرف الصوت لأجل الغضب أو لاشتغاله بالضرب .

(٤) لله بفتح اللام : لام التوكيد : أى أن قدرة الله عليك أعظم من قدرتك عليه .

وحدثنا خالد بن مخلد ، قال : حدثنا سليمان بن بلال ، قال : حدثنى محمد بن عجلان ، قال : أخبرنى أبى سعيد ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « اذا ضرب أحدكم خادمه ، فليجتنب الوجه » .

وحدثنا محمد بن يوسف وقبيصة ، قال : حدثنا سفيان ، عن حبيب ابن أبى ثابت ، عن ميمون بن أبى شبيب ، عن عمار بن ياسر ، قال : لا يضرب أحد عبدا له وهو ظالم له ، الا أقيد منه[١] يوم القيامة .

وحدثنا أبو عمر حفص بن عمر ، قال : حدثنا شعبة قال : حدثنى أبو جعفر ، قال : سمعت أبا ليلى ، قال : خرج سلمان فاذا علف دابته يتساقط من الآرى[٢] ، فقال لخادمه : لولا أنى أخاف القصاص[٣] لأوجعتك[٤] .

وحدثنا آدم ، قال : حدثنا شعبة ، قال : حدثنا واصل الأحدب ، قال : سمعت المعرور بن سويد ، يقول : رأيت أبا ذر وعليه حلة ، وعلى غلامه حلة . فسألناه عن ذلك ، فقال : انى سببت رجلا ، فشكانى الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم : « أعيرته[٥] بأمه ؟ قلت : نعم . ثم قال : ان اخوانكم[٦] خولكم[٧] . جعلهم الله تحت أيديكم . فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم[٨] ما يغلبهم[٩] ، فان كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم » .

ففى هذا الحديث : النهى عن سب الرقيق وتعييرهم ، والحث

---

(١) أقيد منه ، أى : أخذ منه القود .

(٢) الآرى بمد الهمزة وراء مكسورة وتشديد الياء : مربط الدواب أو معلفها .

(٣) القصاص : أى فى الآخرة .

(٤) أى ضربتك ضربا وجيعا .

(٥) قال له يا ابن السوداء .. وأعيرته بأمه : الاستفهام للتوبيخ .

(٦) قدم الأخوة لأنها هى الأصل من جهة آدم أو من جهة الاسلام أو من الجهتين ، والعبدية طارئة وهى فى معرض الزوال .

(٧) الخول جمع خولى وهو الراعى الحسن القيام على المال ..

(٨) كلفه الشىء اذا أمره بما يشق عليه .

(٩) أى الأعمال التى تصير قدرتهم فيها مغلوبة ، أو لا يطيق الدوام عليها .

على الأحسان اليهم والرفق بهم ، فاذا كان ذلك فى الرقيق فبالأولى الأجير وغيره ، وفيه ترك الترفع على المسلم والاحتقار له .

* * *

فليذكر الأخ المسلم هذا ، وليذكر كذلك ، قول أنس رضى الله عنه :

خدمت النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنين . والله ما قال لى : أف قط ، ولا قال لشىء لم فعلت كذا ؟ وهلا فعلت كذا ؟ . رواه مسلم .

* * *

هذا .. واذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد أوصى ابنته الزهراء رضى الله عنها فى نهاية الوصية بقوله : « واذا أخذت مضجعك : فسبحى ثلاثا وثلاثين ، واحمدى ثلاثا وثلاثين ، وكبرى أربعا وثلاثين ، فتلك مائة » : ثم قال بعد ذلك : « فهو خير لك من خادم » : ثم كان جواب الابنة المؤمنة البارة ، هو : رضيت عن الله ورسوله :

فان تعليقى على كل هذا اجمالا ، هو : أن النبى صلى الله عليه وسلم :

أولا : بعد أن أوصاها بتقوى الله ، وأداء فرائضه ، والقيام بشئون البيت : أراد أن ينبه ابنته الى خير يجب عليها أن تغتنمه ، وهو أن تختم يومها بخير .. وأن تنام على هذا الخير .. الذى هو التسبيح ، والتحميد ، والتكبير « مائة » .. ثم أخبرها بأن هذا : خير لها من خادم .. وهذا التحديد ، بكلمة « خادم » معناه أن النبى صلى الله عليه وسلم يريد أن يقول لها : ان ما أوصيتك به .. خير لك من الخادم الذى تطلبينه .. والا فان تسبيحة .. أو تهليلة .. أو تحميدة .. أو تكبيرة واحدة : خير من الدنيا وما فيها — كما علمنا قبل ذلك فى قصة سيدنا سليمان عليه السلام — .

وثانيا : اذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قد أوصاها ، بهذا قبل أن تنام ، وبعد أن قامت طوال اليوم بشئون بيتها : فانه بهذا كذلك قد أراد أن ينفض عنها متاعب اليوم بذكر الله تعالى الذى به تطمئن القلوب ، والذى بسببه سيذكرها الله تبارك وتعالى فى الملأ الأعلى ، وستكون فى حفظ الله تعالى ورعايته الى أن تستيقظ من نومها

على خير ان شاء الله تعالى ما دامت قد نامت على ذكره ، وشكره ، وحسن عبادته .

وثالثا : اذا كانت السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها — كما جاء فى نص الوصية — قد قالت للرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك : رضيت عن الله ورسوله :

فتلك اجابة طبيعية لها .. لأنها : من آل بيت النبوة ، وزوجة الصحابى البطل التقى النقى على كرم الله وجهه ، ووالدة سبطى الرسول صلى الله عليه وسلم الحسن والحسين .. وزينب البتول رضى الله عنهم أجمعين ، هذا بالاضافة الى أنها — كما هو معلوم عنها — من أوائل الحريصين على الفوز بثواب الله الذى لن يكون الا بالرضا عن الله ورسوله .

* * *

ثم اذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم بعد كل هذا ، لم يخدمها — أى لم يعطها خادما — كما جاء فى نص الرواية الزائدة :

فقد قرأت فى ذلك سببا من أهم الأسباب الذى أرى أنه من الخير كذلك أن تقف عليه :

وهو أن فاطمة رضى الله عنها ، عندما ذهبت الى أبيها صلوات الله وسلامه عليه .. تقول له : ألا ترى أثر الرحى بيدى ؟ .. كانت قد علمت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد أتى بثلاثة من السبى فأعطى .. وبقى واحد .. فطلبته منه لتستعين به على مهام أمورها ، وتتعاون معه فى تدبير بيتها .. فنظر الرسول صلى الله عليه وسلم اليها نظرة تحمل كل معانى الرحمة والشفقة .. ولكن ماذا يفعل .. لقد تذكر وعدا كان قد وعده لأبى الهيثم بن التيهان ، وهو أن يعطيه خادما .. ولهذا جعل يقول لها : « كيف وعدى لأبى الهيثم » .. وفعلا آثره بالخادم برا بقوله ، ووفاءا بوعده ، مع معرفته بشدة حاجة ابنته اليه . فقد رأى — كما علمنا — أثر الرحى بيدها الكريمة .. « فما أكرمك يا رسول الله ؟ .. انه الايثار بلغ المرتبة العليا ، وجاوز موطن الثريا . وفاق بر الأولين والآخرين » :

بل انه الدرس الكبير الذى لابد أن نتعلمه من أستاذ البشرية جمعاء .. حتى لا نؤثر أولادنا على مصالح الآخرين ما دمنا قد التزمنا بها ، وأخذنا عهدا على أنفسنا بانجازها والوفاء بها .. حتى نلقن أبناءنا

من خلال ذلك درسا ايجابيا ينفعهم في حياتهم ، حتى يكونوا كذلك من الأوفيـــاء .

لأنه كما يقول الشاعر :

وينشأ ناشيء الفتيـــان منا على ما كان عـــوده أبـــوه

وعندما سنعود أبناءنا على الوفاء وحب الخير بصفة عامة : فاننا بهذا سنؤكد حبنا لهم ، وحرصنا عليهم .. والله ولي التوفيق .

* * *

الجزء السابع عشر

الوصية الثانية والخمسون

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قلت يا رسول الله •• انى اذا رأيتك طابت نفسى ، وقرت عينى : أنبئنى عن كل شىء • قال : « كل شىء خلق من المـاء » •

فقلت : أخبرنى بشىء اذا عملته دخلت الجنة •

قـال : **« أطعم الطعـام ، وأفش السلام ، وصـل الأرحام ، وصـل بالليـل والناس نيـام : تدخل الجنـة بسـلام » ••**

(رواه أحمد وابن أبى الدنيا فى كتاب التهجد ، وابن حبان فى صحيحه واللفظ له ، والحاكم وصححه) ،

* * *

فكن أخا الاسـلام :

متصورا معى هـذا المشهد الروحى العظيم الذى لابد وأن نتصوره ونستفيد به ونتعلم منه الحب الصادق : كأحباب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو مشهد أبى هريرة رضى الله عنه ، وهو يقف بين يدى أستاذه وحبيبه ومثله الأعلى صلوات الله وسلامه عليـه قائلا له : يا رسـول الله •• انى اذا رأيتك طابت نفسى ـ أى : رضيت واطمأنت واستراحت لرؤيتك ـ ، وقرت عينى ـ أى شعرت بالبرودة[1] •

ان مشهدا كهذا ـ كما قلت ـ لابد وأن نتخيل أبعاده ، حتى نعرف كيف كان أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم يحبونه •• لدرجة أن أحدهم وهو أبو بكر الصديق رضى الله عنه كان يقول معبرا عن هـذا الحب المنقطع النظير :

---

(١) قال فى مختار الصحاح : « قرت » عينه تقر بكسر القاف وفتحها ضد سخنت .. فللسرور دمعة باردة .. بعكس الحزن •

مرض الحبيب فعدته فمرضت من أسفى عليه
شفى الحبيب فزارنى فشفيت من نظرى اليه

وكان النبى صلى الله عليه وسلم — كما يشير الصديق فى هذين البيتين — قد مرض ، فلما زاره الصديق مرض هو الآخر من شدة حزنه عليه صلى الله عليه وسلم ، ثم عندما شفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب لزيارة أبى بكر ، فلما رآه الصديق فرح بشفائه وشفى هو الآخر .

وكان أبو هريرة رضى الله عنه كذلك :

ففى يوم رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم الدرة ليضربه بها ، فقال أبو هريرة : « لأن يكون ضربنى بها أحب الى من حمر النعم ، ذلك بأنى أرجو أن أكون مؤمنا ، وأن يستجاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته »[١] .

وبينما كان المسلمون يحملون اللبن[٢] ، الى بناء المسجد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم معهم ، رآه أبو هريرة وهو عارض لبنة على بطنه ، فظن أنها شقت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستقبله ، قائلا : ناولنيها يا رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : « خذ غيرها يا أبا هريرة ، فانه لا عيش الا عيش الآخرة »[٣] .

وكان يحب من أحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد لقى أبو هريرة الحسن بن على رضى الله عنهما ، فقال له : أرنى أقبل منك حيث رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل ، فرفع القميص ، وقبل سرته[٤] .

وقد كان أبو هريرة يشعر بالسعادة تخالط نفسه ، وبالايمان يملأ قلبه لملازمته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان كثيرا ما يشكر الله تعالى على هذه النعمة ، فيقول : « الحمد لله الذى هدى أبا هريرة

---

(١) البداية والنهاية : ٨ / ١٠٥ (٢) أى طوب اللبن .
(٣) مجمع الزوائد ص ٩ ج ٢ ، ورواه الامام أحمد ، ورجاله رجال الصحيح .
(٤) مسند الامام أحمد ١٣ / ١٩٥ رقم ٧٤٥٥ وفيه : « فقال بالقميصة : يعنى رفع القميصة » .

للاسلام ، الحمد لله الذي علم أبا هريرة القرآن ، الحمد لله الذى من على أبى هريرة بمحمد صلى الله عليه وسلم »[١] .

وكان أبو هريرة ، يقول : ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأن الشمس تجرى فى وجهه[٢] :

وكان يصرح بهذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويؤكد له سروره وفرحه بحضور مجالسه صلى الله عليه وسلم :

كما جاء فى نص هذا الحديث العظيم الذى ندور حوله ، وهو :

« قلت : يا رسول الله .. انى اذا رأيتك طابت نفسى ، وقرت عينى ، فأنبئنى عن كل شيء ؟ فقال : كل شيء خلق من الماء ، فقلت : أخبرنى بشيء اذا عملته دخلت الجنة ، قال : أطعم الطعام ، وأفش السلام ، وصل الأرحام ، وصل بالليل والناس نيام : تدخل الجنة بسلام » .

* * *

ففى هذا الحديث أجاب الرسول صلى الله عليه وسلم على سؤال وجهه اليه أبو هريرة ، وهو : أنبئنى عن كل شيء ؟ فكان الجواب هو : « كل شيء خلق من الماء » :

والى هذا يشير الله سبحانه وتعالى فى قوله : **« وجعلنا من الماء كل شيء حي »**[٣] .

وقد أشار القرطبى فى تفسيره لهذه الآية الى ثلاث تأويلات :

أحدها : أنه خلق كل شيء من الماء ، قاله قتادة .

الثانى : حفظ حياة كل شيء بالماء .

الثالث : وجعلنا من ماء الصلب كل شيء حى ، قاله قطرب .

« وجعلنا » بمعنى : خلقنا .

ثم ذكر القرطبى بعد ذلك الحديث الذى ندور حوله مستدلا به على تأكيد هذا المعنى المشار اليه فى الآية ، وهو : « كل شيء خلق من الماء » ..

وقيل : ــ كما ذكر أيضا ــ الكل قد يذكر بمعنى البعض كقوله : **« .. وأوتيت من كل شيء .. »**[٤] .

---

(١) تاريخ ابن عساكر ص ٥١١ ج ٤٧

(٢) أخرجه الترمذى فى المناقب .

(٣) الأنبياء : ٣٠ (٤) النمل : ٢٣

ولكى نفهم المراد من هـذه الآية .. لابد وأن نقرأ أولها ، وهو : **« أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من المـاء كل شيء حى ، أفلا يؤمنون »**(١) .

والخلاصة ، هى ما أشار اليه القرطبى فى قول ثالث ، قاله عكرمة وعطية وابن زيد وابن عباس أيضا فيما ذكر المهدوى :

ان السموات كانت رتقا لا تمطر ، والأرض كانت رتقا لا تنبت ، ففتق — سبحانه — السماء بالمطر ، والأرض بالنبات ، نظيره قوله عز وجـل : **« والسماء ذات الرجع . والأرض ذات الصدع »**(٢) . واختار هذا القول الطبرى ، لأن بعده : **« وجعلنـا من المـاء كل شيء حى ، أفلا يؤمنون »** . ثم يقـول القرطبى : قلت : وبه يقع الاعتبار مشاهدة ومعاينة ، ولذلك أخبر بذلك فى غير ما آية ، ليدل على كمـال قدرته ، وعلى البعث والجزاء . وقيل :

يهـون عليهم اذا يغضـبو ن سخط العـداة وارغامها
ورتق الفتوق وفتـق الرتو ق ونقض الأمور وابرامهـا

* * *

وعلى هـذا ، فاننا نستطيع من خلال تلك الاجابة الوقوف على قدرة الخالق سبحانه وتعالى وسر عظمته فى هـذا المـاء الذى جعل منه — سبحانه — كل شيء حى .

وحسب الانسان بالذات اذا أراد تأكيدا لهذا ، أن يذكر أنه خلق من المـاء ، كما يشير الى هـذا ، قول الله تعالى :

« فلينظر الانسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب »(٣) .

وحسبه أن يعلم كذلك أنه لولا المـاء لمـا كان هناك نبات .. كما يشير الى هذا قوله تعـالى :

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ، ان الله لطيف خبير »(٤) .

وقولـه : **« الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السـماء مـاء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسـخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهـار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ،**

---

(١) الأنبياء : ٣٠ (٢) الطارق : ١١ ، ١٢
(٣) الطارق : ٥ — ٧ (٤) الحج : ٦٣

وسخر لكم الليل والنهار ٠ وآتاكم من كل ما سألتموه ، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، ان الانسان لظلوم كفار »[1] .

* * *

ولهـذا ٠٠ فاننى أرى وباختصار أن نقرأ قصيدة للأستاذ الفاضل الشيخ الصاوى على شعلان رحمه الله تعالى ، تحت عنوان :

من دلائل قدرة الله

نشر الصـبح على الدنيـا سـناه
وسقى الروض رحيقـا من نـداه
واكتسى الروض من النـور حـلاه
النـدى من فيض من ؟ ! والضحى من نـور من ؟ !

□ □

أقبلت فى بسـمة الفجر الطيـور
تسكب الألحان عطـرا فى الزهـور
تصـنع العش وتسـعى فى البكور
عيشـها فى رزق من ؟ ! وهى أيضا صـنع من ؟ !

□ □

حـوت الأرض أفانـين الشـجر
بين ألـوان وطـول وقصـر
وغصـون مورقـات وثمـر
منبت الأشـجار من ؟ ! راسـم الألـوان من ؟ !

□ □

وترى الشـمس عروس المشرق
وجمـال البـدر عنـد الأفـق
سـابحا فى الطيلسـان الأزرق
الدرارى صـنع من ؟ ! والسـموات لمـن ؟ !

□ □

---

(١) ابراهيم : ٣٢ ــ ٣٤

داعب النحـــل من الزهر شـــذاه
وأحـــال الورد شـــــهدا فى رباه
وبنـــت هندســـــة النمـــــل قـــراه
مرشـــد النحـــــلة من ؟ ! ملهـــم النملـــــة من ؟ !

□ □

الجنـــين استقبل الرزق الجـــديد
وتوالى وهو فى المهـــد الســـعيد
قبـــل أن تنبت أســـــنان الوليـــد
أطعمتـــــه يـــد من ؟ ! صـــــــورته يـــد من ؟ !

□ □

لم يا مخلوق آثرت الجحـــــود ؟ !
كنت معدوما فمن أين الوجود ؟ !
أهى الصـــــدفة أم رب ودود
قبـــله فى الكـــون من ؟ ! بعـــده فى المـــلك من ؟ !

□ □

لو تناهيتـــم الى ســـر الحيـــاة
وصـــــنعتم كائنـــا حيـــا نـــراه
لـــم نزد الا يقينـــا بالالـــــه

* * *

بل وحسب الأخ المسلم كذلك أن يقرأ هـــذا الحديث :

عن أبى موسى عن النبى صلى الله عليـــه وسلم ، قال : « مثـــل ما بعثنى الله به من الهدى[١] والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضـــا فكان منها نقيـــة[٢] قبلت المـــاء فأنبتت الكلأ[٣] والعشب[٤] الكثير وكانت منها[٥] أجادب أمسكت المـــاءفنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها[٦] طائفة أخرى ، انما هى قيعان[٧] لا تمســـك

---

(١) بيان لمـــا بعثنى وهو الشريعة .
(٢) أى أرض طيبة .
(٣) النبات رطبا ويابسا .
(٤) أى النبات الرطب .
(٥) من الأرض أجادب : جمع جدب كحدب وهى البقعة التى لا تشرب ماء ولا تنبت نباتا .
(٦) أى الأرض .
(٧) جمع قاع وهو الأرض المستوية .

ماء ولا تنبت كلأ فذلك[١] مثل من فقه[٢] فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا[٣] ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به »[٤] رواه الشيخان .

ففى هـذا الحديث تشبيه للعلم بالمطر بجامع أن كلا منهما فيـه حياة ، ففى العلم حياة القلوب والأرواح ، وبالمـاء حياة الأراضى والنفوس ، وقد شبه الناس بالأرض .. لأن بعضها طيب يصيبه المطر فيفيض على الناس أنواع النبات والزروع ومن كل الثمرات ، وبعض الأرض يمسك المـاء فينتفع به العباد شربا وسقيا ، ومن الأرض بقـاع لا خير فيها فلا تنبت شيئا ولا تمسك ماء ، والناس كذلك ، فمنهم من تعلم العلم فعمل به ونفع العباد ، ومنهم من ليس كذلك .. والمراد به حث العلماء على أن يكونوا كالأرض الطيبة فينفعوا الناس فيحبهم الله ، فأحب العباد الى الله أنفعهم لعباده .. اهـ[٥] .

* * *

فلتكن أخا الاسلام كالمـاء الذى خلق الله تعالى منه كل شىء حى .

وذلك بطلب العلم النافع .. لأن العلم هو الحياة الحقيقية .. ولأن العلمـاء هم الأحياء الحقيقيون .

والى هذا يشير الشاعر فى قوله :

النـــاس موتـى وأهـل العلم أحيـاء

* * *

ولتكن كذلك كالأرض الطيبة التى انتفعت بالمـاء الطيب .. حتى تكون حياة للقلوب والأرواح بما أوتيت من علم نافع :

فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليـه وسلم ، قال : « من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » رواه مسلم وأبو داوود والترمذى .

---

(١) أى التقسيم أقسام الأرض .

(٢) بضم ثانيه صار فقيها . (٣) لتكبره وعدم التفاته اليه .

(٤) هو الشريعة لم ينتفع بها الا بالاسلام ، أو المراد لم يدخل فى الدين ، فالحديث شبه العلم بالمطر .

(٥) تعليق على الحديث بتصرف من التاج الجامع للأصول .

وعن أبى أمامة الباهلى ، قال : ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان : أحدهما عابد ، والآخر عالم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم » . ثم قال صلى الله عليه وسلم : « ان الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير »[١] :

كمعلم القرآن ، والحديث والفقه ، ومن يرشد الناس الى طاعة الله ، ولا رتبة أعلى من رتبة من يرحمه الله وتدعو له العباد .

وعن عثمان عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء »[٢] .

وقد أعجبنى تعليق على هذا الحديث الأخير فى « التاج الجامع للأصول » ، جاء فيه ما نصه :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل للعلماء يوم القيامة اذا قعد على كرسيه لفصل عباده : انى لم أجعل علمى وحلمى فيكم الا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان فيكم ولا أبالى »[٣] وفى رواية :

« يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يميز العلماء فيقول : يا معشر العلماء انى لم أضع علمى فيكم لأعذبكم ، اذهبوا فقد غفرت لكم »[٤] .

وفى رواية : « أفضل العبادة الفقه ، وأفضل الدين الورع »[٥] .

وهو أخذ الحلال الخالص وترك ما فيه شبهة .

وفى رواية : « اذا جاء الموت لطالب العلم وهو على هذه الحالة : مات وهو شهيد »[٦] .

وفى أخرى : « من جاءه أجله وهو يطلب العلم لم يكن بينه وبين النبيين الا درجة النبوة »[٧] .

وفى رواية : « ان مثل العلماء فى الأرض كمثل النجوم يهتدى بها

---

(١) رواه الترمذى .
(٢) رواه ابن ماجه بسند حسن .
(٣) رواه الطبرانى .
(٤) رواه الطبرانى .
(٥) رواه الطبرانى .
(٦) رواه الطبرانى .
(٧) رواه الطبرانى .

فى ظلمات البر والبحر ، فاذا انطمست النجـوم أوشك أن تضـل الهـداة »[١] .

وفى رواية : « يبعث العـالم والعابد ، فيقال للعابد :ادخل الجنة ، ويقال للعـالم : اثبت حتى تشفع للناس بما أحسنت أدبهم »[٢] .

ثم يقول : وقد اختلف العقل والعلم ، فقال العقل : أنا أفضل لأن الله عرف بى ، وقال العلم : أنا أفضل لأن الله اتصف بى فى الكتاب .. فوافقه العقل واعترف له بالفضل . ونظم بعضهم ذلك فقال :

عـلم العليـم وعقل العاقل اختلفا
من ذا الذى منهما قد أحرز الشرفا
فالعـلم قال أنا أحـرزت غايتـه
والعقـل قال أنا الرحمن بى عرفا
فأفصـح العـلم افصاحا وقال له
بأينـا الله فى قرآنـه اتصـفا
فبان للعقـل أن العـلم سـيده
فقبل العقل رأس العـلم وانصرفا

* * *

ثم بعد ذلك يتحدث عن حكم تعلم العلم ، فيقول :

اعلم وفقنى الله واياك : أن العلم فرض عين على كل مكلف لقوله تعـالى : **« فاعلم أنه لا اله الا الله »**[٣] :

أى اعتقد أنه لا معبود بحق الا الله ، واعرف أسماءه وصفاته التى وردت فى الكتاب والسنة ، وهذا كاف فى أصل المعرفة ، وأما كمالها فلابد فيه من الدليل العقلى لأنه هو الذى يفيد المعرفة اليقينية الثابتة ، وبسط ذلك فى علم التوحيد ، ولقوله تعالى : **« .. فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفـة ليتفقهوا فى الدين ولينـذروا قومهم اذا رجعـوا اليهم لعـلهم يحـذرون »**[٤] .

ولقول رسول الله صلى الله عليـه وسلم : « طلب العلم فريضـة على كل مسلم ، وواضع العلم عند غير أهـله : كمقلد الخنازير الجوهر والؤلؤ والذهب » .

---

(١) رواه الامام احمد .
(٢) رواه البيهقى .
(٣) محمـد : ١٩
(٤) التوبة : ١٢٢

ولقوله صلى الله عليه وسلم : « تعلموا العلم ، وتعلموا للعلم السكينة والوقار ، وتواضعوا لمن تعلمون منه » .

* * *

وتذكر فى نهاية هذا العنصر الحيوى الهام ، قول على كرم الله وجهه :

« من أمضى يومه فى غير حق قضاه ، أو فرض أداه ، أو مجد بناه ، أو حمد حصله ، أو علم اقتبسه : فقد عق يومه وظلم نفسه » .

* * *

هذا .. واذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد أنبأ أبا هريرة بكل شىء — كما عرفنا — :

فقد أخبره بعد ذلك — كما طلب منه كذلك — بالعمل الذى ان عمله دخل الجنة ، وهو ، كما جاء فى نص الوصية :

اطعام الطعام

وهو خصلة من خصال المؤمنين الصادقين ، بل هو حق من حقوق الزائر على أخيه المؤمن :

فعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما ، قال : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ألم أخبر أنك تقوم الليل ، وتصوم النهار ؟ [1] قلت : بلى . قال : فلا تفعل ، قم ونم وصم وأفطر[2] ، فان لجسدك عليك حقا[3] ، وان لعينك حقا[4] ، وان لزورك عليك حقا ، وان لزوجك عليك حقا »[5] .. الحديث رواه البخارى واللفظ له ، ومسلم وغيرهما .

وقوله : « وان لزورك عليك حقا » :

أى : وان لزوارك وأضيافك عليك حقا ، يقال للزائر : زور بفتح الزاى سواء فيه الواحد والجمع .

---

(١) وهذا استفهام فيه رائحة الانكار على عبد الله بن عمرو فيما جنح اليه من الغلو .

(٢) اى لا تدوم على القيام والصيام ، بل قم بعض الليل ونم بعضه .

(٣) فلا يجوز أن تعذبه وتشق عليه بادامة السهر والجوع .

(٤) فأعطهما حقهما من النوم والهجوع فان مداومة السهر تصيبهما بالضعف والكلال .

(٥) ولاشك أن مداومة السهر والجوع تضعف الانسان عن القيام بحق زوجته فى الاتصال الجنسى وهو حق لها عليه .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » رواه البخارى ومسلم .

* * *

ولقد كان سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام يسمى : « أبو الضيفان » . وقد قرأت أنه سئل : لم اختارك الله خليلا ؟ فقال : « لثلاث .. ما خيرت بين أمرين الا اخترت الذى لله على غيره ، الثانى : ما اهتممت بشىء ضمنه الله لى من أمر رزقى ، الثالث : ما تغديت ولا تعشيت الا مع الضيف » .

وحول هذا ، فقد قرأت : أن ابراهيم عليه السلام أول من أضاف الضيف ، وأول من ثرد الثريد ، وأطعم الطعام .

ويروى أن الله أوحى الى ابراهيم : يا ابراهيم .. انك لما سلمت مالك الى الضيفان ، وابنك الى القربان ، ونفسك الى النيران ، وقلبك الى الرحمن : اتخذناك خليلا .

ومن مواقف ابراهيم عليه السلام فى اكرام الضيف : أنه رأى ثلاثة رجال فى البرية ، فاستقبلهم ورحب بهم كما هى عادته ، فمالوا اليه ، فصنع لهم طعاما ، وذبح لهم عجلا سمينا وسواه على النار ، وقدمه اليهم حنيذا[1] قد أثرت فيه النار وجعلت لونه الحمرة . ودعاهم الى تناول طعامه ، فلم تمتد أيديهم اليه ، فارتاب فى أمرهم ، وأوجس فى نفسه خيفة منهم وخاطبهم فى ذلك « **قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط** »[2] ، فعلم أنهم ملائكة ، جاءوا لأمر خاص بنبى الله لوط وقومه .

* * *

ومن أجمل ما قرأت ، فى كرم سيدنا ابراهيم عليه السلام :

أن مجوسيا أراد طعاما من ابراهيم عليه السلام ، فقال له : ان آمنت بى أطعمتك .. فتركه المجوسى وانصرف ، حرصا على دينه .. فأوحى الله تعالى الى ابراهيم عليه السلام : لم لم تطعمه الا بتغيير

---

(١) قال فى مختار الصحاح : حنذ الشاة أى شواها وجعل فوقها حجارة محماة لتنضجها فهى حنيذ .

(٢) هود : ٧٠

دينه ، ونحن نطعمه سبعين عاما على كفره ، ماذا عليك لو أطعمته ليلة ؟ .. فأخذ ابراهيم يعدو خلفه ، ويدعوه للضيافة . فقال له المجوسى : لن أرجع معك الا بعد أن تخبرنى عن السبب فى اسراعك خلفى بعد أن رفضت اطعامى ؟ .. فأخبره سيدنا ابراهيم .. فانتظ المجوسى ثم ندم .. وهو يقول : يا سبحان الله ، أهكذا يعاملنى ربى ، وأنا أعبد سواه .. ثم تاب وآمن وصدق فى ايمانه .

* * *

ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم ، أقوى الناس ايمانا بالله : لذلك كان أسخاهم بمال الله ، وأعطفهم على المعوزين من عباد الله ، اذ كانت ثقته بما فى يد الله أشد من ثقته بما فى يده ، فلا بدع ان كانت كفه أجرى بالخير من الريح المرسلة :

فما عرف عنه صلى الله عليه وسلم أنه رد سائلا ، فان لم يجد وجدا — أى غنا — وعد ولم يرد ، وانتظر ما يفتح الله تعالى به .

وقد حمل اليه تسعون ألف درهم ، فوضعها على حصير ، ثم قام اليها فقسمها ، فما رد سائلا حتى فرغ منها .

وجاءه رجل فسأله ، فقال : « ما عندى شىء ولكن ابتع على ، فاذا جاء شىء قضيناه ، فقال عمر : يا رسول الله .. ما كلفك الله ما لا تقدر عليه ! فكره النبى صلى الله عليه وسلم ذلك ، فقال رجل : أنفق ولا تخش من ذى العرش اقلالا ، فتبسم النبى صلى الله عليه وسلم وظهر السرور فى وجهه » .

ولما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه ، الى شجرة فخطفت رداءه ، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « أعطونى ردائى ، لو كان لى عدد هذه العضاة نعما لقسمتها بينكم ، ثم لا تجدونى بخيلا ، ولا كذابا ، ولا جبانا » .

وقال صفوان بن أمية : « لقد أعطانى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطانى ، وانه لمن أبغض الناس الى ، فما برح يعطينى حتى انه لأحب الناس الى ، انى أشهد ما طابت بهذا الا نفس نبى »[1] .

---

(١) انما اعطاه النبى صلى الله عليه وسلم هذا العطاء الكثير ، لانه علم أن داءه لا يزول الا بهذا الدواء ، فعالجه به حتى برىء من داء الكفر وأسلم .

وجاء فى صحيح البخارى أنه صلى الله عليه وسلم أتى بمال من البحرين ، فقال : « أنثروه » ـ وكان أكثر مال أتى به اليه ـ فخرج صلى الله عليه وسلم الى المسجد ولم يلتفت اليه .. فلما قضى الصلاة جاء فجلس اليه ، فما كان يرى أحدا الا أعطاه ، وما قام عليه الصلاة والسلام وثم منها درهم[1] .

وأتته امرأة ببردة ، فقالت : يا رسول الله .. أكسوك هذه . فأخذها صلى الله عليه وسلم محتاجا اليها فلبسها ، فرآها عليه رجل من الصحابة ، فقال : يا رسول الله .. ما أحسن هذه !! فأكسنيها ، فقال : نعم ، فلما قام عليه الصلاة والسلام : لام الصحابة هذا السائل قائلين له : تعرف أن النبى صلى الله عليه وسلم محتاج اليها ، وأنه لا يسئل عن شىء فيمنعه ؟ .

وقد شكت اليه ابنته فاطمة رضى الله عنها ما تلقى من خدمة البيت ، وطلبت منه خادما يكفيها مؤونة البيت ، فأمرها صلى الله عليه وسلم أن تستعين بالتسبيح ، والتحميد ، وقال : « لا .. أعطيك وأدع أهل الصفة طوى بطونهم من الجوع » ؟

وجاء رجل اليه صلى الله عليه وسلم يسأله ، فقال : « سيرزقك الله . ثم جاء آخر ، ثم جاء آخر . فقال لهم : اجلسوا ، فجاء رجل بأربع أواق فأعطاها اياه : وقال : يا رسول الله .. ان هذه صدقة ، فدعا الأول فأعطاه أوقية ، ثم دعا الثانى فأعطاه أوقية ، ثم دعا الثالث فأعطاه أوقية ، وبقيت معه صلى الله عليه وسلم أوقية واحدة ، فعرض بها للقوم ، فما قام أحد . فلما كان الليل وضعها تحت رأسه ـ وفراشه عباءة ـ فجعل لا يأخذه النوم ، فيرجع فيصلى ، فقالت له عائشة رضوان الله عليها : يا رسول الله .. هل بك شىء ؟ قال : لا . قالت : فجاءك أمر من الله ؟ قال : لا . قالت : انك صنعت الليلة شيئا لم تكن تفعله ، فأخرجها ـ أى أخرج الأوقية الذهبية ـ وقال : هذه هى التى فعلت بى ما ترين . انى خشيت أن يحدث أمر من الله ولم أمضها » .

وكان جوده عليه الصلاة والسلام كله لله ، وفى ابتغاء مرضاة الله ، فانه كان يبذل المال تارة لفقير أو محتاج ، وتارة ينفقه فى سبيل الله ، وتارة يتألف به على من يقوى الاسلام باسلامهم .

---

(١) أى وهناك منها درهم .

وكان صلى الله عليه وسلم يكرم ضيفه : فقد روى « أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل بعض بيوته ، فدخل عليه أصحابه حتى اكتظ بهم المكان • فجاء جرير بن عبد الله البجلى ، فلم يجد محلا ، فجلس عند الباب ، فلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رداءه وألقاه اليه ، وقال له : اجلس على هـذا ، فأخذه جرير ووضعه على وجهه ، وجعل يقبله ويبكى ، ثم أعطاه للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقال له : ما كنت لأجلس على ثوبك ، أكرمك الله كما أكرمتنى • فنظر النبى صلى عليه وسلم يمينا وشمالا ، وقال : « اذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » •

وقال ابن الطفيل : « رأيت النبى صلى الله عليـه وسلم وأنا غلام ، اذ أقبلت امرأة حتى دنت منه ، فبسط لها رداءه ، فجلست عليـه ، فقلت : من هـذه ؟ قالوا : أمه التى أرضعته » •

ووفد وفد للنجاشى ، فقام النبى صلى الله عليه وسلم يخدمهم ، فقال له أصحابه : نكفيك ، فقال : « انهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وانى أحب أن أكافئهم » •

* * *

وعلى هذا ، فاننا نستطيع أن نقرر — على ضوء هذا الذى وقفنا عليه — ما أشار اليه الأستاذ الشيخ محمد الغزالى فى كتابه : « خلق المسلم » ، تحت عنوان :

الجود والكرم

ان الاسلام دين يقوم على البذل والانفاق ، ويضيع على الشح والامساك :

ولذلك حبب الى بنيه أن تكون نفوسهم سخية ، وأكفهم ندية ، ووصاهم بالمسارعة الى دواعى الاحسان ووجوه البر ، وأن يجعلوا تقديم الخير الى الناس شغلهم الدائم ، لا ينفكون عنه فى صباح أو مساء • قال تعالى : **« الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »**[1] •

وانه من الواجب على المسلم أن يقتصد فى مطالب نفسه حتى لا تستنفد ماله كله ، فان عليـه أن يشرك غيره فيما آتاه الله من فضله ، وأن يجعل فى ثروته متسعا يسعف به المنكوبين ويريح المتعبين •

---

(١) البقرة : ٢٧٤

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا ابن ادم .. انك ان تبذل الفضل خير لك ، وان تمسكه شر لك ، ولا تلام على كفاف . وابدأ بمن تعول ، واليد العليـا خير من اليد السفلى » رواه مسلم .

وقد أشار القرآن الى هذا المعنى حين قرن النهى عن التبذير بأمر الانفاق على القرابة والمساكين . فان المبذر متلاف سفيه ، يضيع فى شهواته الخاصة زبدة ماله . فماذا يبقى بعد للحقوق الواجبة والعون المفروض ؟؟

قال الله تعالى : **« وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا . ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا »**[1] .

ويمضى السياق فى الايصاء بالمحتاجين وصيانة وجوههم ، فيأمر المسلم بأن يرجيهم الخير ، وأن يرد بميسور من القول اذا كان لا يملك ايتاءهم ما يبتغون ، فيقول تعالى : **« واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا »**[2] .

وأن دعوة الاسلام الى الجود والانفاق مستفيضة مطردة ، وحربه على الكزازة والبخل موصولة متقدة :

ففى الحديث : « السخى قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد من النار . والبخيل بعيد من الله ، بعيد من الناس ، بعيد من الجنة ، قريب من النار . ولجاهل سخى أحب الى الله تعالى من عابد بخيل » رواه الترمذى .

انه لم يوجد فى الدنيا — ولن يوجد — نظام يستغنى البشر فيه عن التعاون والمواساة ، بل لابد لاستتباب السكينة وضمان السعادة من أن يعطف القوى على الضعيف ، وأن يرفق المكثر بالمقل . ما دامت طبيعة المجتمع البشرى أن تتجاوز فيه القوة والضعف والاكثار والاقلال ! ..

وأنه لو كان المـال فى وفرته وقدرته يتبع ما أوتى الناس من مواهب معنوية لاكتنز البعض الكثير ، وعاش البعض على الكفاف فتلك سنن الخليقة التى لا افتعال فيها ، وانما يتسرب الشقاء الى الناس عندما يحيون متقاطعين لا يعرفون الا أنفسهم ومطالبها فحسب . مع أن الله عز وجل خلط الناس بعضهم ببعض ، وجعل اختلاطهم على

---

(١) الاسراء : ٢٦ ، ٢٧ (٢) الاسراء : ٢٨

اختلاف أحوالهم ، أختبارا عويصا يمحص به الايمان ويوزع به الفضل . قال تعالى : « **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ، وكان ربك بصيرا** »(١) .

ولن تنجح أمة فى هذا المضمار الا اذا وثقت الصلات بين أبنائها ، فلم تبق محروما يقاسى ويلات الفقر ، ولم تبق غنيا يحتكر مباهج الغنى .

وفى الاسلام شرائع محكمة لتحقيق هذه الأهداف النبيلة ، من بينها تنشئة النفوس على فعل الخير واسداء العون وصنائع المعروف . ونتائج هذه التنشئة السمحة لا يسعد بها الضعاف وحدهم . بل يرتد أمانها واطمئنانها الى الباذلين أنفسهم . فتقيهم زلازل الأحقاد وعواقب الأثرة العمياء . قال تعالى : « **ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء** »(٢) .

وان الفقر معرة اذا لصقت بالانسان أحرجته . وهبطت به دون المكانة التى كتب الله للبشر ، وانها لتوشك أن تحرمه الكرامة التى فضل الله بها الانسان على سائر الخلق ، وانه لعزيز على النفس أن ترى شخصا مشقوق الثياب ، تكاد فتوقه تكشف سوءته ، أو حافى الأقدام أبلى أديم الأرض كعوبه وأصابعه ، أو جوعان يمد عينيه الى شتى الأطعمة ثم يرده الحرمان وهو حسير .

والذين يرون هذه الصور الفاحشة ثم لا يكترثون بها ليسوا بشرا وليسوا مؤمنين . فبين البشر عامة رحم يجب أن توصل وأن لا تمزقها الفاقة .

وقضية الايمان أن يرهب المرء ربه فى أمثال أولئك البائسين .

ولقد حدث أن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد هذه المناظر الحزينة فشق عليه مرآها ، فجمع المسلمين ثم خطبهم ، فذكرهم بحق الانسان على الانسان وخوفهم بالله واليوم الآخر ، وما زال بهم حتى جمعوا ما أغنى وستر .

فعن جرير قال : كنا فى صدر النهار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءه قوم عراة ، مجتابى النمار — مشقوقى الملابس — عامتهم من مضر ، فتمعر وجه الرسول صلى الله عليه وسلم لما رأى بهم من

---

(١) الفرقان : ٢٠ (٢) محمد : ٣٨

المفاقة ـــ تغير وحزن ـــ فدخل ثم خرج ، فأمر بلالا فأذن وأقام فصلى ، ثم خطب فقال :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا »(١) .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد .. »(٢) .

ثم قال : ليتصدق رجل من دينار .. من درهمه .. من ثوبه .. من صاع بره(٣) .. من صاع ثمره . حتى قال : ولو بشق تمرة .

قال : فجاءه رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها ، بل لقد عجزت ، ثم تتابع الناس . حتى رأيت كومين من طعام وثياب .. حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل كأنه مذهبة(٤) ، فقـــال :

من سن فى الاسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بها من غير أن ينقص من أوزارهم شىء »(٥) .

ومن سن فى الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شىء »(٥٦) .

وهذا الكلام البليغ دعوة الى التنافس فى الخير ، والتسابق فى افتتاح مشروعاته النافعة ، كقطار الرحمة ، ومعونة الشتاء ، وأشباه ذلك ، وهو تحذير كذلك لأولئك الذين ينشئون التقاليد السمحة ويعقدون بها شئون الجماعة ، ويتركون من بعدهم يضطرب فى شرورها ومتاعبها . الى أن يقول « فى خلق المسلم » :

والبذل الواسع عن اخلاص ورحمة يغسل الذنوب ويمسح الخطايا : قال الله تعـــالى : **« ان تبدوا الصدقات فنعما هى**(٦) **، وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ، ويكفر عنكم من سيئاتكم ، والله بما تعملون خبير »**(٧) .

---

(١) النساء : ١ (٢) الحشر : ١٨

(٣) المراد به الدقيق أو القمح .

(٤) مذهبة : صفحة مطلية بالذهب .

(٥) رواه مسلم . (٦) ثناء على ابداء الصدقة .

(٧) البقرة : ٢٧١

وقال تعالى : « **أن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم ، والله شكور حليم . عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم** »[١] .

فاذا انزلق المسلم الى ذنب وشعر بأنه باعد بينه وبين ربه ، فان الطهور الذى يعيد اليه نقاءه ويرد اليه ضياءه ويلفه فى ستار الغفران والرضا ، أن يجنح الى مال عزيز عليه فينخلع عنه للفقراء والمساكين ، زلفى يتقرب بها الى أرحم الراحمين :

عن أبى ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « تعبد عابد من بنى اسرائيل فعبد الله فى صومعة ستين عاما ، فأمطرت الأرض فاخضرت ، فأشرف الراهب من صومعته ، فقال : لو نزلت فذكرت الله فازددت خيرا !! فنزل ومعه رغيف أو رغيفان ، فبينما هو فى الأرض لقيته امرأة فلم يزل يكلمها وتكلمه حتى غشيها ، ثم أغمى عليه .

فنزل الغدير يستحم ، فجاءه سائل ، فأومأ اليه أن يأخذ الرغيفين . ثم مات .. فوزنت عبادة ستين سنة بتلك الزنية فرجحت الزنية بحسناته ، ثم وضع الرضيف أو الرغيفان مع حسناته ، فرجحت حسناته ، فغفر له »[٢] .

ومن أروع الأمثلة فى بيان ما للعطاء والجود من أثر فى الغفران والنجاة ، ما أوحى الله به الى نبيه يحيى ليعلمه أمته :

« .. وآمركم بالصدقة ، ومثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده الى عنقه ، وقربوه ليضربوا عنقه ، فجعل يقول : هل لكم أن أفدى نفسى منكم ؟ وجعل يعطى القليل والكثير حتى فدى نفسه »[٣] .

الى أن يقول بعد ذلك « فى خلق المسلم » :

وأقرباء المسلم أجدر الناس بالافادة من فضول ماله ، ومن حقهم أن ينصرف اليهم أى عطاء تجود به يده ، وذلك أول ما يتبادر الى الفهم السليم ، فانه اذا كان الى جنب الانسان محتاج فلا معنى لمجاوزته والذهاب بالخير الى آخر قصى ، بل ان ذلك قد يزرع الضغينة فى قلوب المحرومين ، ويشعرهم بأن اهمالهم متعمد للنكاية بهم والازراء عليهم ، فاذا كان هذا التنكيل بذوى القربى ما يقصده المعطى ، فان صدقته ترد عليه وتتحول وبالا : وفى الحديث :

---

(١) التغابن : ١٧ ، ١٨

(٢) رواه ابن حبان .

(٣) رواه الحاكم .

« .. يا أمة محمـــد والذى بعثنى بالحق لا يقبل الله صدقة من رجل وله قرابة محتاجون الى صلته ويصرفها الى غيرهم . والذى نفسى بيده لا ينظر الله اليه يوم القيامة »(١) .

وعن زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود رضى الله عنها ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وســلم : « تصدقن يا معشر النساء ولو من حليكن . قالت : فرجعت الى عبد الله بن مسعود ، فقلت له : انك رجل خفيف ذات اليد ، وان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد أمرنا بالصدقة فأته فسله . فان كان ذلك يجزى عنى والا صرفتها الى غيركم .. فقال عبد الله : بل ائته أنت !! قالت : فانطلقت فاذا امرأة من الأنصار حاجتها حاجتى ، وكان رسول الله صلى الله عليــه وسلم قد ألقيت عليه المهابة ، فخرج علينا بلال . فقلت له : ائت رسول الله فأخبره أن امرأتين بالباب يسألانك ، أتجزى الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام فى حجورهما ؟ ولا تخبره من نحن .

قالت : فدخل بلال على رسول الله فسأله . فقال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : من هما ؟ فقال : امرأة من الأنصار وزينب . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الزيانب ؟ قال : امرأة عبد الله ابن مسعود . فقال : لهما أجر القرابة وأجر الصدقة »(٢) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى القريب صدقتان : صدقة وصلة »(٣) .

* * *

فلتذكر أخا الاسلام كل هــذا ، حتى تكون من المؤمنين الأسخياء ، الذين : **« يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا . ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا . انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا »**(٤) .

* * *

فقد ذكر القرطبى حول هذه الآيات الثلاث ، أقوالا ، منها :

أنها نزلت فى مطعم بن ورقاء الأنصارى نذر نذرا فوفى به .

وقيل : نزلت فيمن تكفل بأسرى بدر وهم سبعة من المهاجرين :

---

(١) رواه الطبرانى .
(٢) رواه البخارى .
(٣) رواه الترمذى .
(٤) الانسان : ٧ ــ ٩

ابو بكر ، وعمر ، وعلى ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ، وابو عبيدة رضى الله عنهم . ذكره المـاوردى .

وقال مقاتل : نزلت فى رجل من الأنصار أطعم فى يوم واحد مسكينا ويتيما وأسيرا .

وقال أبو حمزة الثمالى : بلغنى أن رجلا قال : يا رسول الله .. أطعمنى فانى والله مجهود ، فقال : « والذى نفسى بيده ما عندى ما أطعمك ولكن اطلب » فأتى رجلا من الأنصار وهو يتعشى مع امرأته فسأله وأخبره بقول النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالت المرأة : أطعمه واسقه . ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم يتيم ، فقال : يا رسول الله .. أطعمنى فانى مجهود . فقال : « ما عندى ما أطعمك ولكن اطلب » فاستطعم ذلك الأنصارى ، فقالت المرأة : أطعمه واسقه ، فأطعمه . ثم أتى النبى صلى الله عليـــه وسلم أسير ، فقال : يا رسول الله .. أطعمنى فانى مجهود . فقال : « والله ما عندى ما أطعمك ولكن اطلب » . فجاء الأنصارى فطلب ، فقالت المـــرأة : أطعمه واســـقه . فنزلت : **« ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا »** . ذكره الثعلبى .

وقال أهل التفسير : نزلت فى على وفاطمة رضى الله عنهما وجارية لهما اسمها فضة .

* * *

ثم يقول القرطبى بعد ذلك : قلت : والصحيح أنها نزلت فى جميع الأبرار ، ومن فعل فعلا حسنا ، فهى عامة .

وقد ذكر النقاش والثعلبى والقشيرى وغير واحد من المفسرين فى قصة على وفاطمة وجاريتهما حديثا لا يصح ولا يثبت ، رواه ليث عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله عز وجل : **« يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا . ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا »** ، قال : مرض الحسن والحسين فعادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وعادهما عامة العرب ، فقالوا : يا أبا الحسن .

ورواه جابر الجعفى عن قنبر مولى على ، قال : مرض الحسن والحسين حتى عادهما أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا أبا الحسن — رجع الحديث الى حديث ليث ابن أبى سليم — لو نذرت عن ولديك شيئا ، وكل نذر ليس له وفاء فليس بشىء . فقال — على — رضى الله عنه : ان برأ ولداى صمت لله

ثلاثة أيام شكرا . وقالت جارية لهم نوبية : ان برأ سيداى صمت لله ثلاثة أيام شكرا . وقالت فاطمة مثل ذلك .

وفى حديث الجعفى ، فقال الحسن والحسين : علينا مثل ذلك . فألبس الغلامان — الحسن والحسين — العافية ، وليس عند آل محمد قليل ولا كثير ، فانطلق على الى شمعون بن حاريا الخيبرى وكان يهوديا فاستقرض منه ثلاثة أصوع من شعير ، فجاء به فوضعه ناحية البيت ، فقامت فاطمة الى صاع فطحنته واختبزته ، وصلى على مع النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه .

وفى حديث الجعفى : فقامت الجارية الى صاع من شعير فخبزت منه خمسة أقراص لكل واحد منهم قرص ، فلما مضى صيامهم الأول وضع بين أيديهم الخبز والملح الجريش ، اذ أتاهم مسكين فوقف بالباب وقال : السلام عليكم أهل بيت محمد — فى حديث الجعفى — أنا مسكين من مساكين أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنا والله جائع ، أطعمونى أطعمكم الله من موائد الجنة . فسمعه على رضى الله عنه ، فأنشأ يقول :

فاطم ذات الفضل واليقين ... يا بنت خير الناس أجمعين
أما ترين البائس المسكين ... قد قام بالباب له حنين
يشكو الى الله ويستكين ... يشكو الينا جائع حزين
كل امرىء بكسبه رهين ... وفاعل الخيرات يستبين
موعدنا جنة عليين ... حرمها الله على الضنين
وللبخيل موقف مهين ... تهوى به النار الى سجين
شرابه الحميم الى غسلين ... من يفعل الخير يقم سمين
ويدخل الجنة أى حين

فأنشأت فاطمة رضى الله عنها تقول :

أمرك عندى يا ابن عم طاعه ... ما بى من لؤم ولا وضاعه
غديت فى الخبز له صناعه ... أطعمه ولا أبالى الساعه
أرجو اذا أشبعت ذا المجاعه ... أن ألحق الأخيار والجماعه
وأدخل الجنة لى شفاعه

فأطعموه الطعام ، ومكثوا يومهم وليلتهم لم يذوقوا شيئا الا الماء القراح ، فلما أن كان فى اليوم الثانى قامت الى صاع فطحنته واختبزته ، وصلى على مع النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين أيديهم فوقف بالباب يتيم فقال : السلام عليكم أهل بيت

محمد .. يتيم من أولاد المهاجرين استشهد والدى يوم العقبة .. أطعمونى أطعمكم الله من موائد الجنة . فسمعه على فأنشأ يقول :

فاطم بنت السيد الكريم ... بنته نبى ليس بالزنيم
لقد أتى الله بذى اليتيم ... من يرحم اليوم يكن رحيم
ويدخل الجنة أى سليم ... قد حرم الخلد على اللئيم
ألا يجوز الصراط المستقيم ... يزل فى النار الى الجحيم
شرابه الصديد والحميم

فأنشأت فاطمة رضى الله عنها تقول :

أطعمه اليوم ولا أبالى ... وأوثر الله على عيالى
أمسوا جياعا وهم أشبالى ... أصغرهم يقتل فى القتال
بكربلاء[1] يقتل باغتيال ... يا ويل للقتال من وبال
تهوى به النار الى سفال ... وفى يديه الغل والأغلال
كبولة زادت على الأكبال

فأطعموه الطعام ومكثوا يومين وليلتين لم يذوقوا شيئا الا الماء القراح ، فلما كانت فى اليوم الثالث قامت الى الصاع الباقى فطحنته واختبزته ، وصلى على مع النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين أيديهم ، اذ أتاهم أسير فوقف بالباب ، فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد تأسروننا وتشدوننا ولا تطعموننا ! .. أطعمونى فانى أسير محمد . فسمعه على فأنشأ يقول :

فاطم يا بنت النبى أحمد ... بنت نبى سيد مسود
وسماه الله فهو محمد ... قد زانه الله بحسن أغيد
هذا أسير النبى المهتد ... مثقل فى غله مقيد
يشكو الينا الجوع قد تمدد ... من يطعم اليوم يجده فى غد
عند العلى الواحد الموحد ... ما يزرع الزارع سوف يحصد
أعطيه لا تجعليه أقعد

فأنشأت فاطمة رضى الله تعالى عنها تقول :

لم يبق مما جاء غير صاع ... قد ذهبت كفى مع الذراع
ابنائ والله هما جياع ... يا رب لا تتركهما ضياع
أبوهما للخير ذو اصطناع ... يصطنع المعروف بابتداع
عبل الذراعين شديد الباع ... وما على رأسى من قناع
الا قناعا نسجه أنساع

---

(١) اى : بكربلاء التى قتل فيها الحسين رضى الله عنه .

فأعطوه الطعام ومكثوا ثلاثة أيام ولياليها لم يذوقوا شيئا الا الماء القراح ، فلما أن كان فى اليوم الرابع ، وقد قضى الله النذر أخذ بيده اليمنى الحسن وبيده اليسرى الحسين وأقبل نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع ، فلما أبصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « يا أبا الحسن .. ما أشد ما يسوءنى ما أرى بكم انطلق بنا الى ابنتى فاطمة » فانطلقوا اليها وهى فى محرابها ، وقد لصق بطنها بظهرها ، وغارت عيناها من شدة الجوع ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف المجاعة فى وجهها بكى وقال : « واغوثاه يا الله أهل بيت محمد يموتون جوعا » فهبط جبريل عليه السلام ، وقال : السلام عليك .. ربك يقرئك السلام ، يا محمد .. خذ هنيئا فى أهل بيتك . قال : وما آخذ يا جبريل » ؟ فأقرأه : « **هل أتى على الانسان حين من الدهر ..** »[1] الى قوله : « .. **ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا . انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا** »[2] .

* * *

والذى يعنينا الآن بعد أن وقفنا على هذا المضمون الذى أورده القرطبى ضمن الأقوال التى وردت حول تفسير الآيات الثلاث : هو التعليق الذى ذكره القرطبى بعد ذكر هذا المضمون الأخير ، والذى لابد وأن نستفيد به ، وهو :

قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله فى نوادر الأصول : فهذا حديث مزوق مزيف قد تطوف فيه صاحبه حتى تشبه على المستمعين ، فالجاهل بهذا الحديث يعض شفتيه تلهفا ألا يكون بهذه الصفة ، ولا يعلم أن صاحب هذا الفعل مذموم ، وقد قال الله تعالى فى تنزيله : « **ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو** »[3] :

وهو الفضل الذى يفضل عن نفسك وعيالك ، وجرت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم متواترة ، بأن : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى » ، « وابدأ بنفسك ثم بمن تعول » .

وافترض الله على الأزواج نفقة أهاليهم وأولادهم . وقال

---

(١) الانسان : ١ (٢) الانسان : ٨ ، ٩

(٣) البقرة : ٢١٩

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء اثما أن يضيع من يقوت » .

أفيحسب عاقل أن عليا جهل هذا الأمر حتى أجهد صبياننا صغارا من أبناء خمس أو ست على جوع ثلاثة أيام ولياليهن ؟ ! حتى تضوروا من الجوع ، وغارت العيون منهم لخلاء أجوافهم ، حتى أبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهم من الجهد .. الخ . هذا النقد الذى لابد كما قلت أن نستفيد منه حتى ندقق فى مثل هذه الروايات التى لا أصل لها .. والتى كان لابد أن نقف عليها حتى لا نفتن بها .

* * *

وأنا شخصيا أستريح الى رأى القرطبى الذى قال فيه : والصحيح أنها نزلت فى جميع الأبرار ، ومن فعل فعلا حسنا ، فهى عامة .

* * *

ولهذا .. أخا الاسلام : فاننى أطالبك ونفسى بأن نكون من أهل البر المشار اليه فى قول الله تعالى :

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون »[1] .

واذا كنت أخا الاسلام ستستقبل فى بيتك الأتقياء المساكين الذين ستطعمهم طعامك الحلال ، فاننى أرجو أن تلاحظ معى قول القائل :

قم اذا ما الضيف جاءك وامنح الضيف غذاءك
واجل من وجهك مرآة يرى فيها صفاءك
ان يهن عندك ضيف يكن الهون جزاءك

* * *

(١) البقرة : ١٧٧

وأما عن العنصر الثانى ، وهو :

افشـــاء السلام

فهو المشار اليه فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذى ورد :

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا[١] ، أفلا أدلكم على أمر اذا فعلتموه تحاببتم : أفشوا السلام بينكم » رواه أبو داوود والترمذى ومسلم .

ففى هـــذا الحديث الشريف يشير النبى صلى الله عليه وسلم الى أن السلام اذا انتشر بين المؤمنين كان سببا فى انتشار المحبة بينهم ، وكان سببا فى دخول الجنة ان شاء الله :

فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « اعبدوا الرحمن ، وأطعموا الطعام ، وأفشوا السلام : تدخلوا الجنة بسلام » رواه الترمذى بسند حسن .

هـــذا بالاضافة الى الثواب المضاعف فى الدنيا :

فعن عمران بن حصين رضى الله عنه ، قال : جاء رجل الى النبى صلى الله عليـــه وسلم ، فقال : السلام عليكم ، فرد عليه ثم جلس ، فقال النبى صلى الله عليـــه وسلم : عشر[٢] ، ثم جاء آخر ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد عليه فجلس ، فقال : عشرون[٣] ، ثم جاء آخر ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرد عليـــه فجلس ، فقال : ثلاثون »[٤] رواه أبو داوود والترمذى .

وهو كذلك خير خصال الاسلام :

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أى الاسلام خير ؟[٥] قـــال :

---

(١) أى لا تؤمنوا ايمانا كاملا حتى يحب بعضكم بعضا وحتى يحب لأخيه كما يحب لنفسه .

(٢) أى له عشر حسنات على قوله : السلام عليم .

(٣) أى له عشرون حسنة لأنه زاد عن الأول : ورحمة الله .

(٤) وهذه نهاية ألفاظ السلام واكملها .

(٥) أى أعظم أجرا وأكثر ثوابا .

تطعم الطعام[1] ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف »[2] رواه البخارى ومسلم وأبو داوود والنسائى وابن ماجه .

* * *

ولهذا .. نرى أن الله تعالى قد أمر المؤمنين اذا حيوا بتحية أن يحيوا بأحسن منها أو يردوها ، فقال تعالى مخاطبا اياهم :

« واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ، ان الله كان على كل شىء حسيبا »[3] .

أى : **« واذا حييتم بتحيـــة »** بأن قال لكم قائل : السلام عليكم **« فحيوا بأحسن منها »** بقولكم : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته **« أو ردوهـــا »** بأن تقولوا كما قال ، فالواجب الرد بالمثل أو بالزيادة وهو أفضل .

* * *

هـــذا .. وقد وردت أحاديث كثيرة تتعلق بأحكام السلام .. فاليك بعض هـــذه الأحاديث الشريفة التى أرجو أن تقف من خلالهـــا على هـــذه الأحكام[4] :

*** السلام قبل الكلام والسلام على الأهل :**

عن جابر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « السلام قبل الكلام » .

وعنه عن النبى صلى الله عليـــه وسلم ، قال : « لا تدعوا أحدا الى الطعام حتى يسلم » رواهما الترمذى بسند واحد[5] .

لأن السلام مقدم على الكلام ، ولأنه أمان ولا كلام الا بعد الأمان ، ولأن السلام فى المرتبة الأولى من الكلام .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليـــه وسلم ، قال : « يسلم الراكب على المـــاشى ، والمـــاشى على القاعد ، والقليل

---

(١) يعنى أن تطعم الطعام ، فحذفت « ان » فارتفع الفعل ، يعنى : أن تكثر من قرى الضيوف وتقديم الطعام لكل محتاج اليه .

(٢) يعنى من المسلمين .

(٣) اى محاسبا فيجازى عليه ، ومنه السلام ورده — والآية من سورة النساء : ٨٦

(٤) كما جاء فى التاج الجامع للأصول ج ٥ ، نصا وتعليقا بتلخيص وتصرف .

(٥) وهو ضعيف .

على الكثير » رواه الأربعة ، وهم : أبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

وزاد فى رواية : والصغير على الكبير ، وهذا خبر يراد به الأمر ، أى : ليسلم الصغير على الكبير لأنه من توقيره ، وليسلم القليل على الكثير لأن حقهم أعظم ، وأولى أن يبدأ بالسلام الراكب على الماشى لئلا يتكبر فيتواضع ، كما يبدأ الماشى على القاعد لشبهه بالداخل على غيره ، فالمفضول بنوع ما يبدأ الفاضل بالسلام ، أى الأولى ذلك والا فلو بدأ الفاضل لكفى .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال : قال لى النبى صلى الله عليه وسلم : « يا بنى .. اذا دخلت على أهلك فسلم يكون بركة عليك وعلى أهل بيتك » رواه الترمذى بسند حسن .

فينبغى لمن دخل على أهله أن يسلم عليهم ، فان ذلك بركة عليهم ، قال الله تعالى : **« فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون »**[1] .

*** والسلام على الصبيان والنساء :**

عن سيار رضى الله عنه ، قال : كنت أمشى مع ثابت البنانى[2] فمر بصبيان فسلم عليهم ، وقال : كنت أمشى مع أنس رضى الله عنه فمر بصبيان فسلم عليهم وحدث أنس أنه كان يمشى مع النبى صلى الله عليه وسلم فمر بصبيان فسلم عليهم » رواه الخمسة ، وهم : البخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى .

وهذا دليل على مشروعية السلام على الصبيان ، وهو مطلوب لطرح رداء الكبر وللتحلى بالتواضع ولتدريب الصبيان على آداب الشريعة .

وقال أنس رضى الله عنه : انتهى الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا غلام فى الغلمان[3] فسلم علينا ، ثم أخذ بيدى أو أذنى فأرسلنى برسالة وقعد فى ظل جدار ، أو قال : الى جدار حتى رجعت اليه » رواه أبو داوود وابن ماجه بسند صالح .

وقالت أسماء بنت يزيد رضى الله عنها : « مر علينا النبى صلى

---

(١) النور : ٦١

(٢) وهو من كبار علماء التابعين ومن خيار الزاهدين رضى الله عنه .

(٣) أى ألعب معهم .

الله عليـــه وسلم فى المسجد يوما وعصبة[١] من النساء قعود ، فألوى بيده بالتسليم ، وأشار عبد الحميد بيده » رواه الترمذى بسند حسن : ورواه أبو داوود ، ولفظه : مر علينـــا النبى صلى الله عليـــه وسلم فى نسوة ، فسلم علينا ..

ففيه جواز التسليم على النساء الأجنبيات وجواز تسليمهن على الرجال بطريق القياس وهذا عند أمن الفتنة ، وقال المـــالكية : يجوز على العجوز دون الشابة سدا للذريعة ، أما المحارم : فلا خلاف فى مشروعية السلام عليهن ومنهن ، والله أعلم .

*** تبليغ السلام :**

فعن عائشة رضى الله عنها ، قالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عائشة .. هذا جبريل يقرأ عليـــك السلام . قالت : قلت : عليك وعليه السلام ورحمة الله وبركاتـــه ، ترى يا رسول الله ما لا نرى »[٢] رواه الأربعة ، وهم : أبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

فهذا دليل على أنه يجب رد السلام على الغائب وينبغى أن يشرك المبلغ كقوله : عليك وعليه السلام ، ومن السلام على لسان الغير ما جاء فى مكتوب ، فيجب رده على لسان الغير أو بطريق الكتابة ، والله أعلم .

وعن غالب رضى الله عنه ، قال : انا جلوس بباب الحسن رضى الله عنه اذ جاء رجل ، فقال : حدثنى أبى عن جدى ، قال : بعثنى أبى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ايته ، فأقرئه السلام ، قال : فأتيته فقلت : ان أبى يقرئك السلام ، فقال : « عليك وعلى أبيك السلام » رواه أبو داوود .

*** بيان ما يكره فى السلام :**

عن أبى جرى الهجيمى[٣] رضى الله عنه ، قال : أتيت رسول الله صلى الله عليـــه وسلم ، فقلت : عليك السلام يا رسول الله ، فقال : « لا تقل عليك السلام ، فان عليك السلام : تحية الموتى » رواه أصحاب

---

(١) العصبة : أى الجماعة .

(٢) وهو جبريل عليه السلام ، فقد ردت عليه السلام وهى لا تراه . وكفاها ذلك .

(٣) جرى الهجيمى بالتصغير فيهما نســـبة الى الهجيـــم بن عمرو ابن تميـــم ، واسمه جابر بن سليم .

السنن بسند صحيح ، وزاد الترمذى : ثم أقبل على ، فقال : « اذا لقى الرجل أخاه المسلم فليقل : السلام عليكم ورحمة الله » .

وذلك لأن : عليك السلام تحية الموتى فى كلام كثير من العرب كقول بعضهم :

عليـــك سلام الله قيس بن عاصم
ورحمتـــه ما شـــاء أن يترحمـــا

وكقول من رثى عمر رضى الله عنه :

عليـــك سلام الله من أمير وباركت
يد الله فى ذاك الأديـــم الممزق

وقال ابن عمر رضى الله عنهما : سلم رجل على النبى صلى الله عليـــه وسلم ، وهو يبول ، فلم يرد عليه السلام .

رواه الترمذى بسند صحيح .. ورواه أبو داوود .

لم يرد الرسول صلى الله عليـــه وسلم السلام : لأنه كان فى حال لا تسمح بالرد .. ويقاس عليه كل مشتغل بشىء كصلاة وقراءة وذكر وطهارة ومن يكلم انسانا ، ومن هو فى صنعته أو زراعته ، فلا يجب عليهم الرد لأن القاء السلام عليهم مكروه ، وكذا السلام على من يأكل مكروه الا من الجائع فانه يسلم ليطلب للأكل .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليـــه وسلم ، قال : « ليس منا من تشبه بغيرنا ، لا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى ، فان تسليم اليهود الاشارة بالأصابع ، وتسليم النصارى الاشارة بالأكف » رواه الترمذى بسند ضعيف .

وبيان هـــذا : أنه لو سلم باللسان وقرنه باشارة اليد فلا شىء فيه لأن المكروه الاشارة فقط كعمل أهل الكتاب ، ومثلها ما جرت به عادتهم من قولهم : نهارك سعيد ، أو ليلتك سعيدة ، بخلاف صباح الخير ومساء الخير ولكنهما لا يقومان مقام السلام ، فاتضح من هـــذا أن السلام بالاشارة فقط ، والسلام على المشتغل بشىء ، ولفظ عليك السلام : كلها مكروهة ، فلا يجب الرد والله أعلم وعلمه أتم وأكمل .

*** السلام على أهل الكتاب[1] :**

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال :

---

(١) أى ما ورد فى السلام منهم وعليهم .

« لا تبدأوا اليهود ولا النصارى بالسلام ، فاذا لقيتم أحدهم فى طريق فاضطروه الى أضيقه »[١] رواه مسلم وأبو داوود .

وقال بعض أصحاب النبى له : يا رسول الله .. ان أهل الكتاب يسلمون علينا ، فكيف نرد عليهم ؟ قال : « قولوا وعليكم » رواه مسلم وابو داوود .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « اذا سلم عليكم اليهود فانما يقول أحدهم : السام عليك ، فقل : وعليك » رواه الثلاثه ، وهم : أبو داوود والترمذى والنسائى .

وذلك لأن السام هو الموت ، فلهذا اذا علمنا أنهم يقولون : السام عليكم أو لم نعلم ما قالوا ، فنرد عليهم بقولنا : وعليكم ، أى الموت أيضا ، فانه مكتوب على الناس كلهم ، أو المراد : وعليكم ما تستحقون من الذم ، أما اذا سمعنا قولهم : السلام عليكم : وجب علينا الرد عليهم لأن لهم ما لنا وعليهم ما علينا .

وعن عائشة رضى الله عنها ، قالت : دخل رهط[٢] من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : السام عليك . ففهمتها ، فقلت : عليكم السام واللعنة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مهلا يا عائشة .. فان الله يحب الرفق فى الأمر كله . فقلت : يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا ؟ قال : فقد قلت : وعليكم » رواه الشيخان والترمذى .

وفى رواية لمسلم : فسمعت عائشة فسبتهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مه يا عائشة[٣] فان الله لا يحب الفحش ولا التفحش ، فأنزل الله عز وجل : **« واذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله .. »**[٤] الآيـــة .

وفى رواية : قد سمعت فرددت عليهم ، وانا نجاب عليهم ولا يجابون علينـــا .

ويكره القاء الســـلام عليهم للحديث الأول : لا تبدأوا اليهود ولا النصارى بالسلام ، ولأن السلام اعزازا للمسلم عليه ولا يجوزا

---

(١) اى اذا ازدحمت الطريق والا فلا .

(٢) الرهط ما دون العشرة من الرجال لا يكون فيهم امراة .

(٣) اى كفى عن هذا القول الشديد .

(٤) المجادلة : ٨

اعزازهم ، وقال النووى : ابتداؤهم بالسلام حرام ، وهذا ما لم تدع له ضرورة كمداراتهم ودفع شرهم والا جاز والله أعلم .

وعن أسامة بن زيد رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم مر بمجلس وفيه أخلاط من المسلمين واليهود فسلم عليهم » رواه البخارى والترمذى .

ومعنى هـذا : أنه يستحب القاء السلام على المجلس الذى فيه مسلم وغيره تغليبا للمسلم . والله أعلم .

*** حكم السلام ورده :**

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « خمس تجب على المسلم لأخيه : رد السلام ، وتشميت العاطس ، واجابة الدعوة ، وعيادة المريض ، واتباع الجنائز » رواه الخمسة ، وهم : البخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى .

وعن على رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « يجزىء عن الجماعة اذا مروا أن يسلم أحدهم ، ويجزىء عن الجلوس أن يرد أحدهم » رواه أبو داوود بسند صالح .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « اذا انتهى أحدكم الى المجلس فليسلم ، فاذا أراد أن يقوم فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة » رواه أصحاب السنن بسند حسن .

ويؤخذ من هـذا : أن ابتداء السلام سنة عين من الواحد ، وسنة كفاية من الجماعة ، والرد فرض عين على الواحد ، وفرض كفاية على الجماعة فيسقط الطلب بالسلام والرد من واحد ، كشأن فروض الكفاية ، ولكن لا يؤجر الا من سلم وكذا من رد . كما أشار الحديث الأول .

وأن السلام من الجماعة سنة كفاية والرد من الجماعة فرض كفاية ، ولكن لو سلم الجماعة كلهم كان أفضل كما لو رد الجماعة كلهم فينالون الثواب . كما فى الحديث الثانى .

وأنه يستحب السلام على الحاضرين اذا قدم عليهم واذا أراد فراقهم . كما فى الحديث الثالث .

*** حكم السلام على أهل الأهواء :**

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « لا تسلموا على من يشرب الخمر ولا تعودوهم اذا

مرضوا ولا تصلوا عليهم اذا ماتوا »[1] رواه سعيد بن منصور هكذا ، والبخارى موقوفا ولكن وصله فى الأدب .

وعن عمار بن ياسر رضى الله عنه ، قال : قدمت على أهلى وقد تشققت يداى ، فخلقونى بزعفران ، فغدوت على النبى صلى الله عليه وسلم ، فسلمت عليه فلم يرد وقال : « اذهب فاغسل عنك هذا » رواه أبو داوود فى السنة بسند صالح .

ومر على النبى صلى الله عليه وسلم رجل عليه ثوبان أحمران فسلم على النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم يرد عليه . رواه أبو داوود والترمذى فى اللباس بسند صالح .

ومن هذا نفهم أنه لا يشرع السلام على فاسق وفاجر ومبتدع ونحوهم ، وبالأولى الكافر فان قطع هؤلاء مطلوب وبغضهم محبوب ما داموا فى أهوائهم .. « من أحب لله وأبغض لله فقد استكمل الايمان » .

واذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قد قال لعمار بن ياسر — كما جاء فى الحديث الثانى — اذهب فاغسل عنك هذا : فلأنه صلى الله عليه وسلم لم يرد السلام عليه لأنه لطخ يديه بالزعفران الذى هو طيب النساء ، وقد نهينا عن التشبه بالنساء ، ولعله كان هناك غيره يقوم مقامه ، والا اذا تعين للتداوى فلا شىء عليه .

واذا كان النبى صلى الله عليه وسلم كذلك لم يرد على لابس الثوبين الأحمرين — كما يشير الحديث الثالث — : فلعل لون الحمرة هذا كان من صبغ خاص بالنسبة كزعفران ونحوه .. والا فلبس الأحمر جائز للرجال .

* * *

فليذكر الأخ المسلم كل هذا ، حتى يكون مفشيا للسلام على أساس من هذا الفقه الذى وقف عليه احياء للسنة .

وحسبه ان فعل هذا ان شاء الله أن يذكر كذلك حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذى يقول فيه : « دب اليكم داء الأمم قبلكم : البغضاء والحسد ، والبغضاء هى الحالقة ، ليس حالقة الشعر ، ولكن حالقة الدين ، والذى نفسى بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ،

---

(١) هذا للزجر أو اذا استحلوا الخمر .

ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أنبئكم بما يثبت لكم ذلك ؟ [١] أفشوا السلام بينكم » رواه البزار باسناد جيد .

* * *

واذا كان لنا أن ننتقل الآن الى العنصر الثالث ، وهو :

صلـــة الأرحام

فهو كذلك من أهم ما يجب علينا أن نحققه كمسلمين أو كمؤمنين ، وذلك لأن الله تعالى قد أمر به ، فقال : « **وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا** »[٢] .

وقـــال : « **واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليـــكم رقيبا** »[٣] .

وقـــال : « **فهل عسيتـــم**[٤] **ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم . أولئـــك الذين لعنـــهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم** »[٥] .

وقـــال : « **والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه**[٦] **ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئـــك لهم اللعنـــة ولهم سوء الدار** »[٧] .

وقـــال : « **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض ، أولئك هم الخاسرون** »[٨] .

ففى الآية الأولى والثانية : يرغب النبى صلى الله عليه وسلم فى صلة الرحم .

وفى الآية الثالثة والرابعة والخامسة : يرهب النبى صلى الله عليه وسلم من قطيعة الرحم .

وقد ورد مثل هـــذا فى السنة الصحيحة :

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) أى يحققه ويؤكده .
(٢) الاسراء : ٢٦
(٣) النساء : ١
(٤) المعنى : هل المرجو منكم الافساد فى الأرض وتقطيع الأرحام اذا توليتم مصالح الناس ؟ ! لا ومن فعل ذلك فهو من الذين لعنهم الله الخ الآية .
(٥) محمد : ٢٢ ، ٢٣
(٦) أى توثيقه وتوكيده .
(٧) الرعد : ٢٥
(٨) البقرة : ٢٧

قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه[1] ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » رواه البخارى ومسلم •

وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « من أحب أن يبسط له فى رزقه ، وينسأ له فى أثره : فليصل رحمه » رواه البخارى ومسلم •

الأثر : الأجل •• والنسأ : التأخير •• ولعله كناية عن البركة فى الأجل :

قال ابن التين : « ظاهر الحديث يعارض قوله تعالى : **« فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ، ولا يستقدمون »**[2] ، والجمع بينهما من وجهين :

أحدهما : أن هـذه الزيادة عن البركة فى العمر بسبب التوفيق إلى الطاعة ، وعمارة وقته بما ينفعه فى الآخرة ، وصيانته عن تضييعه فى غير ذلك ، ومن جملة ما يحصل له من التوفيق : العلم الذى ينتفع به من بعده ، والصدقة الجارية عليه ، والخلف الصالح •

ثانيهما : أن الزيادة على حقيقتهـا ، وذلك بالنسبة الى عـلم الملك الموكل بالعمر :

وأما الأول الذى دلت عليه الآية ، فالبنسبة الى علم الله تعالى •• والوجه الأول أليق بلفظ حديث الباب ، فان الأثر ما يتبع الشىء ، فاذا أخر حسن أن يحمل على الذكر الحسن بعد فقد المذكور » •

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، يقول : « من سره أن يبسط له فى رزقه ، وأن ينسأ له فى أثره : فليصل رحمه » رواه البخارى ، والترمذى ، ولفظه :

قال : « تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ، فان صلة الرحم محبة فى الأهل ، مثراة فى المـال ، منسأة فى الأثر » •

وقال : حديث غريب ، ومعنى : منسأة فى الأثر ، يعنى به الزيادة فى العمر ، انتهى • رواه الطبرانى من حديث العلاء بن خارجة كلفظ الترمذى باسناد لا بأس به •

---

(١) أى : فليحسن الى ذوى قرابته فيعطى محتاجهم ويزور مريضهم ويواسى منكوبهم •

(٢) النحل : ٦١

ومعنى تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم : أى : ما يعينكم على صله ارحامكم ، فان الجهل بالأنساب يؤدى الى قطع الرحم بين ذوى النسب الواحد ، وكم من قرابات قد أهملها أهلها وتقاطع أفرادها بسبب جهلهم بالنسب الذى يجمعهم .

ومعنى أن صلة الرحم محبة فى الأهل ، مثراة فى المال ، منسأة فى الأثر : أى أن صلة الرحم تزيد فى المحبة وتوثق الألفة بين أفراد الأسرة الواحدة ، ومجلبة للمال الكثير والخير الواسع : وسبب فى تأخير الأجل واطالته .

وعن أبى أيوب رضى الله عنه ، أن أعرابيا عرض[١] لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى سفر ، فأخذ بخطام ناقته — أو بزمامها[٢] — ثم قال : يا رسول الله — أو يا محمد[٣] — : أخبرنى بما يقربنى من الجنة ، ويباعدنى من النار ؟ قال : فكف النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم نظر فى أصحابه ، ثم قال : لقد وفق أو لقد هدى ، وقال : كيف قلت ؟ قال : فأعادها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصل الرحم . دع الناقة » .

وفى رواية : « وتصل ذا رحمك ، فلما أدبر[٤] ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان تمسك بما أمرته به دخل الجنة » رواه البخارى ومسلم واللفظ له .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله تعالى خلق الخلق[٥] حتى اذا فرغ منهم قامت الرحم[٦] ، فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة[٧] . قال : نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ [٨] قالت :

---

(١) يعنى اعترضه ووقف فى طريقه .

(٢) ، (٣) أو فى اللفظين : شك من الراوى .

(٤) أى انصرف الرجل . (٥) أى جميع المخلوقات .

(٦) أى مثلت بين يدى الله جل شأنه .

(٧) يعنى هذا موقف المستجير بك المحتمى بجنابك من خوف القطيعة ، وهى الهجر وعدم الصلة .

(٨) قال ابن أبى حمزة : الوصل من الله كناية عن عظيم احسانه على عبده واسعافه بما يريد ومساعدته على ما يرضيه والقطع كناية عن الحرمان والاحسان .

بلى[1] . قال : فذاك لك ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأوا ان شئتم : « **فهل عسيتم ان توليتم[2] أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم[3] ، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم** » رواه البخارى ومسلم .

وحول كلام الرحم ، قال ابن أبى حمزة : « يحتمل أن يكون بلسان الحال ، ويحتمل أن يكون بلسان المقال ، قولان مشهوران .

والثانى أرجح ، وعلى الثانى ، فهل تتكلم كما هى أو يخلق الله لها عند كلامها حياة وعقلا .. قولان أيضا مشهوران والأول أرجح لصلاحية القدرة العامة لذلك » .

وقال فى الفتح : « قال عياض : يجوز أن يكون الذى نسب اليه القول ملكا يتكلم على لسان الرحم » وهو بعيد وأبعد منه قول القرطبى : « أى لو كانت الرحم ممن يعقل ويتكلم لقالت كذا ، فمقصود هذا الكلام الاخبار بتأكد أمر صلة الرحم ، وأنه تعالى أنزلها منزلة من استجار به فأجاره فأدخله فى حمايته » .

وحول الآية الكريمة التى ختم بها الحديث ، قال ابن كثير : « وهذا نهى عن الافساد فى الأرض عموما ، وعن قطع الأرحام خصوصا ، بل قد أمر الله تعالى بالاصلاح فى الأرض وصلة الأرحام وهو الاحسان الى الأقارب فى المقال والأفعال وبذل الأموال » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « ان الرحم شجنة من الرحمن ، تقول : يا رب انى قطعت ، يا رب انى أسىء الى ، يا رب انى ظلمت ، يا رب ، فيجيبها : ألا ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك » رواه أحمد باسناد جيد قوى ، وابن حبان فى صحيحه .

قال القرطبى : « الرحم التى توصل عامة وخاصة :

فالعامة : رحم الدين ، وتجب مواصلتها بالتوادد والتناصح والعدل والانصاف والقيام بالحقوق الواجبة والمستحبة . وأما الرحم الخاصة : فتزيد النفقة على القريب ، وتفقد أحوالهم ، والتغافل عن زلاتهم » .

---

(١) يعنى رضيت بذلك .

(٢) أى أعرضتم عن الجهاد ونكلتم عنه .

(٣) أى تعودوا الى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء تسفكون الدماء وتقطعون الأرحام .

وقال ابن أبى حمزة : « تكون صلة الرحم بالمال وبالعون على الحاجه ، وبدفع الضر ، وبطلاقة الوجه ، وبالدعاء .. والمعنى الجامع : ايصال ما أمكن من الخير ، ودفع ما أمكن من الشر بحسب الطاقه . وهذا انما يستمر اذا كان أهل الرحم أهل استقامة ، فان كانوا كفارا أو فجارا فمقاطعتهم فى الله هى صلتهم بشرط بذل الجهد فى وعظهم ثم اعلامهم اذا أصروا أن ذلك بسبب تخلفهم عن الحق ولا يسقط مع ذلك صلتهم بالدعاء لهم بظهر الغيب أن يعودوا الى الطريق المثلى » .

وعن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « الرحم حجنة[١] متمسكة بالعرش تكلم[٢] بلسان ذلق[٣] : اللهم صل من وصلنى ، واقطع من قطعنى ، فيقول الله تبارك وتعالى : أنا الرحمن الرحيم ، وانى شققت للرحم من اسمى ، فمن وصلها وصلته ، ومن بتكها بتكته »[٤] رواه البزار باسناد حسن .

وعن سعيد بن زيد رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « ان من أربى الربا[٥] الاستطالة فى عرض المسلم بغير حق[٦] ، وان هذه الرحم شجنة[٧] من الرحمن عز وجل ، فمن قطعها حرم الله عليه الجنة »[٨] رواه أحمد والبزار ، ورواة أحمد ثقات .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ليس الواصل بالمكافىء ، ولكن الواصل الذى اذا قطعت رحمه وصلها »[٩] رواه البخارى واللفظ له ، وأبو داوود والترمذى .

قال ابن حجر فى الفتح : « وقال شيخنا فى شرح الترمذى : المراد

---

(١) الحجنة بفتح الحاء المهملة والجيم وتخفيف النون : هى صنارة المغزل ، وهى الحديدة العقفاء التى يعلق بها الخيط ثم يفتل الغزل .

(٢) أى تتكلم فحذفت احدى التاءين تخفيفا .

(٣) أى فصيح بليغ .

(٤) أى من قطعها قطعته .

(٥) يعنى من افحشه واقبحه .

(٦) يعنى تناوله بالهجاء والذم على وجه الاعتداء والظلم .

(٧) شجنة ، يعنى قرابة مشتبكة كاشتباك العروق وفيها لغتان : شجنة بكسر الشين وبضمها واسكان الجيم .

(٨) يعنى لا يدخلها ابتداء أو أبدا ان استحل ذلك .

(٩) يعنى ولكن الحقيق باسم الواصل من اذا جفت رحمه وتباعدت لم يقابلها بمثل ذلك بل يصلها ويبرها .

بالواصل فى هـذا الحديث : الكامل ، فان المكافأة نوع صلة ، بخلاف من اذا وصله قريبه ولم يكافئه ، فان فيه قطعا باعراضه عن ذلك ، وهو من قبيل : ليس الشديد بالصرعة ، وليس الغنى عن كثرة العرض » .

وقال الطيبى : « المعنى ليست حقيقة الواصل ومن يعتد بصلته : من يكافىء صاحبه بمثل فعله ولكن من يتفضل على صاحبه » .

* * *

ومن الآثار العظيمة التى قرأتها فى كتاب « عيون الأخبار » ، تحت عنوان :

باب القرابات والولد[1]

حدثنى زيد بن أخزم ، قال حدثنا أبو داوود ، قال حدثنا اسحاق ابن سعيد القرشى من ولد سعيد بن العاص ، قال أخبرنى أبى ، قال : كنت عند ابن عباس ، فأتاه رجل فمت اليه برحم بعيدة ، فلان له وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اعرفوا أنسابكم تصلوا أرحامكم فانه لا قرب بالرحم اذا قطعت وان كانت قريبة ، ولا بعد بها اذا وصلت وان كانت بعيدة » .

حدثنى شبابة قال : حدثنى القاسم بن الحكم عن اسماعيل ابن عياش عن عبد الله بن دينار ، قال : احذروا ثلاثا ، فانهن معلقات بالعرش : النعمة تقول : يا رب كفرت ، والأمانة تقول : يا رب أكلت ، والرحم تقول : يا رب قطعت .

حدثنى أبو سفيان الغنوى عن عبد الله بن يزيد عن حيوة بن شريح عن الوليد ابن أبى الوليد عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه » .

حدثنى القومسى ، قال : حدثنا اسماعيل بن أبى أويس ، قال : حدثنا كثير بن زيد عن أبيه عن جده عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ابن أخت القوم من أنفسهم ، ومولى القوم من أنفسهم ، وحليف القوم من أنفسهم » .

حدثنى الزيادى قال : حدثنا حماد بن زيد عن حبيب عن ابن سيرين ، قال : قال عثمان : كان عمر يمنع أقرباءه ابتغاء وجه الله ، وأنا أعطى قراباتى لوجه الله ، ولن يرى مثل عمر .

---

(١) بتصرف واختصار موضوعى .

كتب عمر الى أبى موسى : مر ذوى القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا .

وقال أكثم بن صيفى : تباعدوا فى الديار تقاربوا فى المودة .

والعرب تقول فى العطف على القرابة وان لم يكن وادا : « أنفك منك وان ذن »[1] ، ومثله : « عيصك[2] منك وان كان أشبا » .

ويقال : القرابة محتاجة الى المودة ، والمودة أقرب الأنساب . والبيت المشهور فى هذا :

فاذا القرابة لا تقرب قاطعا
واذا المودة أقرب الأنساب

* * *

فاذكر أخا الاسلام كل هذا ، وكن وصولا لأرحامك ، أى لذوى قرابتك الذين تجمعك واياهم رحم واحدة وذلك — كما عرفت — بأن تعين فقيرهم ، وترشد جاهلهم ، وتقضى حوائجهم ، وتتفقد غائبهم ، وتعود مريضهم ، وتشاركهم أفراحهم وأحزانهم :

حتى تفوز بهذا الخير الذى وقفت عليه ، والذى لابد وأن تفوز به كمسلم أو كمؤمن يرجو الله واليوم الآخر .

وحسبك فى نهاية هذا العنصر الحيوى الهام أن تذكر وصية الرسول صلى الله عليه وسلم التى يقول فيها : « أوصانى ربى بتسع أوصيكم بها : أوصانى بالاخلاص فى السر والعلانية ، والعدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمنى ، وأعطى من حرمنى ، وأصل من قطعنى ، وأن يكون صمتى فكرا ، ونطقى ذكرا ، ونظرى عبرا » رواه رزين .

* * *

وأما عن العنصر الرابع ، وهو :

الصلاة بالليل والناس نيام

فقد كان فرضا على النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، لقوله تعالى :

---

(١) ذن : سال مخاطه ، وفى مجمع الأمثال : « وان كان اذن » .

(٢) العيص : الجماعة من السدر تجتمع فى مكان واحد . والأشب : شدة التفاف الشجر حتى لا مجاز فيه .

« يا أيها المزمل[١] . قم الليـــل الا قليلا . نصفه أو انقص منه قليـــلا »[٢] .

ثم نسخ بقوله تعـــالى : « .. علم أن لن تحصوه فتاب عليكم[٣] ، فاقرأوا ما تيسر من القرآن »[٤] :

قال ابن عباس فى تفسيره : قم الليل يعنى قم الليل كله الا قليلا منه . فاشتد ذلك على النبى صلى الله عليـــه وسلم وعلى أصحابه . وقاموا الليل كله ولم يعرفوا ما حد القليـــل ؟ فأنزل الله تعـــالى : **« نصفه أو انقص منه قليلا »** ، فاشتد ذلك أيضا عليهم وقاموا حتى انتفخت أقدامهم ، ففعلوا ذلك سنة ، فأنزل الله تعالى ناسختها ، فقال : **« علم أن لن تحصوه »** ، يعنى قيام الليل من الثلث والنصف ، وكان هـــذا قبل فرض الصلوات الخمس اه .

وعن عكرمة أن ابن عباس ، قال فى المزمل : **« قم الليل الا قليلا . نصفه .. »** نسختها الآية التى فيها : **« علم أن لن تحصوه فتاب عليـــكم ، فاقرأوا ما تيسر من القرآن »** الأثر : أخرجه أبو داوود والبيهقى .

وعن سماك الحنفى أن ابن عباس قال : لمـــا نزلت أول المزمل كانوا يقومون نحوا من قيامهم فى شهر رمضان حتى نزل آخرها . وكان بين أولها وآخرها سنة . أخرجه أبو داوود والبيهقى ومحمد بن نصر .

وبهذا .. صار قيام الليل مندوبا فى حق النبى صلى الله عليه وسلم وأمته .

ويؤيده قول سعد بن هشام : انطلقت الى ابن عباس فسألته عن الوتر فقال : ألا أدلك على أعلم أهل الأرض بوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت : من ؟ قال : عائشة رضى الله عنها فأتها فسلها ، ثم أعلمنى ما ترد عليك . فانطلقت اليها فأتيت على حكيم بن أفلح فاستصحبته ، فانطلقنا الى عائشة فاستأذنا فدخلنا فقالت : من هـــذا ؟ قال : حكيم بن أفلح . فقالت : من هذا معك ؟ قلت : سعد بن هشام .

---

(١) أصله المتزمل قلبت التاء زايا وأدغمت ، أى المتلفف فى ثيابه ، وهو وصف للنبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) المزمل : ١ ــ ٣

(٣) أى خفف عنكم باسقاط فرض قيام الليل ، فالمراد بالتوبة ، التوبة اللغوية وهى التخفيف .

(٤) المزمل : ٢٠

قالت : ومن هشام ؟ قلت ابن عامر • قالت : نعم المرء كان عامر أصيب يوم أحد • قلت : يا أم المؤمنين •• أنبئيني عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم • فقالت : ألست تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى • قالت : فان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن • فهممت أن أقوم فبدا لى • فقلت : أنبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أم المؤمنين • قالت : ألست تقرأ : يا أيها المزمل ؟ قلت : بلى • قالت : فان الله تعالى افترض القيام فى أول هذه السورة ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم ، وأمسك الله خاتمتها اثنى عشر شهرا فى السماء ، ثم أنزل الله التخفيف فى آخر هذه السورة فصار قيام الليل تطوعا بعد أن كان فريضة • الحديث أخرجه مسلم والنسائى والبيهقى ، وهذا لفظه •

وبهذا قال الجمهور وحكى عن ابن عباس ومجاهد وزيد بن أسلم •

وقال مالك : لم يزل قيام الليل فرضا فى حق النبى صلى الله عليه وسلم •

وروى هذا أيضا عن ابن عباس والشافعى لظاهر قوله تعالى : « **ومن الليل فتهجد به نافلة لك** »[1] • أى : فريضة زائدة على الصلوات الخمس خاصة بك دون أمتك •

قال فى الدين الخالص — ج ٥ — بعد ذلك :

« ولا يقال : ان الخطاب له صلى الله عليه وسلم خطاب لأمته ، لأن محل هذا ما لم يقم دليل على الخصوصية كما هنا • فان قوله تعالى : « **نافلة لك** » بعد قوله تعالى : « **فتهجد** » دليل على أن الخطاب خاص به صلى الله عليه وسلم دون أمته • قال ابن عباس : ذلك خاصة للنبى صلى الله عليه وسلم ، أمر بقيام الليل وكتب عليه • أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه •

وأجاب الجمهور بأن المعنى : جعل التهجد نفلا فى حقك زيادة لدرجاتك وشكر أمتك لمولاك على ما أولاك • أما فى حق الأمة فشرع تكفيرا للسيئات •

---

(١) أمر للنبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالتهجد وهو الصلاة ليلا بعد النوم — والآية من سورة الاسراء : ٧٩

ثم يقول فى الدين الخالص ، تحت عنوان :

فضل قيـــام الليـــل

هو فى الفضل فى المرتبة الرابعة بعد المكتوبة والرواتب وما تشرع فيه الجماعة كالعيد والكسوف والتراويح •

وبهذا قال الجمهور ، وعن أحمد وبعض الشافعية أنه يلى المكتوبة فى الفضل •

قال ابن قدامة فى المغنى : وتطوع الليل أفضل من تطوع النهار ، قال أحمد : ليس بعد المكتوبة عندى أفضل من قيام الليل ، والنبى صلى الله عليـــه وسلم قد أمر بذلك • قال الله تعالى : **« ومن الليـــل فتهجد به نافلة لك »** •

عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم • وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليـــل » أخرجه مسلم وأبو داوود والنسائى وابن خزيمة •

وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليـــه وسلم ، قال : « أفضل الصلاة بعد المكتوبة الصلاة فى جوف الليل ، وأفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم » أخرجه مسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه •

وقال النووى فى شرح مسلم : الحديث ــ يعنى حديث أبى هريرة الأول ــ حجة أبى اسحاق المروزى من أصحابنا ، ومن أصحابنا من وافقه على أن صلاة الليل أفضل من السنن الرواتب ، لأنهـــا تشبه الفرائض •

وقال أكثر العلماء : الرواتب أفضل ، والأول أقوى وأوفق ، لنص هـــذا الحديث •

قال الطيبى : ولعمرى ان صلاة التهجد لو لم يكن فيها فضل سوى قوله تعـــالى : **« ومن الليـــل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا »**(١) •

وقوله تعـــالى : **« تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقنـــاهم ينفقـــون • فلا تعـــلم نفس ما أخفى لهم من قـــرة أعين »**(٢) وغيرهما من الآيات لكفاه مزية اهـ •

---

(١) الاسراء : ٧٩

(٢) السجدة : ١٦ ، ١٧

وحول هاتين الآيتين ، قال — فى الهامش — فضيلة الشيخ أمين محمود خطاب رحمه الله تعالى معلقا وشارحا :

١ — أى : تهجد لنعطيك يوم القيامة مقاما يحمدك فيه الخلائق ، وهو مقام الشفاعة فى فصل القضاء :

فقد قال أبو هريرة : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المقام المحمود ، فقال : « هو الشفاعة » أخرجه الترمذى ..

٢ — « **تتجافى** » أى ترتفع جنوبهم عن مواضع النوم لتهجدهم ليلا : « **يدعون ربهم** » أى يعبدونه « **خوفا** » من وبال عقابه « **وطمعا** » فى جزيل ثوابه ، ويتصدقون مما أنعم الله عليهم . وسيدهم فى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال عبد الله بن رواحة :

وفينا رسول الله يتلو كتابه
اذا انشق معروف من الصبح ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا
به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه
اذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : قال الله تعالى : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . قال أبو هريرة : اقرأوا ان شئتم : « **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين** » .

أخرجه الشيخان والترمذى . وزاد البخارى فى رواية : وقال محمد ابن كعب : انهم أخفوا لله عملا ، فأخفى لهم ثوابا ، فلو قدموا عليه أقر تلك الأعين .

فالآية واردة فى قيام الليل وهو قول الجمهور .

* * *

وقد ورد فى فضل قيام الليل أحاديث ، منها ، ما ورد عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام حتى تورمت قدماه أو ساقاه . فقيل له : أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبدا شكورا » ؟ أخرجه أبو يعلى والبزار والطبرانى فى الأوسط بسند رجاله رجال الصحيح .

وعن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ان فى الجنة غرفا يرى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام ، ولان الكلام ، وتابع الصيام ، وقام بالليل والناس نيام » أخرجه أحمد وابن حبان والبيهقى فى الشعب والطبرانى فى الكبير بسند رجاله ثقات .

وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « اذا نام أحدكم عقد على رأسه ثلاث عقد بجرير[1] ، فان قام فذكر الله عز وجل أطلقت واحدة ، وان مضى فتوضأ أطلقت الثانية ، فان مضى فصلى أطلقت الثالثة . فان أصبح ولم يقم شيئا من الليل ولم يصل ، أصبح وهو عليه ، يعنى الجرير » أخرجه الجماعة ، وهذا لفظ أحمد .

ولفظه عند الشيخين وأبى داوود ، عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « يعقد الشيطان على قافية رأس[2] أحدكم اذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب مكان كل عقدة عليك ليل طويل[3] فارقد ، فان استيقظ فذكر الله انحلت عقدة . فان توضأ انحلت عقدة . فان صلى انحلت عقدة ، فأصبح نشيطا طيب النفس ، والا أصبح خبيث النفس كسلان » .

أى : ان لم يذكر ولم يتوضأ ولم يصل ونام حتى فاته التهجد أو صلاة الصبح : أصبح محزون القلب كثير الهم متحيرا فى أمره ، غيرمنشرح الصدر متكاسلا عن تحصيل مآربه لتركه فعل الخير وتمكن الشيطان منه .

وقد اختلف فى هـذا العقد ، فالظاهر أنه باق على حقيقته وهو الربط ، لمـا فى رواية ابن ماجه عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم بالليل بحبل فيه ثلاث عقد » .. الحديث .

---

(١) الجرير بفتح فكسر ، الحبل من جلد كالزمام . ويطلق على كل حبل مضفور ، ومنه الحديث : « ما من عبد ينام بالليل الا على رأسه جرير معقود » ذكره فى النهاية .

(٢) القافية : مؤخر العنق . وخص القفا بذلك ، لأنه محل القوة النواهنة ، وهى أطوع القوى للشيطان .

(٣) وفى روايـة للبخارى : يضرب على مكان كل عقدة ، أو يضرب بيده على العقدة تأكيدا واحكاما .

وفى رواية محمد بن نصر : على قافية رأس أحدكم بالليل حبل فيه ثلاث عقد .

وفى رواية ابن حبان : ما من ذكر ولا أنثى الا ويعقد على رأسه بجرير وهو حبل من جلد . وقيل : ان العقد مجاز كأنه شبه فعل الشيطان بالنائم من منعه من الذكر والصلاة بفعل الساحر بالمسحور من منعه من مراده . فهو من عقد القلب وتصميمه ، فكأن الشيطان يوسوس فى نفس النائم بأن عليك ليلا طويلا فيتأخر عن القيام . أو المراد به تثقيل القلب فى النوم واطالته ، فكأن الشيطان قد شد عليه شدا وعقده ثلاث عقد .

والمراد بالشيطان الجنس وفاعل ذلك هو القرين أو غيره . ويحتمل أن يراد به رأس الشياطين وهو ابليس .

ولا يقال : ان الغافلين عن قيام الليل كثيرون ، فلا يستطيع أن يعقد عليهم ، لأنا نقول : لا مانع من ذلك ، لجواز أن يعطيه الله القدرة على ذلك .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الاسلام حتى لا تكون من الغافلين الذين يعقد الشيطان على قافية رأس كل واحد منهم بحبل فيه ثلاث عقد . أو يبول الشيطان فى أذن كل واحد منهم :

ففى حديث يونس عن الحسن عن أبى هريرة أن رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ان فلانا نام البارحة ولم يصل شيئا حتى أصبح . فقال : بال الشيطان فى أذنه » . قال يونس وقال الحسن : « ان بوله والله ثقيل » أخرجه أحمد ، وأخرج الشيخان نحوه عن ابن مسعود .

* * *

واعلم أنه اذا كانت نيتك القيام ، أو كانت عادتك التهجد فغلبتك عيناك فلا لوم عليك ، بل سيكتب الله لك ثواب ما كنت تفعله من الطاعة قبل ذلك ..

فعن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ما من امرىء تكون له صلاة بليل يغلبه عليها نوم أو وجع الا كتب له أجر صلاته ، وكان نومه عليه صدقة » أخرجه مالك وأبو داوود والنسائى والبيهقى .

* * *

واعلم كذلك أنه قد اتفق العلماء على أنه ليس لصلاة الليل عدد مخصوص ، وأن العبد كلما زاد فيها زاد أجره واختلفوا فيما فعله النبى صلى الله عليه وسلم واختاره لنفسه ، والغالب من أحواله صلى الله عليه وسلم أنه كان يصلى بالليل احدى عشرة ركعة أو ثلاث عشرة ركعة بالوتر • وقد صلى تسعا وسبعا لما كبر سنه •

* * *

واعلم أن الأفضل فى صلاة الليل أن تكون مثنى مثنى • ويسن أن تفتتح بركعتين خفيفتين لينشط بهما لما بعدهما ، ثم يطيل القراءة والركوع والسجود ، وهو مخير فى القراءة بين الاسرار والجهر وهو أفضل ما لم يهوش على مصل أو نائم •

* * *

وحسبك يا أخى أن تعلم أنك عندما ستتقرب الى الله تعالى بكل هذا ، وهو : « اطعام الطعام ، وافشاء السلام ، وصلة الأرحام ، والصلاة بالليل والناس نيام » فانك ستدخل الجنة — ان شاء الله تعالى — بسلام ••

أى : مصحوبا بالسلامة من الآفات والمكاره ، أو مسلما عليك من الله تعالى والملائكة الكرام • كما يشير الى هذا قول الله تبارك وتعالى : **« وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا ، حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين • وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين »**[1] •

اللهم اجعلنا منهم ، واحشرنا فى زمرتهم •• آمين ••

* * *

(١) الزمر : ٧٣ ، ٧٤

الوصية الثالثة والخمسون

عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

« عليكم بقيام الليـــل ، فانه دأب الصالحين قبلكم ، وقربة الى ربكم ، ومكفرة للسيئات ، ومنهاة عن الاثم » ..

(رواه الترمذى فى كتـــاب الدعـــاء من جامعـــه ، وابن أبى الدنيا فى كتاب التهجد ، وابن خزيمة فى صحيحه والحاكم ، كلهم من رواية عبد الله بن صالح كاتب الليث رحمه الله ، وقال الحاكم : صحيح على شرط البخارى) .

* * *

فكن أخا الاسلام :

من المنتفعين بهذه الوصية العظيمة التى يرغبك الرسول صلى الله عليه وسلم فيها بقيام الليـــل .. لأنه كما يقول صلوات الله وسلامه عليه فى نص الوصية : دأب الصالحين قبلنا ، أى : عادتهم وشأنهم .

كما يشير الى هذا قول الله تبارك وتعالى عن عبده داوود عليه السلام :

« .. واذكر عبدنا داوود ذا الأيد انه أواب »[1] ، فقد قـــال القرطبى فى تفسير معنى : **« ذا الأيد »** ، أى : ذا القوة فى العبادة ، وكان يصوم يوما ويفطر يوما ، وذلك أشد الصوم وأفضله ، وكان يصلى نصف الليل ، وكان لا يفر اذا لاقى العدو ، وكان قويا فى الدعاء الى الله تعالى . وقوله : **« عبدنـــا »** اظهارا لشرفه بهذه الاضافة .. ثم ذكر معنى **« انه أواب »** فقال : قال الضحاك : أى تواب . وعن غيره أنه كلما ذكر ذنبه أو خطر على باله استغفر منه .. فكان داوود رجاعا الى طاعة الله ورضاه فى كل أمر فهو أهل لأن يقتدى به ..

وقال على بن أبى طالب : شبع يحيى بن زكريا عليهما السلام من خبز شعير فنام عن ورده حتى أصبح ، فأوحى الله تعالى اليه : يا يحيى

---

(١) سورة ص : ١٧

•• أوجدت دارا خيرا لك من دارى ؟ أم وجدت جوارا خيرا لك من جوارى ؟ فوعزتى وجلالى يا يحيى لو اطلعت الى الفردوس اطلاعة لذاب شحمك ، ولزهقت نفسك اشتياقا ، ولو اطلعت الى جهنم اطلاعة لذاب شحمك ، ولبكيت الصديد بعد الدموع ، ولبست الجلد بعد المسوح •

وقد قرأت كذلك أن الخبيث ابليس تبدى ليحيى بن زكريا ، فقال : انى أريد أن أنصحك ، فقال : كذبت أنت لا تنصحنى ، ولكن أخبرنى عن بنى آدم ، قال : هم عندنا على ثلاثة أصناف :

أما الصنف الأول : وهو أشد الأصناف علينا : فاننا نقبل على أحدهم حتى نفتنه ونستمكن منه ثم يفزع الى الاستغفار والتوبة فيفسد علينا كل شىء أدركناه منه ، ثم نعود فلا نحن نيأس منه ولا نحن ندرك منه حاجتنا •

وأما الصنف الثانى : فهم فى أيدينا بمنزلة الكرة فى أيدى صبياننا نتلقفهم كيف شئنا قد كفونا أنفسهم •

وأما الصنف الثالث : فهم مثلك معصومون ولا نقدر منهم على شىء •

فقال له يحيى عليـــه السلام : هل قدرت منى على شىء ؟ قال : لا •• الا مرة واحدة فانك قدمت طعاما تأكله ، فلم أزل أشهيه اليك حتى أكلت أكثر مما تريد فنمت تلك الليلة ولم تقم الى الصلاة كما كنت تقوم اليها •

فقال يحيى : لا جرم لا شبعت طعاما أبدا حتى أموت ، فقال له الخبيث : لا جرم لا نصحت آدميا بعدك أبدا •

* * *

ولهذا : كان لقمان الحكيم يقول لولده : « اذا امتلأت المعدة ، نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة » •

كما ورد كذلك فى الأثر : « من أكل كثيرا نام كثيرا ، وحرم من خير كثير » •

وذلك لأن الشبع هو أوسع أبواب ابليس ، وشرك من عظيم احتباله •

ومن أجل ذلك كان النبى صلى الله عليـــه وسلم ، يقول كذلك : « ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فان كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه •

وان صح الحديث الذى يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، واذا أكلنا لا نشبع » :

ففيه الكفاية التى يجب أن تكون دائما وابدا فى ذاكرتك ونصب عينيك حتى لا يضحك الشيطان عليك ، وحتى « لا تكون أعجز من الديك الذى يصوت بالأسحار وأنت نائم على فراشك » كما يقول لقمان الحكيم لولده محذرا اياه من الغفلة وعدم قيام الليل الذى هو دأب الصالحين ، كما قال صلوات الله وسلامه عليه .

وحسبك حتى تكون من أولى الألباب الذين يقومون الليل فاستحقوا بذلك رحمة الله تعالى ، كما يشير الى ذلك قوله تعالى : **« والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما »**[1] .

حسبك أن تقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى ورد فى صفة صلاته بالليل عدة أحاديث ، منها :

حديث كريب مولى ابن عباس أنه أخبره أنه بات عند ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم وهى خالته ، قال : فاضطجعت فى عرض الوسادة واضطجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهله فى طولها ، فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل ، استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس يمسح النوم عن وجهه بيده ، ثم قرأ العشر الآيات خواتيم سورة آل عمران[2] ثم قام الى شن[3] معلقة فتوضأ منها فأحسن وضوءه ، ثم قام يصلى . قال ابن عباس : فقمت فصنعت مثل الذى صنع . ثم ذهبت فقمت الى جنبه فوضع يده على رأسى وأخذ أذنى اليمنى ففتلها[4] فصلى ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم أوتر . ثم اضطجع حتى أتاه المؤذن فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم خرج فصلى الصبح » رواه أحمد والشيخان .

---

(١) الفرقان : ٦٤

(٢) العشر آيات من قوله تعالى : **« ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب »** الى آخر السورة (آل عمران : ١٩٠ — ٢٠٠) .

(٣) الشن ، بفتح الشين وشد النون : القربة الخلق .

(٤) ففتلها ليذهب عنه النعاس وليتنبه الى مكان المأموم .

وحديث سلمة بن كهيل عن كريب أن ابن عباس قال : بت عند خالتى ميمونة ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل فأتى حاجته ثم غسل وجهه ويديه ، ثم قام فأتى القربة فأطلق شناقها[1] ثم توضأ وضوءا بين الوضوءين ، لم يكثر وقد أبلغ ، ثم قام فصلى فقمت فتمطأت[2] كراهية أن يرى أنى كنت أرتقبه ، فتوضأت فقام يصلى فقمت عن يساره فأخذ بأذنى فأدارنى عن يمينه • فتتامت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل ثلاث عشرة ركعة ، ثم اضطجع فنام حتى نفخ ، وكان اذا نام نفخ • فأتاه بلال فآذنه بالصلاة ، فقام فصلى ولم يتوضأ[3] ، وكان يقول فى دعائه : اللهم اجعل فى قلبى نورا ، وفى بصرى نورا ، وفى سمعى نورا ، وعن يمينى نورا ، وعن يسارى نورا ، ومن فوقى نورا ، ومن تحتى نورا ، ومن أمامى نورا ، ومن خلفى نورا ، وأعظم لى نورا • قال كريب : وسبع فى التابوت[4] • قال سلمة : فلقيت بعض ولد العباس فحدثنى بهن فذكر عصبى ولحمى ودمى وشعرى وبشرى • قال : وذكر خصلتين »[5] أخرجه السبعة وهم : أحمد والبخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه •

وقول صفوان بن المعطل السلمى : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فرمقت صلاته ليلة فصلى العشاء الآخرة ثم نام • فلما كان نصف الليل استيقظ فتلا الآيات العشر آخر سورة آل عمران ، ثم تسوك ثم توضأ ثم قام فصلى ركعتين ، فلا أدرى أقيامه أم ركوعه أم سجوده أطول ؟ ثم انصرف فنام ، ثم استيقظ فتلا الآيات ثم تسوك ، ثم توضأ ثم قام فصلى ركعتين ، لا أدرى أقيامه أم ركوعه أم سجوده أطول ؟ ثم انصرف فنام ، ثم استيقظ ففعل ذلك ثم لم يزل يفعل كما

---

(١) الشناق ، بكسر ففتح ، الخيط يشد به فم القربة .

(٢) وفى رواية مسلم : فتمطيت ، أى تأخرت وتمددت من التمطى وهو مد اليدين فى حال الكسل .

(٣) لأنه كان منتبها ولأن قلبه لا ينام صلى الله عليه وسلم .

(٤) أى وسبع فى قلبى قد نسيتها .

(٥) أى فحدثنى بهن ، أى بالخصال السبعة التى نسيها كريب (وذكر خصلتين) يعنى السادسة والسابعة ولم يصرح بهما سلمة ، لاحتمال انه نسيهما .

فعل أول مرة[١] حتى صلى احدى عشرة ركعة » أخرجه ابن أحمد فى زوائد المسند .

وحديث الحسن عن سعد بن هشام ، قال : قدمت المدينة فدخلت على عائشة ، فقلت : أخبرينى عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى بالناس صلاة العشاء ثم يأوى الى فراشه فينام ، فاذا كان جوف الليل قام الى حاجته[٢] والى طهوره فتوضأ ثم دخل المسجد فصلى ثمانى ركعات ، يخيل الى أنه يسوى بينهن فى القراءة والركوع والسجود ثم يوتر بركعة . ثم يصلى ركعتين وهو جالس . ثم يضع جنبه ، فربما جاء بلال فآذنه بالصلاة ثم يغفى وربما شككت أغفى أو لا[٣] حتى يؤذنه بالصلاة ، فكانت تلك صلاته حتى أسن أو لحم[٤] . أخرجه أبو داوود والنسائى .

* * *

وحتى تكون ان شاء الله من الحريصين على قيام الليل والتهجد فيه ، حتى يكون لك زاد ينفعك فى سفرك الطويل الى الله تبارك وتعالى ، كما يشير هذا الأثر الذى جاء فى مضمونه : أن أبا ذر رضى الله عنه وقف ذات يوم أمام الكعبة ثم قال لأصحابه : أليس اذا أراد أحدكم سفرا يستعد له بزاد ؟ قالوا : نعم . قال : فسفر الآخرة أبعد مما تسافرون . فقالوا : دلنا على زاده . فقال : حجوا لعظائم الأمور ، وصلوا ركعتين فى ظلمة الليل لوحشة القبور ، وصوموا يوما شديدا حره لطول يوم النشور .

* * *

وحتى تفوز بهذا الخير ان شاء الله تعالى ، اليك كذلك هذه الآثار التى سترى من خلالها كيف كان أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن على شاكلتهم من التابعين والسلف الصالحين ، ينشطون فى قيام

---

(١) يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم صلى خمس مرات فى كل مرة ركعتين ثم أوتر بواحدة ، ويحتمل أنه صلى أربع مرات فى كل مرة ركعتين ثم أوتر بثلاث .

(٢) المراد بالحاجة البول ونحوه .

(٣) الاغفاء : هو النوم الخفيف .

(٤) أسن : أى كبر سنه ، ولحم : أى كنز لحمه .

الليل ويحرصون عليه إقتداء بمثلهم الأعلى ، صلوات الله وسلامه عليه الذى أمرهم الله تعالى جميعا بالاقتداء به فقال : « **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** »(١) :

فقد روى أنه كان على عهد النبى صلى الله عليه وسلم رجل اذا أخذ الناس مضاجعهم ، وهدأت العيون ، قام يصلى ويقرأ القرآن ويقول : يا رب النار أجرنى منها ، فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : « اذا كان ذلك فآذنونى(٢) ، فأتاه فاستمع فلما أصبح ، قال : يا فلان .. هلا سألت الله الجنة ؟ قال : يا رسول الله .. انى لست هناك ، ولا يبلغ عملى ذلك ، فلم يلبث الا يسيرا حتى نزل جبرائيل عليه السلام ، قال : « أخبر فلانا أن الله قد أجاره من النار وأدخله الجنة » .

ويروى أن جبرائيل عليه السلام ، قال للنبى صلى الله عليه وسلم : « نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلى بالليل ، فأخبره النبى صلى الله عليه وسلم بذلك ، فكان يداوم بعده على قيام الليل » قال نافع : كان يصلى بالليل ، ثم يقول : يا نافع أسحرنا(٣) فأقول : لا . فيقوم لصلاته ، ثم يقول : يا نافع أسحرنا ، فأقول : نعم ، فيقعد ، فيستغفر الله تعالى حتى يطلع الفجر(٤) .

وروى أن عمر رضى الله عنه ، كان يمر بالآية من ورده بالليل ، فيسقط حتى يعاد منها أياما كثيرة كما يعاد المريض .

وكان ابن مسعود رضى الله عنه : اذا هدأت العيون قام فيسمع له دوى كدوى النحل حتى يصبح .

ويقال : ان سفيان الثورى رحمه الله : شبع ليلة ، فقال : ان الحمار اذا زيد فى علفه زيد فى عمله ، فقام تلك الليلة حتى أصبح .

وكان طاووس رحمه الله اذا اضطجع على فراشه يتقلى عليه كما تتقلى الحبة على المقلاة ، ثم يثب ويصلى الى الصباح ، ثم يقول : طير ذكر جهنم نوم العابدين .

---

(١) الأحزاب : ٢١ (٢) أى أخبرونى .

(٣) أسحرنا : أى صرنا فى وقت السحر .

(٤) قال فى هامش الاحياء : الحديث متفق عليه .. وليس فيه ذكر لجبريل .

وقال الحسن رحمه الله : ما نعلم عملا أشد من مكابدة الليل ، ونفقة هـذا المـال ، فقيل له : ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوها ؟ قال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره .

وقدم بعض الصالحين من سفره فمهد له فراش ، فنام عليه حتى فاته ورده ، فحلف أن لا ينام بعدها على فراش أبدا .

وكان عبد العزيز بن أبى داوود : اذا جن الليل يأتى فراشه فيمر يده عليـه ، ويقول : انك للين ، ووالله ان فى الجنة لألين منك ، ولا يزال يصلى الليل كله .

وقال الفضيل : انى لأستقبل الليل من أوله فيهولنى طوله فأفتتح القرآن فأصبح وما قضيت نهمتى .

وقال الحسن : ان الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل .

وقال الفضيل : اذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار ، فاعلم أنك محروم ، وقد كثرت خطيئتك .

وكان صلة بن أشيم رحمه الله : يصلى الليل كله ، فاذا كان فى السحر ، قال : الهى ليس مثلى يطلب الجنة ، ولكن أجرنى برحمتك من النار .

وقال رجل لبعض الحكماء : انى لأضعف عن قيام الليل ، فقال له : يا أخى لا تعص الله بالنهار ولا تقم بالليل .

وكان للحسن بن صالح جارية فباعها من قوم ، فلما كان فى جوف الليل قامت الجارية ، فقالت : يا أهل الدار الصلاة الصلاة . فقالوا : أصبحنا ؟ أطلع الفجر ؟ فقالت : وما تصلون الا المكتوبة ؟ قالوا : نعم . فرجعت الى الحسن ، فقالت : يا مولاى بعتنى من قوم لا يصلون الا المكتوبة ، ردنى ، فردها .

وقال الربيع : بت فى منزل الشافعى رضى الله عنه ليالى كثيرة ، فلم يكن ينام من الليل الا يسيرا .

وقال أبو الجويرية : لقد صحبت أبا حنيفة رضى الله عنه ستة أشهر ، فما فيها ليلة وضع جنبه على الأرض ، وكان أبو حنيفة يحيى نصف الليل ، فمر بقوم ، فقالوا : ان هذا يحيى الليل كله ، فقال : انى أستحى أن أوصف بما لا أفعل ، فكان بعد ذلك يحيى الليل كله ، ويروى أنه ما كان له فراش بالليل .

ويقال : ان مالك بن دينار رضى الله عنه : بات يردد هـذه الآية

حتى أصبح : « **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات** »[1] الآيـــة .

وقال المغيرة بن حبيب : رمقت مالك بن دينار فتوضأ بعد العشاء ، ثم قام الى مصلاه فقبض على لحيته فخنقته العبرة ، فجعل يقول : اللهم حرم شيبة مالك على النار ، الهى قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار ، فأى الرجلين مالك ؟ وأى الدارين دار مالك ؟ فلم يزل ذلك قوله حتى طلع الفجر .

وقال مالك بن دينار : سهوت ليلة عن وردى ونمت ، فاذا أنا فى المنام بجارية كأحسن ما يكون وفى يدها رقعة ، فقالت لى : أتحسن تقرأ ؟ فقلت : نعم ، فدفعت الى الرقعة فاذا فيها :

أألهتـــك اللذائذ والأمـــانى عن البيض الأوانس فى الجنان
تعيش مخلدا لا موت فيـــها وتلهو فى الجنان مع الحسان
تنبه من منامـــك ان خـــيرا من النـــوم التهجد بالقرآن

وقيل : حج مسروق فما بات ليلة الا ساجدا .

ويروى عن أزهر بن مغيث وكان من القوامين ، أنه قال : رأيت فى المنام امرأة لا تشبه نساء أهل الدنيا ، فقلت لها : من أنت ؟ قالت : حوراء . فقلت : زوجينى نفسك ، فقالت : أخطبنى الى سيدى وأمهرنى ، فقلت : وما مهرك ؟ قالت : طول التهجد .

وقال يوسف بن مهران : بلغنى أن تحت العرش ملكا فى صورة ديك براثنه من لؤلؤ ، وصئصئه من زبرجد أخضر ، فاذا مضى ثلث الليل الأول ضرب بجناحيه وزقى وقال : ليقم القائمون ، فاذا مضى نصف الليل ضرب بجناحيه وزقى وقال : ليقم المتهجدون ، فاذا مضى ثلثـــا الليـــل ضرب بجناحيه وزقى ، وقال : ليقم المصلون ، فاذا طلع الفجر ضرب بجناحيه وقال : ليقم الغافلون وعليهم أوزارهم .

وقيل : ان وهب بن منبه اليمانى ما وضع جنبه الى الأرض ثلاثين سنة ، وكان يقول : لأن أرى فى بيتى شيطانا أحب الى من أن أرى فى بيتى وسادة لأنها تدعو الى النوم ، وكانت له مسورة من أدم اذا غلبه النوم وضع صدره عليها ، وخفق خفقات ، ثم يفزع الى الصلاة .

وروى فى بعض الكتب القديمة عن الله تعالى ، أنه قال : ان عبدى الذى هو عبدى حقا الذى لا ينتظر بقيامه صياح الديكة .

---

(١) الجاثية : ٢١

فاذا كنت أخا الاسلام ـ بعد أن وقفت على كل هـذه الآثار والأقوال ـ : ستعمل من جانبك على أن تكون متشبها بهؤلاء الرجال ، حتى تكون من أهل الفلاح ، كما يشير الى هذا الشاعر فى قوله :

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم
ان التشبه بالرجال فلاح

* * *

اذا كنت ستفعل هذا ان شاء الله فاننى أرى أن أزودك كذلك بعد ذلك بكلام هام ، لابد وأن تقف عليه حتى يتيسر لك هذا بعون الله تعالى وتوفيقه .. وهو ما ذكره الإمام الغزالى رحمه الله تعالى فى كتابه الاحياء[1] ، تحت عنوان :

بيان الأسباب التى بها يتيسر قيام الليل

فيقول رحمه الله ورضى عنه وأرضاه :

اعلم أن قيام الليل عسير على الخلق الا على من وفق للقيام بشروطه الميسرة له ظاهرا وباطنا .

فأما الظاهر : فأربعة أمور .

الأول : أن لا يكثر الأكل فيكثر الشرب فيغلبه النوم ويثقل عليه القيام ، كان بعض الشيوخ يقف على المائدة كل ليلة ويقول : معاشر المريدين لا تأكلوا كثيرا ، فتشربوا كثيرا ، فترقدوا كثيرا ، فتتحسروا عند الموت كثيرا ، وهذا هو الأصل الكبير وهو تخفيف المعدة عن ثقل الطعام .

الثانى : أن لا يتعب نفسه بالنهار فى الأعمال التى تعيا بها الجوارح ، وتضعف بها الأعصاب ، فان ذلك أيضا مجلبة للنوم .

الثالث : أن لا يترك القيلولة بالنهار فانها سنة ، للاستعانة على قيام الليل .

الرابع : أن لا يحتقب الأوزار بالنهار ، فان ذلك مما يقسى القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة :

قال رجل للحسن : يا أبا سعيد .. انى أبيت معافى ، وأحب قيام الليل ، وأعد طهورى ، فما بالى لا أقوم ؟ فقال : ذنوبك قيدتك .

---

(١) باختصار وتصرف .

وكان الحسن رحمه الله : اذا دخل السوق فسمع لغطهم ولغوهم ، يقول : أظن أن ليل هؤلاء ليل سوء فانهم لا يقيلون .

وقال الثورى : حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته ، قيل : وما ذاك الذنب ؟ قال : رأيت رجلا يبكى ، فقلت فى نفسى : هـذا مراء .

وقال بعضهم : دخلت على كرز بن وبرة وهو يبكي ، فقلت : أتاك نعى بعض أهلك ؟ فقال : أشد . فقلت : وجع يؤلمك ؟ قال : أشد . قلت : فما ذاك ؟ قال : بابى مغلق ، وسترى مسبل ، ولم أقرأ حزبى البارحة ، وما ذاك الا بذنب أحدثته ، وهذا لأن الخير يدعو الى الخير ، والشر يدعو الى الشر ، والقليل من كل واحد منهما : يجر الى الكثير .

ولذلك قال أبو سليمان الدارانى : لا تفوت أحدا صلاة الجماعة الا بذنب ، وكان يقول : الاحتلام بالليل عقوبة ، والجنابة بعد .

وقال بعض العلماء : اذا صمت يا مسكين ، فانظر عند من تفطر ، وعلى أى شىء تفطر ، فان العبد ليأكل أكلة فينقلب قلبه عما كان عليه ، ولا يعود الى حالته الأولى ، فالذنوب كلها تورث قساوة القلب ، وتمنع من قيام الليـل ، وأخصها بالتأثير : تناول الحرام ، وتؤثر اللقمة الحلال فى تصفية القلب وتحريكه الى الخير ما لا يؤثر غيرها ، ويعرف ذلك أهل المراقبة للقلوب بالتجربة بعد شهادة الشرع له .

ولذلك قال بعضهم : كم من أكلة منعت قيام ليلة ، وكم من نظرة منعت قراءة سورة ، وان العبد ليأكل أكلة ، أو يفعل فعلة ، فيحرم بها قيام سنة ، وكما أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فكذلك الفحشاء تنهى عن الصلاة وسائر الخيرات .

وقال بعض السجانين : كنت سجانا نيفا وثلاثين سنة ، أسأل كل مأخوذ بالليل ، أنه هل صلى العشاء فى جماعة ، فكانوا يقولون : لا ، وهذا تنبيه على أن بركة الجماعة تنهى عن تعاطى الفحشاء والمنكر .

وأما الميسرات الباطنة فأربعة أمور :

الأول : سلامة القلب عن الحقد على المسلمين ، وعن البدع ، وعن فضول هموم الدنيا ، فالمستغرق الهم بتدبير الدنيا لا يتيسر له القيام ، وان قام فلا يتفكر فى صلاته الا فى مهماته ، ولا يجول الا فى وساوسه ، وفى مثل ذلك يقال :

يخبرني البواب أنك نائم
وأنت اذا استيقظت أيضا فنائم

الثاني : خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل ، فانه اذا تفكر في أهوال الآخرة ، ودركات جهنم طار نومه ، وعظم حذره ، كما قال طاووس : ان ذكر جهنم طير نوم العابدين .

وكما حكى : أن غلاما بالبصرة اسمه صهيب كان يقوم الليل كله ، فقالت له سيدته : ان قيامك بالليل يضر بعملك بالنهار ، فقال : ان صهيبا اذا ذكر النار لا يأتيه النوم .

وقيل لغلام آخر وهو يقوم كل الليل ، فقال : اذا ذكرت النار اشتد خوفي ، واذا ذكرت الجنة اشتد شوقي ، فلا أقدر أن أنام .

وقال ذو النون المصري رحمه الله :

منع القرآن بوعده ووعيده مقل العيون بليلها أن تهجعا
فهموا عن الملك الجليل كلامه فرقا بهم ذلت اليه تخضعا

وأنشدوا أيضا :

يا طويل الرقاد والغفلات كثرة النوم تورث الحسرات
ان في القبر ان نزلت به لرقادا يطول بعد الممات
ومهادا ممهدا لك فيه بذنوب عملت أو حسنات
أأمنت البيات من ملك المو ت ، وكم نال آمنا ببيات

وقال ابن المبارك رحمه الله :

اذا ما الليل أظلم كابدوه فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع

الثالث : أن يعرف فضل قيام الليل بسماع الآيات والأخبار والآثار ، حتى يستحكم به رجاؤه وشوقه الى ثوابه فيهيجه الشوق لطلب المزيد والرغبة في درجات الجنان ، كما حكى أن بعض الصالحين رجع من غزوته ، فمهدت امرأته فراشها وجلست تنتظره ، فدخل المسجد ولم يزل يصلي حتى أصبح ، فقالت له زوجته : كنا ننتظرك مدة ، فلما قدمت صليت الى الصبح .. قال : والله اني كنت أتفكر في حوراء من حور الجنة طول الليل فنسيت الزوجة والمنزل فقمت طول ليلتي شوقا اليها .

الرابع : وهو أشرف البواعث : الحب لله وقوة الايمان بأنه في قيامه لا يتكلم بحرف الا وهو مناج ربه ، وهو مطلع عليه مع مشاهدة ما يخطر بقلبه ، وأن تلك الخطرات من الله تعالى خطاب معه ، فاذا أحب الله

تعالى أحب لا محالة الخلوة به ، وتلذذ بالمناجاة ، فتحمله لذة المناجاة بالحبيب على طول القيام .

ولا ينبغي أن تستبعد هذه اللذة اذ يشهد لها العقل والنقل .

فأما العقل : فليعتبر حال المحب لشخص بسبب جماله ، أو لملك بسبب انعامه وأمواله أنه كيف يتلذذ به في الخلوة ومناجاته ، حتى لا يأتيه النوم طول ليله .

فان قلت : ان الجميل يتلذذ بالنظر اليه وان الله تعالى لا يرى[1] :

فاعلم أنه لو كان الجميل المحبوب وراء ستر ، أو كان في بيت مظلم ، لكان المحب يتلذذ بمجاورته المجردة دون النظر ودون الطمع في أمر آخر سواه ، وكان يتنعم باظهار حبه عليه وذكره بلسانه بمسمع منه ، وان كان ذلك أيضا معلوما عنده .

فان قلت : انه ينتظر جوابه ، فيتلذذ بسماع جوابه ، وليس يسمع كلام الله تعالى .

فاعلم أنه كان يعلم أنه لا يجيبه ويسكت عنه ، فقد بقيت له أيضا لذة في عرض أحواله عليه ، ورفع سريرته اليه ، كيف والموقن يسمع من الله تعالى كل ما يرد على خاطره في أثناء مناجاته ، فيتلذذ به ، وكذا الذي يخلو بالملك ويعرض عليه حاجاته في جنح الليل يتلذذ به في رجاء انعامه ، والرجاء في حق الله تعالى أصدق ، وما عند الله خير وأبقى وأنفع مما عند غيره . فكيف لا يتلذذ بعرض الحاجات عليه في الخلوات .

وأما النقل : فيشهد له أحوال قوام الليل في تلذذهم بقيام الليل ، واستقصارهم له ، كما يستقصر المحب ليلة وصال الحبيب ، حتى قيل لبعضهم : كيف أنت والليل ؟ قال : ما راعيته قط ، يريني وجهه ثم ينصرف ، وما تأملته بعد .

وقال آخر : أنا والليل فرسا رهان ، مرة يسبقني الى الفجر ، ومرة يقطعني عن الفكر .

وقيل لبعضهم : كيف الليل عليك ؟ فقال : ساعة ، أنا فيها بين حالتين أفرح بظلمته اذا جاء ، وأغتم بفجره اذا طلع ، ما تم فرحي به قط .

---

(١) بضم الراء .. فالله تعالى : « **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** » (الأنعام : ١٠٣) .

وقال على بن بكار : منذ أربعين سنة ما أحزننى شىء سوى طلوع الفجر .

وقال الفضيل بن عياض : اذا غربت الشمس فرحت بالظلام ، لخلوتى بربى ، واذا طلعت حزنت لدخول الناس على .

وقال أبو سليمان : أهل الليل فى ليلهم ألذ من أهل اللهو فى لهوهم ، ولولا الليل ما أحببت البقاء فى الدنيا .

وقال أيضا : لو عوض الله أهل الليل من ثواب أعمالهم ما يجدون من اللذة لكان ذلك أكثر من ثواب أعمالهم .

وقال بعض العلماء : ليس فى الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة الا ما يجده أهل التملق فى قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة .

وقال بعضهم : لذة المناجاة ليست من الدنيا ، انما هى من الجنة ، أظهرها الله تعالى لأوليائه لا يجدها سواهم .

وقال ابن المكندر : ما بقى من لذات الدنيا الا ثلاث : قيام الليل ، ولقاء الاخوان ، والصلاة فى الجماعة .

وقال بعض العارفين : ان الله تعالى ينظر بالأسحار الى قلوب المتيقظين فيملؤها أنوارا ، فترد الفوائد على قلوبهم فتستنير ثم تنتشر من قلوبهم العوافى الى قلوب الغافلين .

وقال بعض العلماء من القدماء : ان الله تعالى أوحى الى بعض الصديقين : ان لى عبادا من عبادى أحبهم ويحبوننى ، ويشتاقون الى وأشتاق اليهم ، ويذكروننى وأذكرهم ، وينظرون الى وأنظر اليهم ، فان حذوت طريقهم أحببتك ، وان عدلت عنهم مقتك . قال : يا رب .. وما علامتهم ؟ قال : يراعون الظلال بالنهار ، كما يراعى الراعى غنمه ، ويحنون الى غروب الشمس كما تحن الطير الى أوكارها ، فاذا جنهم الليـــل ، واختلط الظلام ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، نصبوا الى أقدامهم ، وافترشوا الى وجوههم ، وناجونى بكلامى ، وتملقوا الى بانعامى ، فبين صارخ وباكى ، وبين متأوه وشاكى ، بعينى ما يتحملون من أجلى ، وبسمعى ما يشتكون من حبى ..

أول ما أعطيهم : أقذف من نورى فى قلوبهم ، فيخبرون عنى ، كما أخبر عنهم .

والثانيـــة : لو كانت السموات السبع والأرضون السبع وما فيهما فى موازينهم لاستقللتها لهم .

والثالثة : أقبل بوجهى عليهم ، أفترى من أقبلت بوجهى عليه أيعلم أحد ما أريد أن أعطيه ؟ ..

وقال مالك بن دينار رحمه الله : اذا قام العبد يتهجد من الليل قرب منه الجبار عز وجل ، وكانوا يرون ما يجدون من الرقة والحلاوة فى قلوبهم والأنوار من قرب الرب تعالى من القلب .

وفى الأخبار عن الله عز وجل : أى عبدى ، أنا الله الذى اقتربت من قلبك ، وبالغيب رأيت نورى .

وشكا بعض المريدين الى أستاذه طول سهر الليل ، وطلب حيلة يجلب بها النوم ، فقال أستاذه : يا بنى .. ان لله نفحات فى الليل والنهار ، تصيب القلوب المتيقظة ، وتخطىء القلوب النائمة ، فتعرض لتلك النفحات ، فقال : يا سيدى تركتنى لا أنام بالليل ولا بالنهار .

واعلم أن هذه النفحات بالليل أرجى لما فى قيام الليل من صفاء القلب واندفاع الشواغل ، وفى الخبر الصحيح :

عن جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « ان من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيرا الا أعطاه اياه » .

وفى رواية أخرى : « يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة الا أعطاه اياه » وذلك كل ليلة ، ومطلوب القائمين تلك الساعة وهى مبهمة فى جملة الليل كليلة القدر فى شهر رمضان ، وكساعة يوم الجمعة ، وهى ساعة النفحات المذكورة ، والله أعلم .

* * *

واتماما للفائدة ، فاننى أرى أن أسوق اليك كذلك ما قاله فى الاحياء بعد ذلك ، تحت عنوان :

بيان طرق القسمة لأجزاء الليل

حيث يقول رحمه الله تعالى :

اعلم أن احياء الليل من حيث المقدار له سبع مراتب :

الأولى : احياء كل الليل : وهذا شأن الأقوياء الذين تجردوا لعبادة الله تعالى ، وتلذذوا بمناجاته ، وصار ذلك غذاء لهم وحياة لقلوبهم ، فلم يتعبوا بطول القيام ، وردوا المنام الى النهار فى وقت اشتغال الناس ، وقد كان ذلك طريق جماعة من السلف كانوا يصلون الصبح بوضوء العشاء ، حكى أبو طالب المكى : أن ذلك حكى على سبيل

التواتر والاشتهار عن أربعين من التابعين وكان فيهم من واظب عليه أربعين سنة ، قال : منهم سعيد بن المسيب ، وصفوان بن سليم المدنيان ، وفضيل بن عياض ، ووهيب بن الور المكيان ، وطاووس ، ووهب بن منبه اليمانيان ، والربيع بن خيثم ، والحكم الكوفيان ، وأبو سليمان الدارانى ، وعلى بن بكار الشاميان ، وأبو عبد الله الخواص وأبو عاصم العباديان ، وحبيب أبو محمد ، وأبو جابر السلمانى الفارسيان ، ومالك بن دينار ، وسليمان التيمى ، ويزيد الرقاشى ، وحبيب بن أبى ثابت ، ويحيى البكاء ، البصريون ، وكهمس بن المنهال ، وكان يختم فى الشهر تسعين ختمة ، وما لم يفهمه رجع وقرأه مرة أخرى ، وأيضا من أهل المدينة أبو حازم ، ومحمد بن المكندر فى جماعة يكثر عددهم .

المرتبة الثانية : أن يقوم نصف الليل ، وهذا لا ينحصر عدد المواظبين عليه من السلف ، وأحسن طريق فيه أن ينام الثلث الأول من الليل ، والسدس الأخير منه ، حتى يقع قيامه فى جوف الليل ووسطه فهو الأفضل .

المرتبة الثالثة : أن يقوم ثلث الليل ، فينبغى أن ينام النصف الأول والسدس الأخير ، وبالجملة نوم آخر الليل محبوب ، لأنه يذهب النعاس بالغداة ، وكانوا يكرهون ذلك ، ويقلل صفرة الوجه ، والشهرة به ، فلو قام أكثر الليل ، ونام سحرا قلت صفرة وجهه ، وقل نعاسه ، وقالت عائشة رضى الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أوتر من آخر الليل ، فان كانت له حاجة الى أهله دنا منهن ، والا اضطجع فى مصلاه حتى يأتيه بلال ، فيؤذنه للصلاة ، وقالت أيضا رضى الله عنها : ما ألفيته بعد السحر الا نائما ، حتى قال بعض السلف : هذه الضجعة قبل الصبح سنة ، منهم أبو هريرة رضى الله عنه ، وكان نوم هذا الوقت سببا للمكاشفة والمشاهدة من وراء حجب الغيب ، وذلك لأرباب القلوب وفيه استراحة تعين على الورد الأول من أوراد النهار ، وقيام ثلث الليل من النصف الأخير ، ونوم السدس الأخير قيام داوود صلى الله عليه وسلم .

المرتبة الرابعة : أن يقوم سدس الليل أو خمسه ، وأفضله أن يكون فى النصف الأخير وقبل السدس الأخير منه .

المرتبة الخامسة : أن لا يراعى التقدير ، فان ذلك انما يتيسر لنبى

يوحى اليه أو لمن يعرف منازل القمر ويوكل به من يراقبه ، ويواظبه ، ويوقظه ، ثم ربما يضطرب فى ليالى الغيم ، ولكنه يقوم من أول الليل الى أن يغلبه النوم ، فاذا انتبه قام ، فاذا غلبه النوم عاد الى النوم فيكون له فى الليل نومتان ، وقومتان وهو من مكابدة الليل ، وأشد الأعمال وأفضلها وقد كان هذا من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو طريقة ابن عمر ، وأولى العزم من الصحابة ، وجماعة من التابعين رضى الله عنهم ، وكان بعض السلف يقول : هي أول نومة ، فاذا انتبهت ثم عدت الى النوم فلا أنام الله لى عينا ، فأما قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث المقدار ، فلم يكن على ترتيب واحد بل ربما كان يقوم نصف الليل ، أو ثلثيه ، أو ثلثه ، أو سدسه ، يختلف ذلك فى الليالى ، ودل عليه قوله تعالى فى الموضعين من سورة المزمل : **« ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه »**[1] ، فأدنى من ثلثى الليل كأنه نصفه ، ونصف سدسه ، فان كسر قوله : ونصفه وثلثه كان نصف الثلثين وثلثه فيقرب من الثلث والربع ، وان نصب كان نصف الليل ، وقالت عائشة رضى الله عنها : كان صلى الله عليه وسلم يقوم اذا سمع الصارخ يعنى الديك ، وهذا يكون السدس فما دونه ، وروى غير واحد ، أنه قال : راعيت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السفر ليلا ، فنام بعد العشاء زمانا ، ثم استيقظ فنظر فى الأفق ، فقال : **« .. ربنا ما خلقت هذا باطلا .. »** حتى بلغ : **« انك لا تخلف الميعاد »**[2] ثم استل من فراشه سواكا فاستاك به ، وتوضأ وصلى ، حتى قلت : صلى مثل الذى نام ، ثم اضطجع حتى قلت : نام مثل ما صلى ، ثم استيقظ فقال ما قال أول مرة وفعل ما فعل أول مرة .

المرتبة السادسة : وهى الأقل أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين ، أو تتعذر عليه الطهارة ، فيجلس مستقبل القبلة ساعة مشتغلا بالذكر والدعاء ، فيكتب فى جملة قوام الليل برحمة الله وفضله ، وقد جاء فى الأثر : « صل من الليل ولو قدر حلب شاة » . فهذه طرق القسمة فليختر المريد لنفسه ما يراه أيسر عليه وحيث يتعذر عليه القيام فى وسط الليل فلا ينبغى أن يهمل احياء ما بين العشاءين ، والورد

---

(١) المزمل : ٢٠ (٢) آل عمران : ١٩١ — ١٩٤

الذى بعد العشاء ، ثم يقوم قبل الصبح وقت السحر فلا يدركه الصبح نائما ، ويقوم بطرفى الليل وهذه هى الرتبة السابعة ، ومهما كان النظر الى المقدار ، فترتيب هـذه المراتب بحسب طول الوقت وقصره ، وأما فى الرتبة الخامسة والسابعة لم ينظر فيهما الى القدر فليس يجرى أمرهما فى التقدم والتأخر على الترتيب المذكور اذ السابعة ليست دون ما ذكرناه فى السادسة ولا الخامسة دون الرابعة .

* * *

ثم يقول الامام الغزالى رحمه الله تعالى ، تحت عنوان :

بيان الليالى والأيام الفاضلة

أعلم أن الليالى المخصوصة بمزيد الفضل التى يتأكد فيها استحباب الاحياء فى السنة خمس عشرة ليلة ، لا ينبغى أن يغفل المريد عنها ، فانها مواسم الخيرات ، ومظان التجارات ، ومتى غفل التاجر عن المواسم لم يربح ، ومتى غفل المريد عن فضائل الأوقات لم ينجح ، فستة من هـذه الليالى فى شهر رمضان ، خمس فى أوتار العشر الأخير ، اذ فيها تطلب ليلة القدر ، وليلة سبع عشرة من رمضان ، فهى ليلة صبيحتها يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، فيه كانت وقعة بدر ، وقال ابن الزبير رحمه الله : هى ليلة القدر ، وأما التسع الأخر : فأول ليلة من المحرم ، وليلة عاشوراء ، وأول ليلة من رجب ، وليلة النصف منه ، وليلة سبع وعشرين منه ، وهى ليلة المعراج ، وفيها صلاة مأثورة ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « للعامل فى هـذه الليلة حسنات مائة سنة ، فمن صلى فى هذه الليلة اثنتى عشرة ركعة يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة من القرآن ويتشهد فى كل ركعتين ويسلم فى آخرهن ، ثم يقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله أكبر مائة مرة ، ثم يستغفر الله مائة مرة ، ويصلى على النبى صلى الله عليه وسلم مائة مرة ، ويدعو لنفسه بما شاء من أمر دنياه وآخرته ، ويصبح صائما ، فان الله يستجيب دعاءه كله الا أن يدعو فى معصية »[1] ، وليلة النصف من شعبان ، ففيها مائة ركعة ، يقرأ فى كل ركعة بعد الفاتحة سورة الاخلاص عشر مرات ، كانوا لا يتركونها كما أوردناه فى صلاة التطوع ، وليلة عرفة ، وليلتا العيدين ، قال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) جاء فى هامش الاحياء انه ضعيف جدا بل هو منكر . وهـذا للعلم ..

« من أحيا ليلتى العيدين لم يمت قلبه يوم تموت القلوب »[١] .

وأما الأيام الفاضلة : فتسعة عشر ، يستحب مواصلة الأوراد فيها : يوم عرفة ، ويوم عاشوراء ، ويوم سبعة وعشرين من رجب له شرف عظيم ، وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب الله له صيام ستين شهرا »[٢] ، وهو اليوم الذى أهبط الله فيه جبرائيل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة ، ويوم سبعة عشر من رمضان ، وهو يوم وقعة بدر ، ويوم النصف من شعبان ، ويوم الجمعة ، ويوما العيدين ، والأيام المعلومات ، وهى عشر من ذى الحجة ، والأيام المعدودات ، وهى أيام التشريق .

وقد روى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام ، واذا سلم شهر رمضان سلمت السنة »[٣] ، وقال بعض العلماء : من أخذ مهناة فى الأيام الخمسة فى الدنيا لم ينل مهناة فى الآخرة ، وأراد به العيدين ، والجمعة ، وعرفة ، وعاشوراء .

ومن فواضل الأيام فى الأسبوع : يوم الخميس ، والاثنين ، ترفع فيهما الأعمال الى الله تعالى ، ... والله أعلم ، وصلى الله على كل عبد مصطفى من كل العالمين .

* * *

فلا تنس كل هذا أخا الاسلام وكن منفذا له ، حتى تكون من أولى الفضل الذين قال الله تعالى عنهم : « .. **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** »[٤] :

وحسبك أن تعلم فى النهاية أنك بقيامك الليل على هذا الأساس الذى وقفت عليه : سيكون قيامك هذا :

قربة لك الى ربك : أى سببا لقربك من الله عز وجل لما فيه من هجر لذة النوم .

---

(١) ، (٢) الحديثان ضعيفان .. ولا مانع أن يعمل بهما فى فضائل الأعمال ان وافقا سنة الرسول صلى الله عليه وسلم والا فلا .. والله أعلم .

(٣) وهذا الحديث كذلك ضعيف .

(٤) السجدة : ١٧

وسيكون مكفرة لسيئاتك : أى مزيلا لها ، وسيكون منهاة لك عن الاثم : أى زجرا لك عن ارتكاب المعاصى .

وفى رواية للطبرانى فى الكبير :

سيكون مطردة للداء عن الجسد : أى أن الله تعالى سيزيل به عنك ما ألم بك من أدواء وأسقام .

هـــذا .. وبالله التوفيق ..

* * *

الوصية الرابعة والخمسون

عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاطمة رضى الله عنها :

« ما يمنعك أن تسمعى ما أوصيك به أن تقولى اذا أصبحت واذا أمسيت : يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث ، أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى الى نفسى طرفة عين » ..

(رواه النسائى والبزار باسناد صحيح ، والحاكم ، وقال : صحيح على شرطهما) .

* * *

فكن أخا الاسلام :

مستمعا معى — بروحك وبكل مشاعرك — الى هذه الوصية العظيمة التى أوصى بها الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ابنته الزهراء رضى الله عنها .. وهى التى كان النبى صلى الله عليه وسلم يحبها حبا شديدا .. وكان يقول : « ان فاطمة قطعة منى .. فمن أغضبها أغضبنى » ، وهى كذلك سيدة نساء أهل الجنة :

فعن حذيفة ، قال : قلت لأمى : « دعينى آتى النبى صلى الله عليه وسلم فأصلى معه المغرب وأسأله أن يستغفر لى ولك ، فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فصليت معه المغرب ، فصلى حتى صلى العشاء ثم انفتل فتبعته ، فسمع صوتى ، فقال : من هذا ؟ حذيفة ؟ .. قلت : نعم . قال : ما حاجتك ، غفر الله لك ولأمك ؟ .. ان هذا ملك لم ينزل الأرض قط قبل هذه الليلة ، استأذن ربه أن يسلم على ويبشرنى بأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، وأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » رواه الترمذى وقال : حسن غريب .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يحب الحسن والحسين — حفيديه منها — حبا جما :

فعن أسامة بن زيد رضى الله عنه ، قال : « طرقت النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فى بعض الحاجة . فخرج النبى صلى الله عليه

وسلم وهو مشتمل على شيء لا أدرى ما هو ، فلما فرغت من حاجتى ، قلت : ما هـذا الذى أنت مشتمل عليـه ؟ .. فكشفه ، فاذا الحسن والحسين على وركيه ، فقال : « هذان ابناى ، وابنا ابنتى ، اللهم انى أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما » رواه البخارى .

وعن أنس قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى أهل بيتك أحب اليك ؟ قال : الحسن والحسين ، وكان يقول لفاطمة : ادعى لى ابنى ، فيشمهما ويضمهما اليه » رواه الترمذى .

ولقد أخذ الامام الشافعى — رضى الله عنه — بوجوب الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله ، ولذلك قال فى هذا المعنى مشيرا الى وصفهم ، ومنبها على ما خصهم الله تعالى به من رعاية فضلهم ، ووجوب محبتهم ، وتحريم بغضهم الغليظ ، بقوله :

يا أهل بيت رسول الله حبكموا
فرض من الله فى القرآن أنزله
كفاكموا من عظيم الأجر أنكموا
من لم يصل عليكم لا صلاة له

* * *

فلاحظ أخا الاسلام هـذا .. مع ملاحظة أن حب أهل بيت الرسول صلى الله عليـه وسلم لابد وأن يكون صادقا ، بمعنى أنه لابد وأن يكون تخلقا بأخلاقهم وتأدبا بآدابهم ، واقتداء بحبيبهم وحبيبنا صلوات الله وسلامه عليـه ، وذلك حتى نحشر معهم ومعه صلوات الله وسلامه عليـه : **« ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئـك رفيقا »**[1] .

ولله در القائل :

انا وان كرمت أوائلنـا لسنا على الأحساب نتـكل
نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعـل مثل ما فعـلوا

* * *

ثم كن معى كذلك أخا الاسلام : منفذا لهذه الوصية العظيمة التى هى كما عرفت : من أدعية الصباح والمساء ، والتى جاء فى تفسير مضمونها ، أن :

---

(١) النساء : ٦٩

اقتران هذين الاسمين الكريمين ، وهما : يا حى يا قيوم ، معناه : هو أن الحى : متضمن لسائر الكمالات الذاتية ، والقيوم : متضمن لسائر الكمالات فى الفعل .. فمن ذكرهما معا ، فكأنما ذكر الله عز وجل بكل صفات كماله ، ولهذا كان آكثر دعائه عليه الصلاة والسلام بهما .

وقد قال ابن كثير فى معنى : « الحى القيوم » : « أى الحى فى نفسه الذى لا يموت أبدا ، القيم لغيره ، وكان عمر يقرأ « القيام » ، فجميع الموجودات مفتقرة اليه — سبحانه — وهو غنى عنها ولا قوام لها بدون أمره » .

والحياة : صفة قديمة قائمة بالذات العلية تصحح لموصوفها الاتصاف بالعلم والارادة والقدرة والسمع والبصر ، وما الى ذلك من الصفات اللائقة به تعالى ، وحياته سبحانه ، ليست بروح ، ودليلها قوله تعالى : **« الله لا اله الا هو الحى القيوم »**[1] .

ومن أجمل ما قرأت حول تفسير هذا الجزء من آية الكرسى فى القرطبى ، ما نصه :

« الحى القيوم » : نعت لله عز وجل ، وان شئت كان بدلا من « هو » وان شئت كان خبرا بعد خبر ، وان شئت على اضمار مبتدأ . ويجوز فى غير القرآن النصب على المدح . و « الحى » اسم من أسمائه الحسنى يسمى به ، ويقال : انه اسم الله تعالى الأعظم . ويقال : ان عيسى ابن مريم عليه السلام كان اذا أراد أن يحيى الموتى يدعو بهذا الدعاء : « يا حى يا قيوم » .

ويقال : ان آصف بن برخيا[2] لما أراد أن يأتى بعرش بلقيس الى سليمان دعا بقوله : « يا حى يا قيوم » .

ويقال : ان بنى اسرائيل سألوا موسى عن اسم الله الأعظم ، فقال لهم : أياهيا شراهيا ، يعنى : « يا حى يا قيوم » .

ويقال : هو دعاء أهل البحر اذا خافوا الغرق يدعون به . قال الطبرى عن قوم : انه يقال حى قيوم كما وصف نفسه ، ويسلم ذلك دون أن ينظر فيه .

وقيل : سمى نفسه حيا لصرفه الأمور مصاريفها وتقديره الأشياء مقاديرها .

---

(١) البقرة : ٢٥٥

(٢) وهو الذى عنده علم من الكتاب .

وقال قتادة : الحى الذى لا يموت .
وقال السدى : المراد الحى الباقى .
وقال لبيد :

فاما تريني اليوم أصبحت سالما
فلست بأحيا من كلاب وجعفر

وقد قيل : ان هذا الاسم هو اسم الله الأعظم . « القيوم » من قام ، أى القائم بتدبير ما خلق ، عن قتادة . وقال الحسن : معناه القائم على كل نفس بما كسبت حتى يجازيها بعملها ، من حيث هو عالم بما لا يخفى عليه شىء منها . وقال ابن عباس : معناه الذى لا يحول ولا يزول ، قال أمية بن أبى الصلت :

لم تخلق السماء والنجوم والشمس معها قمر يقوم
قدره مهيمن قيوم والحشر والجنة والنعيم
الا لأمر شأنه عظيم

قال البيهقى : ورأيت فى « عيون التفسير » لاسماعيل الضرير فى تفسير « القيوم » ، قال : ويقال : هو الذى لا ينام ، وكأنه أخذه من قوله عز وجل عقيبه فى آية الكرسى : **« لا تأخذه سنة ولا نوم »** .

وقال الكلبى : القيوم الذى لا بدىء له[1] ، ذكره أبو بكر الأنبارى .. الخ[2] .

* * *

قال الامام أبى القاسم عبد الكريم القشيرى ، فى « شرح أسماء الله الحسنى »[3] :

واذا علم العبد أنه سبحانه حى وعلم أنه تعالى : حى لا يموت ، وقديم لا يجوز عليه العدم ، صح توكله عليه ، ولهذا قال تعالى : **« وتوكل على الحى الذى لا يموت »**[4] ، أى : أن من اعتمد على مخلوق ، واتكل عليه ليوم حاجته اختل حاله وقت حاجته اليه فيضيع رجاؤه وأمله لديه :

وقيل : ان رجلا كتب الى آخر : ان صديقى فلانا قد مات ، فمن

---

(١) فى الأصول : « لا بديل له » والتصويب عن اللسان .
(٢) ارجع الى القرطبى ج ٨ طبعة دار الشعب ص ١٠٧٩ ، ١٠٨٠
(٣) طبعة مجمع البحوث الاسلامية ، الكتاب الثالث والعشرون صفحة ٣٣٦
(٤) الفرقان : ٥٨

كثرة ما بكيت عليه ذهب بصرى ، فكتب اليه : الذنب لك حيث أحببت الذى يموت ، هلا أحببت الحى الذى لا يموت حتى لم تحتج الى البكاء عليه ؟ فمن علم أنه سبحانه حى أبدا علم أن نفسه لابد من فنائها وهلاكها وان طالت مدة بقائها وملكها .

وحكى أن المأمون لما قربت وفاته فرش الرماد ، وكان يتمرغ عليه ويقول : يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه .

ثم يقول الامام القشيرى : بل من علم أنه الباقى — الذى — لا يزول : علم أنه — سبحانه — فيه خلفا من كل تلف .

بل من علم أنه لا يصل الى مولاه الا بعد موته اشتاق الى وفاته .

قيل لبعضهم : ان الدنيا لا تساوى مع الموت شيئا ، فقال : بل الدنيا لو لم يكن الموت ما كانت تساوى شيئا .

وقيل : الموت جسر يوصل الحبيب الى الحبيب ، وأنشدوا :

أنت تبقى والفناء لنا فاذا أفنيتنا فكن

* * *

ومن أجمل ما قرأت كذلك فى هذا ، ما كتبه فضيلة الشيخ عبد اللطيف مشتهرى ، بارك الله فيه ، فى كتابه « الايمان والمؤمنون » تحت عنوان :

احياء الأموات بالأيمان

ما نصه الذى أرجو أن نتعظ به :

شعر ولى الله وحجة الاسلام الامام الغزالى — رحمه الله — بدنو أجله وقرب لقائه لله وذلك بنور قذفه الله فى قلبه ، فاغتسل وطلب ثوبا جديدا لبسه ثم تطيب بالمسك وصلى ركعتين وقال لأصحابه : انى أريد الدخول على الملك ، ثم دخل حجرته وانتظر بها طويلا ، فلما أبطأ عليهم دخلوا عليه فوجدوه مضطجعا على جنبه الأيمن مستقبل القبلة وقد فارق الحياة وعند رأسه هذه الوصية :

قل لاخوان رأونى ميتا فبكونى ورثونى حزنا
أتظنون بأنى ميتكم ليس ذاك الميت والله أنا
أنا فى الصور وهذا جسدى كان بيتى وقميصى زمنا
أنا كنز وحجابى طلسم من تراب كان ضيقا وعنا
أنا در قد حواه صدف لامتحانى فنفيت المحنا
أنا عصفور وهذا قفصى طرت عنه فبقى مرتهنا

أحمـد الله الذى خلصنى ... وبنى لى فى المعالى مسكنا
كنت قبل اليوم ميتـا بينكم ... فحييت وخلعت الكفنـا
وأنـا اليـوم أناجى ملأ ... وأرى الله جهـارا علنـا
عاكف فى اللوح أقرأ وأرى ... كل ما كان تناآى ودنـا
وطعـامى وشرابى واحـد ... وهو رمز فافهموه حسـنا
ليس خمرا سائغا أو عسلا ... لا ولا ماء ولكن لبنـا
فافهموا السر ففيـه نبأ ... أي معنى تحت لفظى كمنا
فاهدموا بيتى ورضوا قفصى ... وذروا الطلسـم يعلوه الفنا
قـد ترحلت وخلفتـكم ... لست أرضى داركم لى وطنا
لا تظنوا الموت موتـا انه ... لحياة وهو غايـات المنى
حى ذى الدار نؤوم مغرق ... فاذا مات أطار الوسـنا
لا ترعكم هجمة الموت فما ... هو الا انتقـال من هنـا
وخذوا الزاد جميعا لا تنوا ... ليس بالعـاقل منـا ونى
واحسنوا الظن برب راحم ... شاكر للسعى وأتوا أمننـا
ما أرى نفسى الا أنتموا ... واعتقادى أنـكم أنتم أنا
عنصر الأنفس منا واحد ... وكذا الجسم جميعا عمنـا
فارحموا وارحموا أنفسـكم ... واعلموا أنـكم فى اثرنـا
أسـأل الله لنفسى رحمـة ... رحم الله كريـما أمنـا[1]

ثم يقول امامنا المشتهرى أكرمه الله وبارك فيه ، بعد ذلك معلقا :

وهكذا المؤمن الصادق المخلص ، المستنير بنور الله ، يكون فناء جسمه ، غير مانع له من استمرار حياته ، التى ينفع فيها نفسه وغيره ، وتكون آخرتـه استمرارا لجهاد دنياه ، وتبقى آثاره حيـة باقيـة ناطقة بعلو شأنه ، ومظهرا لخلوده السرمدى : **« انا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم »**[2] :

هذا فى الوقت الذى يكون فيه الغافلون عن الله وهم أحياء فى الدنيـا بأجسادهم أمواتـا فى واقع الأمر لا ينتفعون ولا ينفعون ، ألا فلتبق حياتنا خالدة بعد الموت ، باقبالنا قبله على الله ، ولمثل هـذا فليعمل العاملون .

* * *

(١) يريد أن يقول : رحم الله كريما أمن على دعائى هذا .. فأنا اقول مؤمنا : آمين .. آمين .. آمين .

(٢) يس : ١٢

ثم اذا كان لنا أن نقف على المعنى المراد من الاستغاثة برحمة الله تعالى ، كما يشير قوله صلى الله عليه وسلم فى نص الوصية : « .. برحمتك أستغيث » :

فان الاستغاثة برحمته سبحانه وتعالى ليست استغاثة بمخلوق بل بصفة له غير مخلوقة .

أما الاستغاثة بالمخلوق[1] وكذا الاستعانة به ان كان ذلك فيما يقدر عليه نحو الحيلولة بينه وبين عدوه ودفع الصائل عنه من لص أو سبع . وكأن يحمل معه متاعه أو يعلف دابته فلا ريب فى جوازهما اذا كان ذلك مع اعتقاد ألا مغيث ولا معين على الاطلاق الا الله تعالى . واذا حصل شىء من ذلك على يد غيره فالحقيقة له سبحانه . أما ما لا يقدر عليه الا الله تعالى فلا يستغاث فيه الا به كغفران الذنوب ، والهداية ، وانزال المطر والرزق كما قال تعالى : « .. **ومن يغفر الذنوب الا الله** »[2] وقال : « **انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء** »[3] .

والاستغاثة طلب الغوث ، وهو ازالة الشدة ، كالاستنصار ، وهو طلب النصرة ، فلا يكون الا عند الشدائد بخلاف الاستعانة فانها طلب المعونة فى شدة أو غيرها . ومن هذا القبيل قوله تعالى : « .. **فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه** »[4] .

وقوله : « **وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر** »[5] .

وقوله تعالى : « .. **وتعاونوا على البر والتقوى** »[6] .

* * *

واذا كان موضوعنا هو الاستغاثة برحمته سبحانه وتعالى :

فان الاستغاثة برحمته سبحانه وتعالى ، هى أعظم ما يستغاث به : لأن الله سبحانه وتعالى أرحم بعباده من الوالدة بولدها :

فعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : قدم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم بسبى ، فاذا امرأة من السبى تسعى ، اذ وجدت صبيا فى

---

(١) كما يقول الشيخ على محفوظ رحمه الله فى كتابه : « الابداع فى مضار الابتداع » صفحة ١٠١

(٢) آل عمران : ١٣٥
(٣) القصص : ٥٦
(٤) القصص : ١٥
(٥) الأنفال : ٧٢
(٦) المائدة : ٢

السبى أخذته ، فألزقته ببطنها ، فأرضعته • فقال رسول الله صلى الله عليـــه وسلم : « أترون هـــذه المرأة طارحة ولدها فى النار » ؟ قلنا : لا والله • فقال : « لله أرحم بعباده من هذه بولدها » متفق عليه •

* * *

واذا كنا نقرر هـــذا كحقيقة لا ريب فيها ، فاننا نحب أن نقرر كذلك أمرا آخر لابد وأن نتفق عليـــه ، وهو : أن رحمة الله تعالى ليست الا لمن كتبها الله تعالى لهم ، كما تشير الآية الكريمة التى قال الله تعالى فيها : **« واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة انا هدنا اليـــك ، قال عذابى أصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون • الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونـــه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليـــهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النـــور الذى أنزل معه أولئـــك هم المفلحون »**[1] •

ففى هاتين الآيتين يشير الله سبحانه وتعالى فى قوله : **« ورحمتى وسعت كل شىء »** الى العموم الذى لا نهاية له ، أى أن من دخل فيها لم تعجز عنه • وقيل : وسعت كل شىء من الخلق حتى ان البهيمة لها رحمة وعطف على ولدها • قال بعض المفسرين : طمع فى هـــذه الآية كل شىء حتى ابليس ـــ عليه لعنة الله ـــ فقال : أنا شىء ، فقال الله تعالى : **« فسأكتبها للذين يتقون »** • فقالت اليهود والنصارى : نحن متقون ، فقال الله تعالى : **« الذين يتبعون الرسول النبى الأمى •• »** الآيـــة ، فخرجت الآية عن العموم ، والحمد لله • روى حماد بن سلمة عن عطاء ابن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : كتبها الله عز وجل لهذه الأمة •

فلابد اذن لكى نكون من هؤلاء الذين كتب الله لهم الرحمة : أن نتخلق بأخلاقهم ، التى ذكرها الله تعالى فى هاتين الآيتين الكريمتين ، والتى ذكرها الله تعالى كذلك فى سورة الفرقان فى قوله تبارك وتعالى عن عباده الذين يستحقون رحمته ، والذين سيجزون الغرفة بما صبروا :

---

(١) الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما • والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما • والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، ان عذابها كان غراما • انها ساءت مستقرا ومقاما • والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما • والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما • يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا • الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما • ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا • والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما • والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا • والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما • أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما • خالدين فيها ، حسنت مستقرا ومقاما »[1] :

فمن هذه الآيات القرآنية : يعلم أنه لا رحمة الا لهؤلاء الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى بهذا الوصف الجامع للمؤمنين الكاملين •• الذين أضافهم الله تعالى اليه تشريفا لهم ، والا فكل المخلوقات عباد الله ، أو يقال اضافتهم اليه من حيث كونه رحمانا لكونهم مظهر الرحمة وستختص بهم فى الآخرة •

وقد ذكر القرطبى[2] ، فى قوله تعالى : « **أولئك يجزون الغرفة بما صبروا** » : « **أولئك** » خبر « **وعباد الرحمن** » — أى : « **وعباد الرحمن** » مبتدأ وما بعده — من الموصولات الثمانية التى أولها « **الذين يمشون** » صفات له الى « **أولئك يجزون ••** » غير المعترض فيه ، وهو قوله : « **ومن يفعل ذلك يلق آثاما** » الى قوله « **متابا** » وهو ثلاث آيات ، وحاصل ما ذكره من الأوصاف أن بعضها متعلق بالخلق وبعضها متعلق بالخالق •

وهو أحسن ما قيل فى هذا • وما تخلل بين المبتدأ وخبره أوصافهم من التحلى والتخلى ، وهى احدى عشرة : التواضع ، والحلم ، والتهجد ، والخوف ، وترك الاسراف والاقتار ، والنزاهة عن الشرك ، والزنا والقتل ،

---

(١) الفرقان : ٦٣ — ٧٦

(٢) وتفسير الجلالين وحاشية الصاوى عليه •

والتوبة وتجنب الكذب ، والعفو عن المسىء ، وقبول المواعظ ، والابتهال الى الله .

و« **الغـرفة** » الدرجة الرفيعة وهو أعلى منـازل الجنة وأفضلها ، كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا .. حكاه ابن شجرة .

وقال الضحاك : الغرفة الجنـة : « **بما صبروا** » آى بصبرهم على أمر ربهم ، وطاعة نبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام . وقال محمد ابن على بن الحسين : « بما صبروا » على الفقر والفاقة فى الدنيا . وقال الضحاك : « **بما صبروا** » عن الشهوات .

« **ويلقون فيهـا تحية وسـلاما** » ، قيل : التحية من الله والسلام من الملائكة . وقيل : التحية البقاء الدائم والملك العظيم ، والأظهر أنهمـا بمعنى واحد ، وأنهما من قبل الله تعـالى ، ودليـله قوله تعـالى : « **تحيتهم يوم يلقونه سلام** »(١) .

« **خالدين فيهـا** » أى لا يموتون ولا يخرجون « **حسنت مستقرا ومقـاما** » أى موضع اقامة لهم ..

* * *

فكن أخا الاسلام متذكرا لكل هـذا ومنفذا له ، حتى تكون ان شاء الله تعالى من عباد الرحمن ، أى الذين يستحقون رحمته سـبحانه وتعالى .. فى الدنيا والآخرة .. مع ملاحظة كذلك ما تشير اليه الأحاديث الشريفة الآتية :

عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صـلى الله عليـه وسلم : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » رواه البخارى ومسلم والترمذى ، ورواه أحمد وزاد : « ومن لا يغفر لا يغفر له » وهو فى السند أيضا من حديث أبى سعيد باسناد صحيح .

يعنى أن من قسا قلبه على عباد الله ، فلم يرحم من يحتـاج الى الرحمة من الضعفاء والأرامل واليتـامى والبؤسـاء والمرضى وذوى العاهات ونحوهم ، فهذا لا تناله رحمة الله يوم القيامة .

وكذلك من لا يغفر للمسىء هفوته ، ويتجاوز عن اساءته لا يغفـر الله له ذنبـه .

وعن أبى موسى رضى الله عنه أنه سـمع النبى صـلى الله عليـه

---

(١) الأحزاب : ٤٤

وسلم ، يقول : « لن تؤمنوا حتى تراحموا ، قالوا : يا رسول الله .. كلنا رحيم ؟ قال : انه ليس برحمة أحدكم صاحبه[١] ، ولكنها رحمة العامة »[٢] رواه الطبرانى ، ورواته رواة الصحيح .

يعنى : لن يكمل ايمانكم حتى يرحم بعضكم بعضا ، كما قال تعالى فى وصف أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم : « .. **أشداء على الكفار رحماء بينهم** »[٣] .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « من لم يرحم الناس لم يرحمه الله » رواه الطبرانى باسناد حسن .

وعن جرير رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « من لا يرحم من فى الأرض لا يرحمه من فى السماء » رواه الطبرانى باسناد جيد قوى .

يعنى : من لا يرحم عباد الله الذين فى الأرض لا يرحمه الله الذى فى السماء .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن[٤] ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء »[٥] رواه أبو داوود والترمذى بزيادة ، وقال : حديث حسن صحيح .

وعنه رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ارحموا ترحموا ، واغفروا يغفر لكم ، ويل لأقماع القول ، ويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون » رواه أحمد باسناد جيد .

قال فى النهاية : « الأقماع جمع قمع كضلع وهو الاناء الذى يترك فى رؤوس الظروف لتملأ بالمائعات من الأشربة والأدهان شبه أسماع الذين يستمعون القول ولا يعونه ويحفظونه ولا يعملون به بالأقماع

---

(١) أى قريبه وصديقه .

(٢) أى رحمة كل من يحتاج الى الرحمة من خلق الله .

(٣) الفتح : ٢٩

(٤) فانهم هم المستحقون لرحمته بسبب رحمتهم لعباده .

(٥) قوله : « يرحمكم » بالجزم جواب الأمر ، أى ان ترحموا من فى الأرض يرحمكم الله الذى فى السماء .

التى لا تعى شيئا مما يفرغ فيها فكأنه يمر عليها مجازا كما يمر الشراب فى الأقماع اجتيازا » اهـ .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : سمعت الصادق الصدوق صاحب هـذه الحجرة أبا القاسم صلى الله عليه وسلم ، يقول : « لا تنزع الرحمة الا من شقى » رواه أبو دلوود واللفظ له ، والترمذى وابن حبان فى صحيحه ، وقال الترمذى : حديث حسن ، وفى بعض النسخ حسن صحيح .

أى : كما يقول العلقمى : « الا من قلب شقى » وهو ضد السعيد ، وهو اشارة الى الشقاء فى الآخرة ، وقد يكون فى الدنيا ، رواية الترمذى : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله ، ومن لم يرحمه فهو شقى » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قبل رسول الله صـلى الله عليـه وسلم الحسن أو الحسين بن على ، وعنده الأقرع بن حابس التيمى ، فقال الأقرع : ان لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحـدا قط ، فنظر اليه رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، ثم قال : « من لا يرحم لا يرحم » رواه البخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى .

وفى بعض الروايات أنه قال له : « وماذا أملك لك اذا كان الله قد نزع الرحمة من قلبك » .

وعن عائشة رضى الله عنها ، قالت : جاء أعرابى[1] الى رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، فقال : انكم تقبلون الصبيان وما نقبلهم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك » رواه البخارى ومسلم .

وعن معاوية بن قرة عن أبيه رضى الله عنه أن رجـلا قـال : يا رسول الله .. انى لأرحم الشاة أن أذبحها[2] ، فقال : « ان رحمتها رحمك الله »[3] رواه الحاكم وقال : صحيح الاسناد ، والأصبهانى : ولفظه : قال : يا رسول الله .. انى آخذ شـاة وأريد أن أذبحهـا فأرحمها ، قال : « والشاة ان رحمتها رحمك الله » ..

يعنى أن الله يثيب على رحمة الحيوان كما يثيب على رحمة الانسان .

---

(١) هو الاقرع بن حابس المذكور فى الحديث المتقدم .

(٢) يعنى لا أجرؤ على ذبحها رحمة بها .

(٣) وفى هذا دليل على وجوب رحمة الحيوان .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا أضجع شاة[١] ، وهو يحد شفرته[٢] ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أتريد أن تميتها موتتين[٣] ، هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها » رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط والحاكم ، واللفظ له ، وقال : صحيح على شرط البخارى .

وفى هذا الحديث ارشاد الى وجوب الرحمة بالحيوان عند الذبح فلا يجر بعنف ولا تعرض عليه السكين فينظر اليها ولا تشحذ أمامه .. الخ .

وفى الحديث الصحيح : « ان الله كتب الاحسان على كل شىء فاذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، واذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته » رواه أحمد ومسلم والنسائى وابن ماجه .

وفى حديث ابن عمر رضى الله عنهما : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن تحد الشفار وأن توارى عن البهائم ، وقال : اذا ذبح أحدكم فليجهز » رواه أحمد وابن ماجه .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ما من انسان يقتل عصفورا فما فوقها[٤] بغير حقها الا يسأل الله عنها يوم القيامة[٥] . قيل : يا رسول الله .. وما حقها ؟ قال : حقها أن تذبحها فتأكلها[٦] ، ولا تقطع رأسها فترمى به »[٧] رواه النسائى والحاكم ، وقال : صحيح الاسناد .

وعن الشريد رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « من قتل عصفوا عبثا[٨] عج الى الله[٩] يوم القيامة ، يقول : يا رب ان فلانا قتلنى عبثا ، ولم يقتلنى منفعة » رواه النسائى وابن حبان فى صحيحه .

---

(١) أى أنامها على جنبها استعدادا لذبحها .
(٢) أى يشحذها ويرققها ، والشفرة ، أى السكين .
(٣) فانها تحس أن تلك السكين انما تحد لذبحها فتتمثل الموت فكأنها ماتت قبل موتها .
(٤) أى فما هو أكبر حجما منها كالحمامة ونحوها .
(٥) أى يسأله الله سبحانه عن سبب قتلها .
(٦) فانها انما خلقت للانتفاع بلحمها .
(٧) أى تلقيها ولا تنتفع بها .
(٨) أى بلا فائدة ولا غرض صحيح .
(٩) أى رفع صوته بالشكوى الى الله يوم القيامة .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها[١] ، فلم تطعمها ، ولم تدعها[٢] تأكل من خشاش الأرض »[٣] .

وفى رواية : « عذبت امرأة فى هرة سجنتها حتى ماتت ، لا هى أطعمتها وسقتها ، اذ هى حبستها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » رواه البخارى وغيره .

قيل : معناه : تدخل النار ، فعبر بصيغة الماضى لتحقق الوقوع أو المراد استحقت دخول النار ، قال بعضهم : وهذا فى حق امرأة كافرة ، فقد ورد : أن السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها ، قالت لأبى هريرة : أنت الذى رويت حديث : « دخلت امرأة النار » ؟ فقال : نعم ، فقالت له : هذا وارد فى امرأة كافرة وأنت لم تبين ذلك ، ولامته ، أى لأن المؤمن لا يعذب بالنار على مثل ذلك .

وقال النووى : الذى يظهر أنها كانت مسلمة وأنها دخلت النار بهذه المعصية . وقيل : كانت حميرية ، وقيل : اسرائيلية ، قال العلقمى : ولا تضاد بينهما لأن طائفة حمير كانوا قد دخلوا فى اليهودية فنسبت الى دينها تارة والى قبيلتها أخرى .

* * *

فلا تنس كل هذا أخا الاسلام وكن ملاحظا له ، ومنفذا لما جاء فيه من الجوانب الخيرية حتى تكون من أهل الرحمة ، وحتى اذا ما استغثت بالله تعالى أو برحمته ، أغاثك سبحانه وتعالى وكان عونا لك .

* * *

واياك اياك أن تيأس من رحمة الله ، لأنه كما يقرر الله تعالى فى قرآنه : « .. لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون »[٤] .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، أن نبى الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل ، قتل تسعة وتسعين نفسا[٥] ،

---

(١) أى بسبب هرة ربطتها وأرادت تعذيبها بذلك ، وفى رواية للبخارى : (حبستها) .

(٢) أى تتركها .

(٣) بفتح الخاء أشهر من كسرها ومن الضم ، أى من حشراتها ، سميت بذلك لاندساسها فى التراب من قولهم : خشن فى الأرض : دخل .

(٤) يوسف : ٨٧

(٥) أى : أنه قتلها ظلما بغير حق يوجب قتلها .

فسأل عن أعلم أهل الأرض[١] فدل على راهب ، فأتاه ، فقال : انه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ فقال : لا[٢] . فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على رجل عالم ، فقال : انه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، من يحول بينه وبين التوبة[٣] ؟ .. انطلق الى أرض كذا وكذا ، فان بها أناسا يعبدون الله . فاعبد الله معهم ، ولا ترجع الى أرضك فانها أرض سوء[٤] ، فانطلق حتى اذا نصف الطريق[٥] ، فأتاه ملك الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب[٦] ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائبا مقبلا بقلبه الى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب : انه لم يعمل خيرا قط . فأتاهم ملك فى صورة آدمى[٧] فجعلوه بينهم ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين ، فالى أيتهما كان أدنى[٨] فهو له ، فقاسوا فوجدوه أدنى الى الأرض التى أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة »[٩] .

وفى رواية : « فكان الى القرية الصالحة أقرب بشبر فجعل من أهلها » .

وفى رواية : « فأوحى الله الى هذه أن تباعدى ، والى هذه أن

---

(١) وذلك أنه أراد أن يستوثق من قبول توبته بعد قتل هذا العدد الكبير .

(٢) وذلك من جهل هذا الراهب ، ظن أن قتله لهذا العدد الهائل مانع من قبول توبته .

(٣) « من » هنا اسم استفهام انكارى معناه النفى ، أى لا يحول أحد بينه وبين التوبة .

(٤) وهذا يدل على ما للبيئة والمجتمع من تأثير على الأخلاق بالاستقامة أو الانحراف .

(٥) يعنى : صار فى نصفه .

(٦) أى تنازعوا أيهم يصعد بروحه .

(٧) لأن الله عز وجل أراد أن يخفى أمره عليهم فأرسله اليهم فى صورة غير ملائكية .

(٨) يعنى أقرب ، فهو من الدنو بمعنى القرب .

(٩) أى صعدت بروحه الى الله عز وجل ، قال النووى : « هذا مذهب أهل العلم واجماعهم على صحة توبة القاتل عمدا ، ولم يخالف أحد منهم الا ابن عباس .. » .

تقربى[١] ، وقال : قيسوا بينهما[٢] ، فوجدوه الى هذه[٣] أقرب بشبر فغفر له » .

وفى رواية : قال قتادة ، قال الحسن : « ذكر لنا أنه لما أتاه ملك الموت نأى بصدره نحوها »[٤] رواه البخارى ومسلم وابن ماجه بنحوه .

* * *

وليكن شعارك ، ولسان حالك ، فى غدوك ورواحك ، وحلك وترحالك ، هو : « **وأفوض أمرى الى الله ..** »[٥] .

وذلك باعلانك هذا فى بقية الدعاء الذى ندور حوله ، بقولك مناجيا ربك ومولاك سبحانه وتعالى : « أصلح لى شأنى كله ، ولا تكلنى الى نفسى طرفة عين » :

لأن هذا معناه اجمالا : غاية التفويض لله عز وجل ، ولأن الداعى به يطلب منه سبحانه وتعالى أن يتولى جميع أمره ، وأن لا يكله لحظة واحدة الى نفسه :

لأن النفس كما يقرر الله تعالى فى قرآنه على لسان سيدنا يوسف عليه السلام : « **وما أبرىء نفسى ، ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى ، ان ربى غفور رحيم** »[٦] :

ففى القرطبى ، جاء ما مضمونه :

قال الحسن : لما قال يوسف : « **ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب** »[٧] كره نبى الله أن يكون قد زكى نفسه ، فقال : « **وما أبرىء نفسى** » وتزكية النفس مذمومة ، قال الله تعالى : « **فلا تزكوا أنفسكم** »[٨] .. وقيل : هو من قول العزيز ، أى : وما أبرىء نفسى من سوء الظن بيوسف .

---

(١) ومعنى هذا أنه كان أقرب الى القرية التى خرج منها ، ولكن تداركته رحمة الله ، فأمر القرية الصالحة أن تتقرب ، وأمر الأخرى أن تتباعد ليصير أقرب الى التى قصد اليها .

(٢) يعنى قيسوا ما بينه وبين كل من القريتين .

(٣) والاشارة الى القرية الصالحة .

(٤) أى مال بصدره الى جهة القرية ، فاعتبر بذلك أقرب اليها .

(٥) غافر : ٤٤ (٦) يوسف : ٥٣

(٧) يوسف : ٥٢ (٨) النجم : ٣٢

« ان النفس لأمارة بالسوء » أى : مشتهية له « الا ما رحم ربى » فى موضع نصب بالاستثناء ، و **« مـا »** بمعنى من ، أى الا من رحم ربى فعصمه ، و « مـا » بمعنى من كثير ، قال الله تعـالى : **« .. فانكحوا ما طاب لكم من النساء »**(١) وهو استثناء منقطع ، لأنه استثناء المرحوم بالعصمة من النفس الأمارة بالسوء .

وفى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما تقولون فى صاحب لكم ان أنتم أكرمتموه وأطعمتوه وكسوتموه أفضى بكم الى شر غاية ، وان أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم الى خير غاية » قالوا : يا رسول الله .. هذا شر صاحب فى الأرض ، قال : « فوالذى نفسى بيده انها لنفوسكم التى بين جنوبكم » .

وان صح الحديث الذى يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسـلم بعد عودته من غزوة كبيرة ضد أعداء الاسلام : « رجعنا من الجهـاد الأصغر الى الجهاد الأكبر ألا وهو جهاد النفس » .

ففيه الكفاية .. وحسبك كذلك قول سيدنا سليمان عليه السلام : « ان من يقهر نفسه كمن يفتح المدينة وحده » .

* * *

واعلم أنك عندما ستستعين بالله تعـالى على قهر نفسك سيعينك الله تعالى عليها ، فهو القائل :

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وان الله لمع المحسنين »(٢) .

* * *

واعلم كذلك : أنك عندما ستفوض أمرك الى الله ، وتحسن التوكل على الله ، وكلك ثقة فيه سبحانه : لن يضيعك الله ولن يكلك الى نفسـك طرفة عين .. ففى القرآن الكريم يقول سبحانه :

« .. ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالـغ أمره ، قد جعـل الله لكل شىء قدرا »(٣) .

وعن عمـر رضى الله عنه ، قـال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدوا خماصا وتروح بطانا » رواه الترمذى ، وقـال : حديث حسن .

---

(١) النساء : ٣ (٢) العنكبوت : ٦٩ (٣) الطلاق : ٢ ، ٣

ومعناه : تذهب أول النهار خماصا : أى : ضامرة البطـــون من الجوع ، وترجع آخر النهار بطانا : أى : ممتلئـــة البطون .

واذا كان الحديث قد ذكر أن الطير تغدوا وتروح : فان هذا معناه أننا لابد وأن نغدو ونروح طلبا للرزق كما أمر الله تعالى فى قوله : « .. **فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، واليه النشور** »(١) .

وذلك حتى نكون من المتوكلين لا من المتواكلين :

لأن التوكل معناه : الأخذ بالأسباب مع تفويض الأمر الى الله تبارك وتعالى .. بعكس التواكل الذى هو ترك العمل بدعوى الزهد الباطل الذى لا يقره عقل ولا دين .

وقد قرأت حول هذا المعنى : أن أبا بكر الصديق أو عمر بن الخطاب رضى الله عنهما : رأى قوما من أهل اليمن .. فقال لهم : من أنتم ؟ فقالوا : متوكلون . فقال : كذبتم .. انما المتوكل الذى ألقى حبة فى الأرض وتوكل على الله .

كما قرأت كذلك : أن جماعة دخلوا على الامام الجنيد رضى الله عنه .. فقال لهم : لمـــاذا جئتم ؟ قالوا : جئنا نطلب الرزق . قال : ان علمتم فى أى مكان هو فاطلبوه . قالوا : نسأل الله .. قال : ان علمتم أنه ينساكم فذكروه .. قالوا : نجلس فى البيت ونتوكل على الله وننتظر ما يكون .. قال : التوكل على التجربة شك .. قالوا : وما الحيلة ؟ قال : ترك الحيلة .. أى :

على المـــرء أن يســـــعى وليس عليـــه ادراك النجاح

فأنت مطالب فقط بأن تأخذ بالأسباب طلبا للرزق .. أما ما بعد ذلك فعلى الله سبحانه وتعالى .. لأنه سبحانه قد تكفل بالأرزاق فقال : « **وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها ..** »(٢) .

وقـــال : « **ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين** »(٣) .

* * *

ومع هذا ، فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يرغب فى السعى على الرزق فيقول : « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وان نبى الله داوود ـــ صلى الله عليـــه وسلم ـــ كان يأكل من عمل يده » رواه البخارى .

---

(١) الملك : ١٥ (٢) هود : ٦

(٣) الذاريات : ٥٨

كما كان يقول صلوات الله وسلامه عليه : « ان الله يحب العبد المحترف ، ومن كد على عياله كان كالمجاهد فى سبيل الله عز وجل » رواه أحمد .

ويقول :

« من أمسى كالا من عمل يديه أمسى مغفورا له » .

« ان من الذنوب ذنوبا لا يكفرها الصلاة ولا الصدقة ولا الحج ، ويكفرها الهم فى طلب المعيشة » ابن بابويه والطبرانى .

« طلب الحلال فريضة بعد الفريضة » الطبرانى والبيهقى .

« باكروا[1] فى طلب الرزق والحوائج فان الغدو بركة ونجاح » الطبرانى والبزار .

* * *

وقد سئل أحد العلماء الحكماء : لماذا نعمل ما دام الله تعالى قد تكفل بأرزاقنا .. ولماذا لم يعطنا الله أرزاقنا بدون عمل ؟ فتلى قول الله تعالى :

« ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض .. »[2] .

ثم فسر الآية هذه تفسيرا عظيما فقال : لو رزق الله العباد من غير كسب لتفرغوا للفساد ، ولكن شغلهم بالكسب حتى لا يتفرغوا للفساد .

* * *

فليكن هذا هو مفهومك عن التوكل وتفويض الأمر الى الله تعالى أيها الأخ المسلم .. حتى اذا ما دعوت الله تعالى بهذا الدعاء الذى ندور حوله كان على أساس من العلم .

وادع الله تعالى معى بهذا الدعاء ، الذى ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يقول : « اللهم لك أسلمت وبك آمنت ، وعليك توكلت ، واليك أنبت ، وبك خاصمت[3] ، اللهم أعوذ بعزتك ، لا اله الا أنت أن تضلنى ، أنت الحى الذى لا تموت ، والجن والانس يموتون » متفق عليه .

---

(١) أى بعد أن تصلوا الفجر .. فانه وقت بركة .

(٢) الشورى : ٢٧

(٣) أى استسلمت لحكمك وأمرك ، و « أنبت » : رجعت الى عبادتك والاقبال على ما يقرب منك ، و « بك خاصمت » أعداء الدين .

ثم اختم بعد ذلك كذلك بالدعاء ـــ موضوع الوصية التى درنا حولها ـــ والذى أرجو أن نكون قد فهمناه وحفظناه[١] ، وهو :

« يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث ، أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى الى نفسى طرفة عين » : آمين .. آمين .. آمين ..

* * *

(١) حتى ندعو به صباحا وسماء وحتى نعلمه لغيرنا .

الجزء الثامن عشر

الوصية الخامسة والخمسون

عن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن سأل بالله فأعطوه ، ومن دعاكم فأجيبوه ، ومن صنع اليكم معروفا فكافئوه ، فان لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه » ..

(حديث صحيح : رواه أبو داوود والنسائى بأسانيد الصحيحين) .

* * *

فكن أخا الاسلام :

منفذا لهذه الوصية المحمدية العظيمة التى سنرى من خلالها ووقوفنا على أبعادها : أنها من الوصايا التربوية النادرة التى يجدر بكل مؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر أن يكون منتفعا بها ، وبكل ما فيها من توجيهات وارشادات الى أن يلقى الله تبارك وتعالى .

وذلك حتى يكون قد استفاد بحياته الأولى لصالح حياته الثانية التى هى دار القرار .

وحسب الأخ المسلم أن يعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم ، فى وصيته هـذه ، يرغب كل مسلم الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فى أهم أسباب الترابط والتراحم بين المسلمين .. وذلك حتى يكونوا قوة لا يستهان بها ، وحتى يكونوا كذلك أمة واحدة .. لأنه لن يتحقق هـذا ولن يكون الا بالتعاون والاتحاد الشامل الذى به يتحقق الاعتصام بحبل الله المتين ، كما تشير الآية الكريمة التى يقول الله تعـالى فيها :

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على

شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياتـه لعلـكم تهتدون • ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئـك هم المفلحون • ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم »[1] •

ومن أهم مظاهر هـذا الاعتصام على أساس من تلك التوجيهات القرآنية : ما أوصى به النبى صلى الله عليـه وسلم ، والذى أوله : « من اسـتعاذ بالله فأعيذوه » : وهـو مظهر من مظـاهر القوة التى لابد أن يتميز بها المؤمن ولا سيما فى مواجهة أعدائه الذين هم أعداء دينه •• كما يشـير الى هذا قول الله تبـارك وتعالى : **« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم »**[2] •

وكما يشير الحديث الشريف الذى يقول فيه صلوات الله وسلامه عليـه : « المؤمن القوى خير وأحب الى الله تعالى من المؤمن الضعيف » •

واذا كان المعنى المراد من قول الرسول صلى الله عليه وسـلم : « من استعاذ بالله فأعيذوه » : أى من التجأ اليكم عائذا بالله وطالبا منكم الحماية والنجدة فأغيثوه •• ما دامت استغاثته هذه على أساس من العدل لا الطغيان الذى نهى الله عنه فى القرآن ، فقال :

« ان الله يأمر بالعـدل والاحسان وايتـاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون »[3] •

وقد حدث هـذا ، فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، بعد الهجرة •

وقد ذكر الشيخ محمد الغزالى أكرمه الله فى كتابه « فقه السيرة » ، تحت عنوان :

الفتح الأعظم

حيث يقول مشيرا الى أسباب هذا :

شـغل المسلمون بعد عهد الحديبية بنشر الدعوة وعرض تعاليم الاسلام على كل ذى عقل ، وكان وفاؤهم لقريش أمرا مقررا فيما أحبوا وفيما كرهوا • ورأى الناس من ذلك الآيات البينات •• لكن قريشا ظلت على جمودها القديم فى ادارة سياستها غير واعية للأحداث الخطيرة

---

(١) آل عمران : ١٠٣ ــ ١٠٥ (٢) الأنفال : ٦٠

(٣) النحل : ٩٠

التى غيرت مجرى الأحوال فى الجزيرة العربية ، وتوشك أن تغيره فى العـــالم كله .

وقد جرها فقدان هذا الوعى الى حماقة كبيرة أصبح بعدها عهد الحديبية لغوا . وذلك أنها مع حلفائها من بنى بكر هاجموا خزاعة ــ وهى مع المسلمين فى حلف واحد ــ وقاتلوهم فأصابوا منهم رجالا . وانحازت خزاعة الى الحرم ، اذ لم تكن متأهبة لحرب ، فتبعهم بنو بكر يقتلونهم ، وقريش تمدهم بالسلاح وتعينهم على البغى .

وأحس نفر من بنى بكر أنهم دخلوا الحرم ــ حيث لا يجوز قتال ــ فقالوا لرئيسهم نوفل بن معاوية : انا قد دخلنا الحرم ، الهك الهك . فقال نوفل : لا اله اليوم يا بنى بكر .. أصيبوا ثأركم !! ..

وفزعت خزاعة لمـــا حل بها ، فبعثت الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عمرو بن سالم يقص عليه نبأها ، فلما قدم المدينة وقف على النبى وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى الناس يقول :

يا رب انى ناشـــد محمـــدا ... حلـــف أبينا وأبيـــه الأتلـــدا
قد كنتم ولـــدا وكنا والـــدا ... ثمت أسلمنا فلم ننـــزع يـــدا
فانصر هداك الله نصرا أعتـــدا ... وادع عبـــاد الله يأتوا مـــددا
فيهم رسول الله قد تجـــردا ... أبيض مثل البحر يسمو صعدا
ان سيم خســـفا وجهه تربدا ... فى فيلق كالبحـــر يجرى مزبدا
ان قريشـــا أخلفوك الموعـــدا ... ونقضـــوا ميثـــاقك المؤكـــدا
وجعلوا لى فى كـــداء رصـــدا ... وزعموا أن لســـت أدعو أحدا
وهم أذل وأقـــل عـــــددا ... هم بيتـــونا بالوتيـــر هجـــدا
وقتلـــونا ركعـــا وســـجدا

فقال له رسول الله : « نصرت يا عمرو بن سالم » ..

وأحست قريش ــ بعد فوات الأوان ــ خطأها . فخرج أبو سفيان الى المدينة يصلح ما أفسده قومه ويحاول أن يعيد للعقد المهدر حرمته !

وبلغ المدينـــة فذهب الى ابنته أم حبيبة ، وأراد أن يجلس على الفراش فطوته دونه . فقال : يا بنية ما أدرى أرغبت بى عن هـــذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله ، وأنت مشرك نجس ! قال : والله لقد أصابك بعدى شر ! ثم خرج حتى أتى رسول الله فكلمه ، فلم يرد عليه شيئا .

واستشفع أبو سفيان بأبى بكر ليحدث النبى صـــلى الله عليه

وسلم — فى هـذا الشأن فرفض • فتركه الى عمر ، فقال عمـر : أنا أشفع لكم عند رسول الله ؟ •• والله لو لم أجد الا الذر لجاهدتكم به •

فتركهما الى على فرد عليه : والله يا أبا سفيان لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ، ثم نصحه أن يعود من حيث جاء •• فقفل أبو سفيان الى قومه يخبرهم بما لقى من صدود •

وأمر النبى الناس أن يتجهزوا ، وأعلمهم أنه سائر الى مكة ، وأوصاهم بالجد والبدار • وقال : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها !

واستمع المسلمون لأمر نبيهم ، فمضوا يعبئون قواهم للقاء المنتظر ، وهم مدركون أن الساعة الفاصلة مع أهل مكة قد دنت •

* * *

وخلاصة ما حدث بعد ذلك ، كما يقول الشيخ الغزالى ، أكرمه الله ، أنه قد :

سرى القلق فى ربوع مكة عقب أوبة أبى سفيان ، ورأى العباس ابن عبد المطلب أن يسلم هو وعياله وأن يهجروا مكة الى المدينة • فقابلوا الرسول فى الطريق مقبلا بجيشه على مـكة • وخرج كذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن أمية ، فلقيا النبى بالأبواء — وهما ابن عمه وابن عمته — وكانا من أشد الناس ايذاء له بمكة • فأعرض عنهما لمـا ذكر مساءتهما •

لكن على بن أبى طالب أشار على ابن عمه أبى سفيان بوسيلة يترضى بها رسول الله ، قال له : ائته من قبل وجهه وقل له ما قال اخوة يوسـف : « **تالله لقد آثرك الله علينـا وان كنـا لخاطئـين** »[1] ، فانه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه جوابا • ففعل ذلك أبو سـفيان فقال له رسول الله : « **لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين** »[2] •

والخلاصة بعد ذلك •• أنه على حين كان الجيش الزاحف يتقدم ، ورسول الله على ناقته ، تتوج هامته عمامة دسماء • ورأسه خفيض من شدة التخشع لله •• ان الموكب الفخم المهيب الذى ينساب به حثيثـا الى جوف الحرم ، والفيلق الدارع الذى يحف به ينتظر اشارة منه

---

(١) يوسف : ٩١ (٢) يوسف : ٩٢

فلا يبقى بمكة شيء آمن ، ان هذا الفتح المبين ليذكره بماضى طويل الفصول ، كيف خرج مطاردا وكيف يعود اليوم منصورا مؤيدا .. وأى كرامة عظمى حفه الله بها فى هـذا الصباح الميمون ، وكلما استشعر هـذه النعماء ازداد لله تواضعا ، وازداد على راحلته خشوعا وانحناء ، ويبدو أن هناك عواطف أخرى كانت تجيش فى بعض الصدور . فان سعد ابن عبادة زعيم الأوس ذكر ما فعل أهل مكة ، وما فرطوا فى جنب الله ، ثم شعر بزمام القوة فى يده فصاح : اليوم يوم الملحمة .. اليوم تستحل الحرمة .. اليوم أذل الله قريشا ..

وبلغت هـذه الكلمة مسامع الرسول ، فقال : بل اليوم يـوم تعظم فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشا ، وأمر أن ينزع اللواء من سعد ويدفع الى ابنه مخافة أن تكون لسعد صولة فى الناس .

وسار رسول الله فدخل مكة من أعلاها وأمر قادة جيشه ألا يقاتلوا الا من قاتلهم فدخلت سائر الفرق من أنحاء مكة الأخرى .

ودخل خالد بن الوليد من أسفل مكة . وكان هناك نفر من قريش غاظهم هذا التسليم فتجمعوا عند الخندمة يقودهم عكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو ، وصفوان بن أمية ، الا أن الحقيقة الكبيرة صدمت غرورهم فبددته ! فان خالدا حصدهم حصدا حتى لاذ القوم بالفرار . ومن طريف ما وقع أن حماس بن خالد من قبيلة بنى بكر كان قـد أعد سلاحا لمقاتلة المسلمين . وكانت امرأته اذا رأته يصلحه ويتعهده تسأله : لمـاذا تعد ما أرى ؟ فيقول : لمحمد وأصحابه .. وقالت امرأته له يوما : والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وصحبه شيء ! فقال : والله انى لأرجو أن أخدمك بعضهم .. ثم قال :

ان يقبـلوا اليـوم فمالى عـلة
هـذا سـلاح كامـل وألـة[1]
وذو غـرارين سريع السـلة

فلما جـاء يوم الفتح ناوش حماس هـذا شيئا من قتال مع رجال عكرمة . ثم أحس بالمشركين يتطايرون من حوله أمام جيش خالد . فخرج منهـزما حتى بلغ بيته ، فقـال لامرأته : أغلقى على الباب ! ..

---

(١) أى : حربة .

فقالت المـرأة لفارسـها المعـلم : فأين ما كنت تقول ؟ ! .. فقال يعتـذر لها :

انك لو شـهدت يوم الخندمة ... اذ فر صـفوان وكر عكرمة
وأبو يزيـد قائـم كالمؤتمـة ... واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كل سـاعد وجمجمـة ... ضربا فلا يسـمع الا غمغمة
لهـم نهيت خلفنـا وهمهمـة ... لم تنطقى باللوم أدنى كلمة !

وسـكنت مكة ، واستسلم سادتها وأتباعها ، وعلت كلمة الله فى جنباتها • ثم نهض رسول الله الى البيت العتيق فطوف به • وأخذ يكسر الأصنام المصفوفة حوله ، ويضربها بقوسه ظهرا لبطن فتقع على الأرض مهشمة متناثرة • كانت هذه الحجـارة ـ قبل ساعة ـ آلهة مقدسة ، وهى الآن جص وتراب وأنقاض يهدمها نبى التوحيد وهو يقول : جـاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ..

ثم أمر بالكعبة ففتحت ، فرأى الصور تملؤها ، وفيها صورتان لابراهيم واسماعيل يستقسمان بالأزلام ، فقـال ـ سـاخطا على المشركين ـ : قاتلهم الله ، والله ما استقسما بها قط • ومحا ذلك كله • حتى اذا طهر المسجد من الأوثان أقبل على قريش وهم صفوف صفوف يرقبون قضاءه فيهم • فأمسك بعضادتى الباب ـ باب الكعبة ـ وهم تحته • فقال : لا اله الا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ..

ثم قال : يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالـوا : خيرا .. أخ كريم وابن أخ كريم ! قال : فانى أقول لكم ما قال يوسف لاخوته : لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء ..

وعندما كان رسول الله بالمسجد يجهز على الوثنية فى عاصـمتها الكبرى اقترب منه فضـالة بن عمير يريد أن يجد له فرصة ليقتله • فنظر اليه النبى نظرة عرف بها طويته الا أنه فى غمرة النصر الذى أكرمه الله به لم يجد فى نفسه على الرجل ، بل استدعاه ثم سأله : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لا شىء .. كنت أذكر الله !! فضـحك النبى ، ثم قال : استغفر الله •

وتلطف معه الرسول فوضع يده على صدره • فانصرف الرجـل وهو يقول : ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شىء أحب الى منـه •

وكان لفضالة فى جاهليته هنات . فمر ـ وهو راجع الى أهله ـ بامرأة لها معه شأن . فلما رأته قالت : هلم الى الحديث . فانبعث يقـول :

قالت : هلم الى الحديث ، فقلت : لا
يأبى عليـك الله والاسـلام
لـو ما رأيت محمـدا وقبيـله
بالفتـح يـوم تكسر الأصـنام
لرأيت دين الله أضـحى بينـا
والشرك يغشى وجهـه الاظـلام

وصعد بلال فوق ظهر الكعبة فأذن للصلاة ، وأنصت أهل مكة للنداء الجديد على آذانهم كأنه حلم ، ان هـذه الكلمات تقصف فى الجـو فتقذف بالرعب فى أفـئدة الشياطين فلا يملكون أمام دويها الا أن يولوا هاربين أو يعودوا مؤمنين .

الله أكبر .. الله أكبر ..
الله أكبر .. الله أكبر ..

* * *

وهكذا أخا الاسلام : تم نصر الله والفتح .. ببركة نصرة المظلومين الذين انتهكت حرماتهم ، وسلبت أموالهم ، وقتل أكثر أفرادهم ظلما وعدوانا ، وفى داخل البيت الحرام ، الذى جعله الله تعالى مثابة للناس وأمنا .. والذى من المفروض أن : « .. **من دخله كان آمنا** »[1] .

ولهذا كان لابد ان نأخذ درسا من هـذا الدرس العملى الايجابى حتى نكون ان شاء الله تعالى من أهل القسط ، وحتى لا نكون من الظالمين ..

* * *

وحسبك أن تعلم أن الله تعالى حرم الظـلم على نفسه وجعله بيننا محرما :

فعن أبى ذر رضى الله عنـه عن النبى صلى الله عليه وسـلم فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال[2] : « يا عبادى انى حرمت الظلم

---

(١) آل عمران : ٩٧ ـ بلفظ : « ... **ومن** » .
(٢) أى : فى الحديث القدسى .

على نفسى ، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا .. » الحديث رواه مسلم والترمذى وابن ماجه .

فهذا صدر حديث قدسى عظيم قال فيه أحمد بن حنبل رحمه الله : لم يرو عن الشاميين أفضل منه ، وقيل : ان أبا مسلم الخولانى رحمه الله كان اذا روى هـذا الحديث جثا على ركبتيه .

ففى هـذا الحديث : خطاب عام لجميع المكلفين مؤمنهم وكافرهم بل للانس والجن جميعا ، فان الخلق كلهم عباد الله بحكم ربوبيته لهم ونفوذ حكمه فيهم وتمام ملكه وسلطانه عليهم وقهره فوقهم :

فيقول سبحانه : « انى حرمت الظلم على نفسى » ، أى : تقدست عنه وتعاليت ، اذ الظلم مجاوزة الحد أو التصرف فى حق الغير بغير حق وكلاهما محال فى حقه تعـالى لأنه انما يتصور فى حق من حد له حدود فان تعداها كان ظالما ، والرب جل شـأنه لا حاكم فوقه ولا مانع له ولا يسئل عما يفعل لكن لمـا كان تحريم الشىء يقتضى التباعد عنه سمى تنزهه عن الظلم تحريما لمشابهته له فى تحقق التباعد والامتناع .

ثم يقول سبحانه : « وجعلته بينكم محـرما » : أى : حكمت بتحريمه فى معـاملة بعضكم لبعض ، فالمراد بالجعـل الحكم « فلا تظالموا » : بتشديد الظاء كما يروى وأصله تتظالموا فأبدلت احدى التاءين ظاء وأدغمت فى الظاء الأخرى بعد تسكينها ، والمعنى : فلا يظلم بعضكم بعضا فانه لابد من اقتصاصه سبحانه وتعالى للمظلوم من ظالمه .

* * *

ولهذا ، فقد حذرنا النبى صلى الله عليـه وسلم من الظلم ورهبنا منـه :

فعن جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « اتقوا الظلم ، فان الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح[1] فان الشح أهلك من كان قبلكم[2] ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم »[3] رواه مسلم وغيره .

---

(١) وهو البخل والامساك ومنع الحقوق الواجبة فى المـال وشدة الحرص عليه .

(٢) يعنى الأمم التى سبقتكم .

(٣) هذا بيان لكيفية اهلاك الشـح لهم وهو انه هيج بينهم العداوة فتقاتلوا وجرأهم على استحلال المحرمات .

فمعنى « اتقوا الظلم » : أى اجتنبوه وتباعدوا عنه ، قال ابن الجوزى : « الظلم يشتمل على معصيتين أخذ مال الغير بغير حق ومبارزة الرب بالمخالفة والمعصية فيه أشد من غيرها لأنه لا يقع غالبا الا بالضعيف الذى لا يقدر على الانتصار وانما ينشأ الظلم من ظلمة القلب لأنه لو استنار بنور الهدى لاعتبر ، فاذا سعى المتقون بنورهم الذى حصل لهم بسبب التقوى اكتنفت ظلمات الظلم الظالم حيث لا يغنى عنه ظلمه شيئا » . « فان الظلم ظلمات يوم القيامة » : فهذه الجملة كالتعليل للأمر باتقاء الظلم ، أى اتقوه لأنه يكون ظلمات تحيط بكم وتمنعكم من الاهتداء حين يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم .

* * *

ولهذا كان من الخير كما علمنا أن نكون من أهل العدل لا من أهل الظلم وأن نكون كذلك من المعينين للمظلوم على استرداد حقه اذا ما استعاذ بنا وأن لا نخذله ، أى نتخلى عنه ونتركه :

فعن جابر وأبى طلحة رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ما من مسلم يخذل امرءا مسلما فى موضع تنتهك فيه حرمته[1] وينتقص فيه من عرضه الا خذله الله فى موطن يحب فيه نصرته ، وما من امرىء ينصر مسلما فى موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته ، الا نصره الله فى موطن يحب فيه نصرته » رواه أبو داوود .

وهو حديث عظيم يحث على وجوب مناصرة المسلم والذب عن عرضه ، فان المسلم أخو المسلم ومن شأن الأخ أن يرد غيبة أخيه وأن يشد أزره وينصره فى كل موطن يحتاج فيه الى نصرته .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما[2] ، فقال رجل : يا رسول الله أنصره اذا كان مظلوما ، أفرأيت ان كان ظالما كيف أنصره ؟[3] قال : تحجزه عن الظلم ، فان ذلك نصره »[4] .

---

(١) أى تضيع وتستباح .

(٢) يعنى انصره فى كل واحدة من الحالتين فقوله « ظالما » حال من أخاك و « مظلوما » معطوف عليه .

(٣) يعنى أخبرنى اذا كان هو الظالم كيف أنصره مع أن فى ذلك اعانة له على الظلم .

(٤) يعنى ، فان ذلك هو معنى نصرك اياه اذا كان ظالما .

رواه البخارى ومسلم فى حديث عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ولينصر الرجل أخاه ظالما أو مظلوما ، وان كان ظالما فلينهه فانه له نصرة ، وان كان مظلوما فلينصره » .

وفى رواية للبخارى : « قالوا : يا رسول الله .. هذا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما ؟ فقال : تأخذ فوق يديه » .

قال فى الفتح : « كنى به عن كفه عن الظلم بالفعل ان لم يكن بالقول ، وعبر بالفوقية اشارة الى الأخذ بالاستعلاء والقوة » .

وقال ابن بطال : « النصر عند العرب : الاعانة ، وتفسيره لنصر الظالم بمنعه من الظلم من تسمية الشىء بما يئول اليه وهو من وجيز البلاغة » .

وقال ابن المنير : « فيه اشارة الى أن الترك كالفعل فى باب الضمان » .

وقال الحافظ فى الفتح فى باب نصر المظلوم : « هو فرض كفاية وهو عام فى المظلومين وكذلك فى الناصرين بناء على أن فرض الكفاية مخاطب به الجميع ، وشرط الناصر أن يكون عالما بكون الفعل ظلما ويقع النصر مع وقوع الظلم ، وهو حينئذ حقيقة وقد يقع قبل وقوعه كمن أنقذ انسانا من يد انسان طالبه بمال ظلما وهدده ان لم يبذله وقد يقع بعد » .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الاسلام ، واذكر كذلك هذا الحديث القدسى الذى جاء فى نصه : أن داوود عليه السلام ناجى ربه ، فقال : « يا رب .. أى العباد أحب اليك ؟ فقال الله تعالى : يا داوود ، أحب عبادى الى تقى القلب ، نقى الكفين ، لا يأتى لأحد بسوء ، ولا يمشى بين الناس بالنميمة ، تزول الجبال ولا يزول ، أحبنى وأحب من يحبنى ، وحببنى الى عبادى . قال داوود : يا رب .. وكيف يحببك الى عبادك ؟ قال : يذكرهم بنعمى وآلائى .. يا داوود .. ما من عبد يعين مظلوما أو يمشى معه فى مظلمته الا ثبت قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام » .

* * *

واذا كنت أخا الاسلام مظلوما ، وأردت أن تستعيذ بالله تعالى من شر هذا الظالم الذى تخاف الدخول عليه .. فحسبك أن تقرأ هذه الأدعية الواردة :

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « اذا تخوف أحدكم السلطان[١] ، فليقل : اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم[٢] كن لى جارا من شر فلان ابن فلان — يعنى الذى يريده — وشر الجن والانس وأتباعهم أن يفرط على أحد منهم[٣] ، عز جارك[٤] ، وجل ثناؤك[٥] ، ولا اله غيرك » رواه الطبرانى ، ورجاله رجال الصحيح الا جنادة بن مسلم ، وقد وثق ، ورواه الأصبهانى ، وغيره موقوفا على عبد الله لم يرفعوه .

ورواه كذلك ابن السنى من حديث ابن عمر ولفظه : « اذا خفت من سلطان أو غيره ، فقل : لا اله الا الله الحليم الكريم سبحان الله رب السموات ورب العرش العظيم ، لا اله الا أنت عز جارك وجل ثناؤك » .. الخ .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : اذا أتيت سلطانا مهيبا[٦] تخاف أن يسطو بك فقل : الله أكبر[٧] . الله أعز من خلقه جميعا[٨] . الله أعز مما أخاف وأحذر[٩] . أعوذ بالله الذى لا اله الا هو الممسك السموات أن يقعن على الأرض الا باذنه من شر عبدك فلان وجنوده وأتباعه وأشياعه من الجن والانس ، اللهم كن لى جارا من شرهم . جل ثناؤك وعز جارك : وتبارك اسمك[١٠] ، ولا اله غيرك (ثلاث

---

(١) أى خاف من ظلمه وغشمه وتسلطه .

(٢) فهو يدعوه بوصف الربوبية لتلك الأجرام العظيمة العلوية لا سيما العرش الذى هو أعلاها وأشرفها وأنورها .

(٣) أى يجهل وتسبق الى بوادره .

(٤) أى امتنع من احتمى بك فلا يستطيع أحد أن يذله .

(٥) أى عظم ما تستحقه على عبادك من ثناء وحمد لعظيم صفاتك وكبير آلائك .

(٦) أى ذا هيبة وسطوة بحيث تخافه وتفرق منه .

(٧) أى أعظم وأجل من ذلك السلطان .

(٨) من ملائكة وجن وبشر بل له وحده العزة جميعا ولا عزة لأحد الا اذا أعزه هو سبحانه .

(٩) وهذا تخصيص بعد تعميم ، أى : الله اعز من هذا السلطان الذى أهابه وأخاف سطوته .

(١٠) أى تنزه وتقدس عن النقص والعيب .

مرات) • رواه ابن أبي شيبة موقوفا ، وهذا لفظه وهو أتم ، ورواه الطبراني ، وليس عنده : ثلاث مرات ، ورجاله محتج بهم فى الصحيح[١] •

وعن أبي مجلز ، واسمه لاحق بن حميد رضى الله عنه ، قال : من خاف من أمير ظلما ، فقال : رضيت بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا وبالقرآن حكما واماما نجاه الله منه • رواه ابن أبي شيبة موقوفا عليه ، وهو تابعى ثقة •

* * *

وليكن شعارك دائما وأبدا ، هو : « **حسبنا الله ونعم الوكيل** » ، حتى تكون كهؤلاء المشار اليهم فى قول الله تبارك وتعالى : « **الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل • فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم** »[٢] •

فمعنى : « •• **حسبنا الله ونعم الوكيل** » : أى : كافينا الله • وحسب مأخوذ من الاحساب ، وهو الكفاية ، قال الشاعر :

فتملأ بيتنا أقطا[٣] وسمنا
وحسبك من غنى شبع وري

روى البخارى عن ابن عباس ، قال فى قوله تعالى : « **الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم** » — الى قوله : — « **وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** » : قالها ابراهيم الخليل عليه السلام حين ألقى فى النار • وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس : ان الناس قد جمعوا لكم • والله أعلم •

ثم يقول القرطبى : قوله تعالى : « **فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم** » : قال علماؤنا : لما فوضوا أمورهم اليه ، واعتمدوا بقلوبهم عليه ، أعطاهم من الجزاء أربعة معان : النعمة ، والفضل ، وصرف السوء ، واتباع الرضا ، فرضاهم عنه ، ورضى عنهم •

* * *

---

(١) ويظهر أنه من كلام ابن عباس نفسه .
(٢) آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤
(٣) الأقط : شيء يتخذ من اللبن المخيض .

وفى حاشـــية الصاوى على الجلالين ، قرأت توضيحا أكثر من هذا ، فقد قال : قوله : « **الذين قال لهم النـــاس ..** » : شروع فى غزوة بدر الثالثة ، وتسمى بدر الصغرى وكانت فى السنة الرابعة فى شعبان وهو يوم موسم عظيم لقبائل العرب كل عام ، فخرج أبو سفيان حتى نزل مر الظهران فألقى الله الرعب فى قلبه ، فلقى نعيم بن مسعود الأشجعى ، فقال أبو سفيان : يا نعيم .. انى قد واعدت محمدا أن نلتقى بموسم بدر ، وهـــذا عام جدب فأحب أن يكون الخلف منه لا منى ، فاذهب الى المدينة فثبطهم عن الخروج ، ولك عندى عشرة من الابل .. فانطلق نعيم الى المدينة فوجد النبى وأصحابه يتجهزون ، فقال لهم : ما تريدون ؟ فقالوا : لميعاد أبى سفيان .. فقال لهم : لا تقدرون عليهم ، فانهم قد جمعوا لكم فاخشوهم .. قال النبى : لأخرجن اليهم ولو وحدى .. فخرج النبى فى ألف وخمسمائة مقاتل حتى بلغوا بدرا وكانت موضع سوق للعرب يجتمعون فيها كل عام ثمانية أيام فصادفوا الموسم وباعوا ما كان معهم من التجارات فربحوا فى الدرهم درهمين ولم يأتهم أحد من المشركين فرجعوا بربح وأجر عظيمين وأسلم كثير من أهل القبائل حينئـــذ .

* * *

وفى ابن كثير ــ وحول هـــذا الموضوع ــ ذكر بعض الأحاديث الشريفة والأقوال التى أرجو كذلك أن تنتفع بها ، والتى منها :

وقد قال الامام أحمد : حدثنا حيـــوة بن شريح وابراهيم بن أبى العباس قالا : حدثنا بقية ، حدثنا بحير بن ســـعد ، عن خالـــد ابن معدان ، عن سيف ، عن عوف بن مالك أنه حدثهم : أن النبى صـــلى الله عليـــه وسلم قضى بين رجلين ، فقال المقضى عليـــه لمـــا أدبر : حسبى الله ونعم الوكيل . فقال رسول الله صلى الله عليه وســـلم : « ردوا على الرجل . فقال : ما قلت ؟ قال : قلت : حسبى الله ونعم الوكيل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس[1] ، فاذا غلبك أمر فقل : حسبى الله ونعم الوكيل » .

يريد أن يقول له : **لا تكن عاجزا عن الأخذ بالأسباب** .. وانما كن آخذا بها مع تفويض أمرك الى الله تعالى ولا سيما اذا غلبك أمر .. والله أعـــلم .

---

(١) الكيس بوزن الكيل : ضد الحمق .

وقال الامام أحمد : حدثنا أسباط ، حدثنا مطرف ، عن عطية ، عن ابن عباس ، فى قوله : « **فاذا نقر فى الناقور** »[1] ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ، يسمع متى يؤمر فينفخ • فقال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : فما نقول ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » • وقد روى هذا من غير وجه ، وهو حديث جيد •

وروينا عن أم المؤمنين عائشة وزينب رضى الله عنهما ، أنهما تفاخرتا ، فقالت زينب : زوجنى الله وزوجكن أهاليكن • وقالت عائشة : نزلت براءتى من السماء فى القرآن • فسلمت لها زينب ، ثم قالت : كيف قلت حين ركبت راحلة صفوان بن المعطل ؟ فقالت : قلت : حسبى الله ونعم الوكيل • فقالت زينب : قلت كلمة المؤمنين •

ولهذا قال الله تعالى : « **فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء** » ، أى : لما توكلوا على الله كفاهم الله ما أهمهم ورد عنهم بأس من أراد كيدهم ، فرجعوا الى بلدهم : « **بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء** » ، مما أضمر لهم عدوهم « **واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم** » :

قال البيهقى : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو بكر بن داوود الزاهد ، حدثنا محمد بن نعيم ، حدثنا بشر بن الحكم ، حدثنا مبشر ابن عبد الله بن رزين ، حدثنا سفيان بن حسين ، عن يعلى بن مسلم ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قول الله تعالى : « **فانقلبوا بنعمة من الله وفضل** » ، قال : النعمة أنهم سلموا ، والفضل أن عيرا مرت وكان فى أيام الموسم ، فاشتراها رسول الله صلى الله عليه وسلم فربح فيها مالا ، فقسمه بين أصحابه •

* * *

فاذكر كل هذا أخا الاسلام حتى تكون :

أولا : عونا لأخيك المسلم اذا ما استعاذ بك وطلب نصرتك اذا كان مظلوما ، أو ظالما « فتحجزه عن الظلم » •

وثانيا : حتى تكون مستعينا بالله تعالى ومستعيذا به اذا كنت

---

(١) المدثر : ٨

مظلوما وتخشى بطش ظالميك .. الى آخر ما وفقنا عليه من التوجيهات الايجابية التى أرجو أن تكون حجة لنا لا علينا .

وحسبنا فى نهاية هـذا الموضوع ، حتى لا نكون من الظالمين لغيرنا ، وحتى لا يكون غيرنا ظالمـا لنا : أن نذكر أنفسنا وغيرنا دائما وأبدا بهذين الحديثين الشريفين ، اللذين من أهم الأحاديث التى قالها النبى صلى الله عليـه وسلم لكى تكون منهجا قويما للأمة الاسلامية الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، حتى تكون بحق « .. **خير أمـة أخرجت للناس** »[1] :

فعن أبى سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدرى رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صـلى الله عليـه وآله وسلم ، قال : « لا ضرر ولا ضرار » حديث حسن . رواه ابن ماجه والدارقطنى وغيرهما مسندا ، ورواه مالك فى الموطأ مرسلا عن عمرو بن يحيى عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فأسقط أبا سعيد وله طرق يقوى بعضها بعضا .

* * *

فقوله صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر » ، أى : لا يضر أحدكم أحدا بغير حق ولا جناية سابقة . وقوله صـلى الله عليه وسـلم : « ولا ضرار » ، أى : لا تضر من ضرك ، واذا سابك أحد فلا تسبه ، وان ضربك فلا تضربه ، بل اطلب حقك منه عند الحاكم من غير مسابة ، واذا تساب رجلان أو تقاذفا لم يحصل التقاضى ، بل كل واحد يأخذ حقه بالحاكم . وفى الحديث عنه صـلى الله عليه وآله وسـلم ، قال : « للمتسابين ما قالا وعلى البادى منهما الاثم ما لم يعتد المظلوم بسبب زائد »[2] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : « لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله اخوانا ، المسلم أخـو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره ، التقوى ههنا ـ ويشير الى صدره ثلاث مرات ـ بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » رواه مسلم .

---

(١) آل عمران : ١١٠

(٢) كما يقول الامام النووى فى شرح الأربعين النووية .

فقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تحاسدوا » : الحسد كما قال الغزالي ينقسم الى ثلاثة أقسام :

الأول : أن يتمنى زوال نعمة الغير وحصولها لنفسه .

الثانى : أن يتمنى زوال نعمة الغير وان لم تحصل له كما اذا كان عنده مثلها ولم يكن يحبها وهذا أشر من الأول .

الثالث : أن لا يتمنى زوال النعمة عن الغير ولكن يكره ارتفاعه عليه فى الحظ والمنزلة ويرضى بالمساواة ولا يرضى بالزيادة وهذا أيضا محرم لأنه لم يرض بقسمة الله تعالى ، قال الله تعالى : « **أهم يقسمون رحمة ربك ، نحن قسمنا ..** »[1] الآية ، فمن لم يرض بالقسمة فقد عارض الله تعالى فى قسمته وحكمته وعلى الانسان أن يعالج نفسه ويحملها على الرضا بالقضاء ويخالفها بالدعاء لعدوه بما يخالف النفس .

ولله در القائل :

ألا قل لمن بات لى حاسدا ... أتدرى على من أسأت الأدب

أسأت على الله فى فعله ... كأنك لم ترض لى ما وهب

فكان جزاؤك أن خصنى ... وسد عليك طريق الطلب

واذا كان هذا هو الحسد المذموم ، الذى ينبغى ألا تكون من أهله ، فاننى أرجو أن تكون من أهل الحسد المحمود المشار اليه فى الحديث الصحيح الذى يقول فيه صلوات الله وسلامه عليه : « لا حسد الا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل : أعطاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها » .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ولا تناجشوا » ، فالنجش أصله الارتفاع والزيادة وهو أن يزيد فى ثمن سلعة ليغر غيره وهو حرام لأنه غش وخديعة . « ولا تباغضوا » ، أى : لا تتعاطوا أسباب البغضاء فالبغض حرام الا فى الله تعالى فانه واجب ، ومن كمال الايمان ، ففى الحديث : « من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الايمان » ، « ولا تدابروا » ، أى : لا يهجر أحدكم أخاه وان رآه أعطاه دبره أو ظهره ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام » .

---

(١) الزخرف : ٣٢

وهجرة المسلم أخاه المسلم فوق ثلاثة بغير سبب شرعى : مكروهة فى الثلاثة ، وفيما زاد : حرام الا لضرورة .

وحكى أن رجلا هجر أخاه فوق ثلاثة أيام فكتب اليه هذه الأبيات ، فقال :

يا سيدى عندك لى مظلمة ... فاستفت فيها ابن أبى خيثمة
فانه يروى لنا عن جده ... ما قد روى الضحاك عن عكرمة
عن ابن عباس عن المصطفى ... نبينا المبعوث بالمرحمة
ان صدود الالف عن الفه ... فوق ثلاث ربنا حرمه

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ولا يبع بعضكم على بيع أخيه » ، فصورته أن يبيع أخوه شيئا فيأمر المشترى بالفسخ ليبيعه مثله وأحسن منه بأقل من ثمن ذلك ، والشراء على الشراء حرام ، بأن يأمر البائع بالفسخ ليشتريه منه بأغلى ثمن ، وكذلك يحرم السوم على سوم أخيه .. وكل هذا داخل فى الحديث لحصول المعنى وهو التباغض والتدابر ، وتقييد النهى ببيع أخيه يقتضى أنه لا يحرم على بيع الكافر ، وهو وجه لابن خالويه .. والصحيح لا فرق لأنه من باب الوفاء بالذمة والعهد .

« المسلم أخو المسلم » ، وهى أعظم أخوة .. والانتماء الى أبوة الاسلام أعظم انتماء .. كما يقول أحدهم متباهيا بهذا :

أبى الاسلام لا أب لى سواه
اذا افتخروا بقيس أو تميم

ومن حق المسلم على أخيه المسلم أن : « لا يظلمه » أى : يأخذ حقوقه .. أو يكون سببا فى الاضرار به وبمصالحه وما الى ذلك .

« ولا يخذله » ، أى : عند أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر أو عند مطالبته بحق من الحقوق .. بل ينصره ويعينه ويدفع عنه الأذى ما استطاع .

« ولا يكذبه » ، أى : لا يخبره بأمر على خلاف الواقع لأنه غش وخيانة .

« ولا يحقره » ، أى : فلا يحكم على نفسه بأنه خير من غيره ، بل يحكم على غيره بأنه خير منه ، أولا يحكم بشىء فان العاقبة منطوية ولا يدرى العبد بما يختم له ، فاذا رأى صغيرا مسلما حكم بأنه خير منه باعتبار أنه أخف ذنوبا منه وان رأى من هو أكبر سنا منه حكم

بالخيرية باعتبار أنه أقدم هجرة منه فى الاسلام .. وان رأى كافرا لم يقطع له بالنار لاحتمال أنه يسلم فيموت مسلما .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « التقوى ههنا » ويشير الى صدره ثلاث مرات ، أى : لأن الصدر محل القلب الذى هو محل الخوف الحامل على التقوى : « **فانها من تقوى القلوب** »[1] وتكرار الاشارة « ثلاث مرات » للدلالة على عظم المشار اليه فى الحقيقة وهو القلب ..

ففى الحديث الشريف : « .. ألا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب »[2] : أى فى الجسد مضغة اذا خشعت خشعت الجوارح ، واذا طمحت طمحت الجوارح ، واذا فسدت فسدت الجوارح . قال العلماء : البدن مملكة النفس ومدينتها ، والقلب وسط المملكة ، والأعضاء كالخدم ، والقوى الباطنة كضياع المدينة ، والعقل كالوزير المشفق الناصح به ، والشهوة كطالب أرزاق الخدام ، والغضب صاحب الشرطة وهو عبد مكار خبيث يتمثل بصورة الناصح ، ونصحه سم قاتل ، ودأبه أبدا منازعة الوزير الناصح ، والقوة المخيلة فى مقدم الدماغ كالخازن ، والقوة المفكرة فى وسط الدماغ ، والقوة الحافظة فى آخر الدماغ ، واللسان كالترجمان ، والحواس الخمسة جواسيس وقد وكل واحد منهم بصنيع من الصناعات ، فوكل العين بعالم الألوان ، والسمع بعالم الأصوات ، وكذلك سائرها فانها أصحاب الاخبار .. ثم قيل هى كالحجبة توصل الى النفس ما تدركه ، وقيل ان السمع والبصر والشم كالطاقات تنظر منها النفس ، فالقلب هو الملك ، فاذا صلح الراعى صلحت الرعية ، واذا فسد فسدت الرعية . وانما يحصل صلاحه بسلامته من الأمراض الباطنة كالغل والحقد والحسد والشح والبخل والكبر والسخرية والرياء والسمعة والمكر والحرص والطمع وعدم الرضا بالمقدور ، وأمراض القلب كثيرة تبلغ نحو الأربعين عافانا الله منها وجعلنا ممن يأتيه بقلب سليم : « **يوم لا ينفع مال ولا بنون . الا من أتى الله بقلب سليم** »[3] .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم » ، أى : يكفيه منه ، وقوله « بحسب » باسكان السين ..

---

(١) الحج : ٣٢

(٢) الحديث رواه البخارى ومسلم .

(٣) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩

وفيه تحذير من الاحتقـــار ، قال الله تعالى : « **يا أيهـــا الذين آمنـــوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نســـاء عسى أن يكن خيرا منهن ..** »[1] ، والسخرية النظر الى المسخور منه بعين النقص ، فلا تحتقر غيرك عسى أن يكون عند الله خيرا منك وأفضل وأقرب ، وقد احتقر ابليس اللعين آدم عليه السلام فباء بالخسران الأبدى ، وفاز آدم بالعز الأبدى وشتان ما بينهما فلا تحتقر أحدا ولو كان عبدك ، فربما صار عزيزا وصرت ذليلا فينتقم منك .. تنبيه : مفهوم الخبر أن الكافر يجوز احتقاره اذ لا حرمة له بالكفر واهانته على الله : « **ومن يهن الله فما له من مكرم** »[2] .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » ، فقد جعل هذه الثلاثة كل المســـلم وحقيقته لشدة اضطراره اليهـــا لأن الدم به حياته ، والمـــال مادة الدم فهو مادة الحياة ، والعرض قيام صورته المعنوية .. واقتصر على هذه الثلاثة لأن ما سواها فرع راجع اليها ، لأنه اذا قامت البدنية والمعنوية فلا حاجة الى غير ذلك .

* * *

فحسبك أخا الاسلام كل هذا الخير الذى وقفت عليه والذى أرجو أن تكون منتفعا به .

ثم اذا كان الرسول صلى الله عليـــه وسلم ، قد أوصـــانا ـــ فى نص الوصية ـــ بعد قوله : من استعاذ بالله فأعيذوه ـــ بقوله : « ومن سأل بالله فأعطوه » ، أى : بعد التحقق من عجزه وحاجته ، كما فعـــل الرسول صلى الله عليه وسلم :

فعن عبد الله بن عدى رضى الله عنه : « أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبى صلى الله عليه وسلم يسألانه عن الصدقة ، فقلب فيهما البصر ورآهما جلدين ، فقال لهما : ان شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغنى ولا لقوى » رواه أحمد وأبو داوود .

فاذا تبين لنا أنه فعلا عاجز عن الكسب ، ومحتاج أعطيناه والا فلا .

بل قيل ان أعطاه ان كان شابا أو قويا وليس عاجزا : سيكون حراما لأنه تعاون على الاثم لا على البر .

---

(١) الحجرات : ١١ (٢) الحج : ١٨

وأولى بنا بدل أن نعطيه لكى نشجعه على البطالة والتسول : أن نرغبه فى السعى على الرزق .. بأن نذكره مثلا بقول الله تبارك وتعالى : **« فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون »**[١] .

وقوله : **« .. فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، واليه النشور »**[٢] .

وقوله : **« .. وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله .. »**[٣] .

وبأن نذكره كذلك بالأحاديث الشريفة المرغبة فى السعى على الرزق ، والتى منها ، ما ورد فى صحيح البخارى عن المقدام بن معد يكرب الكندى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده . وان نبى الله داوود — عليه السلام — كان يأكل من عمل يده » — فى الدروع من الحديد ويبيعه لقومه .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه ويستغنى به عن الناس خير له من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه » .

وكذلك نذكره بهذا الحديث الشريف الذى أرجو أن يكون سببا فى بعده عن سؤال الناس ، وحرصه على طلب الرزق :

روى أبو داوود من حديث سهل ابن الحنظلية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « من سأل وعنده ما يغنيه فانما يستكثر من جمر جهنم ، قالوا : يا رسول الله .. وما يغنيه ؟ قال : ما يغديه ويعشيه » .

* * *

ومن أجمل ما قرأت كذلك من الآثار حول هذا الموضوع[٤] ، أن : الناس ثلاثة : رجل شغله معاشه عن معاده : فهو من المفرطين الهالكين .

---

(١) الجمعة : ١٠ (٢) الملك : ١٥ (٣) المزمل : ٢٠

(٤) من كتاب هداية المرشدين للشيخ على محفوظ رحمه الله باختصار وتصرف .

ورجل شغله معاده عن معاشه : فهو من الغالبين المكروهين .
والأقرب الى الاعتدال هو الثالث الذى : شغله معاشه لمعاده : فهو من المقتصدين المحبوبين . ففى الحديث الذى رواه أحمد وغيره يقول صلوات الله وسلامه عليه : « من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى » ، أى : لأن الانهماك فيها سيشغله عن طاعة مولاه فيخسر الآخرة ، والانقطاع للآخرة يمنعه عن الكسب فيصير حملا ثقيلا على كاهل الأمة ، وفى الحكم المأثورة : « خيركم من لم يترك آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته ، ولم يكن كلا على الناس » ، فأفضل الأمرين التزام حد الوسط . وفى القرآن الكريم يوصينا الله تعالى بهذا ، فيقول : **« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك »**[1] .

روى أن عيسى عليه السلام رأى رجلا ، فقال : ما تصنع ؟ قال : أتعبد . قال : ومن يعولك ؟ قال : أخى . قال : وأين أخوك ؟ قال : فى مزرعته . قال : أخوك أعبد منك .

وقال لقمان لابنه : يا بنى .. استغن بالكسب الحلال عن الفقر ، فانه ما افتقر أحد قط الا أصابه ثلاث خصال : « رقة فى دينه » وهو كناية عن قلته فان الفقر قد يحمله على ما يوجب ذلك « وضعف فى عقله » وذلك لكثرة ما يعتريه من الهموم والأفكار ، وهى لا شك تظلم العقل وتفسد الرأى . « وذهاب مروءته » ولا دين لمن لا مروءة له . وأعظم من هذه الثلاثة استخفاف الناس به ، واحتقارهم له ، وازدرائهم لحاله .

وقال ابن عباس رضى الله عنه : اطلبوا الغنى باصلاح ما فى أيديكم ، فان الفقر مجمع العيوب .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقنى ، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة .

وكان رضى الله عنه يقول : ما من موضع يأتينى الموت فيه أحب الى من موطن أتسوق فيه لأهلى أبيع وأشترى .

---

(١) القصص : ٧٧

وذات يوم : سمع عمر رضى الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب ، فقال لرجل من قومه : عش الرجل ، فعشاه ، ثم سمعه — عمر — ثانيا يسأل ، فقال : ألم أقل لك عش الرجل ؟ قال : قد عشيته • فنظر عمر فاذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزا ، فقال : لست سائلا لكنك تاجرا ، ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدى ابل الصدقة وضربه بالدرة ، وقال : لا تعد — ولولا أن سؤاله كان حراما ما ضربه ولا آخذ مخلاته •

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يقول : « مكسبة فى دناءة خير من سؤال الناس » •

وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه ، يقول :

لحملى الصخر من قمم الجبال ... أحب الى من منن الرجال
يقول الناس لى فى الكسب عار ... فقلت العار فى ذل السؤال

* * *

فليكن هذا مفهومك أخا الاسلام عن معنى اعطاء السائل اذا تأكد لك عجزه واحتياجه ولا سيما اذا جعل اسم الله عز وجل واسطة فى السؤال •

مع ملاحظة ما رواه الامام مالك فى الموطأ ، من أنه صلى الله عليه وسلم ، قال : « أعطوا السائل ولو جاء على فرس » •

فهذا الحديث : فيه مقال ، وعلى فرض صحته فهو محمول على تحقيق عجزه وحاجته • وهذا ما أردت أن أوقفك عليه حتى تكون من الدعاة الى العمل المحاربين للبطالة التى هى الداء الكبير الذى لابد وأن نتخلص منه حتى يعود الى الاسلام مجده وفخاره ، وحتى نفهم الاسلام فهما ايجابيا لا سلبيا :

وحسبنا ما وقفنا عليه توضيحا لكل هذا ••

* * *

ثم اذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم ، يقول بعد قوله : « ومن سأل بالله فأعطوه » •

« ومن دعاكم فأجيبوه » ، أى : من دعاكم الى وليمة أو نحوها فأجيبوه ، لأن ذلك من حق المسلم على المسلم :

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام ، وعيادة المريض ،

واتباع الجنازة ، واجابة الدعوة ، وتشميت العاطس » رواه البخارى ومسلم •

وروى مسلم : « حق المسلم على المسلم ست • قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : اذا لقيته فسلم عليه ، واذا دعاك فأجبه ، واذا استنصحك فانصح له ، واذا عطس فحمد الله فشمته ، واذا مرض فعده ، واذا مات فاتبعه » ورواه الترمذى والنسائى •

فاجابة الدعوة كما رأيت حق للمسلم على أخيه المسلم •• ولكن بشروط وآداب لابد وأن نقف عليها ، تحت عنوان :

حكم اجابة الدعوة

فهى كما عرفنا فى نص الحديثين ، حق واجب على المسلم لأخيه المسلم : لأنها تحقق معنى الأخوة بينهما ، وتزيد الود ، وتضمن صفاء النفوس •

وقد حث الاسلام عليها ، واعتبر الممتنع عنها عاصيا :

فعن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ست خصال واجبة للمسلم على المسلم ، من ترك شيئا منهن فقد ترك حقا واجبا : يجيبه اذا دعاه ، واذا لقيه أن يسلم عليه ، واذا عطس أن يشمته ، واذا مرض أن يعوده ، واذا استنصحه أن ينصح له » رواه ابن حبان •

والحق السادس والله أعلم ، هو : « اذا مات أن يتبعه » كما وردت به الأحاديث الصحاح •

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا دعى أحدكم الى طعام فليجب ، فان شاء طعم وان شاء ترك » رواه مسلم وغيره •

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا دعا أحدكم أخاه فليجب : عرسا كان أو نحوه » رواه مسلم وغيره •

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أنه كان يقول : « شر الطعام طعام الوليمة يدعى اليها الأغنياء وتترك المساكين ، ومن لم يأت الدعوة فقد عصى الله ورسوله » متفق عليه •

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من دعى فلم يجب فقد عصى الله ورسوله ، ومن

دخل على غير دعوة دخل سارقا وخرج مغيرا » — أى مختطفا — رواه أبو داوود .

* * *

وحول حكم اجابة الدعوة :

قال النووى فى شرح مسلم (ج ٩ ص ٣٣٤) : لا خلاف فى أنه مأمور به ، ولكن هل هو أمر ايجاب أو ندب ، فيه خلاف . والأصح فى مذهبنا — الشافعية — أنه فرض عين على كل من دعى لكن يسقط بأعذار .

والثانى : أنه فرض كفاية .

والثالث : أنه مندوب ، هذا مذهبنا فى وليمة العرس « الشافعية » .

وأما غيرها — أى غير وليمة العرس — ففيها وجهان لأصحابنا : أحدهما : كوليمة العرس . والثانى : أن الاجابة اليها ندب ، وان كانت فى العرس واجبة .

ونقل القاضى اتفاق العلماء على وجوب الاجابة فى وليمة العرس . قال : واختلفوا فى سواها .

فقال مالك والجمهور : لا تجب الاجابة اليها .

وقال أهل الظاهر : تجب الاجابة الى كل دعوة من عرس وغيره ، وبه قال بعض السلف .

* * *

وهناك أحكام هامة تتعلق باجابة الدعوة ، ذكرها صاحب كتاب « المجموع »[1] (ج ١٥ ص ٢٧٥) .

وقد رأيت أن أوقفك عليها بتصرف ، فاليك أهمها :

اذا دعى — المسلم — الى وليمة كتابى — وقلنا : أتجب عليه الاجابة الى وليمة الكتابى ؟ ففيه وجهان :

أحدهما : تجب عليه الاجابة لعموم الأخبار .

والثانى : لا تجب عليه الاجابة لأن النفس تعاف من أكل طعامهم ، ولأنهم يستحلون الربا ، ولأن الاجابة انما جعلت لتأكد الأخوة والموالاة ، وهذا لا يوجد فى أهل الذمة .

واذا جاء الداعى ، فقال : أمرنى فلان أن أدعوك فأجب : لزمه الاجابة . وان قال : أمرنى فلان أن أدعو من شئت أو من لقيت فاحضر : لم تلزمه الاجابة .

---

(١) وهو فضيلة الشيخ محمد نجيب المطيعى أكرمه الله وأثابه .

قال الشافعي رحمه الله : بل أستحب له أن يحضر الا من عذر :

والأعذار التي يسقط معها فرض الاجابة : أن يكون مريضا ، أو قيما بمريض ، أو بميت ، وباطفاء حريق ، أو يخاف ضياع ماله ، أو له في طريقه من يؤذيه ، لأن هذه الأسباب أعذار في حضور الجماعة وفي صلاة الجماعة ، ففي هذا أولى .

وان كانت الوليمة ثلاثة أيام فدعي في اليوم الأول : وجب عليه الاجابة ، وان دعي في اليوم الثاني : لم تجب عليه الاجابة ولكن يستحب له أن يجيب ، وان دعي في اليوم الثالث : لم يستحب له أن يجيب بل يكره له ، لما روى : أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « الوليمة في اليوم الأول : حق ، وفي الثاني : معروف ، وفي اليوم الثالث : رياء وسمعة » رواه أحمد وأبو داوود والترمذي .

اذا دعاه اثنان الى وليمتين — فان سبق أحدهما — قدم اجابته ، وان لم يسبق أحدهما أجاب أقربهما اليه دارا : لما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « اذا اجتمع داعيان فأجب أقربهما اليك بابا ، فان أقربهما بابا أقربهما جوارا ، فان سبق أحدهما فأجب الذي سبق » هكذا ذكر المحاملي وابن الصبغ .

وذكر الشيخ أبو اسحاق ، أنهما اذا تساويا في السبق : أجاب أقربهما رحما .

فان استويا في الرحم : أجاب أقربهما دارا . واذا ثبت الخيار فأقربهما أولى لأنه لم يفرق بين أن يكون أقربهما رحما أو أبعد ، فان استويا في ذلك أقرع[1] بينهما ، لأنه لا مزية لأحدهما على الآخر .

وان دعي الى موضع فيه دف : أجاب ، لأن الدف يجوز في الوليمة ، لما روى محمد بن حاطب ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فصل ما بين الحلال والحرام الدف » .

فان دعي الى موضع فيه منكر من زمر أو خمر — فان قدر على ازالته — : لزمه أن يحضر لوجوب الاجابة لازالة المنكر ، وان لم يقدر على ازالته : لم يحضر ، لما روى :

« أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : نهى أن يجلس على مائدة تدار فيها الخمر » .

---

(١) أي اقترع بينهما .

وروى نافع ، قال : « كنت أسير مع عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، فسمع زمارة راع فوضع أصبعيه فى أذنيه ، ثم عدل عن الطريق ، فلم يزل يقول : يا نافع .. أتسمع ؟ حتى قلت : لا .. فأخرج أصبعيه من أذنيه ثم رجع الى الطريق ، ثم قال : هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل » .

وان حضر فى موضع فيه تماثيل ــ فان كانت كالشجر ــ : جلس ، وان كانت على صورة حيوان ــ فان كانت على بساط يداس أو وسادة يتكأ عليها ــ : جلس . وان كانت على حائط أو ستر معلق : لم يجلس ، لما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أتانى جبريل ، فقال : أتيتك البارحة فلم يمنعنى أن أكون دخلت الا أنه كان على الباب تماثيل ، وكان فى البيت قرام ستر فيه تماثيل ، وكان فى البيت كلب .. فمر برأس التماثيل التى كانت بالبيت تقطع فتصير كهيئة الشجرة ، ومر بالستر فليقطع منه وسادتان منبوذتان توطآن ، ومر بالكلب فليخرج . ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك » .

ولأن ما كان كالشجرة فهو كالكتابة والنقوش ، وما كان على صورة الحيوان على حائط وستر فهو كالصنم . وما يوطأ فليس كالصنم لأنه غير معظم .

ثم يقول بعد ذلك صاحب المجموع :

ومن حضر طعاما ــ فان كان مفطرا ــ ففيه وجهان : أحدهما : يلزمه أن يأكل لما روى أبو هريرة رضى الله عنه :

« أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : اذا دعى أحدكم الى طعام فليجب ، فان كان مفطرا فليأكل ، وان كان صائما فليصل »[1] .

والثانى : لا يجب ، لما روى جابر رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا دعى أحدكم الى طعام فليجب ، فان شاء طعم وان شاء ترك » .

وان دعى وهو صائم لم تسقط عنه الاجابة للخبر ، ولأن القصد التكثير والتبرك بحضوره ، وذلك يحصل مع الصوم ، فان كان الصوم

---

(١) بكسر الصاد ، أى : فليصل صيامه ولا يفطر .

فرضا لم يفطر لقول النبى صلى الله عليه وسلم : « وان كان صائما فليصل » •

وان كان تطوعا فالمستحب أن يفطر ، لأنه يدخل السرور على من دعاه ، وان لم يفطر جاز لأنه قربة فلم يلزمه تركها •

والمستحب لمن فرغ من الطعام أن يدعو لصاحب الطعام ، لما روى عبد الله بن الزبير رضى الله عنه ، قال : « أفطر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عند سعد بن معاذ رضى الله عنه ، فقال : أفطر عندكم الصائمون ، وصلت عليكم الملائكة ، وأكل طعامكم الأبرار » •

* * *

وفى كتاب : « احياء علوم الدين » للامام أبى حامد الغزالى (ج ٤) ، يقول رحمه الله تعالى ، تحت عنوان :

آداب اجابة الدعوة الى الطعام

وللاجابة خمسة آداب :

الأول : أن لا يميز الغنى بالاجابة عن الفقير ، فذلك هو التكبر المنهى عنه • ولأجل ذلك امتنع بعضهم عن أصل الاجابة ، وقال : « انتظار المرقة ذل » • وقال آخر : « اذا وضعت يدى فى قصعة غيرى فقد ذلت له رقبتى » ، ومن المتكبرين من يجيب الأغنياء دون الفقراء ، وهو خلاف السنة : كان صلى الله عليه وسلم : يجيب دعوة العبد ودعوة المسكين •

ومر الحسن بن على رضى الله عنهما بقوم من المساكين الذين يسألون الناس على قارعة الطريق وقد نشروا كسرا على الأرض فى الرمل ، وهم يأكلون ، وهو على بغلته ، فسلم عليهم ، فقالوا له : هلم الى الغداء يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم • فقال : نعم ، ان الله لا يحب المستكبرين • فنزل وقعد معهم على الأرض وأكل ، ثم سلم عليهم وركب ، وقال : قد أجبتكم فأجيبونى • قالوا : نعم • فوعدهم وقتا معلوما ، فحضروا ، فقدم اليهم فاخر الطعام ، وجلس يأكل معهم •

وأما قول القائل : ان من وضعت يدى فى قصعته ، فقد ذلت له رقبتى ، فقد قال بعضهم هذا خلاف السنة ، وليس كذلك • فانه ذل اذا كان الداعى لا يفرح بالاجابة ، ولا يتقلد بها منة ، وكان يرى ذلك يدا له على المدعو •

ورسول الله صلى الله عليه وسلم لعلمه أن الداعى له يتقلد منه ، ويرى ذلك شرفا وذخرا لنفسه فى الدنيا والآخرة . فهذا يختلف باختلاف الحال . فمن ظن به أنه يستثقل الاطعام ، وانما يفعل ذلك مباهاة أو تكلفا[1] ، فليس من السنة اجابته . بل الأولى التعلل .

ولذلك قال بعض الصوفية : لا تجب الا دعوة من يرى أنك أكلت رزقك ، وأنه سلم لك وديعة كانت عنده ، ويرى لك الفضل عليه فى قبول تلك الوديعة منه .

والى هذا يشير أحدهم فى قوله :

من دعانا فأبينا فله الفضل علينا
واذا نحن أجبنا رجع الفضل الينا

وقال سرى السقطى رحمه الله : آه على لقمة ليس على الله فيها تبعة ، ولا لمخلوق فيها منة . فاذا علم المدعو أنه لا منة فى ذلك ، فلا ينبغى أن يرد .

وقال أبو تراب النخشبى رحمة الله عليه : عرض على طعام فامتنعت ، فابتليت بالجوع أربعة عشر يوما ، فعلمت أنه عقوبته .

وقيل لمعروف الكرخى رضى الله عنه : كل من دعاك تمر اليه ؟ فقال : أنا ضيف أنزل حيث أنزلونى .

الثانى : أنه لا ينبغى أن يمتنع عن الاجابة لبعد المسافة ، كما لا يمتنع لفقر الداعى وعدم جاهه ، بل كل مسافة يمكن احتمالها فى العادة لا ينبغى أن يمتنع .

لأجل ذلك يقال فى التوراة أو بعض الكتب : « سر ميلا عد مريضا ، سر ميلين شيع جنازة ، سر ثلاثة أميال أجب دعوة ، سر أربعة أميال زر أخا فى الله » .

وانما قدم اجابة الدعوة والزيارة ، لأن فيه قضاء حق الحى ، فهو أولى من الميت ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لو دعيت الى كراع بالغميم لأجبت » وهو موضع على أميال بالمدينة ، أفطر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رمضان لما بلغه وقصر عنده فى سفره .

الثالث : أن لا يمتنع لكونه صائما[2] ، بل يحضر ، فان كان يسر

---

(١) ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن طعامه المتباهين والمتبارين .

(٢) صيام تطوع .

أخاه افطاره فليفطر ، وليحتسب فى افطاره بنية ادخال السرور على قلب أخيه ، ما يحتسب فى الصوم وأفضل ، وذلك فى صوم التطوع • وان لم يتحقق سرور قلبه ، فليصدقه بالظاهر ، وليفطر •

وان تحقق أنه متكلف ، فليتعال • وقد قال صلى الله عليه وسلم لمن امتنع بعذر الصوم : « تكلف لك أخوك وتقول : انى صائم » • وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : من أفضل الحسنات اكرام الجلساء بالافطار •

فالافطار عبادة بهذه النية ، وحسن خلق ، فثوابه فوق ثواب الصوم •

ومهما لم يفطر ، فضيافته الطيب والمجمرة ، والحديث الطيب • وقد قيل : الكحل والدهن أحد القراءين •

الرابع : أن يمتنع من الاجابة ان كان الطعام طعام شبهة ، أو الموضع أو البساط المفروش من غير حلال ، أو كان يقام فى الموضع منكر ، من فرش وديباج ، أو اناء فضة أو تصوير حيوان على سقف أو حائط ، أو سماع شىء من المزامير والملاهى ، أو التشاغل بنوع من اللهو والعزف والهزل واللعب ، واستماع الغيبة والنميمة والزور والبهتان والكذب ، وشبه ذلك :

فكل ذلك مما يمنع الاجابة واستحبابها ، ويوجب تحريمها أو كراهيتها ، وكذلك اذا كان الداعى ظالما ، أو مبتدعا ، أو فاسقا ، أو شريرا ، أو متكلفا طلبا للمباهاة والفخر •

الخامس : أن لا يقصد بالاجابة قضاء شهوة البطن ، فيكون عاملا فى أبواب الدنيا • بل يحسن نيته ، ليصير بالاجابة عاملا للآخرة ، وذلك بأن تكون نيته الاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « لو دعيت الى كراع لأجبت » •

وينوى الحذر من معصية الله لقوله صلى الله عليه وسلم : « من لم يجب الداعى فقد عصى الله ورسوله » •

وينوى اكرام أخيه المؤمن اتباعا لقوله صلى الله عليه وسلم : « من أكرم أخاه المؤمن فكأنما أكرم الله » •

وينوى ادخال السرور على قلبه امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم : « من سر مؤمنا فقد سر الله » • وينوى مع ذلك زيارته ، ليكون من المتحابين فى الله اذ شرط رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه التزاور

والتباذل لله . وقد حصل البذل من أحد الجانبين ، فتحصل الزيارة من جانبه أيضا .

وينوى صيانة نفسه عن أن يساء به الظن فى امتناعه ، ويطلق اللسان فيه ، بأن يحمل على تكبر أو سوء خلق ، أو استحقار أخ مسلم ، أو ما يجرى مجراه .

* * *

فهذه ست نيات تلحق اجابته بالقربات آحادها ، فكيف مجموعها .

وكان بعض السلف يقول : أنا أحب أن يكون لى فى كل عمل نية ، حتى فى الطعام والشراب .

وفى مثل هذا قال صلى الله عليه وسلم : « انما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله ، فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته الى ما هاجر اليه » .

والنية انما تؤثر فى المباحات والطاعات ، أما المنهيات فلا ، فانه لو نوى أن يسر اخوانه بمساعدة على شرب الخمر ، أو حرام آخر ، لم تنفع النية . ولم يجز أن يقال : الأعمال بالنيات .

بل لو قصد بالغزو الذى هو طاعة ، المباهاة وطلب المال ، انصرف عن جهة الطاعة . وكذلك المباح المردد بين وجوه الخيرات وغيرها ، يلتحق بوجوه الخيرات بالنية . فتؤثر النية فى هذين القسمين ، لا فى القسم الثالث .

* * *

وتحت عنوان :

آداب الحضور لمنزل الداعى والجلوس فيه

يقول أيضا أبو حامد الغزالى رحمه الله تعالى فى كتابه « احياء علوم الدين » (ج ٤) ما نصه :

وأما الحضور فأدبه أن يدخل الدار ، ولا يتصدر فيأخذ أحسن الأماكن ، بل يتواضع ولا يطول الانتظار عليهم ، ولا يعجل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد ، ولا يضيق المكان على الحاضرين بالزحمة .

بل ان أشار اليه صاحب المكان بموضع لا يخالف البتة ، فانه قد يكون رتب فى نفسه موضع كل واحد ، فمخالفته تشوش عليه ،

وان أشار اليه بعض الضيفان بالارتفاع اكراما ، فليتواضع • قال صلى الله عليه وسلم : « ان من التواضع لله الرضا بالدون من المجلس » •

ولا ينبغى أن يجلس فى مقابلة باب الحجرة التى للنساء وسترهم •

ولا يكثر النظر الى الموضع الذى يخرج منه الطعام ، فانه دليل على الشره •

ويخص بالتحية والسؤال من يقرب منه اذا جلس •

واذا دخل ضيف للمبيت : فليعرفه[1] صاحب المنزل عند الدخول القبلة وبيت المـاء وموضع الوضوء ، كذلك فعل مالك بالشافعى رضى الله عنهما ، وغسل مالك يده قبل الطعام قبل القوم ، وقال : الغسل قبل الطعام لرب البيت أولى ، لأنه يدعو الناس الى كرمه ، فحكمة أن يتقدم بالغسل ، وفى آخر الطعام يتأخر بالغسل ، لينتظر أن يدخل من يأكل فيأكل معه •

واذا دخل فرأى منكرا غيره ان قدر ، والا أنكر بلسانه وانصرف •

والمنـكر : فرش الديباج ، واستعمال أوانى الفضة والذهب ، والتصوير على الحيطان ، وسماع الملاهى والمزامير ، وحضور النسوة المتكشفات الوجوه ، وغير ذلك من المحرمات •

حتى قال أحمد رحمه الله : اذا رأى مكحلة رأسها مفضض ، ينبغى أن يخـرج ، فان ذلك تكلف لا فائدة فيه ، ولا تدفع حـرا ولا بردا ، ولا تستر شيئا •

وكذلك قال : يخرج اذا رأى حيطان البيت مستورة بالديباج كما تستر الكعبة ، وقال : اذا اكترى بيتا[2] فيه صورة ، أو دخل الحمام ورأى صورة ، فينبغى أن يحكها[3] ، فان لم يقدر خرج •

* * *

ثم يقول : وكل ما ذكره صحيح ، وانما النظر فى المكحلة وتزيين الحيطان بالديباج ، فان ذلك لا ينتهى الى التحريم ، اذ الحرير يحرم على الرجال • قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا حرام على ذكور أمتى حل لاناثها » • وما على الحائط ليس منسوبا الى الذكور •

ولو حرم هـذا لحرم تزيين الكعبة • بل الأولى اباحته لموجب قوله تعـالى : « **قل من حرم زينـة الله ..** »[4] لا سيما فى وقت

---

(١) بضم الياء : أى فليخبره .
(٢) أى استأجر بيتا .
(٣) أى يزيلها .
(٤) الأعراف : ٣٢

الانتفاع بالنظر الى الديباج ، مهما لبسه الجوارى والنساء • والحيطان فى معنى النساء ، آذ لسن موصوفات بالذكورة •

* * *

فاذكر أخا الاسلام كل هذا حتى اذا لبيت دعوة أخيك المسلم ، كان هذا على أساس من تلك الأحكام والآداب •

وليكن كل هذا كذلك على أساس من العزة والكرامة •• وأعنى بهذا أن لا تدخل على قوم لتأكل من طعامهم الا بدعوة منهم حتى لا تكون طفيليا •• فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم — كما قرأت قبل ذلك — : « من دخل على غير دعوة دخل سارقا وخرج مغيرا ، ومن لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله » •

وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عيه وسلم قال : « اذا دعى أحدكم فجاء مع الرسول فان ذلك له اذن » •

وقد قال الأصمعى — فى تعريف الطفيلى — : الطفيلى الداخل على القوم من غير أن يدعى مأخوذ من الطفل وهو اقبال الليل على النهار بظلمته وأرادوا أن أمره يظلم على القوم فلا يدرون من دعاه ولا كيف دخل عليهم • قال : وقولهم طفيلى منسوب الى طفيل رجل بالكوفة من بنى غطفان ، وكان يأتى الولائم من غير أن يدعى اليها وكان يقال له طفيل الأعراس والعرائس •

فلا تكن أخا الاسلام مثل هـذا •• حتى تكون عزيزا بين قومك •

وقد قال أحدهم مشيرا الى هذا :

يا مبتغى العـز والسـلامة ... الزم ثلاثـا تلقى الكـرامة
لا تسـأل المـرء ما لديـه ... ولا ترى آكلا طعـامه[1]
ولا ترى ذاكـرا بسـوء ... ما عشت خلقـا الى القيامة
وزد لهذى الثلاث تقـوى ... الاله تكمل لك السـلامة

وكذلك كما يوصيك الشاعر ، محمد الهراوى رحمه الله فى قوله الذى أرجو أن تنفذه :

لا تكن ضـيفا ثقيـلا ... يكره النـاس لقـاءك
ليـس من ذنب أنـاس ... أن يكونـوا أقـرباءك

---

(١) أى بدون دعوة اليه كما عرفت .

أنت لا تدرى الى كم ... تزعج الحل ازاءك
فعساه مستمدا ... لك من قوم عشاءك
وعساه مستعيرا ... لك من جار غطاءك
وتذكر أنت ضيفا ... كيف ان جاءك ساءك
ان تزر فعليك غبا[1] ... ثم لا تكثر بقاءك
ان فى الفندق مأوا ... ك وفى السوق غذاءك
رب من يلقاك هشا[2] ... كسر « الزير » وراءك

* * *

ثم اذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد ختم وصيته التى تدور حولها — بعد ذلك — بقوله : « ومن صنع اليكم معروفا فكافئوه فان لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له حتى تروا أنكم كافأتموه » :

فان هذا العنصر الأخير يحتاج منا الى عدة وقفات لابد منها ، حتى نفهم المعنى المراد ، من : صناعة المعروف ، والمكافأة ، والدعاء فى هذا العنصر الأخير الذى وقفنا عليه والذى لابد وأن نفهمه حتى ننفذه على أساس سليم ، وبصورة ايجابية يريدها الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

فمعنى : « من صنع اليكم معروفا » أى جميلا واحسانا :

وقد حكى أن الرشيد ، قال للأصمعى : هل تعرف كلمات جامعات لمكارم الأخلاق يقل لفظها ويسهل حفظها .. فقال : نعم يا أمير المؤمنين .. دخل أكثم بن صيفى حكيم العرب على بعض ملوكها ، فقال له : أريد أن أسألك عن أشياء لا تزال بصدرى مختلجة[3] ، والشكوك عليها والجة[4] .. فقال : سألت خبيرا واستنبأت[5] بصيرا ، والجواب يشفعه[6] الصواب .. فاسأل عما بدا لك . فقال : ما السؤدد[7] ؟ قال : اصطناع المعروف ، واغاثة الملهوف . قال : فما الشرف ؟ قال : كف الأذى ، وبذل الندى[8] . قال : فما المجد ؟

---

(١) غبا : أى زيارة متفرقة .
(٢) هشا : أى فرحا مبتسما .
(٣) أى مضطربة .
(٤) أى داخلة .
(٥) أى طلبت منه النبأ وهو الخبر .
(٦) أى يكون مقارنا له .
(٧) أى السيادة .
(٨) أى الفضل من المال وأصله المطر .

قال : حمل المغـارم ، وابتناء المكارم • قال : فما الكرم ؟ قال : صدق الاخاء فى الشدة والرخاء • قال : فما العز ؟ قال : شدة القصد ، وثروة العدد[١] • قال : فما السماحة ؟ قال : بذل النائل ، واجابة السائل • قال : فما الغنى ؟ قال : الرضا بما يكفى ، وقلة التمنى • قال : فما الرأى ؟ قال : كل فكر أنتجته تجربة • قال له : قد أجبت وأجدت فاحتكم • قال : لكل كلمة هجمة[٢] • قال : هى لك • قال الأصمعى : فقال لى الرشيد : ولك بكل كلمة بدرة[٣] • فانصرفت بثمانين ألفا •

فمن مكارم الأخلاق ، ومن السؤدد كما عرفت : أن تكون من أهـل المعروف ، بمعنى : أن تكون من أهل البر الذين يتقربون الى الله تبارك وتعالى دائما وأبدا بكل خير يصلون به اخوانهم فى الله حتى يكون الله تعالى فى عونهم ، وحتى يسترهم فى الدنيا والآخرة :

فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليـه وآله وسلم ، قال : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليـه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا الى الجنة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم الا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » رواه مسلم بهذا اللفظ •

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صـلى الله عليـه وآله وسلم : « كل سلامى من الناس عليه صـدقة كل يوم تطلع فيه الشمس : تعدل بين اثنين صدقة ، وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة والكلمة الطيبة صدقة وبكل خطوة تمشيها الى الصـلاة صدقة وتميط الأذى عن الطريق صدقة » رواه البخارى ومسلم •

وعن أبى ذر رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليـه

---

(١) أى كثرة المـال .
(٢) الهجمة من الابل أولها الأربعون الى ما زاد .
(٣) البدرة ، هى عشرة آلاف درهم .

وسلم : « لا تحقرن من المعروف شيئا ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق » رواه مسلم .

يعنى لا تستقلن أقل معروف تبذله لأحد من اخوانك ولو كان هـذا المعروف لقاءك اياه بوجه منبسط متهلل .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : « كل معروف صدقة ، وان من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق ، وأن تفرغ من دلوك فى اناء أخيك » رواه أحمد والترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح ، وصدره فى الصحيحين من حديث حذيفة وجابر .

فمعنى ما جاء فى هـذا الحديث : أن كل ما يفعل من أعمال البـر والخير فثوابه كثواب من تصدق بالمـال .. وأنه من جملة المعروف أن تبش فى وجه أخيك اذا لقيته ، وأن تصب من دلوك المـاء فى دلـو أخيك فتقسم المـاء بينكما .

وعن أبى ذر رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : « تبسمك فى وجه أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ، ونهيك عن المنكر صدقة ، وارشادك الرجل فى أرض الضلال لك صدقة ، واماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وافراغك من دلوك فى دلو أخيك لك صدقة » رواه الترمذى وحسنه ، وابن حبان فى صحيحه ، وزاد : « وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة » .

فمعنى ما جاء فى هذا الحديث بالاضافة الى ما عرفناه قبل ذلك : أن ارشادك لأى انسان رجلا كان أو امرأة فى أرض الضلال .. بل العمران كذلك .. ما دام فى حاجة الى هـذا الارشاد لك صدقة ، وأن ازالتك من الطريق كل ما يؤذى المـارة ويسبب لهم ضررا كقشر المـوز والقاذورات .. وما الى ذلك لك صدقة ، وأن افراغك من دلوك فى دلو أخيك اذا احتاج الى ما معك من المـاء لك صدقة .. وأن بصرك للرجل الرديء البصر بأن طلب منك أن تقرأ له كتابا ونحو ذلك لك صدقة .

وعن أبى موسى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليـه وسلم ، قال : « على كل مسلم صدقة . قيل : أرأيت ان لم يجد ؟ قال : يعتمل بيديه ، فينفع نفسه ويتصدق . قال : أرأيت ان لم يستطع ؟ قال : يعين ذا الحاجة الملهوف . قال : قيل له : أرأيت ان لم يستطع ؟ قال :

يأمر بالمعروف أو الخير . قال : أرأيت ان لم يفعل ؟ قال : يمسك عن الشر ، فانها صدقة » رواه البخارى ومسلم .

فمعنى ، يعتمل بيديه : أى ان لم يكن له مال يتصدق منه ، يعمل عملا بيديه يكسب به المال من أى حرفة أو مهنة .. فينفع نفسه ويتصدق .

ومعنى يعين ذا الحاجة الملهوف : أى يأخذ بيده وينقذه من شدته .

وروى عن الحسن بن على رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ان من موجبات المغفرة ادخالك السرور على أخيك المسلم » رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط .

أى : من الأمور التى تقتضى المغفرة وتستوجبها ، ادخالك السرور على أخيك المسلم بالكلمة الطيبة والعدة الجميلة .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ان أحب الأعمال الى الله تعالى بعد الفرائض[1] : ادخال السرور على المسلم » رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير .

وروى عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أدخل على أهل بيت من المسلمين سرورا لم يرض الله له ثوابا دون الجنة »[2] رواه الطبرانى .

❋ ❋ ❋

ولهذا .. فقد ورد فى الآثار والأخبار والأشعار ما يرغب فى قضاء حوائج الناس :

قال خالد بن صفوان : لا تطلبوا الحوائج فى غير حينها ، ولا تطلبوها الى غير أهلها ، ولا تطلبوا ما لستم له بأهل فتكونوا للمنع خلقاء .

قال بعض الشعراء :

ان الأمور اذا انسدت مسالكها
فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجا
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته
ومدمن القرع للأبواب أن يلجأ

---

(١) أى بعد أداء الأعمال المفروضة فى الصلاة والصيام والصدقة .
(٢) أى أقل منها .

لا تيأســـن وان طـــالت مطالبـــة
اذا استعنت بصـــبر أن ترى فرجا

* * *

وقال آخر :

انى رأيت ، وللأيـــام تجـــربة
للصـــبر عاقبـــة محمـــودة الأثـــر
وقـــل من جـــد فى أمـــر يطـــالبه
واستصحب الصبر الا فاز بالظفر

وكانوا يستنجحون حوائجهم بركعتين يقولون بعدهما : اللهم انى بك أستفتح ، وبك أستنجح ، وبمحمد نبيك اليك أتوجه ، اللهم ذلل لى صعوبته ، وسهل لي حزونته ، وارزقنى من الخير أكثر مما أرجو ، واصرف عنى من الشر أكثر مما أخاف .

وكان يقال : اذا أحببت أن تطاع ، فلا تسأل ما لا يستطاع .

ويقال : الحوائج تطلب بالرجاء ، وتدرك بالقضاء .

* * *

وفى كتاب « عيون الأخبار »[1] ، يقول تحت عنوان :

من يعتمد فى الحاجة ويستسعى فيها

روى هشيم عن عبد الحميد بن جعفر عن محمد بن عبد الرحمن عن أبى مصعب ، قال : قال رسول الله صلى الله عليـــه وسلم : « اطلبوا الحوائج الى حسان الوجوه »[2] .

وفى حديث آخر : « اعتمد لحوائجك الصباح الوجوه ، فان حسن الصورة أول نعمة تتلقاك من الرجل » .

قالت امرأة من ولد حسان بن ثابت :

سل الخير أهل الخير قدما ولا تسل
فتى ذاق طعـــم العيش منـــذ قريب

ومن المشهور قول بعض المحدثين :

حســـن ظن اليـــك أكرمـــك الله دعانى فلا عدمت الصلاحا

---

(١) فى كتاب الحوائج ج ٨ ص ١٢٣ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) فى الجامع الصغير « أطلبوا الخير الى حسان الوجوه » .

ودعانى اليك قول رسول ... الله اذ قال مفصحا افصاحا
ان أردتم حوائجا عند قوم ... فتنقوا لها الوجوه الصباحا

وقال آخر :

اذا سألنا قومنا فخيارهم ... من كان أفضلهم أبوه الأول
أعطى الذى أعطى أبوه قبله ... وتبخلت أبناء من يتبخل

وقال خالد بن صفوان :

فوت الحاجة خير من طلبها الى غير أهلها ، وأشد من المصيبة سوء الخلف منها .

حدثنى أبو حاتم عن الأصمعى قال : قال مسلم بن قتيبة : لا تطلبن حاجتك الى كذاب فانه يقربها وهى بعيد ، ويبعدها وهى قريب ، ولا الى أحمق فانه يريد أن ينفعك فيضرك ، ولا الى رجل له عند من تسأله الحاجة مأكلة ، فانه لا يؤثرك على نفسه .

وقال ميمون بن ميمون : لا تطلبن الى لئيم حاجة ، فان طلبت فأجله حتى يروض نفسه .

قال بعض الشعراء :

لا تطلبن الى لئيم حاجة ... واقعد فانك قائما كالقاعد
يا خادع البخلاء عن أموالهم ... هيهات تضرب فى حديد بارد

وحول هذا المعنى أحفظ للامام الشافعى رحمه الله تعالى ، قوله :

كن غنى القلب واقنع بالقليل ... مت ولا تطلب معاشا من لئيم
لا تكن للعيش مجروح الفؤاد ... انما الرزق على الله الكريم

* * *

كما يقول كذلك فى « عيون الأخبار » باختصار وتصرف ، تحت عنوان :

الاجابة الى الحاجة والرد عنها

قال رجل للعباس بن محمد : انى أتيتك فى حاجة صغيرة ، قال : اطلب لها رجلا صغيرا . وهذا خلاف قول على بن عبد الله بن العباس لرجل قال له : انى أتيتك فى حاجة صغيرة ، فقال له على بن عبد الله : هاتها .. ان الرجل لا يصغر عن كبير أخيه ولا يكبر عن صغيره .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سئل ما يجد أعطى ، واذا سئل ما لا يجد ، قال : « يصنع الله » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يرد ذا حاجة الا بها أو بميسور من القول .

وقال أسماء بن خارجة : ما أحب أن أرد أحدا عن حاجة ، فانه لا يخلو من أن يكون كريما فأصونه ، أو لئيما فأصون منه نفسى .

سأل رجل قوما ، فقال له رجل منهم : اللهم هذا سائلنا ونحن سؤلك ، وأنت بالمغفرة أجود منا بالعطاء ، ثم أعطاه .

وسأل رجل رجلا حاجة ، فقال : اذهب بسلام ، قال السائل : أنصفنا من ردنا فى حوائجنا الى الله عز وجل .

قيل لحبى المدينية : ما الجرح الذى لا يندمل ؟ قالت : حاجة الكريم الى اللئيم ثم يرده . قيل لها : فما الذل ؟ قالت : وقوف الشريف بباب الدنىء ثم لا يؤذن له . قيل : فما الشرف ؟ قالت : اعتقاد المنن فى رقاب الرجال .

قال معن بن زائدة : ما سألنى قط أحد حاجة فرددته الا رأيت الغنى فى قفاه .

* * *

كما يقول أيضا باختصار وتصرف ، تحت عنوان :

الترغيب فى قضاء الحاجة واصطناع المعروف

حدثنى محمد بن داوود عن محمد بن جابر ، قال : قال ابن عينية : ليس أقول لكم الا ما سمعت : قيل لابن المكندر : أى الأعمال أفضل ؟ قال : ادخال السرور على المؤمن . وقيل : أى الدنيا أحب اليك ؟ قال : الافضال على الاخوان .

حدثنى أحمد بن الخليل عن محمد بن سعيد قال حدثنا ابن المبارك عن حميد عن الحسن قال : لأن أقضى حاجة لأخ أحب الى من أن أعتكف سنة .

قال ابن عائشة : كان عمرو بن معاوية العقيلى يقول : اللهم بلغنى عثرات الكرام .

وقال المأمون لمحمد بن عباد المهلبى : أنت متلاف ، فقال يا أمير المؤمنين .. منع الجود سوء ظن بالله ، يقول الله تعالى : **« وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين »**[1] .

---

(١) سبأ : ٣٩

وكان ابن عباس يقول : صاحب المعروف لا يقع ، فان وقع وجد متكأ • هذا نحو قول النبى صلى الله عليه وسلم : « المعروف يقى مصارع السوء » •

وكان ابن عباس يقول أيضا : ما رأيت رجلا أوليته معروفا الا أضاء ما بينى وبينه ، ولا رأيت رجلا أوليته سوءا الا أظلم ما بينى وبينه •

وقال جعفر بن محمد : ان الحاجة تعرض للرجل قبلى فأبادر بقضائها مخافة أن يستغنى عنها ، أو تأتيه وقد استبطأها فلا يكون لها عنده موقع •

وقرأت فى كتاب للهند : من صنع المعروف لعاجل الجزاء ، فهو كملقى الحب ليصيد به الطير لا لينفعه •

قال ابن عباس : ثلاثة لا أكافئهم : رجل بدأنى بالسلام ، ورجل وسع لى فى المجلس ، ورجل اغبرت قدماه فى المشى الى ارادة التسليم على ، فأما الرابع فلا يكافئه عنى الا الله جل وعز ، قيل : ومن هو ؟ قال : رجل نزل به أمر فبات ليلته يفكر بمن ينزله ، ثم رآنى أهلا لحاجته فأنزلها بى •

قيل لبزرجمهر : هل يستطيع أحد أن يفعل المعروف من غير أن يرزأ شيئا ؟ قال : نعم ، من أحببت له الخير وبذلت له الود ، فقد أصاب نصيبا من معروفك •

قام رجل من مجلس خالد بن عبد الله القسرى ، فقال خالد : انى لأبغض هذا الرجل وما له الى ذنب ، فقال رجل من القوم : أوله أيها الأمير معروفا ففعل ، فما لبث أن خف على قلبه وصار أحد جلسائه •

قال ابن عباس : لا يتم المعروف الا بثلاث : تعجيله وتصغيره وستره ، فانه اذا عجله هنأه ، واذا صغره عظمه ، واذا ستره تممه •

وقال الخزيمى فى نحو هذا :

زاد معروفك عندى عظما ... أنه عندك محقور صغير
تتناساه كأن لم تأته ... وهو عند الناس مشهور كبير

وفى بعض الحديث : « كل معروف صدقة ، وما أنفق الرجل على

أهله ونفسه وولده صدقة ، وما وقى المرء فى عرضه فهو صدقة ، وكل نفقة أنفقها فعلى الله خلفها مثلها الا فى معصية أو بنيان »[1] .

وفى الحديث المرفوع : « فضل جاهك تعود به على أخيك صدقة منك عليه ، ولسانك تعبر به عن أخيك صدقة منك عليه ، واماطتك الأذى عن الطريق صدقة منك على أهله » .

وقال حماد عجرد :

ان الكريم ليخفى عنك عسرته
حتى تراه غنيا وهو مجهود
اذا تكرمت أن تعطى القليل ولم
تقدر على سعة لم يظهر الجود
وللبخيل على أمواله عال
زرق العيون عليها أوجه سود
أورق بخير ترجى للنوال غما
ترجى الثمار اذا لم يورق العود
بث النوال ولا تمنعك قلته
فكل ما سد فقرا فهو محمود

والعرب تقول : « من حقر حرم » .

وفى الحديث المرفوع : « أفضل الصدقة جهد المقل » .

وكان خالد بن عبد الله يقول على المنبر : أيها الناس .. عليكم بالمعروف ، فان فاعل المعروف لا يعدم جوازيه ، وما ضعف الناس عن أدائه قوى الله على جوازيه ، والبيت المشهور فى هذا قول الحطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
لا يذهب العرف بين الله والناس

وقال وهب بن منبه : ان أحسن الناس عيشا من حسن عيش الناس فى عيشه ، وان من ألذ اللذة الافضال على الاخوان .

وفى الحديث المرفوع : « انما لك من مالك ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو أعطيت فأمضيت ، وما سوى ذلك فهو ملك الوارث » .

* * *

---

(١) قال العزيزى فى شرحه لهذا الحديث : انه البنيان الذى لم يقصد به وجه الله تعالى .

فاذكر كل هـذا أخا الاسلام حتى تكون من أهل اصطناع المعروف ، وحتى تكون كذلك ان شاء الله تعـالى من الذين قدموا لأنفسهم خيرا ينفعهم هناك :

« .. يوم ينظر المرء ما قدمت يداه .. »[1] .

مع ملاحظة أن العطاء هـذا ، أو المعروف الذى ستصل به أخاك ـ لكى يكون مقبولا عند الله ـ لابد أن يكون بعيـدا عن المن والأذى ، كما يشير الى هذا قول الله تعالى لعباده المؤمنين :

« يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئـاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا ، لا يقدرون على شىء مما كسبوا ، والله لا يهدى القوم الكافرين »[2] :

فالمن هو أن يعتد على من أحسن اليه باحسانه ، ويرى أنه أوجب عليـه حقا ، والأذى أن يتطاول عليه بسبب ما أسـدى اليه ، ورئاء الناس : أى ابتغاء سمعتهم ، وصفوان : حجر أملس ، والوابل : المطر الشديد ، والصلد : الصلب الأملس ، وقوله : **« لا يقدرون على شىء »** أى لا يجدون له ثوابا فى الآخرة كما لا يوجد على الصفوان شىء من التراب لاذهاب المطر اياه .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قال رجل : يا رسول الله .. انى أقف الموقف أريد وجـه الله وأريد أن يرى موطنى[3] ، فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل : **« .. فمن كان يرجوا لقـاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبـادة ربه أحـدا »**[4] رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين .

وعن جندب بن عبد الله ، قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من سمع سمع الله به ، ومن يراء يراء الله به »[5] رواه البخـارى ومسلم .

وعن أبى سعيد بن أبى فضالة ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، يقول : « اذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة

---

(١) النبأ : ٤٠ (٢) البقرة : ٢٦٤

(٣) الموطن المشهد من مشاهد الحرب .

(٤) الكهف : ١١٠

(٥) سمع وراءى به : أى فضحه .

ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك فى عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عنده فان الله أغنى الشركاء عن الشرك » رواه الترمذى فى التفسير من جامعه وابن ماجه .

وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله عز وجل : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء وهو للذى أشرك »[1] رواه ابن ماجه ورواته ثقات .

* * *

فلتكن أخا الاسلام مخلصا فى عطائك حتى يكون ثوابك مستمرا ، وحتى يدوم اتصالك لله وفى الله ، لأنه ما كان لله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل[2] .

* * *

ولتكن فى عونك لاخوانك الفقراء والمساكين ، فى اخفائك للعطاء ، مثل : « جابر عثرات الكرام » وهو عكرمة الفياض والى الجزيرة العراقية ، الذى سمع أن خزيمة بن بشر وهو سيد من سادات العراق .. وكان قد أسرف فى النفقة فأصابه الفقر فلزم داره لا يبرحها .

فلما علم خزيمة بحاله ، أسف له .. ثم فى ليلة ذهب اليه متنكرا ، وأعطاه مالا كثيرا أصلح به حاله ، ولم يعرفه بنفسه ، سوى أنه : « جابر عثرات الكرام » .

وهذه القصة تاريخية واقعية حدثت فى أيام الدولة الأموية .

وقد صاغها الشاعر الأستاذ محمود غنيم رحمه الله ، فى قالب شعرى جميل رأيت من الخير أن أعرضه بنصه :

والمشهد : فى منزل خزيمة ، وقد ظهر عليه الفقر والكآبة ، وخزيمة راقد على حصير بال ، وليس بجانبه الا خادمه عمرو ، الذى يناجى نفسه قائلا :

ويحى وويح سيدى ... أزرى به ضيق اليد[3]
أطال من رقاده ... لكنه لم يرقد[4]

---

(١) أى ان عمله للذى أشركه مع الله لأن الله برىء منه .

(٢) كما ورد فى الأثر .

(٣) ويحى : رحمة لى . وويح سيدى : رحمة له .. وضيق اليد : الفقر .

(٤) تناوم ولكنه لجوعه لم ينم .

كيف ينـــام وهو طـا وى البطـن لـم يزود[1]
قـد لـزم البيت ، لـزو م راهـب لمعبـد[2]

* * *

يا قصـر كنت ملجـأ رحبـا لـكل مجتـدى
لقـد هـوى الفقـر بعـا لى ركنـك المشـيد
لو لاح لى الفقـر بوجـ ـهه الكئيب الأسـود
اذن أطحـت رأسـه بصـارم مهنـد
كى يسـتريح النـاس من هـذا الشـقاء السرمدى !

(صوت من مخدع خزيمة) : يا عمرو
عمرو : لبيك يا مولاى !
خزيمة : خذ بيدى .. ويحى ! صروف الليـالى أوهنت جلدى
عمرو وهو ينهضه :
يا سـيدى اننى من كل نازلـة
أفديك بالنفس قبل الأهـل والولد

خزيمة ، وهو داخل المسرح :
لم يبق لى غير عمـرو هـو الجـدير بشـكرى
باق على العهـد واف فى حـال يسر وعسـر
فوجهـه وجـه عبـد وفعـله فعـل حـر
كـم من صـديق وفى قـد صـد عنى لفقـرى

عمرو يوجه كلامه الى سيده خزيمة :
مولاى انـك فى ضـيق ومتربة
لكن صـحبك فى النعمـاء يلهونا
امـدد اليهم يدا ، كم فاض نائلها
كم يا خزيمـة واسيت المسـاكينا !

خزيمة فى غضب :
حاشا يمد ابن بشر للسـؤال يدا
ولـو تنـاول زقـوما وغسـلينا

---

(١) طاوى البطن : جائع ، لم يزود : ليس لديه زاد .
(٢) الراهب : الزاهد العابد من النصارى . المعبد : مكان العبادة .

عمرو ، وقد بدا عليه النـــدم :
عفـــوا خزيمة ، اشفاقى عليك محا
رشدى ، فأصبحت يا مولاى مجنونا !

خزيمـــة :
يا عمرو ويحك ! هل أصبحت تمقتنا
فى الضيق ، هل أنت أيضا زاهد فينا ؟

عمرو :
كلا لعمرك ، لم أقصـــد ، يلوح على
ملامحى أننى ما زلت مجنـــونا !

خزيمـــة :
يا عمـــرو لا تذكـــر لنـــا الجنـــونا
هـــون عليـــك الأمـــر كى يهـــونا
ماذا لديـــك اليـــوم من عشـــاء
لى مـــدة ما اقتت غـــير المـــاء

عمـــرو :
أعـــددت زادا طيبـــا شـــهيا
هيـــا بنـــا الى العشـــاء هيـــا

خزيمـــة :
وما الذى أعـــدته يا عمـــرو ؟

عمـــرو :
خبـــز ، وزيت دســـم وتمـــر !

خزيمـــة :
من أين يا عمرو اشـــتريت الزيتا ؟
والتمـــر من أين بـــه أتيتـــا ؟

عمـــرو :
بعت السراج ســـيدى بدرهـــم
وقلت : يكفينـــا ضـــياء الأنجـــم
ثـــم اشـــتريت ذلك الطعـــاما
ألســـت عبـــدا حاذقـــا همـــاما ؟

(يهمان بتناول الطعام ، فيسمع طرق على الباب)

خزيمـــة : طارق بالباب !

عمرو وهو يفتح : من ذا يطرق ؟

سائل :

أنا مســـتجد فقـــير مملقـــا
جئت أســـتجدى ابن بشر درهمـــا
انـــه بحـــــر العطـــــايا

عمـــرو :

ترزق !

السائل :

لا تكن لحزا شحيحا يا فتى ان مولاك غمـــام مغـــدق

عمـــرو :

سيدى ليس هنا

خزيمـــة : لا بل هنا
حاضر ، ويحـــك هـــلا تصـــدق !
اعطـــه الـــزاد الذى هيـــأته ..

عمرو فى دهشـــة :

ســـيدى نحن اليـــه أشـــوق

الســـائل :

لك شـــكرى يا بن بشر انمـــا
أنت فى الرقـــة بـــدر مشرق

وبعد أن ينصرف السائل شاكرا يقول خزيمة مخاطبا عمرو :

ذاك يا عمـــرو فقـــير جائـــع فـــاذا لم يعـــط زادا يسرق
ما تعـــودت قديمـــا أن أرى منـــزلى فى وجـــه عاف يغلق
يا الـــهى لك أشـــكو علـــتى همـــة عليـــا ، وعيش ضيق !

(ثم يخاطب عمرو) :

أيـــا عمـــرو ويحـــك لا تعـــذل
متى ضـــاق عن طـــارق منـــزلى
سأصبر صـــبر الجـــواد الكريـــم
الى أن أرى غمـــرتى تنجـــلى
أرى الحـــر مثل الحســـام اذا لم
يقلب على النـــار لـــم يصـــقل

لئن أك أصبحت من غير مال
فانى بمالى لم أبخل !
اذا ساء يومى صبرت وطاب
رجائى فى الزمن المقبل
اذا صد عنى الأخلاء فالأر
ض لم تخل من ماجد مفضل

(يسمع طرقا على الباب ، عمرو يفتح ويقول) :

عمرو :

من يدق الباب ؟ من ؟ ماذا جرى ؟
سائل ! أم شاعر يا هل ترى ؟

(يرى عكرمة متنكرا)

من أنت يا مولاى ؟

عكرمة (وهو متنكر مقنع) :

لست أدرى
أين الفتى خزيمة بن بشر ؟

عمرو ، يلتفت الى سيده ويقول :

مولاى .. زائر مخيف منظره
أخوف ما أخافنى تنكره

خزيمة يسير نحو عكرمة :

هل لك حاجة فأقضيها لكا ؟

عكرمة يمد يده اليه بصرة مال :

خذ هذه أصلح بها أحوالكا

خزيمة مندهشا ، لا يصدق ما يرى :

من أنت أيها الكريم المجزل ؟

عكرمة :

آسف ، لا جواب عما تسأل

خزيمة :

أقسمت لا قبلت ما منحتا
الا اذا عرفتنى من أنتا !

عكرمة :

خزيمة خطبك عز[1] على
وذاد[2] عن العين طيب المنام

---

(١) عز : صعب .
(٢) ذاد : أى منع .

بربك لا تفسدن صنيعى[١]
بهتك الحجاب وكشف اللثام
إذا رمت أن تعرف اسمى فانى
أنا جابر عثرات الكرام[٢]

خزيمة :

بربك يا صاح زدنى بيانا

عكرمة :

محال ، ومنى عليك السلام

خزيمة لعمرو بعد انصراف عكرمة :

يا عمرو أوقد السراج حالا
حتى نعد هذه الأموالا

عمرو :

أين السراج هل نسيت أننا
بعناه عصرا واشترينا قوتنا

ثم يأخذ عمرو الصرة ويقول :

أنا أعد المال فى الظلام
عمرو غدا أبصر من حذام[٣]
ان بريق الذهب الوهاج
يشق جوف كل ليل داج[٤]

ويعد المال ويقول :

ألف وألف ، ثم ألف متبعه
من الدنانير بألف أربعه

فيقول خزيمة متعجبا :

من ذا الذى جاد بها ! يا للعجب
ما سمعت بمثل ذاك العرب

□ □

فهذه القصة كما قرأنا : تصور شهامة العرب ، وحب الجود ،

---

(١) صنيعى : جميلى ومعروفى .
(٢) أى أنا المنقذ للكرام المفتقرين ، والآخذ بأيديهم ليصلحوا أحوالهم .
(٣) حذام : اسم امرأة تلقب بزرقاء اليمامة ، يضرب بها المثل فى حدة البصر .
(٤) الوهاج : أى الساطع ، وليل داج : أى مظلم .

والكرم المطبوع فيهم ، واقالتهم لمن يعثر منهم ، ولا سيما من اشتهروا بينهم بالشهامة والنجدة ، ليبقوا لهم شهامتهم وكرامتهم .

* * *

وكان حاتم الطائى من كبار المشهورين بالكرم فى الجاهلية .. لدرجة — كما قيل عنه — أنه كان يوقد النار فوق الجبل ليراها الجائع ، وكان يقول لعبده : اذهب فان أتيتنى بضيف فأنت حر .

وحتى يتضح لنا من هو هذا الرجل العربى الأصيل فاننى أحب — هنا — أن أذكر بما ذكره الأصبهانى فى الأغانى حيث يقول[1] :

حدث الامام على كرم الله وجهه ، قال : لما أتينا بسبايا طيىء ، كانت فى النساء جارية جميلة — وهى سفانة[2] بنت حاتم — فلما رأيتها أعجبت بها ، فقلت لأطلبنها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجعلها من فيئى ، فلما تكلمت أنسيت جمالها ، لما سمعت من فصاحتها ، فقالت :

« يا محمد .. هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فان رأيت أن تخلى عنى ، فلا تشمت بى أحياء العرب ، فانى بنت سيد قومى[3] . كان أبى يفك العانى[4] ، ويحمى الذمار ، ويقرى الضيف ، ويشبع الجائع ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط ، أنا بنت حاتم طيىء » .

فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا جارية .. هذه صفة المؤمن ، لو كان أبوك اسلاميا لترحمنا عليه ، خلوا عنها ، فان أباها كان يحب مكارم الأخلاق والله يحب مكارم الأخلاق »[5] .

وقيل : انها قبل أن تنصرف عائدة الى قومها طلبت من النبى صلى الله عليه وسلم أن يأذن لها بأن تدعو له بثلاث دعوات .. فلما آذن لها .. قالت :

١ — ملكتك يد افتقرت بعد غنى .

٢ — ولا ملكتك يد غنيت بعد فقر .

٣ — لا جعل الله لك الى لئيم حاجة .

---

(١) كما جاء كذلك فى جمهرة خطب العرب ج ١ ص ١٦٩

(٢) السفانة فى الأصل : اللؤلؤة .

(٣) جواب الشرط محذوف وهذا تعليل له ، أى افعل فانى ..

(٤) العانى : أى الأسير .

(٥) الأغانى ج ١٦ ص ٩٣

ثم عادت بعد ذلك الى أخيها عدى بن حاتم ، وقالت له : جئتك من عند خير الناس .. ثم عادت — كما قيل — بعد ذلك معه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلنا اسلامهما .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الاسلام ، حتى تكون ان شاء الله من أهل المعروف الذين يزرعون الجميل فى كل مكان يقيمون فيه ، ولا سيما بين الأقرباء والأصدقاء الذين قد يكونون فى أشد الحاجة الى معروفك ، والذين لن يتأكد وفاؤك لهم الا بمثل هذا .. كما يقول الامام الشافعى رحمه الله :

جزى الله الشدائد كل خير
عرفت بها عدوى من صديقى

وتلك هى الأخوة الصادقة المشار اليها فى قول القائل :

ان أخاك الحق من كان معك
ومن يضر نفسه لينفعك
ومن اذا ريب الزمان[1] صدعك
شتت فيك شمله ليجمعك

ولهذا قال علقمة بن لبيد يوصى ولده :

يا بنى .. ان احتجت الى صحبة الرجال ، فاصحب من ان صحبته زانك ، وان أصابتك خصاصة[2] أعانك ، وان قلت سدد[3] قولك ، وان صلت[4] قوى صولتك ، وان بدت منك ثلمة[5] سددها ، وان رأى منك حسنة عدها ، وان سألته أعطاك ، وان نزلت بك احدى المهمات واساك[6] ، من لا تأتيك منه البوائق[7] ، ولا تختلف عليك منه الطرائق .

* * *

---

(١) ريب الزمان أى أهواله ، وصدعك : أى شققك .
(٢) خصاصة : أى فقر .
(٣) سدد قولك : أى وجهه .
(٤) صلت : أى وثبت .
(٥) ثلمة : هى الخلل فى الحائط وغيره ، والجمع ثلم مثل غرفة وغرف .
(٦) واساك : أى عاونك .
(٧) البوائق : جمع بائقة وهى الداهية والشر الشديد .

ولما كان الزمان لا أمان له ، فاننى أحب أن ننتقل معا الآن الى صلب الموضوع الذى ندور حوله ، والذى كان ما وقفنا عليه تمهيدا له .. وهو أنه اذا كان العكس هو الصحيح ، وأعنى بهذا .. أنك اذا كنت فى ضيق أو كرب .. أو كنت فى حاجة الى وقفة انسانية أخوية من جانب انسان تعرفه أو لا تعرفه .. فكان كما رجوت منه ، أو أملت فيه .. فانه ينبغى عليك أن تقابل الاحسان بالاحسان و **« هل جزاء الاحسان الا الاحسان »**(١) .

وذلك بأن تشكره على هذا الصنيع الجميل ، شكرا ايجابيا .. بمعنى : أن تكافئه عليه .. وهذا أمر طبيعى .. حدث على سبيل المثال من جانب النمل عندما أراد أن يشكر سيدنا سليمان عليه السلام .

وخلاصة ما أريد التذكير به ، حول هذا الموضوع ، هو ما ذكره القرطبى حول قوله تعالى ، فى سورة النمل :

« حتى اذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين »(٢) :

فقد قال القرطبى حول تفسير هاتين الآيتين ما خلاصته :

أن سليمان عليه السلام مر على وادى النمل بوادى السدير من أودية الطائف ، وقيل : بأرض الشام ، فقامت نملة تمشى وهى عرجاء تتكاوس مثل الذئب فى العظم ، فنادت : **« يا أيها النمل .. »** فسمعها سليمان عليه السلام من على بعد ثلاثة أميال .. قال وهب : أمر الله الريح ألا يتكلم أحد بشىء الا طرحته فى سمع سليمان ، بسبب أن الشياطين أرادت كيده .. فلما سمعها سليمان عليه السلام : تبسم ضاحكا من قولها .. ثم أمر الجند بأن يعسكروا بعيدا عن وادى النمل حتى يدخل مساكنه .. فلما فعل الجند هذا ، ذهبت النملة هذه ، لتشكره ، فقال لها معاتبا : لم حذرت النمل ؟ أخفت ظلمى ؟ أما علمت أنى نبى عدل ؟ فلم قلت : **« يحطمنكم سليمان وجنوده »** ؟ فقالت النملة : أما سمعت قولى : **« وهم لا يشعرون »** ، مع أنى لم أرد

---

(١) الرحمن : ٦٠ (٢) النمل : ١٨ ، ١٩

حطم النفوس ، وانما أردت حطم القلوب خشية أن يتمنين مثل ما أعطيت ، أو يفتتن بالدنيـا ، ويشتغلن بالنظر الى ملكك عن التسبيح والذكر • فقال لها سليمان : عظيني • فقالت النملة : أما علمت لم سمى أبوك داوود ؟ قال : لا • قالت : لأنه داوى جراحة فؤاده ، هل علمت لم سميت سليمان ؟ قال : لا • قالت : لأنك سليم الناحية على ما أوتيته بسلامة صدرك ، وان لك أن تلحق بأبيك • ثم قالت : أتدرى لم سخر الله لك الريـح ؟ قال : لا • قالت : أخبـرك أن الدنيا كلها ريـح • **« فتبسم ضاحكا من قولها »** متعجبا ••

ثم مضت مسرعة الى قومها ، فقالت : هل عندكم من شيء نهديه الى نبى الله ؟ قالوا : وما قدر ما نهدى له ! والله ما عندنا الا نبقـة واحدة • قالت : حسنة ، ايتونى بها • فأتوها بها ، فحملتها بفيها[1] فانطلقت تجرها ، فأمر الله الريح فحملتها ، وأقبلت تشق الانس والجن والعلمـاء والأنبياء على البساط ، حتى وقعت بين يديه ، ثم وضعت تلك النبقة من فيها فى كفه ، وأنشأت تقول :

ألـم ترنـا نهدى الى الله مالـه
وان كان عنا ذا غنى فهـو قابله
ولو كان يهـدى للجليـل بقـدره
لقصر عنـه البحـر يوما وسـاحله
ولكننـا نهـدى الى من نحبـه
فيرضى به عنا ويشـكر فاعـله
وما ذاك الا من كريـم فعـاله
والا فمـا فى ملكنـا ما يشـاكله

فقال لها : بارك الله فيـكم ، فهم بتلك الدعوة أشكر خلق الله وأكثر خلق الله •

ولهـذا ، قال ابن عباس رضى الله عنـه : نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب : « الهدهد ، والصرد ، والنملة ، والنحلة » أخرجه أبو داوود وصححه أبو محمد عبد الحق •

فالنملة : أثنت على سليمان وأخبرت بأحسن ما تقـدر عليه بأنهم

---

(١) أى بفمها .

لا يشعرون ان حطموكم ، ولا يفعلون ذلك عن عمد منهم ، فنفت عنهم الجور ، ولذلك نهى عن قتلها .

وعن قتل الهدهد : لأنه كان دليل سليمان على الماء ورسوله الى بلقيس .

وقال عكرمة : انما صرف الله شر سليمان عن الهدهد لأنه كان بارا بوالديه .

والصرد يقال له الصوام . وروى عن أبى هريرة قال : أول من صام الصرد ، ولما خرج ابراهيم عليه السلام من الشام الى الحرم فى بناء البيت كانت السكينة معه والصرد ، فكان الصرد دليله على الموضع والسكينة مقداره .. الخ .

* * *

فالهدية ، كما عرفنا مشروعة :

فقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية ، وفيه الأسوة الحسنة . ومن فضل الهدية مع اتباع السنة أنها تزيل حزازات النفوس ، وتكسب المهدى والمهدى اليه رنة فى اللقاء والجلوس ، ولقد أحسن من قال :

هدايا الناس بعضهم لبعض
تولد فى قلوبهم الوصالا
وتزرع فى الضمير هوى وودا
وتكسبهم اذا حضروا جمالا

وقال آخر :

ان الهدايا لها حظ اذا وردت
أحظى من الابن عند الوالد الحدب

* * *

وقد أورد القرطبى ست مسائل فى موضوع الهدية ، حول قوله تعالى :

« **وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون** »[1] ، اليك تلخيصها :

الأولى : أنها عندما قالت هذا ، كان من حسن نظرها وتدبيرها ..

---

(١) النمل : ٣٥

لأنها أرادت أن تجربه بهـا .. فان كان ملكا دنيويا أرضـاه المـال وعملت معه بحسب ذلك ، وان كان نبيا لم يرضه المـال ولازمنا فى أمر الدين .. فينبغى لنا أن نؤمن به ونتبعه على دينـه .. فبعثت اليه بهـدية عظيمة أكثر الناس فى تفصيلها :

فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : أرسلت اليه بلبنة[1] من ذهب ، فرأت الرسل الحيطان من ذهب فصغر عندهم ما جاءوا به .

وقال مجاهد : أرسلت اليه بمائتى غلام ومائتى جاريـة .

وروى عن ابن عباس : باثنتى عشرة وصيفة مذكرين قد ألبستهم زى الغلمان ، واثنى عشر غلاما مؤنثين قد ألبستهم زى النساء ، وعلى يد الوصائف أطباق مسك وعنبر ، وباثنتى عشرة نجيبة تحمل لبن[2] الذهب ، وبخرزتين احداهما مثقوبة ، والأخرى مثقوبة ثقبا معوجا ، وبقدح لا شىء فيه ، وبعصا كان يتوارثها ملوك حمير ، وأنفذت الهدية مع جماعة من قومها . وقيل : كان الرسول واحدا ولكن كان فى صحبته أتباع وخدم . وقيل : أرسلت رجلا من أشراف قومها يقال له المنذر ابن عمرو ، وضمت اليه رجالا ذوى رأى وعقل . والهدية مائة وصيف ومائة وصيفة ، قد خولف بينهم فى اللباس ، وقالت للغلمان : اذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام فيه تأنيث يشبه كلام النساء ، وقالت للجوارى : كلمنه بكلام فيه غلظ يشبه كلام الرجال ، فيقال : ان الهدهد جاء وأخبر سليمان بذلك كله ، وقيل : ان الله أخبر سليمان بذلك ، فأمر سليمان عليـه السلام أن يبسط من موضعه الى تسع فراسخ بلبنات الذهب والفضة ، ثم قال : أى الدواب رأيتم أحسن فى البر والبحر ؟ قالوا : يا نبى الله .. رأينا فى بحر كذا دواب منقطة مختلفة ألوانها ، لهـا أجنحة وأعراف ونواصى ، فأمر بها فجاءت فشدت على يمين الميدان وعلى يساره ، وعلى لبنات الذهب والفضة ، وألقوا لهـا علوفاتها ، ثم قال للجن : على بأولادكم ، فأقمهم — أحسن ما يكون من الشباب — عن يمين الميدان ويساره .

ثم قعد سليمان عليـه السلام على كرسيه فى مجلسه ، ووضع له أربعة آلاف كرسى من ذهب عن يمينه ومثلها عن يساره ، وأجلس عليهـا الأنبياء والعلماء ، وأمر الشياطين والجن والانس أن يصطفوا

---

(١) المراد قالب من الذهب . (٢) أى قوالب الذهب .

صفوفا فراسخ ، وأمر السباع والوحوش والهوام والطير فاصطفوا فراسخ عن يمينه وشماله ، فلما دنا القوم من الميدان ونظروا الى ملك سليمان، ورأوا الدواب التى لم تر أعينهم أحسن منها تروث على لبنات الذهب والفضة ، تقاصرت اليهم أنفسهم، ورموا ما معهم من الهدايا..

وكانت قد عمدت الى حقة من ذهب فجعلت فيها درة يتيمية غير مثقوبة ، وخرزة معوجة الثقب ، وكتبت كتابا مع رسولها تقول فيه : ان كنت نبيا فميز بين الوصفاء والوصائف ، وأخبر بما فى الحقة ، وعرفنى رأس العصا من أسفلها ، واثقب الدرة ثقبا مستويا ، وأدخل خيط الخرزة ، واملأ القدح ماء من ندى ليس من الأرض ولا من السماء ، فلما وصل الرسول ووقف بين يدى سليمان أعطاه كتاب الملكة فنظر فيه ، وقال : أين الحقة ؟ فأتى بها فحركها ، فأخبره جبريل بما فيها ، ثم أخبرهم سليمان • فقال له الرسول : صدقت ، فاثقب الدرة ، وأدخل الخيط فى الخرزة ، فسأل سليمان الجن والانس عن ثقبها فعجزوا ، فقال للشياطين : ما الرأى فيها ؟ فقالوا : ترسل الى الأرضة ، فجاءت الأرضة فأخذت شعرة فى فيها حتى خرجت من الجانب الآخر ، فقال لها سليمان : ما حاجتك ؟ قالت : تصير رزقى فى الشجر ، فقال لها : لك ذلك • ثم قال سليمان : من لهذه الخرزة يسلكها الخيط ؟ فقالت دودة بيضاء : أنا لها يا نبى الله ، فأخذت الدودة الخيط فى فيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر ، فقال لها سليمان : ما حاجتك ؟ قالت : تجعل رزقى فى الفواكه ، قال : ذلك لك ، ثم ميز بين الغلمان والجوارى • قال السدى : أمرهم بالوضوء ، فجعل الرجل يحدر الماء على اليد والرجل حدرا ، وجعل الجوارى يصببن من اليد اليسرى على اليد اليمنى ، ومن اليمنى على اليسرى ، فميز بينهم بهذا •• ثم أرسل العصا الى الهواء ، فقال : أى الرأسين سبق الى الأرض فهو أصلها ، وأمر بالخيل فأجريت حتى عرقت وملأ القدح من عرقها ، ثم رد سليمان الهدية •• فروى أنه لما صرف الهدية اليها وأخبرها رسولها بما شاهد ، قالت لقومها : هذا أمر من السماء •

المسألة الثانية : كان النبى صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها ولا يقبل الصدقة ، وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين • وانما جعلت بلقيس قبول الهدية أو ردها علامة على ما فى نفسها ، على ما ذكرناه من كون سليمان ملكا

أو نبيا ، لأنه قال لها فى كتابه : « **ألا تعلوا على وأتونى مسلمين** »(١) وهـذا لا تقبل فيه فدية ، ولا يؤخذ عنه هدية ، وليس هذا من الباب الذى تقرر فى الشريعة عن قبول الهدية بسبيل ، وانما هى رشوة وبيع الحق بالباطل ، وهى الرشوة التى لا تحل • وأما الهدية المطلقة للتحبب والتواصل فانها جائزة من كل أحد وعلى كل حال ، وهذا ما لم يكن من مشرك •

المسألة الثالثة : فان كانت من مشرك ، ففى الحديث : « نهيت عن زبد المشركين » ، يعنى رفدهم وعطاياهم • وروى عنه عليه السلام أنه قبلها كما فى حديث مالك عن ثور بن زيد الديلى وغيره ، فقال جماعة من العلماء بالنسخ فيهما ، وقال آخرون : ليس فيها ناسخ ولا منسوخ ، والمعنى فيها :

أنه كان لا يقبل هدية من يطمع بالظهور عليـه وأخذ بلده ودخوله فى الاسلام ، وبهذه الصفة كانت حالة سليمان عليه السلام ، فعن مثل هذا نهى أن تقبل هديته حملا على الكف عنـه ، وهذا أحسن تأويل للعلماء فى هـذا ، فانه جمع بين الأحاديث ، وقيل غير هذا •

المسألة الرابعة : الهـدية مندوب اليها ، وهى مما تورث المـودة وتذهب العداوة ، روى مالك عن عطاء بن عبد الله الخراسانى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تصافحوا يذهب الغل وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء » وروى معاوية بن الحـكم ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـول : « تهادوا فانه يضعف الـود ويذهب بغوائل الصدر » وقال الدارقطنى : تفرد به ابن بجير عن أبيه عن مالك ، ولم يكن بالرضى ، ولا يصح عن مالك ولا عن الزهرى • وعن ابن شهاب قال : بلغنا أن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ، قال : « تهـادوا بينكم فان الهـدية تذهب السـخيمة » قال ابن وهب : سألت يونس عن السخيمة ما هى ؟ فقال : الغل • وهذا الحديث وصله الوقاصى عثمان عن الزهرى وهو ضعيف ••

المسألة الخامسة : روى عن النبى صلى الله عليـه وسلم أنه قال : « جلساؤكم شركاؤكم فى الهدية » واختلف فى معناه ، فقيل : هو محمول على ظاهره • وقيل : يشاركهم على وجه الكرم والمروءة ، فان لم يفعل

---

(١) النمل : ٣١

فلا يجبر عليه . وقال أبو يوسف : ذلك فى الفواكه ونحوها . وقال بعضهم : هم شركاء فى السرور لا فى الهدية . والخبز محمول فى أمثال أصحاب الصفة والخوانق والرباطات ، أما اذا كان فقيها من الفقهاء اختص بها فلا شركة فيها لأصحابه ، فان أشركهم فذلك كرم وجود منه .

المسألة السادسة : قوله تعالى : « **فناظرة** » اى منتظرة « **بم يرجع المرسلون** »[1] قال قتادة : يرحمها الله ان كانت لعاقلة فى اسلامها وشركها ، قد علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس ..

وهذا المعنى الأخير — الوارد فى نهاية المسألة السادسة — هو المراد من الهدية حتى يشعر المهدى اليه أن المهدى قريب من قلبه ، وأنه قد رضى بصنيعه فيه بتلك الصورة التى عبر عنها بتلك الهدية — التى لا يشترط أن تكون غالية الثمن ، وانما بما يستطيع التعبير به عن شكره لهذا الذى قدم له تلك الخدمات المصلحية أو الاجتماعية أو الأسرية التى ربما كلفه تحقيقها الكثير من الوقت والنفقات التى قد لا يستطيع لضيق وقته أو كبر سنه ، أو قلة المال فى يده : أن يحققها بسهولة ويسر وبدون عقبات .. الخ .

على شريطة أن لا تكون الهدية هذه رشوة مقنعة ، أو على حساب مصالح الآخرين ..

ان فعلا مشينا كهذا لا يمكن أبدا أن يكون حلالا ، وانما هو حرام حرام حرام .

قال الله تعالى : « **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون** »[2] .

قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما :

هذا فى الرجل يكون عليه مال ، وليس عليه فيه بينة ، فيجحد المال ، ويخاصم الى الحكام ، وهو يعرف أن الحق عليه ، وهو يعلم أنه آثم آكل الحرام .

وقال غيره : لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم .

وعلى هذا ، فلو ذهب فلان هذا الذى يريد أن يأكل أموال الناس بالباطل — وهو يعلم هذا — الى فلان من الناس يعمل فى نفس الحقل الذى فيه مستندات القضية ، وأعطاه هدية — مقنعة — لكى يساعده

---

(١) النمل : ٣٥ (٢) البقرة : ١٨٨

فى تحقيق مطلبه أو بغيته الآثمة : فان الهدية هذه ستكون رشوة يحرم أخذها كما يحرم اعطاؤها .

وقد أعجبنى كلام كتبه صاحب كتاب « صوت المنبر » وهو الشيخ محمد الحجار من علماء حلب ، حيث يقول حول هذا الموضوع :

فالذى يقبل الرشوة من الموظفين العاملين على خدمة الجمهور ، يكون قد أخل بالأمن وأفسد نظام الحكم .

الراشى والمرتشى مجرمان أثيمان ، يدفع الأول أجرا على فساد العدل ، ويأخذ الثانى أجرا على الاخلال بالأمن .

والمـــال الذى يأخذه المرتشى سحت ونار يعاقب عليه عقابا أليما ، لأنه يهدم شريعة قام عليها ركن العدل بين الأمم .

ثم يضرب بعد ذلك الأمثال ، فيقول :

أضرب لك مثلا : وظيفة خلت فى أعمال الدولة وتقدم اليها الطالبون الذين يرون فى أنفسهم الأهلية والكفاءة ، فاذا ساعد رئيس من رؤساء العمل الحكومى أحد المتقدمين : اما لقرابته ، أو لمـــال أخذه منه ، أو لقضاء مصلحة تعود عليـــه ، فهو ملعون آثم يحاسب على اثمه فى الدنيا والآخرة .

كذلك اذا قبل موظف الاهمال فى عمل من الأعمال ، أو غض بصره عن أمر من الأمور ، مقابل هدية[1] أو مال أخذه ، فهو آثم خائن ، لأنه باهماله أضر بمصلحة عمله ، وخان أمته وضميره .

ثم يقول : وعلى هذا القياس كل من يقبل مالا ، أو يأخذ هدية ، لقاء تفريط فى عمل وجب عليه عمله ، أو لقاء نفع أحد لا يســـتحق النفع ، أو لقاء شفاعة من يستحق العقوبة ، فذلك كله من باب الرشوة .

ومتى انتشرت الرشوة فى قوم من الأقوام ، أو شعب من الشعوب ، أفسدت أخلاقهم ، وأضاعت كرامتهم ، وهدمت أركان العدل فيما بينهم ، وبثت العداوة والبغضاء فى أنفسهم .

فكم وكم من جرائم ارتكبت !! وكم من قتلى ضاع دمها ! وكم من حقوق طمست !! وما كان لذلك من سبب الا الرشوة .

أما اذا عمت الأمانة الناس ، وعرفوا أن الرشوة حرام قد حرمها

---

(١) قال أحد الحكماء : « اذا دخلت الهدية من الباب خرج الحـــق من الكوة » : أى خرج من النافذة .

الاسلام ، وحرمها الحكام ، يعاقب عليها فى الدنيا فى السجن والتعزير ، فضلا عن الخزى فى الآخرة ودخول النار .

اذا عرف الناس كل ذلك ارتدعوا وخافوا من الله تعالى فى الدار الآخرة ، وكانوا حريصين فى الدنيا على حفظ كرامتهم ، وصيانة دينهم ، وسلامة بلادهم .

المرتشى خسيس النفس ، وضيع القدر ، دنىء الهمة ، لأنه يأخذ أجرا خفيا ، ومالا مختلسا كأنه سرقة .

والراشى طامع فيما لا يستحق ، راغب فى شىء متوهم ، يريد أن ينال بالمؤامرة التى عقدها مع الموظف ما ليس له بحق .

ثم يقول بعد ذلك مشيرا الى خطر الرشوة :

وباب الرشوة كثيرا ما يسلب الناس أموالهم ، ويفسد ضمائرهم ، ويضيع دينهم ، وهى فضلا عن ذلك تقدم من يستحق الاقصاء والتأخير ، وتؤخر من يستحق القرب والتقديم . فالرشوة : فساد لميزان العدل الذى قامت عليه السموات والأرض ، وقام عليه عمران الكون والمجتمع .

كان المسلمون فى الصدر الأول : يتحرون الصدق ، والعدل ، والأمانة فى كل أمورهم ، أما نحن : فاذا رأينا من يتصف بالصدق ويتحرى العدل ولا يقبل الرشوة عددناه غريبا ، لأن الفضائل ذهبت أدراج الرياح ، وحلت محلها الرذيلة فى أقبح مظاهرها ..

فهذا سمسار يخفى على الناس أثمان السلع ليشتريها دون ما تستحق ، ويأخذ هو الفرق زيادة على أجرته التى يأخذها .

وهذا رجل يدعى لشهادة حق قد رآه بعينه ، فما هى الا أن يتصل به الظالم ، فيبدل الحق باطلا ، أو يكتم الشهادة من أصلها ، ويتعامى عن الحق الأبلج الظاهر ، فيضيع حق المظلوم لقاء رشوة آخذها من الظالم ، أو لمجاملة صديق ، أو مداهنة صاحب أو قريب ، أو غير ذلك من الأسباب المعروفة التى أصبحت اليوم بين الناس مألوفة ..

وهذا يكتم الجرائم القبيحة كالسرقات ، وهتك الأعراض ، وسفك الدماء ، فلا يبلغها لذوى الشأن متى أخذ الرشوة ..

وهكذا انتشرت الرشوة انتشارا واسعا فى الدوائر والدواوين ، لأن اللصوص الجالسين خلف المناضد عرفوا كيف يحولون بين اجرائم المجرمين وبين المسئولين .

فكم من قتيل عرف قاتله وذهب دمه هدرا ، لأن القاتل قدم مالا أو اشتغل لرئيس !!!

وكم من اختلاسات أتلفت وعرف تالفوها ، فذهبت ضحية الرشوة .

وكم من باطل ارتفع ، وكم من حق انخفض ، فكان الرافع والخافض هو الرشوة .

وكم وكم .. مما لا يأتى عليه العد ، ولا يحيط به الحصر .. فالبلاء كله من الرشوة .

فالرشوة هى : المعول الهدام للأخلاق ، وللأمن ، وللفضيلة ، وللدين .

وهى : شر مستطير ، وبلاء كبير وخطر عظيم ، فلعنة الله على الراشين والمرتشين — والرائشين[1] — والله لا يهدى كيد الخائنين .

فلا تنس كل هذا أخا الاسلام ، حتى لا تقع فى هذا الجرم الكبير .. الذى قد تفعله — لجهلك بحقيقته — بحسن نية وأنت تحسب أنك تحسن صنعا .

مع ملاحظة أن الذى سيعينك على هذا ، لن يفعل فيك معروفا ، وانما سيعينك على الاثم والعدوان الذى لا يصح ولا يجوز أن يكافأ عليه .. والله تعالى يقول :

« وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ، واتقوا الله ، ان الله شديد العقاب »[2] .

* * *

ولهذا ، فقد رأيت — أخا الاسلام — وبعد العرض السريع الذى أرجو أن يكون حجة لنا لا علينا : أن أذكرك ونفسى ببعض الأحاديث الشريفة المرهبة من الرشوة وأكل حقوق الناس بالباطل ، حتى تكون دائما وأبدا نصب عينيك وفى حلك وترحالك حيثما كنت ..

فاليك :

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما ، قال : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : الراشى والمرتشى » رواه أبو داوود والترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجه ، ولفظه :

---

(١) الرائش ، هو الواسطة بين الراشى والمرتشى ، وهو ملعون مثلهما ، كما ورد فى الحديث الشريف .

(٢) المائدة : ٢

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعنة الله على الراشى والمرتشى » وابن حبان فى صحيحه والحاكم ، وقال : صحيح الاسناد .

قال فى الترغيب والترهيب معلقا على هذا الحديث — فى الهامش — ما نصه :

أما الراشى فهو مستحق لذلك الوعيد اذا كان يريد بدفع الرشوة أن يعان على الباطل أو أخذ ما لا حق له فيه أو تقدما على من هو أولى منه . وأما ما يعطيه توصلا الى أخذ حق لا سبيل الى تحصيله الا بالرشوة أو توسلا الى دفع ظلم : فهذا غير داخل تحت الوعيد ، فقد روى أن ابن مسعود أخذ بأرض الحبشة فى شىء فأعطى دينارين حتى أخلى سبيله .

وروى عن جماعة من أئمة التابعين قالوا : لا بأس أن يصانع الرجل عن نفسه وماله اذا خاف الظلم . ومنع ذلك الشوكانى ، وقال : « فالحق التحريم مطلقا أخذا بعموم الحديث ، ومن زعم الجواز فى صورة من الصور فان جاء بدليل مقبول والا كان تخصيصه ردا عليه فان الأصل فى مال المسلم التحريم » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الراشى والمرتشى فى الحكم » رواه الترمذى وحسنه ، وابن حبان فى صحيحه والحاكم[1] وزادوا : والرائش ، يعنى الذى يسعى بينهما .

الرائش : بالشين المعجمة : هو السفير بين الراشى والمرتشى .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه ، قال : « الرشوة فى الحكم كفر ، وهى بين الناس سحت » رواه الطبرانى موقوفا باسناد صحيح .

سحت : أى حرام لا يحل أكله ، وسمى الحرام سحتا لأنه يمحق البركة أى يهلكها .

* * *

هذا .. واذا كان النبى صلى الله عليه وسلم ، قد ختم وصيته — التى ندور حولها — بقوله : « فان لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه » ..

فان النبى صلى الله عليه وسلم ، يريد أن يقول لنا : ان عجزتم

---

(١) وكذلك رواه أحمد رحمه الله .

عن تقديم مكافأة من المـال لمن صنع فيكم معروفا .. فأثيبوه على جميله هـذا ، بالدعاء الصالح .. حتى تروا أنكم قد كافأتموه .

وهذا معناه أن الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم يرغبنا فى ضرورة أن نكافىء الذى صنع فينا معروفا ولو بالدعاء له .. وخصوصا بظهر الغيب :

روى مسلم وأبو داوود عن صفوان بن عبد الله رضى الله عنه ، قال : قدمت الشام فأتيت أبا الدرداء فى منزله فلم أجده ، ووجدت أم الدرداء فقالت : أتريد الحج العام ؟ قلت : نعم . قالت : فادع الله لنا بخير ، فان النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول : دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، عند رأسه ملك موكل ، كلما دعا لأخيه بخير ، قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثل[1] . قال : فخرجت الى السوق فلقيت أبا الدرداء . فقال لى مثل ذلك عن النبى صـلى الله عليه وسلم .

ولأبى داوود والترمذى : أن النبى صلى الله عليـه وسلم ، قال : « أسرع الدعاء اجابة دعوة غائب لغائب » .

ورويا عن عمر قال : « استأذنت النبى صلى الله عليه وسلم فى العمرة فأذن لى وقال : « لا تنسنا يا أخى من دعائك » فقال عمر : كلمة ما يسرنى أن لى بها الدنيا » .

* * *

فاذا كنت أخا الاسلام ستدعو لأخيك المسلم الذى صنع فيك معروفا بالخير : فان هذا سيكون أعظم مكافأة له ، لأنه قد يكون فى أشد الحاجة الى دعائك له ، ولا سيما بظهر الغيب ـ كما عرفت ـ .

واذا كان الوالدن والعلمـاء ، والأصدقاء الأوفيـاء ، والأبنـاء الصالحون .. قد صنعوا فينا خيرا : بتربيتهم ، وتوجيههم ، ووفائهم وبرهم لنـا ..

فانه لا يسعنا الا أن ندعو لهم : بأن يجزيهم الله تعالى عنا خير الجزاء ، وأن يجمعنا بهم فى مستقر رحمته سبحانه وتعالى ، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .. آمين .

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

* * *

---

(١) أى وادعو لك بمثل ذلك .

الوصية السادسة والخمسون

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال :

« ان الدنيا حلوة خضرة ، وان الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون : فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فان أول فتنة بنى اسرائيل كانت فى النساء » ..

(رواه مسلم)

* * *

فكن أخا الاسلام :

دارسا مدققا فى هذه الوصية العظيمة التى تحتاج منا جميعا الى طول نظر .. حتى نفهم المراد من قوله صلى الله عليه وسلم : « ان الدنيا حلوة خضرة » :

فقد شبه النبى صلى الله عليه وسلم — وهو أبلغ البلغاء — الدنيا من حيث الرغبة فيها والاقبال والتكالب عليها والميل بالكلية اليها بفاكهة « خضرة » المنظر « حلوة » المذاق .

هى الدنيا تقول بملء فيها
حذار حذار من بطشى وفتكى
فلا يغرركم منى ابتسام
فقولى مضحك والفعل مبكى

ولهذا ، فان العبد العاقل هو الذى يفهم هذا عن الدنيا ، وهو الذى يتعامل معها أو فيها على أساس من قول الله تبارك وتعالى عنها :

« اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ، وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور »[1] .

---

(١) الحديد : ٢٠

وقولـــه : « **انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلهـــا أنهم قادرون عليهـــا أتاها أمرنا ليـــلا أو نهـــارا فجعلناها حصـــيدا كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصـــل الآيـــات لقوم يتفكرون** »[١] .

وقولـــه : « **واضرب لهم مثـــل الحيـــاة الدنيـــا كماء أنزلنـــاه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدرا . المـــال والبنون زينة الحيـــاة الدنيـــا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا** »[٢] .

* * *

ففى تلك الآيات القرآنية : يخبرنا الله تعالى بحقيقة الدنيـــا ، ويضرب لنا الأمثال الموضحة لتلك الحقيقة التى يجب أن لا تغيب أبدا عن أفكارنا حتى لا نغتر بالدنيا ونشغل بها عن الآخرة التى هى الدار الحقيقية ، كما يشير الى هذا قول الله تبارك وتعالى :

« **وان الدار الآخرة لهى الحيوان**[٣] ، **لو كانوا يعلمون** »[٤] .

ويوم أن يشـــغل الانسان بالدنيـــا عن الآخرة ، أو بالفانيـــة عن الباقية ، فان هذا سيكون معناه الضياع الكامل بل هو الخسران المبين ، المشار اليه فى قول الله تبارك وتعالى :

« **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيـــا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا** »[٥] .

وذلك لأن الدنيا قد استطاعت ببعض ما فيهـــا ، أو بكل ما فيهـــا من فتن ظاهرة أو باطنة أن تغرر بهم وتجعلهم من المشتغلين بها ، أو العاملين من أجلها بتلك الصورة التى ألهتهم عن الهدف الأسمى من وجودهم فى هذه الحيـــاة الأولى ، وهو المشار اليه فى قول الله تبارك وتعـــالى :

« **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين** »[٦] .

---

(١) يونس : ٢٤ (٢) الكهف : ٤٥ ، ٤٦

(٣) أى لهى الحياة الحقيقية لو كانوا يعلمون .

(٤) العنكبوت : ٦٤ (٥) الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤

(٦) الذاريات : ٥٦ ــ ٥٨

وليست العبادة كما يتصور الجهلاء مجرد صلاة أو زكاة أو صيام أو حج .. ، وانما هى كذلك مع كل تلك الأساسيات الدينية : تنفيذ كل ما أمر الله تعالى به ، والابتعاد عن كل ما نهى الله تعالى عنه .

وفى القرآن الكريم يأمرنا الله تبارك وتعالى بالعمل لدنيانا حتى فى يوم الجمعة الذى يستريح فيه أكثرنا ، فيقول : « **فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** »(١) .

ويقول : « .. **فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، واليه النشور** »(٢) .

وذلك حتى تعمر الأرض كما أرادها الله تعالى ، يوم أن قال للملائكة : « .. **انى جاعل فى الأرض خليفة** .. »(٣) .

وهو أبونا آدم عليه السلام الذى أنزله تعالى من الجنة — باختصار — لكى يكون خليفة لله تعالىَ فى الأرض فيعمرها هو وأولاده الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

والى هذا يشير كتاب « قصص القرآن » فى حديثه عن قصة أبينا آدم عليه السلام ، حيث يقول :

خلق الله الأرض فى يومين ، وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها(٤) فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى الى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض : ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا : أتينا طائعين .

ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، ثم خلق ملائكته الذين يسبحون بحمده ، ويقدسون اسمه ، ويخلصون فى عبادته .

ثم شاءت ارادته ، واقتضت حكمته أن يخلق آدم وذريته ، ليسكنوا الأرض ويعمروها ، فأنبأ ملائكته أنه سينشىء خلقا آخر ، يسعون فى الأرض ويمشون فى مناكبها ، وينتشر نسلهم فى أرجائها ، فيأكلون من نبتها ، ويستخرجون الخيرات من باطنها ، ويخلف بعضهم بعضا فيها .. اهـ .

* * *

---

(١) الجمعة : ١٠ (٢) الملك : ١٥ (٣) البقرة : ٣٠

(٤) أى أرزاق أهلها ومعايشهم وما يصلحهم .

وقد سخر الله سبحانه وتعالى للانسان كل شيء فى هذا الكون حتى يتيسر لهم عمارة الكون وتنفيذ أحكام الله فيه ، وفق ما أراده الله تعالى واقتضته حكمته ، والى هذا يشير الله سبحانه وتعالى ، فى سورة النحل ، حيث يقول :

« خلق السموات والأرض بالحق ، تعالى عما يشركون · خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين · والأنعام خلقها ، لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون · ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون · وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ، ان ربكم لرؤوف رحيم · والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون · وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين · هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون · ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون · وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون · وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ، ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون · وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون · وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون · وعلامات ، وبالنجم هم يهتدون · أفمن يخلق كمن لا يخلق ، أفلا تذكرون · وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، ان الله لغفور رحيم »[1] .

ويقول : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون · ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون · ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، ان فى ذلك لآيات للعالمين · ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون · ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماءا فيحيى به الأرض بعد موتها ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون · ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم اذا

---

(١) النحل : ٣ ــ ١٨ .

دعاكم دعوة من الأرض اذا أنتم تخرجون . وله من فى السموات والأرض ، كل له قانتون »[1] .

وكل هذا حتى يكون الانسان أهلا لخلافة الله فى الأرض — وحتى لا تكون له حجة — وذلك لن يكون الا بالايمان الصادق الذى وعد الله أصحابه بالاستخلاف فى الأرض والتمكين فيها ، كما يشير الى هذا قول الله تعالى : « **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوف أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** »[2] .

* * *

فاذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قد قال كما قرأنا فى نص الوصية : « ان الدنيا حلوة خضرة ، وان الله مستخلفكم فيها » ثم قال : « فينظر كيف تعملون » : فلعنا بعد أن عرفنا حقيقة الدنيا وعرفنا كذلك معنى الاستخلاف فيها : سنعمل بعد ذلك ومع ذلك على اثبات وجودنا فيها بصورة ايجابية ، يرانا الله سبحانه وتعالى فيها كما يحب ويرضى .

وذلك لن يكون الا اذا اغتنمنا كل لحظة فى تلك الحياة الأولى وتقربنا فيها الى الله تعالى بعمل صالح .. يضمن لنا الفلاح فى دنيانا وأخرانا .. قال تعالى : « **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة** (أى فى الدنيا) **ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** »[3] أى : فى الآخرة .

ولهذا ، فان العبد الموفق هو الذى تراه فى هذه الدنيا عاملا لآخرته التى فيها معاده والتى فيها سعادته الحقيقية التى لابد وأن يفوز بها .. بمعنى أن يجعلها مزرعة لآخرته .. فهى كما ورد فى الأثر : « ميراث المغرورين ، وميدان الفاسقين ، وسوق الراغبين ، ومسكن البطالين ، وسجن المؤمنين ، ومزبلة المتقين ، ومزرعة العاملين » ..

ذم رجل الدنيا عند على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فقال على عليه السلام :

---

(١) الروم : ٢٠ — ٢٦ (٢) النور : ٥٥

(٣) النحل : ٩٧

الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار نجاة لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها ، مهبط وحى الله ، ومصلى ملائكته ، ومسجد أنبيائه ، ومتجر أوليائه ، ربحوا منها الرحمة واحتسبوا فيها الجنة ، فمن ذا يذمها وقد آذنت ببينها ، ونادت بفراقها ، وشبهت بسرورها السرور وببلائها البلاء ترغيبا وترهيبا ، فيا أيها الذام الدنيا المعلل نفسه ، متى خدعتك الدنيا أم متى استذمت اليك !(١) أبمصارع آبائك فى البلى ! أم بمضاجع أمهاتك فى الثرى ! كم مرضت بيديك ، وعللت بكفيك ، تطلب له الشفاء ، وتستوصف له الأطباء ، غداة لا يغنى عنه دولؤك ، ولا ينفعه بكاؤك ..

وقد ورد كذلك أنه رضى الله عنه كان يقول :

ان لله عبـــادا فطنـــا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيهـا فلمـا علمـوا أنهـا ليست لحى وطنـــا
جعلوها لجـة واتخـــذوا صـالح الأعمال فيها سفنا

ويقول :

لا دار للمـرء بعد الموت يسـكنها
الا التى كان قبل المـوت بينيهـا
فان بنـاها بخير طاب مسـكنه
وان بنـاها بشر خـاب بانيهـا
النفس ترغب فى الدنيـا وقد علمت
أن الزهادة فيهـا ترك ما فيهـا
فاغرس أصول التقى مادمت مجتهدا
واعـلم بأنك بعد المـوت لاقيهـا

* * *

ولهذا ، فقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى أول خطبة خطبها بالمدينة ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله :

« أما بعد ، أيها الناس ، فقدموا لأنفسكم ، تعلمن والله ليصعقن أحدكم ، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك ؟ وآتيتك مالا وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يمينا وشمالا فلا يرى شيئا ،

---

(١) استذمت اليك : أى فعلت ما تذمها على فعله .

ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم • فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فان بهـا تجزى الحسنة عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف ، والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته » ذكرها ابن هشام فى سيرته ، وأخرجها أيضا البيهقى •

وفى خطبة أخرى يرويها على رضى الله عنه ، يقول صلوات الله وسلامه عليه ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله :

« أما بعد ، أيها الناس •• كأن الموت فيها على غيرنا قد كتب ، وكأن الحق فيها على غيرنا وجب ، وكأن الذى نشيع من الأموات سفر عما قليل الينا راجعون • نبوئهم أجداثهم[1] ونأكل من تراثهم كأنا مخلدون بعدهم • قد نسينا كل واعظة ، وأمنا كل جائحة[2] طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس • طوبى لمن طاب كسبه ، وصلحت سريرته ، وحسنت علانيته ، واستقامت طويته • طوبى لمن تواضع لله فى غـير منقصة ، وأنفق مالا جمعه فى غير معصية ، وجالس أهل الفقه والحكمة ، وخالط أهل الذل والمسكنة • طوبى لمن زكت نفسه وحسنت خليقته وطابت سريرته وعزل عن الناس شره • طوبى لمن أنفق الفضل[3] من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، ووسعته السنة ولم تستهوه البدعة » ••

وفى رواية : « ولم يعد عنها الى البدعة » أخرجه أبو نعيم وقد ورد بألفاظ متقاربة •

* * *

انك أخا الاسلام ان فعلت هـذا الذى رغبك فيه الرسول صلى الله عليه وسلم فى هاتين الخطبتين : ستكون قد أثبت وجودك فى هـذه الحياة الأولى بصورة ايجابية سيكافئك الله تعالى عليها ، لأنه سبحانه وتعالى يقول فى قرآنه :

« وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هـذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشـابها ، ولهم فيها أزواج مطهـرة ، وهم فيها خالدون »[4] •

---

(١) جمع جدث وهو القبر ، أى ننزلهم مقابرهم •

(٢) الجائحة : الآفة المهلكة •

(٣) أى الزائد من المال والقول •

(٤) البقرة : ٢٥

كما يشير الى هذا أيضا قول الله تبارك وتعالى :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب »(١) .

ثم يقول بعد ذلك :

« قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد »(٢) .

ثم يقول بعد ذلك متحدثا عن مواصفات هؤلاء العباد الذين أعد لهم فى جناته كل هذا الخير العظيم :

« الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار »(٣) .

كما يشير الى هذا أيضا قول الله تبارك وتعالى :

« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنا لا نضيع أجر من أحسن عملا . أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك ، نعم الثواب وحسنت مرتفقا »(٤) .

* * *

ثم اذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قد قال بعد ذلك فى نص الوصية : « فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فان أول فتنة بنى اسرائيل كانت فى النساء » :

فانه بهذا صلوات الله وسلامه عليه يحذرنا أولا من حب الدنيا بتلك الصورة التى كثيرا ما كانت سببا فى ضياع الكثيرين من هؤلاء الذين اغتروا بها ، وخدعوا بملذاتها وشهواتها .. حتى أصبحوا لا يفكرون الا فيها ولا يعملون الا من أجلها .. مع أنهم لو عرفوا حقيقتها لبصقوا فى وجهها ولما استطاعت أبدا أن تصل الى قلوبهم .. حتى تتربع عليها .

وقد قرأت فى كتاب « عيون الأخبار » ما نصه :

حدثنى محمد بن داوود ، قال : حدثنا أبو الربيع عن حماد عن على

---

(١) آل عمران : ١٤ (٢) آل عمران : ١٥

(٣) آل عمران : ١٦ ، ١٧ (٤) الكهف : ٣٠ ، ٣١

ابن زيد عن الحسن أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للضحاك ابن سفيان « ما طعامك » ؟ قال : اللحم واللبن ، قال : « ثم يصير الى ماذا » ؟ قال : ثم يصير الى ما قد علمت . قال : « فان الله ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلا للدنيا » قال : وكان بشير بن كعب يقول لأصحابه اذا فرغ من حديثه : انطلقوا حتى أريكم الدنيا ، فيجىء فيقف بهم على السوق ، وهى يومئذ مزبلة ، فيقول : انظروا الى عسلهم وسمنهم والى دجاجهم وبطهم صار الى ما ترون .

وعن جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بالسوق ، والناس كنفتيه[١] فمر بجدى أسك ميت[٢] ، فتناوله بأذنه ثم قال : « أيكم يحب أن هذا بدرهم ؟[٣] فقالوا : ما نحب أنه لنا بشىء ، وما نصنع به ؟[٤] قال : أتحبون أنه لكم ؟ قالوا : والله لو كان حيا لكان عيبا فيه لأنه أسك ، فكيف وهو ميت ؟ فقال : والله للدنيا أهون[٥] على الله عز وجل من هذا عليكم » رواه مسلم .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : مر النبى صلى الله عليه وسلم بشاة ميتة قد ألقاها أهلها[٦] ، فقال : والذى نفسى بيده ، للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها » رواه أحمد باسناد لا بأس به .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه ، قال : مر النبى صلى الله عليه وسلم بدمنة[٧] قوم فيها سخلة[٨] فقال : « ما لأهلها فيها حاجة ؟[٩] قالوا : يا رسول الله .. لو كان لأهلها فيها حاجة ما نبذوها[١٠] ، فقال : والله للدنيا أهون على الله من هذه السخلة على أهلها فلا

---

(١) تثنية كنفة وهى الناحية ، اى عن يمينه وشماله .

(٢) أسك ميت : صفتان لجدى والمراد أنه ليس فيه ما يرغب فيه وهو صغير الأذن .

(٣) وفى بعض الروايات أن يكون له هذا بدرهم .

(٤) يعنى وأى شىء تصنعه به وهو ميت وقصير الأذن .

(٥) أى أشد هوانا وأحقر .

(٦) أى طرحوها فى مزبلة من المزابل لتكون طعمة للكلاب .

(٧) أى مزبلة وجمعها دمن .

(٨) السخلة ولد الشاة والجمع سخل .

(٩) الكلام على الاستفهام يعنى اليس لأهلها فيها منفعة حتى طرحوها هكذا .

(١٠) النبذ طرح الشىء والقاؤه لعدم الاعتداد به .

ألفينها[1] اهلكت أحدا منكم » رواه البزار والطبرانى فى الكبير من حديث ابن عمر بنحوه ، ورواتهما ثقات ، ورواه أحمد من حديث أبى هريرة ولفظه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بسخلة جرباء قد أخرجها أهلها ، قال : « أترون هذه هينة على أهلها ؟ قالوا : نعم يا رسول الله . قال : الدنيا أهون على الله من هذه على أهلها » .

ففى الأحاديث الثلاثة : يقسم صلوات الله وسلامه عليه ، بأن الدنيا بكل زخارفها ومتاعها أهون وأحقر عند الله من شاة ميتة على أهلها ، والمراد أنها لا تساوى شيئا أصـــلا .

والدليل على هذا أيضا ، ما ورد :

عن سهل بن سعد رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كانت الدنيا تعدل[2] عند الله جناح بعوضـــة ما سقى كافرا منها شربة ماء »[3] رواه ابن ماجـــه والترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح .

وذلك حتى لا نحب الدنيا ونشغل بها عن الآخرة .. فقد ورد :

عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليـــه وسلم ، قال : « من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى » رواه أحمد ورواته ثقات ، والبزار وابن حبان فى صحيحه والحاكم والبيهقى فى الزهد وغيره ، كلهم من رواية المطلب بن عبد الله بن حنطب عن أبى موسى وقال الحاكم : صحيح على شرطهما .

* * *

ولهذا ، فقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحذر أصحابه من زهرة الدنيا وزينتها :

فعى أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، قال : جلس رسول الله صلى الله عليـــه وسلم على المنبر ، وجلسنا حوله ، فقال : « ان مما أخاف عليـــكم ما يفتـــح الله عليكم من زهرة الدينـــا وزينتهـــا » رواه البخارى ومسلم فى حديث ، وكذلك رواه ابن أبى حاتم ، قال : « أنبـــأنا يونس أخبرنى ابن وهب أخبرنى مالك عن زيد بن أسلم عن عطـــاء

---

(١) يعنى فلا أجدنها .
(٢) أى تزن .
(٣) وهذا دليل على حقارة الدنيا عند الله تعالى .

ابن يسار عن أبى سعيد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ان أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح لكم من زهرة الدنيا • قالوا : وما زهرة الدنيا ؟ قال : بركات الأرض » •

وحول تفسير معنى « زهرة الدنيا » قال قتادة والسدى : يعنى زينة الحياة الدنيا ، وعلى هذا فقوله « زينتها » عطف تفسير ، ويجوز أن يراد بالزهرة ما يتمتع به فيها من الشهوات •

* * *

ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم ، يقول هذا لأصحابه محذرا اياهم من زهرة الدنيا وزينتها فحسب ، وانما كان كذلك فى نفس الوقت قدوة لهم فى العزوف عن زهرة الدنيا وزينتها :

فعن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ، قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدنيا ، ولم يشبع هو ولا أهله من خبز الشعير • رواه البزار باسناد حسن •

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه مر بقوم بين أيديهم شاة مصلية[١] فدعوه[٢] ، فأبى أن يأكل[٣] ، وقال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدنيا ، ولم يشبع من خبز الشعير • رواه البخارى والترمذى •

وقد علل أبو هريرة امتناعه عن الأكل بأنه يحب الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فى زهده وتعففه •

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليه عمر[٤] وهو على حصير قد أثر فى جنبه ، فقال : يا رسول الله •• لو اتخذت فراشا أوثر[٥] من هذا ؟ فقال : « مالى وللدنيا ، وما مثلى ومثل الدنيا الا كراكب سار فى يوم صائف[٦] ، فاستظل تحت شجرة ساعة[٧] ثم راح وتركها » رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه والبيهقى •

---

(١) أى مشوية .
(٢) أى عزموا عليه ليأكل معهم .
(٣) أى امتنع من اجابتهم تعففا وزهدا واستكثارا لهذا الطعام .
(٤) وكان هذا فيما روى عندما آلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من نسائه شهرا واشيع أنه طلقهن فاستأذن عليه عمر رضى الله عنه ليسأله عن ذلك ، فلما دخل وجده نائما على حصير .. الخ .
(٥) أفعل تفضيل من قولهم : فراش وثير أى وطىء لين .
(٦) صائف : أى حار .
(٧) أى بقدر ما تنكسر شدة الحر ويعتدل الجو .

نعـــم ..

وما دنيـــــاك الا مثـــــل ظـــل

أظـــلك ثـــم آذن بارتحـــــــال

وهذا هو المعنى الذى لابد وأن نقف على أبعاده ، حتى نكون من العقلاء الذين عرفوا حقيقة الدنيا فاعتبروها قنطرة للآخرة :

فعن عائشة رضى الله عنها ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدنيا دار من لا دار له ، ولها يجمع من لا عقل له » رواه أحمد والبيهقى ، وزاد : « ومال من لا مال له » واسنادهما جيد .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وســـلم : « يقول العبد : مالى مالى ، وانما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى[1] ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فاقتنى ما سوى ذلك ، فهو ذاهب ، وتاركه للناس » رواه مسلم .

فمعنى « أو أعطى فاقتنى » أى : تصـــدق وأنفق فادخر ثواب ذلك عند الله عز وجل ، قال فى المصباح : « أقناه أعطاه وأرضاه واقتنيته اتخذته لنفسى قنية ، والمعنى يشيد بمـــاله المكارم لتبقى له ذخيرة فى حياته وآخرته » .

وحسب الانسان العاقل أن يلاحظ هذا دائما وأبدا الى آخر لحظة فى حياته حتى تكون الدنيا مطية له ، وحتى يكون المـــال فى يده لا فى قلبـــه .

وذلك حتى لا يكون من أهل الطمع فى الدنيا بتلك الصـــورة التى حذر النبى صلى الله عليه وسلم منها ، فى حديث قال فيه : « .. واياك والطمع فانه الفقر الحاضر »[2] .

ولهذا فقد قال الشافعى رضى الله عنه مشيرا الى هذا المعنى الكبير :

أمت مطامعى فأرحت نفسى ... فان النفس ما طمعت تهون

وأحييت القنوع وكان ميتا ... وفى احيـــائه عرضى مصون

اذا طمع يحل بقلب عبـــــد ... علتـــه مهـــانة وعلاه هون

وكان رضى الله عنه يقول :

أنا ان عشت لســـت أعدم قوتـــا

أو ان مت لســـت أحـــرم قبـــرا

---

(١) « ما أكل فأفنى » الـــخ بدل من ثلاث أى الذى أكله فأذهبه وغيبه .

(٢) جزء من حديث شريف سنده صحيح .

همـــتى همـــة الـــكرام ونفسى
نفس حـــر ترى المذلـــة كفـــرا

وعن فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وســلم يقول : « طوبى[1] لمن هدى للاسلام ، وكان عيشه كفـــافا وقنع » رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح ، والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله صـــلى الله عليه وسلم ، قال : « قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافا[2] ، وقنعـــه الله بما آتاه » رواه مسلم والترمذى وابن ماجه .

* * *

ولهـــذا .. فقد رأيت بعد هذا العرض السريع الذى أرجو أن نكون من خلاله قد عرفنا لمـــاذا حذرنا النبى صـــلى الله عليه وسلم من حب الدنيا .. رأيت بالاضافة الى هذا ، وحتى تتضح الصورة أكثـــر ، وأكثر ، أن أذكر بقصة ـــ ذكرها الشيخ على محفوظ رحمه الله ، فى كتابه « هداية المرشدين » ـــ حيث يقول فى مضمونها :

روى أن عيسى عليـــه السلام كان مع صاحب له يسيحان فأصابهما الجوع وقد انتهيا الى قرية ، فقال لصاحبه : انطلق فاطلب لنا طعـــاما من هذه القرية ، وقام سيدنا عيسى يصلى ، فجاء الرجل بثلاثة أرغفة ، فأبطأ عليه انصراف سيدنا عيسى ـــ من الصلاة ـــ فأكل رغيفا ، فانصرف عيسى فقال : أين الرغيف الثالث ؟ فقال : ما كانا الا رغيفين ، فمرا على وجوههما حتى مرا بظباء ترعى ، فدعا عيسى عليه السلام ظبيا منهـــا فذكاه ـــ أى ذبحه ـــ فأكلا منه ، ثم قال عيسى للظبى : قم باذن الله ، فاذا هو يشتد ـــ أى يقوم حيا ـــ فقال الرجل : سبحان الله ! فقال له عيسى : بالذى أراك هـــذه الآية ، من صاحب الرغيف ـــ الثالث ـــ ؟ قال : ما كانا الا اثنين . فمضيا فمرا بنهر عظيم فأخذ عيسى بيده فمشى به على المـــاء حتى جاوزا المـــاء . فقال الرجل : سبحان الله !! فقال عيسى : بالذى أراك هذه الآية ، من صاحب الرغيف ؟ فقال : ما كانا الا اثنين ، فخرجا حتى أتيا قرية عظيمة خربة ، واذا قريب منها لبن

---

(١) أى العاقبة الطيبة ، وقيل هى شجرة فى الجنة يسير الراكب فى ظلها مائة عام .

(٢) الكفاف ، اى الذى ليس فيه فضل عن الكفاية .

ثلاثة من ذهب ــ أى قوالب ثلاثة من الذهب ــ فقال عيسى عليه السلام : واحدة لى ، وواحدة لك ، وواحدة لصاحب الرغيف الثالث ، فقال : أنا صاحب الرغيف ، فقال عيسى عليه السلام : هى لك كلها • وفارقه ، فأقام عليها ليس معه ما يحملها عليه ، فمر به ثلاثة نفر فقتلوه وأخذوا اللبن ــ قوالب الذهب ــ فقال اثنان منهم لواحد : انطلق الى القرية فأتنا بطعام ، فذهب ، فقال أحد الاثنين الباقيين : نقتل هذا اذا جاء ونقسم هذا بيننا • فقال الآخر : نعم • وقال الذى ذهب يشترى الطعام ــ مخاطبا نفسه ــ أجعل فى الطعام سما فأقتلهما وآخذ اللبن ــ وحدى ــ ففعل • فلما جاء قتلاه وأكلا من الطعام الذى جاء به ، فماتا • فمر بهم بعد ذلك سيدنا عيسى ، فلما رآهم جميعا صرعى حول الذهب • قال لمن معه من الحواريين : هكذا الدنيا تفعل بأهلها •

* * *

نعم •• هكذا الدنيا تفعل بأهلها •• وما حدث لهؤلاء الأربعة : صورة من تلك المشاهد الكثيرة التى تحدث كثيرا وكثيرا فى كل زمان ومكان بسبب حب الدنيا •• لأن حب الدنيا كما ورد فى الأثر : « رأس كل خطيئة » :

فمن أحب الدنيا أحب نفسه ، ومن أحب نفسه انفصل عن أسرته ، ومن انفصل عن أسرته انفصل عن المجتمع •• ومن انفصل عن المجتمع أصبح عدوا له بتلك الصورة التى غالبا ما تكون سببا فى ارتكاب الجرائم الأخلاقية والاجتماعية •• بل والأسرية •

وقد أعجبنى كلام ذكره فضية الشيخ على محفوظ رحمه الله ، فى كتابه « هداية المرشدين » باختصار ، تحت عنوان :

النهى عن الانهماك فى طلب الدنيا

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، قال تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون • وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين • ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها ، والله خبير بما تعملون »**[1] •

ان من نظر الى الدنيا بعين البصيرة أيقن أن نعيمها ابتلاء ،

---

(١) المنافقون : ٩ ــ ١١

وحياتها عناء ، وعيشها نكد ، وصفوها كدر ، وأهلها منها على وجل ، اما بنعمة زائلة ، أو بلية نازلة ، أو منية قاضية ، مسكين ابن آدم .. رضى بدار حلالها حساب ، وحرامها عقاب ، ان أخذه من حلال حوسب عليه ، وان أخذه من حرام عذب به . من استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حزن ، من أحبها أذلته ، ومن أبصر اليها أعمته ، والناس فيها طائفتان :

طائفة فطناء ، علموا أنها ظل زائل ، ونعيم حائل ، وأضغاث أحلام ، بل فهموا أنها نعم فى طيها نقم ، وعرفوا أن هذه الحياة الفانية ، انما هى طريق الى الحياة الباقية ، فرضوا منها باليسير ، وقنعوا فيها بالقليل ، فاستراحت قلوبهم وأبدانهم ، وسلم لهم منها دينهم ، وكانوا عند الله تعالى هم المحمودين ، لم تشغلهم دنياهم عن طاعة مولاهم ، جعلوا النفس الأخير وما وراءه نصب أعينهم ، وتدبروا ماذا يكون مصيرهم ، وفكروا كيف يخرجون من الدنيا وايمانهم سالم لهم ، وما الذى يبقى معهم منها فى قبورهم ، وما الذى يتركون لأعدائهم[1] فى الدنيا ، ومن لا يغنيهم من الله شيئا يوم لا ينفع مال ولا بنون ، ويبقى عليهم وباله ونكاله ، أدركوا كل هذا فتأهبوا للسفر ، وأعدوا الجواب للحساب ، وقدموا الزاد للمعاد « وخير الزاد التقوى » فطوبى لهم ، خافوا فأمنوا ، أحسنوا ففازوا .

وطائفة أخرى جهلاء : عمى البصائر لم ينظروا فى آمرها ، ولم يتكشفوا سوء حالها ومآلها ، برزت لهم بزينتها ففتنتهم فاليها آخلدوا ، وبها رضوا ، ولها اطمأنوا ، حتى ألهتهم عن الله تعالى وشغلتهم عن ذكره وطاعته : « .. **نسوا الله فأنساهم أنفسهم** »[2] . جعلهم بسبب ذلك ناسين لها حتى لم يسمعوا ما ينفعها ، ولم يفعلوا ما يخلصها ، وسيرون يوم القيامة من الأهوال ما ينسيهم أرواحهم ويجعلهم حيارى ذاهلين « **يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** »[3] .

---

(١) من الأزواج والأولاد ، كما يشير الى هذا قول الله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم** » .. (التغابن : ١٤)

(٢) الحشر : ١٩ (٣) الحج : ٢

وفى مثل هؤلاء يقول الشيخ ابن عطاء الله السكندرى رحمه الله تعـالى : « اجتهادك فيما ضمن لك مع تقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك » • أقاموها فهدمتهم ، واعتزوا بها من دون الله فأذلتهم ، أكثروا فيها من الآمال ، وأحبوا طويل الآجال ، ونسوا الموت وما وراءه من أهوال ومخاوف فخاب أملهم وضل سعيهم وخسروا الدنيا ولم يدركوا الآخرة •

روى الترمذى من حديث أنس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : « من كانت الآخرة همـه : جعل الله غناه فى قلبه ، وجمع عليه شـمله وأتته الدنيا وهى راغمة • ومن كانت الدنيا همه : جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيـا الا ما قدر له ، فلا يمسى الا فقيرا ، ولا يصبح الا فقيرا • وما أقبـل عبد على الله بقلبه الا جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد اليه بالود والرحمة ، وكان الله بكل خير اليه أسرع » •

* * *

فاذكر كل هـذا أخا الاسلام حتى لا تفتن بالدنيا فتشـغل بها عن الآخرة ، وحتى لا تكون بسبب ذلك ـ كما عرفت من خلال ما وقفت عليـه ـ قد خسرت الدنيا والآخرة •

وحسبى فى نهاية هـذا التذكير والتحذير من فتن الدنيا : أن أذكرك ونفسى بخطبة من خطب الرسول صلى الله عليـه وسلم ، يقول فيها : « أيها الناس : ان لكم معـالم[1] فانتهوا الى معـالمكم ، وان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم ، ان المؤمن بين مخافتين ، بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه ، وبين أجـل قد بقى لا يدرى ما الله تعالى قاض عليه فيه • فليأخذ العبد لنفسه من نفسه ، ومن دنيـاه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت • والذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب[2] ولا بعد الدنيا دار الا الجنة أو النار » ذكره أبو بكر الباقلانى فى كتابه « اعجاز القرآن » •

---

(١) جمع معلم كمذهب وهو فى الأصل الدليل فى الطريق ، والمراد به هنا حدود الشريعة المطهرة .

(٢) أى ليس بعد الموت استرضاء لأنه وقت جزاء لا وقت عمل .

واذكر كذلك قول الله تعالى للدنيا[١] :

« يا دنيـــا ما أهونك على الأبرار الذين تزينت لهم ، انى قذفت فى قلوبهم بغضك والصبر عنك ، ما خلقت خلقا أهون على منك ، انى قضيت عليك يوم خلقتك أن لا تدومى لأحد ولا يدوم لك أحد » .

فاحرص أخا الاسلام على أن تكون من هؤلاء الأبرار حتى تسلم من شر الدنيا .. التى أولها بكاء وأوسطها عناء وآخرها فناء ــ كما وصفها على كرم الله وجهه ــ ، والتى وصفها الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك ، بأنها : « .. دار التواء ، لا دار استواء ، ومنزل ترح ، لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء .. » .

انما الدنيـــا فنـــاء ... ليـس للدنيـــا ثبـوت
انمـا الدنيـــا كبيت ... نسـجته العنـــكبوت
كل ما فيهـا لعمـــرى ... عن قـريب سـيموت
ولقـد يكفيـــك منهـا ... أيهـا العـــاقل قـوت

□ □

جدير بالتواضع من يموت ... وحسب المرء من دنياه قوت
فما للمرء يصبح ذا همـوم ... وحرص ليس تدركه النعوت
فيا هذا سترحل عن قريب ... الى قوم كلامهم السـكوت

* * *

وأما عن التحذير من الافتتان بالنساء المشار اليه فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى نص الوصية بعد التحذير من فتن الدنيا :

« واتقوا النساء » :

فذلك ، لأنهن ــ كما ورد[٢] ــ : حبائل الشيطان وفخوخه ، ولا دين لهن ولا عقل عندهن ، وان كان القليل منهن عابدات صابرات قانتات تائبات ، غير أن الحكم عادة للغالب . ففى الحديث الشريف : « يا معشر النساء تصدقن وأكثرن من الاستغفار فانى رأيتكن أكثـر أهل النار ، فقالت امرأة منهن جزلة[٣] : ومالنا يا رسول الله أكثر أهل النار ؟ قال : تكثرن اللعن وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل

---

(١) أى فى الحديث القدسى .
(٢) كما يقول فى هامش الدين الخالص ج ٤ ص ٢٤٣
(٣) بفتح فسكون : أى ذات رأى .

ودين أغلب لذى لب منكن . قالت : يا رسول الله .. وما نقصان العقل والدين ؟ قال : أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل . فهذا من نقصان العقل . وتمكث الليالى ما تصلى[1] ، وتفطر فى رمضان . فهذا من نقصان الدين » أخرجه ابن ماجه .

وفى رواية : « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أسلب للب الرجل الحازم من احداهن ، لو صنعت معها الدهر معروفا ثم رأت منك اساءة واحدة ، قالت : ما رأيت منك خيرا قط » .

وعن وهب بن منبه ، قال : عاقب الله المرأة بعشر خصال : شدة النفاس ، وبالحيض ، وبالنجاسة فى بطنها وفرجها ، وجعل ميراث امرأتين ميراث رجل واحد ، وشهادة امرأتين كشهادة رجل ، وجعلها ناقصة العقل والدين لا تصلى أيام حيضها ، ولا يسلم على النساء ، وليس عليهن جمعة ولا جماعة ، ولا يكون منهن نبى ، ولا تسافر الا بولى .

وكان يقال : ما نهيت امرأة قط عن شىء الا أتته .

وقال طفيل فى هذا المعنى :

ان النســـاء كأشـــجار نبتهن معـــا
منهـــا المـــرار وبعض المـــر مأكول
ان النســـاء متى ينهين عن خلـــق
فانـــه واقـــع لابـــد مفعـــــول

وعن رجاء بن حيوة قال : قال معاذ : انكم ابتليتم بفتنة الضراء فصبرتم ، وانى أخاف عليكم فتنـــة السراء ، وان من أشد ذلكم عندى النساء ، اذا تحلين الذهب ، ولبسن ربط الشام[2] وعصب[3] اليمن ، فأتعبن الغنى ، وكلفن الفقير ما لا يجد .

وقد ذكر فى هامش « عيون الأخبار » كتاب النساء (ص ١١٣) ، الحديث الآتى تعليقا على هذا القول السابق :

قال صلى الله عليه وسلم : « أخوف ما أخاف عليكم فتنة النساء . قالوا : كيف يا رسول الله ؟ قال : اذا لبسن ربط الشام ، وحلل العراق ،

---

(١) وذلك بسبب الحيض والنفـــاس وكذلك بالنســـبة للافطـــار فى رمضان بسبب ذلك . وبعد الطهر تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة .

(٢) أى كل ثوب رقيق .

(٣) وهو كل برد يصبغ غزله ثم ينسج ، لا يثنى ولا يجمع ، وانما يثنى ويجمع ما يضاف اليه .

وعضب اليمن ، وملن كما تميل أسنمة البخت ، فاذا فعلن ذلك كلفن المعسر ما ليس عنده . استعيذوا بالله من شر النساء ، وكونوا من خيارهن على حذر » .

وهذا الذى قاله الرسول صلى الله عليه وسلم والذى وقفنا عليه فى هذه الأخبار ، معناه كما عرفنا ، أن الرجل العاقل هو الذى يستعيذ بالله من شر النساء ، ويكون من خيارهن على حذر ، وذلك حتى يسلم من كيدهن الذى أشار الله سبحانه وتعالى اليه فى قوله : « .. **ان كيدكن عظيم** »[1] ، والكيد : المكر والحيلة .

قال فى القرطبى : وانما قال « عظيم » لعظم فتنتهن واحتيالهن فى التخلص من ورطتهن . وقال مقاتل عن يحيى بن كثير عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان كيد النساء أعظم من كيد الشيطان لأن الله تعالى يقول : « **ان كيد الشيطان كان ضعيفا** »[2] وقال : « **ان كيدكن عظيم** » .

* * *

ومن كيد امرأة العزيز بسيدنا يوسف .. ما أشار اليه سبحانه وتعالى فى قوله : « **وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله ، أنه ربى أحسن مثواى ، انه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به ، وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، انه من عبادنا المخلصين** »[3] .

والخلاصة — كما يقول القرطبى — : وفى الخبر أنها قالت له : يا يوسف .. ما أحسن صورة وجهك ! قال : فى الرحم صورنى ربى ، قالت : يا يوسف .. ما أحسن شعرك ! قال : هو أول شىء يبلى منى فى قبرى ، قالت : يا يوسف .. ما أحسن عينيك ! قال : بهما أنظر الى ربى . قالت : يا يوسف .. ارفع بصرك فانظر فى وجهى ، قال : انى أخاف العمى فى آخرتى . قالت : يا يوسف .. أدنو منك وتتباعد منى ؟ ! قال : أريد بذلك القرب من ربى . قالت : يا يوسف .. القيطون[4] فادخل معى ، قال : القيطون لا يسترنى من ربى . قالت :

---

(١) يوسف : ٢٨ (٢) النساء : ٧٦

(٣) يوسف : ٢٣ ، ٢٤ (٤) القيطون : المخدع ، أعجمى .

يا يوسف .. فراش الحرير قد فرشته لك ، قم فاقض حاجتى ، قال : اذن يذهب من الجنة نصيبى ، الى غير ذلك من كلامها وهو يراجعها ، الى أن هم بهـا .

وقد ذكر بعضهم : ما زال النساء يملن الى يوسف ميل شـهوة حتى نبأه الله ، فألقى عليـه هيبة النبوة ، فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه . ثم يقول القرطبى :

واختلف العلماء فى همه ، ولا خلاف أن همها كان المعصية ، وأما يوسف فهم بهـا : « **لولا أن رأى برهان ربـه** » ، ولكن لمـا رأى البرهان ما هم ، وهـذا لوجوب العصمة للأنبياء ، قال الله تعـالى : « **كذلك لنصرف عنه السـوء والفحشاء ، انه من عبـادنا المخلصين** » فان فى الكلام تقديم وتأخير ، أى لولا أن رأى برهان ربه لهم بها . قال أبو حاتم : كنت أقرأ غريب القرآن على أبى عبيدة فلمـا أتيت على قوله : « **ولقد همت به ، وهم بهـا** » الآيـة ، قال أبو عبيدة : هـذا على التقديم والتأخير ، كأنه أراد ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها ..

وقوله تعـالى : « **لولا أن رأى برهان ربه** » والجواب محذوف لعلم السامع ، أى لكان ما كان . وهذا البرهان غير مذكور فى القـرآن ، فروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، أن زليخا قامت الى صنم مكلل بالدر والياقوت فى زاوية البيت فسترته بثوب ، فقال : ما تصنعين ؟ قالت : أستحى من الهى هذا أن يرانى فى هذه الصورة ، فقال يوسف : أنا أولى بأن أستحى من الله ، وهذا أحسن ما قيل فيه ، لأن فيه اقامـة الدليـل . وقيـل : رأى مكتوبا فى سقف البيت : « **ولا تقربوا الزنا ، أنه كان فاحشة وساء سبيلا** »[1] .

وقـال ابن عباس : بدت كف مكتوب عليهـا : « **وان علـيكم لحافظين** »[2] . وقال قوم : تذكر عهد الله وميثاقه . وقيل : نودى يا يوسف .. أنت مكتوب فى الأنبياء وتعمل عمل السفهاء ؟ ! وقيـل : رأى صورة يعقوب على الجدران عاضا على أنملته يتوعده فسكن ، وخرجت شهوته من أنامله ، قاله قتادة ومجاهد والحسن والضحاك وأبو صالح وسعيد بن جبير . وروى الأعمش عن مجاهد قال : حـل

---

(١) الاسراء : ٣٢ (٢) الانفطار : ١٠

سراويله فتمثل له يعقوب ، وقال له : يا يوسف .. فولى هاربا . وروى سفيان عن أبى حصين عن سعيد بن جبير ، قال : مثل له يعقوب فضرب صدره فخرجت شهوته من أنامله ، قال مجاهد : فولد لكل واحد من أولاد يعقوب اثنا عشر ذكرا الا يوسف لم يولد له الا غلامان ، ونقص بتلك الشهوة ولده ، وقيل غير هذا . ثم يقول القرطبى :

وبالجملة : فذلك البرهان آية من آيات الله أراها الله يوسف حتى قوى ايمانه ، وامتنع عن المعصية .

* * *

واذا كان الكيد كما علمنا هو المكر ، فان الله تعالى يقول : **« ولا يحيق المكر السىء الا بأهله »**[1] ، وتوضيحا لهذا :

فقد حكى أن خدم بعض الملوك وجدوا طفلا فى الطريق فالتقطوه ، فأمر الملك بتربيته وضمه الى أهل بيته وسماه أحمد اليتيم ، فلما نشأ ظهرت عليه أمارات النجابة والذكاء فهذبه وعلمه ، ولما حضرته الوفاة ، أوصى به — الملك — ولى عهده ، فضمه اليه واصطفاه وأخذ عليه العهد أن يكون له وفيا وخادما أمينا ، وبعد ذلك قدمه فى أعماله فصار حاكما على جميع حاشية الأمير ، ومتصرفا فى شئون قصره .

وفى أحد الأيام أمره أن يحضر شيئا من بعض حجراته ، فذهب ليحضره فرأى بعض جوارى الأمير الخاصة به مع شاب من الخدم يفسقان ويزنيان فتوسلت اليه الجارية أن يكتم هذا الخبر ووعدته بكل ما يطلب ، وراودته عن نفسه لتأمن شره ، فقال لها : معاذ الله أن أخون الأمير ، وقد أحسن الى .. ثم تركها وانصرف على أن يكتم السر . لكن الجارية أوجست فى نفسها خيفة وتوهمت أن أحمد اليتيم سيفشى أمرها للأمير .. فما كان منها الا أن انتظرت الأمير حتى حضر الى قصره ثم ذهبت اليه باكية شاكية فسألها ما خبرها ؟ فقالت : ان أحمد اليتيم راودها عن نفسها ، وكان يريد أن يقهرها على الزنا .. فلما سمع الأمير ذلك غضب واشتد غضبه ، وعزم على قتله .. ثم دبر قتله فى الخفاء حتى لا يعلم الناس بقتله وبسبب هذا القتل . فقال لكبير خدمه : اذا بعثت اليك أحدا بطبق يطلب منك كذا وكذا فاقطع رأسه وضع الرأس فى الطبق ، وابعث به الى .. فأجاب الخادم بالسمع والطاعة .

---

(١) فاطر : ٤٣

وفى يوم من الأيام أحضر الأمير أحمد اليتيم وقال له : اذهب الى فلان الخادم ، وقل له يعطيك كذا وكذا .. فامتثل الأمر وذهب .. الا أنه لقى فى طريقه بعض الخدم ، فأرادوا أن يحكموه بينهم فى أمر فاعتذر وقال : انه مكلف بقضاء أمر الأمير .. فقالوا : نبعث فلانا الخادم نائبا عنك ليحضر ما تطلبه حتى تفصل فى شأننا .. فأجابهم الى ما طلبوا ، فأرسلوا واحدا منهم وهو الشاب الذى سبق له الزنا بالجارية ، فلما ذهب أخذه رئيس الخدم الى المكان الذى أعده ثم قطع رأسه على غرة ثم وضعها فى الطبق وغطاه وجاء به الى الأمير .. فلما أبصر — الأمير — الطبق رفع غطاءه فرأى رأسا غير رأس أحمد اليتيم .. فأحضر الأمير أحمد اليتيم ، فسأله عما فعل ، فأخبره بما كان ، فقال الأمير : أتعرف لهذا الخادم ذنبا ؟ فقال : نعم ، انه فعل كذا وكذا مع الجارية وقد سألانى بالله وبك أن أكتم الخبر ..

فلما سمع الأمير ذلك أمر بقتل الجارية ، وعاد الى ما كان عليه من محبة أحمد واكرامه ، وكانت هذه عاقبة الوفاء ، ونهاية الخيانة **« ولا يحيق المكر السيء الا بأهله »** !! صدق الله العظيم .

* * *

فعلى الأخت المسلمة : أن تذكر هذا حتى تبتعد عن المكر السيء الذى لا يحيق الا بأهله .. كما عرفنا ، وحتى تكون كذلك ان شاء الله من المسلمات المؤمنات القانتات التائبات العابدات السائحات ..

وحسبها ان أرادت لنفسها ولغيرها من الرجال خيرا : أن تبتعد عن أسلوب الاثارة للشهوات الغرائزية والذى كثيرا ما كان سببا فى فساد الكثيرين من الرجال الذين لم يستطيعوا بسبب ضعف ايمانهم وعدم غض أبصارهم كما أمرهم الله تعالى : أن يقاوموا هذا الأسلوب الغرائزى المشار اليه فى الحديث الشريف الوارد :

عن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « كل عين زانية[1] ، والمرأة اذا استعطرت[2] ، فمرت بالمجلس

---

(١) يعنى كل عين نظرت الى أجنبية قصدا ، والمراد أنها كالزانية فى الاثم .

(٢) يعنى وضعت العطر على بدنها وثيابها .

فهى كذا وكذا ، يعنى زانية »[١] رواه أبو داوود والترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح .

ورواه النسائى ، وابن خزيمة ، وابن حبان فى صحيحهم ، ولفظهم : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أيما امرأة استعطرت ، فمرت على قوم ليجدوا ريحها[٢] ، فهى زانية[٣] ، وكل عين زانية » رواه الحاكم أيضا ، وقال : صحيح الاسناد .

حتى ولو كانت المرأة ذاهبة الى المسجد ، فانه يجب عليها أن لا تتطيب .. وان فعلت ذلك ، فانه يطلب منها أن ترجع ..

فعن أبى موسى بن يسار رضى الله عنه ، قال : مرت بأبى هريرة امرأة وريحها تعصف[٤] ، فقال لها : أين تريدين يا أمة الجبار[٥] ، قالت : الى المسجد . قال : وتطيبت ؟ قالت : نعم . قال : فارجعى فاغتسلى ، فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يقبل الله من امرأة صلاة خرجت الى المسجد ، وريحها تعصف حتى ترجع فتغتسل » رواه ابن خزيمة فى صحيحه . قال : باب ايجاب الغسل على المطيبة للخروج الى المسجد ، ونفى قبول صلاتها ان صلت قبل أن تغتسل ، ان صح الخبر .

وهذا الحديث وان كان ضعيفا — بصرف النظر عن موضوع الغسل وعدم صحة الصلاة — الا أنه من الخير لها ولمن فى الطريق والمسجد أن لا تخرج من بيتها متطيبة حتى لا تلفت الأنظار والقلوب اليها .. وخير لها أن تصلى فى بيتها :

فعن أم حميد امرأة أبى حميد الساعدى رضى الله عنهما أنها جاءت الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله .. انى أحب الصلاة معك[٦] ، قال : « علمت أنك تحبين الصلاة معى ، وصلاتك

---

(١) لأنها وجهت الأنظار اليها ، وحركت اليها شهوة الرجال .

(٢) يعنى أنها قصدت بالمرور عليهم أن يشموا ريحها .

(٣) وذلك لتعمدها جذب قلوب الرجال اليها وتحريك رغباتهم نحوها .

(٤) يعنى تفوح وتنتشر بشدة .

(٥) يريد أن يقول لها : يا أمة الجبار سبحانه وتعالى .. وقد سألها ليعرف وجهتها ليبين لها الحكم ان كانت ذاهبة الى المسجد .

(٦) لأن صلاته عليه الصلاة والسلام أكمل صلاة وأتمها ، وقراءته أحسن قراءة وأجملها ..

فى بيتك خير من صلاتك فى حجرتك[١] ، وصلاتك فى حجرتك خير من صلاتك فى دارك ، وصلاتك فى دارك[٢] خير من صلاتك فى مسجد قومك[٣] ، وصلاتك فى مسجد قومك خير من صلاتك فى مسجدى[٤] . قال : فأمرت فبنى لها مسجد فى أقصى شىء من بيتها وأظلمه[٥] ، وكانت تصلى فيه حتى لقيت الله عز وجل » رواه أحمد وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « المرأة عورة وانها اذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان ، وانها لا تكون أقرب الى الله منها فى قعر بيتها » رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله رجال الصحيح .

وحول موضوع أن المرأة عورة ، قال فى النهاية : « جعلها نفسها عورة لأنها اذا ظهرت يستحيا منها كما يستحيا من العورة » اه .

ثم يستكمل هذا — شارح « الترغيب والترهيب[٦] ، فيقول : والعورة الخلل فى ثغر البلاد وغيره يخاف فيه ، ومنه قوله تعالى : « **أن بيوتنا عورة** »[٧] يعنى ممكنة لمن أرادها غير محصنة ، والعورة من الجبال شقوقها ، ومن الشمس مشرقها ومغربها . والعورة أيضا كل ممكن الستر وكل أمر يستحيا منه ، وكل شىء يستره الانسان من أعضائه أنفة وحياء والجمع عورات ، قال تعالى : « **ثلاث عورات لكم ..** »[٨] أراد بها الأوقات الثلاثة التى نهى عن الدخول فيها للمماليك والصغار الا بعد الاستئذان وهى نصف النهار وآخر الليل

---

(١) المكان بالبيت المكان المعد للنوم وهو المخدع ولا شك انه يكون فى أقصى مكان من الدار فهو أبلغ فى التستر .

(٢) وكذلك الحجرة أخص من الدار فالصلاة فيها أقرب الى التخفى والاحتجاب .

(٣) فان الدار لا يدخلها أحد الا بالاستئذان وكل من معها فى الدار من محارمها بخلاف المسجد .

(٤) فانظر كيف فضل صلاتها فى مسجد قومها على صلاتها فى مسجده مع أن الصلاة فيه بألف صلاة فيما سواه .

(٥) فهذا دليل على فضل ملازمة المرأة بيتها وصلاتها فيه وأنه أفضل لها من شهود الصلاة فى المسجد جماعة .

(٦) وهو فضيلة الشيخ خليل الهراس رحمه الله .

(٧) الأحزاب : ١٣ (٨) النور : ٥٨

وبعد العشاء الآخرة ، وقوله تعالى : « **الذين لم يظهروا على عورات النساء** »[١] يعنى لم يبلغوا الحلم .

ثم يقول حول معنى : « استشرفها الشيطان » : يقال : استشرف الشيء رفع بصره اليه باسطا كفه فوق حاجبه ، ويقال استشرفه حقه ظلمه ، واستشرف الشاة .. تفقدها ليأخذها سالمة العيوب ، ومعنى استشرفها الشيطان : لازمها فى خروجها وأغرى الرجال بالتطلع اليها .

وفى رواية عند الطبرانى ، قال : « النساء عورة ، وان المرأة لتخرج من بيتها وما بها بأس[٢] فيستشرفها الشيطان[٣] ، فيقول : انك لا تمرين بأحد الا أعجبته[٤] ، وان المرأة لتلبس ثيابها[٥] ، فيقال : أين تريدين ؟ فتقول : أعود مريضا[٦] ، أو أشهد جنازة[٧] ، أو أصلى فى مسجد[٨] ، وما عبدت امرأة ربها مثل أن تعبده فى بيتها » واسناده حسن .

وذلك لأن عبادة المرأة فى بيتها حيث السكن والستر والسلامة من الفتنة أفضل من خروجها ولو لعمل من أعمال الخير التى مثل لها بعيادة المريض وشهود الجنازة والصلاة فى المسجد .

ولأنها تكون — فى بيتها — حينئذ فى حرز من نظر الرجال اليها وفى مأمن من الفتن ، فلا غرو تكون أقرب الى العفة والفضيلة وبالتالى تكون أقرب الى الله عز وجل لتخلقها بالأخلاق التى يحبها .

* * *

ومع هذا كله ، فان النبى صلى الله عليه وسلم لم يأمر أصحابه بمنع نسائهم من الصلاة فى المساجد ، وانما نهاهم عن منعهن ..

فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) النور : ٣١

(٢) يعنى أنها تخرج سليمة النية طاهرة الذيل بعيدة عن وساوس الشيطان .

(٣) أى يركبها ويصاحبها .

(٤) فيحملها على التزين عند الخروج ليزداد نظر الرجال اليها واعجابهم بها .

(٥) يعنى تتهيأ للخروج .

(٦) أى أزور مريضا من مرضى المسلمين رغبة فى حصول الثواب .

(٧) أى أحضر جنازة مسلم واتبعها .

(٨) يعنى أشهد الصلاة فى المسجد جماعة .

وسلم : « لا تمنعوا نساءكم المساجد ، وبيوتهن خير لهن » رواه أبو داوود .

وفى رواية : « لا تمنعوا اماء الله وليخرجن تفلات » .

وفى أخرى : « اذا استأذنت أحدكم امرأته الى المسجد فلا يمنعها » :

أى اذا كانت ستلتزم[1] بأدب الاسلام ، الذى سيخرجها عن : حد التبرج : الذى لخصه صاحب كتاب « الحلال والحرام فى الاسلام[2] تحت عنوان :

ما يخرج المرأة عن حد التبرج

حيث يقول : والذى يخرج المرأة المسلمة عن حد التبرج ويسمها بأدب الاسلام أن تلتزم الآداب الآتية :

(أ) غض البصر : فان أثمن زينة للمرأة هو الحياء ، وأبرز عنوان للحياء هو غض البصر . قال تعالى : **« وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن »**[3] .

(ب) عدم الاختلاط بالرجال اختلاط تلاصق وتماس ، كما يحدث فى دور السينما ومدرجات الجامعات وقاعات المحاضرات ومركبات النقل ونحوها فى هذا الزمان . وقد روى معقل بن يسر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « لأن يطعن فى رأس أحدكم بمخيط من حديد ، خير له من أن يمس امرأة لا تحل له »[4] .

المخيط : ما يخاط به كالابرة والمسلة ونحوهما .

(جـ) أن تكون ملابسها موافقة لأدب الشرع الاسلامى . واللباس الشرعى هو الذى يجمع الأصاف التالية :

١ — أن يغطى جميع الجسم ، عدا ما استثناه القرآن .. وهو على الأرجح : الوجه والكفان .

٢ — ألا يشف ويصف ما تحته . فقد أخبر النبى صلى الله عليه

---

(١) سواء أكان خروجها الى المسجد أو الى الطريق لقضاء اى مصلحة مشروعة .

(٢) وهو الدكتور يوسف القرضاوى أثابه الله .

(٣) النور : ٣١

(٤) قال المنذرى : رواه الطبرانى والبيهقى ، ورجال الطبرانى ثقات . رجال الصحيح .

وسلم : « أن من أهل النار نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات .. لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها » ، ومعنى كاسيات عاريات : أن ثيابهن لا تؤدى وظيفة الستر فتصف ما تحتها لرقتها وشفافيتها .

دخلت نسوة من بنى تميم على عائشة — رضى الله عنها — وعليهن ثياب رقاق ، فقالت عائشة : « ان كنتن مؤمنات فليس هذا بثياب المؤمنات » .

وأدخلت عليها امرأة عروس عليها خمار رقيق شفاف ، فقالت : لم تؤمن بسورة « النور » امرأة تلبس هذا .

٣ — ألا يحدد أجزاء الجسم ، ويبرز مفاتنه ، وان لم يكن رقيقا شفافا ، كتلك الثياب التى رمتنا بها حضارة الجسد والشهوة — أعنى الحضارة الغربية — التى يتسابق مصممو الأزياء فيها فى تفصيل الثياب التى تبرز النهود والخصور والأرداف ونحوها ، بصورة تهيج الغرائز وتثير الشهوات الدنيا ، فلابساتها كاسيات عاريات أيضا ، وهى أشد اغراء وفتنة من الثياب الرقيقة الشفافة .

٤ — ألا يكون مما يختص بلبسه الرجال كالبنطلون فى عصرنا ، وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم لعن المتشبهات من النساء بالرجال ، كما لعن المتشبهين من الرجال بالنساء ، ونهى المرأة أن تلبس لبسة الرجل ، والرجل أن يلبس لبسة المرأة .

٥ — ألا يكون لباسا اختص بلبسه الكافرات من اليهوديات والنصرانيات والوثنيات ، فان قصد التشبه بهؤلاء محظور فى الاسلام الذى يريد لرجاله ونسائه التميز والاستقلال فى المظهر والمخبر ، ولهذا أمر بمخالفة الكفار فى أمور كثيرة . وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من تشبه بقوم فهو منهم » .

(د) أن تلتزم الوقار والاستقامة فى مشيتها وفى حديثها وتتجنب الاثارة فى سائر حركات جسمها ووجها ، فان التكسر والميوعة من شأن الفاجرات لا من خلق المسلمات . قال تعالى : **« فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض »**[1] .

(هـ) ألا تتعمد جذب انتباه الرجال الى ما خفى من زينتها بالعطور أو الرنين أو نحو ذلك . قال تعالى : **« ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن »**[2] .

---

(١) الأحزاب : ٣٢ (٢) النور : ٣١

فقد كانت المرأة فى الجاهلية حين تمر بالناس تضرب برجلها ، ليسمع قعقعة خلخالها فنهى القرآن عن ذلك ، لما فيه من اثارة لخيال الرجال ذوى النزعات الشهوانية ، ولدلالته على نية سيئة لدى المرأة فى لفت أنظار الرجال اليها والى زينتها .

ومثل هذا فى الحكم ما تستعمله المرأة من ألوان الطيب والعطور ذات الروائح الفائحة ، لتستثير الغرائز ، وتجذب اليها انتباه الرجال ، وفى الحديث : « المرأة اذا استعطرت فمرت بالمجلس فهى كذا وكذا ، يعنى زانية »[1] .

ومن هنا نعلم أن الاسلام لم يفرض على المرأة — كما يقال — أن تظل حبيسة البيت ، لا تخرج منه الا الى القبر ، بل أباح لها الخروج للصلاة وطلب العلم وقضاء الحاجات ، وكل غرض دينى أو دنيوى مشروع . كما كان يفعل ذلك نساء الصحابة ومن بعدهم من خير القرون .

وكان منهن من يخرج للمشاركة فى القتال والغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الخلفاء والقواد . وقد قال عليه الصلاة والسلام لزوجه سودة : « قد أذن الله لكن أن تخرجن لحوائجكن »[2] وقال : « اذا استأذنت امرأة أحدكم الى المسجد فلا يمنعها »[3] وفى حديث آخر : « لا تمنعوا اماء الله مساجد الله .. »[4] .

وقد ذهب بعض العلماء المتشددين الى أن المرأة يحرم عليها أن تنظر الى أى جزء من الرجل ، مستدلين بما رواه الترمذى عن نبهان مولى أم سلمة أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال لها ولميمونة ، وقد دخل عليهما ابن أم مكتوم : « احتجبا » فقالتا : انه أعمى . قال : « أفعمياوتان أنتما ؟ ألستما تبصرانه » ؟ ولكن المحققين قالوا : ان هذا الحديث غير صحيح عند أهل النقل ، لأن راويه عن أم سلمة نبهان مولاها وهو ممن لا يحتج بحديثه .

وعلى تقدير صحته فان ذلك منه عليه السلام تغليظ على أزواجه لحرمتهن ، كما غلظ عليهن أمر الحجاب ، كما أشار اليه أبو داوود وغيره من الأئمة .. ويبقى معنى الحديث الصحيح الثابت ، وهو أن النبى صلى

---

(١) وقد سبق تخريج هذا الحديث .
(٢) رواه البخارى فى كتاب النكاح .
(٣) رواه البخارى .
(٤) رواه مسلم .

الله عليه وسلم أمر فاطمة بنت قيس أن تقضى عدتها فى بيت أم شريك ثم استدرك فقال : « تلك امرأة يغشاها أصحابى ، اعتدى عند ابن أم مكتوم فانه رجل أعمى ، تضعين ثيابك ولا يراك »[1] .

ثم يقول بعد ذلك فى « الحلال والحرام فى الاسلام » : تحت عنوان : خدمة المرأة ضيوف زوجها :

وأوضح من ذلك أن للمرأة أن تقوم بخدمة ضيوف زوجها فى حضرته ، ما دامت متأدبة بأدب الاسلام فى ملبسها وزينتها وكلامها ومشيها ، ومن الطبيعى أن يروها وتراهم فى هذه الحال ، ولا جناح فى ذلك اذا كانت الفتنة مأمونة من جانبها وجانبهم .

روى الشيخان وغيرهما عن سهل بن سعد الأنصارى ، قال : « لما أعرس أبو أسيد الساعدى ، دعا النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فما صنع لهم طعاما ولا قدم اليهم الا امرأته أم أسيد ، بلت تمرات فى تور — أى اناء — من حجارة ، من الليل ، فلما فرغ النبى صلى الله عليه وسلم من الطعام أماثته له — أى مرثته بيدها — فسقته ، تتحفه بذلك » .

ففى هذا الحديث — كما قال شيخ الاسلام ابن حجر — : جواز خدمة المرأة زوجها ومن يدعوه .. ولا يخفى أن محل ذلك عند أمن الفتنة ، ومراعاة ما يجب عليها من الستر ، وجواز استخدام الرجل امرأته فى مثل ذلك . فاذا لم تراع المرأة ما يجب عليها من الستر — كأكثر نساء هذا الزمن — فان ظهورها للرجال يصير حراما .

* * *

فعلى الأخت المسلمة أن تلاحظ كل هذا وتنفذه حتى تكون مسلمة بمعنى الكلمة ، وحتى لا تكون فتنة للرجال .. كما يشير الحديث الشريف الذى يقول فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء »[2] : أى أشد ضررا .

وعليها كذلك اذا أرادت أن تدخل الجنة أن تنفذ ما ذكر فى هذا الحديث الشريف الذى يقول فيه صلوات الله وسلامه عليه :

---

(١) انظر تفسير القرطبى ج ١٢ ص ٢٢٨

(٢) ورد هذا فى حديث رواه مسلم والنسائى ، بلفظ : « فما تركت بعدى ... » الحديث .

« آذا أدت المرأة فرضها ، وصامت شهرها ، وحفظت فرجهـا ، وأطاعت زوجها : دخلت الجنة » .

* * *

وحسبها أن تعلم ــ فى النهـاية ــ أنها ان نفذت كل هذا ستفوز فوزا عظيما .. كما يشير الى هذا قول الله تبارك وتعالى :

« ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصـائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجـرا عظيمـا »(١) .

وأن تعلم كذلك أنها بسبب تنفيذ كل هـذا ان شاء الله : ستكون ريحانة لا شيطانة ، وستكون عونا لزوجها وكل أفراد أسرتها على الخـير لا على الشر :

فقد قرأت أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، سمع رجلا يقول :

ان النسـاء شـياطين خلقن لنـا

نعـوذ بالله من شـر الشـياطين

فرد عليـه رضى الله عنه ، بقوله :

ان النسـاء رياحين خلقـن لنـا

وكلنـا يشـتهى شـم الرياحين

كما قرأت دعاء لداوود عليـه السلام يقول فيه : « اللهم انى أسألك أربعا وأعوذ بك من أربع : أسألك : لسانا صادقا ، وقلبا خاشعا ، وبدنا صابرا ، وزوجة تعيننى على أمر دنياى وأمر آخرتى .

وأعوذ بك : من ولد يكون على سيدا ، ومن زوجة تشيبنى قبل وقت المشيب ، ومن مال يكون مشبعة لغيرى بعد موتى ويكون حسابه فى قبرى ، ومن جار سوء ان رأى حسنة كتمها وان رأى سـيئة أذاعها وأفشـاها » .

أسأل الله تعالى أن يتقبل منا جميعا هـذا الدعاء كما تقبله من عبده داوود عليـه السلام : آمين .. آمين .. آمين ..

* * *

---

(١) الأحزاب : ٣٥

الجزء التاسع عشر

الوصية السابعة والخمسون

عن أبى أمامة صدى بن عجلان الباهلى رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب فى حة الوداع ، فقال :

« اتقوا الله ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدوا زكاة أموالكم ، وأطيعوا أمراءكم : تدخلوا جنة ربكم » ..

(رواه الترمذى فى آخر كتاب الصلاة وقال : حديث حسن صحيح) .

* * *

فكن أخا الاسلام :

منتفعا بهذه الوصية العظيمة التى بدأها صلوات الله وسلامه عليه — كعادته فى أغلب وصاياه — بتقوى الله تعالى .. لأنها — كما عرفنا قبل ذلك — رأس الأمر كله ، كما جاء فى نص وصية أخرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيها لأبى ذر رضى الله عنه : « أوصيك بتقوى الله فانها رأس الأمر كله »[1] : أى أن التقوى بالنسبة للعبادة كالرأس بالنسبة للجسد ، فكما أنه لا حياة للانسان بدون رأس كذلك لا معنى للعبادة بدون تقوى .

ولعل هذا هو السر فى أن الله تعالى قد أوصانا بالتقوى كما أوصى بها الأمم السابقة ، كما يشير الى هذا قوله تعالى :

« .. ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله .. »[2] .

---

(١) ارجع الى الوصية الثالثة من وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) النساء : ١٣١

قال القرطبى : الأمر بالتقوى كان عاما لجميع الأمم .. « **واياكم** » عطف على « **الذين** » . « **أن اتقوا الله** » فى موضع نصب ، قال الأخفش : أى بأن اتقوا الله . وقال بعض العارفين : هذه الآية هى رحى القرآن ، لأن جميعه يدور عليها .

* * *

واذا أردنا أن نعرف حقيقة التقوى ، ومكانة أهلها عند الله تبارك وتعالى : فحسبنا أن نقرأ ما قاله القرطبى ، حول قوله تبارك وتعالى : « **ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين** »[1] : فقد قال ما خلاصته :

خص الله تعالى المتقين بهدايته وان كان هدى للخلق أجمعين تشريفا لهم ، لأنهم آمنوا وصدقوا بما فيه .

وروى عن أبى روق أنه قال : هدى للمتقين ، أى كرامة لهم ، يعنى انما أضاف اليهم اجلالا لهم وكرامة لهم وبيانا لفضلهم . وأصل : للمتقين : للموتقيين بياءين مخففتين حذفت الكسرة من الياء الأولى لثقلها ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين وأبدلت الواو تاء على أصلهم فى اجتماع الواو والتاء وأدغمت التاء فى التاء فصار للمتقين .

ثم يقول : التقوى يقال أصلها فى اللغة : قلة الكلام ، حكاه ابن فارس . قلت : ومنه الحديث : « التقى ملجم والمتقى فوق المؤمن والطائع » وهو الذى يتقى بصالح عمله وخالص دعائه عذاب الله تعالى ، مأخوذ من اتقاء المكروه بما تجعله حاجزا بينك وبينه ، كما قال النابغة :

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

وقال آخر :

فألقت قناعا دونه الشمس واتقت
بأحسن موصولين كف ومعصم

وخرج أبو محمد عبد الغنى الحافظ من حديث سعيد بن زربى أبى عبيدة عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن ابن مسعود ، قال : قال يوما لابن أخيه : يا ابن أخى .. ترى الناس ما أكثرهم ؟ قال : نعم ، قال : لا خير فيهم الا تائب أو تقى ، ثم قال : يا ابن أخى .. ترى الناس ما أكثرهم ؟ قلت : بلى ، قال : لا خير فيهم الا عالم

---

(١) البقرة : ٢

أو متعلم • وقال أبو يزيد البسطامى : المتقى من اذا قال قال الله ، ومن اذا عمل عمل الله •

وقال أبو سليمان الدارانى : المتقون الذين نزع عن قلوبهم حب الشهوات •

وقيل : المتقى الذى اتقى الشرك وبرىء من النفاق • قال ابن عطية : وهذا فاسد لأنه قد يكون كذلك وهو فاسق •

وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبيا عن التقوى ، فقال : هل أخذت طريقا ذا شوك ؟ قال : نعم ، قال : فما عملت فيه ؟ قال : تشمرت وحذرت ، قال : فذاك التقوى •

فأخذ هذا المعنى ابن المعتز فنظمه :

خل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة ان الجبال من الحصى

ثم يقول القرطبى : التقوى ، فيها جماع الخير كله ، وهى وصية الله فى الأولين والآخرين ، وهى خير ما يستفيده الانسان ، كما قال أبو الدرداء — رضى الله عنه — وقد قيل له : ان أصحابك يقولون الشعر وأنت ما حفظ عنك شىء ، فقال :

يريد المرء أن يؤتى منـاه ويأبى الله الا ما أرادا
يقول المرء فائدتى ومالى وتقوى الله أفضل ما استفادا

وروى ابن ماجه فى سننه عن أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « ما استفاد المرء[1] بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة ان أمرها أطاعته ، وان نظر اليها سرته ، وان أقسم عليها أبرته ، وان غاب عنها نصحته فى نفسها وماله » •

والأصل فى التقوى : وقوى على وزن فعلى ، فقلبت الواو تاء من وقيته أقيه أى منعته ، ورجل تقى أى خائف ، أصله وقى ، وكذلك تقاة كانت فى الأصل وقاة كما قالوا : تجاه وتراث ، والأصل وجاه ووراث • اهـ •

* * *

(١) فى الجامع الصغير : « المؤمن » بدل المرء •

وأجمع وصف للتقوى ، قول الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه عندما سئل عن التقوى فقال : هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والاستعداد ليوم الرحيل ، والرضا بالقليل .

ولهذا ، حسبنا اذا أردنا أن نكون من المتقين حقا : أن ننفذ هذا الوصف الذى وصفه على كرم الله وجهه للتقوى ، والذى معناه أن عليا كرم الله وجهه كان من كبار المتقين .. وكيف لا ، وهو الذى تربى فى أحضان الرسول صلى الله عليه وسلم وأخذ عنه الكثير والكثير من الايمان والتقوى .. حتى صار جديرا بأن يقول وهو صادق : « سلونى ، وسلونى ، وسلونى عن كتاب الله ما شئتم .. فوالله ما من آية من آياته الا وأنا أعلم أنزلت فى ليل ، أم فى نهار » .

ولهذا كما رأينا ، فقد وصف التقوى وصفا دقيقا على أساس من القرآن والسنة ، وعلى أساس من معايشته لها فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم القولية والفعلية التى كانت خلقا عظيما يحتذى به الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

واذا كان قد بدأ الوصف بقوله : « هى الخوف من الجليل » ، فالجليل هو الله سبحانه وتعالى الذى يجب علينا أن نكون على وجل منه سبحانه الى أن نلقاه ، لأنه سبحانه وتعالى هو الذى يعلم حقيقة كل واحد منا .. وهو وحده الذى يقرر اذا كان « فلان » من الأتقياء أم لا . فهو القائل سبحانه :

« فلا تزكوا أنفسكم ، هو أعلم بمن اتقى »[1] .

ولهذا كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه — وهو من هو — اذا مدح يقول : اللهم اجعلنى خيرا مما يظنون ، واغفر لى ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون .

وذلك حتى لا يتسرب الغرور الى قلبه فيكون سببا فى غفلته ، أو تكاسله فى طاعة الله .. اعتمادا على هذا المدح الذى سمعه من هؤلاء المداحين الذين لا يعرفون عنه غير الظاهر فقط :

الله يدرى كل ما تضمر ... يعلم ما تخفى وما تظهر
وان خدعت الناس لم تستطع ... خداع من يطوى ومن ينشر

وفى الحديث القدسى ، يقول الله تبارك وتعالى : « لا أجمع على

---

(١) النجم : ٣٢

عبـــدى خوفين ولا أجمع له أمنين ، اذا أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة ، واذا خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة » رواه ابن المبارك عن الحسن مرسلا • ورواه أبو نعيم عن شداد بن أوس موصولا بلفظ : « ان هو أمننى فى الدنيا أخفته يوم أجمع عبادى ، وان هو خافنى فى الدنيا أمنته يوم أجمع عبادى » •

والحديث ذكره السيوطى فى الجامع الصغير باللفظ الثانى وعزاه الى الحلية ، قال المصنف فى شرحه : ورواه البزار ، والبيهقى عن أبى هريرة •

والمعنى ــ كما يقول فى شرح « الاتحافات السنية بالأحاديث القدسية »[1] ــ : أن الله سبحانه يخبرنا أنه لا يجمع على عبده خوفين ولا أمنين ، فمن خاف الله تعالى فى الدنيا بأن تباعد عن الذنوب والآثام وأقبل على الطاعات والمندوبات : فان الله لم يخفه يوم القيـــامة من أهوالها وشدائد أحوالها ، وكذلك من أمن عذاب الله فى الدنيا واطمأن بسبب ما يسوله الشيطان له من عظيم عفو الله تعالى فيركن اليه ويسبح فى غمرات الشهوات ويتمتع فى لذات الدنيا ومناهيها ، فان الله سبحانه وتعالى لا يؤمنه يوم القيامة يوم العرض عليـــه بل خفه يوم جمع الناس وعرضهم •

ولا شـــك أنه كلما اشتد خوف العبد من الله فى الدنيا ، كان أبعد عن ارتكاب ما يخل به عقلا وشرعا وعادة ، وكلما قل خوفه كثرت جرأته على المخالفات واتيانها ، فمن كان خوفه فى حياته الدنيا شديدا كان أمنه يوم القيامة أكثر وبالعكس ، وهذا معنى قول بعض العـــارفين : لأن الشخص لمـــا صلى حر مخالفة الهوى فى الدنيا لم يذقه الله كرب الحر فى العقبى •

قال القرطبى : فمن استحى من الله تعالى مما يصنع ، استحى الله عن سؤاله يوم القيامة ولم يجمع عليه حياءين كما لا يجمع عليه خوفين • وقال : الحر الى نار الحق فى الدنيا للمعترف رحمة من عذاب النـــار تفديه من نار السطوة فى الآخرة ، ومحمد عليـــه الصلاة والسلام يعطى الأمن يوم القيامة حتى يتفرغ للشفاعة ، وما ذاك الا من الخوف الذى كان علاه أيام الدنيا فلم يجتمع عليـــه خوفان ، فكل من كان له حـــظ

---

(١) وهو الشيخ محمد منير الدمشقى رحمه الله تعالى .

من اليقين فعاين منه ما ذاق من الخوف بقدر ما ذاق هنا ، قال العارفون : الخوف خوفان ، خوف عقاب وخوف جلال ، والأول يصيب أهل الظاهر ، والثانى يصيب أهل القلوب ، والأول يزول والثانى لا يزول . والله أعلم ..

* * *

وأما العنصر الثانى ، فى وصف التقوى ، وهو : « العمل بالتنزيل » ، فالمراد بالتنزيل ، أى القرآن الكريم الذى أنزله الله تبارك وتعالى على محمد صلوات الله وسلامه عليه لكى يكون دستورا دائما للأمة الاسلامية ، ومنهجا قويما ينفذ كل ما فيه من أوامر ، ويجتنب كل ما فيه من منهيات .. الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. لأن القرآن الكريم هو مأدبة الله التى أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بأن نتعلم منها ، ونأخذ منها ما شئنا لما شئنا :

ففى مقدمة تفسير القرطبى ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم ، ان هذا القرآن هو حبل الله المتين ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة من تمسك به ، ونجاة من اتبعه ، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق عن رد أحدكم ، فاتلوه فان الله يأجركم بكل حرف عشر حسنات ، أما أنى لا أقول ألم حرف ، ولا ألفين أحدكم واضعا احدى رجليه يدع آن يقرأ سورة البقرة ، فان الشيطان يفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة ، ان أصفر البيوت من الخير ، البيت الصفر — أى الخالى — من كتاب الله » .

وروى الترمذى ، وقال حديث صحيح ، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « يجىء صاحب القرآن يوم القيامة فيقول : يا رب حله ، فيلبس تاج الكرامة ، ثم يقول : يارب زده ، فيلبس حلة الكرامة ، ثم يقول : يا رب ارض عنه فيرضى ، فيقول له : اقرأ وارق ويزاد بكل آية حسنة » .

وروى أبو داوود عن عبد الله بن عمرو ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فان منزلتك عند آخر آية تقرؤها » اهـ . القرطبى بتصرف .

فاذكر أخا الاسلام كل هذا ، حتى تكثر من تلاوة القـرآن بتدبر .. وحتي تكون مع ذلك ان شاء الله من العاملين به فى كل موقع كنت فيه .. حتى يكون حجة لك لا عليك .

ففى القرآن الـكريم يقول تعـالى : « **ان الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور . ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، انه غفور شكور** »(١) .

ويقـول : « **ان هـذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** »(٢) .

هـذا هو القـران نبراس الهدى
دسـتورك الأسـمى المنير المشرق
آياتـه نبـع العـلوم جميعهـا
من قـال لا فهو الغبى الأخـرق
عـلم الطبيعـة والحياة وحـكمة
الايجـاد من تبيـانه تتدفـق
وسياسة الدنيـا بأقـوم شرعـة
بين الورى بسـواه لا تتحـرك
فيـه القضـاء لحـل كل قضـية
عن حلهـا أهل السـياسة أخفقوا
عـودوا الى القـرآن عودة باحث
ترك الهـوى والعقـل حـر مطلق
وخذوا دسـاتير الحيـاة جميعهـا
من آيـه وعلى الخليقـة أشـفقوا
فهو الـدواء لـكل أدواء الـورى
وهو الطبيب لكل سـقم صـدقوا
فالغرب لمـا سـار سـار بنوره
وعـلا وقبل الغرب سـار المشرق
يا قـوم أحمـد مجدكم قرآنـكم
فهـو الكتـاب العـالمى الأصـدق

* * *

---

(١) فاطر : ٢٩ ، ٣٠ (٢) الاسراء : ٩

فلهذا كان من التقوى أن نعمل بالتنزيل ، لأنه كما عرفنا :

« كتاب الله .. فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن اذ سمعته حتى قالوا : « **انا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى الى الرشد** »[1] من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم » حديث شريف رواه الترمذى .

* * *

وأما عن العنصر الثالث فى وصف سيدنا على كرم الله وجهه للتقوى ، وهو : « الاستعداد ليوم الرحيل » : الى الله تبارك وتعالى ، فهو كذلك من أهم ما يجب علينا أن نلاحظه ونكون على أتم استعداد لاستقباله .. لأنه آت لا ريب فيه ان عاجلا وان آجلا :

سيصير المرء يوما ... جسدا ما فيه روح
بين عينى كل حى ... علم الموت يلوح
كلنا فى غفلة ... والموت يغدو ويروح
نح على نفسك ... يا مسكين ان كنت تنوح
لتموتن وان عمـ ... ـرت ما عمر نوح

ولهذا ، فقد قال أبو العتاهية كذلك مشيرا ومذكرا بتلك الحقيقة التى يجب ألا تغيب أبدا عن قلوبنا حتى نستعد دائما وأبدا لما بعدها :

أتلهوا وأيامنا تذهب ... ونلعب والموت لا يلعب ؟
عجبت لذى لعب قد لها ... عجبت ومالى لا أعجب ؟
أيلهو ويلعب من نفسه ... تموت ومنزله يخرب ؟
نرى كل ما ساءنا دائما ... على كل ما سرنا يغلب ؟
نرى الليل يطلبنا والنهار ... ولم ندر أيهما أطلب ؟
أحاط الجديدان جمعا بنا ... فليس لنا عنهما مهرب ؟
وكل له مدة تنقضى ... وكل له أثر يكتب ؟

* * *

---

(١) الجن : ١ ، ٢

فالموت كما رأينـــا وكما هو معلوم لنـــا جميعا حق لا ريب فيـــه ولا مفر منه « الموت الموت .. ليس منه فوت .. ان أقمتم أخذكم .. وان غررتم أدرككم .. الموت معقود بنواصيكم »[١] .

ولكنه سيأتيك بغتة ، ولن يكون هناك موعد محدد بينك وبينه .. فقد يأتيك وأنت فى الطريق ، وقد يأتيك وأنت فى بيتك ، أو فى عملك ، أو فى غربة .

وقد قرأت أثرا جاء فى مضمونه : أن رجلا كان يجلس مع سيدنا سليمان عليـــه السلام فى قصره ببلاد الشام .. فنظر الرجل الى باب المكان الذى يجلس فيه ، فرأى من ينظر من الباب ثم يختفى .. فسأل سليمان عليـــه السلام عن هذا الذى ينظر ثم يختفى ؟ .. فقال له : يبدو أنه ملك الموت .. فارتعد الرجل وظن أن ملك الموت قد جاء من أجله .. ولهذا طلب من سليمان عليه السلام بحق ما بينه وبينه من أخوة وصداقة : أن يأمر الريح بنقله الى أقصى بلاد الهند بعيـــدا عن ملك الموت .. ـــ وكان سليمان عليـــه السلام يعلم مسبقا أنه لن يستطيع أبدا أن يفر من ملك الموت .. فأراد أن يثبت له ولغيره هذا ـــ فأمر الريح فعلا فنقلته الى بلاد الهند .. وبعد فترة وجيزة من الزمان .. عاد ملك الموت الى سليمان عليه السلام .. فسأله : لم كنت هنا من فترة وجيزة ثم ذهبت ثم عدت ؟ فقال له ملك الموت عليه السلام : عندما أتيت الى هنا فى المرة الأولى ورأيت الرجل يجلس معك هنا فى بلاد الشام ، تعجبت ! .. لأننى كنت قد أمرت بقبض روحه بعد لحظات فى أقصى بلاد الهند .. فرأيته هو بنفسه يطلب نقله الى أقصى بلاد الهند وهو يظن أنه يهرب .. مع أنه كان يسهل ما كلفت به !!

والى هـــذا يشير الشاعر فى قوله :

اذا ما حمـــام[٢] المـــرء كان ببلدة
دعتـــه اليهـــا حاجـــة فيطـــير

وصدق الله العظيم فهو القائل :

« **أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة** »[٣] .

ومن أجمل ما قرأت كذلك ما جاء فى مضمونه : أن رجلا من الصالحين

---

(١) من كلام سيدنا على كرم الله وجهه .
(٢) الحمام بكسر الحاء هو الموت .
(٣) النساء : ٧٨

رأى ملك الموت عليه السلام فى منامه ، فسأله : متى سأموت ؟ فبسط له ملك الموت كفه اليمنى بأصابعها الخمس .. فانتبه من نومه يفكر فى هذه الرؤيا وهو يتساءل بينه وبين نفسه : هل سأموت بعد خمسة أعوام أو شهور أو أسابيع أو أيام أو ساعات أو دقائق أو لحظات ؟ .. ولكنه لم يقتنع بتلك التساؤلات .. فذهب الى أحد الصالحين — وقيل الى الامام مالك رحمه الله — وقص عليه الرؤيا .. ثم طلب منه تفسيرا مقنعا لها .. فقال له الامام مالك : ان ملك الموت عليه السلام يذكرك — ببسطه لكفه — بالآية الكريمة التى يقول الله تبارك وتعالى فيها :

« ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت .. »[1] .

* * *

وقد تكون هناك رسل للموت تسبقه الى « فلان » قرب انتهاء أجله .. حتى ينتبه ويبادر بالتوبة الى الله قبل فوات الأوان .. كما جاء فى مضمون هذا الأثر الذى يحكى :

أن ملك الموت عليه السلام كان مؤاخيا ليعقوب عليه السلام .. فقال له سيدنا يعقوب ذات يوم : أريد منك مطلبا أرجو أن تحققه لى بحق ما بيننا من أخوة وصداقة .. قال : وما هو ؟ قال : أن تخبرنى اذا دنا أجلى .. فقال له ملك الموت : لك منى هذا ، ولن أرسل اليك رسولا واحدا ، وانما سأرسل اليك رسولين أو ثلاثة .. وبعد أن اتفقا على هذا ، انصرف ملك الموت ، ثم عاد بعد مدة من الزمان .. فقال له سيدنا يعقوب : أزائرا جئت أم قابضا ؟ فقال : بل قابضا .. فتعجب سيدنا يعقوب — لأنه الى تلك اللحظة التى عاد اليه فيها لم يأته رسول واحد من تلك الرسل الثلاثة التى اتفق معه على ارسالها — ولهذا قال له مذكرا ومعاتبا : وأين رسلك الثلاثة ؟ قال : قد فعلت .. بياض شعرك بعد سواده ، وضعف بدنك بعد قوته ، وانحناء جسمك بعد استقامته ..

هذه رسلى يا يعقوب الى بنى آدم .

* * *

---

(١) لقمان : ٣٤

وقد يقول الأخ الشاب : اذا كان الأمر كذلك .. فاننا نستطيع أن نلهو ونلعب كما نشاء الى أن يأتينا الرسل الثلاثة أو بعضها .. وحينئذ نتوب الى الله ونكثر من فعل الخيرات الى أن نلقى الله .

فأقول لقائل هذا : ان الموت يا أخى لا يترك صغيرا ولا كبيرا .. ما داما قد استوفيا أجلهما .. لأن الله تعالى يقول : « .. **فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ، ولا يستقدمون** »(١) .

واذا كنا نذكر بهذا الأثر الموضوعى ، فلأننا نريد أن يعلم أن الشيخ المسن أنه عندما يبيض شعره ، ويضعف بدنه ، وينحنى ظهره .. فان هـذا سيكون معناه أن الموت قد أصبح على بعد خطوات أو لحظات منه . وذلك حتى يكون دائما وأبدا مستعدا ليوم الرحيل بتلك الأعمال الصالحة التى من الخير له أن يختم له بها .. ففى الحديث الشريف يقول صلوات الله وسلامه عليه : « اذا أراد الله بعبد خيرا استعمله ، قيل : وكيف يستعمله يا رسول الله ؟ قال : يوفقه لعمل صالح قبل الموت ثم يقبضه عليه » .

ولهذا كان من الخير ـ كما علمنا ـ أن يكون الاستعداد للموت من جانب الكبير والصغير مستمرا حتى اذا ما انتهت حياة الانسان هـذا ـ سواء أكان صغيرا أم كبيرا ـ كان فرحا بلقاء الله تبارك وتعالى كبلال رضى الله عنه الذى روى أنه وهو يحتضر كانت ابنته تبكى بجواره وهى تقول : وا أبتاه ، وا كرباه ، وا حزناه .. فانتبه وهى تقول هـذا .. فزجرها ونهرها وهو يقول لها : لا تقولى ذلك .. لا كرب على أبيك بعد اليوم .. اليوم نلقى الأحبة محمدا وحزبه .

* * *

ثم الى الشباب والشيوخ أقدم ـ فى نهاية هـذا العنصر الثالث ـ هذه الأبيات :

تزود من التقوى فانك لا تدرى
اذا جن ليل هل تعيش الى الفجر
فكم من صحيح مات من غير علة
وكم من عليل عاش حينا من الدهر

---

(١) النحل : ٦١

وكم من صغار يرتجى طول عمرهم
وقد دخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من فتى يمسى ويصبح لاهيا
وقد نسجت أكفانه وهو لا يدرى
وكم من عروس زينوها لزوجها
وقد قبضت روحها ليلة القدر

* * *

وأما عن العنصر الأخير فى وصف سيدنا على كرم الله وجهه للتقوى ، وهو : « الرضا بالقليل » ، أى القناعة به ، كما يشير الى هذا قول أحد الحكماء :

كن غنى القلب واقنع بالقليل
مت ولا تطلب معاشا من لئيم
لا تكن للعيش مجروح الفؤاد
انما الرزق على الله الكريم

وهذا الرضا بالقليل معناه الرضا عن الله ، أو بما قسم الله تعالى ، الذى سيكون معناه الغنى الحقيقى عن جميع الناس ، أو ان شئت فقل : الذى به ستكون أغنى الناس كما يشير الى هذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » .

وقوله صلوات الله وسلامه عليه : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس وان الله عز وجل يؤتى عبده ما كتب له من الرزق ، فأجملوا فى الطلب ، خذوا ما حل ودعوا ما حرم » رواه أبو يعلى واسناده حسن ان شاء الله .

وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ليس لابن آدم حق فى سوى هذه الخصال : بيت يكنه ، وثوب يوارى عورته ، وجلف الخبز والماء » رواه الترمذى والحاكم وصححاه ، والبيهقى ولفظه :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل شىء فضل[1] عن ظل بيت ، وكسر خبز ، وثوب يوارى عورة ابن آدم : فليس لابن آدم فيه حق » : قال الحسن : فقلت لحمران : ما يمنعك أن تأخذ ؟ وكان يعجبه الجمال ، قال : يا أبا سعيد .. ان الدنيا تقاعدت بى ..

---

(١) أى زاد .

فمعنى « بيت يكنه » : أى يؤويه ويقيه الأذى والسرقة ، قال فى النهاية : « السكن ما يرد الحر والبرد من الأبنية والمسكن ، وقد كننته أكنه كنا ، والاسم السكن واستكن استتر » .

ومعنى « فضل عن ظل بيت » : أى زاد ، والفضل الزيادة ، تقول أعطنى من فضل مالك ، أى : مما زاد عن حاجتك .

و « الجلف » بكسر الجيم وسكون اللام بعدهما فاء : هو غليظ الخبز وخشنه ، وقال النضر بن شميل : هو الخبز ليس معه ادام .

ويطلق « الجلف » أيضا على حرف الرغيف وعلى كسر الخبز اليابسة .

وروى الطبرانى من حديث فضالة عن أبى أمامة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس .. هلموا الى ربكم ، فان ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، يا أيها الناس انما هما نجدان ، نجد خير ونجد شر ، فما جعل نجد الشر أحب اليكم من نجد الخير » ؟ .

« النجد » هنا فى هذا الحديث : الطريق ، ومنه قوله تعالى : **« وهديناه النجدين »**[1] أى الطريقين : طريق الخير وطريق الشر .

و « ما » فى قوله صلى الله عليه وسلم : « فما جعل .. » : استفهامية ، يعنى : أى شىء جعل نفوسكم تميل الى نجد الشر وتؤثره على نجد الخير .

وعن فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « طوبى لمن هدى للاسلام ، وكان عيشه كفافا وقنع » رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح ، والحاكم ، وقال : صحيح على شرط مسلم ، وقال شارح الجامع الصغير : انه حديث صحيح .

فمعنى « طوبى » أى : العاقبة الطيبة ، وقيل : هى شجرة فى الجنة يسير الراكب فى ظلها مائة عام . وقوله : « لمن هدى للاسلام » يشير اليه قوله تعالى : **« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام »**[2] ، وقد سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن علامة ذلك فقال : « التجافى عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله » .

وحول قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « .. وقنع » ، قال فى

---

(١) البلد : ١٠ (٢) الانعام : ١٢٥

النهاية : « وقد قنع يقنع قنوعا وقناعة بالكسر اذا رضى وقنع بالفتح قنوعا اذا سأل ، ومنه الحديث : « القناعة كنز لا ينفد » لأن الانفاق منها لا ينقطع كلما تعذر عليه شيء من أمور الدنيا قنع بما دونه ورضى ، ومنه الحديث الآخر : « عز من قنع وذل من طمع » لأن القانع لا يذله الطلب ، فلا يزال عزيزا ، وقد تكرر ذكر القنوع والقناعة فى الحديث .

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافا ، وقنعه الله بما آتاه » رواه مسلم والترمذى وابن ماجه .

و « الكفاف » أى الذى ليس فيه فضل عن الكفاية . ومعنى قوله : « وقنعه الله بما آتاه » ، أى : وجعله قانعا وراضيا بما أعطاه سبحانه من الرزق اليسير .

وذلك حتى لا يكون من هؤلاء الذين استطاعت الدنيا أن تتربع على قلوبهم ، حتى أنستهم الله فأنساهم أنفسهم .. وحسبنا اذا أردنا أن نقف على أبعاد هذا .. بل اذا أردنا أن نقف على فضيلة هذا الكفاف أن نقرأ هذا الحديث الشريف :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا — وفى رواية — كفافا » رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه .

قال فى النهاية موضحا معنى القوت أو الكفاف : « أى بقدر ما يمسك الرمق من المطعم » :

وذلك حتى لا ينسوا الله سبحانه وتعالى ، وحتى يكونوا دائما وأبدا على صلة بالله تبارك وتعالى بسؤالهم اياه أن يرزقهم وأن يكلأهم برعايته وفضله .

ولعلنا نلاحظ أن كثيرا من أغنياء الدنيا لا يسألون الله تعالى ولا يتضرعون اليه بدعوى أنهم لا يريدون شيئا .. مع أنهم لو كانوا من العقلاء حقا لعلموا أن الدنيا لا أمان لها ولا دوام لعزها .. فهى كما يقول القائل : « اذا حلت أوحلت ، واذا جلت أوجلت ، واذا كست أوكست ، واذا دنت أودنت .. » وكم من أناس كانوا يملكون الآلاف .. بل والملايين من أموالها .. ثم أصبحوا الآن لا يملكون شيئا من تلك الأموال ، وكم من أناس كانوا لا يملكون وأصبحوا الآن يملكون ويحكمون .. وتلك سنة الله فى خلقه وفى تلك الحياة الأولى التى يعز

الله فيها من يشاء ويذل من يشاء ، والتى يرفع فيها أقـواما ويخفض آخرين .

ولهذا كان لابد لكى يكونوا من الأكياس الذين ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة : أن يتعرفوا على الله فى الرخاء حتى يعرفهم فى وقت الشـدة .

وذلك بالتضرع الى الله تعالى وسؤالهم من فضله ، وكذلك بشكرهم لله تبارك وتعالى بالانفاق بشىء من فضله على الفقراء والمساكين الذين هم اخوانهم فى الانسانية والدين ، والذين قد يكونون منهم فى يـوم من الأيام اذا ما أراد الله تبارك وتعالى هذا .

واذا كنت أقول هـذا ، فلأننى أريد أن يعلم الأخ المسلم أن القناعة من صميم التقوى .. لأنها ستمنعه من الظلم لغيره والاسـتيلاء على قوته بسبب الطمع الذى كثيرا ما كان سببا فى ظلم الآخرين والتطلع الى ما فى أيديهم من متاع الحياة الدنيا للاستيلاء عليه ظلما وعدوانا .

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : « يقول العبد : مالى مالى ، وانما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فاقتنى ، ما سوى ذلك فهو ذاهب ، وتاركه للناس » رواه مسلم .

فلا داعى اذن للطمع وعدم القناعة لأن كل هـذا سيؤدى الى ما لا يحمد عقباه .. وخير لنا جميعا أن نكون من الراضين بما قسـم الله تعـالى .

مع ملاحظة أنه لا مانع شرعا أن تبتغى فضلا من ربك .. كمـا يشير الى هذا قول الله تبارك وتعالى :

« **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم** »[1] ، حتى ولـو أدى هذا الى السفر الى أبعد مكان طلبا للرزق ، كما يشـير الى هـذا قول الله تبارك وتعالى : « **ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة** »[2] .

على شريطة ألا يكون هذا سببا فى ضياع الحقـوق التى أنت مكلف بأدائها والحرص على تحقيقها وتيسيرها ، ولا سيما حقوق جسدك ، وزورك ، وزوجك ، وأولادك :

---

(١) البقرة : ١٩٨ (٢) النساء : ١٠٠

فعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما ، قال : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار » ؟ قلت : بلى ، قال : « فلا تفعل ، قم ونم ، وصم وأفطر ، فان لجسدك عليك حقا ، وان لزورك عليك حقا ، وان لزوجك عليك حقا » رواه البخارى .

فقياسا على هذا الحديث الصحيح ، نقول لك : اذا كنت ستبتغى فضل ربك — بالاضافة الى أعمالك الأساسية أو الوظيفية بعد فراغك — لا مانع ما دمت ستؤدى لكل ذى حق حقه . وما دمت كذلك لن تشغل به عن أداء فريضة الصلاة وفى أوقاتها .. ففى وصية من وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم ، يقول لرجل سأله أن يوصيه عندما رآه مشغولا بدنياه : « لا تتشاغل عما فرض عليك بما ضمن لك : فانه ليس بفائتك ما قسم لك ، ولست بلاحق ما زوى عنك » .

وحسبك يا أخى اذا أردت أن تكون رجلا بمعنى الكلمة : أن تكون من هؤلاء الذين تحدث الله عنهم فى قوله : **« رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب »**[1] .

* * *

والآن .. وبعد أن شرحت لك وصف سيدنا على كرم الله وجهه للتقوى — بما أفاض الله على به — وبما هو ثابت فى كتاب الله وسنة رسوله : أريد أن أجمل لك موضوع التقوى ، حتى لا تنساه ان شاء الله ، وحتى تكون من المتقين الصادقين ، أو الصادقين المتقين :

وذلك بتذكيرك بآية كريمة جمع الله تعالى فيها أهم صفات المتقين ، فقال :

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون »[2] :

---

(١) النور : ٣٧ ، ٣٨ (٢) البقرة : ١٧٧

فهذه الآية الكريمة ــ على ايجازها ــ صورت جميع مكارم الأخلاق . فقد جمعت بين الايمان والعمل ، وبين حقوق الله وحقوق العباد ، وبين جهاد النفوس وجهاد الأعداء ، وبين صلاح الأفراد والجماعات .

واذا كان الله تعالى قد قال فى آخرها بعد ذكر صفات أهل البر : « **أولئك الذين صدقوا ..** » ، أى : فى ايمانهم وادعاء البر .

والصدق فى الآية كذلك : هو الاخلاص الذى يطلب فى العبادات والمعاملات .

« **وأولئـك هم المتقون** » ، أى : الكاملون فى التقـوى ، التى هى الخوف من الله تعالى ، فاذا امتلأ بها قلب العبد أخلص لربه فى السر والعلن ، والغضب والرضا ، والحب والبغض ، واليسر والعسر .

* * *

ولهذا .. فقد أوصانا الرسول صلى الله عليه وسلم فى نص الوصية التى ندور حولها بتقوى الله تعالى ، فقال : « اتقـوا الله » ثم قال : « وصلوا خمسكم » ، أى : الصلوات الخمس المفروضة عليكم ، فى كل يوم وليلة خمس مرات ، والتى فرضها الله تعالى عليكم فى ليلة الاسراء والمعراج [1] وبدون واسطة ومن فوق سبع سموات كهدية من الله تبارك وتعالى لهذه الأمة المحمدية التى جعلها الله تبارك وتعالى : « .. **خير أمة أخرجت للناس ..** » .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال لمعـاذ حين أرسله الى اليمن : « انك ستأتى قوما أهل كتاب فادعهم الى شهادة أن لا اله الا الله وأنى رسول الله ، فان هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله تعالى قد افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليله » .. الحديث ، أخرجه البخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « فرضت على النبى صلى الله تعـالى عليه وعلى آله وسلم الصلوات ليلة أسرى به خمسين ، ثم نقصت حتى جعلت خمسا ، ثم نودى : يا محمـد .. انه لا يبدل القول لدى ، وان لك بهذه الخمس خمسين » . أخرجه أحمد والنسائى والترمذى وصححه .

---

(١) قبل الهجرة بسنة ونصف .

وفى رواية الصحيحين : « هى خمس وهى خمسون » أى أنها خمس فى العدد وخمسون فى الأجر : « **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** »[١] ..

وقد أشار الله تعالى فى قرآنه الكريم ، الى تحديد كل وقت من أوقات الصلوات الخمس ، فقال : « **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل** »[٢] .

فطرفا النهار : أوله وآخره ، فيشمل صلاة الصبح والظهر والعصر ، على التحقيق . « **وزلفا من الليل** » أى : وفى أوائله ، فيشمل المغرب والعشاء .

وقال تعالى : « **أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ، ان قرآن الفجر كان مشهودا** »[٣] .

فدلوك الشمس فى اللغة : ميلها عن وسط السماء ، جهة الغرب ، على الأصح .. ويستمر الدلوك الى الغروب ، فيشمل صلاة الظهر والعصر .

وغسق الليل : أى ظلمته ، فيدخل فيه المغرب والعشاء .

وقرآن الفجر : أى صلاة الفجر . وقد سميت الصلاة قرآنا لكثرة ما يقرأ فيها منه .

قال القرطبى : ذكر الله سبحانه فى كتاب الصلاة ، بركوعها ، وسجودها ، وقيامها ، وقراءتها ، وأسمائها ، فقال : « **أقم الصلاة لدلوك الشمس ..** »[٤] .

وقال : « **فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون** »[٥] .

وقال : « **وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها** »[٦] .

وقال : « **.. اركعوا واسجدوا ..** »[٧] .

وقال : « **وقوموا لله قانتين** »[٨] .

وقال : « **واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا** »[٩] .

---

(١) الأنعام : ١٦٠
(٢) هود : ١١٤
(٣) الاسراء : ٧٨
(٤) الاسراء : ٧٨
(٥) الروم : ١٧ ، ١٨
(٦) طه : ١٣٠
(٧) الحج : ٧٧
(٨) البقرة : ٢٣٨
(٩) الأعراف : ٢٠٤

وقال : « **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ..** »[١] .. أى بقراءتك . وهذا كله مجمل ، أجمله — سبحانه — فى كتابه ، وأحال على نبيه فى بيانه فقال جل ذكره :

« **وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم** »[٢] ، فبين صلى الله عليه وسلم مواقيت الصلاة ، وعدد الركعات ، والسجدات ، وصفة جميع الصلوات : فرضها وسننها ، وعددها ، وما لا تصح الصلاة الا به من الفرائض ، وما يستحب فيها من السنن والفضائل ، فقال كما ورد فى صحيح البخارى : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » ، ونقل ذلك عنه الكافة ، عن الكافة ، على ما هو معلوم ، ولم يمت النبى صلى الله عليه وسلم حتى بين جميع ما بالناس الحاجة اليه . فكمل الدين ، وأوضح السبيل ، قال الله تعالى : « .. **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا ..** »[٣] انتهى[٤] .

* * *

وتحت عنوان :

حكمة تفريق الصلوات الخمس على ساعات النهار والليل

أعجبنى ما كتبه صاحب كتاب « الفقه الواضح »[٥] ، حيث يقول :

لعل الله عز وجل فرق الصلوات الخمس على سائر ساعات النهار والليل ليكون العبد على اتصال دائم بخالقه ، ورازقه ، ومدبر أمره ، فلا تتخطفه الشياطين ، ولا تتفرق به السبل ، ولا تلعب به الأهواء ، ولا تطغى عليه الشهوات ، ولا تلهيه شواغل الدنيا ، عن ذكر ربه تعالى ، ولكى يتزود الانسان من الصلاة الى الصلاة بطاقة روحية ، تجدد فيه الأمل والرجاء ، فى رحمة رب الأرض والسماء ، وتبعث فيه الحيوية والنشاط .

وقد فرق — الله سبحانه — الصلوات الخمس على ساعات النهار والليل — أيضا — ، تيسيرا على عباده ، فلو جمعها عليهم فى وقت واحد ، لكان عليهم فى أدائها عسر ومشقة ، والله لا يريد بعباده الا اليسر .

---

(١) الاسراء : ١١٠ (٢) النحل : ٤٤ (٣) المائدة : ٣

(٤) انتهى أى ما قاله القرطبى فى تفسيره ص ١١٢ وما بعدها ج ٩ ، طبعة دار الكتب المصرية .

(٥) وهو الشيخ محمد بكر اسماعيل . أكرمه الله .

ولو جمع الله الصلاة فى وقت واحد ــ كذلك ــ لفات كثيرا من الناس حضور الجماعة ، اذ ليس كل الناس يفرغ من عمله فى وقت واحد ، ولو تفرغوا فى وقت واحد لتعطل كثير من الأعمال .

وبتفريق الصلاة على هذا النحو ، يتيح للعبد اذا فاتته صلاة فى جماعة ، أن يدرك الأخرى ، فيحصل له ثواب الجماعة ، ولا تفوته مزاياها .

وهناك حكمة أخرى ، لا ينبغى أن تغيب عنا ، وهى : أن الصلوات الخمس كفارات للخطايا ، والعبد يخطىء الفينة[1] بعد الفينة ، فاذا ما أخطأ ، جاءت الصلاة ، فمحت هذا الخطأ كما يمحو الماء وسخ الثياب .

روى الطبرانى ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تحترقون[2] تحترقون ، فاذا صليتم الصبح غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون ، فاذا صليتم الظهر غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون ، فاذا صليتم العصر غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون ، فاذا صليتم المغرب غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون ، فاذا صليتم العشاء غسلتها . ثم تنامون فلا يكتب عليكم حتى تستيقظوا » .

* * *

هذا بالاضافة ، الى أن :

الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر

أى تدفع العبد دفعا الى طاعة الله عز وجل ، وتقوده الى رضوانه ، وتنأى به ــ أى تبتعد ــ عن المعاصى والمنكرات ، وتبغضه فى كل عمل يغضب الله تعالى ، الذى يقول : **« اتل ما أوحى اليك من الكتاب وأقم الصلاة ، ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .. »**[3] .

وانما تنهى الصلاة صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، اذا أداها بخشوع ، وخضوع ، واخلاص ، وحافظ عليها فى أوقاتها ، وأتم ركوعها ، وسجودها ، ولم ينقرها كنقر الغراب ، ووجد فيها روحه وريحانه ، ولم يدخلها وهو كاره لها ، أو متثاقل فى أدائها .

---

(١) أى الوقت بعد الوقت .

(٢) أى تفعلون من الذنوب ما يوجب احتراقكم فى النهار ، وكرر كلمة تحترقون للتأكيد ، وفى هذا التأكيد اشارة الى كثرة ما يقع منا من الذنوب . والله أعلم .

(٣) العنكبوت : ٤٥

قال القرطبى : لا سيما وان أشعر نفسه أن هـذا ربما يكون آخر عمله ، وهذا أبلغ فى المقصود ، وأتم فى المراد ، فان الموت ليس له رسن محدود ، ولا زمن مخصوص ، ولا مرض معلوم ، وهذا مما لاخـلاف فيه . وروى عن بعض السلف أنه كان اذا قام الى الصلاة ارتعد ، واصفر لونه ، فكلم فى ذلك ، فقال : انى واقف بين يدى الله تعـالى . وحق لى هذا مع ملوك الدنيـا ، فكيف مع ملك الملوك ؟ .. فهذه صلاة تنهى — ولابد — عن الفحشاء والمنكر ، ومن كانت صلاته دائرة حول الاجزاء[1] ، لا خشوع فيها ، ولا تذكر ، ولا فضائل ، كصلاتنا — وليتها تجزى — فتلك تترك صاحبها من منزلتـه حيث كان ، فان كان على طريقه معاص تبعده من الله تعالى ، تركته الصـلاة يتمادى على بعده ، وعلى هذا يخرج الحديث المروى عن ابن عباس ، وابن مسعود ، والحسن ، والأعمش ، قولهم : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم تزده من الله الا بعدا ، ولم يزدد بها الا مقتا »[2] انتهى [3] .

ومعنى الحديث — كما قال القرطبى — : أن مرتكب الفحشـاء والمنكر ، لا قدر لصلاته ، لغلبة المعاصى عليه .

ومعنى الحديث — كما قال القرطبى — : أن مرتكب الفحشـاء « **ولذكر الله أكبر** » أى : أن ذكر الله لكم بالثواب والثناء عليكم ، أكبر من ذكركم له فى عبادتكم وصلواتكم .. وهذا القول هو قول ابن مسعود ، وابن عباس ، وأبى الدرداء ، وجمع من الصحابة — رضى الله عنهم — وهو اختيار الطبرى .

ويؤيده ما روى مرفوعا الى النبى صلى الله عليـه وسلم ، من حديث موسى بن عقبة ، عن نافع ، عن ابن عمر ، أن النبى صلى الله عليه وسـلم ، قـال فى قول الله عز وجـل : « **ولذكر الله أكبـر** » قال : « ذكر الله اياكم ، أكبر من ذكركم اياه » .

واذا صح هـذا الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فالقول

---

(١) أى يقصد منها اسقاط الفرض وكفى ، دون النظر الى مرضاة الله تعالى ، والتقرب اليه بها .

(٢) أى بغضا وسخطا .

(٣) أى كلام القرطبى فى تفسيره ج ١٣ ص ٣٤٨ طبعة دار الكتب المصرية .

(٤) « .. **ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ..** » (العنكبوت : ٤٥) .

ما قاله .. وكل قول خالف قول النبى صلى الله عليه وسلم ، لا يعد شيئا .

ويؤيد هذا الحديث — ان صح — قول الله تبارك وتعالى : **« فاذكرونى أذكركم »**[1] .

* * *

ثم يشير بعد ذلك فى الفقه الواضح ، الى فائدة أخرى من فوائد الصلاة ، فيقول متسائلا :

لم كانت الصلاة دون غيرها من العبادات ، تنهى عن الفحشاء والمنكر ؟

ثم يجيب قائلا : لأن الصلاة ذكر ، بل هى الذكر الأكبر . والله سبحانه وتعالى يقول :

« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب »[2] .

ولا ريب أن القلوب المطمئنة بذكر الله ، مستنيرة بنور الله ، فلا يكون للشيطان اليها سبيل ، لأن الشيطان لا يدخل قلبا قد استنار بنور الله . قال تعالى : **« ان عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا »**[3] .

ثم ان القلب المستنير بنور الله يرى الأشياء على حقيقتها : يرى الحق حقا فيتبعه ، والباطل باطلا ، فيبتعد عنه .. والله أعلم .

ثم يتابع بعد ذلك قوله ، فيقول تحت عنوان :

الصلاة مكفرة للذنوب

والصلاة التى يقبل العبد فيها على ربه ، بقلب خالص ، ويؤديها كما ينبغى : تكفر الذنوب ، وتمحو الخطايا ، وترفع الدرجات .. قال تعالى :

« وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، ان الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين »[4] .

والمراد بالحسنات — هنا — الصلوات الخمس .

والمراد بالسيئات : الصغائر .

---

(١) البقرة : ١٥٢ (٢) الرعد : ٢٨

(٣) الاسراء : ٦٥ (٤) هود : ١١٤

أقول : والصغائر يكفرها الصلوات الخمس ، والجمعة الى الجمعة : بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : « الصلوات الخمس ، والجمعة الى الجمعة : كفارة لما بينهن ، ما لم تغش الكبائر » رواه مسلم .

ويكفرها كذلك الاستغفار وقراءة القرآن ، والصدقات .. وكل عمل صالح تتقرب به الى الله تعالى بصدق واخلاص :

على شريطة — كما يشير الحديث — أن نجتنب الكبائر ، وهى ما ورد فيها تحذير شديد ، وغلظت عقوبتها ، وأكبر الكبائر : الشرك بالله ، ويليه : قتل النفس بغير حق ، والزنا ، والسرقة ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، وشرب الخمر ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف — أى من ميدان المعركة ضد أعداء الاسلام — وعمل السحر ، والكذب ، وقول الزور ، وتبذير المال فى غير محله ، والقذف ، وهو : رمى العفيف أو العفيفة بالزنا ..

* * *

وقد جمع أبو طالب المكى رحمه الله تعالى — الكبائر — على النحو التالى :

أربعة فى القلب ، وهى : الشرك بالله تعالى ، والاصرار على معصية الله تعالى ، والقنوط من رحمة الله تعالى ، والأمن من مكر الله تعالى .

وأربعة فى اللسان ، وهى : شهادة الزور ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، واليمين الغموس ، والسحر .

وثلاثة فى البطن ، وهى : شرب الخمر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا وهو يعلم .

واثنان فى اليدين ، وهما : القتل ، والسرقة .

واثنان فى الفرج ، وهما الزنا ، واللواط .

وواحدة فى الرجل ، وهى : الفرار من الزحف .

وواحدة فى جميع البدن ، وهى : عقوق الوالدين .

فيشترط — كما عرفت — أن تجتنب هذه الكبائر ، اذا أردت أن يغفر الله تعالى لك الصغائر التى يكفرها كذلك الوضوء :

فعن عبد الله الصنابحى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « اذا توضأ العبد فمضمض خرجت الخطايا من فيه ،

فاذا استنثر[١] خرجت الخطايا من أنفه ، فاذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه[٢] ، فاذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظفار يديه ، فاذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه[٣] ، فاذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظفار رجليه ، ثم كان مشيه الى المسجد وصلاته نافلة » — أى زائدة — رواه مالك والنسائى ، وابن ماجه والحاكم وقال : صحيح على شرطهما ، ولا علة له ، والصنابحى : صحابى مشهور • وقال الشوكانى فى « نيل الأوطار » الحديث رجاله رجال الصحيح •

* * *

فلاحظ أخا الاسلام هذا الشرط — وهو اجتناب الكبائر — لأن الله تعالى قد اشترطه أساسا فى قرآنه ، فقال : « **ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما** »[٤] •

مع ملاحظة كذلك أن الكبائر لا يكفرها الا التوبة الصادقة ، وبتلك الشروط التى ذكرها الامام النووى فى كتابه « رياض الصالحين » حيث يقول :

اذا كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى ولا تعلق بحق آدمى فلها ثلاثة شروط :

أحدها : أن يقلع عن المعصية •

الثانى : أن يندم على فعلها •

الثالث : أن يعزم على أن لا يعود اليها أبدا • فاذا فقد أحد الثلاثة لا تقبل توبته •

وان كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة : هذه الشروط الثلاثة السابقة ، وأن يبرأ من حق صاحبها :

---

(١) أخرج الماء من أنفه ، ويكون بعد الاستنشاق الذى هو جذب الماء الى الأنف .

(٢) أى من تحت جفونهما . .

(٣) وهذا دليل على أن الأذنين من الرأس ، وأنهما يمسحان معه ببقية ماء الرأس ، وهو مذهب سفيان الثورى وأبى حنيفة ، وذهب مالك والشافعى وأحمد وأبو ثور الى أنه يؤخذ لهما ماء جديد .

(٤) النساء : ٣١

فان كان مالا أو نحوه رده اليه ، وان كان حد قذف ونحوه مكنه منه ، أو طلب عفوه ، وان كانت غيبة استحله منها[1] .

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب .. فان تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب وبقى عليه الباقى .

* * *

وأختم الموضوع هذا بأن النبى صلى الله عليه وسلم قد شبه الصلوات الخمس فى محوها للذنوب ، بنهر جار ، يغتسل منه المسلم فى اليوم والليلة خمس مرات ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم ، يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من درنه شىء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شىء !! قال : فكذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بهن الخطايا » رواه البخارى ومسلم .

وقد روى مسلم — فى صحيحه — عن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « ما من امرىء تحضره صلاة مكتوبة ، فيحسن وضوءها ، وخشوعها ، وركوعها : الا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ، ما لم تؤت كبيرة ، وذلك الدهر كله » .

* * *

فلتكن أخا الاسلام متذكرا لكل هذا ، حتى تكون مؤديا للصلوات الخمس وفى أوقاتها بكل أدب وخشوع يضمن لك الفلاح المشار اليه فى قول الله تبارك وتعالى :

« **قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون** »[2] ، ولن يتحقق الخشوع هذا الا اذا كان المصلى فى صلاته وبين يدى الله تبارك وتعالى : بقلبه قبل قالبه ، والا كان مصل لاه ، كما يشير الى هذا قول المرزبانى رحمة الله تعالى عليه :

يحتاج المصلى الى أربع خصال حتى ترتفع صلاته :
حضور القلب ، وشهود العقل ، وخضوع الأركان ، وخشوع الجوارح :

---

(١) أى طلب منه المسامحة .
(٢) المؤمنون : ١ ، ٢

فمن صلى بلا حضور قلب : فهو مصل لاه ، ومن صلى بلا شهود عقل : فهو مصل ساه ، ومن صلى بلا خضوع الأركان : فهو مصل جاف ، ومن صلى بلا خشوع الجوارح : فهو مصل خاطىء ، ومن صلى بهذه الأركان : فهو مصل واف .

* * *

ولتكن كذلك منفذا لما أوصاك الرسول صلى الله عليه وسلم — بعد ذلك — فى نص الوصية ، بقوله الموجه الينا جميعا نحن المؤمنين ان شاء الله :

« وصوموا شهركم » ، أى : شهر رمضان المبارك ، الذى كتب — أى فرض — الله تعالى علينا صيامه كما كتبه على الذين من قبلنا ، فقال تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »**(١) .

* * *

وحول هذه الآية الكريمة ، أشار القرطبى فى تفسيره لها الى عدة ملاحظات ، منها : باختصار وتصرف :

أن الله تعالى كتب على المؤمنين المكلفين الصيام وألزمهم اياه ، وأوجبه عليهم ، ولا خلاف فيه ، بدليل هذه الآية الكريمة ، وبدليل قوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح الذى رواه ابن عمر : « بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، والحج » .

وأن الصيام فى اللغة : الامساك وترك التنقل من حال الى حال . ويقال للصمت صوم ، لأنه امساك عن الكلام ، قال الله تعالى مخبرا عن مريم عليها السلام : **« .. انى نذرت للرحمن صوما »**(٢) أى سكوتا عن الكلام .

وأن الصوم فى الشرع : الامساك عن المفطرات مع اقتران النية به من طلوع الفجر الى غروب الشمس ، وتمامه وكماله باجتنابه المحظورات ، وعدم الوقوع فى المحرمات ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه من أجله » .

---

(١) البقرة : ١٨٣ (٢) مريم : ٢٦

وأن فضل الصوم عظيم ، وثوابه جسيم ، جاءت بذلك أخبار كثيرة صحاح وحسان ذكرها الأئمة فى مسانيدهم .. ويكفيك الآن منها فى فضل الصوم أن خصه الله بالاضافة اليه كما ثبت فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال مخبرا عن ربه : « يقول الله تبارك وتعالى : كل عمل ابن آدم له الا الصوم فانه لى وأنا أجزى به » .. الحديث . وانما خص الصوم بأنه له ، وان كانت العبادات كلها له لأمرين باين الصوم بهما سائر العبادات ، أحدهما : أن الصوم يمنع من ملاذ النفس وشهواتها ما لا يمنع منه سائر العبادات . الثانى : أن الصوم سر بين العبد وبين ربه لا يظهر الا له ، فلذلك صار مختصا به . وما سواه من العبادات ظاهر ربما فعله تصنعا ورياء فلهذا صار أخص بالصوم من غيره . وقيل غير هذا .

وأن قوله تعالى : « **كما كتب ..** » ، الكاف — فيه — فى موضع نصب على النعت ، والتقدير كتابا كما ، أو صوما كما . أو على الحال من الصيام ، أى كتب عليكم الصيام مشبها كما كتب على الذين ... .

وقال بعض النحاة : الكاف فى موضع رفع نعتا للصيام ، اذ ليس بتعريفه بمحض ، لمكان الاجمال الذى فيه بما فسرته الشريعة ، فلذلك جاز نعته بـ « كما » اذ لا ينعت بها الا النكرات ، فهو بمنزلة : كتب عليكم صيام . وقد ضعف هذا القول . و « ما » فى موضع خفض وصلتها : « **كتب على الذين من قبلكم** » والضمير فى كتب يعود على « ما » . واختلف أهل التأويل فى مواضع التشبيه ، وهى :

قول الشعبى وقتادة وغيرهما : أن التشبيه يرجع الى وقت الصوم وقدر الصوم ، فان الله تعالى كتب على موسى وعيسى — عليهما السلام — صوم رمضان فغيروا وزاد أحبارهم عليهم عشرة أيام ، ثم مرض بعض أحبارهم فنذر ان شفاه الله أن يزيد فى صومهم عشرة أيام ففعل ، فصار صوم النصارى خمسين يوما ، فصعب عليهم فى الحر فنقلوه الى الربيع . واختار هذا القول النحاس وقال : وهو أشبه بـ « ما » فى الآية . وفيه حديث يدل على صحته أسنده عن دغفل بن حنظلة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « كان على النصارى صوم شهر فمرض رجل منهم ، فقالوا : لئن شفاه الله لنزيدن عشرة ، ثم كان ملك آخر فأكل لحما فأوجع فاه ، فقالوا : لئن شفاه الله لنزيدن سبعة ، ثم كان ملك

آخر ، فقالوا : لنتمن هذه السبعة الأيام ، ونجعل صومنا فى الربيع ، قال : فصار خمسين » .

وقال مجاهد : كتب الله عز وجل صوم شهر رمضان على كل أمة . وقيل : أخذوا بالوثيقة[1] فصاموا قبل الثلاثين يوما وبعدها يوما قرنا بعد قرن ، حتى بلغ صومهم خمسين يوما ، فصعب عليهم فى الحر فنقلوه الى الفصل الشمسى . قال النقاش : وفى ذلك حديث عن دغفل بن حنظلة والحسن البصرى والسدى .

ثم يقول القرطبى : قلت : ولهذا — والله أعلم — كره صوم يوم الشك والستة من شوال باثر يوم الفطر متصلا به . قال الشعبى : لو صمت السنة كلها لأفطرت يوم الشك ، وذلك أن النصارى فرض عليهم صوم شهر رمضان كما فرض علينا فحولوه الى الفصل الشمسى لأنه قد كان يوافق القيظ — أى الحر — فعدوا ثلاثين يوما . ثم جاء بعدهم قرن فأخذوا بالوثيقة لأنفسهم فصاموا قبل الثلاثين يوما وبعدها يوما . ثم لم يزل الآخر يستن بسنة من كان قبله حتى صاروا الى خمسين يوما ، فذلك قوله تعالى : « **كما كتب على الذين من قبلكم** » .

وقيل : التشبيه راجع الى أصل وجوبه على من تقدم لا فى الوقت والكيفيـــة .

وقيل : التشبيه واقع على صفة الصوم الذى كان عليهم من منعهم من الأكل والشرب والنكاح ، فاذا حان الافطار فلا يفعل هذه الأشياء من نام . وكذلك كان فى النصارى أولا وكان فى أول الاسلام ، ثم نسخه الله تعالى بقوله : « **أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم** »[2] . قاله السدى وأبو العالية والربيع .

وقال معاذ بن جبل وعطاء : التشبيه واقع على الصوم لا على الصفة ولا على العدة وان اختلف الصيامان بالزيادة والنقصان . المعنى : كتب عليكم الصـــيام أى فى أول الاسلام ثلاثة أيام من كل شهر ويوم عاشوراء ، كما كتب على الذين من قبـــلكم وهم اليهود — فى قـــول ابن عباس — ثلاثة أيام ويوم عاشورا . ثم نسخ هـــذا فى هذه الأمة بشهر رمضان . وقال معاذ بن جبل : نسخ ذلك بـــ « **أياما معدودات** » ثم نسخت الأيام برمضان .

---

(١) الوثيقة : الاحكام فى الأمر . والذى فى الطبرى فأخذوا بالثقة من أنفسهم .

(٢) البقرة : ١٨٧

وأن معنى قوله تعالى : « **لعلكم تتقون** » : فقيل : معناه هنا تضعفون ، فانه كلما قل الأكل ضعفت الشهوة ، وكلما ضعفت الشهوة قلت المعاصى • وهذا وجه مجازى حسن • وقيل : لتتقوا المعاصى • وقيل : هو على العموم ، لأن الصيام كما قال عليه السلام جنة ووجاء وسبب تقوى لأنه يميت الشهوات •

أقول : ولهذا فقد أوصى به الرسول صلى الله عليه وسلم الشباب بصفة خاصة فقال : « يا معشر الشباب •• من استطاع منكم الباءة[1] فليتزوج فانه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء »[2] •

وأن معنى قوله تعالى : « **أياما معدودات** » : أياما ، مفعول ثان بكتب ، قاله الفراء ، وقيل : نصب على الظرف لكتب ، أى : كتب عليكم الصيام فى أيام • والأيام المعدودات : شهر رمضان ، وهذا يدل على خلاف ما روى معاذ ، والله أعلم •

* * *

ثم ينتقل « القرطبى » بعد ذلك الى الأحكام الفقهية المتعلقة بالصيام ، من خلال قول الله تبارك وتعالى :

« •• **فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، فمن تطوع خيرا فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم ، ان كنتم تعلمون** »[3] فيقول : قوله تعالى : « **مريضا** » ، للمريض حالتان : احداهما : ألا يطيق الصوم بحال ، فعليه الفطر واجبا • الثانية : أن يقدر على الصوم بضرر ومشقة ، فهذا يستحب له الفطر ولا يصوم الا جاهل • قال ابن سيرين : متى حصل الانسان فى حال يستحق بها اسم المرض صح الفطر قياسا على المسافر لعلة السفر وان لم تدع الى الفطر ضرورة • قال طريف بن تمام العطاردى : دخلت على محمد بن سيرين فى رمضان وهو يأكل ، فلما فرغ قال : انه وجعت أصبعى هذه •

وقال جمهور من العلماء : اذا كان به مرض يؤلمه ويؤذيه أو يخاف تماديه أو يخاف تزيده صح له الفطر • قال ابن عطية : وهذا مذهب

---

(١) الباءة : أى المنزل والنفقة وأعباء الزواج .

(٢) رواه البخارى ومسلم واللفظ له .

(٣) البقرة : ١٨٤ والتى أولها : « **أياما معدودات** » .

حذاق أصحاب مالك وبه يناظرون • وأما لفظ مالك فهو المرض الذى يشق على المرء ويبلغ به • وقال ابن خويز منداد : واختلفت الرواية عن مالك فى المرض المبيح للفطر ، فقال مرة : هو خوف التلف من الصيام • وقال مرة : شدة المرض والزيادة فيه والمشقة الفادحة • وهذا صحيح مذهبه وهو مقتضى الظاهر ، لأنه لم يخص مرضا من مرض فهو مباح فى كل مرض ، الا ما خصه الدليل من الصداع والحمى والمرض اليسير الذى لا كلفة معه فى الصيام • وقال الحسن : اذا لم يقدر فى المرض على الصلاة قائما أفطر • وقاله النخعى • وقالت فرقة : لا يفطر بالمرض الا من دعته ضرورة المرض نفسه الى الفطر ومتى احتمل الضرورة معه لم يفطر • وهذا قول الشافعى رحمه الله تعالى •

ثم يقول القرطبى مرجحا : قلت : قول ابن سيرين أعدل شىء فى هذا الباب ان شاء الله تعالى • قال البخارى : اعتللت — أى مرضت — بنيسابور علة خفيفة وذلك فى شهر رمضان ، فعادنى اسحاق بن راهويه فى نفر من أصحابه ، فقال لى : أفطرت يا أبا عبد الله ؟ فقلت : نعم • فقال : خشيت أن تضعف عن قبول الرخصة • قلت : حدثنا عبدان عن ابن المبارك عن ابن جريج قال : قلت لعطاء : من أى المرض أفطر ؟ قال : من أى مرض كان ، كما قال الله تعالى : « **فمن كان منكم مريضا** » قال البخارى : وهذا الحديث لم يكن عند اسحاق • وقال أبو حنيفة : اذا خاف الرجل على نفسه وهو صائم ان لم يفطر أن تزداد عينه وجعا أو حماه شدة أفطر •

وقوله تعالى : « **أو على سفر** » : اختلف العلماء فى السفر الذى يجوز فيه الفطر والقصر — فى الصلاة الرباعية — بعد اجماعهم على سفر الطاعة كالحج والجهاد ، ويتصل بهذين صلة الرحم وطلب المعاش الضرورى • وأما سفر التجارات والمباحات فمختلف فيه بالمنع والاجازة ، والقول بالجواز أرجح • وأما سفر العاصى فيختلف فيه بالجواز والمنع ، والقول بالمنع أرجح ، قاله ابن عطية •

ومسافة القصر عند مالك : حيث تقصر الصلاة • واختلف العلماء فى قدر ذلك ، فقال مالك : يوم وليلة • ثم رجع فقال : ثمانية وأربعون ميلا — قال ابن خويز منداد : وهو ظاهر مذهبه — وقال مرة : اثنان وأربعون ميلا • وقال مرة : ستة وثلاثون ميلا • وقال مرة : مسيرة يوم وليلة • وروى عنه يومان ، وهو قول الشافعى • وفصل مرة بين

البر والبحر فقال : فى البحر مسيرة يوم وليلة ، وفى البر ثمانية وأربعون ميـــلا • وفى المذهب ثلاثون ميلا • وفى غير المذهب ثلاثة أميال • وقال ابن عمر وابن عباس والثورى : الفطر فى سفر ثلاثـــة أيام ، حكاه ابن عطية •

ثم يقول القرطبى بعد ذلك : قلت : والذى فى البخارى : وكان ابن عمر وابن عباس يفطران ويقصران فى أربعة برد ، وهى ستة عشر فرسخا •

وقد اتفق العلماء على أن المسافر فى رمضان لا يجوز له أن يبيت الفطر ، لأن المسافر لا يكون مسافرا بالنية بخلاف المقيم ، وانما يكون مسافرا بالعمل والنهوض ، والمقيم لا يفتقر الى عمل ، لأنه اذا نوى الاقامة كان مقيما فى الحين لأن الاقامة لا تفتقر الى عمل فافترقا • ولا خلاف بينهم أيضا فى الذى يؤمل السفر أنه لا يجوز أن يفطر قبـــل أن يخرج ، فان أفطر فقال ابن حبيب : ان كان قد تأهب لسفره وأخذ فى أسباب الحركة فلا شىء عليه• وحكى ذلك عن أصبغ وابن الماجشون • فان عاقه عن السفر عائق كان عليه الكفارة ، وحسبه أن ينجو ان سافر • وروى عيسى عن ابن القاسم أنه ليس عليـــه الا قضاء يوم ، لأنه متأول فى فطره • وقال أشهب : ليس عليه شىء من الكفارة سافر أو لم يسافر • وقال سحنون : عليه الكفارة سافر أو لم يسافر ، وهو بمنزلة المرأة تقول : غـــدا تأتينى حيضتى فتفطر لذلك • ثم رجع الى قول عبد الملك وأصبغ وقال : ليس مثل المرأة ، لأن الرجل يحدث السفر اذا شاء ، والمرأة لا تحدث الحيضة •

ثم يقول القرطبى : قلت : قول ابن القاسم وأشهب فى نفى الكفارة حسن ، لأنه فعل ما يجوز له فعله والذمة بريئة فلا يثبت فيها شىء الا بيقين ولا يقين مع الاختلاف ، ثم انه مقتضى قولـــه تعـــالى : **« أو على ســـفر »** •

وقال أبو عمر : هـــذا أصح أقاويلهم فى هذه المسألة ، لأنه غير منتهك لحرمة الصوم بقصد الى ذلك وانما هو متأول ، ولو كان الأكل مع نية السفر يوجب عليـــه الكفارة لأنه كان قبل خروجه ما أسقطها عنه خروجه • فتأمل ذلك تجده كذلك ان شاء الله تعالى • وقد روى الدارقطنى حدثنا أبو بكر النيسابورى حدثنا اسماعيل بن اسحاق بن سهل بمصر قال : حدثنا ابن أبى مريم حدثنا محمد بن جعفر أخبرنى زيـــد

ابن أسلم ، قال : أخبرنى محمد بن المكندر عن محمد بن كعب أنه قال : أتيت أنس بن مالك فى رمضان وهو يريد السفر وقد رحلت دابته ولبس ثياب السفر وقد تقارب غروب الشمس ، فدعا بطعام فأكل منه ثم ركب . فقلت له : سنة ؟ قال : نعم .

وروى عن أنس أيضا قال : قال لى أبو موسى : ألم أنبأ أنك اذا خرجت خرجت صائما ، واذا دخلت دخلت صائما ؟ فاذا خرجت فاخرج مفطرا واذا دخلت فادخل مفطرا . وقال الحسن البصرى : يفطر ان شاء فى بيته يوم يريد أن يخرج . وقال أحمد : يفطر اذا برز عن البيوت . وقال اسحاق : لا ، بل حين يضع رجله فى الرحل . قال ابن المنذر : قول أحمد صحيح ، لأنهم يقولون لمن أصبح صحيحا ثم اعتل : انه يفطر بقية يومه ، وكذلك اذا أصبح فى الحضر ثم خرج الى السفر فله كذلك أن يفطر . وقالت طائفة : لا يفطر يومه ذلك وان نهض فى سفره . كذلك قال الزهرى ومكحول ويحيى الأنصارى ومالك والأوزاعى والشافعى وأبو ثور وأصحاب الرأى . واختلفوا ان فعل ، فكلهم قال : يقضى ولا يكفر . قال مالك : لأن السفر عذر طارىء فكان كالمرض يطرأ عليه . وروى عن بعض أصحاب مالك أنه يقضى ويكفر ، وهو قول ابن كنانة والمخزومى وحكاه الباجى عن الشافعى .

واختاره ابن العربى وقال به . قال : لأن السفر عذر طرأ بعد لزوم العبادة ويخالف المرض والحيض ، لأن المرض يبيح له الفطر والحائض يحرم عليها الصوم ، والسفر لا يبيح له ذلك فوجبت عليه الكفارة لهتك حرمته . قال أبو عمر : وليس هذا بشىء ، لأن الله سبحانه قد أباح له الفطر فى الكتاب والسنة . وأما قولهم لا يفطر ، فانما ذلك استحباب لما عقده فان أخذ برخصة الله كان عليه القضاء ، وأما الكفارة فلا وجه لها ، ومن أوجبها فقد أوجب ما لم يوجبه الله ولا رسوله صلى الله عليه وسلم . وقد روى عن ابن عمر فى هذه المسألة : يفطر ان شاء فى يومه ذلك اذا خرج مسافرا ، وهو قول الشعبى وأحمد واسحاق .

ثم يقول القرطبى بعد ذلك : قلت : وقد ترجم البخارى رحمه الله على هذه المسألة « باب من أفطر فى السفر ليراه الناس » وساق الحديث عن ابن عباس قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم

من المدينة الى مكة فصام حتى بلغ عسفان[1] ، ثم دعا بماء فرفعه الى يديه ليراه الناس فأفطر حتى قدم مكة وذلك فى رمضان • وأخرجه مسلم أيضا عن ابن عباس وقال فيه : ثم دعا بإناء فيه شراب شربه نهارا ليراه الناس ثم أفطر حتى دخل مكة • وهذا نص فى الباب فسقط ما خالفه وبالله التوفيق •

وفيه أيضا حجة على من يقول : ان الصوم لا ينعقد فى السفر • روى عن عمر وابن عباس وأبى هريرة وابن عمر ، قال ابن عمر : من صام فى السفر قضى فى الحضر • وعن عبد الرحمن بن عوف : الصائم فى السفر كالمفطر فى الحضر • وقال به قوم من أهل الظاهر ، واحتجوا بقوله تعالى : « •• **فعدة من أيام أخر** » على ما يأتى بيانه ، وبما روى عن كعب بن عاصم ، قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم ، يقول : « ليس من البر الصيام فى السفر » •

وفيه أيضا حجة على من يقول : ان من بيت الصوم فى السفر فله أن يفطر وان لم يكن له عذر • واليه ذهب مطرف وهو أحد قولى الشافعى وعليه جماعة من أهل الحديث • وكان مالك يوجب عليه القضاء والكفارة ، لأنه كان مخيرا فى الصوم والفطر ، فلما اختار الصوم وبيته لزمه ولم يكن له الفطر ، فان أفطر عامدا من غير عذر كان عليه القضاء والكفارة • وقد روى عنه أنه لا كفارة عليه ، وهو قول أكثر أصحابه الا عبد الملك فانه قال : ان أفطر بجماع كفر لأنه يقوى بذلك على سفره ولا عذر له ، لأن المسافر انما أبيح له الفطر ليقوى بذلك على سفره •

وقال سائر العلماء بالعراق والحجاز : انه لا كفارة عليه ، منهم الثورى والأوزاعى والشافعى وأبو حنيفة وسائر فقهاء الكوفة ، قاله أبو عمر •

واختلف العلماء فى الأفضل من الفطر أو الصوم فى السفر ، فقال مالك والشافعى فى بعض ما روى عنهما : الصوم أفضل لمن قوى عليه ، وجل مذهب مالك التخيير ، وكذلك مذهب الشافعى • قال الشافعى ومن اتبعه : هو مخير ، ولم يفصل • وكذلك ابن علية ، لحديث أنس ، قال : سافرنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى رمضان فلم يعب الصائم على

---

(١) عسفان — بضم العين وسكون السين المهملتين — : قرية بينها وبين مكة ثمانية وأربعون ميلا .

الفطر ولا المفطر على الصائم • خرجه مالك والبخارى ومسلم • وروى عن عثمان عن أبى العاص الثقفى وأنس بن مالك صاحبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهما قالا : الصوم فى السفر أفضل ، لمن قدر عليه • وهو قول أبى حنيفة وأصحابه •

وروى عن ابن عمر وابن عباس : الرخصة أفضل • وقال به سعيد ابن المسيب والشعبى وعمر بن عبد العزيز ومجاهد وقتادة والأوزاعى وأحمد واسحاق • فكل هؤلاء يقولون : الفطر أفضل لقول الله تعالى : « •• **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** •• »(١) •

وقوله تعالى : « **فعدة من أيام أخر** » : فى الكلام حذف ، أى : من يكن منكم مريضا أو مسافرا فأفطر فليقض • والجمهور من العلماء على أن أهل البلد اذا صاموا تسعة وعشرين يوما وفى البلد رجل مريض لم يصم فانه يقضى تسعة وعشرين يوما • وقال قوم منهم الحسن ابن صالح بن حى : أنه يقضى شهرا بشهر من غير مراعاة عدد الأيام • قال الكيا الطبرى : وهذا بعيد ، لقوله تعالى : « **فعدة من أيام أخر** » ولم يقل فشهر من أيام أخر • وقوله : « **فعدة** » يقتضى استيفاء عدد ما أفطر فيه ، ولا شك أنه لو أفطر بعض رمضان وجب قضاء ما أفطر بعدده • كذلك يجب أن يكون حكم افطار جميعه فى اعتبار عدده •

وقوله تعالى : « **فعدة** » : ارتفع عدة على خبر الابتداء ، تقديره فالحكم أو فالواجب عدة • ويصح فعليه عدة • وقال الكسائى : ويجوز فعدة ، أى : فليصم عدة من أيام • وقيل : المعنى ، فعليه صيام عدة • فحذف المضاف وأقيمت العدة مقامه • والعدة فعلة من العد وهى بمعنى المعدود ، كالطحن بمعنى المطحون ، تقول : أسمع جعجعة ولا أرى طحنا • ومنه عدة المرأة ••

واختلف الناس فى وجوب تتابعها على قولين ذكرهما الدارقطنى فى « سننه » فروى عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : نزلت : « فعدة من أيام أخر متتابعات » فسقطت « متتابعات » • قال : هذا اسناد صحيح • وروى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان عليه صوم من رمضان فليسرده ولا يقطعه » • فى اسناده عبد الرحمن بن ابراهيم ضعيف الحديث • وأسنده عن ابن عباس

---

(١) البقرة : ١٨٥

في قضاء رمضان « صمه كيف شئت » وقال ابن عمر : « صمه كما أفطرته » • وأسند عن أبي عبيدة بن الجراح وابن عباس وأبي هريرة ومعاذ بن جبل وعمرو بن العاص • وعن محمد بن المكندر ، قال : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن تقطيع صيام رمضان فقال : « ذلك اليك •• أرأيت لو كان على أحدكم دين فقضى الدرهم والدرهمين ألم يكن قضاه ؟ •• فالله أحق أن يعفو ويغفر » اسناده حسن الا أنه مرسل ولا يثبت متصلا • وفي موطأ مالك عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يقول: يصوم رمضان متتابعا من أفطره متتابعا من مرض أو في سفر • قال الباجي في « المنتقى » : يحتمل أن يريد الاخبار عن الوجوب ، ويحتمل أن يريد الاخبار عن الاستحباب • وعلى الاستحباب جمهور الفقهاء • وان فرقه أجزأه ، وبذلك قال مالك والشافعي • والدليل على صحة هذا قوله تعالى : **« فعدة من أيام أخر »** ولم يخص متفرقة من متتابعة • واذا أتى بها متفرقة فقد صام عدة من أيام أخر ، فوجب أن يجزيه • ابن العربي : انما وجب التتابع في الشهر لكونه معينا وقد عدم التعيين في القضاء فجاز التفريق •

ثم يقول القرطبي : لما قال تعالى : **« فعدة من أيام أخر »** : دل ذلك على وجوب القضاء من غير تعين لزمان ، لأن اللفظ مسترسل على الأزمان ولا يختص ببعضها دون بعض • وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : يكون على الصوم من رمضان فما أستطيع أن أقضيه الا في شعبان • الشغل من رسول الله • أو برسول الله صلى الله عليه وسلم في رواية • وذلك لمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم •

وهذا نص وزيادة بيان للآية • وذلك يرد على داوود قوله : انه يجب عليه قضاؤه ثاني شوال • ومن لم يصمه ثم مات فهو آثم عنده ، وبنى عليه أنه لو وجب عليه عتق رقبة فوجد رقبة تباع بثمن فليس له أن يتعداها ويشترى غيرها ، لأن الفرض عليه أن يعتق أول رقبة يجدها فلا يجزيه غيرها • ولو كانت عنده رقبة فلا يجوز له أن يشترى غيرها ، ولو مات الذي عنده فلا يبطل العتق • كما يبطل فيمن نذر أن يعتق رقبة بعينها فماتت يبطل نذره ، وذلك يفسد قوله •

وقال بعض الأصوليين : اذا مات بعد مضي اليوم الثاني من شوال لا يعصى على شرط العزم • والصحيح أنه غير آثم ولا مفرط • وهو قول الجمهور ، غير أنه يستحب له تعجيل القضاء لئلا تدركه المنية فيبقى عليه الفرض •

ثم يقول : من كان عليه قضاء أيام من رمضان فمضت عليه عدتها من الأيام بعد الفطر أمكنه فيها صيامه فأخر ذلك ثم جاءه مانع منعه من القضاء الى رمضان آخر فلا اطعام عليه ، لأنه ليس بمفرط حين فعل ما يجوز له من التأخير • هذا قول البغداديين من المالكيين ويرونه قول ابن القاسم فى المدونة •

فان أخر قضاءه عن شعبان الذى هو غاية الزمان الذى يقضى فيه رمضان ، فهل يلزمه لذلك كفارة أو لا ، فقال مالك والشافعى وأحمد واسحاق : نعم • وقال أبو حنيفة والحسن والنخعى وداوود : لا •

قال القرطبى : والى هذا ذهب البخارى لقوله ، ويذكر عن أبى هريرة مرسلا وابن عباس أنه يطعم • ولم يذكر الله الاطعام انما قال : **« فعدة من أيام أخر »** •

ثم يقول : قد جاء عن أبى هريرة مسندا فيمن فرط فى قضاء رمضان حتى أدركه رمضان آخر ، قال : يصوم هذا مع الناس ، ويصوم الذى فرط فيه ويطعم لكل يوم مسكينا • خرجه الدارقطنى وقال : اسناد صحيح • وروى عنه مرفوعا الى النبى صلى الله عليه وسلم فى رجل أفطر فى شهر رمضان من مرض ثم صح ولم يصم حتى أدركه رمضان آخر قال : « يصوم الذى أدركه ثم يصوم الشهر الذى أفطر فيه ويطعم لكل يوم مسكينا » فى اسناده ابن نافع وابن وجيه ضعيفان •

فان تمادى به المرض فلم يصح حتى جاء رمضان آخر ، فروى الدارقطنى عن ابن عمر أنه يطعم مكان كل يوم مسكينا مدا من حنطة ثم ليس عليه قضاء • وروى أيضا عن أبى هريرة أنه قال : اذا لم يصح بين الرمضانين صام عن هذا وأطعم عن الثانى ولا قضاء عليه • واذا صح فلم يصم حتى أدركه رمضان آخر صام عن هذا وأطعم عن الماضى ، فاذا أفطر قضاه • اسناده صحيح • قال علماؤنا : وأقوال الصحابة على خلاف القياس قد يحتج بها • وروى عن ابن عباس أن رجلا جاء اليه ، فقال : مرضت رمضانين ، فقال له ابن عباس : استمر بك مرضك أو صححت بينهما ؟ فقال : بل صححت ، قال : صم رمضانين وأطعم ستين مسكينا • وهذا بدل من قوله : انه لو تمادى به مرضه لا قضاء عليه • وهذا يشبه مذهبهم فى الحامل والمرضع أنهما يطعمان ولا قضاء عليهما ، على ما يأتى :

واختلف : فى من أوجب عليه الاطعام فى قدر ما يجب أن يطعم ،

فكان أبو هريرة والقاسم بن محمد ومالك والشافعي يقولون : يطعم عن كل يوم مدا • وقال الثورى : يطعم نصف صاع عن كل يوم •

واختلفوا : فيمن أفطر أو جامع فى قضاء رمضان ماذا يجب عليه ؟ فقال مالك : من أفطر يوما من قضاء رمضان ناسيا لم يكن عليه شىء غير قضائه ، ويستحب له أن يتمادى فيه للاختلاف ثم يقضيه ، ولو أفطره عامدا أثم ولم يكن عليه غير قضاء ذلك اليوم ولا يتمادى ، لأنه لا معنى لكفه عما يكف الصائم ههنا اذ هو غير صائم عند جماعة العلماء لافطاره عامدا • وأما الكفارة فلا خلاف عند مالك وأصحابه أنها لا تجب فى ذلك ، وهو قول جمهور العلماء • قال مالك : ليس على من أفطر يوما من قضاء رمضان باصابة أهله أو غير ذلك كفارة ، وانما عليه قضاء ذلك اليوم ••

والجمهور على أن من أفطر فى رمضان لعلة فمات من علته تلك ، أو سافر فمات فى سفره ذلك أنه لا شىء عليه • وقال طاووس وقتادة فى المريض يموت قبل أن يصح : يطعم عنه •

واختلفوا فيمن مات وعليه صوم من رمضان لم يقضه ، فقال مالك والشافعى والثورى : لا يصوم أحد عن أحد • وقال أحمد واسحاق وأبو ثور والليث وأبو عبيد وأهل الظاهر : يصام عنه ، الا أنهم خصصوه بالنذر • وروى مثله عن الشافعي • وقال أحمد واسحاق فى قضاء رمضان : يطعم عنه • احتج من قال بالصوم بما رواه مسلم عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » • الا أن هذا عام فى الصوم ، يخصصه ما رواه مسلم أيضا عن ابن عباس قال : جاءت امرأة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله •• ان أمى قد ماتت وعليها صوم نذر — وفى رواية : صوم شهر — أفأصوم عنها ؟ قال : « أرأيت لو كان على أمك دين فقضيتيه أكان يؤدى ذلك عنها ؟ قالت : نعم ، قال : فصومى عن أمك » • احتج مالك ومن وافقه بقوله سبحانه : **« ولا تزر وازرة وزر أخرى »**[1] •

وقوله : **« وأن ليس للانسان الا ما سعى »**[2] •

وقوله : **« ولا تكسب كل نفس الا عليها »**[3] وبما أخرجه

---

(١) الأنعام : ١٦٤ (٢) النجم : ٣٩

(٣) الأنعام : ١٦٤

النسائى عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يصلى أحد عن أحد ولا يصوم أحد عن أحد ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مدا من حنطة » .

ثم يقول القرطبى : وهذا الحديث عام فيحتمل أن يكون المراد بقوله : « لا يصوم أحد عن أحد » صوم رمضان . فأما صوم النذر فيجوز ، بدليل حديث ابن عباس وغيره ، فقد جاء فى صحيح مسلم أيضا من حديث بريدة نحو حديث ابن عباس ، وفى بعض طرقه : صوم شهرين أفأصوم عنها ؟ قال : « صومى عنها » قالت : انها لم تحج قط أفأحج عنها ؟ قال : « حجى عنها » . فقولها : شهرين ، يبعد أن يكون رمضان . والله أعلم . وأقوى ما يحتج به لمالك أنه عمل أهل المدينة ويعضده القياس الجلى وهو أنه عبادة بدنية لا مدخل للمال فيها فلا تفعل عمن وجبت عليه كالصلاة . ولا ينقض هذا بالحج لأن للمال فيه مدخلا ..

ومعنى قوله تعالى : « **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** »[1] ، فقد قال ابن عباس كما روى أبو داوود : كانت رخصة للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة وهما يطيقان الصوم ، أن يفطرا ويطعما مكان كل يوم مسكينا ، والحبلى والمرضع ، اذا خافتا على أولادهما أفطرتا وأطعمتا .

وخرج الدارقطنى عنه أيضا قال : رخص للشيخ الكبير أن يفطر ويطعم عن كل يوم مسكينا ولا قضاء عليه ، هذا اسناد صحيح . وروى عنه أيضا أنه قال : « **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام ..** » ليست بمنسوخة ، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما ، فيطعما مكان كل يوم مسكينا . وهذا صحيح . وروى عنه أيضا أنه قال لأم ولد له — حبلى أو مرضع — : أنت من الذين لا يطيقون الصيام ، عليك الجزاء ولا عليك القضاء . وهذا اسناد صحيح . وفى رواية : كان له أم ولد ترضع من غير شك فأجهدت ، فأمرها أن تفطر ولا تقضى . هذا صحيح .

يقول القرطبى : فقد ثبت بالأسانيد الصحاح عن ابن عباس أن الآية ليست بمنسوخة وأنها محكمة فى حق من ذكر ..

---

(١) البقرة : ١٨٤

وقال الحسن البصرى وعطاء بن أبى رباح والضحاك والنخعى والزهرى وربيعة والأوزاعى وأصحاب الرأى : الحامل والمرضع يفطران ولا اطعام عليهما ، بمنزلة المريض يفطر ويقضى • وبه قال أبو عبيد وأبو ثور ، وحكى ذلك أبو عبيد عن أبى ثور ، واختاره ابن المنذر • وهو قول مالك فى الحبلى ان أفطرت • فأما المرضع ان أفطرت فعليها القضاء والاطعام • وقال الشافعى وأحمد : يفطران ويطعمان ويقضيان ، وأجمعوا على أن المشايخ والعجائز الذين لا يطيقون الصيام أو يطيقونه على مشقة شديدة أن يفطروا • واختلفوا فيما عليهم ، فقال ربيعة ومالك : لا شىء عليهم • غير أن مالكا قال : لو أطعموا عن كل يوم مسكينا كان أحب الى • وقال أنس وابن عباس وقيس بن السائب وأبو هريرة : عليهم الفدية ، وهو قول الشافعى وأصحاب الرأى وأحمد واسحاق اتباعا لقول الصحابة رضى الله عن جميعهم • وقوله تعالى : « **فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر** »[1] .

ثم قال : « **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** » وهؤلاء ليسوا بمرضى ولا مسافرين ، فوجب عليهم الفدية • والدليل لقول مالك : أن هذا مفطر لعذر موجود فيه وهو الشيخوخة والكبر فلم يلزمه اطعام كالمسافر والمريض • وروى هذا عن الثورى ومكحول واختاره ابن المنذر •

واختلف من أوجب الفدية على من ذكر فى مقدارها ، فقال مالك : مد بمد النبى صلى الله عليه وسلم عن كل يوم أفطره • وبه قال الشافعى • وقال أبو حنيفة : كفارة كل يوم صاع تمر أو نصف صاع بر • وروى عن ابن عباس نصف صاع من حنطة • ذكره الدارقطنى • وروى عن أبى هريرة قال : من أدركه الكبر فلم يستطع أن يصوم فعليه لكل يوم مد من قمح • وروى عن أنس بن مالك أنه ضعف عن الصوم عاما فصنع جفنة من طعام ثم دعا بثلاثين مسكينا فأشبعهم •

وقوله تعالى : « **فمن تطوع خيرا فهو خير له** »[2] قال ابن شهاب : من أراد الاطعام مع الصوم • وقال مجاهد : من زاد فى الاطعام على المد • ابن عباس : « فمن تطوع خيرا •• » قال : مسكينا آخر فهو خير له • ذكره الدارقطنى وقال : اسناد صحيح ثابت •

---

(١) البقرة : ١٨٤ (٢) البقرة : ١٨٤

و « خير » الثانى صفة تفضيل ، وكذلك الثالث و « خير » الأول • وقرأ عيسى بن عمر ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى : « **تطـوع خـيرا** » مشددا وجزم العين على معنى يتطوع • الباقون « **تطـوع** » بالتـاء وتخفيف الطاء وفتح العين على المـاضى •

وقوله تعـالى : « **وأن تصوموا خير لكم ، ان كنتم تعلمون** »[1] : أى والصيام خير لكم • وكذا قرأ أبى أى من الافطار مع الفدية وكان هذا قبـل النسخ ، وقيل : وأن تصوموا فى السفر والمرض غير الشاق ، والله أعلم • وعلى الجملة فانه يقتضى الحض على الصوم أى فاعلموا ذلك وصوموا ••

* * *

وعلى هـذا ، فاننا نستطيع ـ بعد هذا الفقه الذى كان لابد وأن نقف عليه[2] ـ : أن نقول ان صـيام شهر رمضان بالاضافة الى أنه سيكون سببا فى تحقيق التقوى فينا وفى جميع عباداتنا ومعاملاتنا •• كما أشار الى هذا قول الله تعالى : « **لعـلكم تتقـون** » ، وذلك لأن التقوى ـ كما علمنـا قبل ذلك ـ خـير زاد : « **فان خـير الزاد التقـوى** »[3] :

اذا أنت لم ترحل بزاد من التقى
ولاقيت بعد المـوت من قد تزودا
ندمت على ألا تكـون كمثـله
وأنك لم ترصـد كما كان أرصـدا

□ □

الموت بحـر طامح موجـه تذهب فيـه حيـلة السابح
يا نفس انى قائل فاسمعى مقـالة من مشـفق ناصح
لا يصحب الانسان فى قبره غير التقى والعمل الصـالح

ولهذا ، فقد قال الله تعالى : « •• **واتقون يا أولى الالباب** »[4] : ففى الصيام بالاضافة الى هذا الخير العظيم ـ وهو تحقيـق التقوى ـ : ما أشار اليه الحديث الشريف الذى ورد :

---

(١) البقرة : ١٨٤

(٢) والذى شرحناه شرحا وافيا فى الجزء الرابع من وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم ، والذى تستطيع أن تزود نفسك به من كتب الفقه المطولة ..

(٣) البقرة : ١٩٧ (٤) البقرة : ١٩٧

عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « من صام رمضان ايمانا واحتسابا ، غفر له ما تقدم من ذنبه » متفق عليه .

وعن سهل بن سعد رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ان فى الجنة بابا يقال له « الريان » يدخل منه الصائمون يوم القيامة ، لا يدخل منه أحد غيرهم ، يقال : أين الصائمون ؟ فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم ، فاذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد » متفق عليه .

وفى رواية للترمذى : « فمن كان من الصائمين دخله ومن دخله : لم يظمأ أبدا » وقال : حسن صحيح .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل : كل عمل ابن آدم له الا الصيام ، فانه لى وأنا أجزى به . والصيام جنة[1] ، فاذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث[2] ولا يصخب ، فان سابه أحد أو قاتله ، فليقل : انى صائم . والذى نفس محمد بيده لخلوف[3] فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . للصائم فرحتان يفرحهما : اذا أفطر فرح بفطره ، واذا لقى ربه فرح بصومه » متفق عليه .

وهذا لفظ رواية البخارى . وفى رواية له : « يترك طعامه ، وشرابه ، وشهوته ، من أجلى ، الصيام لى وأنا أجزى به ، والحسنة بعشر أمثالها » .

وفى رواية لمسلم : « كل عمل ابن آدم يضاعف : الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف . قال الله تعالى : « الا الصوم فانه لى وأنا أجزى به : يدع شهوته وطعامه من أجلى . للصائم فرحتان : فرحة عند فطره ، وفرحة عند لقاء ربه . ولخلوف فيه[4] أطيب عند الله من ريح المسك » .

---

(١) جنة — بضم الجيم — أى : وقاية من النار أو المعاصى .

(٢) الرفث : الكلام الفاحش . والصخب — بفتح الخاء — : أى اللغط .

(٣) الخلوف — بضم الخاء واللام وسكون الواو بالفاء — : أى التغير .

(٤) أى فمه .

ولهذا ، فقد ورد كذلك :

عن طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، كان اذا رأى الهلال ــ هلال رمضان[١] ــ قال :

« اللهم أهله علينا بالأمن والايمان ، والسلامة والاسلام ، ربى وربك الله ، هلال رشد[٢] وخير » رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

كما ورد كذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يرغب أصحابه فى صيام رمضان اذا حضر :

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما حضر رمضان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قد جاءكم رمضان شهر مبارك افترض الله عليكم صيامه : تفتح فيه أبواب الجنة وتغلق فيه أبواب الجحيم وتغل فيه الشياطين ، فيه ليلة خير من ألف شهر . من حرم خيرها فقد حرم » أخرجه أحمد والنسائى والبيهقى .

وهذا معناه[٣] : أن فائدة فتح أبواب الجنة فى رمضان هو توقيف الملائكة على عمل الصائمين ، وحمد الله لهم ، وأن ذلك من الله بمنزلة عظيمة ، وأيضا اذا علم المكلف الموقن بهذا الخبر الصادق يزيد فى نشاطه ويتلقاه بصدر منشرح واهتمام كامل ، وهذا يدل على أن أبواب الجنة تغلق فى غير رمضان[٤] ، ولا ينافيه قوله تعالى : « .. **وأن للمتقين لحسن مآب . جنات عدن مفتحة لهم الأبواب** »[٥] : لأن هذا مع كونه فى الآخرة لا يقتضى دوام كونها مفتحة الأبواب ، وتغليق أبواب النار فى رمضان يقتضى أنها تفتح فى غيره ولا ينافيه قوله تعالى : « **وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا ، حتى اذا جاءوها فتحت أبوابها** »[٦] : لأن هذا فى الآخرة ولا ينافى أن يكون هناك غلق قبل ذلك ، وغلق أبوابها فى رمضان لا ينافى موت الكفرة فيه وتعذيبهم بالنار اذ يكفى فيه فتح باب صغير من القبر الى النار غير الأبواب المغلقة « وتغل فيه الشياطين » لتعجيزهم عن الاغواء وتزيين الشهوات . ولا ينافيه وقوع المعاصى والشرور فى رمضان لأن لذلك أسبابا غير الشياطين كالنفوس الخبيثة

---

(١) هلال كل شهر عربى وهلال رمضان بصفة خاصة .

(٢) الرشد ــ بضم فسكون وبفتحتين ــ : ضد الغى .

(٣) كما يقول فى هامش الدين الخالص ج ٨ ص ٢٨٤ معلقا على هذا الحديث الأخير .

(٤) تغلق وتفتح فى غير رمضان الا باب التوبة فانه لا يغلق .

(٥) سورة ص : ٤٩ ، ٥٠ (٦) الزمر : ٧١

وشياطين الانسان فلا يلزم أن تكون كل معصية بوسوسة شيطان • فهذا ابليس لم يسبقه شيطان آخر وسوس له بل كانت معصيته من قبل نفسه •

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « اذا دخل رمضان فتحت أبواب السماء وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين » أخرجه البخارى ومسلم والنسائى وعندهما : فتحت أبواب الرحمة ، بدل : أبواب السماء •

والمراد ، بـ « أبواب السماء »[1] : ما يصعد منها الى الجنة لأنها فوق السماء وسقفها عرش الرحمن كما ثبت بالكتاب والسنة • و« أبواب الرحمة » : تطلق على أبواب الجنة لحديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « تحاجت النار والجنة ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين • وقالت الجنة : فمالى لا يدخلنى الا ضعفاء الناس وسقطهم[2] وعجزهم ؟ فقال الله للجنة : أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى • وقال للنار : أنت عذابى أعذب بك من أشاء من عبادى • ولكل واحدة منكما ملؤها » الحديث أخرجه مسلم •

ولله در الشاعر الشيخ « محمد الأسمر » شاعر الأزهر • رحمه الله ، فلقد قال :

رعى الله شهر الصوم • أما نهاره
فغاف • وأما ليله فهو ساهر
وحيا رجالا حين لاح هلاله
مشت بينهم مشى النسيم البشائر
بطان اذا ما الشمس أرخت قناعها
خماص اذا ما أقبلت وهى سافر
خضوعا لمن فوق السموات عرشه
ويعلم منهم ما تكن السرائر
هو « الله » فاعبده العبادة كلها
اذا راح يلهو بالعبادة فاجر

---

(١) كما يقول أيضا فى الدين الخالص ج ٨ ص ٢٨٥ معلقا على هذا الحديث الأخير .

(٢) بفتح السين والقاف ، أى : ضعفاؤهم والمحتقرون منهم . وعجزهم بفتحتين : جمع عاجز أى العاجزون عن طلب الدنيا والتمكن فيها .

فكن أخا الإسلام من هؤلاء الرجال المؤمنين الموفقين ، و :

لا تجعلن رمضـــان شـــــهر فكاهة
تلهيـــك فيـــه من القبيح فنـــونه
واعـــــلم بأنك لا تنـــــال قبـــوله
حتى تكـــون تصـــومه وتصـــــونه

وتأمل كذلك قول القائل :

اذا لم يكن فى السمع منى تصامم
وفى بصرى غض وفى منـــطقى صمت
فحظى اذن من صومى الجوع والظمأ
وان قلت : انى صمت يوما فما صمت

وتأمل كذلك قول الآخر :

جـــاء الصـــيام فجاء الخير أجمعه
ترتيـــل ذكر وتحميـــد وتســـبيح
فالنفس تدأب فى قول وفى عمـــل
صوم النهـــار ، وبالليل التراويح

* * *

وحسبك أن تعلم كذلك أخا الاســـلام ، أن الصـــوم بالاضافة الى ما فيه من الثواب العظيم الذى وقفنا على بعضه : فيه علاج عظيم من أمراض تصيب انسان العصر الحديث[1] نتيجة لزيادة كميات غذائه وما أدخله من وسائل صناعية لتنويع أصنافه وتغيير طعومه ، وغير أنه يستعمل كعلاج ، فهو وقاية من أمراض أخرى : أشار اليها الدكتور « عبد العزيز اسماعيل » كبير الأطباء فى زمانه ، فى كتابه : « الاســـلام والطب الحديث » عن الأسرار الطبية ، حيث يقول :

« من الناس من يتوهم أن صيام رمضان وهو من أركان الاسلام مضرة تلحق بالصائم لمـــا يصيب الجهاز الهضمى خاصة وغيره عامة ولمـــا يكون من بعض الصائمين من انفعال وغضب .. وهذا خطأ لأن ما ذهبوا اليه ليس من الصيام فى شىء ولكنه من ترك الاعتدال فى طعام الافطار والسحور ، ولأنهم لم يراعوا وقت الافطار ما يتناسب مع خلو المعدة النهار كله ، ولأن السحور يجب أن يقتصر على بضع لقيمات لأنه لا ضرر من الجوع فى ذاته . ولقد ظهر أن الصيام يفيد فى حالات

---

(١) كما جاء فى كتاب (صوم رمضان) للأستاذ عبد الرزاق نوفل .

كثيرة وهو العلاج الوحيد فى أحوال أخرى ، وهو أهم علاج ان لم يكن العلاج الوحيد للوقاية من أمراض كثيرة • فللعلاج يستعمل فى :

١ — اضطرابات الأمعاء المزمنة والمصحوبة بتخمر فى المواد الزلالية والنشوية وهنا ينجح الصيام وخصوصا عدم شرب المـاء بين الأكلتين وأن تكون بين الأكلة والأخرى مدة طويلة كما فى صيام رمضان • وممكن أخذ الغذاء المناسب على حسب حالة التخمر ، وهذه الطريقة أنجع طريقة لتطهير الأمعاء •

٢ — زيادة الوزن الناشئة من كثرة الغذاء وقلة الحركة ، فالصيام هنا أنجع من كل علاج مع الاعتدال وقت الافطار فى الطعام والاكتفاء بالمـاء فى السحور •

٣ — زيادة الضغط الذاتى وهو آخذ فى الانتشار بازدياد الترف والانفعالات النفسية ، ففى هذه الحالة يكون شهر رمضان نعمة وبركة وخاصة اذا كان وزن الشخص أكثر من الوزن الطبيعى لمثله •

٤ — البول السكرى ، وهو منتشر انتشار الضغط ويكون فى مدته الأولى وقبل ظهوره مصحوبا غالبا بزيادة فى الوزن ، فهنا يكون الصيام علاجا نافعا اذ أن السكر يهبط مع قلة السمن ويهبط السكر فى الدم بعد الأكل بخمس ساعات الى أقل من الحد الطبيعى فى حالات البول السكرى الخفيف وبعد عشر ساعات الى أقل من الحد الطبيعى بكثير ، ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات فى الغذاء أهم علاج فى هذا المرض حتى بعد ظهور الأنسولين خصوصا اذا كان الشخص يزيد عن الوزن الطبيعى ولم يكن هناك لهذا المرض قبل الأنسولين غير الصيام •

٥ — التهاب الكلى الحاد والمزمن المصحوب بارتشاح وتورم •

٦ — أمراض القلب المصحوبة بتورم •

٧ — التهابات المفاصل المزمنة خصوصا اذا كانت مصحوبة بسمن كما يحدث عند السيدات غالبا بعد سن الأربعين ، وقد شوهدت حالات تتمشى فى شهر رمضان بالصيام فقط أكثر مما تتمشى مع علاج سنوات بالكهرباء والحقن والأدوية وكل الطب الحديث •

ورب سائل يقول : ولكن الصيام فى كل هذه الاحالات يحتاج الى ارشاد طبيب فى كل مرض على حدة ، والصيام الذى كتب على المسلمين أنما كتب على الأصحاء ؟ وهذا صحيح ولكن فائدة الصيام للأصحاء هى

الوقاية من هذه الأمراض وبخاصة أمراض الاضطرابات المعوية وزيادة الوزن ، وزيادة الضغط ، والبول السكرى ، والتهاب المفاصل .

وهذه الأمراض كلها تبتدىء فى الانسان تدريجيا بحيث لا يمكن الجزم بأول المرض ، فلا الشخص ولا طبيبه يمكنهما أن يعرفا أول المرض لأن الطب لم يتقدم بعد الى الحد الذى يعرف فيه أسباب هذه الأمراض كلها ، ولكن من المؤكد طبيا أن الوقاية من كل هـذه الأمراض انما هى فى الصيام بل ان الوقاية فعالة جدا قبل ظهور أعراض المرض بوضوح ، وقد ظهر باحصاءات لا تقبل الشك أن زيادة السمن يصحبها استعداد للبول السكرى وزيادة ضغط الدم الذاتى والتهاب المفاصل المزمن وغير ذلك . ومع قلة الوزن يقل الاستعداد لهذه الأمراض بالنسبة نفسها وهـذا هو السر فى أن شركات التأمين لا تقبل تأمينا على الأشخاص الذين يزيد وزنهم الا بشروط تثقل كلما زاد الوزن . والصيام مدة شهر كل سنة خير وقاية من كل هذه الأمراض ، وهذه الأمراض تنتشر بزيادة الحضارة والترف ، فقد انتشرت فى أوروبا أكثر من الأول .

ويغلب على الظن أن ذلك هو السر فى أن الصيام فى الاسلام أشد منه فى الأديان السابقة ، لأن الاسلام وهو آخر الشرائع السماوية جاء فى زمن نحتاج فيه الى وقاية من أمراض تزداد كلما ازداد الترف » .

وفى كتاب « نحن المعمرون » للأستاذ « حسن عبد السلام » نقرأ كذلك النص الآتى : « وفائدة الصوم أنه يريح الجهاز الهضمى ويتيح لأغشية الجسـم فرصة تتخلص فيها مما يتجمع حولها من النفـايات والمواد الحامضية والتوكسينات التى تتولد باستمرار فى الجسم . كما أنه يعطى الأنسجة والأعضاء المصـابة بشىء من التقيح أو الاحتقان أو الالتهاب مجالا للشفاء . ومن المعلوم أن كل امرىء معرض للاصابة ببعض البؤرات الصديدية التى تتكون داخل الجسم وتلوثه بما تصبه من توكسينات فى مجرى الدم . وهـذه البؤرات قد يكون أثرها ضعيفا فى مبدأ الأمر فلا يحس المرء بنتائجها ويشعر كأنه فى كامل صحته ، غير أنه بمرور الزمن يتراكم الأثر الضار الذى ينجم عن وجـود هـذه البؤرات ، وفجأة يصاب الانسان بمرض جسيم أو اختلال صحى يصعب الشفاء منه . وخير طريقة لتجنب الاصابات بالبؤرات الصديدية انما هو الصوم من حين لآخر ، لأنه فى خلال فترة الصوم يتغذى الجسم بأنسجته الداخلية ، فان كان شىء من الاحتقان أو التقيح أو الالتهاب قد بدأ

يصيب الأنسجة فان أول ما يتهدم منها الخلايا المصابة فتتأكسد ويتخلص الجسم منها .

كما أن الصوم يذيب ما قد بدأ يتكون من الحصيات والرواسب الكلسية والزوائد اللحميـــة وأنواع البروز والنمو الخبيث . ويشيد مشاهير الأطباء فى أمم الغرب بفائدة الصوم أعظم اشادة وكذلك ينصحون به لتجنب ويلات المرض وللشفاء منه فى كثير من الحالات ، ويشيرون به بوجه خاص للمصابين بالديابيطس السكرى وتضخم الكبد والتهاب الكلى والبدانة وارتفاع ضغط الدم وبعض الأمراض التى تنجم عن الافراط فى الأكل واصابة الجسم بشىء من الحموضة وبوجه عـــام للمحافظة على صحة الجسم وتجديد حيويته » .

ويقول الدكتور « محمد الظواهرى » أخصائى الأمراض الجلدية :

« ان كرم رمضان يشمل مرضى الأمراض الجلدية اذ تتحسن بعض الأمراض الجلدية بالصوم . وعلاقة التغذية بالأمراض الجلـــدية متينة اذ أن الامتناع عن الغذاء أو الشراب مدة ما يقلل من المـــاء فى الجسم والدم وهذا بدره يدعو الى قلته فى الجلد وحينئذ تزداد مقاومة الجلد للأمراض الجلدية المعدية والميكروبية ، ومقاومة الجسم فى علاج الأمراض المعدية هى العامل الأول الذى يعتمد عليه فى سرعة الشفاء .

وان الجسم الذى لا يقاوم الميكروبات ويدفعها ينهار . ويضعف تأثير الدواء المبيد للميكروبات مع الجسم القليل المقاومة . وقلة المـــاء فى الجلد تقلل أيضا من حدة الأمراض الجلدية الالتهابية والحادة والمنتشرة بمساحات كبيرة فى الجسم ، وأفضل علاج لهذه الحالات من وجهة الغذاء انما هو الامتناع عن الطعام والشراب لفترة ما ، ولا يسمح الا بالقليل من السوائل البسيطة ، وقلة الطعام تؤدى الى نقص الكمية التى تصل منه الى الأمعاء ، وهذا بدوره يريحها ويقلل من تكاثر الميكروبات الكامنة بها وما أكثرها ، وعندئذ يقل نشاط تلك الميكروبات المعوية ويقل افرازها للسموم ومن ثم يقل امتصاص تلك السموم من الأمعاء . وهذه السموم تسبب العدد الكبير من الأمراض الجلدية . وان الأمعاء لبؤرة خطرة من البؤرة العفنة التى تشع سمومها عند كثير من الناس وتؤذى الجسم والجلد وتسبب لهما أمراضا لا حصر لها .

وشهر الصيام هو شهر الهدنة والراحة من تلك السموم وأضرارها ،

والصيام كذلك علاج لأمراض زيادة الحساسية وأمراض البشرة الدهنية » .

وبهذا أخا الاسلام يتأكد لك المعنى المراد من قول الله تبارك وتعالى : **« وأن تصوموا خير لكم ، ان كنتم تعلمون »**[1] .

وقد علمنا هذا — كما رأينا — على ألسنة المتخصصين الذين تبين لنا من خلال ما قالوه ضرورة الصيام ، ولا سيما صيام : **« شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان »**[2] .

وكما يقول الحسن البصرى ، رحمه الله : « ان الله تعالى جعل رمضان مضمارا لخلقه يتسابقون فيه بطاعته الى مرضاته . فسبق قوم ففازوا ، وتخلف آخرون فخابوا !! فالعجب من الضاحك اللاعب فى اليوم الذى يفوز فيه المحسنون ويخسر المبطلون !! أما والله لو كشف الغطاء لشغل محسن باحسانه ، وسىء باساءته » .

* * *

فلتكن أخا الاسلام — ان شاء الله — من الذين سبقوا ففازوا .. ولا تكن من الذين تخلفوا فخابوا .

ولتكن صيامك ان شاء الله تعالى صياما صحيحا على أساس :

من آداب الصيام

التى أرجو ان شاء الله أن تكون منفذا لها حتى يقبل الله تعالى منك صيامك ، وهى[3] :

اذا رأيت هلال رمضان أو هلال غيره فقل كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم أهله علينا بالأمن والايمان والسلامة والاسلام ، ربى وربك الله ، هلال رشد وخير » رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

وأن تستقبل رمضان بنية أن تصوم لله ايمانا واحتسابا ، وافتتح أول ساعة منه ، صفحة جديدة فى سجل أعمالك ، ومعك العزم الأكيد على التزود فيه بصالح الأعمال ، فمن أدركه رمضان فلم يغفر له ، فقد خاب وخسر ! يقول صلى الله عليه وسلم : « اذا كان أول ليلة من شهر رمضان ، صفدت الشياطين ، وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها

---

(١) البقرة : ١٨٤ (٢) البقرة : ١٨٥

(٣) كما قرأت فى ملحق « الوعى الاسلامى » رسالة الصيام والزكاة .

باب ، وينادى مناد : يا باغى الخير أقبل ، ويا باغى الشر أقصر » رواه النسائى والترمذى بنحو هذا اللفظ ، والحاكم وقال : صحيح على شرطهما .

وليكن منهجك فى الصوم : التخلى عن الرذائل ، والتحلى بالحلم والوقار والسكينة ، واجتناب الرفث وهو الفحش من القول ، والعبارات البذيئة النابية ، وترك الصخب ، وهو الصياح ورفع الصوت ، فذلك علامة السفه والطيش ، فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « من صام رمضان ، وعرف حدوده ، وتحفظ مما ينبغى له أن يتحفظ ، كفر ما قبله » رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه والبيهقى بسند جيد .

واذا صدرت من غيرك اساءة لك ، فقابل السيئة بالحسنة ، وادفع بالتى هى أحسن ، وذكر نفسك بأدب الاسلام ، والتزم خلق الصائم ، وردد ما أمرك الرسول الكريم به فى هذا الموقف : « فان شاتمه أحد أو قاتله ، فليقل : انى صائم .. انى صائم » من حديث رواه أحمد ومسلم والنسائى .

وأقبل على تلاوة القرآن فى رمضان ، فى ليله ونهاره ، فى الصلاة وخارج الصلاة ، فهو شهر القرآن .. ففى الحديث المتفق عليه : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أجود الناس ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة » .. والصيام والقرآن يشفعان للمؤمن يوم القيامة ، يقول الصيام : « أى رب منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعنى فيه ، ويقول القرآن : منعته النوم بالليل فشفعنى فيه .. فيشفعان » رواه أحمد بسند صحيح .

ولا تجعل شهر الصوم شهر فتور وكسل ، فمن الاساءة لفريضة الصوم أن تكون مدعاة للتراخى عن العمل ، وضعف الانتاج ، فهو شهر جلد وصبر ، يتسلح فيه المؤمن بقوة الارادة ، ومضاء العزيمة ، فينشط الى العمل ، وينطلق فى ميادين الكفاح يملؤها بالجد المثمر ، والسعى البناء .. عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال يوما وقد حضر رمضان : « أتاكم رمضان شهر بركة ، يغشاكم الله فيه ، فينزل الرحمة ، ويحط الخطايا ، ويستجيب فيه الدعاء ،

ينظر الله الى تنافسكم فيه ، ويباهى بكم ملائكته ، فأروا الله من أنفسكم خيرا ، فان الشقى من حرم فيه رحمة الله عز وجل » رواه الطبرانى ورواته ثقات .

وقدم لغيرك ما استطعت من الخير فى رمضان ، فان الثواب يضاعف فيه ، واسداء المعروف ، واطعام الجائع فى هذا الشهر الكريم ، يقع فى ميزان الله أعظم موقع ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود ما يكون فى رمضان ويقول صلى الله عليه وسلم فى حديثه عن مزايا هذا الشهر الكريم : « هو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة ، وشهر المواساة ، وشهر يزاد فى رزق المؤمن فيه ، من فطر فيه صائما كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار ، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شىء » ، قالوا : يا رسول الله .. ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « يعطى الله هذا الثواب لمن فطر صائما على تمرة ، أو شربة ماء ، أو مذقة لبن » — أى حسوة أو جرعة من اللبن — رواه البيهقى وابن خزيمة فى صحيحه ثم قال : صح الخبر .

وحتى يكون صومك صحيحا يؤتى ثمرته ، ويظهر أثره فى سلوكك وأخلاقك : تجنب قول الزور ، من الكذب ، والغيبة ، والنميمة ، والمراء ، وشهادة الزور ، والسخرية بالناس ، وتتبع عوراتهم ، والأيمان الفاجرة التى تدع الديار بلاقع ! وتجنب أيضا عمل الزور : وهو يشمل المعاصى البدنية جميعها ، وبذلك تكون جوارح الصائم كلها فى مأمن من الرذائل التى تضر بالفرد ، وتدمر المجتمع ! وما أبلغ قول المعصوم صلى الله عليه وسلم وهو يضع دستورا للصائم فى كلمات تنأى به عن مواقع السوء ومزالق الهوى : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه » رواه البخارى .

وتناول افطارك عقب غروب الشمس مباشرة وقبل صلاة المغرب ، على تمرات وترا أو على أى شراب حلو ، فان لم يتيسر لك ذلك ، فعلى الماء ، فان الماء طهور ، وذلك لتكسر حدة الجوع ، وتطفىء حرارة العطش ، فان لبدنك عليك حقا ، وحتى تقبل على صلاة المغرب غير معجل . هذه سنة نبيك عليه أفضل الصلاة والسلام ، فعن سهل بن سعد أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « لا يزال الناس بخير ، ما عجلوا الفطر » رواه البخارى ومسلم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليـــه وسلم : « قال الله عز وجل : أحب عبادى الى أعجلهم فطرا » رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

وعند الافطار ، توجه الى الله بالدعاء لنفسك وللمسلمين ، ففى هذه اللحظة دعوة مقبولة ان شاء الله ، يقول صلى الله عليه وسلم : « ان للصائم عند فطره دعوة ما ترد » رواه ابن ماجه .

وثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول : « ذهب الظمأ ، وابتلت العروق ، وثبت الأجر ان شآء الله تعالى » .

وروى مرسلا أنه صلى الله عليه وسلم ، كان يقول : « اللهم انى أسألك برحمتك التى وسعت كل شىء أن تغفر لى » .

وتناول سحورك قريبا من الفجر ، ففى ذلك عون على النشاط فى النهار ، وتحمل مشاق الصوم ، والوقت المناسب للسحور ، قبل الفجر بنصف ساعة ، وبذلك يجتمع لك فضلان : تحقيق السنة بتأخير السحور ، وادراك صلاة الصبح جماعة فى وقتها .. عن أنس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تسحروا فان فى السحور بركة » متفق عليـــه .

وعن زيد بن ثابت رضى الله عنه : قال : « تسحرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قمنا الى الصلاة ، قيل كم بينهما ؟ قـــال : خمسون آية » متفق عليه .

وتجنب الافراط فى الأكل والشرب ، فان من حكم الصوم ، التخفيف على المعدة . وتنقية البدن من رواسب الطعام المتراكمة فى داخله طول العام ، وان عددا كبيرا من الامراض الشديدة والعلل المنهكة ، ينشـــأ من اكتظاظ المعدة بما لا تطيق هضمه ، وقد جاء فى الحديث : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه » رواه الترمذى .

وقد أمرنا الله تبارك وتعالى بترك الاسراف فى الأكل والشرب ، فى رمضان وغيره فقال عز من قائل : « **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين** »(١) .

* * *

(١) الأعراف : ٣١

فلاحظ كل هذا أخا الاسلام ، ونفذه .. ونفذ كذلك ما أوصانا به الرسول صلى الله عليه وسلم ، بعد ذلك فى نص الوصية ، وهو : « وأدوا زكاة أموالكم » :

تنفيذا لأمر الله تعالى الذى يقول : « **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون** »(١) .

ويقول : « **أن المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم ، انهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم** »(٢) .

ففى الآية الأولى يأمرنا سبحانه وتعالى ـ كمؤمنين ـ بايتاء الزكاة : « .. **للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم** »(٣) :

وتلك هى :

مصارف الزكاة

كما حددتها وبينتها الآية الكريمة ، وهى على ثمانية :

١ ، ٢ ـ الفقراء والمساكين :

وهم المحتاجون الذين لا يجدون كفايتهم ، ويقابلهم الأغنياء وهم المكفيون ما يحتاجون اليه ، والقدر الذى يصير الانسان به غنيا : هو قدر النصاب الزائد عن الحاجات الأصلية له ولأولاده ومن تلزمه نفقتهم من مأكل ، ومشرب ، وملبس ، ومسكن ، ومركب ، وآلة حرفة ، ونحو ذلك ، فكل من عدم هذا القدر فهو فقير يستحق الزكاة وليس هناك فرق بين الفقراء وبين المساكين من حيث الحاجة والفاقة ومن حيث استحقاقهم للزكاة ، والمساكين : هم قسم من الفقراء لهم وصف خاص بهم .

وقد جاء فى الحديث ما يدل على أن المساكين هم الفقراء الذين يتعففون عن السؤال ولا يتفطن اليهم الناس .

عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان ولا اللقمة واللقمتان ..

---

(١) النور : ٥٦ (٢) الذاريات : ١٥ ـ ١٨

(٣) التوبة : ٦٠

انما المسكين الذى يتعفف ، اقرأوا ان شئتم : « **لا يسألون الناس الحافا** »[1] . رواه الامام مالك والامام أحمد قريبا من هذا المعنى وحكى بعضهم الاتفاق عليه .

٣ — العاملون عليها :

وهم الذين يوليهم الامام أو نائبه العمل على جمع الزكاة من الأغنياء ، ويدخل فيهم الحفظة لها والرعاة لأنعامها والكتبة لديوانها ، ويجب أن يكونوا من المسلمين وألا يكونوا ممن تحرم عليهم الصدقة ويجوز أن يكونوا من الأغنياء .

٤ — المؤلفة قلوبهم :

وهم الجماعة الذين يراد تأليف قلوبهم وجمعها على الإسلام أو تثبيتها عليه لضعف اسلامهم أو كف شرهم عن المسلمين أو جلب نفعهم فى الدفاع عنهم .

٥ — فى الرقاب :

ويشمل المكاتبين — من العبيد — ، فيعان المكاتبون بمال الزكاة لفك رقابهم من الرق ويشترى به العبيد ويعتقون .

٦ — الغارمون :

وهم الذين تحملوا الديون ، وتعذر عليهم أداؤها كمن التزم فى ذمته دينا لدفعه فى اصلاح ذات البين أو ضمن دينا فلزمه ، أو استدان لحاجته الى الاستدانة ، فهؤلاء يأخذون من الزكاة ما يفى بديونهم . ومن استدان لاصلاح ذات البين يأخذ من الزكاة ولو كان غنيا .

٧ — فى سبيل الله :

وسبيل الله هو الطريق الموصل الى مرضاته .. وجمهور العلماء على أن المراد به هنا الغزو . وأن سهم سبيل الله يعطى للمتطوعين من الغزاة الذين ليس لهم مرتب من الدولة ، فهؤلاء لهم سهم من الزكاة فيعطونه ولو كانوا من الأغنياء . قال فى المنار : يجوز الصرف من هذا السهم على تأمين طريق الحج وتوفير الماء ، والغذاء وأسباب الصحة للحجاج ان لم يوجد لذلك مصرف آخر .

وسبيل الله يشمل سائر المصالح الشرعية العامة وفى مقدمتها الاستعداد للحرب بشراء الأسلحة وأغذية الجند وأدوات النقل وتجهيز

---

(١) البقرة : ٢٧٣

الغزاة ، ويشمل انشاء المستشفيات ، وشق الطرق ، ومد الخطوط العسكرية واعداد الدعاة الى الاسلام .

٨ ــ ابن السبيل :

وهو المسافر الذى نفد ماله وأصبح فى حاجة الى مال ينفق منه حتى يصل ماله أو يصل الى بلده .

* * *

وحول توزيع الزكاة :

فقد اختلف الفقهاء فى توزيع الزكاة على الأصناف الثمانية السابقة .. والراجح أنه لا يجب توزيعها على الأصناف كلها ، وأنه يجوز توزيعها على جنس واحد ، وللمزكى أن يعطى بعض الجنس دون بعضه ، اذ المقصود من الزكاة هو سد الحاجة وهذا يقتضى تقديم أهل الحاجة على غيرهم .

* * *

مع ملاحظة : أن الأصناف الآتية لا تستحق الزكاة ولا تحل لهم ولا يجزى صرفها اليهم ، وهم :

١ ــ الكفرة والملاحدة :

وقد أجمع الأئمة على عدم جواز صرف شىء من الزكاة الواجبة ــ غير زكاة الفطر ــ الى غير المسلم ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم صرح بقصرها على فقراء المسلمين ، وذلك فى حديثه لمعاذ رضى الله عنه حين بعثه الى اليمن ، وقال له : « فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة من أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم » رواه البخارى .

أما زكاة الفطر فقد أجاز أبو حنيفة وحده صرف شىء منها لغير المسلم بينما منع الباقون من الأئمة ذلك ، وأما صدقة التطوع وهى غير الواجبة : فجمهور الأئمة يجيز توزيع بعضها على المحتاج غير المسلم ممن بيننا وبينهم صلة وعهد ، باعتبار أن برهم والاحسان اليهم لم يمنعنا الاسلام منه علما بأن دفعها للمسلم أفضل وأكثر ثوابا ، والأمر فى ذلك يرجع اليك والى تقديرك للظروف التى حولك .

وأهم شىء يجدر بنا أن نراعيه هو حاجة أقاربنا وجيراننا وأهل بلدتنا ، ومن لهم بنا صلة ، ومن هم أشد حاجة الى الزكاة ــ أو الصدقة بصفة عامة ــ من غيرهم .

٢ ــ آل البيت من بنى هاشم وبنى المطلب :

ففى الحديث : « ان الصدقة لا تنبغى لآل محمد ، انما هى أوساخ الناس » رواه مسلم . وعن أبى هريرة ، قال : أخذ الحسن ثمرة من ثمر الصدقة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « كخ .. كخ[1] ــ ليطرحها ــ أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة » متفق عليه .

٣ ــ الآباء والأبناء ويشمل الأجداد والأمهات والجدات وأبناء الأبناء والبنات :

فقد اتفق الفقهاء على أنه لا يجوز اعطاء الزكاة الى الآباء والأجداد والأمهات والجدات والأبناء وأبناء الأبناء ، والبنات وأبنائهن ، لأنه يجب على المزكى أن ينفق على آبائه وان علوا ، وأبنائه وان نزلوا ان كانوا فقراء : فهم أغنياء بغناه ، فاذا دفع الزكاة اليهم فقد جلب لنفسه نفعا بمنع وجوب النفقة عليه .

وقد استثنى مالك : الجد ، والجدة ، وبنى البنين ، فأجاز دفعها اليهم لسقوط نفقتهم[2] .. هذا فى حالة ما اذا كانوا فقراء ، فان كانوا أغنياء وغزوا متطوعين فى سبيل الله فله أن يعطيهم من سهم سبيل الله ، كما له أن يعطيهم من سهم الغارمين ، لأنه لا يجب عليه أداء ديونهم ويعطيهم كذلك من سهم العاملين اذا كانوا بهذه الصفة .

٤ ــ الزوجة :

لأن نفقتها واجبة على الزوج .. قال ابن المنذر : أجمع أهل العلم على أن الرجل لا يعطى زوجته من الزكاة . وسبب ذلك أن نفقتها واجبة عليه فتستغنى بها عن أخذ الزكاة مثل الوالدين الا اذا كانت مدينة فتعطى من سهم الغارمين لتؤدى دينها .

* * *

قال فى فقه السنة :

لا يجوز صرف الزكاة الى القرب التى يتقرب بها الى الله تعالى غير ما ذكر فى آية : « **انما الصدقات للفقراء والمساكين** » : فلا تدفع

---

(١) كخ بفتح أو كسر فسكون الخاء مخففا أو مثقلا وبكسرها منونة وغير منونة : كلمة لردع الصبى عن تناول ما لا ينبغى .

(٢) يرى ابن تيمية أنه يجوز دفع الزكاة الى الوالدين اذا كان لا يستطيع ان ينفق عليهما وكانا فى حاجة اليها .

لبناء المساجد والقناطر ، وإصلاح الطرقات ، والتوسعة على الأضياف ، وتكفين الموتى وأشباه ذلك .

قال أبو داوود : سمعت أحمد — وسئل : يكفن الموتى من الزكاة ؟ قال : لا ، ولا يقضى من الزكاة دين الميت[1] . وقال : يقضى من الزكاة دين الحى ، ولا يقضى منها دين الميت ، لأن الميت لا يكون غارما . قيل : فانما يعطى أهله . قال : ان كانت على أهله فنعم .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الاسلام ، وأد الزكاة التى أوجبها الله تعالى عليك : كمسلم حر مالك للنصاب من أى أنواع المال الذى تجب فيه الزكاة ، وهو : الذهب ، والفضة ، والزروع ، والثمار ، وعروض التجارة ، والسوائم ، والمعدن ، والركاز .

ويشترط فى النصاب — الذى سنقف عليه بعد ذلك — :

١ — أن يكون فاضلا عن الحاجات الضرورية التى لا غنى للمرء عنها كالمطعم والملبس والمسكن والمركب وآلات الحرفة .

٢ — وأن يحول عليه الحول الهجرى ، ويعتبر ابتداؤه من يوم أن ملك النصاب ولابد من كماله فى الحول كله . فلو نقص أثناء الحول ثم كمل اعتبر ابتداء الحول من يوم كماله . قال النووى : مذهبنا ومذهب مالك وأحمد والجمهور أنه يشترط فى المال الذى تجب الزكاة فى عينه ، ويعتبر فيه الحول كالذهب ، والفضة ، والماشية وجود النصاب فى جميع الحول ، فان نقص النصاب فى لحظة من الحول انقطع الحول ، فان كمل بعد ذلك استؤنف الحول من حين يكمل النصاب .

وقال أبو حنيفة : المعتبر وجود النصاب فى أول الحول وآخره ولا يضر نقصه بينهما ، حتى لو كان معه مائتا درهم فتلفت كلها فى أثناء الحول الا درهما ، أو أربعون شاة فتلفت فى أثناء الحول الا شاة ، ثم ملك فى آخر الحول تمام المائتين وتمام الأربعين وجبت زكاة الجميع .

وهذا الشرط لا يتناول زكاة الزروع والثمار ، فانها تجب يوم الحصاد ، قال الله تعالى : « .. **وآتوا حقه يوم حصاده** »[2] .

وقال العبدرى : أموال الزكاة ضربان أحدهما ما هو نماء فى نفسه ،

---

(١) لأن الغارم هو الميت ولا يمكن الدفع اليه وان دفعها للغريم صار الدفع الى الغريم لا الى الغارم .

(٢) الأنعام : ١٤١

كالحبوب والثمار ، فهذا تجب الزكاة فيه لوجوده . والثانى : ما يرصد للنماء ، كالدراهم والدنانير وعروض التجارة والماشية ، فهذا يعتبر فيه الحول فلا زكاة فى نصابه حتى يحول عليه الحول ، وبه قال الفقهاء كافة ، انتهى . من المجموع للنووى .

* * *

والزكاة عبادة فيشترط لصحتها النية ، وذلك أن يقصد المزكى عند أدائها وجه الله ، ويطلب بها ثوابه ويجزم بقلبه أنها الزكاة المفروضة عليه ، قال الله تعالى : « **وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين** »[1] .

وفى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى » . واشترط مالك والشافعى : النية عند الأداء أو عند عزل الواجب . وجوز أحمد تقديمها على الأداء زمنا يسيرا .

ويجب اخراج الزكاة عند وجوبها ، ويحرم تأخير أدائها عن وقت الوجوب الا اذا لم يتمكن من أدائها فيجوز له التأخير حتى يتمكن ، لما رواه أحمد والبخارى عن عقبة بن الحارث ، قال : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم العصر ، فلما سلم قام سريعا فدخل على بعض نسائه ، ثم خرج ، ورأى ما فى وجوه القوم من تعاجبهم لسرعته ، قال : « ذكرت وأنا فى الصلاة تبرا[2] عندنا ، فكرهت أن يمسى أو يبيت عندنا ، فأمرت بقسمته » .

وروى الشافعى والبخارى فى التاريخ عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « **ما خالطت الصدقة مالا قط الا أهلكته** » رواه الحميدى وزاد ، قال : « يكون قد وجب عليك فى مالك صدقة فلا تخرجها ، فيهلك الحرام الحلال » .

* * *

ويجوز تعجيل الزكاة وأداؤها قبل الحول ولو لعامين ، فعن الزهرى أنه كان لا يرى بأسا أن يعجل الرجل زكاته قبل الحول . وسئل الحسن عن الرجل أخرج ثلاث سنين يجزيه ؟ قال : يجزيه . قال الشوكانى : والى ذلك ذهب الشافعى ، وأحمد ، وأبو حنيفة ، وبه قال

---

(١) البينة : ٥

(٢) التبر : قال الجوهرى : لا يقال الا للذهب . وقد قال بعضهم فى الفضة .

الهادى والقاسم ، قال المؤيد بالله : وهو أفضل . وقال مالك وربيعة وسفيان الثورى وداوود وأبو عبيد بن الحارث . ومن أهل البيت الناصر : انه لا يجزى حتى يحول الحول ، واستدلوا بالأحاديث التى فيها تعلق الوجوب بالحول وقد تقدمت وتسليم ذلك لا يضر من قال بصحة التعجيل ، لأن الوجوب متعلق بالحول فلا نزاع ، وانما النزاع فى الاجزاء قبله . انتهى . قال ابن رشد : وسبب الخلاف هل هى عبادة أو حق واجب للمساكين .. فمن قال انها عبادة وشبهها بالصلاة لم يجز اخراجها قبل الوقت ، ومن شبهها بالحقوق الواجبة المؤجلة أجاز اخراجها قبل الأجل على جهة التطوع ، وقد احتج الشافعى لرأيه بحديث على أن النبى صلى الله عليه وسلم استسلف صدقة العباس قبل محلها ، انتهى .

* * *

والآن أخا الاسلام ، وبعد أن وقفت معى على تلك الأساسيات التى كان لابد وأن تكون على علم بها ، حتى تؤدى زكاتك على أساس من الفقه ، اليك :

*** زكاة الذهب والفضة :**

عن على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « اذا كانت لك مائتا درهم وحال عليها الحول ففيها خمسة دراهم . وليس عليك شىء — يعنى فى الذهب — حتى يكون لك عشرون دينارا . فاذا كانت لك عشرون دينارا وحال عليها الحول ففيها نصف دينار . والدينار وزنه مثقال » رواه أبو داوود .

بهذا الحديث تحدد المقدار الذى تجب فيه الزكاة وهو ما يسمى « نصابا » كما تحددت قيمة الزكاة وهى فى الاثنين ربع العشر .

وهل المثقال الذى كان يتعامل به الناس فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، هو المثقال المعروف لنا الآن ، أو غيره وكذلك الدرهم ؟ ..

ليس بين أيدينا الآن ، ما يعطينا الجواب الصحيح ولذلك فنحن نقدم لك هذه المعلومات على أساس وزن المثقال والدرهم الآن ، وان كان وزن المثقال نفسه الآن متغيرا حسب البلاد .. فقد أفادنا تجار الذهب بالكويت أن المثقال العجمى = ٤٫٨ جرامات والمثقال العراقى = ٥ جرامات وبينهما فرق ضئيل .

وعلى هذا فلا مناص لنا من أن يحسب كل واحد زكاته على أساس المثقال المتعامل به عنده حتى نعثر على تحقيق دقيق لما يساويه العشرون

مثقالا فى عهد الرسول من موازيننا الآن ، وكذلك الدراهم .. فاذا كنت تملك ذهبا أو فضة على شكل سبائك أو عملة تتعامل بها ، فان بلغ وزن الذهب عشرين مثقالا أو بلغت الفضة مائتى درهم فقد وجبت فيها الزكاة « ربع العشر » — ٢٫٥٪ — وما زاد على هذا المقدار فبحسابه فتخرج عن كل زائد ربع عشره .

وان كان أبو حنيفة لا يرى فى الزائد زكاة حتى يبلغ خمس النصاب فيكون فيه ربع العشر .. فمن يملك مائتى درهم فضة فزكاته قدرها خمسة دراهم ، ويحسب قيمة الزكاة بالعملة الجارية ويوزعها ، فاذا كانت زكاته مثلا خمسة دراهم فضة أخرج قيمة هذه الدراهم بالعملة السائدة فى بلده ، وحسب السعر الجارى وكذلك الأمر فى الذهب ..

*** زكاة العملات الجارية :**

التعامل الجارى الآن لا يتم غالبا بالعملة الذهبية أو الفضية ، وكل دولة من الدول لها عملتها ونقودها السائدة وهى قد تكون من نحاس أو نيكل أو ألمنيوم أو ورق والعملة الورقية هى الغالبة كما نعرف . ولنفرض أن انسانا عنده عشرات أو مئات الأكياس من العملة النحاس أو النيكل أو ما شبههما من المعادن فهل يزكى عنها ؟ مع العلم بأن قيمة هذه العملات مرتبطة بالجنيه ، ومن الممكن تحويلها اليه ، لهذا كله نرى أن فيها زكاة كبقية العملات الجارية . فيزكى عليها اذا بلغ ما عنده منها قيمة النصاب فيخرج عنها ربع العشر . وما دامت هذه العملة وحدة من وحدات الجنيه ويمكن تحويلها اليه فانها تحسب على أساس ما يحسب به الجنيه الورق المتعامل به .

*** زكاة أوراق البنكنوت :**

اذا بلغ ما يملكه المسلم منها ما قيمته عشرون مثقالا من الذهب فنحسب البنكنوت على أساس نصاب الذهب لأن لها مقابلا ذهبيا فى بنك الدولة هو ما يسميه الاقتصاديون بالغطاء الذهبى .

ويجب أن نلاحظ بعناية أن قيمة الذهب والفضة تختلف من زمن الى زمن ومن بلد الى بلد كما هو معروف .

وعلى هذا يجب أن يراعى كل انسان القيمة السائدة للذهب فى بلده وقت اخراج الزكاة ، قد يختلف فى الكويت مثلا ، عنه فى السعودية .. فى مصر .. فى العراق .. الخ . وذلك حسب سعر الذهب فيها .

كما أن المبلغ الذى تجب فيه الزكاة قد يختلف أيضا من سنة الى

سنة فى البلد نفسه وذلك حسب اختلاف سعر الذهب . وهذا ما يجب أن يتنبه اليه الناس جيدا ولا سيما المفتون من العلماء ولا يعتمدوا على أرقام المبالغ التى دونت فى الكتب من قبل لأنها حسبت على حساب سعر الذهب والفضة فى زمنهم ، والأسعار متغيرة كما نعرف ، وما دام الوزن ثابتا حسب النص ، فانه من الممكن حساب قيمته كل سنة حسب الأسعار فى نهاية السنة عند اخراج الزكاة .

*** كيف تحسب زكاة العملة ؟**

اذا كانت بلدك تتعامل بالمثقال وبالدرهم فاعرف كم يساوى العشرون مثقالا من الذهب بالعملة الجارية ، فاذا وجدت أن عندك قيمة العشرين مثقالا من أوراق البنكنوت ، أو من العملة المعدنية كالنحاس والنيكل ، فانك تكون حينئذ قد ملكت النصاب .

وعليك أن تعرف اليوم الذى بدأ فيه ملكك له ليكون بدء سنته الزكاة ..

أما اذا لم تكن بلدك تتعامل بالمثقال ولا يمكنك معرفته ، فاننا نضع أمامك ما وصلنا اليه بعد الرجوع الى تجار الذهب فى الكويت :

قالوا : ان عندنا نوعين من المثاقيل ، هما :

المثقال العجمى = ٤٫٨٠ جرامات ، فالعشرون مثقالا تساوى ٩٦ جراما .

المثقال العراقى = ٥ جرامات ، فالعشرون مثقالا تساوى ١٠٠ جرام .

والتفاوت بسيط على كل حال ، وعلينا أن نعتمد على الأقل وهو ٩٦ من باب الاحتياط . ومن السهل بعد ذلك أن يعرف كل انسان من سوق بلده ما تساويه الـ ٩٦ جراما من الذهب بالجنيهات الورقية ويحسب زكاته .

بقى عندنا سؤال يقوم فى الأذهان .. وهو : لنفرض أن النصاب توفر فى وقت من الأوقات كان بدء سنة الزكاة ولكن هذا المبلغ نقص أثناء السنة ثم زاد حتى بلغ نصابا أو أكثر عند تمام السنة ، فما الحكم فى هذه الحالة ؟ ..

الامام أبو حنيفة يرى أنه لا يضر النقصان عن النصاب أثناء السنة اذ أن العبرة عنده بوجوده فى أولها وعند نهايتها ، وعلى ذلك يرى وجوب الزكاة فى هذه الحالة .

أما غيره ، فيرى أنه لابد من وجود النصاب طول السنة بحيث لو نقص فى يوم من أيامها انقطعت السنة ، فاذا زاد حتى بلغ النصاب فى يوم من الأيام بدأ حساب سنة جديدة من وقت بلوغه النصاب .

وبعض من لا دين عندهم يحاولون أن يفلتوا من الزكاة ويظنون أنهم يتعاملون مع أفراد لا مع الله الذى يعلم ما فى الصدور فيتهربون من اخراج الزكاة ، ولكن اذا تهربوا فى الدنيا وضنوا بحق الله ، فأين يهربون من الله فى الآخرة يوم لا ملجأ منه الا اليه « **يوم لا ينفع مال ولا بنون . الا من أتى الله بقلب سليم** »(١) ؟ ..

هذا هو الضابط وهو الفرق بين ما يفرضه الله على عباده ، وما يفرضه العباد على العباد خارجا من شرع الله .

* زكاة الحلى :

اعتاد الناس أن يتخذوا من الذهب والفضة حليا للزينة ، كما اعتاد بعضهم أن يستعمل بعض الأدوات المتخذة منهما — من الذهب والفضة — كالملاعق ، والشوك ، والأطباق ، والتحف ، وما الى ذلك .. فهل تكون عليها زكاة ؟ ..

قال جمهور الأئمة : ان كانت الحلى مباحة فلا زكاة عليها .

وقال الامام أبو حنيفة : بل تجب فى الحلى المباحة زكاة .

ومن المعلوم أن المرأة هى التى يباح لها فقط التحلى بالذهب والفضة ، ولا يباح للرجل التحلى بالذهب مطلقا ، ولا بالفضة الا بقدر خاتم صغير منها ، أما استعمال الأوانى والتحف من الفضة أو الذهب فحرام على الرجل والمرأة معا . وعلى هذا تجب الزكاة على ما يتخذه الرجل من زينة ذهبية أو فضية وعلى كل الأوانى المصنوعة منهما المملوكة للرجل أو المرأة وتحسب على أساس نصاب الذهب أو الفضة كما قدمنا .

وعلى رأى من قال بعدم الزكاة على حلى المرأة برد ما يذهب اليه بعض الناس من اتخاذ حلى المرأة مادة ادخار حتى لنجدها أحيانا زائدة عن حد الزينة لمثلها فما يكون الرأى فى هذه الحالة ؟

نرى أن الانصاف فى هذه الحالة يقضى بوجوب فرض زكاة عليها لأنها خرجت عن الغرض المقصود منها وهى الزينة الى الادخار .

---

(١) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩

*** الحلى من الجواهر :**

وقد اعتاد البعض التحلى بخواتم أو بعقود من الماس أو اللؤلؤ أو غيرها من الأحجار الكريمة الغالية الثمن حتى ليصل ثمن الخاتم الى عدة آلاف كما يصل ثمن العقد الى عشرات الألوف ، فهل فى هذه الحلى زكاة ؟

والجواب أن هذه الحلى لم يرد النص بتحريمها ، ومن ثم فهى مباحة ، كما لم يرد نص بالزكاة عليها ، ومن ثم لم يقل أحد من الفقهاء أن عليها زكاة حتى الذين قالوا ان فى حلى الذهب والفضة المباحة زكاة كالامام أبى حنيفة ، ومع ذلك فانها لو اتخذت حليا بقصد الادخار فانه يكون لها شأن آخر اذ أنه يمكن القول فى هذه الحالة بأن عليها زكاة على حسب قيمتها فى آخر كل عام .

وقد جاء فى فتاوى الشيخ شلتوت عن زكاة الحلى من الذهب والفضة ما يأتى :

« حلى المرأة ان كان المقصود من اتخاذه التزين ، كان من الحاجة الأصلية للمرأة ولهذا لا تتعلق به زكاة ، وأما اذا اتخذته كنزا وادخارا باسم الحلى وانما وضعته فى يدها حفظا له من الضياع ، فقد صار نقدا لم تتعلق به حاجة أصلية لصاحبته ، وبهذا تجب فيه زكاة » .

*** زكاة الدين :**

للأئمة والفقهاء المجتهدين آراء وتفصيلات كثيرة حول زكاة الدين مذكورة فى كتب الفقه . ومن خلال هذه الآراء والتفصيلات يمكن أن نختار لك هذا الموجز :

فالدين الذى لك على آخر أو آخرين اما أن يكون :

١ — دينا حيا ، وهو ما كان المدين معترفا به مستعدا لسداده فى وقته أو عند طلبه .

٢ — أو دينا على معسر لا يرجى منه السداد أو على مماطل أو جاحد له غير معترف به .

والقسم الأول ، وهو الدين الحى : يرى جمهور الأئمة أن على الدائن زكاة ماله بالشروط السابقة فى زكاة المال الا أنه لا يجب عليه اخراج زكاته الا بعد قبضه ويزكى عن المدة الماضية كلها سنة أو أكثر .

أما اذا كان الدين من النوع الثانى وهو ما يكون على معسر أو

مماطل أو جاحد : فأكثر الأئمة على أنه لا زكاة فيه ، وان كان الامام مالك يرى أنه اذا قبضه فانه يزكى عنه لعام واحد فقط ولو مكث عنده الدين أعواما .

ومن كان عليه دين يستغرق كل ماله أو بعضه ، فهل عليه زكاة ؟

قال الشافعية : نعم عليه زكاة فيما تحت يده من مال لو بلغ نصابا .

وقال الحنفية : لا زكاة عليه فيما تحت يده من مال الا زكاة الزروع والثمار فانها تجب .

وقال المالكية : لا زكاة عليه فيما تحت يده من مال الا زكاة الزروع والثمار والماشية فانها تجب .

وقال الحنابلة بمثل ذلك ..

ونحن نميل الى الأخذ برأى الذين يقولون لا زكاة عليه فى المقدار الذى يساوى الدين الذى عليه .

*** زكاة عروض التجارة :**

اذا كان الانسان يتاجر فى أية سلعة من السلع وجب عليه أن يخرج الزكاة اذا بلغت قيمة السلعة الجارية نصابا عند تمام الحول .

والدليل على ذلك ما رواه أبو داوود والبيهقى عن سمرة بن جندب ، قال : أما بعد .. فان النبى صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا أن نخرج الصدقة « الزكاة » مما نعده للبيع .

وما رواه أبو عمرو بن حماس عن أبيه ، قال : كنت أبيع الأدم « الجلد » والجعاب « الخفاف » فمر بى عمر بن الخطاب ، فقال : أد صدقة مالك . فقلت : يا أمير المؤمنين انما هو الأدم . قال : قومه ثم أخرج صدقته .

فكل سلعة يتاجر فيها الانسان سواء أكانت أصلا من الأصناف التى تزكى كالحبوب والماشية أم لم تكن كالأقمشة والأشياء المصنوعة ، والأرض ، والعقارات والأسهم وغيرها : تجب الزكاة فيها بالشروط الآتية :

١ — أن تكون عنده نية التجارة فيها .

٢ — أن تبلغ قيمة السلعة أو السلع التى يملكها ويتاجر فيها نصابا عند تمام السنة التجارية .

٣ — والنصاب المعتبر هنا هو النصاب المذكور فى زكاة الذهب والفضة ، فيأتى آخر العام ويجرى جردا عاما لممتلكاته التى يتاجر

فيها ، ويحسب قيمتها وقت الجرد ، ولا يدخل فى ذلك قيمة الأثاث والأجهزة الموجودة فى المحل اللازمة للتجارة ، فان بلغت قيمتها حسب سعر السوق نصابا أو زادت زكاها باخراج ربع عشرها والا فلا زكاة ، وكل تاجر فى بلده يخرج زكاته على أساس قيمة النصاب المالى فيها كما قلنا فى زكاة الذهب والفضة • ولا يضر نقصان قيمة التجارة عن النصاب أثناء الحول اذ العبرة بالقيمة عند تمامه • وتقويم السلع التجارية يكون على أساس العملة الجارية فى بلده •

واذا كانت له عدة محال تجارية فانها تضم بعضها الى بعض وتحسب قيمة ما فى هذه المحال ويخرج عنها الزكاة وهى ربع العشر •• واذا كان يملك أرضا أو عقارا أو مثل ذلك ثم نوى فيه التجارة بدأت سنة الزكاة من حين نيته التجارة فيها ••

ويلاحظ أن الربح يضم الى رأس المال عند الجرد السنوى الختامى وتؤدى الزكاة عن الجميع ، فلو بدأت التجارة مثلا بمائة دينار وفى آخر العام بلغت خمسمائة دينار فالزكاة واجبة على الخمسمائة دينار ، بل ولو كان رأس مال التجارة عند بدئها لا يبلغ نصابا فربح حتى بلغ رأس المال والربح نصابا أو أكثر زكى عليه ••

ومعلوم أن التاجر عندما يعمل حسابه الختامى فى آخر العام يحسب ماله من الديون على الآخرين وما عليه للآخرين ويعرف بعد ذلك قيمة ما يمتلكه ويضم اليه ماله المدخر ان كان وعلى هذا تكون الزكاة • اللهم الا اذا كان له دين على تاجر مفلس أو عميل لا ينتظر منه السداد فلا يحسب فيما تجب فيه الزكاة •

* زكاة التأمين النقدى :

التأمين النقدى الذى يدفعه المستأجر للمالك مال مملوك للمستأجر مودع عند المالك ضمانا لسداد الأجرة فى مواعيدها ، فتجب زكاته على مالكه لا على المؤجر اذا توفرت شروط الوجوب •

* زكاة العقار :

العقار الذى يتجر فيه صاحبه بالبيع والشراء حكمه حكم السلع التجارية ويزكى زكاة عروض التجارة ، والعقار الذى يسكنه صاحبه ، أو يكون مقرا لعمله كمحل للتجارة ومكان للصناعة لا زكاة فيه ، والعقار

الذى يستغله مالكه بالايجار لا زكاة فى عينه ، ولكن غلته تخضع للزكاة بشروطها اذا توفرت من النصاب الزائد عن حاجته والحول .

*** زكاة الأسـهم :**

يرى بعض الفقهاء المعاصرين أن الأسهم التى تتخذ للتجارة تجرى فيها زكاة عروض التجارة ، ومقدارها : ربع العشر فى قيمتها بعد حولان الحول .

أما الأسهم التى لا يقصد صاحبها التجارة فيها ، فتجب الزكاة فى غلاتها ، بعد كل النفقات ، والقدر الواجب اخراجه هو عشر الصافى من الغلة .

*** زكاة الزروع والثمـار :**

وردت آيات من القرآن الكريم تأمر المؤمنين بالانفاق مما أخرجته الأرض ، ومنها أخذ الفقهاء وجوب اخراج زكاة الزروع ، والثمار ، وان اختلفت وجهة نظرهم فى الأصناف التى تؤخذ عليها زكاة ، والأصناف التى لا تؤخذ عليها ، ويقول الله تعالى فى سورة الأنعام : « **وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفـا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ، كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده** »[1] .

ويقول تعـالى : « **يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون** »[2] .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « فيما سقت السماء والعيون أو كان عثريا العشر وفيما سقى بالنضح نصف العشر » رواه الجماعة الا مسلما .

والعثرى بفتح العين والثاء وكسر الراء : الذى يشرب بجذوره لأنه عثر على المـاء فى باطن التربة فلم يعد فى حاجة الى سـقى . أما النضح فهى آلة السقى كالساقية والمـاكينة ونحوهما .

*** الأصناف التى تزكى :**

والذى يتتبع آراء الأئمة حول الأصناف التى تجب فيها الزكاة يجدهم مختلفين فى وجهات نظرهم حولها .

فيرى الأحناف أن الزكاة واجبة فى كل ما يستنبته الانسان من الأرض ، لا فرق بين حبوب وخضر وثمار وفواكه ، فكل ما يزرعـه

---

(١) الأنعام : ١٤١ (٢) البقرة : ٢٦٧

الانسان عليه زكاة ، مع استثناء نحو الحطب والقصب الفارسى والأشجار غير المثمرة وهى واجبة عنده فى القليل والكثير .

أما جمهور الأئمة فيرون أن الزكاة واجبة فى ثمار النخل والكرم وفى كل ما يزرع للقوت بشرط أن يكون صالحا للادخار كالقمح ، والشعير ، والأرز ، والذرة ، واللوبيا ، والحمص ، والعدس ونحو ذلك ، ويزيد الامام أحمد على هذا أنه لا يشترط أن يكون ما يدخر صالحا للأكل فيوجب الزكاة على ما يدخر ولو كان غير صالح للأكل كحب الفجل والفواكه والقطن والكتان وما شابه ذلك ..

وتجب الزكاة فى الثمار عند نضجها واستطابة أكلها كما تجب فى الزروع بعد قوتها واشتدادها وتصفيتها ، فاذا قطعت قبل نضجها أو بدو صلاحها واشتدادها فلا زكاة عليها .

*** نصاب الزكاة :**

وقد سبق أن عرفت أن الامام أبا حنيفة يوجب الزكاة فى القليل والكثير ولا يشترط بلوغها نصابا .

أما الآخرون فانهم يشترطون مع ما تقدم أن تبلغ الثمار أو الزروع النصاب ، وهو خمسة أوسق حسب نص الحديث السابق ، وذلك بعد تصفية نحو الأرز من قشره ومن الطين والتراب وبعد جفاف الثمر .

والوسق قدره الرسول صلى الله عليه وسلم بستين صاعا بصاع المدينة فى عهده صلى الله عليه وسلم ، فيكون النصاب ثلاثمائة صاع ، والصاع قدح وثلث .

ولا شك أن المكاييل تغيرت الآن عما كانت عليها فى عهد الرسول ، وقد قدر بعض العلماء النصاب حسب المكاييل الحاضرة بأربعة أرادب وكيلتين .. والأردب اثنتا عشرة كيلة ..

وعلى هذا فمن يعرفون عندهم الآن مقدار الصاع المدنى فأمامهم مقدار النصاب بالصيعان ، ومن لا يعرفونه فأمامهم قدر النصاب حسب الكيل المعمول به فى مصر الآن ..

وقد قدر بعض العلماء النصاب بالوزن فقالوا : انه يبلغ بالرطل البغدادى قديما (وهو نحو ١٢٩ درهما) ١٦٠٠ رطل بغدادى وبالرطل المعمول به الآن ١٤٣٩ رطلا .

ولكن لو لجأنا الى الوزن فسنجد أن الحبوب بعضها ثقيل كالأرز مثلا وبعضها خفيف كالشعير ، فلو اتخذنا الوزن مقياسا فيسختلف

المقدار فى الكيل وعلى هذا فان علينا أن نعتبر فى النصاب الكيل كما ورد فى الحديث .

وقد جاء فى دائرة المعارف الاسلامية المجلد (١٤ ص ١٠٥) أن مد النبى صلى الله عليه وسلم يساوى ٧٥ لترا على وجه التقريب فيكون الصاع على هذا ثلاثة ألتار كيلا تقريبا ، واللتر معروف لدى معظم الدول الاسلامية .

*** المقدار الواجب اخراجه :**

نص الحديث الوارد الذى ذكرناه من قبل : بين لنا هذا ، ففى كل زرع يسقى بماء المطر أو بماء الأنهار دون تكلفة من الزارع فزكاته العشر ، أما اذا سقى بالساقية أو الماكينة أو الشادوف أو نحو ذلك مما يتكلفه الزارع فى سقيه ، فزكاته نصف العشر .

واذا سقى نصف المدة بهذا ونصفها الآخر بذاك : فزكاته ثلاثة أرباع العشر ، والمرجع فى هذا ضمير الزارع ووازعه الدينى .

*** ضريبة الأرض والزكاة :**

تفرض الحكومات عادة ضريبة على الأرض الزراعية تختلف قيمتها حسب جودة الأرض أو عدم جودتها ، وهذه الضريبة تتقاضاها الدولة نظير ما تقوم به من شق الترع والمصارف والطرق والسدود وتوفير الوسائل لتحسين الزراعة والنهوض بها كتعيين المشرفين والمرشدين الزراعيين وغير ذلك ، فهل يمكن اعتبار هذه الضريبة زكاة ؟ ..

بالنظرة الأولى لوظيفة الضريبة ومصارفها نجد أنها غير الزكاة ومصارفها ، ومن هنا اختلف الغرض من كل منهما ولا يصح بالتالى أن تقوم الضريبة مقام الزكاة وتغنى عنها ، ومعلوم أن الضريبة تؤخذ سنويا ، أما الزكاة فتؤخذ من الزراعة عند نضجها سواء نضجت فى شهور أم سنة ..

*** زكاة الأنعام :**

الأصناف التى تجب فيها الزكاة ، هى : الابل ، والبقر ، والجاموس ، والغنم ، والماعز . ولا يزكى عنها الا بشروط أربعة :

١ — أن تكون سائمة ، أى ترعى الكلأ المباح أكثر السنة ، وهذا الشرط عند الجمهور ، أما المالكية فانهم لا يشترطون السوم فى وجوب زكاة النعم ، بل تجب سواء أكانت معلوفة أم سائمة .

٢ — أن تتخذ الماشية للدر والنسل والتسمين لا للعمل . وهذا

أيضا على رأى الجمهور بخلاف المالكية ، فانهم لا يشترطون هذا الشرط بل يرون أن الزكاة واجبة فى النعم سواء أكانت عاملة أم غير عاملة .

٣ — أن تبلغ نصابا معينا كما سنوضحه فيما بعد .

٤ — أن يحول عليها الحول الا ما تولد منها أثناء العام ، فانه لا يشترط لوجوب الزكاة فيه مرور عام جديد ولكن يزكى مع الكبار عند تمام عامها .

واليك بعد هذا النصاب والمقدار الواجب فى كل نوع :

*** نصاب زكاة البقر :**

النصاب	القدر الواجب
من ٣٠ الى ٣٩	تبيع أو تبيعه وهو ما له سنة .
من ٤٠ الى ٥٩	مسنة وهى ما لها سنتان .
من ٦٠ الى ٦٩	تبيعان .
من ٧٠ الى ٧٩	مسنة وتبيع .
من ٨٠ الى ٨٩	مسنتان .
من ٩٠ الى ٩٩	ثلاثة أتباع .
من ١٠٠ الى ١٠٩	مسنة وتبيعان .
من ١١٠ الى ١١٩	مسنتان وتبيع .

وما زاد على ذلك ففى كل ثلاثين منه تبيع ، وفى كل أربعين مسنة .

*** نصاب زكاة الابل :**

النصاب	القدر الواجب
من ٥ الى ٩	شاة .
من ١٠ الى ١٤	شاتان .
من ١٥ الى ١٩	ثلاث شياه .
من ٢٠ الى ٢٤	أربع شياه .
من ٢٥ الى ٣٥	بنت مخاض[1] .
من ٣٦ الى ٤٥	بنت لبون[2] .

---

(١) وهى التى دخلت فى سنتها الثانية ، وسميت بذلك لأن أمها عادة تصبح من المخاض أى الحوامل .

(٢) وهى التى دخلت فى الثالثة ، وسميت بذلك لأن أمها عادة تصبح فى هذه المدة ذات لبن نتيجة الحمل بعدها والولادة .

من ٤٦ الى ٦٠ حقـــة[1] .
من ٦١ الى ٧٥ جذعـــة[2] .
من ٧٦ الى ٩٠ بنتـــا لبـــون .
من ٩١ الى ١٢٠ حقتـــان .
فاذا زادت ، ففى كل أربعين ابنة لبـــون ، وفى كل خمسين حقة .

* **نصاب زكاة الغنـــم :**

النصاب	القدر الواجب
من ٤٠ الى ١٢٠	شاة لها سنة .
من ١٢١ الى ٢٠٠	شاتان .
من ٢٠١ الى ٣٠٠	ثلاث شياه .

فاذا زادت بعد ذلك ، ففى كل مائة شاة .

هذا ويجوز اخراج الذكور فى الزكاة اتفاقا ، اذا كان نصـــاب الغنم كله ذكورا ، فان كان اناثا فقط أو اناثا وذكورا ، جـــاز اخراج الذكور عند الأحناف ، وتعينت الأنثى عند غيرهم .

* * *

والآن أخا الاسلام ، وبعد أن وقفت على هذه الأحكام المتعلقة بالزكاة وأنواعها ، والتى كان لابد وأن تقف عليها حتى تؤدى زكاتك على أساس من الفقه الذى به تكون عالما لا جاهلا :

بعد أن وقفت على كل هذا ، أرجو ألا تنسى الآية الثانية ، التى أخبرنا الله تعـــالى فيهـــا ، بأن فى أموالنـــا حق معلوم : « **للســـائل والمحروم** »[3] :

وذلك حتى نحرص على أن نكون من هؤلاء الذين يريدون وجه الله كما تشير الآية الكريمة التى يقول الله تعالى فيها :

« **فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون . وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون** »[4] .

---

(١) وهى التى دخلت فى الرابعة وسميت بذلك لأنها استحقت أن يطرقها الفحل .

(٢) وهى التى دخلت فى الخامسة ، وسميت بذلك لأنها اجذعت ، أى : سقط مقدم اسنانها .

(٣) المعارج : ٢٥

(٤) الروم : ٣٨ ، ٣٩

فحول هاتين الآيتين ، قال القرطبى :

قوله تعـــالى : « **فآت ذا القربى حقه** » فيه ثلاث مسائل :

الأولى : لمـــا تقدم أنه سبحانه وتعالى يبسط الرزق ويقدر[1] آمر من وســـع عليه الرزق أن يوصل الى الفقير كفايته ليمتحن شكر الغنى • والخطاب للنبى صلى عليه وسم والمراد هو أمته ؛ لأنه قال : « **ذلك خير للذين يريدون وجه الله** »[2] • وامر بايتاء ذى القربى لقرب رحمه ، وخير الصدقة ما كان على القريب ، وفيها صلة الرحم • وقد فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصدقة على الأقارب على عتق الرقاب ، فقال لميمونة وقد أعتقت وليدة : « أما انك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لك فى أجرك » •

الثانية : واختلف فى هـــذه الآية ، فقيل : انها منســـوخة بآية المواريث • وقيل : لا نسخ ، بل للقريب حق لازم فى البـــر على كل حال ، وهو الصحيح • قال مجاهد وقتادة : صلة الرحم فرض من الله عز وجل ، حتى قال مجاهد : لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاجة • وقيل : المراد بالقربى أقرباء النبى صلى الله عليه وسلم •

والأول أصح ، فان حقهم مبين فى كتاب الله عز وجل فى قوله : « **فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى** »[3] •

وقيل : ان الأمر بالايتاء لذى القربى على جهة الندب • قال الحسن : « **حقـــه** » المواساة فى اليسر ، وقول ميسور فى العسر •

« **والمسكين** » ، قال ابن عباس : أى أطعم الســـائل الطواف ، « **وابن السبيل** » الضيف ، فجعل الضيافة فرضا •

الثالثة : « **ذلك خير للذين يريدون وجه الله** » ، أى اعطاء الحـــق أفضل من الامساك اذا أريد بذلك وجه الله والتقرب اليه •

« **وأولئك هم المفلحون** » أى الفائزون بمطلوبهم من الثواب فى الآخرة •

* * *

---

(١) انه يشير الى الآية : ٣٧ فى سورة الروم التى قبل هاتين الآيتين ، وهى : « **أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشـــاء ويقدر ، ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** » : أى يوسع الخير فى الدنيا لمن يشاء أو يضيق ، فلا يجب أن يدعو هم الفقر الى القنوط .

(٢) الروم : ٣٨ (٣) الأنفال : ٤١

ثم يقول القرطبى بعد ذلك ــ بايجاز وتصرف ــ : قوله تعالى : **« وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون »**[1] ، فيه أربع مسائل :

الأولى : لما ذكر ما يراد به وجهه ويثيب عليه ، ذكر غير ذلك من الصفة وما يراد به أيضا وجهه • وقرأ الجمهور « آتيتم » بالمد بمعنى أعطيتم • وقرأ ابن كثير ومجاهد وحميد بغير مد بمعنى ما فعلتم من ربا ليربوا ، كما تقول : أتيت صوابا وأتيت خطأ • وأجمعوا على المد فى قوله : **« وما آتيتم من زكاة »** • والربا الزيادة ، وقد مضى فى « البقرة » معناه ، وهو هناك محرم ، وههنا حلال • وثبت بهذا أنه قسمان : منه حلال ومنه حرام • قال عكرمة فى قوله تعالى : **« وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس »** : قال : الربا ربوان ، ربا حلال ، وربا حرام ، فأما الربا الحلال فهو الذى يهدى ، يلتمس ما هو أفضل منه • وعن الضحاك فى هذه الآية : هو الربا الحلال الذى يهدى ليثاب ما هو أفضل منه ، لا له ولا عليه ، ليس له أجر وليس عليه فيه اثم • وكذلك قال ابن عباس **« وما آتيتم من ربا »** يريد هدية الرجل الشىء يرجو أن يثاب أفضل منه ، فذلك الذى لا يربوا عند الله ولا يؤجر صاحبه ولكن لا اثم عليه ، وفى هذا المعنى نزلت الآية • قال ابن عباس وابن جبير وطاووس ومجاهد : هذه آية نزلت فى هبة الثواب • قال ابن عطية : وما جرى مجراها مما يصنعه الانسان ليجازى عليه كالسلام وغيره فهو وان كان لا اثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله تعالى • وقاله القاضى أبو بكر بن العربى • وفى كتاب النسائى عن عبد الرحمن بن علقمة ، قال : قدم وفد ثقيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعهم هدية ، فقال : أهدية أم صدقة ؟ فان كانت هدية فانما يبتغى بها وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقضاء الحاجة ، وان كانت صدقة فانما يبتغى بها وجه الله عز وجل » قالوا : لا بل هدية ، فقبلها منهم وقعد معهم يسائلهم ويسألونه •

وقال ابن عباس أيضا وابراهيم النخعى : نزلت فى قوم يعطون قراباتهم واخوانهم على معنى نفعهم وتمويلهم والتفضل عليهم ، وليزيدوا فى أموالهم على وجه النفع لهم • وقال الشعبى : معنى الآية أن ما خدم

---

(١) الروم : ٣٩

الانسان به أحدا وخف له لينتفع به فى دنياه فان ذلك النفع الذى يجزى به الخدمة لا يربوا عند الله . وقيل : كان هذا حراما على النبى صلى الله عليه وسلم على الخصوص ، قال الله تعالى : « **ولا تمنن تستكثر** »[١] ، فنهى أن يعطى شيئا فيأخذ أكثر منه عوضا . وقيل : انه الربا المحرم ، فمعنى « **فلا يربوا عند الله** » على هذا القول لا يحكم به لآخذه بل هو للمأخوذ منه . قال السدى : نزلت هذه الآية فى ربا ثقيف ، لأنهم كانوا يعملون بالربا وتعمله فيهم قريش .

الى آخر تلك المسائل[٢] التى يضيئنا منها بعد ذلك ما أشار اليه فى المسألة الرابعة ، حيث يقول : قوله تعالى : « **وما آتيتم من زكاة** » قال ابن عباس : أى من صدقة . « **تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون** » أى ذلك الذى يقبله ويضاعفه له عشرة أضعافه أو أكثر .

كما قال : « **من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة** »[٣] .

وقال : « **ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة** »[٤] .

وقال : « **فأولئك هم المضعفون** » ولم يقل فأنتم المضعفون لأنه رجع من المخاطبة الى الغيبة ، مثل قوله : « **حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم** »[٥] .

وفى معنى المضعفين قولان : أحدهما : أنه تضاعف لهم الحسنات . والثانى : أنهم قد أضعف لهم الخير والنعيم ، أى هم أصحاب أضعاف .

وعلى هذا فاننا نستطيع أن نتفق على أنه من الخير لنا أن نكون من هؤلاء الذين يريدون وجه الله .. وأنه من الشر أن نكون — والعياذ بالله — من هؤلاء البخلاء بما آتاهم الله من فضله ..

* * *

وحسبنا ترهيبا لنا من هذا أن نقرأ قول الله تبارك وتعالى : « **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم** »

---

(١) المدثر : ٦

(٢) التى تستطيع أن ترجع اليها بتوسع فى القرطبى حول تفسير الآية ..

(٣) البقرة : ٢٤٥

(٤) البقرة : ٢٦٥

(٥) يونس : ٢٢

بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السموات والأرض ، والله بما تعملون خبير »[١] .

وقوله تعالى : « **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون »[٢] .**

* * *

بل وحسبنا ترهيبا لنا أن نقرأ كذلك هذين الحديثين الشريفين :

روى أحمد والشيخان عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من صاحب كنز[٣] لا يؤدى زكاته الا أحمى عليه فى نار جهنم فيجعل صفائح ، فتكوى بها جنباه وجبهته حتى يحكم الله بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار ، وما من صاحب ابل لا يؤدى زكاتها الا بطح[٤] لها بقاع قرقر[٥] كأوفر ما كانت[٦] تستن عليه[٧] كلما مضى[٨] عليه أخراها ردت عليه أولاها حتى يحكم الله بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ثم يرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار ، وما من صاحب غنم لا يؤدى زكاتها الا بطح لها بقاع قرقر كأوفر ما كانت فتطؤه بأظلافها[٩] ، وتنطحه بقرونها ليس فيها عقصاء[١٠] ولا جلحاء[١١] كلما مضى عليه أخراها ردت عليه أولاها حتى يحكم الله بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ، ثم يرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار ، قالوا : فالخيل يا رسول الله ؟ قال : الخيل فى نواصيها — أو قال :

---

(١) آل عمران : ١٨٠ (٢) التوبة : ٣٤ ، ٣٥

(٣) الكنز مال وجبت فيه الزكاة فلم تؤد ، وأما ما أخرجت زكاته فليس بكنز مهما كثر .

(٤) أى بسط ومد .

(٥) أى المستوى الواسع من الأرض .

(٦) أى كأعظم ما كانت . (٧) أى تجرى عليه .

(٨) أى كلما مر .

(٩) الظلف للغنم كالحافر للفرس .

(١٠) عقصاء : أى ملتوية القرنين .

(١١) أى التى لا قرن لها .

الخيل معقود فى نواصيها ــ الخير الى يوم القيامة ، الخيل ثلاثة : هى لرجل أجر ، ولرجل ستر ، ولرجل وزر ، فأما التى هى له أجر فالرجل يتخذها فى سبيل الله ، ويعدها له فلا تغيب شيئا فى بطونها الا كتب الله له بها أجر ، ولو رعاها فى مرج[١] فما أكلت من شىء الا كتب الله له بها أجرا ، ولو سقاها من نهر كان له بكل قطرة تغيبها فى بطونها أجر ، حتى ذكر الأجر فى أبوالها وأرواثها ولو استنت شرفا[٢] أو شرفين كتب له بكل خطوة يخطوها أجر . وأما الذى هى له ستر فالرجل يتخذها تكرما وتجملا لا ينسى حق ظهورها وبطونها فى عسرها ويسرها . وأما التى هى عليه وزر فالذى يتخذها أشرا وبطرا وبذخا[٣] ، ورياء الناس ، فذلك عليه الوزر . قالوا : فالحمر يا رسول الله ؟ قال : ما أنزل الله على فيها شيئا الا هذه الآية الجامعة الفاذة[٤] : « **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** »[٥] .

وروى الشيخان عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له[٦] يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان[٧] يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزمتيه ــ يعنى شدقيه ــ ثم يقول : أنا كنزك أنا مالك . ثم تلا هذه الآية : « **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله ..** »[٨] الآية .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الاسلام حتى تكون مؤديا لزكاتك ، التى سميت زكاة لما يكون فيها من رجاء البركة وتزكية النفس وتنميتها بالخيرات . فانها مأخوذة من الزكاء وهو النماء والطهارة والبركة ، كما يشير الى هذا قول الله تبارك وتعالى : « **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** »[٩] .

---

(١) المرج : أى المرعى .
(٢) أى العالى من الأرض .
(٣) الأشر : كفر النعمة بعدم شكرها ، والبطر كذلك ، والبذخ بنفس المعنى .
(٤) أى المتناولة لكل خير وبر .
(٥) الزلزلة : ٧ ، ٨
(٦) مثل له : أى صور .
(٧) الشجاع : الذكر من الحيات ، والأقرع ، أى الذى ذهب شعره من كثرة السم ، وقوله : له زبيبتان : أى نقطتان سوداوان فوق عينيه .
(٨) آل عمران : ١٨٠
(٩) التوبة : ١٠٣

هذا بالاضافة الى أنها ــ أساسا ــ أحد أركان الاسلام الخمسة ، وقد قرنت بالصلاة فى اثنين وثمانين آية • وقد فرضها الله تعالى بكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، واجماع أمته •

وحسبك فى النهاية أن تذكر دائما وأبدا قول الله تبارك وتعالى :

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله •• »[1] . أى أن الجماعة التى يباركها الله تعالى ويشملها برحمته : هى الجماعة التى تؤمن بالله ، ويتولى بعضها بعضا بالنصر والحب ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتصل ما بينها وبين الله بالصلاة ، وتقوى صلاتها ببعضها بايتاء الزكاة •

* * *

ونفذ كذلك بعد ذلك ما أوصانا به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى آخر الوصية ــ التى ندور حولها ــ وهو :

« وأطيعوا أمراءكم » ، أى : ولاة أموركم فى جميع شئون حياتكم العامة منها والخاصة ، والدنيوية والأخروية ، وسواء أكان هذا على مستوى الأسرة أو المجتمع الذى نعيش فيه •• ما دامت أوامرهم ستكون فى حدود طاعة الله ، واجتناب نواهيه •• وعلى أساس من الكتاب والسنة واجماع الأمة : لأنه كما نعلم جميعا كمسلمين : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق •

وقد أعلن أبو بكر الصديق رضى الله عنه هذا بعد البيعة ، ولما ولى الخلافة :

فقد قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه بالذى هو أهله ، ثم قال : « أما بعد ، أيها الناس •• فانى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينونى ، وان أسأت فقومونى • الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أرجع عليه حقه ان شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ان شاء الله • لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله الا خذلهم الله بالذل • ولا تشيع الفاحشة فى قوم الا عمهم الله بالبلاء • أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله ، فلا طاعة لى عليكم • قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله » ذكره الحافظ

---

(١) التوبة : ٧١

ابن كثير فى البداية بسند صحيح • وابن الأثير فى الكامل • وكذا أبو بكر الباقلانى فى اعجاز القرآن ، بلفظ :

قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد .. فانى وليت أمركم ولست بخيركم ولكن نزل القرآن وسن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم وعلمنا فعلمنا • واعلموا أن أكيس الكيس التقى ، وأن أحمق الحمق[1] الفجور ، وأن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وأن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق • أيها الناس : انما أنا متبع ولست بمبتدع ، فان أحسنت فأعينونى ، وان زغت[2] فقوموني » •

وخطب رضى الله عنه فى ثانى يوم البيعة فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس انما أنا مثلكم ، وانى لا أدرى لعلكم ستكلفونى ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطيق ، ان الله اصطفى محمدا على العالمين وعصمه من الآفات ، وانما أنا متبع ولست بمبتدع ، فان استقمت فتابعونى ، وان زغت فقوموني ، وان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة[3] ضربة سوط فما دونها ، ألا وانكم تغدون وتروحون فى أجل قد غيب عنكم علمه ، فان استطعتم ألا يمضى هذا الأجل الا وأنتم فى عمل صالح فافعلوا ، وان تستطيعوا ذلك الا بالله ، فسابقوا فى مهل آجالكم من قبل أن تسلمكم آجالكم الى انقطاع الأعمال ، فان قوما نسوا آجالهم وجعلوا أعمالهم لغيرهم ، فاياكم أن تكونوا أمثالهم • الجد الجد ، والنجاء النجاء ، والوحا الوحا[4] فان وراءكم طالبا حثيثا ، أجلا مره سريع • احذروا الموت واعتبروا بالآباء والأبناء والاخوان ولا تغبطوا الأحياء الا بما تغبطون به[5] الأموات » ذكره ابن كثير فى البداية والطبرى فى تاريخه •

* * *

(١) الحمق بضم فسكون وبضمتين : قلة العقل . والكيس بفتح فسكون : ضد الحمق . (٢) زغت بكسر فسكون : أى ملت .
(٣) المظلمة بكسر اللام ما أخذه الظالم ، وبفتحها : مصدر ظلم .
(٤) النجاء والوحا : الاسراع ، يقال وحى فتوحى : اسرع .
(٥) الغبطة : تمنى مثل ما للغير من غير أن يريد زوال نعمته عنه .

هـــذا .. واذا كنا قد عرفنا أن الأمراء هم ولاة أمورنا ..

فاننى أرى ــ استنادا الى هـــذا ــ أن نفهم المراد من قول الله تعـــالى :

« يا أيهـــا الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرســـول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تاويلا »(١) .

فحول هـــذه الآية الكريمة ، قال القرطبى ، فيه ثلاث مسائل :

الأولى : لمـــا تقدم الى الولاة فى الآية المتقدمة ــ وهى :

« ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعـــدل ، ان الله نعمـــا يعظـــكم به ، ان الله كان ســـميعا بصـــيرا »(٢) .

وبدأ بهم فأمرهم بأداء الأمانات وأن يحكموا بين الناس بالعدل ، تقدم فى هـــذه الآية ــ التى ندور حولها ــ الى الرعية فأمر بطاعته عز وجل أولا ، وهى امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ثم بطاعة رســـوله ثانيا فيما أمر به ونهى عنه ، ثم بطاعة الأمرء ثالثا ، على قول الجمهور وأبى هريرة وابن عباس وغيرهم . قال سهل بن عبد الله التسترى : أطيعوا السلطان فى سبعة : ضرب الدراهم والدنانير ، والمكاييل والأوزان ، والأحكام والحج والجمعة والعيدين والجهاد . قال سهل : اذا نهى السلطان العالم أن يفتى فليس له أن يفتى ، فان أفتى فهو عاص ، وان كان أميرا جائرا .

وقال ابن خويز منداد : وأما طاعة السلطان فتجب فيما كان الله فيه طاعة ، ولا تجب فيما لله فيه معصية ، ولذلك قلنا : ان ولاة زماننا لا تجوز طاعتهم ولا معاونتهم ولا تعظيمهم !! ويجب الغزو معهم متى غزوا ، والحكم من قبلهم ، وتولية الامامة والحسبة ، واقامة ذلك على وجه الشريعة . وان صلوا بنا وكانوا فسقة من جهة المعاصى جازت الصلاة معهم ، وان كانوا مبتدعة لم تجز الصلاة معهم الا أن يخافوا فيصلى معهم تقية ــ أى حماية لنفسه من شرهم ــ وتعاد الصـــلاة .

ثم يقول القرطبى : قلت : روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : حق على الامام أن يحكم بالعدل ، ويؤدى الأمانة ، فاذا

---

(١) النساء : ٥٩ (٢) النساء : ٥٨ .

فعل ذلك وجب على المسلمين أن يطيعوه ، لأن الله تعالى أمـر بأداء الأمانة والعدل ثم أمر بطاعته .

وقال جابر بن عبد الله ومجاهد : « أولوا الأمر » أهل القـرآن والعلم ، وهو اختيار مالك .

ونحوه قول الضحاك ، قال : يعنى الفقهاء والعلماء فى الدين . وحكى عن مجاهد : أنهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم خاصة . وحكى عن عكرمة :أنها اشارة الى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما خاصة .. وقال ابن كيسان : هم أولوا العقل والرأى الذين يدبرون أمر الناس .

ثم يقول القرطبى : قلت : وأصح هـذه الأقوال الأول والثانى ، أما الأول ، فلأن الأصل الأمر منهم والحكم اليهم .

وروى الصحيحان عن ابن عباس قال : نزل : « **يا أيهـا الذين آمنـوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسـول وأولى الأمر منـكم ..** »[1] : فى عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى السهمى اذ بعثه النبى صلى الله عليـه وسلم فى سرية . قال أبو عمر : وكان فى عبد الله بن حذافة دعابة معروفة ، ومن دعابته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره على سرية فأمرهم أن يجمعوا حطبا ويوقدوا نارا ، فلما أوقدوها أمرهم بالتقحم فيها ـ أى باقتحامها ـ فقال لهم : ألم يأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم بطاعتى ؟ ! وقال : « من أطاع أميرى فقد أطاعنى » فقالوا : ما آمنا بالله واتبعنا رسوله الا لننجوا من النار ! فصوب رسول الله صلى الله عليـه وسلم فعلهم ـ أى وافقهم عليـه ـ وقال : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، قال الله تعالى : « **ولا تقتلوا أنفسكم** »[2] . وهو حديث صحيح الاسناد مشهور .

وروى محمد بن عمرو بن علقمة عن عمرو بن الحكم عن ثوبان أن أبا سعيد الخدرى ، قال : كان عبد الله بن حذافة بن قيس السهمى من أصحاب بدر وكانت فيه دعابة ..

وأما القول الثانى فيدل على صحته قوله تعالى : « **فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول** »[3] فأمر سبحانه برد المتنازع فيه الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وليس للعلماء معـرفة كيفية الرد الى الكتاب والسنة . ويدل على صحة كون سؤال العلماء

---

(١) النساء : ٥٩ (٢) النساء : ٢٩

(٣) النساء : ٥٩

واجبا ، وامتثال فتواهم لازما • قال سهل بن عبد الله : لا يزال الناس بخير ما عظموا السلطان والعلماء ، فاذا عظموا هذين أصلح الله دنياهم وأخراهم ، واذا استخفوا بهذين فسد دنياهم وأخراهم •

وأما القول الثالث فخاص ، وأخص منه القول الرابع •

وأما الخامس فيأباه ظاهر اللفظ وان كان المعنى صحيحا ، فان العقل لكل فضيلة أس ، ولكل أدب ينبوع ، وهو الذى جعله الله للدين أصلا وللدنيا عمادا ، فأوجب الله التكليف بكماله ، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه ، والعاقل أقرب الى ربه تعالى من جميع المجتهدين بغير عقل • وروى هذا المعنى عن ابن عباس • وزعم قوم أن المراد بأولى الأمر على والأئمة المعصومون • ولو كان كذلك ما كان لقوله : « **فردوه الى الله والرسول** » معنى ، بل كان يقول : فردوه الى الامام وأولى الأمر ، فان قوله عند هؤلاء هو المحكم على الكتاب والسنة • وهذا قول مهجور مخالف لما عليه الجمهور • وحقيقة الطاعة امتثال الأمر ، كما أن المعصية ضدها وهى مخالفة الأمر • والطاعة مأخوذة من أطاع اذا انقاد • والمعصية مأخوذة من عصى اذا اشتد ••

الثانية : قوله تعالى: « **فان تنازعتم فى شىء** » أى تجادلتم واختلفتم ، فكأن كل واحد ينتزع حجة الآخر ويذهبها • والنزع الجذب • والمنازعة مجاذبة الحجج ، ومنه الحديث : « وأنا أقول مالى ينازعنى القرآن »[1] •

وقال الأعشى :

نازعتم قضب الريحان متكئا
وقهوة مزة راووقها[2] خضل

« **فى شىء** » أى من أمر دينكم « **فردوه الى الله والرسول** » أى ردوا ذلك الحكم الى كتاب الله أو الى الرسول بالسؤال فى حياته ، أو بالنظر فى سنته بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، هذا قول مجاهد والأعمش وقتادة وهو الصحيح • ومن لم ير هذا اختل ايمانه لقوله تعالى : « **ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** » • وقيل : المعنى

---

(١) فى نهاية ابن الأثير ولسان العرب : « مالى أنازع القرآن » وينازعنى : يجاذبنى فى القراءة ، ذلك أن بعض المأمومين جهر خلفه فنازعه قراءته فشغله ، فنهاه عن الجهر بالقراءة فى الصلاة خلفه .

(٢) الراووق المصفاة ، والخضل المبتل المندى .

قولوا : الله ورسوله أعلم ، فهذا هو الرد . وهذا كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : الرجوع الى الحق خير من التمادى فى الباطل . والقول الأول أصح ، لقول على رضى الله عنه : ما عندنا الا ما فى كتاب الله وما فى هذه الصحيفة[1] ، أو فهم أعطيه رجل مسلم . ولو كان كما قال هذا القائل لبطل الاجتهاد الذى خص به هذه الأمة والاستنباط الذى أعطيها ، ولكن تضرب الأمثال ويطلب المثال حتى يخرج الصواب . قال أبو العالية : وذلك قوله تعالى : **« ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم »**[2] . نعم ، ما كان مما استأثر الله بعلمه ولم يطلع عليه أحدا من خلقه كذلك الذى يقال فيه : الله أعلم .

وقد استنبط على رضى الله عنه مدة أقل الحمل — وهو ستة أشهر — من قوله تعالى : **« وحمله وفصاله ثلاثون شهرا »**[3] ، وقوله تعالى : **« والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين »**[4] : فاذا فصلنا الحولين من ثلاثين شهرا بقيت ستة أشهر ، ومثله كثير . وفى قوله تعالى : **« والى الرسول »** دليل على أن سنته صلى الله عليه وسلم يعمل بها ويمتثل ما فيها . قال صلى الله عليه وسلم : « ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم فانما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم » أخرجه مسلم . وروى أبو داوود عن أبى رافع عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه ، فيقول لا ندرى ، ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه » . وعن العرباض ابن سارية أنه حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الناس وهو يقول : « أيحسب أحدكم متكئا[5] على أريكته وقد يظن أن الله لم يحرم شيئا الا ما فى هذا القرآن ألا وانى والله قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء انها لمثل القرآن أو أكثر » .

---

(١) لعل الصحيفة هذه كان فيها بعض أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم الشريفة . . والله أعلم .

(٢) النساء : ٨٣ (٣) الأحقاف : ١٥ (٤) البقرة : ٢٣٣

(٥) قوله : « متكئا على أريكته » جالسا على سريره المزين ، وهذا بيان لحماقته وسوء أدبه كما هو دأب المتنعمين المغرورين بالمال . وقال الخطابى : أراد به أصحاب الترفه والدعة الذين لزموا البيوت ولم يطلبوا بالأسفار الحديث من أهله فيرده حيث لا يوافق هواه . (عن ابن ماجه) .

وأخرجه الترمذى من حديث المقدام بن معدى كرب بمعناه وقال : حديث حسن غريب . والقاطع قوله تعالى : « **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة** »(١) الآية .

الثالثة : قوله تعالى : « **ذلك خير** » أى ردكم ما اختلفتم فيه الى الكتاب والسنة خير من التنازع .

« **وأحسن تأويلا** » أى مرجعا ، من آل يئول الى كذا أى صار . وقيل : من ألت الشيء اذا جمعته وأصلحته . فالتأويل جمع معانى ألفاظ أشكلت بلفظ لا اشكال فيه ، يقال : أول الله عليك أمرك أى جمعه . ويجوز أن يكون المعنى : وأحسن من تأويلكم .

* * *

والآن أخا الاسلام وبعد أن وقفت معك على تلك الأساسيات الهامة المتعلقة بطاعة الله ورسوله وأولى الأمر .. أريد أن أنبهك ونفسى الى شيء هام ، وهو :

أن الله تعالى هو ولى جميع أمورنا ــ أولا وأخيرا ــ وهو المتكفل بأرزاق جميع مخلوقاته .. كما يشير الى هذا قوله تعالى :

« **وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها ..** »(٢) .

ولهذا ، كان لابد وأن نطيع الله تبارك وتعالى .. وذلك بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه .. اذا أردنا أن نكون فعلا من عباده الشاكرين له سبحانه وتعالى على نعمائه التى لا تحصى ولا تعد « **وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها** »(٣) .

واذا أردنا كذلك أن نؤكد حبنا له سبحانه وتعالى .. وذلك لن يكون الا بطاعتنا له والبعد عن معاصيه :

تعصى الاله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمرى فى القياس بديع
لو كنت حقا صادقا لأطعته ... ان المحب لمن يحب مطيع

* * *

وحبنا لله تعالى لن يكون حقيقة الا باتباعنا لرسوله المصطفى صلوات الله وسلامه عليه .. كما يشير الى هذا قول الله تبارك وتعالى لنبيه ، حتى يبلغنا ويرشدنا : « **قل أن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم** »(٤) .

---

(١) النور : ٦٣
(٢) هود : ٦
(٣) النحل : ١٨
(٤) آل عمران : ٣١

لأن الخير كله فى الاتباع ، والشر كله فى الابتداع .

وفى الحديث الشريف : « اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم » رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود .

لأن الله تعالى ، قال : « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** »[١] .

أى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يترك الدنيا الا بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة وهدى الأمة وكشف الغمة ، والا بعد أن أنزل الله تعالى عليه هذه الآية الكريمة .. التى معناها أن النبى صلى الله عليه وسلم ما ترك خيرا الا وأمر به ، وما ترك شرا الا وقد نهى عنه .

ومن أجل هذا ، فقد قال الأئمة الأعلام :

من استحسن بدعة فقد زعم أن محمدا خان الرسالة .

ولهذا ، كان لابد وأن نطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل ما بلغه عن الله تعالى .. وعندما سنفعل ذلك ان شاء الله فاننا سنكون قد أطعنا الله .. قال تعالى : « **من يطع الرسول فقد أطاع الله ..** »[٢] .

وقال : « **وان تطيعوه تهتدوا ..** »[٣] .

* * *

ثم اذا كان آباؤنا هم ولاة أمورنا — بصفة خاصة — فاننا نريد أن نفهم المراد من قوله تعالى : « .. **وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون** »[٤] .

وقوله تعالى : « **وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا ..** »[٥] .

فهذه الآية والتى قبلها نزلتا فى شأن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، لما أسلم .. فقد قالت له أمه — وهى حمنة بنت أبى سفيان ابن أمية — : أليس قد أمر الله بالبر ؟ والله لا أطعم طعاما ، ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر ، قال[٦] : فكانوا اذا أرادوا أن يطعموها

---

(١) المائدة : ٣ (٢) النساء : ٨٠

(٣) النور : ٥٤ (٤) العنكبوت : ٨

(٥) لقمان : ١٥

(٦) كما فى رواية الترمذى عن سعد بن أبى وقاص .. وهو حديث حسن صحيح . كما قال أبو عيسى .

شجروا[1] فاها فنزلت هذه الآية : « **ووصينا الانسان بوالديه حسنا ، وان جاهداك لتشرك بى ..** »[2] الآية ..

وروى عن سعد أنه قال : كنت بارا بأمى فأسلمت ، فقالت : لتدعن دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بى ، ويقال : يا قاتل أمه ، وبقيت يوما ويوما ، فقلت : يا أماه .. لو كانت لك مائة نفس ، فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى هذا ، فان شئت فكلى ، وان شئت فلا تأكلى ، فلما رأت ذلك أكلت ، ونزلت : « **وان جاهداك لتشرك بى** » .. الآية .

واذا كان الله تعالى قد قال فى الآية الثانية : « **وصاحبهما فى الدنيا معروفا** » فهو نعت لمصدر محذوف ، أى مصاحبا معروفا .. والآية دليل على صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال ان كانا فقيرين ، والانة القول والدعاء الى الاسلام برفق . وقد قالت أسماء بنت أبى بكر الصديق للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقد قدمت عليها خالتها ، وقيل أمها من الرضاعة ، فقالت : يا رسول الله .. ان أمى قدمت على وهى راغبة[3] أفأصلها ؟ قال : « نعم » .

* * *

واذا كان الأصل فى موضوعنا — هذا — هو طاعة أمرائنا المسلمين الذين يأمروننا بطاعة الله لا بمعصيته ، فاننى أضيف الى كل ما وقفنا عليه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قد رغبنا فى هذا :

فعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، الا أن يؤمر بمعصية ، فاذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » متفق عليه .

وعنه قال : كنا اذا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة يقول لنا : « فيما استطعتم » متفق عليه .

وعن أبى الوليد عبادة بن الصامت رضى الله عنه ، قال : « بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى العسر واليسر

---

(١) أى أدخلوا فى فمها عودا من الشجر حتى يفتحوه به .

(٢) العنكبوت : ٨

(٣) أى عن الاسلام .. قال ابن عطية : والظاهر عندى أنها راغبة فى الصلة ، وما كانت تقدم على أسماء لولا حاجتها .

والمنشط[١] والمكره ، وعلى أثرة علينا[٢] ، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله ، الا أن تروا كفرا بواحا[٣] عندكم من الله تعالى فيه برهان ، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » متفق عليه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ، ومن يعص الأمير فقد عصانى » متفق عليه .

وعن أبى بكرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أهان السلطان أهانه الله » رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « من كره من أميره شيئا فليصبر ، فانه من خرج من السلطان شبرا[٤] مات ميتة جاهلية » متفق عليه .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « من خلع يدا من طاعة[٥] لقى الله يوم القيامة ولا حجة له ، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية »[٦] رواه مسلم .

وفى رواية له : « ومن مات وهو مفارق للجماعة ، فانه يموت ميتة جاهلية » .

* * *

ومن حق أمرائنا علينا — بالاضافة الى ما رغبنا فيه الرسول صلى الله عليه وسلم بالنسبة لهم — أن ننصحهم — بالحكمة والموعظة الحسنة — بما نراه خيرا لهم ولنا ، وأن ندعو لهم بالتوفيق والسداد فى ولايتهم لأمورنا ورعايتهم لمصالحنا وأن نتعاون معهم — بالبر والتقوى

---

(١) المنشط والمكره بفتح ميمهما : أى فى السهل والصعب .

(٢) الأثرة : الاختصاص بالمشترك .

(٣) بواحا : بفتح الباء الموحدة بعدها واو ثم الف ثم حاء مهملة : اى ظاهرا لا يحتمل تأويلا .

(٤) أى خرج من طاعته ولو قليلا ، فهو كناية عن القلة .

(٥) أى خرج عنها بالخروج على الامام ، وعدم الانقياد له فى غير معصية .

(٦) أى مات على الضلالة ، كما يموت أهل الجاهلية عليها ، فانهم كانوا لا يدخلون تحت طاعة أمير ويرون ذلك عيبا .

لا بالاثم والعدوان — على تحقيق آمال الأمة وحماية ثغورها من جميع الأعداء:

وحسبى أن أذكر بحديث صحيح رواه مسلم جاء فى نصه :

عن أبى رقية تميم بن أوس الدارى رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « الدين النصيحة ، قلنا : لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

قال الخطابى : النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له ، وقيل : النصيحة مأخوذة من نصح الرجل ثوبه اذا خاطه ، فشبهوا فعل الناصح بما يتحراه من صلاح المنصوح له بما يسد من خلل الثوب ، وقيل : انها مأخوذة من نصحت العسل اذا صفيته من الشمع ، شبهوا تخليص القول من الغش بتخليص العسل من الخلط .

وحول معنى النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، فقد قال العلماء :

أما النصيحة لله تعالى : فمعناها ينصرف الى الايمان بالله ونفى الشرك عنه ، وترك الالحاد فى صفاته ، ووصفه بصفات الكمال والجلال كلها وتنزيهه سبحانه وتعالى عن جميع أنواع النقائص ، والقيام بطاعته ، واجتناب معصيته ، والحب فيه ، والبغض فيه ، ومودة من أطاعه ، ومعاداة من عصاه ، وجهاد من كفر به ، والاعتراف بنعمته وشكره عليها ، والاخلاص فى جميع الأمور ، والدعاء الى جميع الأوصاف المذكورة والحث عليها والتلطف بجميع الناس أو من أمكن منهم ، وحقيقة هذه الأوصاف راجعة الى العبد نفسه ، والله تعالى غنى عن نصح الناصح .

وأما النصيحة لكتاب الله تعالى : فالايمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيله ، لا يشبهه شىء من كلام الناس ولا يقدر على مثله أحد من الخلق ، ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته وتحسينها والخشوع عندها ، واقامة حروفه فى التلاوة ، والذب عنه لتأويل المحرفين وتعرض الطاعنين ، والتصديق بما فيه ، والوقوف مع أحكامه ، وتفهم علومه وأمثاله ، والاعتبار بمواعظه ، والتفكر فى عجائبه ، والعمل بمحكمه ، والتسليم لمتشابهه ، والبحث عن عمومه وخصوصه وناسخه ومنسوخه ، ونشر علومه ، والدعاء اليه والى ما ذكرناه من نصيحته .

وأما النصيحة لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم : فتصديقه على

الرسالة والايمان بجميع ما جاء به وطاعته فى أمره ونهيه ونصرته حيا وميتا ، ومعاداة من عاداه ، ومولاة من والاه ، واعظام حقه وتوقيره ، واحياء طريقته وسنته وبث دعوته ونشر سنته ونفى التهم عنها ونشر علومها والفقه بها والدعاء لها والتلطف فى تعلمها وتسليمها واعظامها وجلالها والتأدب عند قراءتها والامساك عن الكلام فيها بغير علم ، واجلال أهلها لانتسابهم اليها ، والتخلق بأخلاقه ، والتأدب بآدابه ، ومحبة أهل بيته وأصحابه ومجانبة من ابتدع فى سنته أو تعرض لأحد من أصحابه ونحو ذلك .

وأما النصيحة لأئمة المسلمين : فمعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به ونهيهم وتذكيرهم برفق واعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين ، وترك الخروج عليهم وتأليف قلوب المسلمين لطاعتهم :

قال الخطابى : ومن النصيحة لهم ، الصلاة خلفهم ، والجهاد معهم ، وأداء الصدقات اليهم ، وترك الخروج بالسيف عليهم اذا ظهر منهم حيف أو سوء عشرة ، وألا يغروا بالثناء الكاذب عليهم ، وأن يدعى لهم بالصلاح ..

* * *

ومن أجمل الوصايا التى قرأتها فى هذا المقام : وصية الامام الحسن البصرى — رحمه الله — لأمير المؤمنين « عمر بن عبد العزيز » رضى الله عنه ، حيث قال له :

يا أمير المؤمنين .. الامام العادل : هو قوام كل مائل عن الحق ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ومفزع كل ملهوف .

والامام العادل ، يا أمير المؤمنين .. كالراعى الشفيق على ما يرعى ، وكالأب الحانى على ولده ، وكالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده .

والامام العادل : هو القائم بين الله ، وبين عباده ، يسمع كلام الله ويسمعهم ، وينقاد الى الله ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين ، فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرد العيال !!!

واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك وأنصارك عنده .

واذكر اذا بعثر من فى القبور ، وحصل ما فى الصدور ، فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، لا تحكم بحكم الجاهلين ، ولا تسلك سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين !!!

ولا تنظر الى قدرتك اليوم ، ولكن انظر الى قدرتك غدا ، وأنت مأسور فى حبائل الموت ، وموقوف بين يدى الله تعالى ، فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين : « **وعنت الوجوه للحى القيوم ، وقد خاب من حمل ظلما** »(١) .

وقال الزهرى : ما سمعت بأحسن من كلام تكلم به رجل عند سليمان ابن عبد الملك ، فقال : يا أمير المؤمنين : اسمع منى أربع كلمات فيهن صلاح دينك وملكك وآخرتك ودنياك . قال : لا تعد أحدا عدة وأنت لا تريد انجازها ، ولا يغرنك مرتقى سهل اذا كان المنحدر وعرا ، واعلم أن الأعمال جزاء فاحذر العواقب ، والدهر تارات فكن على حذر .

وروى أن الحجاج جمع بعض علماء العراق وفيهم الحسن البصرى والشعبى ، وجعل يحادثهم ، فذكر على بن أبى طالب رضى الله عنه فنال منه ، وجاراه من معه تقربا له ، وأمنا من شره ، الا الحسن البصرى فصمت على مضض وعض على ابهامه اذ غلى مرجل غضبه ، فالتفت اليه الحجاج وقال : يا أبا سعيد ، مالى أراك ساكتا ، قال : ما عسيت أن أقول ؟ قال : أخبرنى عن رأيك فى أبى تراب . قال : سمعت الله جل ذكره يقول : « **وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله ، وما كان الله ليضيع ايمانكم ، ان الله بالناس لرؤوف رحيم** »(٢) فعلى ممن هدى الله من أهل الايمان ، فأقول : ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم وختنه(٣) على ابنته ، وأحب الناس اليه ، وصاحب سوابق مباركات سبقت له من الله ، لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه ، ولا يحول بينه وبينها ، وأقول : ان كانت لعلى هنات فالله حسبه ، والله ما أجد فيه قولا أعدل من هذا ، فبسر وجه

---

(١) طه : ١١١ (٢) البقرة : ١٤٣

(٣) الختن : كل من كان من قبل المرأة مثل الأب والأخ وهم الأختان .. عند العرب .

الحجاج وتغير وقام عن السرير مغضبا فدخل بيتا خلفه ، وخرج الجمع • فقال عامر الشعبى : أغضبت الأمير ، وأوغرت صدره • فقال : اليك عنى يا عامر ، هلا اتقيت ان سئلت فصدقت أو سكت فسلمت • قال الشعبى : يا أبا سعيد قد قلتها وأنا أعلم ما فيها • قال الحسن : فذاك أعظم فى الحجة عليك ، وأشد فى التبعة •

وبعث الحجاج الى الحسن فلما دخل عليه قال : أنت الذى تقول : قاتلهم الله قتلوا عباد الله على الدينار والدرهم ؟ قال : نعم • قال : ما حملك على هذا ؟ قال : ما أخذه الله على العلماء من المواثيق : « •• ليبيننه للناس ولا يكتمونه »[1] ، قال : يا حسن •• أمسك عليك لسانك واياك أن يبلغنى عنك ما أكره ، فأفرق بين رأسك وجسدك •

ودخل ابن السماك يوما على أمير المؤمنين هارون الرشيد ، فوافق أن وجده يرفع الماء الى فمه ليشرب ، فقال : ناشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تنتظر به قليلا • فلما وضع الماء ، قال له : أستحلفك بالله تعالى لو أنك منعت هذه الشربة من الماء فبكم كنت تشتريها ؟ قال : بنصف ملكى • قال : اشرب هنأك الله ، فلما شرب ، قال : أستحلفك بالله تعالى يا أمير المؤمنين لو أنك منعت خروجها من جوفك بعد هذا فبكم كنت تشتريها ؟ قال : بملكى كله ، فقال : يا أمير المؤمنين ان ملكا تربو عليه شربة ماء لخليق ألا ينافس فيه ، فبكى هارون حتى ابتلت لحيته • فقال الفضل بن الربيع — وكان واقفا بين يدى الأمير — مهلا يا ابن السماك فأمير المؤمنين أحق من رجا العاقبة عند الله بعدله فى ملكه وحسن قيامه بحق ربه • فقال ابن السماك : يا أمير المؤمنين •• والله ان هذا ليس معك فى قبرك غدا ، فانظر لنفسك فأنت بها أخبر وعليها أبصر ، وأما أنت يا فضل فمن حق أمير المؤمنين عليك فى تقريبه اياك وبره بك ، أن تكون يوم القيامة من حسناته لا من سيئاته ، فذلك أكفأ ما تؤدى به حقه عليك ، والسلام •

وقدم هشام بن عبد الملك حاجا أيام خلافته ، فقال : ايتونى برجل من الصحابة • فقيل : قد تفانوا • قال : فمن التابعين ، فأتى بطاووس اليمانى ، فلما دخل عليه خلع نعله بحاشية بساطه ، ولم

---

(١) على نسق قوله تعالى : « **واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ••** » (آل عمران : ١٨٧) .

يسلم عليه بامرة المؤمنين ، بل قال : السلام عليك • ولم يكنه ، وجلس بازائه ، وقال : كيف أنت يا هشام ؟ فغضب هشام غضبا شديدا ، وقال : يا طاووس •• ما الذى حملك على ما صنعت ؟ فقال : وما صنعت ؟ فازداد غضبا ، وقال : خلعت نعلك بحاشية بساطى ، ولم تسلم على بامرة المؤمنين ، ولم تكننى ، وجلست بازائى • فقال طاووس : أما خلع نعلى بحاشية بساطك ، فانى أخلعها بين يدى رب العزة كل يوم خمس مرات فلا يغضب على لذلك ، وأما قولك : لم تسلم على بامرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بامرتك ، فكرهب أن أكذب ، وأما قولك : لم تكننى ، فان الله تعالى سمى أولياءه ، فقال : يا داوود يا يحيى ، يا عيسى • وكنى أعداءه فقال : « **تبت يدا أبى لهب وتب** »[1] • وأما قولك : جلست بازائى ، فانى سمعت أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه يقول : اذا أردت أن تنظر الى رجل من أهل النار فانظر الى رجل جالس وحوله قوم قيام • فقال هشام : عظنى • فقال طاووس : سمعت من أمير المؤمنين على بن أبى طالب أن فى جهنم حيات كالتلال وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل فى رعيته ، ثم قام عنه وانصرف •

وقال الفضل بن الربيع : حج هارون الرشيد فبينما أنا نائم اذ سمعت قرع الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : أجب أمير المؤمنين ، فخرجت مسرعا فاذا أنا به أمير المؤمنين ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلت الى أتيتك • فقال : ويحك ، قال حاك فى نفسى شىء لا يخرجه الا عالم ، انظر لى رجلا أسأله • فقلت : ههنا الفضيل بن عياض • فقال : امض بنا اليه • فأتيناه واذا هو قائم يصلى فى غرفته ، يتلو آية من كتاب الله ويرددها ، فقرعت الباب ، فقال : من هذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين ، فقال : مالى ولأمير المؤمنين • فقلت : سبحان الله أما عليك طاعته ؟ فقال : أو ليس قد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس للمؤمن أن يذل نفسه » • ثم نزل ففتح الباب ، ثم ارتقى الغرفة فأطفأ السراج ، ثم التجأ الى زاوية من زوايا الغرفة فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كفى كف الرشيد اليه • فقال :

---

(١) المسد : ١

أواه من كف ما ألينها ان نجت من عذاب الله تعالى • قال : فقلت فى نفسى ليكلمنه الليلة بكلام تقى من قلب تقى • فقال : جد لنا ما جئنا له ، يرحمك الله • قال : وفيم جئت ؟ حملت على نفسك وجميع من معك حملوا عليك حتى لو سألتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم أن يحملوا عنك شقصا من ذنب ما فعلوا • ولكان أشدهم حبا لك أشدهم هربا منك • ثم قال : ان عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة دعا سالم ابن عبد الله ومحمد بن كعب القرظى ورجاء بن حيوة ، فقال لهم : انى قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا على • فعد الخلافة بلاء ، وعددتها أنت وأصحابك نعمة • فقال سالم بن عبد الله : ان أردت النجاة غدا من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن افطارك فيها على الموت • وقال محمد بن كعب : ان أردت النجاة من عذاب الله غدا فليكن كبير المسلمين لك أبا ، وأوسطهم عندك أخا ، وأصغرهم ولدا • فبر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك • وقال له رجاء بن حيوة : ان أردت النجاة من عذاب الله غدا فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك • ثم متى مت • وانى لأقول لك هذا وانى لأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام • فهل معك يرحمك الله مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا ! ••

فبكى هارون بكاء شديدا حتى غشى عليه • فقلت : أرفق بأمير المؤمنين • فقال : يا ابن أم الربيع قتلته أنت وأصحابك وأرفق به أنا ؟ ثم أفاق ، فقال : زدنى • فقال : يا أمير المؤمنين •• ان العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه فقال : يا رسول الله •• أمرنى على امارة • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عباس •• — عم النبى صلى الله عليه وسلم — نفس تحييها خير من امارة لا تحصيها ، ان الامارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فان استطعت أن لا تكون أميرا فافعل » • فبكى هارون بكاء شديدا ثم قال : زدنى يرحمك الله • قال : يا حسن الوجه أنت الذى يسألك الله تعالى عن هذا الخلق يوم القيامة فان استطعت أن تقى هذا الوجه من النار فافعل ، واياك أن تصبح وتمسى وفى قلبك غش لرعيتك فان النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « من أصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة » • فبكى هارون الرشيد ، ثم قال : عليك دين ؟ قال : نعم ، دين لربى لم يحاسبنى عليه ، فالويل لى ان سألنى ، والويل لى ان ناقشنى ، والويل لى ان لم يلهمنى

حجتى • قال هارون : انما أعنى دين العباد ، قال : ان ربى لم يأمرنى بهذا ، وأمرنى أن أصدق وعده وأطيع آمره ، فقال تعالى : « **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون • ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون • ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين** »(١) • فقال له : هذه ألف دينار فأنفقها على عيالك وتقو بها على عبادة ربك ، فقال : سبحان الله •• أنا أدلك على النجاة وتكافئنى بمثل هذا ، سلمك الله ووفقك ، ثم صمت • فلم يكلمنا فخرجنا من عنده ، فقال هارون الرشيد : هذا سيد المسلمين اليوم •

وعن عبد الله بن مهران ، قال : حج الرشيد فوافى الكوفة فأقام بها أياما ثم ضرب بالرحيل فخرج الناس وخرج بهلول المجنون فيمن خرج ، فخرج فى مجلس وأخذ الصبيان يؤذونه ، حتى اذا أقبلت هوادج هارون فكف الصبيان عن العبث به ، فلما جاء هارون نادى بأعلى صوته : يا أمير المؤمنين ، فكشف هارون السجاف — الستر — بيده وقال : لبيك يا بهلول • فقال : يا أمير المؤمنين ، حدثنا أيمن بن نائل عن قدامة بن عبد الله العامرى ، قال : « رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يمضى على جمل وتحته رحل رث ، فلم يكن ضرب ولا طرد ، ولا اليك اليك ، وتواضعك فى سفرك هذا يا أمير المؤمنين خير لك من تكبرك ، فبكى هارون حتى سقطت دموعه على الأرض ، وقال : زدنا يا بهلول يرحمك الله ، فقال بهلول :

هب أنك قد ملكت الأرض طرا
وأن لك العباد فكان ماذا
أليس غدا مصيرك جوف قبر
ويحثو الترب هذا ثم هذا

فبكى هارون ثم قال : أحسنت يا بهلول ، هل غيره ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين •• رجل آتاه الله مالا وجمالا فأنفق من ماله وعف فى جماله كتب فى خالص ديوان الله من الأبرار • فقال هارون له : أحسنت يا بهلول • ثم أمر له بجائزة ، فقال بهلول : اردد الجائزة الى من أخذتها منه فلا حاجة لى فيها • قال : يا بهلول ان يكن عليك دين قضيناه ؟ قال : يا أمير المؤمنين لا يقضى دين بدين ، اردد الحق الى أهله ، واقض دين نفسك يا أمير المؤمنين بنفسك ، قال : يا بهلول ••

---

(١) الذاريات : ٥٦ — ٥٨

فنجرى عليك ما يكفيك . فرفع بهلول رأسه الى السماء وقال : يا أمير المؤمنين .. أنا وأنت من عيال الله تعالى ، فمحال أن يذكرك وينسانى ، فأسبل هارون السجاف ومضى الى شأنه .

وقال سفيان الثورى : لما حج المهدى ، قال : لابد لى من سفيان ، فوضعوا لى الرصد حول البيت فأخذونى بالليل ، فلما مثلت بين يديه أدنانى ثم قال : لأى شىء لا تأتينا فنستشيرك فى أمرنا ، فما أمرتنا من شىء صرنا اليه ، وما نهيتنا عن شىء انتهينا عنه ؟ فقلت له : كم أنفقت فى سفرك هذا ؟ قال : لا أدرى ، لى أمناء ووكلاء . قلت : فما عذرك غدا اذا وقفت بين يدى الله تعالى فسألك عن ذلك ؟ لكن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما حج قال لغلامه : كم أنفقت فى سفرنا هذا ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، ثمانية عشر دينارا . قال : ويحك ، أجحفنا بيت مال المسلمين .

ولما دخل ابن السماك على هارون الرشيد ، قال له : عظنى ، قال : يا أمير المؤمنين ان الله لم يرض لخلافته فى عباده غيرك ، فلا ترضى لنفسك من نفسك الا بما رضى الله به ، فانك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت أولى الناس بذلك يا أمير المؤمنين ، من طلب فكاك رقبته من مهلة من أجله كان خليقا أن يعتق نفسه . يا أمير المؤمنين من ذوقته الدنيا حلاوتها بركون منه اليها أذاقته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها ، يا أمير المؤمنين ناشدتك الله أن تقدم الى جنة عرضها السموات والأرض وقد دعيت اليها وليس لك فيها نصيب . يا أمير المؤمنين انك تموت وحدك وتحاسب وحدك ، وانك لا تقدم الا على نادم مشغول ، ولا تخف الا مفتونا مغرورا ، وانك وايانا فى دار سفر وجيران ظعن[1] .

ولما حج سليمان بن عبد الملك ودخل المدينة للزيارة بعث الى أبى حازم الأعرج ، وعنده ابن شهاب ، فلما دخل قال له : تكلم يا أبا حازم . قال : فيم أتكلم يا أمير المؤمنين ؟ قال : فى الخروج من هذا الأمر . قال : يسير ان أنت فعلته . قال : وما ذاك ؟ قال : لا تأخذ الأشياء الا بحقها ، ولا تضعها الا فى أهلها ، قال : ومن يقوى على ذلك ؟ قال : من قلده الله من الأمر ما قلدك . قال : عظنى يا أبا حازم . قال : يا أمير المؤمنين .. ان هذا الأمر لم يصل اليك الا بموت من

---

(١) أى على سفر مستمر الى الله تبارك وتعالى .

كان قبلك ، وهو خارج عنك بمثل ما صار اليك • ثم قال : يا أمير المؤمنين •• تزه ربك فى عظمته عن أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك • قال : يا أبا حازم أشر على • قال : يا أمير المؤمنين •• انما أنت سوق فما نفق عندك حمل اليك من خير أو شر ، فاعتبر لنفسك أيهما شئت • قال : فمالك لا تأتينا ؟ قال : وما أصنع باتيانك ؟ ان أدنيتنى فتنتنى ، وان أقصيتنى أحزنتنى ، وليس عندى ما أخافك عليه ، ولا عندك ما أرجوك له • قال : فارفع الينا حوائجك • قال : قد رفعتها الى من هو أقدر منك عليها ، فما أعطانى منها قبلت ، وما منعنى منها رضيت • يقول الله تعالى : « **نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا** »[1] فمن ذا الذى يستطيع أن ينقص من كثير ما قسم الله ويزيد فى قليل ما قسم الله ؟ فبكى سليمان بكاء شديدا ، فقال رجل من جلسائه : أسأت الى أمير المؤمنين • فقال أبو حازم : اسكت فان الله تعالى أخذ ميثاق العلماء : « ليبيننه للناس ولا يكتمونه » • ثم خرج من عنده فلما وصل الى منزله بعث اليه بمال فرده وقال للرسول قل له : والله ما أرضاه لك فكيف أرضاه لنفسى ؟ ••

* * *

فاذكر كل هذا أخا الاسلام سواء أكنت حاكما أو محكوما حتى لا تكون من الذين غضب الله تعالى عليهم فجعلهم عبادا للدنيا وما فيها من متاع زائل :

مع ملاحظة ما قاله صاحب كتاب « هداية المرشدين »[2] تحت عنوان :

وعظ العلماء للأمراء

حيث يقول : لا ينبغى للمرشد أن يتهاون مع ذوى السلطان فيما يخالف الدين ويضاد الحق ، موافقة لرأيهم ومتابعة لهواهم ، فربما زلت أقدام المترلفين فى ذلك رغبة أو رهبة فضلوا وأضلوا مع سوء العاقبة ، وقبح الأحدوثة • وقد روى الحسن البصرى رحمه الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال هذه الأمة بخير تحت يد الله وفى كنفه ما لم يمال قراؤها أمراءها ، ولم يترك صلحاؤها فجارها ،

---

(١) الزخرف : ٣٢

(٢) وهو الشيخ على محفوظ رحمه الله تعالى .

ولم يمار أخيارها أشرارها ، فاذا فعلوا ذلك رفع عنهم يده ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب ، وضربهم بالفقر والفاقة ، وملأ قلوبهم رعبا » .

ثم يقول : علم هـذا علمـاء السلف وأردفوا العـلم بالعمل ، فكان لهم مع الأمراء وذوى السلطان مواقف مشرفة ، خلدت لهم أحسن الذكرى وأجمل الآثـار ، أعانهم على ذلك ما امتلأت به قلوبهم من الثقة بالله مع ما يعلمونه من سلطان الدين على نفوس الأمراء وذوى السلطان ..

على شريطة كما عرفت ، وكما قرأت فى تلك النماذج : أن تكون مخلصا فى وعظك وارشادك .. وعلى نفس الدرجة العلمية والفقهية كهؤلاء الرجال الذين وقفنا على بعض مواعظهم التى ستظل للحاكم والمحكوم نبراسا مضيئا على طريق الله وفى جميع ميادين الحياة الشريفة الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

* * *

وحسبك يا أخى أن تعلم بأنك عندما ستنفذ كل ما أوصاك به الرسول صلى الله عليـه وسلم فى هـذه الوصية ـ التى ندور حولها ـ : ستفوز بالجزاء الأوفى فى جنة ـ جنة الله ـ التى أعد الله تعالى فيها لعباده : المتقين ، المصلين ، الصائمين ، المزكين ، المطيعين لأمرائهم : ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وهذا هو ما أشار اليه الرسول صلى الله عليـه وسلم فى نهاية الوصية حيث يقول مرغبا ومبشرا : « تدخلوا جنة ربكم » :

وهى جنة الخلد والملك الذى لا يبلى .. وهى دار الثواب ، والنعيم المقيـم : للذين آمنوا وعملوا الصـالحات .. وللمتقين المجاهـدين لأنفسهم .. والمسارعين الى مغفرة الله تعـالى طمعا فى رحمته .. قال تعـالى : **« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنـات الفردوس نزلا . خالدين فيها لا يبغون عنها حولا »**(١) .

وقـال : **« وأزلفت الجنـة للمتقين »**(٢) .

وقـال : **« وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فان الجنة هى المـأوى »**(٣) .

---

(١) الكهف : ١٠٧ ، ١٠٨ (٢) الشعراء : ٩٠

(٣) النازعات : ٤٠ ، ٤١

وقـــال : **« وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين »**[١] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليـــه وآله وسلم : « قال الله تعالى : أعددت لعبادى الصـــالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » قال أبو هريرة : اقرأوا ان شئتم : **« فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين »**[٢] أخرجه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد ، وزاد البخارى فى رواية : وقال محمد بن كعب : انهم أخفوا لله عملا فأخفى لهم ثوابا ، فلو قدموا عليه ، أقر تلك الأعين .

وعن أسامة بن زيد « أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال ذات يوم لأصحابه : ألا مشمر للجنـــة ؟ فان الجنة لا خطر لهـــا[٣] وهى ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز[٤] ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وفاكهة كثيرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، حلل كثيرة فى مقام أبدا[٥] فى حبرة[٦] ونضرة[٧] فى دور عاليـــة سليمة بهيـــة . قالوا : نحن المشمرون لها يا رسول الله . قال : قولوا : ان شاء الله . ثم ذكر الجهاد وحض عليـــه » أخرجه ابن ماجه وابن حبان .

أسأل الله سبحانه وتعـــالى أن يجعلنـــا جميعا بمشيئته سبحانه وتعالى وتوفيقه من المشمرين للجنـــة كأصحاب رسوله المصطفى صلوات الله وسلامه عليـــه ، حتى نكون أهلا لها ، ومن الخالدين فيها أبدا : آمين .. آمين .. آمين .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٣٣ (٢) السجدة : ١٧

(٣) لا خطر لها : أى لا مثل لها .

(٤) تهتز : أى تتحرك بهبوب الريح .

(٥) أى خالدين فيها أبدا .

(٦) أى النعمة وسعة العيش .

(٧) أى البهية الحسن .

الجزء العشرون

الوصية الثامنة والخمسون

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليـــه وسلم :

« قاربوا وسددوا ، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعملـــه ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا الا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » ..

(رواه مسلم)

* * *

فكن أخا الاسلام :

منتفعا بهذه الوصية العظيمة التى يوصينا فيها صلوات الله وسلامه عليه بالوسطية والاعتدال فى جميع شئون الحياة الدنيوية والأخرية .

وقد قيل لابن عباس رضى الله عنهما : ان العرب تقول : حب التناهى شطط ، خير الأمور الوسط .. فهل هذا موجود فى القرآن؟ قال : نعم فى أربعة مواضع : فى قوله تعالى فى وصف بقرة موسى : **« قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ، قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك »**[1] ، أى وسط بين الكبر والصغر فى السن .

وفى قوله تعـــالى : **« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط .. »**[2] ، أى فتوسط بين الأمرين فى الانفاق .

وفى قوله تعـــالى : **« ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا »**[3] ، وهذا السبيل هو الوسط فى القراءة .

وفى قوله تعـــالى فى مدح المعتـــدلين من كرمـــاء المؤمنـــين :

---

(١) البقرة : ٦٨ (٢) الاسراء : ٢٩

(٣) الاسراء : ١١٠

« والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما »[١] ، أى وسطا فى المعيشة .

ومن هـذا يتبين لنا أنه ليس من الاسلام التشدد فى غير موضعه ، وانما الاسلام يدعونا الى عكس ذلك وهو — كما علمنـا — الوسطية والاعتدال .

وقد ورد كذلك فى الأحاديث الشريفة ما يشير الى هذا :

فعن أبى وائل شقيق بن سلمة ، قال : « كان ابن مسعود رضى الله عنه يذكرنا فى كل خميس ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن ، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم ، فقال : أما انه يمنعنى من ذلك أنى أكره أن أملكم وانى أتخولـكم بالموعظة ، كما كان رسول الله صلى الله عليـه وسلم يتخولنا[٢] بها مخافة السآمة علينا » متفق عليه .

وعن مجيبة الباهلية عن أبيها أو عمها ، أنه أتى رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، ثم انطلق فأتاه بعد سنة ، وقد تغيرت حاله وهيئته ، فقال : يا رسول الله .. أما تعرفنى ؟ قال : « ومن أنت » ؟ قال : أنا الباهلى الذى جئتك عام الأول . قال : « فما غيرك ، وقد كنت حسن الهيئـة » ؟ قال : ما أكلت طعاما منذ فارقتك الا بليل . فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : « عذبت نفسك » ! ثم قال : « صم شهر الصبر[٣] ، ويوما من كل شهر » قال : زدنى ، فان بى قوة . قال : « صم يومين » قال : زدنى ، قال : « صم ثلاثة أيام » قال : زدنى ، قال : « صم من الحرم واترك ، صم من الحرم واترك ، صم من الحرم واترك » وقال بأصابعه الثلاث فضمها ، ثم أرسلها — رواه أبو داوود[٤] .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال : جاء ثلاثة رهط الى بيوت أزواج النبى صلى الله عليـه وسلم ، يسألون عن عبادة النبى صلى الله عليـه وسلم ، فلما أخبروا — بها — كأنهم تقالوها[٥] ، وقالوا : أين نحن من النبى صلى الله عليـه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبدا ، وقال الآخر : وأنا أصوم

---

(١) الفرقان : ٦٧ (٢) يتخولنا : أى يتعهدنا .

(٣) وهو شهر رمضان المبارك .

(٤) ومجيبة ، قال الذهبى : لا تعرف ، وباقى رجاله ثقات . قوله : « صم من الحرم » أى اشهر الحرم ، وهى : شهر رجب ، وذى القعدة ، وذى الحجة ، والمحرم .

(٥) تقالوها : أى عدوها قليلة .

الدهر ولا أفطر ، وقال الآخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم ، فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ ! .. أما والله انى لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب[1] عن سنتى فليس منى » متفق عليه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ان الدين يسر ، ولن يشاد الدين الا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة » رواه البخارى .

وفى رواية له : « سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا ، وشيء من الدلجة ، القصد القصد تبلغوا » .

قوله : « الدين » مرفوع على مالم يسم فاعله . وروى منصوبا ، وروى : « لن يشاد الدين أحد » . وقوله صلى الله عليه وسلم : « الا غلبه » ، أى غلبه الدين وعجز ذلك المشاد عن مقاومة الدين لكثرة طرقه . « والغدوة » : سير أول النهار . « والروحة » : آخر النهار . « والدلجة » : آخر الليل . وهذا استعارة وتمثيل ، ومعناه : استعينوا على طاعة الله عز وجل بالأعمال فى وقت نشاطكم ، وفراغ قلوبكم بحيث تستلذون العبادة ولا تسأمون ، وتبلغون مقصودكم ، كما أن المسافر الحاذق يسير فى هذه الأوقات ويستريح هو ودابته فى غيرها ، فيصل المقصود بغير تعب ، والله أعلم .

* * *

فلاحظ كل هذا أخا الاسلام حتى تكون من أهل الوسطية والاعتدال ، وحتى لا تكون من المتنطعين المشار اليهم فى الحديث الذى ورد :

عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « هلك المتنطعون » قالها ثلاثا — رواه مسلم .

و « المتنطعون » : أى المتعمقون المشددون فى غير موضع التشديد .

ولهذا ، فقد ورد كذلك فى الحديث الشريف : « خير الأمور أوساطها » رواه البيهقى .

---

(١) أى اعرض عنها .

« أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما ، وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما » رواه الترمذى والبيهقى .

« الهوا والعبوا فانى أكره أن يكون فى دينكم غلظة » رواه البيهقى .

« روحوا[1] قلوبكم ساعة فساعة » رواه أبو داوود .

« ان الله يحب أن تقبل رخصه كما يحب العبد مغفرة ربه » رواه الطبرانى .

* * *

وحتى يتضح لنا هـذا .. فاننى أرى كذلك أن أزودك ببعض الآثار التى قرأتها فى « عيون الأخبار » ، تحت عنوان :

التوسط فى الأشياء
وما يكره من التقصير فيها والغلو

*** باب التوسط فى الدين :**

حدثنى الزيادى ، قال : حدثنا عبد العزيز الدراوردى قال : حدثنى محمد بن طحلاء عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة ، قالت : قال النبى صلى الله عليـه وسلم : « اكلفوا من العمل ما تطيقون فان الله لا يمل حتى تملوا ، وان أفضل العمل أدومه وان قل » .

حدثنى القومسى عن أحمد بن يونس عن زهير عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدين الحسن والسمت الصـالح والاقتصـاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة » .

حدثنى محمد بن عبيد عن معاوية بن عمرو عن أبى اسحاق عن خالد الحذاء عن أبى قلابة عن مسلم بن يسار أن رفقة من الأشعريين كانوا فى سفر ، فلما قدموا ، قالوا : يا رسول الله .. ليس أحد بعد رسول الله أفضل من فلان ، يصوم النهار ، فاذا نزلنا قام يصلى حتى نرتحل ، قال : « من كان يمهن له أو يكفيـه أو يعمل له » ؟ قالوا : نحن ، قال : « كلكم أفضل منه » .

وروى وكيع عن محمد بن قيس عن عمرو بن مرة ، قال : قال حذيفة : خياركم الذين يأخذون من دنياهم لآخرتهم ، ومن آخرتهم لدنياهم .

---

(١) المقصود به اللهو المباح .

وفى بعض الحديث المرفوع : « ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، والآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه » ، وقال : « ان الله بعثنى بالحنيفية السهلة ، ولم يبعثنى بالرهبانية المبتدعة ، بسنتى الصلاة والنوم ، والافطار والصوم ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

وفى الحديث : « ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، فان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » .

وفى بعض الحديث : أن عيسى ابن مريم لقى رجلا ، فقال : ما تصنع ؟ قال : أتعبد . قال : من يعود عليك ؟ قال : أخى ، قال : أخوك أعبد منك .

*** باب التوسط فى المداراة والحلم :**

قرأت فى كتاب للهند : بعض المقاربة حزم ، وكل المقاربة عجز ، كالخشبة المنصوبة فى الشمس تمال فيزيد ظلها ، ويفرط فى الامالة فينقص الظل .

ومن أمثال العرب فى هذا : « لا تكن حلوا فتسترط ، ولا مرا فتلفظ » .

وقال أبرويز لابنه : اجعل لاقتصادك السلطان على افراطك ، فانك اذا قدرت الأمور على ذلك وزنتها بميزان الحكمة وقومتها تقويم الثقاف ، ولم تجعل للندامة سلطانا على الحلم .

وقال النابغة الجعدى :

ولا خير فى حلم اذا لم تكن له
بوادر تحمى صفوة أن يكدرا

وقال آخر :

ولا خير فى عرض امرىء لا يصونه
ولا خير فى حلم امرىء ذل جانبه

وقال أكثم بن صيفى : الانقباض من الناس مكسبة للعداوة ، وافراط الأنس مكسبة لقرناء السوء .

*** باب التوسط فى العقل والرأى :**

روى فى الحديث أن زياد بن أبى سفيان كان كاتبا لأبى موسى الأشعرى ، فعزله عمر عن ذلك ، فقال له زياد : أعن عجز عزلتنى يا أمير المؤمنين أم خيانة ؟ فقال : لا عن ذاك ولا عن هذا ، ولكنى كرهت أن أحمل على العامة فضل عقلك .

ويقال : افراط العقل مضر بالجد .

ومن الأمثال المبتذلة : استأذن العقل على الجد فقال : اذهب لا حاجة بى اليك .

* * *

هـذا ، واذا كان الرسول صلى الله عليـه وسلم ، قد قال : ـ بعد أن رغبنا فى الوسطية والاعتدال ـ « واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله » .. الخ الحديث :

فان هذا معناه أن النبى صلى الله عليـه وسلم أراد أن يلفت قلوبنا الى أمر خطير كلنا كمؤمنين عاملين لابد أن ننتبه له حتى لا نغتر بأنفسنا ولا نتكل على أعمالنـا .. وهو أننا لن ننجو من عذاب الله ، ولن ندخل الجنة ـ أساسا ـ بأعمالنا قلت أم كثرت .. ولكن برحمة الله وفضله .. وليس هـذا بالنسبة لنا فحسب بل كذلك بالنسبة لخير خلق الله صلوات الله وسلامه عليه الذى قال كما قرأنا فى نص الحديث عندما سألوه : « .. ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا الا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » :

ولهذا ، فاننى قد رأيت كمدخل لهذا الموضوع الذى كما قلت : من أخطر المواضيع التى لابد وأن نتنبه لها ، ونلتفت اليها .. رأيت أن أذكر بوصية من وصايا الامام الغزالى ـ رحمه الله ـ قرأتها فى كتاب « مع الله » للشيخ محمد الغزالى أكرمه الله ، تحت عنوان :

من رسالة تضمنت وعظ ملك

أما بعد .. فالنصيحة هى هدية العلماء .. وانه لن يهدى ـ أحد ـ الى هدية أكرم من قبولها ، واصغائه بقلب فارغ من ظلمات الدنيـا اليـها ..

وقد قيل لرسول الله صلى الله عليـه وسلم : « من أكرم الناس ؟ فقال : أتقاهم . فقيل : من أكيس الناس ؟ فقال : أكثرهم للموت ذكرا ، وأشدهم له استعدادا » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الكيس من دان نفسه وعمل لمـا بعد الموت .. والأحمق من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى » .

وأشد الناس غباوة وجهلا ، من تهمه أمور الدنيا التى تختطف منه عند الموت ، ولا يعرف أهو من أهل الجنة أو هو من أهل النار ،

وقد عرفه الله تعالى ذلك حيث قال : « **ان الأبرار لفى نعيم** »[١] ، « **وان الفجار لفى جحيم** »[٢] ، « **فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا . فان الجحيم هى المأوى** »[٣] ، « **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فان الجنة هى المأوى** »[٤] .

وانى أوصيه أن يصرف الى هذا المهم .. همته .. وأن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب .. وأن يراقب سريرته وعلانيته ، وأقواله ، وأفعاله .. أهى مقصورة على ما يعمر دنياه بالمكدرات والهموم ، ثم يختمها والعياذ بالله بالشقاوة .. فليفتح عن بصيرته : « **ولتنظر نفس ما قدمت لغد** »[٥] ، وليعلم أنه لا مشفق عليها ولا ناظر فى أمرها سواه .. وليتدبر ما هو بصدده .. فان كان مشغولا بعمارة ضيعة فلينظر .. كم من قرية أهلكها الله وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها بعد عمالها ! .. وان كان مقبلا على استخراج ماء أو عمارة نهر فلينظر كم من بئر معطلة بعد عمارها ؟ وان كان مهتما بتأسيس بناء فلينظر : كم من قصور مشيدة البنيان محكمة القواعد والأركان أظلمت بعد سكانها ؟ .. وان كان مشغولا بخدمة سلطان فليتذكر ما ورد فى الخبر : أنه ينادى مناد يوم القيامة : أين الظلمة وأعوانهم ؟ فلا يبقى أحد مد لهم دواة أو برى لهم قلما فما فوق ذلك الا أحضر .. فيجمعون فى تابوت من نار فيلقون فى جهنم ..

وان كان فى طلب المال وجمعه .. فليتأمل قول عيسى عليه السلام : يا معشر الحواريين .. مسرة فى الدنيا ، مضرة فى الآخرة .. بحق أقول لكم .. لا تدخل الأغنياء ملكوت السماء ..

* * *

ثم بعد ذلك يسوق حديثا شريفا هو شاهدى فى هذا الموضوع ، وهو : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « يحشر الأغنياء أربع فرق : رجل جمع مالا من حرام وأنفقه فى حرام .. فيقال : اذهبوا به الى النار ..

ورجل جمع مالا من حرام وأنفقه فى حلال .. فيقال : اذهبوا به الى النار ..

---

(١) الانفطار : ١٣
(٢) الانفطار : ١٤
(٣) النازعات : ٣٧ ــ ٤٩
(٤) النازعات : ٤٠ ، ٤١
(٥) الحشر : ١٨

ورجل جمع مالا من حلال وأنفقه فى حرام .. فيقال : اذهبوا به الى النار ..

ورجل جمع مالا من حلال وأنفقه فى حلال .. فيقال : قفوا هـذا وسلوه :

لعله ضيع بسبب غناه فيما فرضناه عليه ، أو قصر فى الصلاة ، أو فى وضوئها ، أو فى ركوعها ، أو فى سجودها ، أو فى خشوعها ؟ .. أو ضيع شيئا من فرض الزكاة والحج ..

فيقول الرجل : جمعت مالى من حلال ، وأنفقته فى حلال ، وما ضيعت شيئا من حدود الفرائض ، بل أتيت بتمامها .

فيقال : لعلك باهيت بمالك ، واختلت فى شىء من ثيابك ؟ فيقول : يا رب .. ما باهيت بمالى ، ولا اختلت فى شىء من ثيابى .

فيقال : لعلك فرطت فيما أمرناك من صلة الرحم وحق الجيران والمساكين ، وقصرت فى التقديم والتأخير والتفصيل والتعديل .. ويحيط به هؤلاء فيقولون : ربنا .. أغنيته بين أظهرنا وأحوجتنا اليه فقصر فى حقنا .. فان ظهر تقصيره ذهب به الى النار .. والا قيل له : قف ! .. هات الآن شكر كل نعمة .. وكل شربة .. وكل أكلة .. وكل لذة .. فلا يزال يسئل ويسئل » .

ثم بعد ذلك يعلق الامام الغزالى على هذا .. بقوله :

فهذه حال الصالحين المصلحين القائمين بحقوق الله .. فكيف حال المفرطين المنهمكين فى الحرام والشبهات ؟ ..

وهذا التساؤل الحيوى ، هو ما نريد جميعا أن نفكر فيه ونشغل به وذلك حتى نعمـل ليوم الحساب ألف حساب .. كآبائنـا وأجدادنا الصالحين الذين سبقونا بالايمان والذين منهم على سبيـل المثـال لا الحصر :

سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد قرأت أنه كان دائم البكاء لدرجة أنك كنت ترى على وجهه خطين أسودين من كثرة انحدار الدموع .. وكنت تشم من فمه رائحة الكبد المشوى من شدة الخوف من الله تبارك وتعالى .

وقرأت فى كتاب « الزهد »[1] للامام عبد الله بن المبارك رضى الله عنه :

---

(١) باب تعظيم ذكر الله عز وجل .

أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لكعب : خوفنا يا كعب !! فقال : والله ان لله لملائكة قياما منذ خلقهم الله ما ثنوا أصلابهم ، وآخرين ركوعا ما رفعوا أصلابهم ، وآخرين سجودا ما رفعوا رؤوسهم حتى ينفخ فى الصور النفخة الآخرة • فيقولون جميعا : سبحانك وبحمدك ما عبدناك ككنه[1] ما ينبغى لك أن تعبد ، ثم قال : والله لو أن لرجل يومئذ كعمل سبعين نبيا لاستقل عمله من شدة ما يرى يومئذ ، والله لو دلى من غسلين دلو واحد فى مطلع الشمس لغلت منه جماجم قوم فى مغربها ، والله لتزفرن جهنم زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا غيره الا خر جاذيا أو جاثيا على ركبتيه يقول : نفسى نفسى ، وحتى نبينا وابراهيم واسحاق يقول رب أنا خليلك ابراهيم • قال : فأبكى القوم حتى نشجوا • فلما رأى ذلك عمر ، قال : يا كعب •• بشرنا ، فقال : أبشروا فان لله تعالى ثلاثمائة وأربع عشرة شريعة لا يأتى أحد بواحدة منهن مع كلمة الاخلاص[2] الا أدخله الله الجنة بفضل رحمته ، والله لو تعلمون كل رحمة الله تعالى لأبطأتم فى العمل • والله لو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت من هذه السماء الدنيا فى ليلة ظلماء مغدرة[3] لأضاءت لها الأرض أفضل مما يضىء القمر ليلة البدر ، ولوجد ريح نشرها جميع أهل الأرض ، والله لو أن ثوبا من ثياب أهل الجنة نشر اليوم فى الدنيا لصعق من ينظر اليه وما حملته أبصارهم[4] •

وعن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، قال : رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه أخذ تبنة من الأرض فقال : يا ليتنى هذه التبنة ، ليتنى لم أك شيئا ، ليت أمى لم تلدنى ، ليتنى كنت نسيا منسيا •

وقرأت أنه رضى الله عنه ، قال ذات يوم : ليتنى شعرة فى صدر أبى بكر :

وذلك حتى يدخل الجنة معه •• مع أن الصديق رضى الله عنه كان هو الآخر — وهو من هو — يخاف من الله تعالى خوفا شديدا •• مع أنه قد ورد فى الأثر أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال فى شأنه : « لو وضع ايمان أبى بكر فى كفة وايمان الأمة فى كفة لرجح ايمان

---

(١) أى كحقيقة ما ينبغى ، وكنه الشىء قدره وحقيقته وغايته .
(٢) وهى لا اله الا الله .
(٣) ليلة مغدرة ، أى مظلمة .
(٤) أخرجه أبو نعيم فى الحلية . .

أبى بكر » ، وكان مع هـذا يقول : ـ كما ورد كذلك عنه ـ : لو كانت احدى رجلى فى الجنة والأخرى على بابها ما أمنت من مكر الله .

وكان اذا مدح ـ أى سمع أحدا يثنى عليـه ـ يقول مناجيا ربه : اللهم .. اجعلنى خيرا مما يظنون ، واغفر لى ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون .

* * *

وقرأت فى كتاب « التذكرة » للقرطبى : أن يزيد الرقاشى كان يقول لنفسه : ويحك يا يزيد ، من ذا يصلى عنك بعد الموت ؟ من ذا يصـوم عنك بعد الموت ؟ من ذا يترضى عنـك ربك بعد الموت ؟ ثم يقول : أيها الناس ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقى حياتكم ؟ من الموت طالبه ؟ والقبر بيته ، والتراب فراشه ، والدود أنيسه ، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف يكون حاله ؟ ثم يبكى حتى يسقط مغشيا عليه .

وروى أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كان يجمع العلمـاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ، ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنـازة .

وذات يوم قالت له جاريته : يا أمير المؤمنين .. لقد رأيت الليلة فى المنام ، كأن الصراط قد مد على جهنم وهى تزخر على أهلها .. ثم قالت : ورأيتك يا أمير المؤمنين وقد جىء بك .. فلما سمعها تقول هذا خر مغشيا عليـه .. والجارية تصرخ فى أذنه قائلة له : رأيتك والله قد نجوت .. رأيتك والله قد نجوت .. رأيتك والله قد نجوت .

* * *

وكل هـذا ما كان الا بسبب الخوف من الله تعالى .. وهـذا أمر طبيعى بالنسبة للمؤمن الذى لابد وأن يظل خائفا من الله تعالى حتى يلقاه ولا سيما اذا كان عالمـا عاملا ، كما تشير الآية الكريمة التى يقول الله تبارك وتعالى فيهـا : « .. **انما يخشى الله من عباده العلماء** »[1] :

قال القرطبى معلقا على هذا الجزء من الآية ٢٨ من سورة فاطر .. مبينا ما ورد حول حقيقة العالم : يعنى بالعلماء الذين يخافون قدرته ، فمن علم أنه عز وجل قدير أيقن بمعاقبته على المعصية ، كما روى على ابن أبى طلحة عن ابن عباس « **انما يخشى الله من عباده العلماء ، أن**

---

(١) فاطر : ٢٨

الله عزيز غفور » ، قال : الذين علموا أن الله على كل شيء قدير • وقال الربيع بن أنس : من لم يخش الله تعالى فليس بعالم • وقال مجاهد : انما العالم من خشى الله عز وجل • وعن ابن مسعود : كفى بخشية الله تعالى علما وبالاغترار جهلا •

وقيل لسعد بن ابراهيم : من أفقه أهل المدينة ؟ قال : أتقاهم لربه عز وجل • وعن مجاهد ، قال : انما الفقيه من يخاف الله عز وجل • وعن علي رضى الله عنه ، قال : ان الفقيه حق الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يرخص لهم فى معاصى الله تعالى ، ولم يؤمنهم من عذاب الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه الى غيره ، انه لا خير فى عبادة لا علم فيها ، ولا علم لا فقه فيه ، ولا قراءة لا تدبر فيها • وأسند الدارمى أبو محمد عن مكحول ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان فضل العالم على العابد كفضلى عن أدناكم — ثم تلا هذه الآية : « **انما يخشى الله من عباده العلماء** » ان الله وملائكته وأهل سماواته وأهل أرضيه والنون[1] فى البحر يصلون على الذين يعلمون الناس الخير »[2] •

فمن هذا السياق الذى ساقه القرطبى يتبين لنا أهمية الخشية من الله تبارك وتعالى ، الذى قال متحدثا عن نفسه سبحانه وتعالى : « **غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول ، لا اله الا هو ، اليه المصير** »[3] •

قال ابن عباس : « **غافر الذنب** » لمن قال لا اله الا الله « **وقابل التوب** » ممن قال : لا اله الا الله « **شديد العقاب** » لمن لم يقل : لا اله الا الله •

وقال ثابت البنانى : كنت جالسا الى سرادق مصعب بن الزبير فى مكان لا تمر فيه الدواب ، قال : فاستفتحت : « **حم • تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم** »[4] فمر على رجل على دابة ، فلما قلت : « **غافر الذنب** » قال : قل : يا غافر الذنب اغفر لى ذنبى ، فلما قلت : « **وقابل التوب** » قال : قل : يا قابل التوب تقبل توبتى ، فلما قلت : « **شديد العقاب** » قال : قل : يا شديد العقاب اعف عنى ، فلما قلت :

---

(١) النون : أى الحوت ، كما يشير قول الله تعالى : « **وذا النون** » .
(٢) الخبر مرسل .
(٣) غافر : ٣
(٤) غافر : ١ ، ٢

« **ذى الطـــول** »[١] قال : قل : ياذا الطول طل على بخير ، فقمت اليه فأخذ ببصرى ، فالتفت يمينا وشمالا فلم أر شيئا .

ومن بركات هـــذه الآية ، ما ذكره القرطبى بعد ذلك ، حيث يقول : وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه افتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشام ، فقيل له : تتابع فى هذا الشراب ، فقال عمر لكاتبه : اكتب ، من عمر الى فلان ، سلام عليك ، وأنا أحمـــد الله اليك الذى لا اله الا هو : « **بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول ، لا اله الا هو ، اليه المصير** »[٢] ثم ختم الكتاب وقال لرسوله : لا تدفعه اليه حتى تجده صاحيا ، ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة ، فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول : قد وعدنى الله أن يغفر لى ، وحذرنى عقابه ، فلم يبرح يرددها حتى بكى ثم نزع[٣] فأحسن النزوع وحسنت توبته . فلما بلغ عمر أمره ، قال : هكذا فاصنعوا اذا رأيتم أحدكم زل زلة فسددوه وادعوا الله له أن يتوب عليـــه ، ولا تكونوا أعوانا للشياطين عليـــه .

ومعنى : « **ذى الطول** » أى ذى الغنى عمن لا يقول : لا اله **الا الله** . وقال عكرمة : « **ذى الطول** » ذى المن .. وقال محمد بن كعب : « **ذى الطول** » ذى التفضل . ومعنى : « **لا اله الا هو ، اليه المصير** » أى المرجـــع .

* * *

فلابد اذن من الخوف من الله تعالى ولكن على شريطة ألا يكون هناك يأس من رحمة الله .. لأن الله تعالى يقول :

« **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم** »[٤] .

ويقـــول : « .. **انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون** »[٥] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليـــه وسلم ، قال :

---

(١) الطول : (المن) والعطاء .
(٢) غافر : ١ ــ ٣
(٣) أى رجع الى الله تعالى بصدق واخلاص .
(٤) الزمر : ٥٣ (٥) يوسف : ٨٧

كان رجل[١] يسرف على نفسه[٢] لما حضره الموت قال لبنيه : اذا أنا مت فأحرقونى ثم اطحنونى[٣] ثم ذرونى فى الريح ، فوالله لئن قدر الله على ليعذبنى عذابا ما عذبه أحدا ، فلما مات فعل به ذلك ، فأمر الله الأرض ، فقال : اجمعى ما فيك ، ففعلت ، فاذا هو قائم ، فقال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : خشيتك يا رب ، أو قال : مخافتك ، فغفر له .

وفى رواية : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : قال رجل لم يعمل حسنة قط[٤] لأهله : اذا مات فحرقوه ثم اذروا نصفه فى البر ونصفه فى البحر ، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين ، فلمات مات الرجل فعلوا ما آمرهم ، فأمر الله البر فجمع ما فيه ، وأمر البحر فجمع ما فيه ، ثم قال : لم فعلت هذا ؟ قال : من خشيتك يا رب وأنت أعلم ، فغفر الله تعالى له » .

رواه البخارى ومسلم ، ورواه مالك والنسائى نحوه .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل : أخرجوا من النار من ذكرنى يوما أو خافنى فى مقام » رواه الترمذى والبيهقى ، وقال الترمذى : حديث حسن غريب .

ومعنى هذا الحديث الأخير[٥] : أن الله سبحانه وتعالى يخاطب الملائكة يوم القيامة ويأمرهم باخراج من دخل النار من عباده المؤمنين وكان ذكر الله عز وجل يوما ما من أيام حياته أو خاف الله تعالى فى مقام مدة عمره .

* * *

وقد اختلف المفسرون فى تأويل المقام فى قوله تعالى : **« ولمن خاف مقام ربه جنتان »**[٦] فقيل هو مصدر ميمى بمعنى القيام مضاف الى الفاعل ، أى ولمن خاف قيام ربه وكونه مهيمنا عليه مراقبا له حافظا لأحواله وهذا مروى عن مجاهد وقتادة وقيل هو اسم مكان والمراد به مكان وقوف الخلق يوم القيامة للحساب .

---

(١) أى فمن كانوا قبلنا والظاهر أنه من بنى اسرائيل .
(٢) أى يتجاوز حده فى ارتكاب المعاصى والشرور .
(٣) أى اجعلوا جسمى كالدقيق المطحون الناعم .
(٤) أى فى كل أيام عمره .
(٥) كما جاء فى هامش الترغيب والترهيب .
(٦) الرحمن : ٤٦

والاضافة اليه تعالى على معنى اللام لافادة الاختصاص لأن الملك كله فى هذا اليوم له وحده ، وقيل مقامه سبحانه وتعالى هو الموقف الذى يقفه العباد للحساب كما فى قوله تعالى : « **يوم يقوم الناس لرب العالمين** »[1] فالمقام مصدر بمعنى القيام ، والمراد بالذكر فى الحديث ذكر وعيده سبحانه عند الاقدام على معصية ، وبالخوف كف الجوارح عن المعاصى وتقييدها بالطاعات خوفا من مقامه بين يدى ربه .

كما قال تعالى : « **ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد** »[2] . والحديث يدل على فضل الذكر والخوف من الله تعالى .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه جل وعلا أنه قال : « وعزتى لا أجمع على عبدى خوفين وأمنين . اذا خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة ، واذا أمننى فى الدنيا أخفته فى الآخرة » رواه ابن حبان فى صحيحه .

وعن أبى هريرة أيضا رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا ان سلعة الله غالية ، ألا ان سلعة الله الجنة » رواه الترمذى وقال : حديث حسن ، وكذلك رواه الحاكم وقال : صحيح .

قال العلقمى : « يقال أدلج بالتخفيف اذا سار من أول الليل ، وأدلج بالتشديد اذا سار من آخره » وهذا الحديث من باب الكناية ، والمعنى أن من خاف الله تعالى أدلج أى سبق غيره الى منازل الأبرار بالجد فى العبادة .

والمعنى كذلك : أن من خاف ألزمه الخوف السلوك الى الآخرة ، والمبادرة بالأعمال الصالحة خوفا من القواطع والعوائق .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة[3] ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة[4] ما قنط من رحمته أحد » رواه مسلم .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : قال الله تعالى : « يا ابن آدم انك ما دعوتنى ورجوتنى

---

(١) المطففين : ٦ (٢) ابراهيم : ١٤

(٣) يعنى لأهل معصيته . (٤) يعنى لأوليائه وأهل طاعته .

غفرت لك على ما كان منك ، ولا أبالى ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء[1] ثم استغفرتنى غفرت لك ، يا ابن آدم لو أتيتنى بقراب[2] الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا ، لأتيتك بقرابها مغفرة » رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : قال الله عز وجل : « أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حيث يذكرنى » .. الحديث رواه البخارى ومسلم .

يعنى : أنا أكون له على حسب ظنه بى ، فان ظن بى خيرا وجد خيرا ، وان ظن بى سوءا وجد سوءا .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « حسن الظن من حسن العبادة » رواه أبو داوود وابن حبان فى صحيحه واللفظ لهما والترمذى والحاكم ولفظهما ، قال : « ان حسن الظن من حسن عبادة الله » .

أى : من جملة العبادات الحسنة التى يتقرب بها الى الله تعالى ، فاضافة « حسن » الى العبادة من اضافة الصفة للموصوف .

قال بعضهم : « وفائدة هذا الحديث الاعلام بأن حسن الظن عبادة من العبادات الحسنة ، كما أن سوء الظن معصية من معاصى الله تعالى ، وقيل معناه : من حسنت عبادته حسن ظنه ، كما قيل فى قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يموتن أحدكم الا وهو يحسن الظن بالله عز وجل » .

واطلاق الحديث يقتضى أن حسن الظن بالمسلم المستور حاله من حسن العبادة سواء أكان مصيبا فى ظنه أم مخطئا .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الاسلام حتى تكون حسن الظن بالله تعالى وحتى تكون اهلا لرحمته سبحانه وتعالى .. مع ملاحظة ما جاء فى مضمون هذا الحديث القدسى الذى يقول الله تعالى فيه : « ما أقل حياء من يطمع فى جنتى بغير عمل !! كيف أجود برحمتى على من بخل بطاعتى » ؟

---

(١) هو بفتح العين السحاب وبكسرها اللجام .

(٢) أى بما يقارب ملء الأرض خطايا .

وذلك حتى تعمل ان شاء الله تعـالى وبكل ما أوتيت من ايمان واخلاص على أن تكون من أهل الرحمة المشار اليهم فى قول الله تعالى : **« .. ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل ..** »[1] الآية .

* * *

وأخيرا أخا الاسلام ، وحتى يكون هناك مع الخوف من الله تعالى رجاء فيه سبحانه .. اليك بعض ما ذكره الامام الغزالى رحمه الله تعالى فى كتابه « احياء علوم الدين » ، فى كتاب الخوف والرجاء ، حيث يقول بتصرف وايجاز :

أما بعد .. فان الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون الى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤد ، فلا يقود الى قرب الرحمن وروح الجنان ، مع كونه بعيد الأرجاء ، ثقيـل الأعباء ، محفوفا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء ، الا أزمة الرجاء ولا يصدر عن نار الجحيم والعذاب الأليم ، مع كونه محفوفا بلطائف الشهوات وعجائب اللذات الا سياط التخويف وسطوات التعنيف .. ثم يقول تحت عنوان :

فضيلة الرجاء والترغيب فيـه

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف : لأن أقرب العباد الى الله تعالى أحبهم له ، والحب يغلب بالرجاء ، واعتبر ذلك بملكين ، يخدم أحدهما خوفا من عقابه ، والآخر رجاء لثوابه ، ولذلك ورد فى الرجاء وحسن الظن رغائب ، لا سيما فى وقت الموت ، قال تعالى : **« .. لا تقنطوا من رحمة الله »**[2] ، فحرم أصل اليأس . وفى أخبار يعقوب عليه السـلام ، أن الله تعالى أوحى اليه : أتدرى لم فرقت بينك وبين يوسف ؟ لأنك قلت : أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . لم خفت الذئب ولم ترجنى ، ولم نظرت الى غفـلة اخوته ولم تنظر الى حفظى له ؟ .. وقال صلى الله عليـه وسلم : « لا يموتن أحدكم الا وهو يحسن الظن بالله تعالى »[3] . وقال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧ (٢) الزمر : ٥٣

(٣) رواه مسلم من حديث جابر .

« يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء »[١] ، ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو فى النزع ، فقال : « كيف تجدك » ؟ فقال : أجدنى أخاف ذنوبى ، وأرجو رحمة ربى . فقال صلى الله عليه وسلم : « ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن الا أعطاه الله ما رجا وأمنه مما يخاف »[٢] .

وقال على رضى الله عنه لرجل أخرجه الخوف الى القنوط لكثرة ذنوبه : يا هذا .. يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك .

وقال سفيان : من أذنب ذنبا فعلم أن الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه ، غفر الله له ذنبه ، قال : لأن الله عز وجل عير قوما فقال : **« وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم »**[٣] ..

وقال تعالى : **« وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا »**[٤] ..

وفى الخبر الصحيح : « أن رجلا كان يداين الناس فيسامح الغنى ويتجاوز عن المعسر ، فلقى الله ولم يعمل خيرا قط ، فقال الله عز وجل : من أحق بذلك منا » فعفا عنه لحسن ظنه ، ورجائه أن يعفو عنه ، مع افلاسه من الطاعات .

وفى الخبر : « اذا أذنب العبد ذنبا فاستغفر الله ، يقول الله عز وجل للملائكته : انظروا الى عبدى أذنب ذنبا فعلم أنه له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب ، أشهدكم أنى قد غفرت له »[٥] .. الخ .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الاسلام حتى لا تيأس من رحمة الله تعالى وحتى تكون من أهل الرجاء فى الله تعالى الذى **« .. يغفر الذنوب جميعا .. »**[٦] .

---

(١) رواه ابن حبان من حديث واثلة بن الأسقع وهو فى الصحيحين من حديث أبى هريرة دون قوله « فليظن بى ما شاء » .

(٢) رواه الترمذى وقال غريب ، والنسائى فى الكبرى وابن ماجه من حديث أنس وقال النووى اسناده جيد .

(٣) فصلت : ٢٣ (٤) الفتح : ١٢

(٥) الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ : « ان عبدا أصاب ذنبا فقال : أى رب أذنبت ذنبا فاغفر لى » ..

(٦) الزمر : ٥٣ .

والذى يقول : « **أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشـــاء** »[١] .

وادع الله تعالى معى بهذا الدعاء الجامع الذى أسأل الله تعالى أن يتقبله منا جميعا كما تقبله من حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم الذى قال له : « سل » ، فقال صلوات الله وسلامه عليـــه : « اللهم انى أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لى وترحمنى ، واذا أردت بقوم فتنة فتوفنى غير مفتون ، وأسألك حبك وحب من يحبك ، وحب عمل يقربنى الى حبك »[٢] .. آمين .. آمين .. آمين ..

* * *

---

(١) النساء : ٤٨

(٢) من حديث أخرجه الترمذى والحاكم عن معاذ بن جبل رضى الله عنـــه .

الوصية التاسعة والخمسون

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير ٠ احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وان أصابك شىء فلا تقل : لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فان لو تفتح عمل الشيطان » ٠٠

(رواه مسلم)

* * *

فكن أخا الاسلام :

من المنتفعين بهذه الوصية العظيمة التى يرغبنا فيها الرسول صلى الله عليه وسلم — كمؤمنين — فى أن نكون من الأقوياء فى مظهرنا ومخبرنا وفى جميع شئون حياتنا الدنيوية والأخروية :

وذلك لأن الدين الاسلامى هو دين القوة ٠٠ وقد أمر الله المسلمين بأن يأخذوا بأسباب القوة حتى تتحقق لهم عوامل النصر ، والبقاء فى الدنيا ، والسعادة فى الآخرة ٠

كما أمر الله تعالى الأمة الاسلامية أن تكون قوية فى ايمانها وصلتها بالله ورسوله ، حيث ان الايمان هو الدعامة الأولى فى خلق الحياة الطيبة ، يربى فى النفوس الفضائل ويغرس فيها الاخلاص فى العمل ، ويجعل من الانسان رقيبا عليه يحاسبه اذا قصر ، ويحرسه اذا أهمل ، ويشعر العامل بأن قطرات العرق التى تتساقط من جبينه فى العمل المنتج لأمته انما هى فى سبيل الله ٠ وقوة الايمان هى التى تبعث فى العامل حرارة العمل وتشد فيه قوة العزم ، وتدفعه فى صلابة الى مضاعفة الجهد ، والى حسن الانتاج وزيادته لسعادة أمته ورفاهيتها ، وتذكره بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم يزرع زرعا أو يغرس غرسا فيأكل منه انسان أو دابة أو طير الا كان له به صدقة » ٠

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ان الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » .

والأمة التى تخوض معركة البناء تحتاج الى الأيدى المخلصة والسواعد الفتية التى تعمل على زيادة الانتاج فى كل ميدان من ميادين العمل حتى توفر للشعب سبل نهضته وأسباب رقيه ، قال تعالى : **« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملا »**(١) .

والحياة الدنيا حياة العمل لعز الدنيا وشرف الآخرة .. قال تعالى : **« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »**(٢) .

والعمل يحتاج الى قوة الروح وقوة البدن ، ولا تقوى الروح الا بعبادة الله عز وجل حيث يستيقظ الضمير ويحيا القلب ويعيش الانسان مع ربه يخافه ويخشاه ، قال تعالى : **« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين »**(٣) .

وقوة الأبدان لا تكون الا حين تتوفر مطالبها من الانتاج الزراعى الذى هو ثمرة جهد الفلاح وكدحه وكفاحه من أجل وطنه فهو أحد أبنائه ولبنة فى صرح بنائه ، ومن الانتاج الصناعى الذى تعمل الأمة جاهدة على توفيره الأمر الذى يحتم على العمال الاخلاص لعملهم والسعى الدائب لاتقانه وزيادته حتى تحصل الأمة على ثروة تعمر بها وتبنى وتوفر لأبنائها وسائل الحياة الكريمة العزيزة ، كما تجد من بينهم من يمكن أن يكون عدتها فى الشدائد وسنادها فى الخطوب والملمات وقوتها التى تدفع بها كل عدوان وترد كيد كل باغ عن حماها الكريم وبذلك تعيش مرهوبة الجانب موفورة القوة لها ما تستحق فى الدنيا من اجلال واعظام واكبار .

والقرآن الكريم يدعونا الى أن نأخذ بأسباب القوة ، قال تعالى : **« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة .. »**(٤) ، ولفظ القوة عام فى كل ما يتقوى به المسلم فى الداخل وأمام أعدائه فى الخارج ..

* * *

---

(١) الكهف : ٣٠ (٢) التوبة : ١٠٥

(٣) الذاريات : ٥٦ ــ ٥٨ (٤) الأنفال : ٦٠

وتحت عنوان :

القـــــوة

أعجبنى كذلك ما كتبه فضيلة الشيخ محمد الغزالى ــ أكرمه الله ــ فى كتاب « خلق المسلم » حيث يقول[١] :

العقيدة المكينة ، معين لا ينضب للنشاط الموصول ، والحماسة المذخورة ، واحتمال الصعاب ، ومواجهة الأخطار ، بل هى سائق حثيث يدفع الى لقاء الموت دون تهيب ، ان لم يكن لقاء محب مشتاق !!

تلك طبيعة الايمان اذا تغلغل واستمكن ، انه يضفى على صاحبه قوة تنطبع فى سلوكه كله ، فاذا تكلم كان واثقا من قوله ، واذا اشتغل كان راسخا فى عمله ، واذا اتجه كان واضحا فى هدفه ، وما دام مطمئنا الى الفكرة التى تملأ عقله ، والى العاطفة التى تعمر قلبه ، فقلما يعرف التردد سبيلا الى نفسه ، وقلما تزحزحه العواصف العاتية عن موقفه ، بل لا عليه أن يقول لمن حوله :

« اعملوا على مكانتكم انى عامل ، فسوف تعلمون • من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيـــم »[٢] •

هذه اللهجة المقرونة بالتحدى • وهذه الروح المستقلة فى العمل ، وتلك الثقة فيما يرى أنه الحق •• ذلك كله يجعله فى الحياة رجل مبـــدأ متميز ، فهو يعاشر الناس على بصيرة من أمره • ان رآهم على الصواب تعاون معهم ، وان وجدهم مخطئين : نأى بنفسه ، واستوحى ضميره وحده ••

قال رسول الله صلى الله عليـــه وسلم : « لا يكن أحدكم امعة • يقول : أنا مع الناس ، ان أحسن الناس أحسنت ، وان أساءوا أسأت !! ولكن وطنوا أنفسكم ان أحسن الناس أن تحسنوا ، وان أساءوا أن تجتنبوا اساءتهم »[٣] •

والرجل الضعيف ، هو الذى يستعبده العرف الغالب ، وتتحكم فى أعماله التقاليد السائدة ، ولو كانت خطأ يجر معه متاعب الدنيا والآخرة •• الى أن يقول :

أجل •• يجب أن يكون المسلم شاعرا بقوة اليقين فى شخصه ،

---

(١) بتصرف وايجاز .
(٢) الزمر : ٣٩ ، ٤٠
(٣) رواه الترمذى .

وروعة الايمان فى نفسه . فان لم يستطع فرض ذلك على ما حوله بقى كالطود الأشم ، لم تجرفه الغمار السائدة ، ولم تطوه اللجج الصاخبة . وماذا يفعل الناس لامرىء اعتز بايمانه ، واستشعر القوة لصلته بربه واستقامته فى دينه ؟ انهم لو تألبوا عليه جميعا ما نالوا منه قليلا ولا كثيرا ..

عن ابن عباس ، قال : كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يا غلام .. احفظ الله يحفظ ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف الى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، اذا سألت فاسأل لله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، فان العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم يقدروا على ذلك . ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا على ذلك ، جفت الأقلام وطويت الصحف » .

والحق أن فضيلة القوة ترتكز فى نفس المسلم على عقيدة التوحيد ، كغيرها من الفضائل التى تجعله يرفض الهوان فى الأرض ، لأنه رفيع القدر بانتسابه الى السماء ، ولأنه يستطيع فى نطاق ايمانه أن يكون أمة وحده ، وفى فهم قول الله عز وجل : **« قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ، قل انى أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين »**[1] .

ومن فضائل القوة التى يوجبها الاسلام : أن تكون وثيق العزم ، مجتمع النية على ادراك هدفك بالوسائل الصحيحة التى تقربك منه ، باذلا قصارى جهدك فى بلوغ مأربك ، غير تارك للحظوظ أن تصنع لك شيئا ، أو للأقدار أن تدبر لك ما قصرت فى تدبيره لنفسك !! فان هناك أقواما يجعلون من اللجأ الى الله ستارا يوارى تفريطهم المعيب وتخاذلهم الذميم ، وهذا التواء كرهه الاسلام .

فعن عوف بن مالك ، قال : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين رجلين . فلما أدبرا قال المقضى عليه : حسبى الله ونعم الوكيل ! فقال صلى الله عليه وسلم : « ان الله يلوم على العجز !! ولكن عليك بالكيس . فاذا غلبك أمر فقل : حسبى الله ونعم الوكيل » .

أى أن المرء مكلف بتعبئة قواه لمغالبة مشاكله حتى تنزاح من طريقه ، فان ذللها حتى استكانت له فقد أدى واجبه .

---

(١) الأنعام : ١٤ ، يطعم ولا يطعم : الأولى بضم الياء وتسكين الطاء وكسر العين ، والثانية بفتح العين .

وان غلب على أمره أمامها بعد استفراغ جهده كان ركونه الى الله عندئذ معاذا يعتصم به من غوائل الانكسار ، فهو على الحالين قوى ، بعمله أولا وبتوكله آخرا .. الى أن يقول :

وقد جاء فى الحديث : « من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله » .

والتوكل الذى يقوى الانسان به ضرب من الثقة بالله ، ينعش الانسان عندما تكتنفه ظروف محرجة ، ويلتفت حوله فلا يرى عونا ولا أملا !

فالمكافح عدوا قوى الشكيمة ، شديد البأس ، على ضعف العدة وقلة الناصر يحس عندما يتوكل على الله أنه أوى الى ركن شديد ، ويستمد من هـذا التوكل ثباتا ورباطا ، ويظل يقاوم حتى تبرق بشائر النصر خلال جو مكفهر ، وقد بين الله تبارك وتعالى أن هـذا التوكل كان غذاء الكفاح الطويل الذى قاوم به النبيون وأتباعهم مظالم الطغاة وبغى المستبدين .

« ومالنـا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ، ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون »[1] .

وقد كان الحكام الفجرة وأشياعهم يسمون تشبث المؤمنين بما لديهم وتأميلهم الخير فى المستقبل ، وطمأنينتهم الى أن ضعفهم الحاضر سيتحول قوة غالبة .. كانوا يسمون ذلك غرورا ! :

« اذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ، ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم »[2] .

فالتوكل الحق قرين الجهد المضنى والارادة المصممة ، ولم ينفرد التوكل عن هذه المعانى الا فى العصور التى مسخ فيها الاسلام ، وأصبح بين أتباعه لهوا ولعبا .

ومما يجعل المسلم قويا أن يبتعد عن حياة الخلاعة والفجور ، وأن يألف مسالك النزاهة والاستقامة ، فان الرجل الخرب الذمة أو الساقط المروءة لا قوة له ولو لبس جلود السباع ، ومشى فى ركاب الملوك .

وقد نصح الله قوم هود فأرشدهم الى أسباب القوة الصحيحة ، وكانوا عمالقة جبارين ، فقال :

---

(١) ابراهيم : ١٢ (٢) الأنفال : ٤٩

« استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين »[١] .

وأراد رسول الله أن يزين الطاعات للناس ، وأن يغريهم بأدائها ، وأن يشرح لهم عظمة الانسان عندما يفعل الخير ويراغم الشيطان ويسمو الى الملأ الاعلى ، فضرب لهم المثل فى سياق حديث له ، قال :

« لما خلق الله الأرض جعلت تميد وتتكفأ فأرساها بالجبال فاستقرت . فتعجب الملائكة من شدة الجبال ، فقالوا : يا ربنا هل خلقت خلقا أشد من الجبال ؟ قال : نعم ، الحديد . قالوا : فهل خلقت خلقا أشد من الحديد ؟ قال : نعم ، النار ، قالوا : فهل خلقت خلقا أشد من النار ؟ قال : نعم ، الماء ، قالوا : فهل خلقت خلقا أشد من الماء ؟ قال : نعم ، الريح ، قالوا : فهل خلقت خلقا أشد من الريح ؟ قال : نعم ، ابن آدم اذا تصدق صدقة بيمينه فأخفاها عن شماله »[٢] .

ان الانسان ، هذا الكائن العجيب ، يعتبر سيدا لعناصر الكون كلها ، يوازن أعتاها وأقساها فيرجحه ويربو عليه ، يوم يكون شخصا فاضلا ! ولكنه يلعن فى الأرض والسماء ويرجحه الذر والهباء يوم يكون شخصا ساقطا .

والمثل الذى ذكره الحديث ليس الا ابرازا لقيمة الرجل المحسن وتصويرا لرسوخه وشموخه عندما يسبق فى ميدان الخير ..

ومن عناصر القوة أن يكون المسلم صريحا ، يواجه الناس بقلب مفتوح ومبادىء معروفة ، لا يصانع على حساب الحق بما يغض من كرامته وكرامة أنصاره . بل يجعل قوته من قوة العقيدة التى يمثلها ويعيش لها . ولا يحيد عن هذه الصراحة أبدا فى تقرير حقيقة ما .

حدث أن كسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم مات ابنه ابراهيم ، فقال الناس : كسفت الشمس لموت ابراهيم !! فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الناس ، فقال :

« ان الشمس والقمر لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته . ولكنهما آيتان من آيات الله تعالى يريهما عباده ، فاذا رأيتم ذلك فافزعوا الى الصلاة »[٣] .

---

(١) هود : ٥٢

(٢) رواه الترمذى .

(٣) رواه البخارى .

ذلك أن الشخص الذى يحيا فى الحقائق لا يتاجر بالأباطيل ، فهو غنى عنها • وصراحته دليل على ثروة عريضة من الشرف ، تغنى صاحبها عن الدجل والاستغلال ، وتقيم سيرته على ركائز ثابتة من الفضيلة والكمال •

وقاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تنبثق من هـذا السمو النفسى ، لأنها تعتمد على مصارحة المخلصين بما فرط منهم ابتغاء محوه لتثبت مكانه الصواب والخير •

الى أن يقول الشيخ الغزالى :

والذى نريد توكيده هنا أن المسلم يجب أن يكون نقادة للعيوب الفاشية ، جريئا فى الحملة عليها ، لا يتهيب كبيرا ولا يستحى من قريب ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم ••

وقد كره الاسلام أن يضعف الرجل أمام العصاة من الكبراء ، وأن يناديهم بألفاظ التكريم :

قال رسول الله صلى الله عليـــه وسلم : « اذا قال الرجل للمنافق : ياسيد ، فقد أغضب ربه »[1] •• اهـ •

* * *

ولقد كان حبيبنا المصطفى صلوات الله وسلامه عليـــه مثلا أعلى فى كل عناصر القوة ــ التى وقفنا عليها ــ :

فقد جاء فى كتب السيرة أنه صلى الله عليـــه وسلم كان ذا شجاعة ونجدة ، وبسالة وشدة ، طالما ثبت فى الشدائد وهو مطلوب ، وصبر على البأساء والضراء وهو مكروب •

وحسبنا أن نذكر « يوم حنين » وقد التقى جيشه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ بجيوش قريش ، وخالف جيشه تعاليمه وانصرفوا عن أماكنهم ، قبل أن يتم له النصر • فاحتلها العدو وحمل عليهم ففروا وبقى هو فى الميدان وحيدا يمتطى بغلته ، وهو يقول : « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » ••

ولعمر الله ان ذلك لفوق ما نعهد من شجاعة البشر ، فان الانسان مهما كانت شجاعته لا يقدم بنفسه على الألوف المؤلفة بعد ما فر عنه أصحابه ، وخصوصا اذا كان على بغلته بين تلك الخيول المطهمة ، والفرسان المدربة •

---

(١) رواه الحاكم .

يقول سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه : « لمـا جال الناس عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم تلك الجولة يوم أحد ، قلت : أزود عن نفسى ، فاما أن أستشهد ، واما أن ألحق حتى ألقى رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، فبينا أنا كذلك اذا برجل مخمر وجهه ـ ملثمه ـ ما أدرى من هو ؟ فأقبل عليـه المشركون حتى قلت : قد ركبوه ، فملأ يده من الحصا ثم رمى به وجوههم ، فتنكبوا على أعقابهم القهقرى ، حتى أتوا الجبل . ففعل ذلك مرارا ولا أدرى من هو ؟ وبينى وبينه المقداد ابن الأسود ، فبينا أنا أريد أن أسأل المقداد عنه ، اذ قال المقداد : يا سعد .. هذا رسول الله صلى الله عليـه وسلم يدعوك ، فقلت : وأين هو ؟ فأشار اليه ، فقمت وكأنه لم يصـبنى شىء من الأذى ، وأجلسنى أمامه ، فجعلت أرمى وأقول : اللهم سهمك فارم به عدوك ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم استجب لسعد ، وسدد رميته ، وأجب دعوته » .

ويقول على رضى الله عنه وكرم الله وجهه : « كنا اذا حمى البأس واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله صلى الله عليـه وسلم ، فما يكون أحد أقرب الى العدو منه . ولقد رأيتنى يوم بدر ، ونحن نلوذ بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو أقرب الى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا » .

ومن مظاهر قوته وتحديه لقوى الباطل : ما حدث يوم أن ذهب رجال من أشراف قريش الى عمه أبى طالب ، وقالوا له : يا أبا طالب .. ان لك سنا وشرفا ومنزلة فينـا ، وانا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وانا والله لا نصبر على هذا .. من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله واياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

فلما انصرفوا .. أرسل عمه اليه فجاءه ، فقص عليـه نبأ قومه ، ثم قال له : يا ابن أخى ، أبق علي وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق . فظن رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، أنه قد بدا لعمه رأى جديد ، وأنه خاذله ومسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته ، والقيام معه .. فأعلن فى قوة ايمانية تؤكد ثقته الكاملة بالله تعالى القوى العزيز ..

قائلا : « والله يا عمى لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » ..

ثم قام واثقا بالله تعالى ثقة لا تزعزعها الأعاصير ، ثقة تميد دونها الجبال ولا تميد ، فلما ولى ناداه أبو طالب : أقبل يا ابن أخى ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فقال له عمه : اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك اليهم أبدا .

وذلك لأنه لمس منه الرجولة الكاملة ، والقوة الايمانية الخارقة التى لا تقهر .

* * *

وهكذا كان أغلب أصحابه الفضلاء عليهم جميعا رضوان الله .. نذكر منهم على سبيل المثال :

سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فلقد ورد أنه كان قويا جدا ، لدرجة أنه — كما سمعت — كان ذات يوم يقص شعره فعطس فأغمى على الحلاق ، وكان عملاقا لدرجة كما يقولون كذلك أنه كان اذا أراد أن يركب جوادا رفع ساقه وهو على الأرض ووضعه فى الناحية الأخرى .

ولهذا فقد تمنى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعز الله به الاسلام ، فقال كما ورد : « اللهم أعز الاسلام بأحد العمرين عمرو بن هشام ، أو عمر بن الخطاب » .. فكانت الدعوة هذه — ان صحت — من نصيب عمر بن الخطاب .. فى يوم يعتبر من أطلك الأيام بالنسبة له فى أوله ، ومن أعظم الأيام بالنسبة له فى آخره أو فى أوسطه .. لأنه فى هذا اليوم المشار اليه ، كان قد خرج من بيته متجها الى دار الأرقم ابن الأرقم[1] — حاملا سيفه — ليقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فرآه أحد أصدقائه .. فقال له : الى أين يا ابن الخطاب ؟ فقال : انى ذاهب الى هذا الرجل الذى يسب آلهتنا ويسفه أحلامنا لأريح الناس منه . فقال له صاحبه هذا : أرى أن تذهب أولا الى أختك[2] وزوجها — سعيد بن زيد — لأنهما قد آمنا به .. وفعلا بعد أن كان متجها الى دار الأرقم بن الأرقم .. اتجه الى دار أخته ، وهناك طرق الباب طرقة قوية عرف طارقها .. ولهذا حدث فى داخل الدار أن اختبأ الخباب

---

(١) التى كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو فيها الى الله سرا .

(٢) فاطمة بنت الخطاب رضى الله عنها وعن زوجها .

ابن الأرت وهو صحابى جليل كان يعلمهما القرآن ــ لانه لا يستطيع مواجهة عمر ــ ثم ذهبت أخته الى الباب ففتحته .. فلطمها عمر على وجهها فشج وجهها ، ثم ذهب بعد ذلك الى زوجها وأخذ يضربه حتى كاد أن يقتله .. لولا أنه نظر الى وجه أخته فلما رأى الدماء تسيل من قلبه ، فقام من على صدر زوجها ، ثم قال لها : أين الصحيفة التى كنتما تقرآن فيها[1] ؟ فقالت له : اذهب أولا واغتسل .. فقال لها : لم ؟ قالت : لأنه قرآن ، والقرآن « **لا يمسه الا المطهرون** »[2] .. وفعلا ــ لأن الله تعالى أراد له الهداية ــ ذهب فاغتسل ثم عاد .. فناولته الصحيفة .. فبدأ يقرأ بتدبر : « **طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . الا تذكرة لمن يخشى . تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى . له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى . الله لا اله الا هو ، له الأسماء الحسنى** »[3] .

ثم توقف قليلا .. وقال للثلاثة الذين يجلسون حوله ــ أخته وزوجها والخباب ــ : من هذا فرت قريش ؟ ! ثم مضى يقرأ :

« **ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى** »[4] .

وهنا توقف مرة أخرى عن القراءة ثم وقف فى حزم حازم وهو يقول : ينبغى لمن يقول هذا ألا يعبد معه غيره .. دلونى على محمد .. ففرح الثلاثة فرحا شديدا .. ثم قال له الخباب :

أبشر يا عمر .. فانى أرجو أن تكون قد سبقت فيك دعوة رسول الله يوم الاثنين : اللهم أعز الاسلام بأحب هذين الرجلين اليك ، بأبى جهل ابن هشام ، أو بعمر بن الخطاب .

ثم يذهب الخباب به مع زوج أخته الى دار الأرقم بن الأرقم .. وهناك طرق عمر الباب ــ كذلك ــ طرقة قوية عرف طارقها .. فلم يجرؤ أحد من الأصحاب على فتح الباب ــ لأنهم يعرفون من هو عمر ــ فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الباب ففتحه ثم جذب عمر جذبة هاشمية وهو يقول له : أما آن لك يا ابن الخطاب أن تشهد

---

(١) لأنه سمع التلاوة أثناء طرقه للباب .

(٢) الواقعة : ٧٩ (٣) طه : ١ ــ ٨

(٤) طه : ١٥ ، ١٦

أن لا اله الا الله ، وأنى رسول الله ؟ .. فيقول عمر : ما جئت الا من أجل هـذا .. أشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله .. فكبر الأصحاب تكبيرة ارتجت لها أرجاء مكة .. ثم جلس عمر بعد ذلك بين يدى الرسول صلى الله عليـه وسلم واستمع الى القرآن من فمه الطاهر .. ثم بعد أن امتلأ قلبه بشحنة كبيرة من الايمان أراد بعد ذلك أن يكون مسلما لا متمسلما .. فقال : يا رسول الله .. ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ ! فيقول الرسول صلى الله عليـه وسلم : نعم . فيقول عمر متعجبا : فعلام اذن نختبىء ؟ ! هلم بنا يا رسول الله لنعلن كلمة الحق على الملأ .. ففرح الرسول صلى الله عليه وسـلم وفرح أصحابه فرحا شديدا ثم خرج الرسول صلى الله عليـه وسلم وخرج الأصحاب على رأسهم عمر رضى الله عنه .. فكان نصرا مبينا ، وكان عيدا كما يقـول ابن مسعود رضى الله عنه : كان اسلام عمر فتحا وهجرته نصرا وامارته رحمة .

وعندما أراد عمر رضى الله عنه أن يهاجر لم يهاجر متخفيا كما فعل جميع الأصحاب والى هذا يشير على كرم الله وجهه : ما علمت أن أحدا من المهاجرين هاجر الا متخفيا ما عدا عمر بن الخطاب ، فانه لمـا هم بالهجرة ، تقلد سيفه وتنكب قوسه ، وانتضى فى يده أسهما . واحتضن عنزته — عصا لها زج لرمح صغير — ومضى قبل الكعبة ، والملأ من قريش بفنائها ، فطاف فى البيت سبعا متمكنا ، ثم أتى المقام فصلى ، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة .. فقال لهم : شاهت الوجوه لا يرغم الله الا هـذه المعاطس ، من أراد أن تثكله أمه ، أو يؤتم ولده ، أو يرمل زوجته فليلقنى وراء هـذا الوادى .. قال على : فما اتبعه الا قوم من المستضعفين علمهم ما أرشدهم ثم مضى لوجهه .

ولهذا ، لمـا ولى الخلافة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « يا أيها الناس .. انى داع فأمنوا : اللهم انى غليظ فليني لأهل طاعته بموافقة الحق ، ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقنى الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق ، من غير ظلم منى لهم ، ولا اعتداء عليهم ، اللهم انى شحيح فسخنى فى نوائب المعروف ، قصدا من غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولا سمعة ، واجعلنى أبتغى بذلك وجهك والدار الآخرة ، اللهم ارزقنى خفض الجنـاح ولين الجانب

للمؤمنين ، اللهم انى كثير الغفلة والنسيان ، فألهمنى ذكرك على كل حال ، وذكر الموت فى كل حين .

اللهم انى ضعيف العمل بطاعتك ، فارزقنى النشاط فيها ، والقوة عليها ، بالنية الحسنة التى لا تكون الا بعزتك وتوفيقك ، اللهم ثبتنى باليقين والبر والتقوى ، وذكر المقام بين يديك والحياء منك ، وارزقنى الخشوع فيما يرضيك عنى والمحاسبة لنفسى واصلاح الساعات والحذر من الشبهات ، اللهم ارزقنى التفكر والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابكم والفهم له والمعرفة بمعانيه والنظر فى عجائبه ، والعمل بذلك ما بقيت ، انك على كل شىء قدير » .

* * *

ولقد كان على كرم الله وجهه بطلا عظيما من أبطال الاسلام الأقوياء الذين أعز الله تعالى الاسلام بهم .

بل هو الفدائى الشجاع الذى اقتدى النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه ليلة الهجرة .. فلقد بات على فى فراش الرسول صلى الله عليه وسلم وتغطى بغطاءه .. ولما أصبح فتيان قريش ورأوا عليا ازدادوا غيظا ، وكادوا يفتكون به .. ولكنهم تبعوا محمدا ، فأنجاه الله منهم .. والى هذا يشير الشيخ محمد عبد المطلب رحمه الله حيث يقول فى قصيدة له :

ولن ينسى النبى لـه صنيعا ... عشية ودع البيت الحراما
عشية سامه[1] فى الله نفسا ... لغير الله تكبر أن تساما
فأرخصها فدى لأخيه لما ... تسجى[2] فى حظيرته وناما
وأقبلت الصوارم[3] والمنايا ... لحرب الله تنتحم[4] انتحاما
فلم يأبه لها أنفا[5] على ... ولم تقلق بجفنيه مناما
وأغشى الله أعينهم فراحت ... ولم تر ذلك البدر التماما
عموا عن أحمد ومضى نجيا[6] ... مع الصديق يدرع[7] الظلاما

---

(١) أى طلب منه .
(٢) أى تغطى .
(٣) أى السيوف .
(٤) أى ترسل أصواتا وجلبة فى غضب .
(٥) أى اباء وشجاعة .
(٦) أى سرا .
(٧) أى يجعل الظلام كالدرع يستتر به .

وغادرت البطـاح به[١] ركاب ... الى الزوراء[٢] تعتزم اعتزاما
وفى أم القرى[٣] خلى أخـاه ... على وجد به يشـكو الأواما[٤]

وفى موقعة بدر .. كان على كرم الله وجهه هو الفارس الأول الذى حصد رؤوس المشركين بسيفه ، وهزمهم شر هزيمة !

قال حكيم بن حزام ، وهو أحد المشركين الذين قاتلوا المسلمين فى موقعة بدر : كان على يلبس فوق رأسه بيضة ـ خوذة ـ لامعة وفيها ريشة ظاهرة ! كان يصول بسيفه فيحصد الرؤوس ، ويقطع الرقاب !! وكانت فرسه تصهل فتبعث الرعب فى قلوب المحاربين ، وكان سيفه يلمع فى سماء المعركة كأنه شعلة من اللهيب ! ما أكثر من قتل !! كان يهوى بسيفه فى صفوفنا كأنه الصاعقة تنقض من السماء !!

لقد قتل على وحده فى معركة بدر ثمانية عشر من زعماء قريش وفرسانها ، وأسر كثيرا من المحاربين بينهم أخوه عقيل بن أبى طالب !! ..

وفى معركة « أحد » .. كان على هو البطل الشجاع الذى دافع عن النبى صلى الله عليـه وسلم وحماه من سيوف الأعداء ! فقد خرجت قريش تريد الانتقام لقتلاها فى موقعة بدر .. والتقى الجيشان : جيش المسلمين يقوده النبى الكريم .. وجيش الكفار يقوده أبو سفيان زعيم قريش ورأس المشركين !

وصال على بسيفه وجال ، وقتل عددا كبيرا من فرسان المشركين .. وانتصر المسلمون فى بدء المعركة ، ولكن المحاربين فى مؤخرة جيـش المسلمين تركوا أماكنهم وراحوا يجمعون الغنـائم .. فانتهز جيش المشركين هـذه الفرصة ، وهجموا على المسلمين ، وقتلوا منهم عددا كبيرا . ثم تكاثر المشركون على رسول الله فكسروا رباعيته اليمنى ! وأصابه جرح فى شفته ووجنتيه ! ورأى على أن النبى محـاصر من المشركين فقفز كالنمر الهائج ومعه الزبير بن العوام الذى دافع عن النبى بسيفه دفاعا مجيدا ، وراح على يتلقى الضربات ، ويدافع عن النبى حتى امتلأ جسده بالطعنات ، ونجا رسول الله صلى الله عليـه وسلم من كيد المشركين .. وانتهت الموقعة بهزيمة المسلمين ! ـ التى كانت درسا لهم حتى لا يخالفوا أمر الرسول صلى الله عليه وسـلم

---

(١) أى بمكة .
(٢) يقصد بها المدينة .
(٣) أى مكة .
(٤) أى حرارة الشوق .

بعد ذلك كما فعل الذين تركوا أماكنهم وراحوا يجمعون الغنـــائم ـــ ولمـــا انتهت المعركة تقدمت النساء المسلمات تضمدن الجرحى !

وسألهن النبى صلى الله عليه وسلم عن على فقلن له : يا رسول الله .. ان به عشرين طعنة ! وكلما ضمدنا جرحا .. انفتق جرح آخر !

وتقدم اليه الرسول ومس بيده الكريمة جسده المثخن بالجراح وقال :

ان رجلا لاقى كل هـــذه الطعنات فى سبيل الله لهو حبيب الله فى الجنة ! ..

* * *

وهو كذلك بطل الأبطال فى موقعة الخندق :

وكانت المدينة قد هوجمت بأربعة وعشرين ألف مقاتل تحت قيادة أبى سفيان ، وعيينة بن حصن ..

فلما علم الرسول صلى الله عليه وسلم بخروجهم وتحركهم صوب المدينة .. استجاب لرأى « سلمان الفارسى » الذى كان قد أشار بحفر خندق حولها ..

وفعلا حفر الخندق الذى فوجىء به جيش المشركين .. فكان صدمة بالنسبة لهم لأنهم لم يعهدوا مثل هـــذا فى حروبهم .. وحاول بعضهم اقتحام الخندق ولكنهم لم ينجحوا .. فتسلل نفر من صناديد قريش بقيادة فارس معروف وهو « عمرو بن ود » من ثغرة فى الخندق استطاعوا عن طريقها الوقوف فى مواجهة صفوف المسلمين .. وهناك وقف « عمرو بن ود » هو ومن معه من الفرسان أمام المسلمين ، وصاح : من يبارز ؟ ..

فما كان من على كرم الله وجهه الا أن وقف أمامه فى ومض البرق وجها لوجه وقال له بكل شجاعة واستبسال : يا عمرو .. انك كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش الى احدى خلتين الا أخذتها منه .. فأجابه عمرو : أجل . فقال على :

فانى أدعوك الى الله ، والى رسوله ، والى الاسلام .. فقال عمرو : لا حاجة بى الى ذلك .

فقال على : اذن .. فأنا أدعوك الى النزال .

قال عمرو : لم يا ابن أخى ؟ فواللات ما أحب أن أقتلك .

قال على : لكنى والله أحب أن أقتلك !! ..

فغضب عمرو ، وأخذته حمية الجاهلية ، واقتحم عن فرسه وعقره ، ثم هجم على « على » الذى تلقاه بعنفوان أشد .. ثم بارزه بقوة ايمانية .. كانت سببا في أن جعلت « عمرو بن ود » مجندلا على الأرض صريعا ..

وكل هذا كان ببركة القوة الايمانية والعزيمة القويمة القوية على نصرة الاسلام والمسلمين .

كما يشير الى هذا الشاعر العربى المسلم الذى استقبل عليا بعد أن عاد الى صفوف المسلمين بقوله :

نصر الحجارة من سفاهة رأيه
ونصرت رب محمد بصواب
لا تحسبن الله خاذل دينه
ورسوله ، يا معشر الاحزاب

وصدق الله العظيم فهو القائل فى كتابه العزيز : « **ولينصرن الله من ينصره ..** »[1] .

وهو القائل : « .. **ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** »[2] .

* * *

وهو أيضا — كرم الله وجهه — بطل موقعة خيبر ..

وكانت خيبر هذه مواطن اليهود .. كما كانت حصونا منيعة .. بالاضافة الى أنها ضواحى خصبة تفيض بالخيرات والثمار ..

فلما أراد النبى صلى الله عليه وسلم فتحها أرسل أول يوم كتيبة قوية بقيادة أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — فارتدت أمام حصنها المنيع ، ثم فى اليوم الثانى أرسل كتيبة أخرى بقيادة عمر ابن الخطاب — رضى الله عنه — فارتدت كذلك لنفس السبب السابق وهو مناعة حصنها أو حصونها ..

فقال النبى صلى الله عليه وسلم ، وكله تصميم على ضرورة فتح خيبر : « لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه » .

فلما قال الرسول صلى الله عليه وسلم هذا تمنى كل صحابى أن يكون هو هذا الرجل .. لدرجة أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ،

---

(١) الحج : ٤٠ (٢) محمد : ٧

قال : « ما تمنيت الامارة قط الا اليوم ، رجاء أن أكون من يحبه الله ورسوله » .

ثم حدث بعد ذلك ، وبعد أن أصبح الصباح ، وأقبل المسلمون الى حيث يلتقون برسولهم .. وكلهم شوق الى معرفة الرجل البطل الذى سيعطيه الرسول صلى الله عليه وسلم الراية ، والذى سيتم على يديه فتح ذلك الحصن الرهيب .. :

أن فاجأ الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه بقوله : « أين على بن أبى طالب » ؟ فيقول على ملبيا نداء الرسول من فوره : ها أنذا يا رسول الله .. ثم يتقدم الى رسول الله عندما أشار اليه بيمينه .. فلما رأى الرسول ما بعينيه من وجع ، بلل أنامله بريقه الطهور ، ومس بها عين على .. فذهب ما بها من وجع واهتياج .. ثم دعا الرسول بالراية .. وبعد أن أمسكها ورفعها الى أعلى ، ثم هزها ثلاثا .. غرسها فى يمين على وقال له : « خذ هذه الراية ، فامض بها حتى يفتح الله عليك » .

فكان « على » بعد ذلك أهلا لهذا الشرف العظيم .. الذى كان دائما وأبدا أهلا له .. لأنه ربيب الرسول ، بل وربيب الوحى الذى يقول عنه على وهو صادق : « سلونى ، وسلونى ، وسلونى عن كتاب الله ما شئتم .. فوالله ما من آية من آياته الا وأنا أعلم أنزلت فى ليل ، أم فى نهار » .

حتى كان كما وصفه « الحسن البصرى » رضى الله عنه : « أعطى القرآن عزائمه ، وعلمه ، وعمله .. فكان منه فى رياض موقنة وأعلام بينة » .

ولهذا كان بسبب هذه التربية المحمدية .. والانتفاع بوحى السماء من المقربين الى الله ورسوله .. وكان كذلك أهلا لأن يزوجه الرسول صلى الله عليه وسلم ابنته الزهراء رضى الله عنها ، تلك التى كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحبها حبا جما .. لدرجة أنه كان يقول : « ان فاطمة قطعة منى .. فمن أغضبها أغضبنى » ..

نعم كان على كرم الله وجهه أهلا لهذا الشرف .. فحمل الراية وتقدم كتيبته التى كان يقودها الى الحصن مهرولا حتى وقف أمامه ونادى قائلا : « أنا على بن أبى طالب » .. فتلقى ضربة قوية لم تصبه بسوء ، لكنها أطارت ترسه من يده .. فماذا فعل على كرم الله وجهه بعد ذلك

عندما رأى نفسه يواجه فرقة مسلحة من حرس الحصن ؟ .. لقد صاح قائلا : « والذى نفسى بيده ، لأذوقن ما ذاق حمزة أو ليفتحن الله لى » .. ثم اندفع نحو باب من أبواب الحصن فرفعه بين يديه .. ثم التفت نحوهم بهذا الباب وهو يصيح : « الله أكبر » ..

يقول أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان ضمن كتيبة على : « لقد هممت أنا وسبعة معى أن نحرك هذا الباب من مكانه على الأرض فما استطعنا » . .

ثم بعد أن هجمت الكتيبة المسلمة بقيادة البطل المبارك « على » كرم الله وجهه .. وبعد فترة وجيزة : أن كانت هتافات النصر تدوى من أفواه المجنود المنتصرين : « الله أكبر خربت خيبر » .

* * *

وهكذا ، كما رأينا وباختصار استطاعت القوة الجسدية المتوجة بالقوة الايمانية بالله ورسوله .. أن تصنع المعجزات مع قلة العدد والعدد ..

ولهذا .. فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم كما قرأنا — فى نص الوصية — « المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف » .

ولهذا — كذلك — كان من الخير أن يحافظ المؤمن على قوته هذه ، وذلك بالمحافظة على صحته بالبعد عن كل مسكر ومفتر[1] ، وعن كل شىء يضر بصحته ولا سيما كثرة الطعام والشراب :

فان الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

وقد ورد التحذير من هذا على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث شريف قال فيه :

« ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطن ، بحسب ابن آدم[2] أكلات[3] يقمن صلبه ، فان كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

« ان من السرف أن تأكل كلما اشتهيت » رواه ابن ماجه .

* * *

---

(١) فقد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن كل مسكر ومفتر .

(٢) بحسب ابن آدم : أى كافيه ذلك سد الرمق .

(٣) أكلات : أى لقم .

ومن أجمل ما قرأت فى هـذا ، ما جاء فى دائرة المعارف (ج ٧) « لمحمد فريد وجدى » تحت عنوان :

تقـوية الجسـم

وهو : من الناس من يكون قويا كامل اصلحة فيعثر به ضعف لا يزال به حتى يلحقه بالمرضى . فأول ما يتبادر الى ذهنه أن يرحل الى الأطباء طلبا للعلاجات فلا يزال يتردد على هـذا وذاك مدة حتى يتأصل فيه الضعف وتكون سمية العلاجات قد فعلت بمعدته وأعصابه الأفاعيل .

لو كان اتبع هـذا الرجل القانون الطبيعى لعادت اليه قوته من غير أن يصرف درهما واحدا للأطباء والصيدليات وبدون أن يعرض نفسه لخطر السموم العلاجية فيكتسب منها أمراضا عضالة ..

والقانون الصحى الطبيعى أمر غير شاق الا على أسرى العادات أو التقاليد فهو يقضى بأن يسكن المصاب فى الخلاء وينقطع عن عمله لمدة شهرين أو ثلاثة معرضا نفسه فى أثنائها للهواء الطلق ومتبعا نظاما فى الاستحمام والغذاء لا يتعداه ، فيستيقظ فى الساعة الخامسة فيذهب توا الى الحمام فيدلك جسده بفوطة خشنة مبتلة بالمـاء ثم يخرج من الحمام الى الخلاء يرتاض نحو نصف ساعة ثم يعود فيأكل أكلة الصباح ثم يعود الى الخلاء فيشتغل أشغالا عضـلية معتدلة أو يجلس على شواطىء النيـل أو بين المزارع ، ثم يعود وقت الظهيرة فيتناول الغداء ثم يضطجع فى سريره ساعتين بدون نوم ، ثم يقوم فيرتاض فى الخلاء فى جهات يأنس بها ويرتاح اليها ، ثم يعود فى المساء فيتناول عشاء خفيفا فى الساعة السابعة وينام فى العاشرة تماما فى حجرة نوافذها مفتوحة ..

هذا .. مع مراعاة الحمية التامة فى الأكل فلا يأكل المشهيات الشديدة كاللحم ولا التوابل ولا يتناول من البقول الا ما قل ويجعل عمدة طعامه الخضر والفواكه الناضجة وخصوصا العنب والتين والبطيخ محترزا من الافراط فى كل شىء مع المداومة على التدلك بالمـاء يوميا والاستحمام بسكب المـاء ثلاث مرات فى الأسبوع ، والاجتهاد فى ترك هموم المعيشة والخلافات البيتية فلا يمضى على صاحبنا فى هـذه الحيـاة أسبوع حتى يحس بالفـارق العظيم فى جسده وعقله ، فاذا استمر شـهرين انقلب الى ضد ما كان عليـه فعادت اليه قوته وحيويته ورجع الى عمله كأحسن ما كان عليـه .

هـذا هو الطريق الطبيعى المعقول للتقـوية ، أما الاعتماد على العقاقير فلا ينتج غير الأمراض العضالة عادة ، لأن أكثر العـلاجات سموم قتالة ولا يصح أن يعتمد الانسان عليها الا عند عدم وجود وسيلة سـواها لتسكين ألم شديد واسعاف مغمى عليه . أما فيما عـدا هـذا فالشافيات التى جعلها الله رحمة للناس هى المـاء والهواء والضوء وهى حق شائع بين الكافة على السواء .

هـذا هو الأسلوب الطبيعى الحكيم لتقوية الجسـم تقوية ثابتة من طريقها الصحيح ولكن السـواد الأعظم لا يعقلون ذلك ويرون أن العقاقير هى الوسيلة الوحيدة لاعادة القوة ويغيب عنهم أن فعل تلك العقاقير ينحصر فى تهييج الجسم واكسابه ظاهرا من القوة ، وان أفادت الدم أضرت بأعضاء أخرى ، فيكون المصاب كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فهل يطول بقاء بعض الناس فى هذا الضلال ؟

* * *

ولا تنس كذلك أخا الاسلام ما ذكره ابن قيم الجوزية فى كتابه : « الطب النبوى » ، تحت عنوان :

فصل فى هديه صلى الله عليه وسلم فى حفظ الصحة

حيث يقول : لمـا كان اعتدال البدن وصحته وبقاؤه ، انما هـو بواسطة الرطوبة المقاومة للحرارة : فالرطوبة مادته ، والحرارة تنضجها وتدفع فضلاتها ، وتصلحها وتلطفها ، والا أفسدت البدن ولم يمكن قيامه . وكذلك الرطوبة : هى غذاء الحرارة ، فلولا الرطوبة : لأحرقت البدن وأيبسته وأفسدته ، فقوام كل واحدة منهما بصاحبتها ، وقوام البدن بهما جميعا . وكل منهما مادة للأخرى ، فالحرارة مادة للرطوبة : تحفظها وتمنعها من الفساد والاستحالة ، والرطوبة مادة للحرارة : تغذوها وتحملها . ومتى مالت احداهما الى الزيادة على الأخرى : حصل لمزاج البدن الانحراف ، بحسب ذلك . فالحرارة دائما تحلل الرطوبة ، فيحتاج البدن الى ما به يخلف عليـه ما حللته الحـرارة ــ ضرورة بقائه ــ وهو : الطعام والشراب ، ومتى زاد على مقدار التحلل : ضعفت الحرارة عن تحليل فضلاته ، فاستحالت مواد رديئة : فعاثت فى البدن وأفسدت ، فحصلت الأمراض المتنوعة بحسب تنوع موادها ، وقبول الأعضاء واستعدادها ..

وهـذا كله مستفاد من قولـه تعـالى : « **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ..** »(١) ، فأرشد عباده الى ادخال ما يقيم البدن : من الطعام والشراب ، عوض ما تحلل منه ، وأن يكون بقدر ما ينتفع به البدن : فى الكمية والكيفية ، فمتى جاوز ذلك : كان اسرافا ، وكلاهما مانع من الصحة ، جالب للمرض . أعنى : عدم الأكل والشرب ، أو الاسراف فيه .

فحفظ الصحة كله فى هاتين الكلمتين الالهيتين . ولا ريب أن البدن دائما : فى التحلل والاستخلاف ، وكلما كثر التحلل : ضعفت الحرارة لفناء مادتها ، فان كثرة التحلل تفنى الرطوبة ، وهى مادة الحـرارة ، واذا ضعفت الحرارة : ضعف الهضم ، ولا يزال كذلك حتى تفنى الرطوبة ، وتنطفىء الحرارة جملة ، فيستكمل العبد الأجل الذى كتب الله له أن يصـل اليه .

فغاية علاج الانسان لنفسه ولغيره : حراسة البدن الى أن يصل الى هذه الحالة ، لأنه يستلزم بقاء الحرارة والرطوبة اللتين بقاء الشباب والصحة والقوة بهما ، فان هـذا مما لم يحصل لبشر فى هـذه الدار . وانما غاية الطبيب : أن يحمى الرطوبة عن مفسداتها من العفونة وغيرها ، ويحمى الحرارة عن مضعفاتها ، ويعدل بينهما بالعدل والتدبير الذى قام به بدن الانسان ، كما أن به قامت السموات والأرض ، وسـائر المخلوقات انما قوامها بالعدل .

ومن تأمل هدى النبى صلى الله عليـه وسلم ، وجده أفضل هدى يمكن حفظ الصحة به ، فان حفظها موقوف على حسن تدبير المطعـم والمشرب والملبس والمسكن والهواء ، والنوم واليقظة ، والحركة والسكون ، والمنكح ، والاستفراغ والاحتباس . فاذا حصلت هـذه على الوجـه المعتدل الموافق الملائم للبدن والبلد والسن والعادة : كان أقرب الى دوام الصحة والعافية أو غلبتها الى انقضاء الأجل .

ولمـا كانت الصحة من أجل نعم الله على عبده ، وأجزل عطاياه ، وأوفر منحه — بل العافية المطلقة أجل النعم على الاطلاق — : فحقيق لمن رزق حظا من التوفيق ، مراعاتها وحفظها ، وحمايتها عما يضادها .

---

(١) الأعراف : ٣١

وقد روى البخارى فى صحيحه ــ من حديث ابن عباس ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعمتان مغبون[1] فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » .

وفى الترمذى وغيره ــ من حديث عبد الله بن محصن الأنصارى ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من أصبح معافى فى جسده ، آمنا فى سربه ، عنده قوت يومه : فكأنما حيزت له الدنيا » .

وفى الترمذى أيضا ــ من حديث أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ــ أنه قال :

« أول ما يسئل عنه العبد يوم القيامة : من النعيم ، أن يقال له : ألم نصح لك جسمك ، ونروك من الماء البارد » ؟!

ومن ههنا ، قال من قال من السلف ــ فى قوله تعالى : « **ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم** »[2] ــ قال : عن الصحة .

وفى مسند الامام أحمد : أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال للعباس :

« يا عباس يا عم رسول الله .. سل الله العافية فى الدنيا والآخرة » .

وفيه[3] عن أبى بكر الصديق ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول :

« سلوا الله اليقين والمعافاة ، فما أوتى أحد ــ بعد اليقين ــ خيرا من العافية » : فجمع بين عافيتى الدين والدنيا . ولا يتم صلاح العبد فى الدارين ، الا باليقين والعافية . فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة ، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا : فى قلبه وبدنه .

وفى سنن النسائى ــ من حديث أبى هريرة يرفعه : « سلوا الله العفو والعافية والمعافاة ، فما أوتى أحد ــ بعد يقين ــ خيرا من معافاة » .

وهذه الثلاثة تتضمن ازالة الشرور الماضية : بالعفو ، والحاضرة : بالعافية ، والمستقبلة : بالمعافاة . فانها تتضمن المداومة والاستمرار على العافية .

---

(١) قال فى مختار الصحاح : « غبنه » فى البيع خدعه وبابه ضرب وقد « أغبن » فهو « مغبون » .

(٢) التكاثر : ٨ (٣) اى فى مسند الامام أحمد .

وفى الترمذى مرفوعا : « ما سئل الله شيئا أحب اليه من العافية » .

وقال عبد الرحمن بن أبى ليلى : عن أبى الدرداء : « قلت : يا رسول الله .. لأن أعافى فأشكر ، أحب الى من أن أبتلى فأصبر . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ورسول الله يحب معك العافية » .

ويذكر عن ابن عباس : « أن أعرابيا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : ما أسأل الله بعد الصلوات الخمس ؟ فقال : سل الله العافية ، فى الدنيا والآخرة » .

واذا كان هذا شأن العافية والصحة : فنذكر من هديه صلى الله عليه وسلم ، فى مراعاة هذه الأمور ، ما يتبين لمن نظر فيه أنه أكمل الهدى على الاطلاق : ما ينال به حفظ صحة البدن والقلب ، وحياة الدنيا والآخرة ، والله المستعان ، وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة الا بالله ..

ثم يستأنف ابن قيم الجوزية بعد ذلك كلامه ، فى فصل آخر ، بقوله عن هدى الرسول صلى الله عليه وسلم فى المطعم والمشرب :

فأما المطعم والمشرب ، فلم يكن من عادته صلى الله عليه وسلم ، حبس النفس على نوع واحد من الأغذية ، لا يتعداه الى ما سواه . فان ذلك يضر بالطبيعة جدا ، وقد يتعذر عليها أحيانا : فان لم يتناول غيره ضعف أو هلك ، وان تناول غيره لم تقبله الطبيعة : فاستضر به . فقصرها على نوع واحد دائما — ولو أنه أفضل الأغذية — خطر .

بل كان يأكل ما جرت عادة أهل بلده بأكله : من اللحم والفاكهة والخبز والتمر ، وغيره .. من المأكول .

واذا كان فى أحد الطعامين كيفية تحتاج الى كسر وتعديل : كسرها وعدلها بضدها ان أمكن ، كتعديله حرارة الرطب بالبطيخ . وان لم يجد ذلك : تناوله على حاجة وداعية من النفس من غير اسراف ، فلا تتضرر به الطبيعة .

وكان اذا عافت نفسه الطعام : لم يأكله ، ولم يحملها اياه على كره ، وهذا أصل عظيم فى حفظ الصحة . فمتى أكل الانسان ما تعافه نفسه ولا تشتهيه : كان تضرره به أكثر من انتفاعه .

قال أنس : « ما عاف رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما قط ، ان اشتهاه : أكله ، والا : تركه ولم يأكل منه » .

ولما قدم اليه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الضب المشوى : لم يأكل منه ، فقيل له : أهو حرام ؟ قال : « لا .. ولكن لم يكن بأرض قومي ، فأجدني أعافه » . فراعى عادته وشهوته ، فلما لم يكن يعتاد أكله بأرضه ، وكانت نفسه لا تشتهيه : أمسك عنه ، ولم يمنع من أكله من يشتهيه ، ومن عادته أكله .

وكان يحب اللحم ، وأحبه اليه الذراع ومقدم الشاة . ولذلك سم فيه[1] :

وفى الصحيحين : « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم ، فرفع اليه الذراع ، وكانت تعجبه » .

وذكر أبو عبيد وغيره ، عن ضباعة بنت الزبير : « أنها ذبحت فى بيتها شاة ، فأرسل اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن أطعمينا من شاتكم ، فقالت للرسول[2] : ما بقى عندنا الا الرقبة ، وانى لأستحى أن أرسل بها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فرجع الرسول فأخبره ، فقال : ارجع اليها ، فقل لها : أرسلى بها ، فانها هادية الشاة وأقرب الى الخير وأبعدها عن الأذى » .

ولا ريب أن أخف لحم الشاة : لحم الرقبة ، ولحم الذراع والعضد . وهو أخف على المعدة ، وأسرع انهضاما . وفى هذا مراعاة الأغذية التى تجمع ثلاثة أوصاف :

الأول : كثرة نفعها وتأثيرها فى القوى .

الثانى : خفتها على المعدة ، وعدم ثقلها عليها .

الثالث : سرعة هضمها . وهذا أفضل ما يكون من الغذاء . والتغذى باليسير من هذا ، أنفع من الكثير من غيره .

وكان يحب الحلواء والعسل . وهذه الثلاثة ـ أعنى : اللحم ، والعسل ، والحلواء ـ من أفضل الأغذية ، وأنفعها للبدن والكبد والأعضاء . وللاغتذاء بها نفع عظيم فى حفظ الصحة والقوة ، ولا ينضر منها الا من به علة أو آفة .

وكان يأكل الخبز مأدوما[3] ما وجد له اداما ، فتارة يأدمه باللحم ، ويقول : « هو سيد طعام أهل الدنيا والآخرة » رواه ابن ماجه وغيره .

---

(١) أى وضع له فيه السم .

(٢) أى لرسول رسول الله اليها .

(٣) أى كان يأكله بطعام .. أو بلحم .. أو بعسل .

وتارة بالبطيخ ، وتارة بالتمر . فانه وضع تمرة على كسرة ، وقال : « هذا ادام هذه » . وفى هذا — من تدبير الغذاء — أن خبز الشعير بارد يابس ، والتمر حار رطب على أصح القولين ، فأدم خبز الشعير به من أحسن التدبير ، لا سيما لمن تلك عادتهم : كأهل المدينة . وتارة بالخل ، ويقول : « نعم الادام الخل » . وهذا ثناء عليه بحسب مقتضى الحال الحاضر ، لا تفضيل له على غيره : كما يظن الجهال . وسبب الحديث : « أنه دخل على أهله يوما ، فقدموا له خبزا ، فقال : هل عندكم من ادام ؟ قالوا : ما عندنا الا خل . فقال : نعم الادام الخل » .

والمقصود : أن أكل الخبز مأدوما من أسباب حفظ الصحة ، بخلاف الاقتصار على أحدهما وحده . وسمى الأدم أدما : لاصلاحه الخبز وجعله ملائما لحفظ الصحة . ومنه قوله فى اباحته للخاطب النظر : « انه أحرى أن يؤدم بينهما » أى : أقرب الى الالتئام والموافقة ، فان الزوج يدخل على بصيرة ، فلا يندم .

وكان يأكل من فاكهة بلده عند مجيئها ، ولا يحتمى عنها .

وهذا أيضا من أكبر أسباب حفظ الصحة : فان الله سبحانه — بحكمته — جعل فى كل بلد من الفاكهة ، ما ينتفع به أهلها فى وقته ، فيكون تناوله من أسباب صحتهم وعافيتهم ، ويغنى عن كثير من الأدوية . وقل من احتمى عن فاكهة بلده : خشية السقم ، الا وهو من أسقم الناس جسما ، وأبعدهم من الصحة والقوة .

وما فى تلك الفاكهة : — من الرطوبات — فحرارة الفصل والأرض . وحرارة المعدة تنضجها ، وتدفع شرها : اذا لم يسرف فى تناولها ، ولم يحمل منها الطبيعة فوق ما تحتمله ، ولم يفسد بها الغذاء قبل هضمه ، ولا أفسدها بشرب الماء عليها ، وتناول الغذاء بعد التحلى منها . فان القولنج كثيرا ما يحدث عند ذلك ، فمن أكل منها ما ينبغى ، فى الوقت الذى ينبغى ، على الوجه الذى ينبغى — : كانت له دواء نافعا .

ثم ينتقل ابن قيم الجوزية بعد ذلك الى فصل آخر حول :

هديه صلى الله عليه وسلم فى هيئة الجلوس للأكل

فيقول : صح عنه أن قال : « لا آكل متكئا » .

وقال : « انما أجلس كما يجلس العبد ، وآكل كما يأكل العبد » .

وروى ابن ماجه فى سننه : « أنه نهى أن يأكل الرجل وهو منبطح على وجهه » ..

وقد فسر الاتكاء : بالتربع . وفسر : بالاتكاء على الشىء ، وهو الاعتماد عليه . وفسر بالاتكاء على الجنب . والأنواع الثلاثة من الاتكاء ، فنوع منها يضر بالأكل ، وهو : الاتكاء على الجنب ، فانه يمنع مجرى الطعام الطبيعى عن هيئته ، ويعوقه عن سرعة نفوذه الى المعدة ، ويضغط المعدة : فلا يستحكم فتحها للغذاء . وأيضا : فانها تميل ولا تبقى منتصبة ، فلا يصل الغذاء اليها بسهولة .

وأما النوعان الآخران ، فمن جلوس الجبابرة المناف للعبودية . ولهذا قال : « آكل كما يأكل العبد » ، وكان يأكل وهو مقع .

ويذكر عنه : « أنه كان يجلس للأكل متوركا على ركبتيه ، ويضع بطن قدمه اليسرى ، على ظهر قدمه اليمنى » ، تواضعا لربه عز وجل ، وأدبا بين يديه ، واحتراما للطعام وللمؤاكل ، فهذه الهيئة أنفع هيئات الأكل وأفضلها : لأن الأعضاء كلها تكون على وضعها الطبيعى ، الذى خلقها الله سبحانه وتعالى عليه ، مع ما فيها من الهيئة الأدبية . وأجود ما اغتذى الانسان : اذا كانت أعضاؤه على وضعها الطبيعى : ولا يكون كذلك الا اذا كان الانسان منتصبا الانتصاب الطبيعى . وأردأ الجلسات للأكل الاتكاء على الجنب ، لما تقدم : من أن المرىء وأعضاء الازدراد تضيق عند هذه الهيئة ، والمعدة لا تبقى على وضعها الطبيعى . لأنها تنعصر مما يلى البطن بالأرض ، ومما يلى الظهر بالحجاب الفاصل بين آلات الغذاء وآلات النفس .

وان كان المراد بالاتكاء الاعتماد على الوسائد والوطاء الذى تحت الجالس ، فيكون المعنى : أنى اذا أكلت لم أقعد متكئا على الأوطية والوسائد ، كفعل الجبابرة ومن يريد الاكثار من الطعام ، لكنى آكل بلغة كما يأكل العبد .

فصل : وكان يأكل بأصابعه الثلاث . وهذا أنفع ما يكون من الأكلات : فان الأكل باصبع أو اصبعين لا يستلذ به الآكل ولا يمريه ، ولا يشبع الا بعد طول ، ولا تفرح آلات الطعام والمعدة بما ينالها فى كل أكلة ، فتأخذها على اغماض ، كما يأخذ الرجل حقه حبة أو حبتين أو نحو ذلك . فلا يلتذ بأخذه ولا يسر به . والأكل بالخمسة — أصابع — والراحة يوجب ازدحام الطعام على آلاته وعلى المعدة — وربما استدت

الآلات غمات ــ وتغصب الآلات على دفعه ، والمعدة على احتماله ، ولا يجد له لذة ولا استمراء • فأنفع الأكل : أكله صلى الله عليه وسلم ، وأكل من اقتدى به بالأصابع الثلاث •

فصل : ومن تدبر أغذيته صلى الله عليــه وسلم ، وما كان يأكله : وجده لم يجمع قط بين لبن وسمك ، ولا بين لبن وحامض ، ولا بين غذائين حارين ، ولا باردين ، ولا لزجين ، ولا قابضين ، ولا مسهلين ، ولا غليظين ، ولا مرخيين ، ولا مستحيلين الى خلط واحد ، ولا بين مختلفين : كقابض ومسهل ، وسريع الهضم وبطيئه ، ولا بين شوى وطبيخ ، ولا بين طرى وقديد ، ولا بين لبن وبيض ، ولا بين لحم ولبن ، ولم يأكل طعاما فى وقت شدة حرارته ، ولا طبيخا بائتا يسخن له بالغد ، ولا شيئا من الأطعمه العفنة والمــالحة : كالكوامخ والمخللات والملوحات • وكل هذه الأنواع ضار مولد لأنواع من الخروج عن الصحة والاعتدال •

وكان يصلح ضرر بعض الأغذية ببعض : اذا وجد اليه سبيلا : فيكسر حرارة هذا ببرودة هذا • كما فعل فى القثاء والرطب ، وكما كان يأكل التمر بالسمن ــ وهو : الحبس ــ ويشرب نقيع التمر يلطف به كيموسات الأغذية الشديدة •

وكان يأمر بالعشاء ولو بكف من تمر ، ويقول : « ترك العشاء مهرمة» ذكره الترمذى فى جامعه ، وابن ماجه فى سننه •

وذكر أبو نعيم عنه : « أنه كان ينهى عن النوم على الأكل ، ويذكر : أنه يقسى القلب » • ولهذا ، فى وصايا الأطباء لمن أراد حفظ الصحة : أن يمشى بعد العشاء خطوات ولو مائة خطوة ، ولا ينام عقبه ، فانه مضر جدا • وقال مسلموهم : أو يصلى عقيبه ، ليستقر الغذاء بقعر المعدة ، فيسهل هضمه ويجود بذلك •

ولم يكن من هديــه : أن يشرب على طعامه فيفسده ، ولا سيما ان كان المــاء حارا أو باردا ، فانه ردىء جدا • قال الشاعر :

لا تكن عند أكل ســخن وبرد ،
ودخول الحمام : تشرب مــاء
فــاذا ما اجتنبت ذلك حقــا :
لم تخف ما حييت ، فى الجوف داء

ويكره شرب المــاء عقيب الرياضة والتعب ، وعقيب الجماع ،

وعقيب الطعام وقبله ، وعقيب أكل الفاكهة — وان كان الشرب عقيب بعضها ، أسهل من بعض — وعقب الحمام ، وعند الانتهاء من النوم . فهذا كله مناف لحفظ الصحة . ولا اعتباد بالعوائد : فانها طبائع ثوان .

وأما عن :

هديه صلى الله عليه وسلم فى الشراب

فيقول ابن قيم الجوزية بعد ذلك :

وأما هديه فى الشراب ، فمن أكمل هدى يحفظ به الصحة : فانه كان يشرب العسل الممزوج بالماء البارد . وفى هذا من حفظ الصحة ، ما لا يهتدى الى معرفته الا أفاضل الأطباء ، فان شربه ولعقه على الريق : يذيب البلغم ، ويغسل حمل المعدة ، ويجلو لزوجتها ، ويدفع عنها الفضلات ، ويسخنها باعتدال ، ويدفع سددها ، ويفعل مثل ذلك بالكبد والكلى والمثانة . وهو أنفع للمعدة من كل حلو دخلها . وانما يضر بالمرض لصاحب الصفراء : لحدته وحدة الصفراء ، فربما هيجها . ودفع مضرته لهم بالخل ، فيعود حينئذ لهم نافعا جدا . وشربه أنفع من كثير من الأشربة ، المتخذة من السكر — أو أكثرها — ولا سيما لمن لم يعتد هذه الأشربة ، ولا ألفها طبعه . فانه اذا شربها : لا يلائمه ملاءمة العسل ، ولا قريبا منه . والمحكم فى ذلك العادة : فانها تهدم أصولا ، وتبنى أصولا .

وأما الشراب اذا جمع وصفى الحلاوة والبرودة : فمن أنفع شىء للبدن ، ومن أكبر أسباب حفظ الصحة ، وللأرواح والقوى والكبد والقلب عشق شديد له ، واستمداد منه . واذا كان فيه الوصفان : حصلت به التغذية ، وتنفيذ الطعام الى الأعضاء وايصاله اليها ، أتم تنفيذ .

والماء البارد رطب : يقمع الحرارة ، ويحفظ على البدن رطوباته الأصلية ، ويرد عليه بدل ما تحلل منها ، ويرقق الغذاء ، وينفذه فى العروق .

واختلف الأطباء : هل يغذى البدن ؟ .. على قولين :

فأثبت طائفة التغذية به ، بناء على ما يشاهدونه : من النمو والزيادة والقوة فى البدن به ، ولا سيما عند شدة الحاجة اليه .

قالوا : وبين الحيوان والنبات قدر مشترك من وجوه عديدة ، منها : النمو والاغتذاء والاعتدال . وفى النبات قوة حس وحركة تناسبه .

ولهذا كان غذاء النبات بالمـاء . فما ينكر أن يكون للحيوان به نوع غذاء ، وأن يكون جزءا من غذائه التام .

قالوا : ونحن لا ننكر أن قوة الغذاء ومعظمه فى الطعام ، وانما أنكرنا أن لا يكون للمـاء تغذية البتة . قالوا : وأيضا الطعام انما يغذى بما فيه : من المـائية ، ولولاها لمـا حصلت به التغذية .

قالوا : ولأن المـاء مادة حياة الحيوان والنبات ، ولا ريب أن ما كان أقرب الى مادة الشىء حصلت به التغذية ، فكيف اذا كانت مادته الأصلية ؟ ! قال الله تعـالى : « **وجعلنا من المـاء كل شىء حى** »[1] . فكيف ينكر حصول التغذية بما هو مادة الحياة على الاطلاق ؟ !

قالوا : وقد رأينا العطشان اذا حصل له الرى بالمـاء البارد : ترجعت اليه قواه ونشاطه وحركته ، وصبر عن الطعام ، وانتفع بالقدر اليسير منه . ورأينا العطشان لا ينتفع بالقدر الكثير من الطعـام ، ولا يجد به القوة والاغتذاء ، ونحن لا ننكر أن المـاء ينفذ الغذاء الى أجزاء البدن ، والى جميع الأعضاء ، وأنه لا يتم أمر الغذاء الا به . وانما ننكر على من سلبه قوة التغذية عنه البتة ، ويكاد قوله عندنا يدخل فى انكار الأمور الوجدانية .

وأنكرت طائفة أخرى حصول التغذية به . واحتجت بأمور : يرجع حاصلها الى عدم الاكتفاء به ، وأنه لا يقوم مقام الطعام ، وأنه لا يزيد فى نمو الأعضاء ، ولا يخلف عليها بدل ما حللته الحرارة ، ونحو ذلك مما لا ينكره أصحاب التغذية ، فانهم يجعلون تغذيته بحسب جوهره ولطافته ورقته ، وتغذية كل شىء بحسبه . وقد شوهد الهواء الرطب البارد اللين اللذيذ : يغذى بحسبه . والرائحة الطيبة : تغذى نوعا من الغذاء . فتغذية المـاء أظهر وأظهر .

والمقصود : أنه اذا كان باردا ، وخالطه ما يحليه : ـ كالعسل أو الزبيب أو التمر أو السكر ـ كان أنفع ما يدخل البدن ، وحفظ عليه صحته . فلهذا كان أحب الشراب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، البارد والحلو . والمـاء الفاتر ينفع ويفعل ضد هذه الأشياء .

ولمـا كان المـاء البائت أنفع من الذى يشرب وقت استقائه ، قال النبى صلى الله عليه وسلم ـ وقد دخل الى حائط أبى الهيثم بن التيهان

---

(١) الأنبياء : ٣٠

ـــ : « هل من ماء بات فى شنه » ؟ فأتاه به ، فشرب منه . رواه البخارى . ولفظه : « ان كان عندكم ماء بات فى شنه ، والا كرعنا » .

والمـــاء البائت بمنزلة العجين الخمير ، والذى شرب لوقته بمنزلة الفطير . وأيضا : فان الأجزاء الترابية والأرضية تفارقه اذا بات ، وقد ذكر : أن النبى صلى الله عليـــه وسلم كان يستعذب له المـــاء ، ويختار البائت منه . وقالت عائشة : « كان رسول الله صلى الله عليـــه وسلم ، يستقى له المـــاء العذب من بئر السقيا » .

والمـــاء الذى فى القرب والشنان ، ألذ من الذى يكون فى آنيـــة الفخار والأحجار وغيرهما ، ولا سيما أسقية الأدم[1] . ولهذا التمس النبى صلى الله عليـــه وسلم ماء بات فى شنة ، دون غيرها من الأوانى . وفى المـــاء ـــ اذا وضع فى الشنان وقرب الأدم ـــ خاصة لطيفة ، لمـــا فيـــها : من المسام المنفتحة يرشح منها المـــاء . ولهذا : المـــاء الذى فى الفخار الذى يرشح ، ألذ منه ، وأبرد فى الذى لا يرشح ، فصلوات الله وسلامه عليـــه على أكمل الخلق ، وأشرفهم نفسا ، وأفضلهم هديا فى كل شىء ، لقد دل أمته على أفضل الأمور وأنفعها لهم : فى القلوب والأبدان ، فى الدنيا والآخرة .. الخ .

* * *

فلاحظ كل هـــذا أخا الاسلام حتى تكون قوى الجسم وسليم الصحة ، وحتى تكون أيضا فى نفس الوقت سليم العقل .. لأنه كما نعلم ونحفظ : « العقل السليم فى الجسم السليم » ، أى : من الأمراض ، والعلل ..

مع ملاحظة : أن العقل هو الأساس فى ادراك كل شىء ، وهو الفيصل بين الانسان الناطق والحيوان الناهق .

ومن أجمل ما قرأت فى هـــذا : أن العقل والعلم اختلفا .. فقال العقل : أنا أفضل لأن الله عرف بى ، وقال العلم : أنا أفضل لأن الله اتصف بى فى الكتاب ، فوافقه العقل واعترف له بالفضل .

وقد نظم بعضهم هذا ، فقال :

عـــلم العليم وعقل العاقل اختلفا
من ذا الذى منهما قد أحرز الشرفا

---

(١) أى القرب .

فالعلم قال : أنا أحرزت غايتـــه
والعقل قال : أنا الرحمن بى عرفا
فأفصح العلم افصاحا وقال له :
بأينا الله فى فرقانـــه اتصـــفا
فبان للعقـــل أن العـــلم ســـيده
فقبل العقل رأس العـــلم وانصرفا

ومعلوم أن العقل ــ بصرف النظر عن المقارنة بينه وبين العلم ــ هو الأساس فى طلب العلم ، وأنه لولاه لمـــا كان هناك تحصيل للعلم ، أو مجرد التفكير السليم فى أمر من الأمور الدنيوية أو الأخروية .

ولهذا ، كما أشرت لكى يكون التفكير سليما لابد وأن يكون العقل سليما .. ولن يكون العقل سليما كما عرفت الا اذا كان الجسم سليما .

فاذكر كل هـــذا .. ولاحظه فى جميع مراحل حياتك على هذا الأساس الذى وقفت على أهمه فى « الطب النبوى » وذلك حتى تكون ــ ان شاء الله ــ من الذين يحبهم الله تعالى كما أشار النص الذى ندور حوله فى أول الوصية ، وهو : « المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف .. » .

ثم اذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال بعد ذلك : « وفى كل خير » : فهذا معناه أن المؤمن سواء أكان قوى الجسد أو ضعيفه : فانه لاشك لن يكون محروما من الخير لأنه قد توج أساسا بتاج الايمان الذى هو الأساس فى خيرى الدنيـــا والآخرة ، والذى لولاه لمـــا كان هناك أمان فى الدنيا والآخرة .. بل ولمـــا كان هناك أمان بين المواطنين .. كما يشير الى هذا قول الشاعر :

* اذا الايمان ضاع فلا أمان *

بل كما يؤكد هذا قول الله تبارك وتعالى فى قرآنه :

« الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون »[1] .

وكما يشير أيضا الى هـــذا قول الله تبارك وتعالى فى قرآنه :

« من عمل صـــالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينـــه حيـــاة طيبة[2] ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »[3] .

---

(١) الأنعام : ٨٢ (٢) اى فى الدنيا .
(٣) اى فى الآخرة والآية من سورة النحل : ٩٧

هـذا بالاضافة كذلك الى أن المؤمن بطبيعته : « خيره بادر وشره نادر » ، وقد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى وصفه : « المؤمن كله منفعة : ان شاورته نفعك ، وان شاركته نفعك ، وان ماشيته نفعك : فأمره كله منفعة » ، وهو أيضا كذلك كما ورد فى حديث شريف : « .. من أمنه الناس على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم » .

وليس هـذا معناه ـ كذلك ـ أن المؤمن لابد وأن يكون قوى الجسد .. فكم هناك من المؤمنين من حرموا من تلك النعمة ولكن ايمانهم كان أقوى وأرسخ من رسوخ الجبال .

* * *

فهذا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ـ أول صادح بالقرآن ـ كما يقول الزبير رضى الله عنه : « كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، اذ اجتمع يوما أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : والله ما سمعت قريش هـذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعهموه ؟ .. فقال عبد الله بن مسعود : أنا .. قالوا : انا نخشاهم عليك ، انما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم ان أرادوه .. قال : دعونى ، فان الله سيمنعنى .. فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام فى الضحى ، وقريش فى أنديتها ، فقام عند المقام ثم قرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ـ رافعا بها صوته ـ الرحمن .. علم القرآن ، ثم استقبلهم يقرؤها .. فتأملوه قائلين : ماذا يقول ابن أم عبد ؟ .. انه ليتلو بعض ما جاء به محمد .. فقاموا اليه وجعلوا يضربون وجهه ، وهو ماض فى قراءته حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ .. ثم عاد الى أصحابه مصابا فى وجهه وجسده ، فقالوا له : هذا الذى خشيناه عليك .. فقال : ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا .. قالوا له : حسبك ، فقد أسمعتهم ما يكرهون » .

وكان مع هـذه القوة الايمانية نحيفا ، قصيرا ، يكاد الجالس يوازيه طولا وهو قائم .

وكان له ساقان ناحلتان دقيقتان .. صعد بهما يوما أعلى شجرة يجتنى منها أراكا[1] لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. فرأى أصحابه

---

(١) أى سواكا .. لأن شجر الأراك هو الشجر الذى يجتنى منه السواك .

النبى صلى الله عليه وسلم دقتهما فضحكوا ، فقال عليه الصلاة والسلام : « تضحكون من ساقى ابن مسعود ؟ .. لهما أثقل فى الميزان عند الله من جبل أحد » !! ..

فالعبرة اذن كما رأيت ليست بقوة الأجساد وضخامتها ، وانما هى بقوة الأرواح وصفائها والى هذا يشير الشاعر فى قوله :

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته
أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس فاستكمل فضائلها
فأنت بالنفس لا بالجسم انسان

* * *

ثم اذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أوصاك بعد ذلك — فى نص الوصية — بقوله : « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز » ..

فانه بهذا يوصيك ، أولا : بأن تكون حريصا على اغتنام كل لحظة فى حياتك لصالح دنياك وآخرتك كما يشير الى هذا قول الله تعالى : **« ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين »**[1] .

وكما يشير الى هذا أيضا الحديث الشريف الذى يقول فيه صلوات الله وسلامه عليه : « اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » رواه الحاكم وقال صحيح على شرطهما ، وقال شارح الجامع اسناده حسن .

وذلك لأنك هنا فى هذه الحياة الأولى لأجل معلوم لابد وأن تثبت وجودك فيه : بمعنى أن تكون بعد موتك تاركا لبصماتك الصالحة فى هذه الحياة بتلك الصورة الايجابية التى ستكون امتدادا لذكرك الحسن فى هذا الوجود بين أهل الخير الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. كما يشير الى هذا قول القائل :

دقات قلب المرء قائلة له ان الحياة دقائق وثوان
فاعمل لنفسك قبل موتك ذكرها فالذكر للانسان عمر ثان

---

(١) القصص : ٧٧

ولتكن هـذه البصمات : صدقة جارية ، أو علما ينتفع به ، أو ولدا صالحا يدعو لك .. كما يشير الحديث الشريف الذى يقول فيه صلوات الله وسلامه عليـه : « اذا مات الانسان انقطع عمله الا من ثلاثة : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » أخرجه أحمد ومسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى .

والمعنى أن الانسان اذا مات انقطع عمله الا من ثلاث خصال :

(أ) الصدقة الجارية : أى المتصلة كوقف أو بنـاء مسجد أو مستشفى أو منزل للضيف ونحو ذلك .. من الأمور الخيرية التى تسبب فيـها الانسـان هـذا ما دامت قائمة ، وهى عشر خصال نظمها الحافظ السيوطى فى قوله :

اذا مات ابن آدم ليس يجرى ... عليـه من خصـال غير عشر
عـلوم بثهـا ودعاء نجل ... وغرس النخل والصدقات تجرى
وراثـة مصحف ورباط ثغر ... وحفر البئر أو اجراء نهر
وبيت للغريب بنـاه يأوى ... اليه أو بنـاء محل ذكر
وتعليـم لقـرآن كريـم ... فخذها من أحاديث بحصر

(ب) وعلم ينتفع به : كتعليم وتصنيف ، وهذا أكثر ثوابا لطول بقائه على ممر الزمان .

(جـ) وولد صالح يدعو له : لأنه السبب فى وجوده .. بل ربما كان قدوة صالحة له فى حياته .. فنشأ الابن معتادا على هـذا الصلاح الذى عوده عليه أبوه الصالح :

وينشأ ناشىء الفتيـان منا ... على ما كان عـوده أبوه

وقد ورد فى الأثر : « لا يستقيم الظل والعود أعوج » .

وكذا كذلك ينفع الميت دعاء غير الولد .. والتقييد بالولد الصالح لحثه على الدعاء لأصله .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليـه وآله وسلم ، قال : « ان الله تعالى ليرفع الدرجة للعبد الصالح فى الجنة ، فيقول : يا رب أنى لى هـذه ؟ فيقول : باستغفار ولدك لك » أخرجه أحمد بسند رجاله رجال الصحيح .

فاحرص على ما ينفعك أخا الاسلام واحذر أن تكون ظالمـا لنفسك وعاقا ليومك كما يشير الى هـذا على كرم الله وجهه فى قوله :

« من أمضى يومه : فى غير حق قضاه ، أو فرض أداه ، أو مجد بناه ، أو حمد حصله ، أو علم اقتبسه : فقد عق يومه وظلم نفسه » .

* * *

« واستعن بالله » على كل هذا ، لأنه كما يقول الشاعر الحكيم :

اذا لم يكن عون من الله للفتى
فأول ما يجنى عليه اجتهاده

ولأنه : « لا حول ولا قوة الا بالله » .

ولهذا فقد أوصى النبى صلى الله عليه وسلم معاذا بن جبل بقوله : « يا معاذ .. والله انى لأحبك ثم أوصيك ، يا معاذ : لا تدعن فى دبر كل صلاة تقول : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » رواه أبو داوود والنسائى باسناد صحيح .

كما قال له أيضا فى حديث آخر رواه الترمذى وقال عنه انه حديث حسن صحيح ، وكان معاذ قد قال له : يا رسول الله .. أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى عن النار .. فقال صلوات الله وسلامه عليه : « لقد سألت عن عظيم وانه ليسير على من يسره الله تعالى عليه .. » .

واعلم أخا الاسلام أنك عندما ستستعين بالله تعالى بصدق سيعينك الله تبارك وتعالى ، فهو القائل : **« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وان الله لمع المحسنين »**[1] .

والقائل : **« ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »**[2] .

والاستعانة بالله تعالى لكى تكون على أساس عقائدى سليم : لابد وأن تكون مصحوبة بحسن التوكل على الله تبارك وتعالى ، كما يشير الى هذا الحديث الشريف الذى يقول فيه صلوات الله وسلامه عليه : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصا وتروح بطانا » .

فالطير كما يشير الحديث تغدوا وتروح .. وتلك هى الحركة التى أمرنا بها فى قوله تبارك وتعالى :

« فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، واليه النشور »[3] .

وقد أعجبنى كلام جامع كتبه الدكتور محمد البهى رحمه الله ، فى كتابه : « الاسلام فى حياة المسلم » ، تحت عنوان :

---

(١) العنكبوت : ٦٩ (٢) النحل : ١٢٨
(٣) الملك : ١٥

التوكل هو اتباع الطريق المستقيم

حيث يقول : ونعرض للتوكل كما جاء فى القرآن الكريم وعلى نحو ما فهمه المسلمون الأول فكان دافعا قويا لهم نحو العمل فى الحياة ، ونعرض كذلك لفهم المتأخرين اياه على نحو كان سببا لتقاعدهم وتراخيهم واهمالهم .

ويقول الله تعالى : « .. **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** »[1] . فالتوكل على الله هو الاعتماد عليه . والاعتماد على الله ليس بكلمة ينطق بها من يطلب معونة الله ، وانما باتباع الطريق المستقيم الذى خطته رسالة الوحى ، وهى ما فى القرآن الكريم من وصايا ومبادىء وأوامر ونواه . التوكل على الله والاعتماد عليه يبتدىء من الأخذ فى السبل بعد الأخذ فى تنفيذ مشورة القرآن ونصحه . ويقول الله لرسوله الكريم : « **فتوكل على الله ، انك على الحق المبين** »[2] .

ويطلب منه التوكل وهو بالفعل قد سلك طريق الحق وهو طريق القرآن . وعندئذ ، أى عندما يأخذ الانسان فى تنفيذ نصح القرآن يكون الله فى عونه . وهذا هو معنى قوله تعالى : « .. **فهو حسبه** » : أى كافيه العون والتأييد . فعون الله وتأييده للانسان مقرون بالأخذ فى تنفيذ مشورته ونصحه ، وهو ما جاء به القرآن الكريم : هذا ما تعطيه هذه الآية القرآنية وآيات أخرى مثلها جاء فيها طلبه التوكل . وهذا ما فهمه المسلمون الأول . ولذا كانوا غير متقاعدين عن السعى والعمل ، وكانوا غير متراخين ، كما كانوا غير سلبيين فى الحياة .

ولكن كثيرا من المسلمين المتأخرين فهموا أن التوكل هو القاء بمسئولية الانسان فى السعى والعمل فى الحياة كلية على الله . وعندئذ يقعد الانسان المتوكل عن العمل ، والله حسبه وكافيه فى العون . عندئذ يعينه الله على ماذا ؟ يعينه على القعود عن العمل ؟ يعينه على الركود وعدم الحركة ؟ يعينه على تجميد طبيعته ؟ ..

ان التوكل على الله بهذا المعنى ليس توكل القرآن ولا المسلم الأول . والقرآن اذا فهمت مبادؤه على هذا النحو لا يصلح لتوجيه الانسان . وحاشا قرآن الله عن ذلك .. فهو : « **كتاب أنزلناه اليك**

---

(١) الطلاق : ٣ (٢) النمل : ٧٩

لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العـزيز الحميد »[1] .

ثم يقول بعد ذلك : والانسان خلق ليعمل وليسعى ، خلق ليتحرك ذات اليمين وذات الشمال ، خلق ليغالب ويقاوم ، خلق ليحيا . وما حياته الا سلسلة من السعى والحركة والعمل والمغالبة والمقاومة .

والاسلام جاء فحسب هداية لطبيعة الانسان ، التى من شأنها أن تسعى وتعمل وتتحرك . جاء ليوجه سعى الانسان ويوجه حركته . والتوكل الذى أوصى به المسلمين هو دافع مؤكد للانسان على السعى والحركة والعمل ، دافع آخر على ذلك . لأن المسلم الذى سلك طريق الحق سلك الطريق المـأمون الموصل ، وأخذ فى سبيل تنفيذ مشورة القرآن وسار فى هدايته . ومشورة القرآن وهدايته من وحى الله العليم الخبير ، والرؤوف الرحيم . ولذلك لا يضل السالك لهذا الطريق ولا يتعثر من شىء فى ضوء هدايته . وذلك رشد الله وعونه لمن توكل عليه . اه .

* * *

ولهذا أخا الاسلام يوصيك الرسول صلى الله عليـه وسلم بعد ذلك فى نص الوصية التى ندور حولها ، بقوله : « ولا تعجز » ، أى لا تكن عاجزا عن الأخذ بالأسباب طلبا للرزق .

وذلك حتى تكون متوكلا على الله — بهذا المعنى الذى وقفت عليـه — لا متواكلا بتلك الصورة المسيئة الى الاسلام والتى نراها متمثلة فى هؤلاء الذين يجلسون فى المساجد أو بجوار الأضرحة — مثلا — بدون عمل دنيوى بدعوى أنهم من الزاهدين فى الدنيا .

وقد كان من الواجب عليهم كمسلمين أولا ، وكعقلاء ثانيا : أن يعلموا أن الزاهد فى الدنيا ليس هو الذى يترك العمل الدنيوى ، وانما هو الذى يخرج حب الدنيا من قلبه حتى لا تشغله عن الله تبارك وتعالى ، وحتى لا تكون سببا فى حرمانه من ثواب الآخرة ونعيمها الدائم .. كما يشير الى هذا قول الله تبارك وتعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون »[2] .

---

(١) ابراهيم : ١ (٢) المنافقون : ٩

ولهذا ، فقد قال العلماء : « ليس الزاهد من لا مال عنده ، بل الزاهد من لم يشغل المال قلبه وان أوتى مثل ما أوتى قارون » .. فلا مانع اذن — اسلاميا — أن تكون مالكا لمثل مال قارون ، ولكن على شريطة أن يكون المال فى يدك لا فى قلبك : حتى لا تكون عبدا للدنيا .. أو عبدا لتلك الشهوات الدنيوية المشار اليها فى قول الله تعالى : **« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب »**[1] ثم يقول سبحانه :

« قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد »[2] .

فلابد اذن من الحركة فى طلب الرزق ، ولابد كذلك من الأخذ بالأسباب طلبا لهذا الرزق حتى لا نكون عالة على غيرنا وحتى لا نكون كذلك من هؤلاء المتواكلين السلبيين الذين لا عزة لهم ولا كرامة ..

وحتى يتضح لنا هذا .. فاننى أحب كذلك أن أضيف — الى ما وقفنا عليه قبل ذلك — ما كتبه أيضا الدكتور محمد البهى رحمه الله .. حول أخطاء المسلمين فى فهم الاسلام .. تحت عنوان :

الرزق

فيقول : يقول الله تعالى فى سورة هود : **« وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين »**[3] . وسورة هود تهتم أولا وبالذات بالعدل الالهى فى جزاء الله لأولئكم الذين أنكروا نعمه وكفروا برسالته فى العصور المختلفة . وهى لذلك تقص أخبار الرسل السابقين ، وما تحملوه فى سبيل أداء رسالتهم ، كما تصور موقف المعاندين المنكرين وما حل بهم من جزاء ، يتمثل فيه العدل الالهى تمثلا واضحا .

واذا كان جو هذه السورة هو هذا الجو فما ذكر مما يتعلق بصفات الخالق ونعمه على خلقه من شأنه أن يوصل الى تفرده بالعبادة واقناع البشر بما بدأت به السورة فى قوله تعالى : **« ألا تعبدوا الا الله ،**

---

(١) آل عمران : ١٤ (٢) آل عمران : ١٥
(٣) هود : ٦

اننى لكم منه نذير وبشير »[1] . ومن شأنه أيضا أن يوضح أن موقف المشرك فى العبادة عندئذ موقف المتعنت المتثبت فى عناده . وقوله تعالى : **« وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها .. »**[2] آية من آيات هذه السورة التى تعدد خصائص الله سبحانه وتعالى ونعمه بالنسبة لخلقه . ومفادها أن كل كائن يتحرك على وجه هذه الأرض مرتبط رزقه بارادة الله ارتباطا وثيقا . والله من جانبه يؤكد أنه سيتكفل بهذا الرزق على نحو ما جاء فى قوله : **« على الله رزقها »** . هو قد تكفل بالرزق لكل دابة على الأرض ، أى لكل كائن متحرك على الأرض . ولكنه يتكفل لهذا الكائن المتحرك بالرزق ان استخدم خصيصته التى اختصه بها الخالق ، وهى الحركة . وهذا ما يعبر عنه قوله : **« دابة »** .

وكأن هناك تقابلا ، أو كأن هناك مقدمة ونتيجة . وهما : عندما يتحرك الكائن الذى أعده الله بقوة الحركة ، يتكفل الله له بالرزق . وغير الانسان من الكائنات المتحركة يتحرك بالغريزة وبدفعها القوى . ودفع الغريزة هو الأصل فى الحركة فى اتجاه واحد وهو اتجاه تحصيل الرزق . والانسان أيضا من الكائنات المتحركة التى تدب على الأرض وتتحرك فوقها ، ولكنه كائن له اختيار وارادة يستطيع أن يجمد فى حركته ويستطيع أن يميل وينحرف فيها . ولذا رزقه فى سعته وضيقه وفى اطمئنانه فى الحياة بهذا الرزق أو عدم اطمئنانه به ، وفى تمتعه به كثيرا أو قليلا : مرتبط بنوع حركته واتجاهه فيها . وحركته فى الحياة لا تكون مثمرة ثمرة نافعة ويسعد بها الا اذا كان متبعا فيها خطوط الرسالة الالهية .

وقد كانت سورة يونس قبل سورة هود : تحكى من قبل الله تعالى ذلك الاطمئنان النفسى والسعادة والبهجة التى يسعد بها الانسان المتحرك حركة نافعة مثمرة . وهو ذلك الانسان المؤمن العامل . ثم جاءت سورة هود تحكى الشقاء الذى يصيب الانسان الآخر صاحب الحركة غير المثمرة ، وهو الانسان الجاحد بنعم الخالق . فالحركة المثمرة اذن ، والسعى المجدى أساسان فى الحصول على الرزق وأساسان فى قيمة التمتع به .

ولم يكتف الاسلام بذلك من المؤمن . بل طلب منه العمل مع

---

(١) هود : ٢ (٢) هود : ٦

الإيمان .. وهنا نجد آيات القرآن التى وردت فى وصف المؤمنين تقرن الايمان بالعمل كشرط يترتب عليه الثواب أو كتمهيد تعقبه حالة الاطمئنان النفسى . يقول الله تعالى : « **فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله** »[١] .

ويقول : « **الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب** »[٢] .

ويقول : « **ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما** »[٣] .

وعمل الصالحات هو كل عمل فى الحياة لا انحراف فيه عن النهج القويم . ومن بين الصالحات تحصيل الرزق ، من طريقه المشروع .

هذا هو فهم المسلم الأول فى تكفل الله برزق الكائنات الحية ، حسبما ورد فى هذه الآية . فهم ذلك الرسول عليه الصلاة والسلام وفهمه صحابته رضوان الله عليهم . وكم من أحاديث تروى فى الحث على العمل فى سبيل تحصيل الرزق . وقد فضل الرسول حال الذى يؤدى العبادة فى غير تزايد ومبالغة على حال ذلك الذى يقوم آناء الليل وأطراف النهار تاركا شأن نفسه على غيره أو مهملا أمر من يعوله . وأصبح شعار هذا الوقت : العمل . ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة .

ثم يقول بعد ذلك ، تحت عنوان « فهم خاطىء » :

ولكن بعض المتأخرين من المسلمين وقف بنظره عند ما ورد فى قوله تعالى : « **على الله رزقها** » وأخذ من الآية كلها كفالة الله الرزق لعباده ، وترك أنه فى سبيل الحصول على الرزق : عليه أن يسعى ، وأن سعيه سعيا مستقيما ، طبقا لتعاليم الله ووصاياه . ترك أنه كائن يتحرك ويدب على الأرض وأن واجبه أن يترك ذاته تتحرك وأن يتدخل بارادته فى توجيه حركته فحسب .

فهم بعض المسلمين المتأخرين أنه ينبغى للمسلم كى يحصل على الرزق أن يتردد على المسجد ، أو يكرر دعاءه لله ويستنجد به رافعا بغيته نحو السماء ، وأنه يكفى أن ينتمى الى المسلمين بالاسم وينطق معهم الشهادة ، وأغفل أنه يجب عليه أن يعمل وأن يكون فى عمله مخلصا لله فلا يؤذى غيره . أغفل أنه يجب عليه أن يعمل عملا صالحا .

---

(١) النساء : ١٧٣ (٢) الرعد : ٢٩

(٣) طه : ١١٢

ان الله يتكفل بالرزق لمن يسعى وأعلن هـذا التكفل فى صيغة الالزام فقـال : « **على الله رزقها** » ليحفز الناس على الانتفاع بطبيعتهم البشرية فى الحركة والسعى ، وليس ليحول بينهم وبين خصائص طبيعتهم التى خلق البشر عليها . ان الاسلام لا يرتد بالطبائع عما لها . وانما ينميها فحسب بالهداية الالهية فى التوجيه . اهـ .

* * *

أقول : وفى القرآن الكريم يأمرنا الله تبارك وتعالى بأن نطلب الرزق حتى فى يوم الجمعة ، فيقول : « **فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** »(١) .

كما قرن الله تعالى التجار بالمجاهدين فى سبيله سبحانه وتعالى ، فقـال : « .. **وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله** »(٢) .

وهذا شرف عظيم للعاملين .

كما ورد فى السنة الشريفة الترغيب فى السعى على الرزق فى مناكب الأرض :

فعن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وان نبى الله داوود عليه الصلاة والسلام كان يأكل من عمل يده » رواه البخارى وغيره ، وابن ماجه ولفظه ، قال : « ما كسب الرجل كسبا أطيب من عمل يده ، وما أنفق الرجل على نفسه وأهله وولده وخادمه فهو صدقة » .

قال الحافظ فى الفتح : « وفى الحديث فضل العمل باليد وتقديم ما يباشره الشخص بنفسه على ما يباشره بغيره ، والحكمة فى تخصيص داوود بالذكر : أن اقتصاره فى أكله على ما يعمله لم يكن من الحاجة لأنه كان خليفة فى الأرض كما قال الله تعالى .. وانما ابتغى الأكل من طريق الأفضل ، ولهذا أورد النبى صلى الله عليه وسلم قصته فى مقام الاحتجاج بها على ما قدمه من أن خير الكسب عمل اليد ، وهذا بعد تقرير أن شرع من قبلنا شرع لنا ولا سيما اذا ورد فى شرعنا مدحه وتحسينه مع عموم قولـه تعـالى : « .. **فبهداهم اقتـده** »(٣) .

---

(١) الجمعة : ١٠ (٢) المزمل : ٢٠ (٣) الأنعام : ٩٠

وفى الحديث أن التكسب لا يقدح فى التوكل ، وأن ذكر الشىء بدليله أوقع فى نفس سامعه » اهـ .

وقد قرأت — والشىء بالشىء يذكر — أن داوود عليه السلام خرج من قصره ذات يوم متنكرا ليسأل عن نفسه من يصادفه من الناس — وهو لا يعرفه — فتعرض له سيدنا جبريل عليه السلام فى صورة آدمى ، فقال له سيدنا داوود : يا فتى .. ما قولك فى داوود ؟ فقال له : نعم العبد هو .. غير أن فيه خصلة . فقال له سيدنا داوود : ما هى ؟ قال : يأكل من بيت مال المسلمين وما فى العباد أحب الى الله تعالى من عبد يأكل من كسب يده .. فلما سمع سيدنا داوود هذا عاد بعد ذلك باكيا الى قصره .. وهناك تضرع الى الله تعالى أن يعلمه صنعة يعملها بيده .. فأتاه جبريل وعلمه صنعة الدروع وآلات الحرب .. والآن الله له الحديد حتى كان فى يده بمنزلة العجين « .. **وألنا له الحديد** »[1] فكان اذا تفرغ من قضاء حوائجه وحوائج أهله عمل درعا فباعها وأكل منها هو وأولاده ..

وهكذا كان ولده سيدنا سليمان عليه السلام :

فقد قرأت كذلك : أنه فى يوم من الأيام ناجى ربه فقال : يا رب قد أعطيتنى ملكا لم تعطه أحدا قبلى وسألتك أن لا تعطيه أحدا بعدى فأعطيتنيه .. فان قصرت فى شكرك فدلنى على أحد هو أشكر لك منى ؟ .. فقال الله تعالى : يا سليمان .. عبد يكسب بيديه يسد جوعه ، ويستر عورته ، ويعبدنى : هو أشكر لى منك .. فعند ذلك بكى سيدنا سليمان عليه السلام — كما بكى والده من قبل — وتضرع الى الله تعالى أن يعلمه صنعة ليعملها بيده .. فأتاه جبريل عليه السلام وعلمه صنعة القفاف .. التى كان بعد ذلك يأكل من عائدها .. وأول من عمل الخوص سليمان عليه السلام .

وقد قال الماوردى : « أصول المكاسب : الزراعة والتجارة والصناعة .. وأيها أطيب ؟ فيه ثلاثة مذاهب للناس وأشهرها مذهب الشافعى : أن التجارة أطيب ، والأشبه عندى أن الزراعة أطيب . لأنها أقرب الى التوكل » :

قال النووى : « وحديث البخارى صريح فى ترجيح الزراعة والصنعة

---

(١) سبأ : ١٠

لكونهما عمل يده ، لكن الزراعة أفضلهما لعموم النفع بها للآدمى وغيره وعموم الحاجة اليها » اهـ . (العينى) .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الاسلام حتى تنفذ وصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهى : « ولا تعجز » حتى لا تكون عالة على غيرك ، وحتى لا تكون كذلك رخيصا بين اخوانك .. فقد ورد فى الأثر : « أحب الناس الى الناس : من استغنى عن الناس .. وأبغض الناس اليهم : من احتاج اليهم . وأحب الناس الى الله : من احتاج الى الله .. وأبغض الناس اليه : من استغنى عنه واحتاج الى غيره » .

كما ورد كذلك على لسان سيدنا عيسى عليه السلام أنه قال : « استغن عمن شئت تكن نظيره ، واحتج الى من شئت تكن أسيره ، وأحسن الى من شئت تكن أميره » .

ولله در القائل :

ان الغنى اذا تكلم بالخطا
قالوا : صدقت وما نطقت محالا
أما الفقير اذا تكلم صادقا
قالوا : كذبت وأبطلوا ما قالا
ان الدراهم فى المواطن كلها
تكسو الرجال مهابة وجلالا
فهى اللسان لمن أراد فصاحة
وهى السلاح لمن أراد قتالا

وقد سئل أحد الحكماء : لماذا تجمع المال وأنت حكيم ؟ فقال : لأؤدى به الفرض ، وأصون به العرض ، وأستغنى به عن القرض .

* * *

فلاحظ كل هذا أخا الاسلام ، مع ملاحظة كذلك :

أنه من تعاليم الاسلام : تحريم موارد الكسب الخبيثة .. وقد حدد الخبث بأنه ما كان بغير مقابل من عمل : كالربا والقمار واليانصيب ونحوها ــ أو كان بغير حق : كالنصب والسرقة والغش ونحوها ــ أو كان عوضا لما يضر : كثمن الخمر ، والخنزير ، والمخدر ونحوها .. فكل هذه موارد للكسب لا يبيحها الاسلام ولا يعترف بها .

وأن الاسلام قد عمل على التقريب بين الطبقات بتحريم الكنز ، ومظاهر الترف على الأغنياء ، والحث على رفع مستوى المعيشة بين الفقراء ، وتقرير حقهم فى مال الدولة ومال الأغنياء ووصف الطريق العملى لذلك .

وأكثر من الحث على الانفاق فى وجوه الخير ، والترغيب فى ذلك ، وذم البخل والرياء والمن والأذى ، وتقرير طريق التعاون والقرض الحسن ابتغاء مرضاة الله تبارك وتعالى ورجاء ما عنده : « **وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان** »[١] .

وأن الاسلام : قد قرر حرمة المال ، واحترام الملكية الخاصة ، ما دامت لا تتعارض مع المصلحة العامة : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله » .

و « لا ضرر ولا ضرار » ..

* * *

فاذكر كل هذا أخا الاسلام ، حتى لا تعتدى على حقوق غيرك ، وحتى تأكل حلالا وتشرب حلالا وتلبس حلالا .. الخ .

مع ملاحظة كذلك : أن الحلال هو الأساس فى ديننا .. بل وفى جميع الرسالات السماوية :

فعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ان الله تعالى طيب لا يقبل الا طيبا ، وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال تعالى : « **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا** »[٢] وقال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم** »[٣] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه الى السماء : يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام : فأنى يستجاب له » رواه مسلم .

وأخرج الحافظ ابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : تليت هذه الآية عند النبى صلى الله عليه وسلم : « **يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا** .. »[٤] ، فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يا رسول الله .. ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة . فقال له : يا سعد .. أطب مطعمك تستجب دعوتك ، والذى نفسى بيده ، ان الرجل

---

(١) المائدة : ٢ (٢) المؤمنون : ٥١
(٣) البقرة : ١٧٢ (٤) البقرة : ١٦٨

ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت[1] والربا فالنار أولى به » .

ولهذا فقد ثبت ــ على سبيل المثال ــ أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان لا يأكل طعاما ، ولا يشرب شرابا ، ولا يلبس لباسا ، ولا يقتنى متاعا : الا اذا عرف أنه قد أتاه عن طريق حلال ، حتى يبارك الله فيه ، وكان من عادته أن يسأل خادمه عن مصدر ما يحضره له من طعام أو شراب .. وفى يوم من الأيام اشتد الجوع بأبى بكر ، وأكل من الطعام الذى أحضره له خادمه دون أن يسأله عن مصدره .. فتعجب الخادم ، وسأله : يا سيدى ، لقد كنت تسألنى كل يوم عن مصدر الطعام ، فما بالك اليوم لم تسألنى كعادتك ؟ .. فتوقف أبو بكر عن تناول الطعام خائفا مضطربا ، وقال لخادمه : لقد أنسانى الجوع ذلك ، فمن أين جئت به ؟ فقال الخادم : كنت تكهنت لانسان فى الجاهلية فأعطانى هــذا الطعام .

فأدخل الصديق أصابعه فى فمه وجعل يتقيأ ما أكل وهو يصيح : لقد كدت تهلكنى يا غلام .. ثم أخذ يدعو الله ويقول : اللهم اغفر لى ما شربت العروق واختلط بالدماء ، لأنه لا يستطيع اخراجه . فقيل له : أتفعل كل ذلك من أجل هذه اللقيمات ؟ فقال : والله لو لم تخرج الا مع روحى لأخرجتها ، فقد سمعت رسول الله صلى الله عليــه وسلم يقول : « كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به » ولقد خشيت أن ينبت شىء من جسدى من هــذه اللقيمات فأصير بسببها الى النار !! ..

فلنأخذ أخا الاسلام درسا من هــذا الدرس العملى العظيم : حتى نتقى الله تعالى فى جميع أعمالنا .. وحتى نبتعد عن الحرام بجميع صوره وألوانه لأن الحرام كما عرفت هو الهلاك بعينه .. ومن عرف الحرام معرفته حرام ..

واعلم أن الحرام اذا اختلط بالحلال كان سببا فى ضياعه .. كما يشير أحدهم الى هذا فى قوله :

جمع الحرام على الحلال ليكثره
دخل الحرام على الحلال فبعثره

* * *

(١) أى الحرام .

هـذا .. واذا كان الرسول صلى الله عليـه وسلم بعد ذلك فى نص الوصية قد أوصاك بقوله : « وان أصابك شيء فلا تقل : لو أنى فعلت كذا كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فان لو تفتح عمل الشيطان » :

فان الرسول صلى الله عليـه وسلم بهذا التوجيه النبوى يحذرك من أمر خطير لابد أن تلاحظه حتى لا يلعب الشيطان بك ، أو حتى لا تكون كالكرة بين قدميه فى ميادين الحياة الفانية .. وحسبك اذا أردت أن تقف على خطورة هـذا الشيطان عليك :

أن تعلم أن الشيطان الرجيم هـذا ، قد قال لرب العزة سبحانه وتعالى بعد أن حكم عليـه بالاغواء :

« .. فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين »[1] .

ولهذا قال الله تعالى له بعد ذلك : **« .. اخرج منها مذءوما مدحورا ، لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين »**[2] : ثم يواصل سبحانه وتعالى حديثه بعد ذلك عن بقية ما ترتب على هـذا فيقول : **« ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هـذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هـذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليـهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين »**[3] : الى أن يقول الله تبارك وتعالى بعد ذلك محذرا بنى آدم من فتن الشيطان : **« يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنـة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، انا جعلنا الشياطين أوليـاء للذين لا يؤمنون »**[4] .

فالشيطان اذن كما تشير الآيات هو عدونا المبين الذى حذرنا الله تعالى من مكائده وشروره ..

---

(١) الأعراف : ١٦ ، ١٧ (٢) الأعراف : ١٨
(٣) الأعراف : ١٩ ــ ٢٢ (٤) الأعراف : ٢٧

ولهذا كان لابد وأن ننفذ ما حذرنا الله تعالى منه .. بمعنى أن لا نستجيب لوساوس الشيطان ونداءاته الخفية التى كثيرا ما تكون ، ولا سيما عندما تكون هناك مصيبة من المصائب ، أو مشكلة من المشاكل :

ان الشيطان يحاول تبرير كل هذا بصورة شيطانية كثيرا ما تؤدى الى عكس ما كان من الواجب عليه — كمؤمن — أن يفعله .. وهو أن يستسلم لقضاء الله تعالى ويرضى بقدره .. لأنه لا يحدث شيء فى هذا الوجود الا بارادة الله سبحانه وتعالى الذى يقول :

« قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا .. »[1] ، كما أخبرنا الله تعالى فى قرآنه — نحن المؤمنين — بأنه سيبتلينا ، وذلك حتى نهيىء أنفسنا لاستقبال ما قضى الله تعالى به ، ونكون من الراضين بهذا القضاء ، فقال :

« ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين . الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون »[2] :

ولهذا كان لابد كما تشير تلك الآيات القرآنية : أن نكون من هؤلاء المؤمنين الصابرين .. ما دمنا قد آمنا أساسا بأن : « ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » ، وكما يقول الشافعي رضى الله عنه :

ومن نزلت بساحته المنايا فلا أرض تقيه ولا سماء
وأرض الله واسعة ولكن اذا نزل القضا ضاق الفضاء

ومن هنا كان لابد وأن نلاحظ هذا اذا ما أصابنا شيء من تلك الأمور الدنيوية التى قد تكون مصيبة من المصائب التى لابد أن يتوقعها المؤمن — بالذات — .. فقد ورد فى الحديث : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل » .

اذا ما حدث شيء من هذا .. فحذار أن يوسوس لك الشيطان قائلا : لو لم تفعل كذا لكان كذا .. ولو فعلت كذا لما كان كذا .. الخ ، فان « لو » كما جاء فى تحذير الرسول صلى الله عليه وسلم : « تفتح عمل الشيطان » ولكن قل كما أوصاك الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فى مثل — كل هذه الأمثلة — : « قدر الله وما شاء فعل » ..

---

(١) التوبة : ٥١ (٢) البقرة : ١٥٥ — ١٥٧

انك ان فعلت ذلك لن تكون مهموما ولا محزونا .. ولن تكون من هؤلاء الذين انتصر الشيطان عليهم فكانوا من المفتونين بوسوسته والمقتنعين بها .. وهؤلاء لن يكونوا أبدا فى هذه الدنيا فى أمان أو استقرار لأن الشيطان قد استطاع أن ينزع الايمان بقدر الله من قلوبهم .

* * *

ومن أجل ذلك ، فاننى أرى بعد هذا التقديم — وحتى لا تكون من المشار اليهم — أن أذكرك ونفسي باختصار بأهم ما جاء فى كتاب « الدين الخالص — ج ١ » تحت عنوان :

القضاء والقدر

حيث يقول : القضاء فى الأصل الخلق والأمر والحكم . قال تعالى : **« فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها »**(١) ، أى خلقهن . وقال تعالى : **« وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه .. »**(٢) ، أى أمر . وعرفا هو الحكم الكلى الاجمالى فى الأزل ، أى وجود الأشياء فى أم الكتاب مجملة « والقدر » لغة : التقدير وهو جعل كل شىء بمقدار يناسبه بلا تفاوت ، وعرفا : جزئيات حكم القضاء وتفاصيله التى تقع فيما لا يزال . قال تعالى : **« وان من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم »**(٣) .

وقال النووى : معناه ، أن الله تعالى قدر الأشياء فى القدم وعلم أنها ستقع فى أوقات معلومة عنده ، وعلى صفات مخصوصة . فهى تقع على حسب ما قدرها سبحانه ، وهو بهذا المعنى يعم القضاء بالمعنى السابق .

وقال الخطابى : قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر اجبار الله تعالى للعبد على ما قدره وقضاه ، وليس الأمر كما يتوهمونه ، وانما معناه الاخبار عن تقدم علم الله تعالى بما يكون من اكتسابات العبد وصدورها عن تقدير منه تعالى وخلقه لها خيرها وشرها . والقدر : اسم لما صدر مقدرا عن فعل القادر . ويجب الايمان والرضا بهما لقوله تعالى : **« وخلق كل شىء فقدره تقديرا »**(٤) ، وقوله تعالى : **« انا كل شىء خلقناه بقدر »**(٥) . ولقول النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث جبريل : « وأن تؤمن بالقدر خيره وشره » .

---

(١) فصلت : ١٢ (٢) الاسراء : ٢٣ (٣) الحجر : ٢١
(٤) الفرقان : ٢ (٥) القمر : ٤٩

ولحديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « المؤمن القوى خير وأحب الى الله تعالى من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجزن ، وان أصابك شيء فلا تقل : لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فان لو تفتح عمل الشيطان » أخرجه أحمد ومسلم وابن ماجه .

ثم يقول بعد ذلك : « هذا ما عليه أهل السنة والجماعة ، فيجب على المكلف أن يعتقد أن جميع أفعال العباد بقضاء الله وقدره ، وأن الله تعالى يريد الكفر من العبد ويشاؤه ، ولا يرضاه ولا يحبه له . فيشاؤه كونا ولا يرضاه دينا ، وأن كل انسان ميسر لما خلق له ، وأن الأعمال بالخواتيم . فالسعيد من سعد بقضاء الله وقدره ، فيوفقه تعالى للعمل بالشريعة الغراء الى أن يموت على ذلك . والشقى من شقى بقضاء الله وقدره ، فيموت على الكفر والعياذ بالله تعالى ..

فعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : كنا فى جنازة ببقيع الغرقد فأتانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقعد وقعدنا حوله وبيده مخصرة[1] فجعل ينكت بها الأرض ثم قال : « ما منكم من أحد الا وقد كتب مقعده من النار ، ومقعده من الجنة . فقالوا : يا رسول الله .. أفلا نتكل على كتابنا ؟ فقال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له . أما من كان من أهل السعادة فسيصير الى عمل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فسيصير الى عمل الشقاء . ثم قرأ : **« فاما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى .. »**[2] الآية . أخرجه البخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى .

وعن جابر رضى الله عنه ، قال : جاء سراقة بن مالك بن جعشم رضى الله عنه ، فقال : يا رسول الله .. بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن فيم العمل اليوم ؟ .. فيما جفت الأقلام وجرت به المقادير أم فيما يستقبل ؟ قال : « فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير » . قال : ففيم العمل ؟ قال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له وكل عامل بعمله » أخرجه مسلم .

---

(١) المراد عصا كانت فى يده .. (٢) الليل : ٥ ــ ٧

وعن سهد بن سعد الساعدى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وان الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة » أخرجه الشيخان ، وزاد البخارى : وانما الأعمال بالخواتيم .

ثم يقول فى الدين الخالص : والأحاديث والآثار فى هذا الباب كثيرة . وفيها رد على القدرية الذين يزعمون أن أفعال العباد مقدورة لهم واقعة منهم استقلالا بواسطة الاقدار والتمكين . وقد اتفق لشخص منهم أنه رفع رجله بحضرة رجل من أهل السنة وقال : انى رفعت رجلى عن الأرض بقدرتي . فقال له السنى : فاذن ارفع رجلك الأخرى ، فلم يرد له جوابا . وفيها رد عليهم أيضا فى زعمهم أن العبد يخلق الشر كالمعاصى والكفر . وهو زعم باطل . اذ لو كان العبد يخلق الشر والمخالفات وهى أكثر وقوعا من الطاعات لكان أكثر ما يجرى فى الوجود من أفعال العباد لا يكون بخلق الله وايجاده ، بل بخلقهم وايجادهم وذلك جلى البطلان ، لأن الله تعالى هو المنفرد بالخلق والتأثير على وفق علمه . وقد قال رسول الله صلى الله عليـــه وآله وسلم : « القدرية مجوس هـــذه الأمة » أخرجه أبو داوود والحاكم من حديث أبى حازم عن ابن عمر . وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ان صح سماع أبى حازم عن ابن عمر .

وشبههم صلى الله عليه وسلم بالمجوس حيث فرقوا بين أفعال الله عز وجل فجعلوا بعضها له وبعضها لغيره ، قال الخطابى : انما جعلهم صلى الله عليـــه وسلم مجوسا ، لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس فى قولهم بالأصلين النور والظلمة : يزعمون أن الخير من فعل النور ، والشر من فعل الظلمة ، فصاروا ثنوية .

وكذلك القدرية يضيفون الخير الى الله تعالى والشر الى غيره . والله خالق الخير والشر جميعا ، لا يكون شىء منهما الا بمشيئته ، فهما مضافان اليه خلقا وايجادا ، والى الفاعلين لهما من عباده فعلا واكتسابا ... الخ[1] .

* * *

(١) ارجع الى هذا الموضوع فى الجزء الأول من الدين الخالص .. لتقرأ بعد ذلك آراء المعتزلة كذلك .

أقول : وقد روى النيسابورى فى تفسيره باسناده :

أن على بن أبى طالب ــ كرم الله وجهه ــ سأله سائل عن القدر ؟ فقال : طريق دقيق لا تمش فيه ، فقال : يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ؟ فقال : سر خفى لله لا تفشه ، فقال : يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ؟ فقال على رضى الله عنه : يا سائل ، ان الله تعالى خلقك كما شاء أو كما شئت ؟ فقال : كما شاء . فقال : ان الله يبعثك يوم القيامة كما شئت أو كما يشاء ؟ فقال : كما يشاء . فقال : يا سائل ، لك مشيئة مع الله ؟ أو فوق مشيئته ؟ أو دون مشيئته ؟ فان قلت : مع مشيئته ادعيت الشركة معه ، وان قلت : دون مشيئته استغنيت عن مشيئته ، وان قلت : فوق مشيئته كانت مشيئتك غالبة على مشيئته . ثم قال : ألست تسأل الله العافية ؟ قال : نعم . قال : فمن ذا تسأله العافية ؟ أمن بلاء ابتلاك به ؟ أو من بلاء غيرك ابتلاك به ؟ قال : من بلاء ابتلانى به . فقال : ألست تقول : لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » ؟ قال : بلى . قال : تعرف تفسيرها ؟ فقال : لا يا أمير المؤمنين علمنى مما علمك الله . فقال : تفسيرها أن العبد لا قدرة له على طاعة الله ولا على معصيته الا بالله عز وجل . يا سائل ، ان الله يسقم ويداوى ، منه الداء ، ومنه الدواء ، اعقل عن الله . فقال السائل : عقلت . فقال له : الآن صرت مسلما ، قوموا الى أخيكم المسلم فخذوا بيده . ثم قال على ــ كرم الله وجهه ــ لو وجدت رجلا من أهل القدر لأخذت بعنقه ولا أزال أضربه حتى أكسر عنقه فانهم يهود هذه الأمة .

* * *

فاذكر كل هــذا أخا الاسلام ، وكن ملاحظا لكلّ أبعاده وما فيه من اشارات وتوجيهات : حتى لا تكون قدريا .. وحتى تقولّ ما أوصاك به الرسول صلى الله عليــه وسلم فى نهاية الوصية .. ان أصابك شىء وهو : « قدر الله وما شاء فعلّ » ، واحذر أن تكون « لو » سببا فى سيطرة الشيطان عليــك .. « فان لو تفتح عملّ الشيطان » : أعاذنا الله جميعا منه ومن أعماله .. آمين ..

* * *

الوصية الستون

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال :

« ان الدين يسر ولن يشاد الدين الا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة » ..

(رواه البخارى)

* * *

فكن أيها الاسلام :

منتفعا بهذه الوصية العظيمة التى تعتبر من أهم الوصايا : لأنها تدعو الى الوسطية فى الدين كما تحذر فى نفس الوقت من التغالى فيه .. وهـذا أساس لابد وأن نقف عليـه جميعا حتى نعمل على تنفيذه وعدم مخالفته والا كانت النتيجة عكس ما نريد فى دنيانا وأخرانا .

وحسبنا اذا أردنا تأكيدا لهذا أن نقرأ ــ أولا ــ قول الله تعالى لنبيه المصطفى صلوات الله وسلامه عليـه : **« طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى »**[1] :

وكان النبى صلى الله عليـه وسلم وأصحابه ــ كما يقول مجاهد فى القرطبى ــ يربطون الحبال فى صدورهم فى الصلاة بالليل من طول القيام ، ثم نسخ ذلك بالفرض ، فنزلت هذه الآيـة .

وحكى ابن الأنبارى : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتحمل مشقة الصلاة حتى كادت قدماه تتورم ، ويحتاج الى الترويح بين قدميه ، فقيل له : طأ الأرض ، أى لا تتعب حتى تحتاج الى الترويح .

وذكر القاضى عياض فى « الشفاء » أن الربيع بن أنس قال : كان النبى صلى الله عليـه وسلم اذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى ، فأنزل الله تعـالى **« طـه »** يعنى : طأ الأرض يا محمد **« ما أنزلنـا عليـك القرآن لتشقى »** .

---

(١) طه : ١ ، ٢

والخلاصة ـ كما يقول القرطبى فى نهاية تفسير هـذه الآية ـ هى : وعلى الأقوال المتقدمة أنه عليه الصلاة والسلام صلى بالليل حتى تورمت قدماه ، فقال له جبريل : أبق على نفسك فان لها عليك حقا ، أى ما أنزلنا عليك القرآن لتنهك نفسك فى العبادة ، وتذيقها المشقة الفادحة ، وما بعثت الا بالحنيفية السمحة .

ويتوضح هذا أيضا ويؤكده قول الله تبارك وتعالى : « **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** » :

وقد قال الله تعالى هذا بعد قوله سبحانه : « **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون** »(١) .

فهـذه الآيـة بتمامها وما تتضمنه من أحكام فقهية تؤكد سماحة الاسلام ورحمته بالعباد الذين لا يتحملون الصيام بسبب المرض أو بسبب السفر الذى هو قطعة من العذاب .

ولهذا كانت الرخصة لهما بالفطر على أن يصوما بعد ذلك فى أيام أخر بعد أن تعود الصحة أو بعد أن يصل المسافر الى وطنه أو الى المكان الذى يريد السفر اليه .

وقد قال القرطبى فى المسألة الرابعة حول هـذا : واختلف العلماء فى الأفضل من الفطر أو الصوم فى السفر ، فقال مالك والشافعى فى بعض ما روى عنهما : الصوم أفضل لمن قوى عليه . وجل مذهب مالك التخيير ، وكذلك مذهب الشافعى . قال الشافعى ومن اتبعه : هو مخير ، ولم يفصل . وكذلك ابن علية ، لحديث أنس ، قال : سافرنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى رمضان فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم . خرجه مالك والبخارى ومسلم . وروى عثمان بن أبى العاص الثقفى وأنس بن مالك صاحبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهما قالا : الصوم فى السفر أفضل ، لمن قدر عليه . وهو قول أبى حنيفة وأصحابه .

وروى عن ابن عمر وابن عباس : الرخصة أفضل ، وقال به سعيد

---

(١) البقرة : ١٨٥

ابن المسيب والشعبى وعمر بن عبد العزيز ومجاهد وقتادة والأوزاعى وأحمد واسحاق • فكل هؤلاء يقولون : الفطر أفضل ، لقول الله تعالى : « **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** » •

* * *

واتماما للفائدة ، فاننى أرى أن ألخص لك ما ذكره الشيخ محمود خطاب السبكى رحمه الله تعالى فى الجزء الثامن من الدين الخالص ، تحت عنوان :

الاعذار المبيحة للفطر

قال : وهى تسعة :

١ ــ المرض : ان دخل عليه وخاف ــ بغلبة ظن أو تجربة أو اخبار طبيب مسلم حاذق غير ظاهر الفسق ــ من الصوم المرض اذا كان صحيحا ، أو زيادته أو بطؤه اذا كان مريضا لقوله تعالى : « **فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر** » ، وفى حديث معاذ بن جبل فى أحوال الصيام ، قال : ثم ان الله تعالى أنزل الآية الأخرى : « **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه** » فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح • ورخص فيه للمريض والمسافر • وثبت الاطعام للكبير الذى لا يستطيع الصيام » أخرجه أحمد وأبو داوود والبيهقى بسند صحيح •

ثم يقول : وعلى هــذا أجمعت الأمة ، فان تحمل المريض وصام مع هذا فقد فعل مكروها لمــا يتضمنه من الاضرار بنفسه وتركه تخفيف الله وقبول رخصته • ويصح صومه ويجزئه لأنه عزيمة أبيح تركها رخصة فاذا تحمله أجزأه كالمريض الذى يباح له ترك الجمعة اذا حضرها • والصحيح الذى يخشى المرض بالصيام كالمريض الذى يخاف زيادة المرض فى اباحة الفطر لأن المريض انما أبيح له الفطر خوفا مما يتجدد بصيامه من زيادة المرض وتطاوله والخوف من تجدد المرض فى معناه •

٢ ــ السفر : فيباح الفطر للمسافر سفر قصر وان لم يضره الصوم ، لأن السفر الطويل لا يعرى عن المشقة وهى لا تنضبط فاعتبر مظنتها لقوله تعــالى : « **فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر** »[1] • ولحديث عائشة رضى الله عنها أن حمزة بن عمرو

---

(١) البقرة : ١٨٤

الأسلمى قال للنبى صلى الله عليه وسلم : « أأصوم فى السفر ؟ — وكان كثير الصيام — فقال : ان شئت فصم وان شئت فأفطر » أخرجه الجماعة[1] والبيهقى وقال الترمذى : حسن صحيح .

ثم يقول : وهو نص فى اثبات الخيار للمسافر بين الصوم والافطار وأنه يصح صوم الفرض للمسافر وان صومه فى السفر ليس واجبا . وظاهره أنه سأل عن مطلق الصوم فرضا أو غيره فلا يكون فيه حجة على من منع صوم رمضان فى السفر . لكن صرح برمضان فى أحاديث ، منها حديث أبى الدرداء رضى الله عنه ، قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر رمضان فى حر شديد حتى ان كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم الا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن رواحة » أخرجه مسلم .

وقد قال عامة العلماء : بجواز صيام رمضان وفطره للمسافر .. واختلفوا فى الأفضل منهما :

فقال الحنفيون ومالك والشافعى والثورى : الصوم فى السفر أفضل لمن قوى عليه ، والفطر أفضل لمن لم يقو على الصيام ؛ لقوله تعالى : **« وأن تصوموا خير لكم »**[2] .

ولحديث أبى الدرداء السابق ففيه فطر من اشتد عليهم الحر من الصحابة ولم يقو على الصيام وصيام النبى صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن رواحة لأنه لم يجهدهما ، وحديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، قال : « كنا نغزوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رمضان فمنا الصائم ومنا المفطر فلا يجد الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم يرون أن من وجد قوة فصام فان ذلك حسن ويرون أن من وجد ضعفا فأفطر فان ذلك حسن » أخرجه أحمد ومسلم والبيهقى .

وقال أحمد واسحاق : الفطر فى السفر أفضل لحديث جابر ابن عبد الله رضى الله عنهما « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى سفر فرأى رجلا قد اجتمع الناس عليه وقد ظلل عليه ، فقال : ماله ؟ قالوا : هذا رجل صائم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس البر أن تصوموا فى السفر » أخرجه أحمد ومسلم .

---

(١) وهم : مالك ، وأحمد والبخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

(٢) البقرة : ١٨٤

٣ ، ٤ ــ الحامل والمرضع : فالحامل هى التى فى بطنها جنين ، والمرضع التى شأنها الارضاع وان لم تباشره ، والمرضعة هى المباشرة له بالقام ثديها الصبى • فيباح للحامل والمرضع الفطر اذا خافتا على أنفسهما أو ولدهما ولو رضاعا ــ بغلبة الظن بنحو تجربة أو اخبار طبيب ثقة ــ من حصول ضرر بالصوم كضرر المريض ، وللمرضع الفطر بشرب دواء أخبر الطبيب الثقة أنه يمنع استطلاق بطن الرضيع مثلا ، لحديث أنس بن مالك الكعبى أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ان الله تعالى وضع عن المسافر شطر الصلاة وعن المسافر والحامل والمرضع الصوم ــ أو الصيام » أخرجه أحمد والأربعة[1] والبيهقى وحسنه الترمذى •

فقد دل الحديث : على أنه يباح للحامل والمرضع الافطار اذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما وبه يقول عامة العلماء • واختلفوا فى لزوم القضاء والفدية عليهما ، فقال ابن عباس وابن عمر : عليهما الفدية بلا قضاء اذا خافتا على ولدهما ، روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : اذا خافت الحامل على نفسها والمرضع على ولدها فى رمضان يفطران ويطعمان مكان كل يوم مسكينا ولا يقضيان صوما • أخرجه ابن جرير الطبرى •

وعن نافع أن ابن عمر سئل عن المرأة الحامل اذا خافت على ولدها ، فقال : تفطر وتطعم مكان كل يوم مسكينا مدا من حنطة • أخرجه مالك والبيهقى •

وقال الحنفيون : يباح الفطر للحامل والمرضع اذا خافتا على أنفسهما أو ولدهما وعليهما القضاء عند القدرة ولا فدية عليهما لعدم النص عليها فى الحديث :

وبهذا قال مالك فى الحامل ، وقال فى المرضع : اذا خافت على ولدها أو نفسها ولم تجد أجرة ترضعه بها عليها الفطر والقضاء والفدية لكل يوم مد ، وقال الشافعى وأحمد : يباح لهما الفطر وعليهما القضاء فقط ان خافتا على أنفسهما فقط أو مع ولدهما • أما ان خافتا على الولد فقط فعليهما القضاء لأن حالهما لا ينقص عن حال المريض وعليهما الفدية أيضا لكل يوم مد من غالب قوت البلد عند الشافعى لأنهما يطيقان الصوم وقد

---

(١) وهم : أبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه •

قال الله تعالى : « **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** »[١] وقال أحمد : الواجب مد بر أو نصف صاع شعير والخلاف فيه كالخلاف فى اطعام المساكين فى كفارة الجماع • فان سقطنا عنهما بالعجز ككفارة الوطء بل أولى لوجود العذر • وقيل : لا يسقط •

٥ ــ الكبر : ــ بكسر ففتح ــ الطعن فى السن •• فانه يطلب من الشيخ الهرم والمرأة العجوز اذا لحقهما بالصوم مشقة أن يفطرا ويطعما لكل يوم مسكينا مدا من بر عند الشافعى وأحمد ، ونصف صاع من بر أو دقيقه أو سويقه أو صاعا من تمر أو شعير أو زبيب أو قيمة ذلك عند الحنفيين ان قدر والا استغفر الله تعالى وطلب منه العفو والاقالة ، قال ابن عباس : رخص للشيخ الكبير أن يفطر ويطعم عن كل يوم مسكينا ولا قضاء عليه • أخرجه الدارقطنى والحاكم وصححاه •

٦ ــ يباح الفطر لمن أكره عليه بملجىء كالقتل أو قطع عضو •

٧ ــ ويباح الفطر للمجاهد لاعلاء كلمة الدين ولو مقيما اذا خاف الضعف عن الجهاد اذا استمر صائما •

٨ ، ٩ ــ ويباح الفطر لمن خاف الهلاك أو نقصان العقل أو الضرر من جوع أو عطش شديدين ان لم يفطر لقوله تعالى : « **ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة** »[٢] •

وقوله تعالى : « **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** »[٣] •

ولحديث ابن عباس : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا ضرر ولا ضرار » أخرجه أحمد وابن ماجه بسند حسن •

* * *

فتلك يا أخى المسلم هى سماحة الاسلام الذى كله يسر ورحمة •• أو ان شئت فقل : « •• **ذلك تخفيف من ربكم ورحمة** »[٤] •

فاشكر الله تعالى على نعمة التيسير واستعن بالله تعالى على تحقيقه •• كما يشير الى هذا الحديث الشريف الذى جاء فى نصه :

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : « قلت يا رسول الله •• أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى عن النار ، قال : لقد سألت عن عظيم وانه ليسير على من يسره الله تعالى عليه : تعبد الله لا تشرك به

---

(١) البقرة : ١٨٤ (٢) البقرة : ١٩٥
(٣) الحج : ٧٨ (٤) البقرة : ١٧٨

شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل » .. ثم تلا : **« تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون »**[1] ثم قال : « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : رأس الأمر الاسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه[2] الجهاد . ثم قال : « ألا أخبرك بملاك[3] ذلك كله ؟ قلت : بلى يا رسول الله . فأخذ بلسانه وقال : كف عليك هذا . قلت : يا نبى الله ، وانا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك[4] أمك ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم — أو قال على مناخرهم — الا حصائد ألسنتهم » رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

وذلك لأنه كما يقول الشاعر :

اذا لم يكن عون من الله للفتى
فأول ما يجنى عليه اجتهاده

واذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال بعد قوله : « ان الدين يسر » : « ولن يشاد الدين » بالرفع على ما لم يسم فاعله ، وروى منصوبا : « ولن يشاد الدين أحد الا غلبه » : فان المراد أى غلبه الدين وعجز ذلك المشاد عن مقاومة الدين لكثرة طرقه .. فافهم ذلك أخا الاسلام ونفذ ما بعده وهو :

« فسددوا وقاربوا » ، أى القصد فى طاعة الله تعالى كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى نهاية حديث شريف صحيح يقول فيه : « سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشىء من الدلجة ، القصد القصد تبلغوا » .

* * *

---

(١) السجدة : ١٦ ، ١٧ (٢) ذروة سنامه : أى أعلاه .

(٣) ملاك الشىء بكسر الميم : أى مقصوده .

(٤) ثكلتك أمك : أى فقدتك ، ولم يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم حقيقة الدعاء بل جرى ذلك على عادة العرب فى المخاطبات .

وحسبى حتى يتضح لك هذا وتنفذه ان شاء الله تعالى : أن أذكرك ببعض الأحاديث الشريفة الصحيحة التى ذكرها الامام النووى فى كتابه « رياض الصالحين » تحت عنوان :

باب فى الاقتصاد فى الطاعة

فعن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها امرأة ، قال : من هذه ؟ قالت : هذه فلانة تذكر من صلاتها ، قال : « مه[1] عليكم بما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى تملوا » وكان أحب الدين اليه ما داوم صاحبه عليه • متفق عليه •

ومعنى « لا يمل الله » : أى لا يقطع ثوابه عنكم وجزاء أعمالكم ويعاملكم معاملة المال حتى تملوا فتتركوا •• فينبغى لكم أن تأخذوا ما تطيقون الدوام عليه •

وعن أنس رضى الله عنه ، قال : « جاء ثلاثة رهط الى بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبى صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالوها[2] ، وقالوا : أين نحن من النبى صلى الله عليه وسلم وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر • قال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبدا ، وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر أبدا ، ولا أفطر ، وقال الآخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا • فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم ، فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ •• أما والله انى لأخشاكم لله[3] وأتقاكم له لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » •

وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « هلك المتنطعون » قالها ثلاثا • رواه مسلم •

والمتنطعون : أى المتعمقون المشددون فى غير موضع التشديد •

وعن أنس رضى الله عنه قال : دخل النبى صلى الله عليه وسلم المسجد فاذا حبل ممدود بين الساريتين[4] فقال : « ما هذا الحبل » ؟ قالوا : هذا حبل لزينب فاذا فترت[5] تعلقت به • فقال النبى صلى

---

(١) مه : كلمة نهى وزجر . (٢) أى عدوها قليلة .
(٣) أى أخافه خوفا شديدا مقرونا بالشعور بعظمته سبحانه وتعالى .
(٤) عمودان من سوارى المسجد .
(٥) أى كسلت عن القيام فى الصلاة .

الله عليه وسلم : « حلوه .. ليصل أحدكم نشاطه فاذا فتر فليرقد » متفق عليـــه .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليـــه وسلم قال : « اذا نعس أحدكم وهو يصلى فليرقد حتى يذهب عنه النوم فانه اذا صلى وهو ناعس لا يدرى لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه » متفق عليـــه .

وعن أبى عبد الله جابر بن سمرة رضى الله عنهما قال : « كنت أصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم الصلوات فكانت صلاته قصدا[١] وخطبته قصدا »[٢] رواه مسلم .

وعن أبى جحيفة وهب بن عبد الله رضى الله عنه قال : « آخى[٣] النبى صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبى الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة[٤] فقال : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا . فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما[٥] فقال له : كل فانى صائم ، قال : ما أنا بآكل حتى تأكل .. فأكل . فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم فقال له : نم فنام . ثم ذهب يقوم فقال له : نم . فلما كان آخر الليل[٦] قال سلمان : قم الآن فصليا جميعا . فقال له سلمان : ان لربك عليك[٧] حقا ، وان لنفسك عليـــك[٨] حقا ، ولأهلك عليك[٩] حقا ، فأعط كل ذى حق حقه ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « صدق سلمان » رواه البخارى .

وعن أبى محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أنى أقول : والله لأصومن النهار ، ولأقومن

---

(١) قصدا : أى بين الطول والقصر .

(٢) أى يأتى بمكملات الخطبة ومسنوناتها من غير طول ولا قصر .

(٣) من المؤاخاة والمعاهدة على التناصر والقيام بحقوق الوالدين .

(٤) أى لابسة ثوب المتهنة البذلة تاركة ثياب الزينة والجمال .

(٥) اكراما له .

(٦) أى عند السحر .

(٧) أى من العبادة .

(٨) أى من الطعام الذى تقوم به بنيتها والمنـــام الذى يحصل به صحتها .

(٩) اتيانها وقضاء وطرها .

الليـــل ما عشت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنت الذى تقول ذلك » ؟ فقلت له : قد قلته بأبى أنت وأمى[١] يا رسول الله . قال : « فانك لا تستطيع ذلك ، فصم وأفطر ، ونم وقم ، وصم من الشهر ثلاثة أيام فان الحسنة بعشر أمثالها ، وذلك مثل صيام الدهر » ، قلت : فانى أطيق أفضل من ذلك . قال : « فصم يوما وأفطر يومين » . قلت : فانى أطيق أفضل من ذلك . قال : « فصم يوما وأفطر يوما فذلك صيام داوود صلى الله عليه وسلم وهو أعدل الصيام » — وفى رواية : « هو أفضل الصيام » — فقلت : فانى أطيق أفضل من ذلك : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا أفضل من ذلك » .

ولأن أكون قبلت الثلاثة أيام التى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الى من أهلى ومالى . اه .

وفى رواية : « ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل » ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : « فلا تفعل .. صم وأفطر ، ونم وقم : فان لجسدك عليك حقا ، وان لعينيك عليك حقا ، وان لزوجك عليك حقا ، وان لزورك عليك حقا ، وان بحسبك أن تصوم فى كل شهر ثلاثة أيام فان لك بكل حسنة عشر أمثالها فاذن ذلك صيام الدهر » فشددت فشدد على ، قلت : يا رسول الله .. انى أجد قوة ، قال : « صم صيام نبى الله داوود ولا تزد عليـــه » قلت : وما كان صيام داوود ؟ قال : « نصف الدهر » فكان عبد الله يقول بعد ما كبر : يا ليتنى قبلت رخصة رسول الله صلى الله عليـــه وسلم .

وفى رواية : « ألم أخبر أنك تصوم الدهر ، وتقرأ القرآن كل ليلة » ؟ فقلت : بلى يا رسول الله ، ولم أرد بذلك الا الخير . قال : « فصم صيام نبى الله داوود ، فانه كان أعبد الناس ، واقرأ القرآن فى كل شهر »[٢] قلت : يا نبى الله .. انى أطيق أفضل من ذلك ؟ قال : « فاقرأه فى كل عشر » قلت : يا نبى الله .. انى أطيق أفضل من ذلك ؟ قال : « فاقرأه فى كل سبع ولا تزد على ذلك » ، فشددت فشدد على وقال لى النبى صلى الله عليه وسلم : « انك لا تدرى لعلك يطول بك عمر » قال : فصرت الى الذى قال لى النبى صلى الله عليه

---

(١) أى أفديك بهما .

(٢) أى اختمه متهجدا بتلاوته .

وسلم . فلما كبرت وددت أنى كنت قبلت رخصة نبى الله صلى الله عليه وسلم .

وفى رواية : « وان لولدك عليك حقا » .

وفى رواية « لا صام من صام الأبد » ثلاثا .

وفى رواية « أحب الصيام الى الله تعالى صيام داوود ، وأحب الصلاة الى الله تعالى صلاة داوود : كان ينام نصف الليل[١] ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يوما ويفطر يوما ، ولا يفر اذا لاقى »[٢] .

وفى رواية قال : أنكحنى أبى امرأة ذات حسب[٣] وكان يتعاهد كنته — أى امرأة ولده — فيسألها عن بعلها[٤] فتقول له : نعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشا[٥] ولم يفتش لنا كنفا[٦] منذ أتيناه . فلما طال ذلك عليه ذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم . فقال : « القنى به » فلقيته بعد ، فقال : « كيف تصوم » ؟ قلت : كل يوم ، قال : « وكيف تختم » ؟ قلت : كل ليلة — وذكر نحو ما سبق — وكان يقرأ على بعض أهله السبع الذى يقرؤه يعرضه من النهار ليكون أخف عليه بالليل ، واذا أراد أن يتقوى أفطر أياما وأحصى وصام مثلهن كراهية أن يترك شيئا فارق عليه النبى صلى الله عليه وسلم .

كل هذه الروايات صحيحة معظمها فى الصحيحين وقليل منها فى أحدهما .

وعن أبى ربعى حنظلة بن الربيع الأسيدى الكاتب أحد كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « لقينى أبو بكر رضى الله عنه فقال : كيف أنت يا حنظلة ؟ قلت : نافق[٧] حنظلة ! قال : سبحان الله[٨] ما تقول ؟ قلت : نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا

---

(١) ليستريح البدن من تعب أعمال النهار .

(٢) أى اذا لاقى العدو فى الميدان .

(٣) أى ذات شرف . (٤) أى زوجها .

(٥) كناية عن المضاجعة والنوم معها على الفراش .

(٦) أى لم يكشف لنا سترا .. تريد بهذا امتناعه عن الجماع .

(٧) خاف على نفسه النفاق لما كان يحصل له من الخوف فى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم .. (٨) تنزيها لله وحده .

بالجنة والنار كأنا رأى عين ، فاذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عافسنا[١] الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرا . قال أبو بكر رضى الله عنه : فوالله انا لنلقى مثل هذا ، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت : نافق حنظلة يا رسول الله ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما ذاك » ؟ قلت : يا رسول الله .. نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأى العين فاذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات[٢] نسينا كثيرا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده أن لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة[٣] وساعة »[٤] ثلاث مرات . رواه مسلم .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بينما النبى صلى الله عليه وسلم يخطب اذا هو برجل قائم فسأل عنه ، فقالوا : أبو اسرائيل نذر أن يقوم فى الشمس ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه » رواه البخارى .

* * *

وهكذا — كما رأيت أخا الاسلام — كان النبى صلى الله عليه وسلم يخطط لأصحابه بل لكل فرد من أفراد أمته الى أن يرث الله الأرض ومن عليها « برنامج » بكل تيسير لا تعقيد فيه ولا تعجيز حتى يستطيعوا أن يواصلوا العمل لدنياهم وأخراهم لأن الله تعالى كما يقول عن نفسه فى قرآنه : لا يكلف نفسا الا وسعها[٥] .

مع ملاحظة أن العبرة ليست بكثرة العمل ولكن بالمداومة عليه وان قل — كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث شريف — .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من نام عن حزبه من الليل أو عن شىء منه فقرأه

---

(١) أى مارسنا . (٢) الضيعات : أى المعايش .
(٣) أى زمنا لأداء العبادة .
(٤) أى ووقتا للقيام بما يحتاجه الانسان .
(٥) قال تعالى فى سورة البقرة : ٢٨٦ : « .. **لا يكلف الله نفسا الا وسعها** .. » .

ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل » رواه مسلم .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عبد الله .. لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليـــل » متفق عليه .

وعن عائشة رضى الله عنها ، قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا غلبته الصلاة من الليـــل[1] من وجع أو غيره صلى من النهار ثنتى عشرة ركعة » رواه مسلم .

وهذا أيضا أخا الاسلام يشير الى ملاحظة هامة أرجو أن تنتفع بها ، وهى : أنك اذا كنت متعبا أو مشغولا بأمر من الأمور الدينية أو الدنيوية أو المعيشية ولم تستطع فعل ما اعتدت فعله فى وقت محدد فانك تستطيع تدارك هـــذا بفعل ما أشار اليه الرسول صلى الله عليـــه وسلم فى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـــ السابق ـــ بل وبالنية الصادقة لن تحرم ان شاء الله تعالى من الثواب :

فعن أبى عبد الله جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنهما قال : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى غزاة[2] فقال : « ان بالمدينة لرجالا ما سرتـــم مسيرا ، ولا قطعتم واديـــا الا كانوا معكم[3] حبسهم[4] المرض » .

وفى رواية : « الا شركوكم فى الأجر » رواه مسلم . ورواه البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : رجعنا من غزوة تبوك مع النبى صلى الله عليـــه وسلم ، فقال : « ان أقواما خلفنا[5] بالمدينة ما سلكنا شعبا ولا واديـــا الا وهم معنا ، حبسهم العذر » .

* * *

وهناك ملاحظة أخرى أرجو كذلك أخا الاسلام أن تنتفع بها ، وهى أن العبرة ليست ـــ فقط ـــ بكثرة الأعمال وانما هى بالاضافة الى الأساسيات التى فرضها الله عليك وعلينا : سلامة الصدر وحسن الخلق :

فعن أنس بن مالك ، قال : كنا جلوسا عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يطلع الآن عليـــكم رجل من أهل الجنـــة ، فطلع رجل من

---

(١) أى تهجد الليل .
(٢) أى غزوة تبوك .
(٣) أى فى الأجر وادراك الثواب .
(٤) أى منعهم .
(٥) أى وراءنا .

الأنصار ، تنطف لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه بيده الشمال .. فلما كان الغد قال النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان اليوم الثالث قال النبى مثل مقالته أيضا ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى . فلما قام النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ تبعه عبد الله بن عمرو ــ تبع الرجل ــ فقال : انى لاحيت أبى ، فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثا . فان رأيت أن تؤوينى اليك حتى تمضى فعلت ! قال : نعم .

قال أنس : فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالى ، فلم يره يقوم من الليل شيئا ، غير أنه اذا تعار ــ أى تقلب فى فراشه ــ ذكر الله عز وجل حتى ينهض لصلاة الفجر .. قال عبد الله : غير أنى لم أسمعه يقول الا خيرا .

فلما مضت الليالى الثلاث وكدت أحتقر عمله ، قلت : يا عبد الله .. لم يكن بينى وبين أبى غضب ولا هجرة ، ولكنى سمعت رسول الله يقول لك ــ ثلاث مرات ــ يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلعت أنت الثلاث المرات فأردت أن آوى اليك ، فأنظر ما عملك فأقتدى بك . فلم أرك عملت كبير عمل !! فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ؟ قال : ما هو الا ما رأيت . قال عبد الله : فلما وليت دعانى فقال : ما هو الا ما رأيت ، غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشا ، ولا أحسد أحدا على خير أعطاه الله اياه . فقال عبد الله : هذه التى بلغت بك »!![1] .

وفى رواية : « ما هو الا ما رأيت يا ابن أخى ، الا أنى لم أبت ضاغنا على مسلم »[2] .

فاذكر كل هذا أخا الاسلام حتى لا تكون من هؤلاء الذين يتكلون على كثرة أعمالهم أو الذين يظنون أن الأعمال هى كل شىء .. مع أنه من المفروض أن لا يتكل الانسان على أعماله .. بل مع الأعمال الصالحة لابد وأن يعتبر نفسه مقصرا فى طاعة الله تعالى .. وأنه ليس بفرض على الله تعالى ــ ان كان مؤديا للأعمال الصالحة ــ أن يدخله الجنة .. فان أدخله الجنة فبفضله ، وان أدخله النار فبعدله .. وقد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول لأصحابه :

---

(١) رواه أحمد. (٢) أخرجه البزار .

« لا يدخل أحدكم الجنـــة بعمله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا الا أن يتغمدنى الله برحمته »[١] .

ورحمة الله تعالى .. ليست الا لهؤلاء الذين تحدث الله سبحانه وتعالى عنهم فى قوله :

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أوليـــاء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله .. »[٢] .

وهم أيضا المشار اليهم فى قول الله تعالى :

« .. ورحمتى وسعت كل شىء »[٣] : وهذه الآية لم تنته عند هـــذا الحد .. لأنها لو انتهت عند هذا لجاز لابليس عليـــه لعنة الله أن يطالب بدخول الجنة لأنه شىء من الأشياء .. واذا كان كلام الملوك لا يرد ، فما بالك بكلام ملك الملوك سبحانه وتعالى .. ولهذا فقد قال الله تعالى بعد ذلك ــ وفى نفس الآية[٤] ــ : **« فسأكتبها »** أى الرحمة : **« للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون »**[٥] .

وفى الحديث القدسى يقول تبارك وتعالى : « ما أقل حياء من يطمع فى جنتى بغير عمل .. كيف أجود برحمتى على من بخل بطاعتى » :

فمع العمل الصالح كما علمت تستطيع أن ترجو رحمة الله تعالى .. مع عدم الاتكال على هذا العمل حتى لا يكون مدخلا للشيطان الى قلبك وسببا فى قصورك أو تقصيرك بعد ذلك .

وليكن هدفك الأسمى هو أن يرضى الله تعالى عنك وأن يختم لك بالايمان ، حتى تكون من الذين أراد الله تعالى بهم خيرا .. فقد ورد فى الحديث الشريف :

« اذا أراد الله بعبد خيرا استعمله .. قيل : وكيف يستعمله يا رسول الله ؟ قال : يوفقه لعمل صالح قبل الموت ثم يقبضه عليه » .

---

(١) كما قال صلوات الله وسلامه عليه فى حديث صحيح .
(٢) التوبة : ٧١
(٣) الأعراف : ١٥٦
(٤) الأعراف : ١٥٦
(٥) الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧

واذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال بعد ذلك فى نص الوصية — التى ندور حولها — « وأبشروا » : فانه يريد من كل مؤمن مخلص صادق أن يكون مستبشرا وأن لا ييأس أبدا من رحمة الله تعالى ، لأنه : **« .. لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون »**(١) ، وحسبه أن يعلم أنه ما دام سليم العقيدة .. فان الله تعالى سيغفر له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر .. وما دام قد صدق فى توبته على أساس من الشروط التى ذكرها الامام النووى فى كتابه « رياض الصالحين » حيث يقول(٢) :

قال العلماء : التوبة واجبة من كل ذنب فان كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمى فلها ثلاثة شروط : أحدها : أن يقلع عن المعصية ، والثانى : أن يندم على فعلها ، والثالث : أن يعزم أن لا يعود اليها أبدا ، فان فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته . وان كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة . هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها . فان كانت مالا أو نحوه رده اليه ، وان كان حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه ، وان كان غيبة استحله منها . ويجب أن يتوب من جميع الذنوب ، فان تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب وبقى عليه الباقى . ثم يقول : وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة واجماع الأمة على وجوب التوبة .

قال الله تعالى : **« وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون »**(٣) .

وقال تعالى : **« .. فاستغفروه ثم توبوا اليه »**(٤) .

وقال تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا »**(٥) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « والله انى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة »(٦) .

وعن الأغر بن يسار المزنى رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله

---

(١) يوسف : ٨٧
(٢) فى باب التوبة .
(٣) النور : ٣١
(٤) هود : ٦١
(٥) التحريم : ٨
(٩) رواه البخارى .

صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس .. توبوا الى الله واستغفروه فأنى أتوب فى اليوم مائة مرة »[١] .

وعن أبى موسى عبد الله بن قيس الأشعرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « ان الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »[٢] .

واذا كانت التوبة واجبة ــ كما قال العلماء ــ فاننى أحب أن أذكرك ــ والشىء بالشىء يذكر ــ بأن هناك ما هو أوجب منها .. كما أشار الى هذا الشافعى رضى الله عنه عندما سئل عن ثمانية أمور : عن الواجب والأوجب ، والعجيب والأعجب ، والصعب والأصعب ، والقريب والأقرب ؟ فأجاب بقوله :

من واجب الناس أن يتوبوا ... لكن ترك الذنوب أوجب
والدهر فى صرفه عجيب ... وغفلة الناس عنه أعجب
والصبر فى النائبات صعب ... لكن فوات الثواب أصعب
وكل ما ترتجى قريب ... والموت من دون ذاك أقرب

فلابد اذن لكى تكون صادقا فى توبتك أن تحقق الواجب والأوجب : وذلك بترك المعاصى والمخالفات .. والتقرب الى الله تعالى بفعل الصالحات التى تؤكد صدق توبتك وصدق رجوعك الى الله تبارك وتعالى الذى يقول : « **ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا** »[٣] .

ثم اليك بعد ذلك الحديث القدسى الذى أردت أن أذكرك به فى أول حديثى عن التوبة ، وهو :

عن أنس رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يقول : « قال الله تعالى : يا ابن آدم .. انك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى . يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك . يا ابن آدم .. انك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة » رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وقد كان أحد الصالحين يشير الى هذا المعنى الكبير فى قوله :

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه مسلم .
(٣) الفرقان : ٧١

يا رب ان ذنوبى فى الورى كثرت
وليس لى عمل فى الحشر ينجينى
وقـد أتيتـك بالتوحيـد يصحبه
حب النبى وهـذا القدر يكفينى

فلتكن مستبشراً على هذا الأساس الذى وقفت عليه : ما دمت موحدا ، وما دمت محبا للحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه الذى يقول : « من أحيا سنتى فقد أحبنى ومن أحبنى كان معى فى الجنـة »(١) . وحسبك هذا ..

* * *

واعلم أن جميع البشائر الواردة فى القرآن الكريـم وفى السنة المحمدية ما كانت الا على هـذا الأساس الذى أشرت اليه ..

ففى القرآن الكريم يقول تبارك وتعالى : **« وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هـذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ، ولهم فيها أزواج مطهرة ، وهم فيها خالدون »**(٢) .

ويقـول : **« نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ، وقدموا لأنفسكم ، واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه ، وبشر المؤمنين »**(٣) .

ويقـول : **« الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبدا ، ان الله عنده أجر عظيم »**(٤) .

ويقـول : **« .. وبشر الذين آمنـوا أن لهم قـدم صـدق عند ربهم .. »**(٥) .

ويقـول : **« ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنـوا وكانوا يتقـون . لهم البشرى فى الحيـاة الدنيـا وفى الآخرة .. »**(٦) .

ويقـول : **« .. وبشر المحسنين »**(٧) .

---

(١) كما ورد عنه صلوات الله وسلامه عليه .

(٢) البقرة : ٢٥ (٣) البقرة : ٢٢٣

(٤) التوبة : ٢٠ ــ ٢٢ (٥) يونس : ٢

(٦) يونس : ٦٢ ــ ٦٤ (٧) الحج : ٣٧

ويقـــول : « **وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا** »[١] .
مع ملاحظة أنه اذا كان الله تعالى قد قال فى قرآنه :
« **بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما** »[٢] .
« **وبشر الذين كفروا بعذاب أليم** »[٣] .
« .. **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليـــم** »[٤] .

فان المراد كما يقول الطبرى : أصل البشارة الخبر السار الذى يسر به المخبر ، أقول : ولهـــذا لا تكون البشارة الا فى الخير ، فاذا استعملت فى الشر كان ذلك من باب التهكم والسخرية كقوله تعـــالى : « **فبشرهم بعذاب أليـــم** » .

وفى السنة المطهرة ورد عن بريدة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليـــه وسلم ، قال : « بشروا المشائين فى الظلم[٥] الى المساجد بالنور التام يوم القيامة »[٦] رواه أبو داوود ، والترمذى .
فلتذكر كل هذا أخا الاسلام واعمل على أن تكون من المؤمنين المتقين المبشرين « **فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** »[٧] :

ففى القرطبى حول قوله تعـــالى : « **لهم البشرى فى الحيـــاة الدنيـــا** »[٨] ، ذكر ما يلى : عن أبى الدرداء ، قال : سألت رسول الله صلى الله عليـــه وسلم عنها ، فقال : « ما سألنى أحد عنها غيرك منذ أنزلت : هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له » خرجه الترمذى فى جامعه .
وقال الزهرى وعطاء وقتادة : هى البشارة التى تبشر بها الملائكة المؤمن فى الدنيا عند الموت .
وعن محمد بن كعب القرظى قال : اذا استنقعت[٩] نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت ، فقال : « السلام عليك ولى الله ، الله يقرئك

---

(١) الأحزاب : ٤٧
(٢) النساء : ١٣٨
(٣) التوبة : ٣
(٤) التوبة : ٣٤
(٥) أى ظلمة العشاء والفجر .
(٦) أى على الصراط .
(٧) يونس : ٦٤
(٨) يونس : ٦٤
(٩) أى اذا اجتمعت فيه تريد الخروج كما يستنقع المـــاء فى قراره ، وأراد بالنفس الروح . (ابن الأثير) .

السلام » ثم نزع بهذه الآية : « **الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ..** »[١] . ذكره ابن المبارك .

وقال قتادة والضحاك : هى أن يعلم أين هو من قبل أن يموت .

وقال الحسن : هى ما يبشرهم الله تعالى فى كتابه من جنته وكريم ثوابه ، لقوله : « **يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان** »[٢] .

وقوله : « **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات ..** »[٣] .

وقوله : « **وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون** »[٤] .

ولهذا قال : « **لا تبديل لكلمات الله** »[٥] . أى لا خلف لمواعيده ، وذلك لأن مواعيده بكلماته . ثم يقول القرطبى : « **وفى الآخرة** » : قيل : بالجنة اذا خرجوا من قبورهم . وقيل : اذا خرجت الروح بشرت برضوان الله . وذكر أبو اسحاق الثعلبى : سمعت أبا بكر محمد ابن عبد الله الجوزقى يقول : رأيت أبا عبد الله الحافظ فى المنام راكبا برذونا عليه طيلسان وعمامة ، فسلمت عليه وقلت له : أهلا بك ، انا لا نزال نذكرك ونذكر محاسنك ، فقال : ونحن لا نزال نذكرك ونذكر محاسنك ، قال الله تعالى : « **لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** »[٦] الثناء الحسن ، وأشار بيده « **لا تبديل لكلمات الله** »[٧] أى : لا خلف لوعده . وقيل : لا تبديل لأخباره ، أى لا بنسخها بشىء ، ولا تكون الا كما قال : « **ذلك هو الفوز العظيم** »[٨] أى : ما يصير اليه أوليـاؤه فهو الفوز العظيم .

جعلنى الله تعالى واياك بكل تلك البشريات العظيمة من أهل هذا الفوز العظيم .

* * *

ثم اذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول بعد قوله : « وأبشروا » ، « واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة » :

فان المراد من هذا التوجيه المحمدى أن ينظم الانسان وقته وبالصورة التى يستطيع من خلالها أن يعطى للجسد حقه :

---

(١) النحل : ٣٢
(٢) التوبة : ٢١
(٣) البقرة : ٢٥
(٤) فصلت : ٣٠
(٥) يونس : ٦٤
(٦) يونس : ٦٤
(٧) يونس : ٦٤
(٨) يونس : ٦٤

ففى « فتح البارى » يقول شارحا هـذا : أى استعينوا على مداومة العبادة بايقاعها فى الأوقات المنشطة • والغدوة بالفتح سير أول النهار ، وقال الجوهرى : ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس • والروحة بالفتح السير بعد الزوال • والدلجة بضم أوله وفتحه واسكان اللام سير آخر الليل ، وقيل سير الليل كله ، ولهذا عبر فيه بالتبعيض ، ولأن عمل الليل أشق من عمل النهار • وهذه الأوقات أطيب أوقات المسافر ، وكأنه صلى الله عليـه وسلم خاطب مسافرا الى مقصد فنبهه على أوقات نشاطه ، لأن المسافر اذا سافر الليل والنهار جميعا عجز وانقطع ، واذا تحرى السير فى هـذه الأوقات المنشطة أمكنته المداومة من غير مشقة • وحسن هـذه الاستعارة أن الدنيا فى الحقيقة دار نقلة الى الآخرة ، وأن هـذه الأوقات بخصوصها أروح ما يكون فيها البدن للعبادة • وقوله فى رواية ابن أبى ذئب « القصد القصد » بالنصب فيهما على الاغراء ، والقصد الأخذ بالأمر الأوسط •• فأراد أن يبين أن الأولى للعامل بذلك أن لا يجهد نفسه بحيث يعجز وينقطع ، بل يعمل بتلطف وتدريج ليدوم عمله ولا ينقطع •

فلاحظ كل هـذا أخا الاسـلام حتى لا تكون من أهل الشطط •• فقد قرأت أن رجلا قال لابن عباس رضى الله عنهما : ان العرب تقول : حب التناهى شطط ، خير الأمور الوسط •• فهل هذا موجود فى القرآن ؟ قـال : نعم فى أربعة مواضع •• فى قوله تعالى فى وصف بقرة موسى : **« قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ، قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك »**[1] ، أى : وسط بين الكبر والصغر فى السن • وفى قولـه تعـالى : **« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطهـا كل البسط »**[2] ، أى : فتوسط بين الأمرين فى الانفاق • وفى قوله تعالى : **« ولا تجهر بصـلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سـبيلا »**[3] ، وهذا السبيل هو الوسط فى القراءة • وفى قوله تعالى فى مدح المعتدلين من كرماء المؤمنين : **« والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما »**[4] ، أى : وسطا فى المعيشة •

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قالَ : قالَ رسولُ الله صلى الله عليه

---

(١) البقرة : ٦٨ (٢) الاسراء : ٢٩
(٣) الاسراء : ١١٠ (٤) الفرقان : ٦٧

وسلم : « خير الأمور أوساطها » ذكره الحافظ عبد العظيم المنذرى فى الترهيب من ترك السنة عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، وفيه : « من كانت فترته الى غير ذلك فقد هلك » وقال : رواه ابن أبى عاصم ابن حبان فى صحيحه ، ورواه ابن حبان أيضا من حديث أبى هريرة .

وفى « جامع الأصول »[1] لابن الأثير (ج ١) قال شارح هذا الحديث ــ فى الهامش ــ :

معناه : أن كل خصلة محمودة ، فان لها طرفين مذمومين ، مثل السخاء وسط بين البخل والتبذير . والشجاعة ، وسط بين الجبن والتهور ، والانسان مأمور أن يتجنب كل وصف مذموم ، وتجنبه بالتعرى منه ، والتباعد عنه ، فكلما ازداد منه ، فقد ازداد منه تقربا ، وأبعد الجهات والأماكن والمقادير من كل طرفين ، فانما هو وسطها ، لأن الوسط أبعد الجهات من الأطراف ، وهو غاية البعد عنها ، فاذا كان الوسط فقد تعدى عن الأطراف المذمومة بقدر الامكان ، فلهذا كان خير الأمور أوساطها منه .

* * *

ولهذا ، فقد جعل الله تعالى أمتنا ــ المحمدية ــ أمة وسطا .. قال تعالى : « **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** »[2] :

قال القرطبى ــ فى المسألة الأولى ــ قوله تعالى : « **وكذلك جعلناكم أمة وسطا** » ، المعنى : وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطا ، أى جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم . والوسط العدل . وأصل هذا أن أحمد الأشياء أوسطها .

وقال ــ فى المسألة الثانية ــ : قوله تعالى : « **لتكونوا شهداء على الناس** » ، أى فى الحشر للأنبياء على أممهم ، كما ثبت فى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يدعى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يا رب . فيقول : هل بلغت ؟ فيقول : نعم . فيقال لأمته : هل بلغكم ؟

---

(١) طبعة دار احياء التراث العربى ــ بيروت .

(٢) البقرة : ١٤٣

فيقولون : ما أتانا من نذير • فيقول : من يشهد لك • فيقول : محمد وأمته • فيشهدون أنه قد بلغ ويكون الرسول عليكم شهيدا ، فذلك قوله عز وجل : « **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** »(١) .

وقال ــ فى المسألة الثالثة ــ : قال علماؤنا : أنبأنا ربنا تبارك وتعالى فى كتابه بما أنعم علينا من تفضيله لنا باسم العدالة وتوليــة خطير الشهادة على جميع خلقه ، فجعلنا أولا مكانا وان كنا آخرا زمانا ، كما قال عليــه الصلاة والسلام : « نحن الآخرون الأولون » • وهذا دليــل على أنه لا يشهد الا العدول ، ولا ينفذ قول الغير على الغير الا أن يكون عدلا ..

فلتكن أخا الاسلام مدركا لأبعاد هــذا حتى تكون عدلا مع نفسك فلا تكلفها ما لا تطيق •

جعلنى الله تعالى واياك من المنفذين لوصية الرسول صلى الله عليه وسلم الذى صدق فيه قول الله عز وجل : « **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليــه ما عنتم حريص عليــكم بالمؤمنين رؤوف رحيــم** »(٢) :

آمين .. آمين .. آمين •

* * *

تم بحمد الله طبع المجلد الثانى « من وصايا الرسول » للأستاذ الشيخ طــه عبد الله العفيفى ويشتمل على الأجزاء من الحادى عشر حتى العشرون بمطابع دار التراث العربى للطباعة والنشر ، لصاحبها « أحمد حمــدى أحمد شعبان » فى يوم الاثنين غرة رمضان ١٤٠٥ هـ الموافق ٢٠ مايو ١٩٨٥ م ، وسيليه ــ باذن الله ــ المجلد الثالث الذى يستكمل شرح المائة وصية ..

وقام بمراجعة آياته وتصحيحه : العبد الفقير الى الله تعالى ، راجى عفوه وغفرانه « محمد الأنور أحمد البلتاجى » ، سائلا المولى سبحانه وتعالى ان يجعل عمله فى ميزان حسناته « **يوم لا ينفع مال ولا بنون ، الا من أتى الله بقلب ســليم** » .

وجزى الله صاحبه ــ الذى اجتهد فأصاب ــ أفضل ما جزى به عباده المؤمنين ، ونسأله تعالى أن ينفع به وبكتابه المسلمين .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

---

(١) البقرة : ١٤٣ (٢) التوبة : ١٢٨

محتويات الكتاب

الصفحة

الاهـــــداء ٣

تقـــــديم ٥

الجزء الحادى عشر
(٩ ــ ٨١)

الوصية الخامسة والثلاثون : « سافروا تصحوا ، واغزوا تستغنوا » : تعريف السفر ، أقسام السفر ، فضل طلب العلم النافع ، فضل الحج والجهاد ، فضل سفر التجارة والكسب ، تعليق حول ما وقفنا عليه : منشأ الكسل ، مضار الكسل ، فوائد الرياضة البدنية ، تأثير الرياضة فى النفس ، غزوة الخندق ، غزوة خيبر ، التجارة ، شروط التجارة ، الصناعة ، اشتغال العلماء والأنبياء بالصناعة ، الزراعة ، الكنز المدفون ٩

الوصية السادسة والثلاثون : « السفر قطعة من العذاب .. » : السفر قطعة من العذاب ، فضل السفر وآدابه ، اذكار السفر ، المسح على الخفين ، ما يبطل المسح على الخفين ، التيمم بالتراب بدلا من الماء عند العذر ، مبطلات التيمم ، قصر الصلاة الرباعية المفروضة فى السفر ، شروط صحة القصر ، مسافة القصر ، مدة القصر ، اقتداء المسافر بالمقيم ، صلاة التطوع فى السفر ، الجمع بين الصلاتين فى السفر ، الجمع بعرفة والمزدلفة ، الجمع فى السفر الطويل ، الجمع فى حال وجود المطر أو توقعه ، الجمع بسبب المرض أو العذر ، التنفل راكبا ، التنفل ماشيا ، الصلاة فى السفينة والقاطرة والطائرة ، الفطر فى رمضان ، حكم سفر المرأة ، آداب الرجوع من السفر ٤٠

الجزء الثانى عشر
(٨٢ ــ ١٥٩)

الوصية السابعة والثلاثون : « اتق الله حيثما كنت .. » : حق الله ، حق المكلف ، حق العباد ٨٢

الصفحة

الوصية الثامنة والثلاثون : « أن الله فرض فرائض .. » : الفرائض ، حكم الاستنجاء ، حكم الوضوء ، حكم الغسل ، حكم التيمم ، الصلاة ، صلاة الجمعة ، الصلاة على الجنازة ، الزكاة ، صوم رمضان ، الحج ، الجهاد فى سبيل الله ، المواريث ، رد السلام ، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، البر بالوالدين ، الحدود ، المحارم ، ما هو الحلال وما هو الحرام والمتشابه ١١٧

الجزء الثالث عشر
(١٦٠ ــ ٢٥٢)

الوصية التاسعة والثلاثون : « أيها الناس .. اياكم وشرك السرائر » : انواع الشرك ، الشرك الأكبر ، الشرك الأصغر ، الشرك الخفى ، التحذير من الرياء ، الترغيب فى الاخلاص فى الأعمال ١٦٠

الوصية الأربعون : « أيها الناس .. اتقوا هذا الشرك .. » : الشرك أخفى من دبيب النمل ، افراد الله وحده بالعبادة ، ما يحيط العمل من الرياء الخفى والجلى وما لا يحبط ١٦٩

الوصية الحادية والأربعون : « تعلموا العلم .. » : العلم والمعرفة شرط لخشية الله ، العارفون بالله هم العلماء الحقيقيون ، الحض على السكينة والوقار لمن يطلب العلم ، الحض على التواضع فى طلب العلم ، قصة موسى عليه السلام مع الخضر ١٧٦

الوصية الثانية والأربعون : « اياكم والتعريس على جواد الطريق » : النهى عن النوم والاستراحة آخر الليل والتخلى على الطرق ، الترغيب فى اماطة الأذى عن الطريق ، النهى عن الصلاة فى عرض الطريق ، الأمر بقتل الحيات والحشرات المؤذية فى الصحارى والطرق . . ١٨٦

الوصية الثالثة والأربعون : « استقيموا ولن تحصوا .. » : اتصاف الله تعالى بالصفات الجليلة القديمة الثابتة : اتصافه تعالى بالوجود ، والقدم ، والبقاء ، ومخالفته للحوادث ، وقيامه بنفسه ، والوحدانية فى الذات والصفات والأفعال ، والحياة ، والعلم ، والارادة ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، الأمر بالاستقامة فى جميع الأمور ، الصلاة هى خير الأعمال ، الصلاة هى الحد الفاصل بين المسلم والكافر ، اعطاء الصلاة حقها ، الحض على الحفاظ على الوضوء ، الوضوء لكل صلاة ، الوضوء لذكر الله ، الوضوء لتناول ما مسته النار ، الوضوء للنوم ، وضوء الجنب للأكل والشرب ، الوضوء لمعاودة الجماع ، الوضوء قبل الغسل ، الوضوء من حمل الميت ، الوضوء للغضب ، الوضوء للخروج من خلاف العلماء ، نواقض الوضوء عند الائمة الأربعة ، الوضوء يكفر الذنوب . . ١٩٦

الصفحة

الوصية الرابعة والأربعون : « تسوكوا فان السواك مطهرة للفم .. » : حكم السواك ، آلة التسوك ، كيفيته ، الاستياك بسواك الغير ، تنظيف السواك ، السواك للصائم ٢٢٢

الوصية الخامسة والأربعون : « اذا سمعتم المؤذن ، فقولوا مثل ما يقول .. » : حكاية الأذان ، حكاية الاقامة ، الدعاء بين الأذان والاقامة ، الوسيلة ، التوسل بالصالحين ٢٣١

الجزء الرابع عشر
(٢٥٣ ــ ٣٠٥)

الوصية السادسة والأربعون : « ابنوا المساجد ، واخرجوا القمامة منها .. » : فضل بناء المساجد فى الأمكنة المحتاجة اليها ، فضل اتيان المساجد ، ما يقال عند الخروج الى المسجد ، ما يسن لمن أراد دخول المسجد ، ما يقال عند دخول المسجد والخروج منه ، تحية المسجد ، الجلوس فى المسجد للطاعة ، ما تصان عنه المساجد ، بدع المساجد . . . ٢٥٣

الوصية السابعة والأربعون : « عليك بكثرة السجود .. » : كثرة السجود ــ فرضا ونفلا ــ من الأعمال الموصلة للجنة ، الصلوات الخمس والجمعة ، التطوع ، الوتر ، قيام الليل ، صلاة الضحى ، صلاة التسبيح ٢٨١

الجزء الخامس عشر
(٣٠٦ ــ ٣٧٨)

الوصية الثامنة والأربعون : « عليكم بذكر ربكم .. » : المواظبة على الذكر والاكثار منه ، تفضيل الذكر على الجهاد ، حد الذكر الكثير ، قراءة القرآن والاستماع اليه بانصات والتدبر فى معانيه ودراسة مقاصده والوقوف على ما فيه من أوامر ونواه ، أفضل الأماكن لتلاوة القرآن ، الأماكن التى تحرم فيها التلاوة ، الأوقات التى يكون للقراءة فيها مزيد فضل ، استحباب الجلوس فى حلقات الذكر ، أفضل الأذكار بعد القرآن ، كلمة التوحيد ، كيفية الذكر وفضله ، فضل التسبيح والتهليل والتكبير وغير ذلك ، الذكر المضاعف وجوامعه ، فضل الدعاء ، فضل الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، صيغة الصلاة والسلام عليه ، الصلاة فى أول الوقت ، وقت الظهر ، وقت العصر ، وقت المغرب ، وقت العشاء ، وقت الصبح ، ما هى الصلاة الوسطى ؟ ، صلاة الجماعة ٣٠٦

الصفحة

الوصية التاسعة والأربعون : « اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم .. » : أفضلية صلاة التطوع فى البيت على المسجد ، فى أذكار الخروج من المنزل ، فى أذكار دخول المنزل ، الأذكار التى تطرد الشياطين ، مكان التطوع ، صلاة التطوع جماعة ، صلاة التطوع قائما وقاعدا ، الأوقات المنهى عن التنفل فيها ٣٥٧

الجزء السادس عشر

(٣٧٩ ــ ٤٠٧)

الوصية الخمسون : « اذا أويت الى فراشك فقل .. » . ٣٧٩

الوصية الواحدة والخمسون : « اتقى الله يا فاطمة ، وأدى فريضة ربك . » : هديه صلى الله عليه وسلم فى معاشرة أهله ، عورة النساء ٣٨٩

الجزء السابع عشر

(٤٠٨ ــ ٤٩٣)

الوصية الثانية والخمسون : « أطعم الطعام ، وأفش السلام .. » : اطعام الطعام ، الجود والكرم ، افشاء السلام ، السلام قبل الكلام ، السلام على الأهل ، السلام على الصبيان والنساء ، تبليغ السلام ، بيان ما يكره فى السلام ، السلام على أهل الكتاب ، حكم السلام ورده ، صلة الأرحام ، باب القرابات والولد ، الصلاة بالليل والناس نيام ، فضل قيام الليل ٤٠٨

الوصية الثالثة والخمسون : « عليكم بقيام الليل .. » : فضل قيام الليل ، بيان الأسباب التى بها يتيسر قيام الليل ، بيان طرق القسمة لأجزاء الليل ، بيان الليالى والأيام الفاضلة . . . ٤٥٤

الوصية الرابعة والخمسون : « ما يمنعك ان تسمعى ما أوصيك به » : احياء الأموات بالايمان ، صفات عباد الرحمن ، النهى عن اليأس من رحمة الله ، تفويض جميع الأمور الى الله تعالى ، فضل التوكل على الله تعالى ، السعى فى سبيل الرزق مع التوكل على الله تعالى . . ٤٧٣

الجزء الثامن عشر

(٤٩٣ ــ ٥٨٤)

الوصية الخامسة والخمسون : « من استعاذ بالله فاعيذوه .. » : الفتح الأعظم ، حرم الله الظلم على نفسه وجعله حراما بيننا ، حكم اجابة الدعوة ، آداب اجابة الدعوة الى الطعام ، آداب الحضور لمنزل الداعى والجلوس فيه ، من يعتمد فى الحاجة ويستسعى فيها ، الاجابة الى الحاجة والرد عنها ، الترغيب فى قضاء الحاجة واصطناع المعروف ، مشروعية الهدايا ٤٩٣

الصفحة
الوصية السادسة والخمسون : « ان الدنيا حلـوة خضرة .. » :
التحذير من زهرة الدنيـا وزينتها ، النهى عن الانهماك فى طلب الدنيـا ، التحذير من الافتتان بالنساء ، ما يخرج المرأة عن حد التبرج . . ٥٥٥

الجزء التاسع عشر
(٥٨٥ ــ ٦٧٩)

الوصية السابعة والخمسون : « اتقوا الله ، وصلوا خمسـكم .. » :
أول عناصر التقوى : الخوف من الجليل ، العنصر الثانى : العمل بالتنزيل ، العنصر الثالث : الاستعداد ليوم الرحيل ، حكمة تفريق الصلوات الخمس على ساعات النهـار والليـل ، الصلاة تنهى عن الفحشـاء والمنكر ، الصلاة مكفرة للذنوب ، اجتناب الكبائر ، الصيام وأحكامه ، من آداب الصيام ، مصارف الزكاة ، زكاة الذهب والفضة ، زكاة العملات التجارية ، زكاة أوراق البنكنوت ، كيف تحسب زكاة العملة ، زكاة الحلى ، الحلى من الجواهر ، زكاة الدين ، زكاة عروض التجارة ، زكاة التأمين النقدى ، زكاة العقار ، زكاة الأسهم ، زكاة الزروع والثمار ، الأصناف التى تزكى ، نصاب الزكاة ، المقدار الواجب اخراجه ، ضريبة الأرض والزكاة ، زكاة الأنعام ، نصاب زكاة البقر والابل والغنم ، طاعة الأمراء ، نصح الأمراء بالحكمة والموعظة الحسنة ، وعظ العلماء للأمراء ٥٨٥

الجزء العشرون
(٦٨٠ ــ ٧٧٠)

الوصية الثامنة والخمسون : « قاربوا وسددوا .. » : التوسط فى الأشياء وما يكره من التقصير فيها والغلو ، التوسط فى الدين ، التوسط فى المداراة والحلم ، التوسط فى العقل والرأى ، من رسالة تضمنت وعظ ملك ، فضيلة الرجاء والترغيب فيه ٦٨٠
الوصية التاسعة والخمسون : « المؤمن القوى خير واحب الى الله » :
القوة ، تقوية الجسـم ، من هدى الرسول فى حفظ الصحة ، هديـه فى هيئـة الجلوس للأكل ، هديـه فى الشراب ، التوكل هو اتباع الطريق المستقيم ، الرزق ، القضاء والقدر ٦٩٨
الوصية الستون : « ان الدين يسر .. » : الأعذار المبيحة للفطر ، الاقتصاد فى الطـاعة ٧٤٨
محتـويات الكتـاب ٧٧١

* * *